حسن الترابي

التفسير التوحيدي



الجزء الأول

من سورة الفاتحة إلى سورة التوبة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة في منهج التفسير التوحيدي

الإجتهاد في تفسير القرآن لافكاك له من منهج التوحيد . ذلك لأن الدين كله يتأسس على الإيمان بوحدانية الله عقيدةً يبلُغها الإنسان من تعرّف الآيات في ظواهر الكون المتفرّقة المشهودة وفى حادثات الحياة المضطربة ببلاءاتها ، تذكّره الآيات البينات المنزلة تهديه ليجعل حياته عبادة خالصة لله رباً واحداً لايشوبها بإشراك أرباب أو تعلقات دونه . ولأن القرآن وحياً منه تعالى يخاطب الإنسان بأسلوب ونهج متسق موحّد لا يعتريه اختلاف ، لتقوم حياته موحدة وفاقاً لما حوله من أقدار الله المحيطة على سبيل قاصد إلى الله الصمد لا تصرفه عنه ضلالة . ومن ثمّ ينبغى أن يتخذ المؤمن فى تفسيره القرآن بنهج البيان التوحيدى لذلك الهدى المستقيم .

التفسير التوحيدى ولغة القرآن :

القرآن كتاب عربى مبين يُقرأ صوته بلسان عربى ويبين معناه باللغة العربية . وقد تنزلت بعض حروف العربية فى فواتح سور : الم ، كهيعص ، حم ، عسق ، وغير تلك الحروف ، شهادةً بأنه كلام مؤلف من عناصر اللغة العربية لفظاً ومعنى ، وتوثيقاً لصدوره من الله وحده لأنه تحدّى وأعجز أهل العربية أن يأتوا بمثله ، وتأكيداً بأنه بيّنات يعرفها العرب أمة الخطاب الأولى ، وقد حفظ القرآن لم يُضيّع من أصله شئ ولم تبدّله النقولات والترجمات عبر الزمان واللغات .

والعربية يكاد يبين اليوم – بتطور اللغات والعلوم اللسانية – أنها أوسع لغات البشر أمّ لكثير منها عمّت غالب الأرض دهراً ، ولا عجب أن تستقر فى عالم الغيب المستقبل لغة لكل الإنسان فى الجنة . وحروف لفظها يشير كلٌ منها لمعنى وتتصل تركيباً وتصريفاً لتبين معانى الكلمات . وهى لغة من جذر واحد لم ترتّق من أصول شتى تولّد فيها تبايناً . فلِكى يُفسر كلم القرآن بلوغاً إلى معانية لا بد من تعرّف جذور الكلمات وبنيتها لتبين أصول المعانى ، وتفقه تعريفها تركيباً لتُقاس على دلالات التصريف بحركاتها وحروفها ، وتقدير مكانها نحواً وموضعاً فى سياق الجُمل وتجويد نطقها لتنضبط دلالتها وتتسق بلاغتها جمالاً .

والقرآن لغةُ اصطلاحه واحدة . فالكلمة فى كل مواقعها فيه بتصريفاتها المختلفة ترجع إلى معنى واحد أصله قد يكون مدى واسع المعنى يتحرك فيه الوقع المعيّن حيثما اندرج فى السياق . وكلما تبينّت كلمة مصّوبة نحو الحقيقية بمدلولها لا مجازها أو تحركت بالسياق إلى كناية أو استعارة تيسر تفقّه معناها بياناً ومصطلحاً قرآنياً وجلا بها تفسير القرآن حيثما وردت فى سطوره . وذلك تفسير القرآن بلغة االقرآن ، فالقرآن جملة قول منظوم .

وينبغي تجويد النطق بحرف القرآن والتوحيد لأصواته بنسقها ومعانيها ، فإن له وقعاً ونظماً ونغماً خاصاً فى أسلوبه على الأصل العربى . وقد نشأ فى العربية قديماً الشعر الموزون بالنغم الموقع

وبالقوافى . لكن نظم القرآن ما هو بشعر رغم ما يُسمع ويحسّ فى آيه من وقع متناسق وفى غالب فواصلها من تواتر . فالآي لاتلتزم نغماً على ميزان الشعر ببحر منظوم وفاصلة لازمة . وما فيه من الإيقاع ونسق الحروف والفواصل لايغلب على المعانى كما يعهد لدى الشعراء الذين تحملهم زينة النظم وحسُه ليهيموا فى كل وادٍ من المعانى . لكن لغة القرآن لا تقتصر على أداء المعنى باستعمال الكلم المنثور المخلّط اللفظ أو القول المقطّع المسجّع الذى عرفته الخطابة العربية القديمة . وإنما يحّرك القرآن كل طاقات اللغة لإيقاع المعنى مفهوماً منظوماً بتعبير بليغ جميل . والصوت المؤثر المفهوم المنغوم يوحّد هكذا خير ما فى الشعر وما فى النثر بحرف عربى مبين رزين وكلام فيه علم وحكمة وحلاوة وطلاوة وذلك يعين المفسر أن يأخذ من القرآن ما يُعلم العقول معانى الكلم ويوقع فى النفوس أثرها بأحكم مما يُلقى جارى كلام البشر وأبلغ دفعاً ، فالقرآن بيان وميزان للحكمة الهادية بأحسن القول الميسّر للتلاوة .

وكانت أمة الخطاب تتلقى القرآن فتتفهمه ويقع فى نفوسهم موقعاً بليغاً . كان المؤمنون يسمعونه منصتين يخشون لمعناه وتقشعرّ له جلودهم وأعينهم تفيض من الدمع يتلونه قولاً ففقهاً فيرتبون على ذلك تلاوته فعلاً . وكان الكافرون ينهون عنه وينأون صدوداً وخشية أن تنصدع له النفوس وأحياناً يردونه إلى الشعر لنغمه ووقعه . وكان القرآن أفصح من معروف الكلام ويسلك أحياناً ببعض الكلمات نحو معنى لها غير معهود فى مفهومات الجاهلية لكنه يبين مغزاها بالإيضاح أو بالسياق . وكانت فيه مقولات محكمات وأُخر متشابهات لا يتبين معناها حتى تؤول إلى المحكمات أو إلى واقع تال يتضح به حقها ومغزاها . وكان المخاطبون يسألون النبى ﷺ ويتساءلون فيما بينهم لتفسير مالم يعرفوا من معتاد لغتهم أو من التاويل . وإذ دخل بَعداً غير العرب أفواجاً فى الإسلام وأصبحوا السواد الأعظم للأمة وانتشرت للغة العربية علوم ليتعلّمها قادمون من أصول عجم ، انصبَّ المفسرون الأول على مشكلات اللغة فى بيان كلم القرآن بجذر المعانى والتصاريف والنحو أو كشف صور التعبير البلاغى وإشارات التأويل البعيد أو إظهار وجوه الإعجاز البيانى فى القرآن .

وكلم اللغة لها فى كل زمان ومكان مدلولات وفق ظلال تُلقيها على المعانى البيئة الاجتماعية والطبيعية والمصطلح المعروف لخصوص الثقافة اللغوية . واللغات لاتجمد ، فهى تحيا بنهضة الحياة والحضارة تتطور اتساعاً ودقة أو تموت وفاقاً لموات الحياة فتضيق وتنسطح . وبعض الكلمات الواردة فى القرآن قد جرى ويجرى تطور دلالاتها فى سياق الزمان المتعاقب فتتبدل معانيها وإيحاءاتها . وقد تتسع الكلمة التى كانت مخصوصة الاصطلاح و تنبهل القطعية المعنى وتخبث وقد كانت طيبة أو يعتريها سوى ذلك من التبدلات . وقد نشأت مختلف العلوم الإسلامية واتخذت لنفسها كلمات لغة مصطلحاً ما كان معهوداً فى لغة القرآن . فكلمات أصول فى القرآن مثل :

الدين ، الإيمان ، الإسلام ، الشريعة ، الفقه ، العبادة ، الكفر ، الظلم ، القضاء والقدر .. ألقى عليها فقهاء الأحكام أو علماء الكلام أو أئمة الصوفية معانى أخص بكل أصحاب علم . وكان الكتاب والشعراء عموماً قد يلوون الكلمات مع تطور نهضة الإسلام أو تدهورها واختلاف صبغتها عما عهدته بيئة متنزل القرآن .

والتفسير الصادق للقرآن ينبغى أن يوحد لغة القرآن فى جملته وفيما بينها وأمة الخطاب عهد التنزيل لايفارقها ، ليضبط التفسير معانى القرآن حقاً مهماً يمضى بعد فيخاطب عصره بلغة عربية يفهمها الخلف لكنها تترجم تلك المعانى بما يصدق وقعها الأصيل .

***

لقد نزل القرآن مرتلاً مترتباً تنزّله لإسماع الحق وإيقاع الهدى المناسب لأطوار وقائع حياة المخاطبين وأسبابها الجارية المتواترة . ثم اجتمع القرآن قبيل الختام بجملة منظومة مدرجة آيه فى سورها مرتبة سورة لاتتوالى بمواقيت نزولها بل بما رسم وحياً جبريل الذى كان يذاكر حفظه فى مراجعة وافت المختتم وقاربت وفاة الرسول ﷺ خاتم الرسالات وقد يبدو ظاهراً أن فى نظم المصحف ترتيب للسور حسب طولها وأحياناً تتقدم سورة أو تتأخر حسب اتصال معانيها بما يليها أو ترتيب ميقاتها ، لكن السور كلها انتظمت موصولة المعانى تباعاً . والقرآن كله متحد المعانى للمتدبّر تتسق آياته ترتيلاً وتتوافق إجمالاً ، وذلك شاهد على أنه صادر من الله الواحد " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً " فأيمّا بشر يتحدث أو يكتب بضعاً وعشرين سنة لايسلم أن يقع منه فى آخر كلامه ما يوافق أوله ، ينسى أو يزداد علماً فيتبدّل كلمهُ ليحتوى نقائض بيّنة أحياناً .

كذلك ينبغى أن يُردّ كل القرآن بعضه إلى بعض . أن تراجع كل كلمة إلى مواردها لينضبط معناها أو مداها ، وتوصل كل كلمة بما يجاورها لتبين فى السياق وتتألف جُمل الكلم فى الآى ، وتُوصل الآى فى السورة ليبدوا نظمها وتتوافق معانيها متعاقبة عبر الآي و يبين نغمها ووقعُها بفواصل الآى ويخرج جمع معانيها دون اختلاف ، ثم تتم السور من بدأتها إلى ختمتها مفصولة بسور موصولة إلى سائر السور بالمعانى التى قد يضيئ نَسبها ترتيب نزولها مما يوضح تدرج أحكام التكاليف إلى التمام أو وقوع حجج القرآن حسب تطور ظروف التنزيل . ويتحد القرآن المفسر بترتيبه التوفيقى فى المصحف معانى موصولة خطاباً منيراً متتالياً لا ينقطع شعاعه الهادى بأدنى ظلمة عارضة خالداً للناس كافة فى سيرة الحياة إلى يوم القيامة .

إن المفسرين قديماً كانوا كثيراً ما يصلون كلمة القرآن فى الموضع بمواردها الأخرى لبيان معناها مرجعين القارئ لاحقاً إلى تفسير الكلمة السابقة . وبعضهم أحسنوا تفسير القرآن فجمعوا فى المعاجم كلم القرآن ومعانيها حقيقة ومجازها ، أو ناسبوا الآيات ووصلوها معانى بترتب بعضها من بعض . وذلك ينفع الحفاظ الذين قد يتلون الآيات دفعات صوت متوالية كما انطبعت فى الذكرى

فإن لم يستعينوا بسير الفهم تباعاً عبر وشج المعانى تتعثر عليهم أحياناً التلاوة وقوفاً حتى يُذكرّوا . ولكن كثيراً من المفسرين المتأخرين أخذوا يعزلون كلم القرآن عن شتى موارده ويقطعونها مجردة حتى عند السياق ، ويغفلون عن جملة المعنى المتداعى فى الآي لا يربطون الجُمل إن لم يصلها شرط أو عطف ، وترد مثلاً صفات الله فى خواتيم الآى فلا يصلونها بدواعى المعنى فى الآية ليدركوا وقعها الدقيق المناسب . وقد كان ذلك ملحوظاً فى كل الثقافة الفقهية للدين ، إذ ضعُف إعمال الرأى وزهد الناس فى فهم المعانى العميقة المحيطة بالنصوص يؤثرون حفظها وترددادها . وكان لغزو مذهب فكرى هيلينى أثر على تلك الثقافة إذ كان منهجه التركيز على خصوص أعيان الأشياء وأوصافها المتعددة فى الوجود الظاهر عفواً عن عموم السنن والمغازى فى الطبيعة ، فأصبحت الأحكام تورد فرعية مفصّلة لا تذكر مبادؤها الجامعة وحكمها الكلية ، فالصلاة مثلاً تذكر بتعداد أركانها المفروضة ونواقضها ومندوباتها ومكروهاتها دون رؤية عميقة لشعاب الإيمان التى تعبر عنها أقوالها وأفعالها أو ممتدة لوقعها فى تزكية الدين أثرها على الحياة . فأصبح التفسير للقرآن بنصبّ على الكلمة أو العبارة أو الآية ثم يذرها كأنها معزولة عن سياقها فى نظم المعانى ، والكلمات لاتُردّ إلى مواردها والمعانى إذا بدت مختلفة تقارن متناسخة لا تأتسق درجاً مترامياً فى التكليف أو نسباً للأحوال والأسباب . والحق أن التناسخ هو عبر آى الرسالات وظاهر الأحكام فيها ، والحكمة فيها حق مستمر دائم .

التفسير التوحيدى ووحدة الهوى للإنسان :

إن القرآن يتوالى آيه وتتوارد تتضاعف معانيها وتتأيد تُوحّد هدى الإنسان لحقائق عالم الغيب ليرسخ يقينه بها فى حياته فى عالم الدنيا المشهود وليسعى إلى عين اليقين فى الأزل والحياة الأخرى . فالقرآن يذكر كثيراً مركوز الفطرة الإنسانية خيار عقد إيمان بالله الواحد وميثاق عبادة له وراء الغيب . ويذكر كذلك ظواهر العالم المشهود ، الناظر فيها ببصيرة قد يُعزز ما تلهمه الفطرة إيماناً يتزكى بخواطر التفكرّ والتدبر النافذ إلى الخالق المعبود ، والرائى صورها قد ينفتن بعجائبها وينقطع عن ربه . ويرد فى القرآن تعلق المشركين بالنجوم أو سائر المظاهر الكونية يوقرونها لا مخلوقات لله بل معبودات قد ينزلفون بها إلى الله أو يجسدونها فيما هو أقرب إليهم أصناماً مقدسة . ويذكر القرآن كذلك أن الله أنزل الهدى يُعلم الحكمة ليطمئن فى النفوس الإيمان بوحدانية الله لا تسترها فى الغيب المتفرقات المشهودة ولا تحجبها فتن الحياة المتكاثرة ، ويُبيّن أن الهدى إلى الحق فى الحياة من الله وأن من دونه الضلال ، الله يزيد المهتدى هدى ويؤتيه تقوى على صراط مستقيم ويُضل من عميت بصيرته ويُيسر له العسرى إلى سوء السبيل . وحيثما يذكر القران أقدار الله أو أسمائه الحسنى يصل معانيها بآيات الله فى الكون وبابتلاءات الإنسان وتكاليفه وكسوبه فى الحياة أو شعب الإيمان فى قلبه .

ويذكر القرآن كذلك ملكوت الله الأعلى ومخلوقات العالم المستجنّ موصولاً بأمر الإنسان ، الملائكة التى تكرم الإنسان وتوحى إليه الهدى وتؤيد مسعاه الصالح وتزفّه إلى الجنة أو تسوقه إلى النار ظالماً ، والشيطان وذريته الذى يحقر الإنسان ويسعى لإضلاله ليلزم موالاته إلى النار ، والجنّ منهم القاسطون ومنهم الصالحون يسمعون القرآن مع المؤمنين . ويذكر القرآن نعيم الجنة لمن آمن وأصلح والرحمة والرضوان والنار وما فيها واللعنة والغضب من الله كلها مصائر وفاق كسب الإنسان إسلاماً وطاعة لشرع ربه إلى صحبةٍ لسائر أشياء الكون الطائعة بقدره تعالى يسعد بها أو يشقى إذا شاققها فى دنياه . والقرآن يهدى الإنسان المؤمن حتى لايُطلق تأملاته بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير فيتعبد الملائكة أو الشياطين أو يجنح للخرافات والسحر والأوهام حول الكون المخفّى ، يُبلغه حقائق مسموعات الغيب حتى تعزز فى نفسه الإيمان بوحدانية الله وأقدار ملكوته ومخلوقاته غيباً ومشهوداً لئلا يُفلت من عقائد التوحيد فيُفسد حياته فتضطرب بل ليطمئن بالله له الخلق والأمر جميعاً يعبده ويستعين به وحده ليرجع إليه فى سلام من صحبة مخلوقاته . فالقرآن كله دعوة لتوحيد الله تُرى آياته فى مشهودات الكون سماوات وأرضاً ونجوماً وماء ونبتاً وحيواناً ورياحاً يعرف بها الإنسان ربه خالقاً ناظماً متصرفاً قديراً ، وتذكر حركة بعضها فى نظام بآجال وتقلب بعضها بين الموت الحياة فيدرك الإنسان أن له هو مسير حياة إلى أجل مسمى فبعثٌ يسوّى فيه الله عدالة أحكامه ويفصل بين الناس ما كانوا فيه يختلفون فى الدنيا . القرآن يصل ويوحد ذكر تلك الآيات المطبوعة فى الكون المشهود يايآته المنزلة وحياً فى القرآن وبالإنسان وكسبه ومصيره .

لكن تفاسير القرآن القديمة تمرّ عرضاً بذكر آيات الكون المشهود لا تُبين ما فيها من سنن وأقدار هادية واعظة ولا تشير إلى حكمة وصلها سياقاً بذكر آيات الوحى وبحياة الإنسان . وهى تذكر لماماً الوارد من مسموعات الغيب ولكنها لا تبيّن أقدار صلاتها بالإنسان ومواقفه منها . كانت تلك التفاسير لا تُبين إلا قليلاً من غيبيّات تراث الجاهلية الضالة عن حق الغيب ، على غزارة ذكر القرآن لها وخطابه فى سبيل الهدى انصرافاً عنها ، وكانت تذكُر ولا تفصّل بيان ضلال اليهود إشراكاً وكهانة وسحراً لتفسير هدى القرآن فى ذلك . ولئن كان كسب أؤلئك المفسرين الأوائل زهيداً فى العلوم الطبيعية فقد كانوا على علم بخبر ضلالات الجاهلية ، ولعلهم لم يفيضوا فى بيانه تفسيراً للقرآن لأن كل الجاهليين وحّدوا الله وأسلموا وتطهروا من ضلال العقائد . ولم يذكروا فى تراث الكتابيين تمام بيان ضلالهم لأنهم ما نقّبوا فى ذلك التراث وإنما استعانوا بالذين أسلموا منهم على فيض من الإسرائيليات لبيان معانى قصص القرآن عنهم .

ولقد نهضت علوم الطبيعة قديماً لدى المسلمين ، ولكن علماءهم لم يصلوها بتفسير القرآن ليبينوا كيف يخشى الله من عباده العلماء المتفكرون فى ألوان الكون وكيف تسخر قوى الطبيعة بين المؤمنين ليزدادوا إيماناً وحمداً وترقياً بحياتهم عبادة لله كما يقول القرآن حيثما يذكر تلك المطبوعات

القدرية . وفى العصر الحاضر تزوّد بعض المسلمين بعلوم الطبيعة من مدد النهضة فى غربى العالم الهاجرة للدين بعلمها . بعض مفسرى القرآن أقاموا شهادة من ذلك العلم على حق القرآن الذى يعجز عنه البشر لأنه جاء فى أوصاف الكونيات بما لم يعرفه ولم يدرك تماماً معناه الواضح فى القرآن المخاطبون به قديماً . وبعض المفسرين أفرطوا فى بيان الحقائق العلمية حيثما ورد ذكر لها فى القرآن . والوحى لم يتنزل ليعلّم الناس اقدار الطبيعة اللازم قضاؤها بل ليبيّن لهم ما هم فيه يختلفون من عقائد الحياة الغيبية التى لا يبلغهم الحق فيها إلا وحياً ومعاملات الحياة الدنيوية التى يختلف الناس عليها برؤاهم القاصرة من العواقب وأهوائهم المصطرعة تنافساً على المحدود بقوى العلاقات وأسبابها ، إذا لم يرجعوا إلى كتاب حق وميزان عدل من الله يهدى مذاهبهم من الضلال وشهواتهم من فتن الضرار . أما الطبيعيات فهى محكومة طائعة لقدر الله منضبطة لو أعمل البشر فيها سمعهم وبصرهم وجربّوا وقدروا بلغوا حقائقها وحسموا الخلاف نظراً فيها . وإنما الإبتلاء من بعدُ كيف يتصرف الإنسان ويسخر تلك القوى الطبيعية عادلاً لا ظالماً وشاكراً لا كافراً نعماه يزداد عبادة لله الحكيم وخشية له القادر لا ينفتن بأسرار الكون وقوانينه وينقطع عن الذى وضعها . وذلك هو هدى القرآن البين فى كلماته لمن يفسرها ويوضحها للمؤمنين .

ومن المفسرين القدامى من انشغل بثغور فى جدليات الإيمان بالغيب إذ غشيت المسلمين غزوات من مسائل نشأت من الفكر الهيلينى وثارت فى العقيدة النصرانية والإسلامية ومجادلات حول ذات الله وصفاته بين التجريد المطلق والتجسيد الفاعل ودلائل وجوده وعدالة سنن مشيئته وحول الحديث أم القديم وصفاً لكلامه وفعله وحول الإنسان وتسييره وتخييره ومدى إيمانه . وبعض المفسرين عندئذ غلبت فى بيانهم للقرآن مقولاتهم فى قضايا الكلام والمنطق ، وكانوا يقصدون مجادلة الباطل ودعوة الحق ، لكن البيان انصرف عن سائر ذكر القرآن حول مشاعر الإيمان الصادق أو الكفر بالغيبات وعن التعبير عنها بمختلف الأعمال وبكسوب الناس من الصلاح والفساد وبعاقبة الجزاء فى الآخرة وبقوى الغيب وأقداره المحيطة بالإنسان .

****

يوحد القرآن هدى الإنسان فى واقع الدنيا ويدعوه لإصلاح سيرته فيها على أساس الإيمان بالغيب الحق ، يذكرّه بأصول الإيمان الفطرية وبخواطر التفكر فى مشاهد الكون المخلوق والتدبر فى بلاءات الحياة وبآيات الهدى والموحاة ، ليمارس خياره الإيمانى الحر ، ويقدم عمله مؤدياً تكاليف ميثاق العبادة متقياً فتن الإشراك بالله والغفلة عن مصائر المسئولية الآجلة واتباع هوى النفس ، ويوحد أمر حياته ويجمع شعابها لا تنتقض بين فذّ وفى جماعة وبين ظاهر وباطن وبين عاجل آجل وبين زاعم نظراً وفاعل صدقاً فى الواقع .

القرآن يوصى الفرد أن يتزكى ويجتهد ويكسب ويحمل عاقبة الحساب فرداً ولكن يوحده إلى الجماعة ألا يعتزلها يعتكف دون خيرها أو يشح عنها بسهم فى عوان بل يصلها مترشداً مستعيناً متدافعاً متضابطاً بها لقوام الحياة مبارّاً معاملاً مسالماً مشاوراً لا مضاراً مشاقاً مصارعاً للآخرين ، وذلك ليتبارك إيمانه ويتضاعف صالح كسبه وتطيب عاقبته الآخرة ، يتحد بقرباه وينفتح بمداه موصولاً بمن يليه من الأسرة إلى الأهل فالقوم ثم الإنسانية كافة ومن الجيرة إلى الوطن ثم الأرض قاطبة . وبذكّر القرآن الإنسان المؤمن أن يوحّد حياته يتصادق ظاهرها وباطنها لا ينافق من حوله ولايرهب السلطان دون الله . بل ما فى ضمير وجدانه من بواعث وعقول وما حوله فى المجتمع من حوافز وروادع وما فى السلطان فوقه من أوامر ونواه تتحد وتتناصر بها كل الدوافع والضوابط لحياة راشدة . ولا يشذ السلطان بطغواه بل يتحد مع الرعية تناصحاً واختياراً وشورى وإجماعاً ليتكامل بهم جميعاً الحكم ويبلغ الإحسان . ولا يقطع المؤمن رابطة وجوده بل يصل أول عمره فى الدنيا بآخره، إن قدّم غفلة أو خطيئة أو قصوراً أدركها بالتذكر وإحياء الإيمان والتقوى والمتاب والحسنات تترقى بعبادته سعياً إلى درج حياته فى العاقبة الحسنى فى أزل الآخرة ، والقرآن كله مثانى ذكر موصول للمؤمنين العاملين الصالحات والكافرين الظالمين المفسدين بين المصائر الحميدة والحسيرة

إن القرآن لم ينزل ألواحاً كألواح موسى جملة واحدة وإن تساءل الذين كفروا كيف لم ينزل مرتلاً ترتيلاً ، ما كان يؤخذ كله بقوة لإيقاع تعاليمه وتطبيقها بعدُ فى الحياة ، وإنما اتحد متنزله وواقع الحياة الجارى يهدى سيرة الخُطى ويبشر رشدها ويقوّم ويحاسب خطأها ويُنذر ويشهد على ظالمها ، ويتجاوب فاصلاً بالحق فى كل المقولات والمواقف ويعالج القضايا والابتلاءات . آيات ذكر الله تتوارد ليتخلل التذكر كل شعاب الحياة ، ولتتعزز مشاعر الإيمان وتتكثف تعبيراته فى الحياة الواقعة كلها ، وليتعلم المؤمنون الشعائر التعبدية أصولاً يتوالى تكاملها ، ويتزكوا بعلاقات الحياة أسساً للرشد بتفصل ويتم هديها أخلاقاً طيبة لاسيئة وزواجاً يقوّم المعروف ومعاملات مال تطهر الظلم وتثبّت البر والخير والعدل سياسة ونظماً للسلطان بأحكام ورُسم وأخلاق . وهكذا يتنزل الهدى لامقولات عقيدة وأوصاف سنن ونظم للحياة تحفظ النصوص فيها وتروى نظراً بل تنزيلاً موصولاً بأسباب الواقع . وقليلاً ما تقتصر السور على العقائد الغيبية تخاطب بها النفوس دون ما يصدقها من مقول ومفعول إلا بعض السور المكية القصيرة حيث كان الشأن فى الهدى إرساء الأصول وكان الجدل حولها ، ولكن منذ مكة كان يتنزل فى الآيات والسور هدى لأعمال الحياة الظاهرة وتكاملت السور هدياً لمّا تيسر وقع التكليف فى المدينة حيث تمكن الإسلام حراً كاملاً . ونهج القرآن توحيدٌ للهدى تبين فيه الأحكام ويُصاحب بيانها ذكر النيات الصادقة وأكناف الحكم الفرض بمندوباته ومكروهاته وعواقبه على الطائع والعاصى . والقصص لاترد حكاوى

لسوابق سير وإنما تتصل بها العبر والمواعظ الهادية للمخاطبين . والسور توحد هوادى الحياة لا تبُوب متافصلة محتوياتها بصنوف التكاليف بل تجمع السورة الواحدة إيمانيات وأذكاراً وشعائر تعبد خالص وإرشادات حياة ، وتصلها كيف يصدر الإيمان طاعات وكيف تزكى الصلاة التقوى والاستقامة والوحدة و الصيام احتمال الصبر والجهاد وكيف تهيء تربية الأسرة وأخلاقها للتكافل فى الحياة إنفاقاً والعدل فيها والوفاء تعاهداً وكيف تُستمد كل شعاب الحياة القويمة من توحيد الله وتذكر مراقبته ولقائه .

كانت تفاسير القرآن الأولى تجمع هدى القرآن كما تتوالى آياته وقد لاتصل بعضها ببعض لتبيّن كيف تتساوق فى الحياة كسياقها فى الذكر . ولكن مناهج التفسير من بعدُ أخذت تبعُد عن مسلك البيان التوحيدى للقرآن . بعضها تفسير يُصوب على الأحكام يفصل المقتضيات والشروط وقد يذهب فى الفروع وقد يوصل القرآن بأحاديث السنة المبينة ، ولكن الإبغال فى المذهب أنتهى بكثير من الفقهاء المتأخرين إلى عزل الأحكام عن أصولها القرآنية . ومفسرون آخرون متصوفة استدركوا قصور الفقه الظاهرى للقرآن فصوبوا همهم إلى هدى الباطن : الإيمان والإخلاص والصدق والتقوى والتوكل والصبر والرجاء والخوف من الله ، واستغرقتهم أعماق التدين الوجدانى حتى أهملوا فى تفسير القرآن ما يصدق مضمر الإيمان من تعابير الأعمال ومواقعها فى سياق أحداث الحياة .

والتفاسير بقدر مامضت تقصُر على أسباب النزول المعينة للآى أو مضت تفرّع ذكر الأحكام أو تبسط ذكر أصول الهدى فى النفوس ، أخذت تفارق ما بين هدى القران ذكراً وهدياً للحياة ، إذ غفلت عن خطابه الهادى لكليات واقع الحياة ومواضع الصلاح أو الضلال العام فيها . وفقه الدين كذلك كان يصُوب غالبه على فروع شعاب الحياة الخاصة من علة أصابت المسلمين فى أصل عقيدة التوحيد وكانت تُغشى البصر عن القرآن هدياً شاملاً للحياة الواقعة وسنة الرسول (ص) المهدية بالقرآن سيرة جامعة لكل شئون الحياة طبعت الإسلام بحادثات حياة مصدقة شاملة . وفى الفقه أو فى التفاسير تبين أعراض اعتلال تدين المسلمين . فأصول العقيدة كان يذكرها القرآن هداية لواقع سنة المسلمين ، للإيمان يزيد وينقص ويتردد لأنها حال انتقال من الجاهلية بإبتلاءات مصابرة ومجاهدة ، ولأعراض النفاق الفاشى فى المدينة وحولها لأخر عهد القرآن ، ولترشيد أخلاق المسلمين ومعاملاتهم التى تضطرب بها الأحوال عموماً فى سبيل الرشاد نهضة إصلاح حية ، أسباب نزول الآى وأحكامها الواقعة تتصل كلها معالم سيرة عامة يتساوق هديها . وما أصاب المسلمين الخلف من فتنة سياسية ضلت بهم عن الدين الرشيد الصادق ارتدت آثاره على الفقه وعلى التفسير ، إذ هُجر التدين فى الحياة العامة حيث تغلبت القوة والفتنة وانحسر ضوء آيات القرآن فى هدى السلطان والشورى وفى العهود والسلام مع الآخرين وفى المال العام ، وأصبح حافظ

القرآن وقارئ تفسيره قد لايتطهر به واقع حياته وقد يضيّع بعض الكتاب ويضل على سنة سيئة لأهل الكتاب السابق ذكرها كثيراً ليعتبر بها ويحذر المؤمنون ألا يطول بهم العهد وتقع عليهم الفتن فيؤمهم الربانيون والأحبار إلى عزل أطراف من هدى كتابهم عن واقع الحياة .

التفسير التوحيدى وحاضر الوحدة مع القرآن

إن جمهور المسلمين فى عزلة من القرآن ذكراً متدبراً مصدَّقاً بالحياة . غالبهم إن قارب القرآن يحفظه محجوباً فى غلافه ليبارك له المكان من الشيطان وليمسه أحياناً وينظر إليه قرباناً لله ، وإن تلاه باللسان ولو جوّد النطق فقد يكون أعجمياً لا يدرك إلا الصوت أو عربياً لايتدبره تلاوة بالجنان . وأقل المسلمين من يتلوه مستمعاً متفقهاً متبعاً صادقاً موقعاً معانيه فى حادثات حياته جميعاً ، إذا استمع أنصت لتذهب رسائل يتدبرها العقل وينفعل بها القلب لاتأتى مفهومات باردة بل تحيا إماماً للحياة وميزاناً . وقد أصبح لازماً بين المسلمين لا أن يُحفظ القرآن وينشر وحسب بل أن يفسّر ويُبيّن معناه ليقع أثره فى حياة كل مسلم عالماً كان أو أميّاً من العوام ، فهكذا كان خطابه الأول للناس جميعاً .

وانما انعزل القرآن لأن الدين انعزلت أصوله عن بعض الحياة ، وأصبح الإسلام هوية وانتساباً أفلت منه غالب الحياة وانتشر الرياء والنفاق فى التدين وغاب كثير من ذكر الغيب بل يذكر الله لغواً فى غالب تخاطب المسلمين ولا تذكر الآخرة وصلاً مع وقائع الحياة إلا قليلاً . فينبغى تفسير القرآن بما يعرضه هدى لجملة الحياة لا يُسلك بعضها خصوص تقديس وسائرها راتباً دنيوياً بل كلها عبادة يغمرها ويطهرها ويهديها ذكر من معانى آى القرآن . واللغة العربية التى هى مفتاح القرآن اغتربت حتى عند عرب المسلمين ، إذ نقص الوعى والفكر الدينى الذى تحمله رسالة فنقصت وأصبح الخطاب الجارى بذخيرة منها محدودة وموسوعة بائسة ، وأصبح كثير من لفظ القرآن غير مفهوم إذ تطور وتباعد منه بعض المصطلح الدينى بين المسلمين وغشيهم الغزو الثقافى وما أدخل بدفع الترجمة مما يبدل معانى كلمات القرآن ومراميها ومصطلحاتها . وإذ تعسّر كذلك فهم القرآن للسامع والقارئ العام فلا بد من إحياء اللغة العربية عموماً وتأصيلها واستنبات جذورها الغنية الكثيفة ، وذلك بالطبع وقف على اتساع حياة المسلمين عزة وحضارة ، ذلك يتداعى مع بيان متجدد لكلمات القرآن .

ينبغى على المسلمين اخذ القرآن بقوة وبيانه واضحاً ليغالب الثقافة اللادينية المعاصرة التى أثقلت على الدين بدهرياتها ومشهوداتها وعقلانياتها وغمرت ذكر أخرويات الغيب ومسموعاته وإيمانياته . لابد من القرب من القرآن وتفقهه وإحيائه وقعاً فى النفوس لتستجيب لإيحاءات الفطرة المؤمنة وخواطر العقل المتفكر فى آيات الله فى الكون والحياة والتنزيل ، حتى تتفجر الرؤى والمشاعر لتفسير الكتاب استمداداً من كل المناهج التفسيرية السابقة اللغوية والأثرية والفقهية والعقلية

والباطنية وإتماماً عليها . لابد من توحيد القرآن كلماً وآيات وسوراً لينشرح بعضه ببعض ويتعزز وقعه الموصول لتبلغ القارئ وتسرى فيه معانى وحدانية الله المطلقة وحضوره المحيط بالوجود ووحدة كلماته وآية ورسالته التامة بكل هديها المتجدد لتوحيد حياة الإنسان بشراً مع الكون حوله فرداً فى جماعة على طريق واحد مستقيم عبر كل صروف الزمان والمكان وابتلاءات الدنيا المشهودة ورجاءات الغيب والمرجع إلى الله، مشاعر إيمان فى كل حركة وسكون من سيرة الحياة .

لابد من حشد كل طاقة العلم بالمحسوس ليتوحد مع علم القرآن المنزل ، لا لاكتشاف حقائق الطبيعة بتفسير القرآن فذلك ميسور بالنظر والتجربة متروك للإنسان ، ولكن لبيان آيات الله فى الطبيعة المذكورة فى القرآن دعوة للنفاذ منها إلى الله إسلاماً له وخشوعاً كما تخشع الأشياء لأقداره وتسخيراً لها للرقى فى الأرض نحو الحياة فى الملأ الأعلى لا انفتاناً لاهياً بالطبيعة أو استغلالاً لقواها ظلماً إلى سوء مصير . وإذا كانت الحياة الإنسانية تتطور وتتضاعف هموماً فلا بد أن يُفسر القرآن ليوحّد هداها . لئن تكثفت بحوث التاريخ ونشطت دراسات المستقبل فهى زاد متجدد لتفسير القرآن هادياً بالصبر والعظات من قصص الأمس لا تنسى وبالنظر الصابر المتوكل نحو الغد مستقبلاً وازلاً وعده ويُرجى ، ليتحد سلف الإنسان وحاضره وخلفه وصحبه فى الآخرة كما يهدى القرآن . وكل حياة الإنسان لابد ان يُنزل إليها القرآن هادياً لباطن النفوس وما يعرف بعلوم اليوم من أحوالها وأمراضها النفسية شافياً لها بطمأنينة الإيمان والتقوى والمشاعر الصالحة ، هادياً لظاهرها كله بتفسير صادق لا يفصل المواعظ عن الوقائع ولا الأخلاق عن الأحكام القانونية ولا الحياة الخاصة اعتكافاً دون السياسة والاقتصاد ولا يُسرها عن عسرها ، موحداً لوجهتها وقواها كلها تتاصر وتتحد لا تتشاقق فتضطرب وترتبك وتتناسخ وتتساقط . تفاسير التراث التى عالجت قضايا الحياة وابتلاءاتها لعهودها الماضية لابد أن تُتم عبرتها بهدى القرآن فى كل قضايا الحياة المعاصرة ، فالقران خطاب خالد .

يلزم العود بالتفسير الى القرآن خطاباً موحداً لكل الناس أيضاً ، لاسيما أن قد توثقت أوصال العالم وتكثفت سبل اتصاله . القرآن خطاب للمسلمين لعهد نزوله وللمسلمين الوارثين اليوم بتراكم عهودٍ وتجارب ما عرفها ذلك السلف أيام التنزيل الحادث ، فخطاب اليوم لأمة الإسلام أن يتذكروا بعد غفلة ويحيوا بعد موات ويرشدوا بعد ضلال وأن ينفعلوا بخيار توبة بعد انتساب كاذب وقد انفعل السلف الأول بخيار انتقال من جاهلية تامة أو ملة أخرى . والقرآن خطاب لأ هل الكتاب اليوم وهم أبعد ضلالاً عن دينهم وافتتاناً بمتاع الدنيا وإدباراً عن الغيب وأكثر علماً بمباحث سيرتهم القديمة التى يستشهد بها عليهم القرآن . والقرآن لابد أن يُفسر خطاباً لسائر البشر فى الأرض أمماً غير ذات كتاب ولا من ملة إبراهيم غلبت عليها المادية والدهرية . هكذا كان القرآن الخالد خطاباً للذين آمنوا وللناس كافة وسيبقى دعوة لكل أقوام الأرض فى شتى ثقافاتهم . واليوم قد يعجم لسان بعض

المسلمين أو يعرب ولكن ترجمة التفاسير القديمة أو إعادة نشرها لاتكفيهم وصلاً بكل معانى القرآن وهواديه خطاباً حاضراً . واليوم سائر العالم مهموم بالإسلام بمختلف الرؤى له خطراً ذا شأن أو وعداً منبعثاً، ولابد من تبليغ معانى القرآن بما يعقله العالم ويهديه مبطلاً أوهاماً كثيرة تُستصحب عن الإسلام والقرآن .

إن بشائر النهضة المعاصرة للوعى بالإسلام تُبدى تذكراً وتوبة بعد غواشى التخلف والنسيان التقليدية ، واستقلالاً بعد حجب الغزو الثقافى والسياسى الغريب ، وصحوة بسبب صدمات أخذت تلازم المسلمين ظلماً وحرباً عليهم فى كثير من ديارهم ، وموعظة من سوء فساد مجتمع وتعالى سلطان ومهاجرة للدين . وقد شغل ذلك بعض المفسرين المعاصرين فاجتهدوا يوافون الحاجة مرجعاً إلى أصول الدين الحق . منهم من رأى فى المسلمين ارتداداً إلى الجاهلية ومن ركز علم التفسير على أزمة الحاكمية لله أم للطاغوت ، وكثير أصبحوا يعالجون بتفسيرهم قضايا الحياة المعاصرة لايجمدون عند نقل التراث محرراً دون خطاب القرآن الخالد ، وآخرون ضلوا بثقافتهم وحاجاتهم الجديدة مبُشرين بالوضعية الدهرية العقلانية الغربية يخوضون بها فى تفسير القران يلوون معانيه ويتأولونه أو يطعنون صراحاً فى حقه المطلق الخالد .

لابد من تفسير توحيدى بكل وجوه المعانى السابقة الذكر ، يجمع خير كل المناهج من حيثما اقتربت من بيان القرآن ويُباركها بكل مناهج المعرفة بعد تطور العلوم والحياة ، تفسيراً لايجمّد تفسير القرآن بكلمة بيان حاسمة بل يتصوب للوفاء بمقتضى تجدد العلم والبلاء لتلاوة التجلى القرآنى عبر الزمان السائر . وذلك لبعث دورة أخرى من بسط القرآن والإسلام ضوءاً منتشراً فى الأرض لكل بنى الإنسان ، المسلمين هوية وهم جهال بأصول الإسلام والمهتدين الذين يريدون استزاده من هدى القرآن ، والكافرين الذين ارتدوا وصدوا عن كل الدين أو الذين فيهم بقية من دين أو الذين يحملون على الإسلام يحقرون أهله أو يحذرون منهم .

****

وهذا اجتهاد تفسير توحيدى فى كلام قليل ، مخاطبة لكل قارئ مسلماً وغير مسلم لينظر هو فى القرآن بوسع وعيه ومعروف بيئته ، لعله يكسب جديداً زهيداً من هدى القرآن وليسعى هو مزدلفاً إلى كمال فقه حقه المطلق باسطاً ما تنبعث لديه من رؤى وما يستثار من اجتهاد فى كل حين أو كيف أو أمد من حياته ، ثم ليفيض هو بتفسير للقرآن ينشره للناس ترقياً مداوماً إلى الأنسب والأوفق والأتمّ فى سيرة التفسير والحياة القرآنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

خلاصة هدي السورة

(الفاتحة) مفتتح القرآن ، وأول سورة وهى (أم الكتاب) التى جمعت معانية أجملتها فى اياتها القليلة العدد، وهى بذلك عبرة لما يكتب فى مقدمات الكتب التى يجتهد المؤلفون أن تختصر المحتوى المفصل الكثير فى بضع صفحات ، فهى مقدمة تلخص كل معانى القرآن ، اسْتهلّتْ آياتها بأشمل صفات الله وأسمائه وجعلت الحمد كله لله بثنائه وشكره بالملك وذكرت ربوبيته وتصرفه المطلق لكل عوالم الكون والحياة فى الدنيا والآخرة ووصلت عطاءه ورحمته بالملك يوم الدين والحساب اتساقاً مع الميزان العدل الذى ينتظم القرآن كله فى الترغيب والترهيب ، ثم أعلنت العبادة لله والاستعانة عليها به وحده — سبحانه — بهديه وقوته ثم طلب الهداية منه على صراط مستقيم شريعة ومنهاجاً إلى الله كما يفصل سائر القرآن ، وفى خاتمة الفاتحة دعاء يتقى به المؤمن خطر الابتلاء والوقع فى الطريق المغاير للاستقام ة عمداً بغضب الله أو غفلة وضلالاً كما تاتى بذلك القصص والمعانى فى آيات القرآن .

نزلت سورة الفاتحة بمكة فى أول ما نزل على رسول ﷺ من القرآن ، بعد سورة العلق وسورة المدثر على أرجح الأقول وأصبح يثنى بها ركعة بعد ركعة فى الصلوات المتواليات لأنها من أحسن الحديث القرآن العظيم ولقد اطلق عليها بآياتها السبع اسم السبع المثانى كما فى الآية ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم[1] ﴾ وهى كذلك موصولة بما يليها من سور القرآن معانى وكلمات ، وموصولة ببيئة التنزيل القرآنى الذى صدع فيه الرسول ﷺ برسالة القرآن خطاباً لأمة العرب الضالة التى ما جاءها من نعم الله كتاب ولا هدى وإشارة إلى أهل الكتب السماوية فى جوارهم وقد مرقوا على ما جاءهم من الهدى حتى وقعوا فى غضب الله وضلوا .

لقد استحقت سورة الفاتحة أن تكون أول سور القرآن بما حوت وجمعت واستحقت أن يقرأ بها في كل صلاة بما حملت من ذكر ودعاء . وقد سميت سورة الفاتحة الصلاة [2] لأنها تصل المؤمن بجملة صفات الله وصلته مع عباده ، وتصل عباده به — سبحانه — عبادة واستقامة على هدى الصراط الذي يصل حياة المؤمنين بالحى القيوم ولاءً لا يضل ولا ينقطع . فالفاتحة أكبر الذكر الراتب فى

---

[1] سورة الحجر الاية 87

[2] فى الحديث الذى رواه مسلم عن ابى هريرة (سمعت رسول الله (ﷺ) يقول قال الله تعالى قَسَمْتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين لعبدى ما سأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدنى عبدى فاذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى علىّ عبدا فإذل قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .) صحيح مسلم كتاب الصلاة

شعيرة الصلاة تقرأ بضعة عشر مرة فى اليوم فى الفرائض وتزيد بالأنفال ، وكأن المصلى يوالى الاتصال بكلام الله جميعاً كل حين .

سورة الفاتحة

ترتيل المعاني:الآيات 1–7

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحَمنِ الرَّحِيمِ ﴾ (–) (1) [3]

البسملة آية ذكر ومفتتح كل سور القرآن ، وقد عدّها بعض القراء آية فى سورة الفاتحة مفتتح القرآن ، لكن الحديث الذى رواه مسلم [4] وقسم الصلاة بين الله والعبد جعل آياتها الثلاثة الاولى لله والآيات الثلاثة الأخيرة للعبد وآياتها الوسطى صلة عبادة واستقامة بين الله والعبد وبذلك لم يذكر البسملة ضمن آيات الفاتحة ثم إن ذكر الله وذات أسمائه (الرحمن الرحيم) يرد فيما يتلو البسلمة بعد آية . فالارجح – والله أعلم – ما ذهب إليه القراء الآخرون الذين يعرفونها ذكراً من الوحى فى كل مفتتح السور لاعداً فى آيات الفاتحة السبع . ومعنى بسم الله هو أن القارئ يشرع قراءته ذاكراً متوجهاً لله بسمته وصفته الحسنى التى استغرق بها كل الألوهية عنده فهو الله . فالمؤمن العابد يولّى وجه ربه الواحد بكل حركة وسكون فى حياته فيشرعها بسم الله قاصداً قائلاً أقوم بسم الله ، أقعد بسم الله ، آكل بسم الله انام بسم الله .. الخ .

﴿ الَحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (1) (2)

الأرجح أنها أول آيات الفاتحة وبها سميت سُورة الحمد ، والحمد أكمل الثناء والشكر والتمجيد لله ، والشكر يكون للنعم ولكن الحمد أشمل بالثناء على الله لكمال جلاله وجماله فهو مستحق للحمد فى الأولى والآخرة وهو أهل للحمد الذى يستهل به القرآن والصلاة .

الله هو الإله المعهود الأوحد ، بعد إدغام اللام وتفخيمه وحذف الهمزة الاسم منصرف من " الوله" بمعنى الانعطاف بعد الحيرة والشفقة . وهو الاسم الذى اختص به المعبود الحق دون بقية الآلهة فى لغة العرب لأنه يشير بمعناه إلى أن الإنسان بفطرته متجه إلى الله وهو ما يميزه على بقية الأسماء والصفات الحسنى التى تصل الإنسان بالله عبر معان وحيثيات معينة .

'رب العالمين ' الربوبية هى السيادة والتصرف والرعاية، والعالمون جمع العوالم ، الكيانات المجملة ، عالم الانس والجن وبقية عوالم الكون المشهود والغيبي فالله يربّها خلقاً وتطويراً ويتصرّف فيها كلها بالسيادة والرعاية .

﴿ الرَّحَمنِ الرَّحِيمِ ﴾ (2) (3)

الرحمن تصريف لفاعل الرحمة فعلاناً لمعنى أبلغ من الراحم ، وتلك دلالة زيادة الألف والنون مثل ملان وغضبان. وهى صفة بالغة لمدى رحمة الله التى وسعت كل شئ . وتميزت الكلمة صفة لله لاتنسب

---

[3] رقم الاى فى هذا الكتاب يرد على قراء الكوفة ولكن البيان قد يورد عدداً آخر ويراجح بينهما باتصال المعانى .

[4] راجع الهامش رقم 2

لراحم أو رحيم سواه . وجاء خطها فى كتابة القرآن الأولى بغير اثبات لحرف اللين بعد فتح الميم وظلت الكلمة بذلك الشكل فى راتب هجاء العربية . ورحيم نسبة إلى راحم مثل حكيم نسبة إلى حاكم ، والفعيل هو الفاعل الدقيق الفعل ، فرحيم و وصف لرحمة الله الأدق التى يختص بها من يشاء الله ، فرحمن شملت جليل الرحمة للعالمين كافة ورحيم توجهت بالرحمة الخاصة لمن يشاء .

﴿ مَالِكِ يَومِ الدِّينِ ﴾ (3) (4)

ملك فى قراءة ومالك فى قراءة أخرى ، والأولى أرجح مصحوبة مع كلمة المِلْك والمُلْك التى وردت فى آيات القران مثل (لمن الملك اليوم) [5] والمالك قد لايملك مطلق التصرف فيما يملك لا كالملك وذى الملك . فهو تعالى يوم الدين الذى يحصى على الإنسان كسبه فى الدنيا وجزاءه فى الآخرة . والدين فى لغة القرآن يعنى فى سياق الدنيا ما يطيع له الإنسان ويدين من مناهج الحياة ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾[6] ، ودين الحق فى لغة القرآن هو الإسلام لله ، أما الدين فى سياق الآخرة فيعنى حيث يدين الإنسان لحكم الله الذى يدينه بما كسب ﴿ فما يكذبك بعد بالدين اليس الله بأحكم الحاكمين ﴾[7] وقد جاء ذكر يوم الدين فى الفاتحة بعد ذكر الرحمة العامة والخاصة التى أعطى بها الله كل مقتضى الدين والخلاص يوم القيامة ورتب عليها ما يستحق من حساب اتساقاً مع الميزان العدل الذى حمله كل القرآن فى الترغيب والترهيب والبشارة والنذارة والجنة والنار .

﴿ إيّاكَ نَعبُدُ وإيّاكَ نَستَعِين ﴾ (4) (5)

اياك التفات وانتقال من حمد وذكر لله إلى خطاب له – سبحانه – مباشر ومن باطن إيمان الى تصديق وتعبير بحركة الحياة العابدة لله ، وسبقت فى الخطاب كلمة إياك ولم يتاخر ضمير المخاطب لتاكيد التوجه التوحيدى الخالص الى الله . ونعبد تشير إلى الحال المضارع من العبادة ، ومعناها نخضع ونذل ، والكلام فيها شهادة جماعة المؤمنين، فجاءت نعبد 'وليس أعبد' ، فالمؤمن لايوحد الله عبادة الا اندرج فى صفٍ موحدٍ للمؤمنين يجمعهم منهج حياة موحدة هدى للعبادة فى عالم محيط من الطبيعة ، الأشياء كلها تعبد الله طوعاً وكرهاً تميزاً عن الذين ضلوا وخرجوا من بنى الإنسان . 'واياك نستعين' خطاب تاكيد ايضاً للاستعانة بالله وحده فى العبادة فكل حياة المؤمنين ابتلاء لا يستغنون فيه من الاستعانة برحمة الله من أجل إخلاص العبادة وبكل ما سخر لهم فى الوجود المعنوى والمادى لئلا يكون الوجود المشهود فى الحياة الا موضوعاً وعوناً لعبادة الله .

﴿ إهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيم ﴾ (6) (7)

---

[5] سورة غافر الاية 16

[6] سورة الكافرون الآية 6

[7] سورة التين الاية 7

بعد ذكر الرحمة والحساب لله والعبادة والاستعانة من العبد لله ، الهداية هى أول طلب المؤمن ، فالإنسان لا يجد الهدى إلا برحمة الله وعونه ولا يعتصم الا به مخافة يوم الدين . والصراط هو السبيل الواضح الحدود والاتجاه ، والمستقيم السالك نحو الأمام صوباً ، فالمؤمن من يدعو من الله استقامة على صراط العبادة نحوه — تعالى — مما لايلقى بغير رحمته وهدايته وعونه ، وذلك كله يرجوه موكب المؤمنين فى معادهم مع سائر الكون فى سبيل الله رب العالمين .

﴿ صِرَاطَ اللذِين أَنَعمتَ عَلَيهِم غَيرِ المغضُوبِ عَلَيهِم وَلا الضَّالِين ﴾ (6–7) (7)

صراط من رحمهم الله وأعانهم وأنعم الله عليهم بنعمة الهداية فهو الصراط المنشود والصحبة المنشودة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .[8] والمغضوب عليهم هم الذين جاءهم الهدى فخرجوا عليه و فسقوا عنه عمداً فاستحقوا غضب الله وعقابه يوم الدين، والضالون هم الذين جاءتهم الهداية ولكنهم لم يستقيموا عليها إذ الضال من احتار فى وجهته متذبذباً غير مستبين ولا مستقر على الطريق المستقيم نحو الله .

۞ جرت سنة المسلمين على قول ’آمين’ ذكراً جهراً فى ختام الفاتحة سائلين الله المؤمن أن يستجيب لدعائهم ويؤمن ما يرجون فيأمنون وتلك ، سنة حسنة لكن ينبغى أن تضطرد مع تلاوة كل دعاء آى القرآن ، كما ينبغى أن يتجاوب المؤمن مع كل خطاب فى القرآن بالذكر الذى يناسبه على ألا يقع ذلك خلطاً فى كلام الله أو غفلة عن تدبر معانى التلاوة .

[8] سورة النساء الاية 96

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البقرة

خلاصة هدى السورة

بعد خاتمة القرآن تتلو سورة البقرة لأنها أطول السور . وهى أول التنزيل فى المدينة لكنها امتدت حتى نزلت أواخرها فى آخر التنزيل . وكانت منَ ثَّم فسطاطاً هدياً للحياة التى اجتمعت شعاب الدين فيها للمجتمع المسلم فى المدينة . هكذا جاء فيها ذكرٌ للقرآن رسالةً لاريب فيه ومعانى الايمان بالله والغيب شهادة بالآيات الموحاة والمشهودة، وتذكيرٌ بتجارب التدين الانسانى من أصلها إلى آخرها عهداً مع الله طاعة لأمره وتوبة بعد المعصية ورسالات متجددة . وكانت فاتحة قرآن المدينة تحريراً لدين المؤمنين الذين تطهروا بهدى القرآن المكى من الجاهلية، لتخليصهم ووقايتهم من الثقافة الكتابية المنبسطة فى المدينة . وكانت السورة بشمولها تكميلاً مفصلاً لشعائر التعبد المسنونة الأساسية ذكراً وصلاةً وصياماً وحجاً وقد سبقت أصولها فى القرآن المكى . وكانت بياناً لشرائع فى الحياة الخاصة كحِل الطعام الطيب وحُرمة النفس ، والاجتماعية مثل اسرة الزواج والمبارّة والرشد ، والاقتصادية كالإنفاق الطوع ومعاملات المال الحلال ، والجهادية دفاعاً عن النظام السلطانى الناهض فى المدينة . وهى من ثَمَّ زهراءُ القرآن يتجلى ضياؤها الواسع بالمعانى والأحكام الواردة فى سائر سوره . وقد أخذت اسم " البقرة " إذ وردت فيها قصة بنى إسرائيل مع أمر الله أن يذبحوا بقرة ، وكانت ذات مغزى بالغٍ اوضحَ مثالٍ لتعطيل أوامر الشرع بالمجادلة المتنطعة تساؤلاً عن ثبوت جدية الخطاب ثم مجادلةً متفرعة بشعاب مقاصد الأمر وفروعه ليتعيّن إيقاعه ، وتلك علةٌ تفوّت أصول الشريعة ومقاصدها الكلية وتعوّق نزول حقها فى الواقع ، موعظةً للمسلمين من سوء فقه الشريعة وعوق العمل بمهتداها ، وتذكيراً بَانَ خطره فى ضوء مسيرة المسلمين الخالفة .

لقد تكثفت تعاليم الدين التى حوتها السورة هدياً لواقع مجتمع المدينة يتوالى تطوراً مع الابتلاءات لعهده الأول وعند ختام رشده . كذلك تُوحّد السورة وحى الله الغيبى نزولاً من السماء وايمان المسلمين وإيقاعه منهم عبادة مشهودةً فى الارض ، وتوحدت بها الشرعة والمنهاج المستقيم عبر سنن ذلك المجتمع ، وكانت تلك التعاليم تزكية لعقيدة الإيمان بشتى شعابها وبياناً لوجوه التعبير عنها فى شعائر العبادة وشرائعها التى ذكرتها آيات السورة موصولة فى سياقها تتداخل وتتكامل توحيداً لكل الحياة المسلمة . وفى تفسير آيات السورة مرتلة تأتى معانى التوحيد فى وحدة ترتيبها خطاباً لعهد التنزيل ، وفى إجمال تفسيرها يتجلى وقعها هدياً متحداً لآماد الخلود فى خطاب القرآن . ولئن تبينت السورة كذلك علماً وعملاً وديناً متحداً ، ففيما يلى ذكرٌ متباين لموضوعات هديها المتشعب ، مرتبة علماً ونظراً لما تحيط به من مناحى الحياة فسطاطاً جامعاً من تقاسيم الهداية .

- كان أول مفتتح السورة ذكرُ إعلاء القرآن الكريم بحروف بيانه العربي لأمة الخطاب ، وبوقعه على المتقين هدياً وعلى ظلمات المنافقين برقاً ورعداً ، وبإعجازه لما دون الغيب بما يتحدى المرتابين أن يأتوا بسورة مثله داعين شهداءهم فى الأرض ، وبأسلوبه في ضرب الامثلة بياناً حقاً للمؤمنين وعجباً وحيرة للكافرين . ثم الذكر للإيمان بالقرآن مصدقاً لما أُنزل من قبله على السنة التى وعد الله بها الانسان لمهبط آدم ان تتوالى كتبُ الهدى حيث تأتى الآيات البينات ويتعاقب ببلاغها الرسل متفاضلين لكن متحدين برسالة الحق بينما يختلف الناس من بعدهم بغياً يتفاقم إلى قتال . وتتناسخ تلك الايات عبر الزمان بإستخلاف ما هو مثلها أو احسن حتى جاء القرآن . وإن حامل آخر أمانة ورسالة لايؤمن به أهل الكتاب قبله يهوداً ونصارى إذ غشيتهم العصبية ، وكذلك العرب الذين ضيعوا ارث صحف ابراهيم . والإيمان الحق ألاّ يُفرق بين الرسل والكتب وان تُردّ كل الملل بأسمائها إلى ملة الإيمان والعمل الصالح فى سبيل الآخرة .
- وأساس هدى السورة دعوةٌ لأصول الايمان بالغيب ، توحيداً لله بلا شريك من ولد أو أنداد ، ومعرفته خالقاً مصرفاً لكل شئ وتعظيمه حيا قيوماً محيطاً علمه بأمر الإنسان وسلطانه عليه . وتذكر السورة الآيات الشواهد على ذلك فى طبيعة الكون ، فى الأرض مهاداً ومنبتاً للحياة والسماء وما ينزل منها من خير وحركة والنفع فى الفلك والرياح والسحاب . والايمان بالغيب كذلك يهدى للآخرة أزلاً بعد زمان الدنيا حين يحي الله الموتى بعثاً جديداً . و كلمة الحق فى البعث تشهد بها دورة الحياة بعد الموت الطبيعية المشهودة ، لكن قد يجادل فيها من تطغية وتفتنه سلطة الملك المتصرفة فى الأحياء ، وقد لايطمئن إلا بآية مشهودة من يرى مظاهر الفناء فى الارض ومن لايعلم كيف يجمع الله ويحي بعد الانتشار والموت ، وتُلحق السورة تباعاً كلَّ كلمة هدى أو تكليف بواعظ الجزاء فى الآخرة ودافعةً وفاقاً بشيراً للإيمان والعمل الصالح بالنعيم الخالد ونذيراً للكفر والعمل الظالم بالعذاب . والسورة كذلك تبلّغ علم غيب الملائكة المقدِّسة لله المدركة فضل علم الانسان الساجدة لخدمته الحاملة لرسالة الهدى اليه من الله ، وغيب الشياطين العاصية لله الساخرة المضلّة للإنسان تأمره بالسوء والفحشاء و تحرّم عليه بعض الطعام إفكاً وتخيفه من عاقبة الإنفاق .
- وتروى السورة تجارب دين الانسان . أولها لدى ابى البشر آدم فى الجنة من حين خلقِه وعرضِه بين الملائكة وابليس ، إلى متاعه فى الجنة الحلال إ لا شجرة محرمة ، إلى إزلالٍ من الشيطان نحو المعصية اعقبها متابٌ فإهباط إلى الأرض والحياة الدنيا عالم البلاء والوعد بهدى التنزيل المعُين وبجزاء الآخرة العائد . وتذكر السورة كذلك تجربة ابراهيم سالفِ العرب واليهود نسباً وهدياً ، تذكر تمام وفائه بكلمات الابتلاء فإمامته المستحقة فى الدين تُكسب ولاتورث ، وهجرته الى حيث البيت الحرام مثابة للناس وأمناً مطهراً للعابدين المصلين مرفوعة فيه أركان المسجد . وتذكر السورة

دعوات أبراهيم لأهله أن يرزقهم الله بإيمانهم فى أرض فقر قد يبسط الله فيها المتاع وان يهديهم إلى دين الإسلام ونُسكه للقيام به سنّة امةٍ داعية ، ثم دعوته الله أن يرسل فى ذرية ابنه إسماعيل منهم من يتلو آيات الله ويعلم ويزكى ، وكذلك تذكر وصيته بالإسلام سنة وراء إسحق ويعقوب . ذلك دين إبراهيم الذى نسيه من ذريته الجاهليون وانقطع منهم عن ملته الكتابيون .

- ثم تروى السورة تجربة بنى إسرائيل المنبسطة آثارها فى ثقافة المدينة ، تذكّرهم بسالف نِعم الله الذى فضلهم على العالمين ، بواقعة النجاة من طاغوت فرعون عبر البحر ، وبحالة المهجر والعيش فى الصحراء الميتة بمدد من الغمام والطعام والشراب ، وبتمام الدين بعد الإنقاذ بالهداية ، ميعاداً وكلاماً لموسى من الله وكتاباً فرقاناً وأخذ الميثاق عليهم . تذكّرهم كيف كانوا ينسون النعم ويطوون بينات الوحى ويطلبون الآيات المادية المشهودة دليلاً على رسالة الغيب ، وكيف كفروا بآيات الله تلك وقتلوا الأنبياء من بعد وقست قلوبهم من الإيمان وعطّلوا الصلاة والزكاة والبر مهما يأمرون به الناس ، تذكرهم خشية يوم الآخرة إذ لاشفيع وعدل ولا نصير ، وكيف ضل إيمانهم بها وإذا ذكروا ادعّوا أنهم لاتمسهم النار إلا أياماً معدودة ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً من نعيم العاجلة ويرون الآخرة خالصة لهم ولكنهم لايتمنون الموت نحوها بل يحبون طول الحياة . وتذكرهم الآيات كيف كانوا مع أمانة الكتاب منهم من يكتبون فيه إفكاً بأيديهم وأميون ولايستمدون منه إلا أمانى ، وكيف انشغلوا عنه بتقاليد السحر البابلّى الغيبى ، وكيف تولوا عن ميثاق الشريعة المأخوذ بقوة ونسوا الوصايا بتزكية الإيمان وشحوا بأموالهم من الإنفاق للمحتاجين ، وكيف احتالوا على اعتكاف يوم السبت كله عبادة وقد تعهدوه نذراً ، وكيف وعطلوا الشريعة نظماً بالتماس الفروع تنطعاً كقصتهم مع أمر ذبح بقرة ، وكيف خرجوا على أحكام حفظ الدماء بينهم وألاّ ينفى بعضهم بعضاً من ديارهم بينما كانوا يردونه بعد الأسر فداء ، وهكذا اقتسموا بين حظ الدنيا وحق الدين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ليستحقوا الخرى فى العاجلة والعذاب فى العاقبة . وتذكر الآيات أن اليهود والنصارى على هدى كتاب واحد لكنهم فى اختلاف وشقاق يتعازلون طائفية ويقومون معاً عصبية فى وجه القران والرسول والمسلمين مدّعين ألاّ هدى إلا فى ملتهم وأن لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى أمانى بلا برهان . ولذلك تأتى الآى توئس المؤمنين من الطمع فى إيمانهم جميعاً بالحق المتجدد ، وتصف عصبيتهم وخلقهم كفراً وتكذيباً وحسداً وحرصاً أن يرتد من آمن بها ولو الى ضلال الجاهلية البعيد ، وتصف منافقتهم لأهل الإسلام لما غدا ظاهراً بالمدينة إذا لقوهم قالوا آمنا واذا خلوا تناجوا بالاستهزاء وتلاوموا على تبليغ كتابهم القديم والحجة فيه لحق القران ، كما تصف حملاتهم عموماً يرمون على المسلمين الصادقين الصالحين بالسفاهة ويدعون لأنفسهم صدق الإيمان وحكر الصلاح . وتوصى الآيات لذلك المسلمين أن يخرجوا من ثقافة اليهود ولغتهم وضلالهم ويعتصموا بالصبر والهدى الجديد .

- وتذكر السورة مشركى الجاهلية الذين قاموا حول آثار إبراهيم وإسماعيل ضيعوا السنة الحنيفية التوحيدية وانتهوا إلى إشراك متصلب صما عن سماع الحق بكماً عن قوله عمياً عن آياته لايسمعون الدعوة ال نعيقاً اكالحيوان ، وسواء عليهم انذروا أم لا فهم لايؤمنون بالله أحداً صمداً بل يعبدون شركاء اولياء تزلفاً اليه ويكفرون بالبعث بتاتاً ، ولذلك مهما جادلتهم دعوة الإسلام بالحق من الغيب طلبوا كسالف الأقوام آيات مادية أن يكلمهم الله أو يأيتهم يوم القيامة قضاء بنزول الله فى الغمام والملائكة . وقد ومنعوا مسجد الله أن يذكر فيها اسمه تعالى المسلمون ، وذلك خُلق يصلهم بالكتابيين الذين بعد الأصل الابراهيمى جعلون لله ولداً ويمنعون المساجد طائفية ويدّعون ميراث الهدى والقلوب غلف مختومة ، وعلى الكتابيين مثل الجاهليين شياطين استكبار يتبعهم الجهال ، وتذكرهم السورة بمشاهد الآخرة اذ يتلاومون هؤلاء معاً فى النار بلا طائل حول التباعة ومصائرها . لكن الجاهليين لايتقبلون اتباع علم منزل بل تراث آبائهم بلا عقل ولا هداية .
- وإذ رسا بالتذكير فى السورة خالص الإيمان التوحيدى فى نفوس المؤمنين وتمكن عهد الشرع وخلق التقوى واستقر الوعى بلقاء الله وحسابه فى الآخرة تطهراً من رواسب الجاهلية وتحرراً من ضلالات الكتابيين ، أسست السورة على تلك الأصول شعائر التعبد المسنونة وشرائع التكليف فى حياة المجتمع المسلم فى المدينة . فشعيرة الصلاة تعبيراً عن التعبد الخاشع صلة وزلفى إلى الله من المؤمنين دعتهم آيات السورة أن تقام مسنونة يحيا ويتزكى بها الإيمان بعد أن كانت فى الجاهلية قد غمر سنتها السهو واللهو ، وقومت الآيات كذلك قبلة الصلاة من المقدس إلى المسجد الحرام تعبيراً عن وجهة التدين المتجدد المتحرر من التراث الكتابى القديم بالقرآن والإسلام والذكرى لأصول الحنيفية الإبراهيمية ومقام مركزها المطهر الحرام . ولذلك ذكرت الآيات أن قبلة الصلاة ليست ظاهر جهةٍ فأينما يولى الإنسان ثمّ وجه الله ، ولكن هى رمز التوحيد والتصويب لوجهة الحياة كافة إلى الله ، ذلك لتقوم الأمة المسلمة لله وسطى شاهدة على الناس لاتتبع سفه الكتابيين الذين يرون التولى عن قبلتهم ضلالاً وهم يعرفون هدى القران رشداً حقاً . ويتوالى ذكر الصلاة فى السورة موصولاً بسائر الشعائر لأنها صيام لحين وتوجه نحو مقصد الحج ، وترد الوصية بالاستعانة بالصلاة والصبر على ما ينازع وجهه الممسلمين من بلاءات تزلزلهم بالمصائب فى الأموال والانفس والثمرات واستشهادات الجهاد، وأن يداوموا لذلك وقعها فى الحياة فى حالات الخوف والأمن يسراً . ويتوسط ذكر الصلاة آيات أحكام الأسرة لأنها فتن تستدعى التقوى التى تغذيها الصلاة وحدود يرعاها الخاشع المراعى دقيق سنن الصلاة .
- وكذلك كتبت فى السورة شعيرة الصيام التى كانت سنة من قبل فى سالف الدين وبدأت فى حياة المسلمين اياماً معدودة تتوالى كل شهر ثم استقرت جملة ويسراً كل شهر رمضان ذكرى لعيد

منزل القران الكريم . والهدى أن يراعى المؤمنون الصيام بحدوده واوقاته لترسخ فى انفسهم التقوى تمدها الصلوات والأذكار للكفّ عن كل مكروهات القران تزهداً فى المبتغيات الفاتنو وقربى من الله خبث الكلام وصدوا عن شهوات الطعام والزوجية الا معذوراً للمرض والسفر يتوب إلى الصيام كفارة ذلك المفطر أياماً اخرى والصيام موصول باعتكاف المساجد صلاة وذكراً وتقوى من شهوة الزوجية ، وداع للإنفاق لأنه تقارب من حال الجوعى فالصدقة أثناءه وآخره أو كفارة . وإذا تزكت تقوى الصائمين تذكرهم الآى ألاّ يأكلوا أموال الناس بالباطل ولا يدلوا بالرشاوى للحكام ابتغاء الظلم ، وإذا تحروا حلول رمضان وانقضاءه أن يراقبوا سائر الأهلة للحج ومواقيت معاملاتهم لا تعرف الجاهلية ليستجيبوا إذا مضت الأشهر الحرم الغدر واقتحام البيوت عدواناً على حال السلم بين الناس ، ولكن كما يتذكرون فى رمضان القرآن الفرقان بين الحق والباطل ويتزكون بالصبر على احتمال بلاء الصيام يتهيأون لمعارك الفرقان الجهادية ومصابرتها ويباشرونها بالتقوى الضابطة لحمية القتال .

- وكذلك تفصّل السورة شعيرة الحج والعمرة المسنونة منذ عهد إبرهيم لكن نقصت معانى الشعائر عن معانيها الخالصة وغشيتها أعراض إشراك وأعراف ضلال ، فلذلك الوصية أن تتم الشعيرة لله ذكراً ونية مما تُزكى به مساعيها إحراماً من الشهوات ووقوفاً وإفاضة من عرفة كأنها مهبط آدم إلى دار الفتنة ولذلك موالاة للذكر عند المشعر الحرام ثم الطواف إلى الصفا والمروة ثم الشعائر والأذكار فى أيام منى . والآى تزكى خلق المسلمين المجتمعين بتقوى المجتمع وذكر محشر الآخرة فلا رفث ولا فسوق ولاجدال بل فعل الخيرات ومراعاة وحدة المسلمين ومساواتهم اذ يفيضون فى المناسك ويتبادلون الفضل والتجارة وزاد التقوى . ولأن الحج سفر يعبر الأرض ربما يتعرض للإحصار والعدوان ويتعلم الحجاج فيه الجهاد يرمون للشيطان بالجمرات ويصطفون معا لكل المناسك كصف الجهاد . والحج وصول لعين المسجد الحرام يعمر بالصلاة عنده وقد كانت تستقبله عادة من بعيد وقد يصاحبه الصوم كفارة و هدى الأنعام والصدقة تكافلاً بين الحجاج . تلك عبر التوحد المزدحم فى تقوى وسواء مهما تتباين صفوف الناس خلافاً بغير التقوى والسلم والحق .
- سوى شعائر الذكر والصلاة والحج الخالصة لله النيات المسنونة التعبير ، تبسط السورة هدى شرائع الحياة العامة للمؤمنين ومعاملاتهم . تخاطبهم أولاً بالطعام ، واجب المعاش الراتب ، أن يأكلوا الحلال الطيب شاكرين لربهم متقين فى ذلك أى عرف فى تحريمات الطعام بإيحاءات الشيطان ، ذلك أن الله الحرام على المؤمنين عافية وتطهراً فى لحم الميتة والخنزير ومأهل لغير الله به قرباناً اشراكياً ، ذلك إلا من اضطر فى مخمصة غير باغ ولا عاد فان بقاء الحياة اكبر داعياً لحفظ حرمتها . ولئلا تستباح تلك الحرمة قتلاً للأنفس بغير الحق تهدى السورة لحق القصاص على

القتلى سواء دون مراعاة لأعراف للجاهلية التى تصرفه عن الرقيق والإنسان ، وانما ينصرف القصاص بالعفو ولو عوضاً بدية تؤدى وتتُبّع بالمعروف والاحسان مما يطفئ روح الثأر العادية وكذلك يحفظ هدى السورة وعى المؤمنين الذاكر لله وطيب علاقاتهم وعدلها دون الفتنة ولذلك يحرم الخمر والميسر تجاوزاً لابتغاء النافع الأقل لهواً وكسباً بضربة الحظ الظالم . وآيات السورة توصى عموماً بالبر الجامع صدقاً وتقوى قوامة خلق مؤصل على الايمان يزكية الإخاء بالصلاة والصدقة والزكاة فيرعى فى ذات البين الوفاء بالعهود ويلازمه الصبر على بلاءات الحياة الشاقة بأساء وضراء وساعة بأس .

- وتفصل السورة لمجتمع المؤمنين الجديد أحكام الأسرة التى تعمر الحياة المعاشرة فيها وينبغى أن تزكيها التقوى والتى تتربى فيها وتؤدب الذرية لحمل أمانة الدين . وتقدم الآى ذكر الرعاية الحسنى لأضعف نفس فى الأسرة، اليتيم الذى يفقد الأبوه وتغشى من يتولاة فتنة التصرف فى أمواله فيُوصى بالصلاح دون الفساد . وتؤسس الآيات الزواج على الإيمان والتقوى والشرع لا على الشهوة والعرف وحسب ، ذلك أن الايمان شرط لعقد الزوجية دون مخالطة طرف مشرك ولو صاحب الايمان رق ، وذلك أيضاص ألاّ تُباشر الزوجية على الحيض دون التطهر كما يتطهر المؤمن للصلاة ، وان المقصد وراء إشباع الشهوة حرث لذرية كما يحرث المتقى بشائر لقاء الله . وتذكر السورة كل غواشى رحمة الصلة الزوجية من عرف إيلاء كف عن المعاشرة أو طلاق فصلاً للعاقدة او الوفاة نهاية بقدر الله ، فتضع لذلك الأحكام المقدرة آجالها رجوعاً بعدها لمن شاء أو رعاية لمدى حرمة الزوجية بعد الرمل أو تحوطاً لآثار حمل فيها . وتحدد الآيات توازن الحقوق فى المال والتصرف وحق المتاع للمطلقة والأرمل وتوخى المعاشرة بالمعروف والاحسان ولو خطرت للنفوس مكرهة ، تضع لذلك حدوداً لم يشرع مثلها لعقد آخر فى علاقات المجتمع . وتذكّر الآيات بالتقوى وموعظة الآخرة ورقابة الله ، وتبسط الرضى والتشاور أساساً لحرية التصرف فى علاقات الزواج دون اعضال لسلب حق أو لحرمان من التصرف بجبر فى العلاقات ، وتمتد الشورى وراء موعد الزوجية لرعاية آثاراها رضاعة للأطفال بعدل .
- والسورة تعزز هدياً للدين بدأ من أول القرآن المكى أن يُنفق المال طوعاً وتقوى ليكون دولة بين من يستخلفهم فيه الله وعباده المحتاجين ، تداولاً وتشاركاً . فحين يحضر الموت من ترك خيراً عليه الوصية ليبسط تركته بين الوالدين والأقربين وإثباتها بالشهادة ثم يُحسن تقويم الوصية عند الإنفاذ لإصلاح اى جنف. وتُشيع السورة هدى إنفاق عفو المال للوالدين والأقربين وما وراء ذلك للمحتاجين صدقة أو نذراً بالعطاء . لكنها ترشّد الإنفاق ألا يلاحقه منّ ولا أذى ، وخير من ذلك وقول معروف وترجية غافرة . ومورد الإنفاق ينبغى ألا يكون من الخبيث المزهود بل من الطيب المكسوب والمرزوق . ووجهه قد يكون جهراً ينشر به عرفاً او سراً خيراً . وصوب الإنفاق إنما يرجع

خيراً للمنفق فهو لاينحصر عطاء على المؤمنين المهتدين ولا ينكف عن المحتاجين المستعفين الذين لايلحون السؤال . والإنفاق يتصل دائماً بالجهاد فى سبيل الله لحاجة المجاهدين . كل ذلك حصاده اجر مضاعف كثيراً كناتج زرع الحبة الواحدة المتضاعفة ، وذلك فى الاخرة ما دام المنّ والأذى والنفاق لايبطلة يخيّب عاقبته ساعة الحاجة عند الله . وإنفاق الكسوب هو مجاهدة للشيطان الذى يدعو للشح ويخيف من الفقر ويوصى بالفحشاء فى كيف العطاء ، والله الرازق يبتلى ويامر بهت ويعدُ المغفرة والفضل العظيم عاقبة للمنفقين . وتكثيف الوصايا بالانفاق نهجاً عاماً لتداول المال جاء فى خواتيم السورة قرب نهاية سيرة البناء لنموذج الإسلام بالمدينة تذكيراً بان المال نعمة كالحكم لايحتكر بالقوة بل يتداول عفواً بين المؤمنين . ولحفظ ذلك المنهج تحرم تلك الآيات مداولة المال بربا عائد تسخيراً لحاجة المدينين ، وانما ينبغى ابتغاء الربح الحلال بالبيع والربا أجراً عائداً عند الله بالإنفاق ، وتوصى بالتقوى وبالموعظة من العذاب وبالوقف لمعاملات الربا بقوة لانبساطها مغالبة من الأغنياء للفقراء ، وتأمر كل مرابٍ أن يخلّى بقية موعود الربا بل ينتظر المدين ذا العسرة لأجل ليستوفى رأس ماله وحسب أو يلتمس خيراً فيعفيه وينتظر بتقواه يوم الرجوع إلى الله لوفاء العوض العادل . وإنما الدِّين السمح القسط هو القرض لأجل مسمى ، وينبغى ان يحمله فوق الريب كتاب عدل و توثّقه شهاده حق مهما صغر ويحميه إن تعثرت الكتابة فى سفر رهن أو ائتمان ، لكن يتداول المال بالتجارة الحاضرة المشهودة ولو بغير كتاب . ولا يضار فى ذلك كله أحد بل تُراعى التقوى لله الذى يعلم ويحاسب فى المعاملات البادية والخافية .

- والسورة فى المدينة وثقافتها الكتابية ولأول عهد بإذن المقاتلة تُقدم لهم عبرة تحرة بنى اسرائيل فى الجهاد ، إذ هاجروا مع موسى حذر الموت وتعرضوا له وأُحيوا بآيات ، وقد أوصوا بالإنفاق ، فشحوا ولما أمروا بالجهاد والفتح صدوا عنه ، ذلك حتى تهيأوا للقتال له مع نبى خالف . وكان فى تجربتهم مواعظ كيف تولى كثيْر عن الجهاد بعد طلبه ، وكيف أرادوا القيادة له عن إرث وثروة لا عن كفاية ، وكيف تعرضوا لفتنة تراخى النفير تلبثاً عند نهر عارض ومن بعد تخوفاً من مشهد العدو وعدّه الأعظم إلا من توجهوا نحو الله والاخرة متوكلين داعين ربهم النصر فانهزم العدو . السنّة –كما تعنى الآيات – أنه لا تمضى الدعوة والحكمة ولاتقوم الدولة الا بالمدوافعة بين الحق الصالح والفساد . وقد فُرض فى السورة القتال ولو كان جديداً يغشى المؤمنين منه كره لعاجل محاذرة ، وإنما الخير فى آجلته . وتُعزّز الآيات الفرض تذكيراً بالدوافع الايمانية وبالاستعانة بالصلاة والدعاء والصبر على بلاء الاستشهاد والخسران والزلزلة حتى حافة اليأس . ولكن الآيات ترسم حدود الأحكام فى القتال وتُوصى بالتقوى فى مضابطه لأنه منازعة بالحمية ، ألاتتجاوز حال السلم الأصل بين الناس غدراً على بيوتهم لاستهلال شهر غير محرم وألا يقاتل المؤمنون إلا من اعتدى عليهم يدفعون شره بقدره وإلا من فَتن فيهم حرية العبادة حتى ينتهى ،

وألا يقاتلوا فى المكان الحرام كالمسجد أو الموقت المحرم المعروفة أشهره إلا رداً وجزاء ، فليقوموا مجاهدين ولينفقوا فى ذلك ليتقوا الهلاك ، والله ناصر مع المجاهدين فى سبيله المتقين، وبينما الردة افتتاناً من العدوان محبطة للعمل الجهاد رجاء مغفرة ورحمة من الله .

- وآخر السورة ذكر دعاء مثل الهدى المسنون أدبار الصلاة والصيام والحج . وذلك إعلانُ صدق إيماناً بالغيب بالله والراسالات الواحدة وشهادةُ وسمع وطاعة لللتكاليف المنزلة بقدر الوسع نحو المصير للآخرة وفق الكسب ، ثم يرفع المؤمنون الدعاء ألا يؤاخذهم الله على الخطأ والنسيان وألا يغلّظ على المخطئين بإصرٍ من التكاليف كما سلف لآخرين وألا يحمل الطائعين فوق الطاقة بل أن يعفو عنهم ويغفر ويرحم ، وأخيراً يقدم المؤمنون ولاءهم لله ورجاءهم ان ينصرهم على القوم الكافرين .

ترتيل المعاني الآيات 1–29

﴿ الم ﴾ (1)

الألف بهمزها : من الحروف الحلقية ؛ اللام لسانية ، الميم شفوية — وهى حروف متوالية تمثل كل مخارج النطق لحروف العربية ، وهذا التمثيل للعربية فى أول السورة إشارة — أولاً — للبيان . فالقران كتاب بين واضح مركب من ذات حروف لغة العرب المفهومة لأمة الخطاب . وهو إشارة — ثانياً — أنه كلام معروف لكنه مصدره وحى تحدياً لمن كذبوه من أهل اللسان العربى انهم لم ولن يستطيعوا أن ياتوا بمثله ، وما لمحمد أن يأتى بمثله من عنده .

والحروف : الف ، ولام ، وميم هى الحروف الاكثر وروداً فى هذه السورة ، وفقاً لهذا الترتيب .

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ ريب فيهِ هُدًى لِّلْمُتقِينَ ﴾ (2)

ذلك : إشارة للأبعد بحرف خطاب ، وهى اشارة لرفعة القرآن ، ليس بعداً عن الإنسان بل خطاباً يُعليه للقارئ منذ الرسول ﷺ .

" **الكتاب** " : ’ كتب ’ معناها أصلاً أنزل وألزم مثله قول القرآن كثيراً : كتب عليكم .. فالكتاب لغة ليس بالضرورة مخطوطاً على الورق ولكنه هنا ارتبط بذلك المعنى لأن ما سجل مخطوطاً أشد وقوعاً وإلزاماً ، ولأن أصل الوحى القرآنى فى لوح محفوظ ، ولأن كلمة ’الكتاب ’ أو ’المصحف’ جرت اصطلاحاً على المقروء قرآناً ، ثم سارت تعبيراً عن كل مخطوط مسطور .

" **لاريب فيه**" أصلاً ، لا فى معناه فهو بلغة أهل الخطاب ، ولا فى مصدره فلن يستطيع بشر أن يأتى بمثله فهو من الله

" **هدىً** " : متصلة بالدعاء وسط سورة الفاتحة . وهو الهدى الذى يصل بالقبلة عبر الصراط المستقيم ، ولا يشير ذلك إلى قدر طبيعى بل هو هدى للمتقين الذين يستجيبون له فيهديهم . وفى فطرة الإنسان بذرة لمن شاء أن يتقى الله فيتقبل الهدى لا أن يجنح للفسوق فيضل كما فى الاية :" يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين" *

والتقوى هى فعل من يتقى اتقاءً ، يحتمى الانسان من محذور ، وفى سياقات القرآن هى أن يتقى الإنسان بكسبه الابتلاءات التى تحيط به فى عالم الشهادة فيتقى عاقبة المصائر المخوفة فى عالم الغيب . وترد التقوى كثيراً خلال آيات سورة البقرة ، إذ نزلت اياتها فى مرحلة تأسيس المجتمع المسلم

* نفس السورة الاية 26

بالمدينة والانتقال من عقائد الشرك والجاهلية وأعرافها وثقافتها اتقاء لذلك إلى الإسلام . ولأن دواعى الضلال والانحراف كثيرة فى مثل هذه المرحلة .

﴿ الّذين يُؤْمِنُونَ بالْغَيْبِ ويُقِمُونَ الصّلاَةَ ومَمّا رزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (3)

المتقون لفتن أعراض الكون الراهنة لتعلقات البشر الصارفة لوعيهم عن الغيب ، أولئك هم الذين يؤمنون بالغيب والملائكة والجن واليوم والآخر وبصلة الغيب بالإنسان فى الدنيا عبر الوحى بالكتب والرسالات ووقعه تكليفاً بالعبادة وابتلاء من ورائه تأييد الملائكة أو إغراء الشياطين ثم عاقبته الجزاء فى الآخرة فالجنة والرضوان أو النار والغضب .

ويقيمون الصلاة فيؤدونها قواماً بلا عوج ولا عجز ، شعيرة عبادة تأخذ المؤمن إلى ربه خاشعاً بقلبه وبلسانه وبجوارحه جميعاً حقاً لا فعلاً لأشكالها فقط . فالصلاة هى العبادة تصل المؤمن الفرد بالله واحداً معبوداً ، وتصله ذكراً بكتابه ، وتصله مؤمناً بسائر حقائق الغيب الذى بنيت عليه وذكرت بعده مباشرة ، وتصله بجماعة المؤمنين الذين يقيمونها معاً .

بعد الإيمان بالغيب ، وهو وعى وعلم ويقين نظرى معنوى بالله واقامة الصلاة وهى صلة ذكر وعمل بالله وبهداه وبالمؤمنين ، تذكر الآية فعل المتقين فى تصريف مكاسبهم فى الحياة فهم منفقون من الأموال التى تُنسب إلى أقدار الله مسخر ما فى السموات والارض نعماً ورزقاً للإنسان ، إنفاقاً يصل المجتمع بعضه ببعض كالصلاة ، إعطاء صدقة من بعض الكسب المرزوق.

﴿ والّذين يُؤْمِنُونَ بمَا أنزل إليْكَ ومَا أنزل من قبْلكَ وبالأخرة هُم يؤقنون ﴾ (4)

المتقون المهتدون الموصولون بالله ايماناً غيباً وشعيرة صلاة وزكاة ولأنفسهم أيضاً الواصلون لهدى الله عبر الزمن متواتراً لا ينقطع ، المؤمنون بما أنُزل على الرسول المخاطب ، وما أنُزل من قبله من كتب الرسالات ، وتلك إشارة لأهل الكتب السابقة الذين عمرت بهم المدينة عهد نزول البقرة والذين كفروا بالرسول ﷺ وادعوا إيماناً بما قبله . والآية تمهد للآيات الواردة من بعد تفصل قصصهم ومواقفهم من الإيمان الآية قدّمت ذكر الآخرة تاكيداً ، وأثبت الضمير ' هم ' تأكيد إشارة لأولئك المؤمنين ، أنهم يصلون الدنيا بالآخرة والزمان بالأزل ، واليقين تأكيد إيمان بالآخرة . والآية تمهيد لذكر أهل الكتاب ، لانهم بتطاول العهد تضاءل ايمانهم بالغيب لايكادون يذكرون الاخرة عاقبةً وقت نزول القرآن مثل أهل الجاهلية الماديين المنكر البعث .

﴿ أُولئِكَ عَلَى هُدىً مّن ربِّهِمْ وأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ ﴾ (5)

الهدى فى الآية مرتبط بالهدى فى أول السورة تصديقاً فى الواقع ومرتبط بطلب الهدى فى سورة الفاتحة منهج استجابة ، فالهدى كله موصول لفظاً ومعنى . والمتقون الذين يؤمنون بالغيب ويصدقون ذلك

فعلاً بالصلاة والإنفاق ويمدون إيمانهم بالرسالات حاضرها وماضيها وبالوجود دنيا عاجلة وأخرى آجلة ، ' اولئك ' إشارة وتاكيد لمقامهم الرفيع – على هدى من ربهم وأولئك هم – مزيد تأكيد بتكرار الإشارة والضمير لهم خاصة – المفلحون الذين ينالون الفلاح والنجاح فى عواقب الدنيا والآخرة .

وجملة الآيات السابقة تثبت القرآن عربياً بيناً وهدى لمن اختار وسلك طريق التقى فى الدنيا من المؤمنين بالغيب المقيمين جماعة لشعائر الصلة بالله المنفقين المتواصلين بالانفاق مما انعم به عليهم الرازاق والمومنين بالكتاب المتصادق والرسالات الموصولة كل التاريخ بكل آماد الوجود حتى الآخرة ، وأولئك حقاً على الهدى والفلاح . والبعد عن القران انحراف عن التقوى ، وضلال عن الهدى ، وترك للصلاة ، او عوج فيها وغفلة عن الله وانعزال عن سائر المصلين ، وكفر بالله أصلا لنعمة الرزق ومن ثَم إمساك ، وقصور عبر ابتلاء مرّ الزمان عن الإيمان بالرسالات ارتهاناً وعصبية للسالف ، وانحصار على عالم الدنيا المشهود فضلال عن طريق الفلاح. هكذا يذكر صدر البقرة اصول الدين والإيمان .

﴿ إن الَّذين كَفَرُوا سواء عَلَيْهِم أنذرْتَهمْ أمْ لمْ تُنذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ ﴾ (6)

الذين كفروا حقاً الذين غطوا فى نفوسهم فطرة الإيمان ، والاشارة فى الآية للكافرين فى مكة وحول المدينة الذين أحاطوا بالرسول والمسلمين ، لذا لم يتكثف ذكرهم كما تكثف فيما يلحق ذكر أهل الكتاب وذكر المنافقين فيما يلى مباشرة وهم ظهروا بثقلهم فى المدينة . وسواء عليهم ، على الذين كفروا ، ما كان من انذار الرسول ﷺ منذ مكة أو لم يكن فهم لايؤمنون ، وذلك تثبيت لأمر الرسول ﷺ بعد الأسى عليهم وتأسيس للعلاقة معهم على القطيعة التامة فلا رجاء فى إيمانهم ، بينما ذكر المتقون وأيمانهم وأعمالهم . الذين كفروا لايؤمنون (بصيغة المضارع) حالة متدرجة صاعدة متصلة ، فقد مضى أمرهم لم تجد فيهم النذارة حتى يذهبوا فيعتدوا فيصدعهم الجهاد والفتح وتنشرح قلوبهم للايمان .

﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعَلَىأبْصَارِهِمْ غشاوةٌ ولهُم عَذابٌ عظيمٌ ﴾ (7)

كذلك مضيت فيهم عاقبة قدر بما فعلوا ، ختم الله طابعاً على قلوبهم وسمعهم وجاءت الغشاوة على أبصارهم ، لأن الغشاء على النظرحجبه عن البصر النافذ الى آيات الله ، والغشاوة لاتحجب السمع وإنما يحجبه الختم . 'وسمعهم ' جاءت بالمصدر ، لأن وظيفة السمع جماعية فالصوت والكلام يلتقطه كل من حضر ، ولكن العين قد تنظر وتبصر ما لايبصره حاضر اخر فى نفس المكان فجاءت الابصار بالجمع لتعمّ . والآية فى ارتباط مع الاية قبلها ، تشير إلى كفار مكة وصلابة قلوبهم ونأيهم عن سماع القرآن ثم عن إدبارهم وعميانهم عن آيات الله ، ولهم مع تلك الصفات عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة . والآيتان تذكّران بكفار مكة وقد مضى عهدهم عند نزول البقرة ، وثلاث آيات سبقت

بذكر المؤمنين وعددهم قليل فى المدينة ، ولكن فى المدينة كثير من المنافقين الذين تذكرهم عدة آيات تاليات .

﴿ ومِنَ النَّاس مَن يَقُولُ امنَّا باللهِ وباليَوْمِ الأَخِرِ ومَا هُمِ بِمُؤْمِنينَ ﴾ (8)

ومن جملة المخاطبين فى المدينة بالرسالة أناساً ذوى سابق جاهلية أوكتاب بعض يقولون آمنا ، من يعلون دعوى إيمانهم ، وجاء ذلك بالفعل المضارع لأن السيّاقَ عن حالةِ المنافقين الحاضرة فى المدينة ، وليس حالة الكفار الماضية الذين ختم الله على قلوبهم فى مكة .

وقد يجئ ذكر الإيمان بالغيب معطوفة معاينة بالواو – إيماناً بالله واليوم الآخر ، ولكنّ الباء هنا انضافت إلى واو العطف تعبيراً عن ادعائهم المؤكد أنهم يؤمنون بالله وأيضاً بالآخرة وهم حقاً فى غفلة عن الله وغفلة أتم عن الآخرة.

﴿ يُخَادعُونَ اللهَ والَّذينَ امَنُوا ومَاَ يخْدَعُونَ إلاَّ أنفسهم ومَاَ يشعُرُونَ ﴾ (9)

أدعياء الإيمان المنافقون يخادعون بدعواهم ، يحاولون أن يخدعوا الله والذين امنوا ولكن ما يخدعون أو يخادعون إلا انفسهم ، ينافقون ظاهرها بباطنها مطمئنين وما يشعرون إحساساً يستقر فى نفوسهم بعجز ذلك الظاهر أن يخدع الله العلام بالقلوب . المنافقون المخادعون كانوا فى صدر عهد المدنية من أهلها بعضهم كانت له مصالح وآمال فى المجتمع قبل مقدم الإسلام ، وأكثرهم كانوا من اليهود أو ممن تأثروا بثقافتهم الدينية ، وقد أكلتهم الغيرة من قومة الدين الجديد .

﴿ في قُلُوبهم مَّرضٌ فَزَادهُمُ اللهُ مَرَضاً ولهُمْ عذابٌ أَليمٌ بِمَا كانوا يَكْذُبونَ ﴾ (10)

أولئك فى قلوبهم مرض رواسب كفر فى شعاب الذهن لاتمر خاطرة بل تنعقد عقيدة يستشعر الإنسان وقعها المحسوس برسائلها إلى القلب وتقلّبه بضربات اضطراب وبدفعات دم من مشاعر النفس الراهبة ظهور الإسلام إلى الجوارح نحو الحركة اللازمة جراءة بالوجوه ومنافقة بالألسن .

فالإنسان بذهنه إما فى كفر صميم وقلب منختم أو إيمان متين يطمئن به القلب مهما تحركت الأهواء والشهوات الدنيوية ، أو هو فى خواطر ذهن متذبذبة بتردد المشيئة ووقعها على القلب ، وذلك مرض تقلب وعلة اضطراب مما اكتسب المنافقون ، هو يزداد كلما أمعنوا فى النفاق .

تلك سنة الله لمن كسب علة القلب باختيار وسار متمادياً تتيسر له سنة الله ليزداد علة ، ومن كسب صحة القلب وصابر تيسر له ذلك فازداد ايماناً . أما الأولون فلهم فى العاقبة عذاب أليم بما كانوا يكذّبون (قراءة) دين الحق . والآية فيها إشارة لمن كان مريضاً فى تدينه من بنى إسرائيل بالمدينة وازداد مرضاً بقدوم الإسلام ومن كان مريضاً بأخلاقه الاجتماعية وازداد .

﴿ وأذا قِيل لهُم لاتُفسدوا فى الارْض قالوا إنما نحْن مُصْلِحون ﴾ (11)

﴿ أَلاَ إنُهمْ هم الْمُفسِدُونَ ولكِن لاَّ يشْعُرُونَ ﴾ (12)

قلوبهم مليئة بمرض المنافقة والمخادعة وفعلهم فى الأرض الفساد . ولكنهم يدعون أنهم هم مصلحون ، حتى إذا نُهوا عن الافساد نصيحةً تُقال لهم من المؤمنين ألا تفسدوا فى الأرض فقولهم المجيب كله ادعاء أنهم هم مصلحون، لكن الحق المؤكد أنهم هم المفسدون ، وان لم تشعر قلوبهم المريضة بأن سيرتهم فى الأرض الفساد الذى بين الناس . وقد كان زعماء فى المدينة نافقوا أو كتابيون أو متأثرون بثقافتهم الدينية يحسبون أنهم بمعايير المدينة السائدة قبل الإسلام هم المصلحون .

﴿ وإذا قِيل لهُم امنوُا كَمَا امنَ الناسُ قالوا انؤمن كما امنَ السُّفهَاءُ ألا إنهمْ السُّفهَاءُ ولكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ (13)

وإذا أوصوا بالإيمان كمثال إيمان الناس تساءلوا منكرين أنؤمن نهج إيمان السفهاء كما يحسبون المؤمنين . وثقافة اليهود الدينية الغالبة كانت تسّفه العرب لاسيما المؤمنين منهم بالرسالة الجديدة . والسفه ضعف العقل . ويؤكد القران بقطع الكلام والتنبيه والتاكيد والضمير المشير : ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون أين موقع السفه . وجاءت 'يشعرون ' مع الإفساد لأن الفساد أمر مادى واضح ، والسفه قياسى عقلى يحتاج للعلم والتقدير ، وهولاء لايشعرون بحقائق الصلاح ولا يعلمون بحق الرشاد .

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا امنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ (14)

﴿ اللهُ يستهزئُ بِهِمْ ويمُدُّهُمْ فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (15)

إذا قاموا فى وجه المؤمنين قالوا آمنا واذا خلوا عن هؤلاء وناجوا شياطينهم من أحبار اليهود أو بعض زعماء المنافقين قالوا لهم مؤكدين أنهم معهم وأنهم مستهزئون بالمؤمنين بمقالاتهم . وَشَطَنَ : ابتَعَدَ ، فالشيطان من شطن عن الهدى.

الله يكافئهم بمثل فعلهم يستهزىء بسفهم ويزيدهم طغياناً على سنة التسيير على التخيير والمد حسب الكسب . وطغى : زاد ، فالله يمد لهم طغياناً بعد طغيان ، ليمضوا عامهين فى البصيرة كانهم عمون بصراً يترددون بنفاقهم فى اضطراب قلب وحيرة طريق .

﴿ أُولئِكَ الذين اشْترَوُا الضَّلالَةَ بالهدى فما ربحت تجارتُهمْ وما كانوا مُهتدِينَ ﴾ (16)

شرى باع واشترى أخذ . أولئك المنافقون الطاغون العامهون أخذوا الضلالة عوضاً عن دفع الهدى ، وتلك معاوضة وتجارة يرجون ان تعود عليهم بالربح الاجدى ، لكن تجارتهم ما ربحت وخسروا الهدى فما كانوا مهتدين

﴿ مَثَلُهمْ كَمَثَلِ الَّذى اسْتوْقدَ ناراً فلمَّا اضاءتْ مَاحوْلهُ ذهب اللهُ بنورهمْ وتركهم فى ظُلُماتٍ لاَّ يُبْصرُون ﴾ (17)

يضرب القران الأمثلة ويقايسها . مثل المنافقين وهم من الكفار كالذى استوقد واجتهد فى ايقاد النار ، فلما أضاءت محيطه ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . والسياق فى المدينة أن المنافقين كانوا يهوداً أو أولياء لهم يلتمسون الهدى فى التوراة يستفتحون وينتظرون ظهور نبى ورسالة ، فلما جاءهم النبى والقرآن مصدقاً لما معهم مضيئاً أعمتهم الحسادة فذهب الله بهداهم ، كمن استوقد ناراً فلما اضاءت ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . أو كان فى المدينة عرب فى حاجة للهدى من خلال الجاهلية وكانوا يلتمسوا الهدى فى تراث أبيهم إبراهيم فلما اضاء لهم القران كل شعاب الحقيقة الحق ضربوا طريق التكذيب والمخادعة والمكابرة والمنافقة والضلال فمضت فيهم سنة الله ان يمدهم فى مسيرهم عمى فى الظلمات

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ (18)

اولئك خسروا مجمل الحواس بالهدى ، فهم صمٌّ لايسمعون هدى القران ولو قالوا سمعنا انما يطرق آذانهم صوت القران لكن معانيه لاتنفذ حتى تبلغ وعيهم وتقع فى قلوبهم ، وبكمٌ لاينطقون بالحق غيرة وحسداًوكتماناً ، وعميٌ عن طريقه لايتدبرون آيات الله المشهودة . وخسران الحواس فى سياقات القران تعنى أن وقع المحسوس الظاهر يفسده خسران رشد العقل وطمأنينة القلب . والحواس فى العلوم الطبيعية ترتبط حقاً بالذهن والوجدان، وانغلاق منافذ الحواس عن الهدى يتجاوز علة الأذن واللسان والعين إلى ما وراء ذلك من مدارك النفس ومشاعرها فى حياة الإنسان . فهم لايرجعون إلى كسب ادارك الحق ، قد ختم الله أمرهم شعوراً وعلماً فلا يرجعون الى الهدى .

﴿ أوْ كَصَيّبٍ مّنَ السَّمَاء فغيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وبَرْقٌ يجْعَلُونَ أصَابِعُهُمْ في اذانِهم مّن الصَّوَاعِقِ حَذرَ اْلموْتِ وَاللهُ مُحيطٌ باْلكافرينَ ﴾ (19)

﴿ يكادُ البرقُ يخطف أبْصارهُمْ كُلما أَضاءَ لَهم مَّشْوا فيهِ وإذا أظْلَمَ قَامُوا وَلَوْ شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأصَارِهْم إن اللهَ على كُلّ شَيْءٍ قدِيرٌ ﴾ (20)

ومثال آخر لأولئك مثل الصيب المطر المركّز النازل من السماء ، والناس تحته تغشاهم ظلمات السحاب التى تتفاعل بأصوات الرعد الصاقع وأضواء البرق اللامع . وذلك المثال يشير إلى القرآن غيثاً ورحمةً منزلاً من السماء ودقاً من الهدى كالماء غيثاً من السحاب مصوباً إلى الإنسان وهو فى ظلمات الضلال السابق ، ويتفاعل الحق مع باطل الأرض وتاتى فى القرآن نذر العقاب تُرهب كالصواعق وتزلزل كالرعد وبشائره وهواديه كلوائح الضوء فى البرق . الكافرون المنافقون ينأون عن القرآن ولايسمعونه يخشون أن يصقع باطلهم فيرديهم كمن يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر

الموت ، لكن الله محيط بالكافرين لايتقونه ولاصارف من أمره . إن مضيئات القرأن تلمح لهم نوراً لكنها كالبرق تبهرهم وتخطف أبصارهم ، يترددون فيه إذا أضاء خطوات على الهدى ، وإذا أظلم عليهم بالشبهات تغشيها اهواءهم قاموا مرتبكين فى الباطل . ذلك نصيبهم من المثال ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم الحواس التى يفسدون مغازيها فى إدراك الحق ضالّين بأهوائهم ، والله على كل شئ قدير يمد لأهل الهوى ويذرهم فى طغيانهم حتى يوم الدين . وسترد آيات البقرة تحكى مواقف اليهود من القرآن هدى السماء بما يمثل هذه الصور من المواقف مع قدر السماء ، وكانوا هم زمرة النفاق فى المدينة والكبار والموالين لسائر المنافقين .

*****

آيات صدر سورة البقرة تقدّم القرآن خطاباً عربياً بيناً لا لزمرة من العاكفين على ممارسة التدين أو مدارسة نصوصه بل لعامة المتقين من الناس المؤمنين بالغيب بالله وقواه الغيبية وأقداره للإنسان خلقاً ومرجعاً والمقيمين شعائر الصلة بالله والناسبين الرزق كله لله فينفقونه صلة بالمجتمع والواصلين رسالات الله المتجددة عبر الأزمان ومراحل الوجود الزمانى الأزلى دنيا تكليف وهدى آخرة حساب وفلاح . والناس أحرار فمنهم من يكفر ولو جاءته الرسالة المنذرة لايسمعها ولايبصر آيات الله حوله فى الكون ولايخشع قلبه لوقعها ، وآخرته العذاب . ومنهم من ينافق الآخرين بعد ظهور الدين المتجدد ويخادع بالدين يدعى فساده صلاحاً والإيمان سفهاً ، يعلنون الإيمان ويسرون أنهم به يستهزئون ويؤثرون الضلال على الهدى ، أولئك من نور القرآن فى ظلمات لايدركون فيرجعون ومع غيث رحمته وهداه هم صمّ عن رعد نذيره وعمون عن برق بشيره فى غفلة عامدة والله بهم وبمصيرهم محيط .
وعبرة الآيات أن تُبلغ رسالة الدين بلسان المخاطبين من أي مجتمع بشرى ليبين لهم طريق الهدى بوضوح ، وأن فتنة الإنسان فى الأرض هى الانقطاع للعالم المشهود دون الغيب والانقطاع عن أسباب الاتصال بالله وهى العكوف على عاجلة شهوات الشح بالرزق دون آجلة الأجر ، وهى الارتهان للماضى حتى إذا تديّن الميل أن ينسى فلا يتذكر وأن يكفر بتجديد الدين اللازم مع تطور ابتلاءات الحياة . ومن الناس من يؤمن بالغيب موصولاً بالله وراء فتنة الشهوات وشهوة العاجلات فيكون مفلحاً بهداه . ومنهم من يجاهر ويصرح بكفره ويصر على عمى عن حجج الآيات وصمماً عن كلمة الحق ، وكثير منهم لاسيما فى أول عهد الدعوة والانتقال للدين من ينافق بين قديمه والجديد ويراضى أهل الحق بينما يرأضى أهل الباطل القديم ويضطرب بين الضوء الطالع والظلام المقيم .

﴿ يَا أيّها النَّاسُ اعْبُدُوا ربّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (21)

الخطاب لجملة الناس فى المدينة مؤمنين ومنافقين وكافرين ، تنبيهاً وأمراً ودعوة لعبادة الله الذى خلق وربى وغذى وتعالى عن آلهة المشركين الذين هم دون ذلك . ذلك الرب هو الخالق لهم والذين من

قبلهم الذين أورثوهم مذاهب ضلال فى العبادة والدين ، هو الخالق لهم جميعاً يبتليهم لعلهم يعبدونه وحده ولعلهم يتقون ما سلف وما قد يخلف من ضلال . وترجع الآية الى صدر البقرة فالعابدون الله المتقون هداهم فى القرآن .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً والسَّمَاءَ بِناءً وأنزل مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأَخْرَجَ بهِ منَ الثَّمرَاتِ رِزقاً لَّكُمْ فرَ تجْعَلُوا لِلَّهِ أندادا وَانتم تَعْلَمُونَ ﴾ (22)

جاءت حُجَج التوحيد عامة خلقاً وتقديراً فالطبيعة . فبعد التذكير بخلق الإنسان جاءت آية الجَعْل وهو التقدير للارض مسخرة للناس فراشاً – مهداً مبسوطاً للإقامة والحياة وللسماء مسخرة تهديهم كواكب أضواء وجهات واوقاتاً وتظلهم سحباً تنزل ماء الغيث لتخرج به ثمرات النبات من الأرض رزقاً للناس وأنعامهم . وتلك تدابير نِعم يترتب عليها الشكر والعبادة والتوحيد . فكيف يجعل المخاطبون لله نداً وقدراً ومثلاً وهم يعلمون ما تفرد به سبحانه خالقاً للانسان وما حوله . وهذا التذكير بآيات الطبيعة متصلة بآيات الهدى المنزلة التى مضى ذكرها مثال يتواتر فى القرآن الذى ينزل من السماء وحياً ويحيي به الله القلوب بعد موتها كالماء الذى يحيى الأرض ، آيات الله كلها متسقة متحدة لهداية العابدين المتقين إلا من شاء من بنى الانسان الكفر والنفاق . وترد عواقب الآخرة وفاقاً ، العابدون فى سلام ونعيم من الطبيعة فى الجنة والكافرون فى شقاء وعذاب .

﴿ وإن كُنتُمْ في ريبٍ مّمَّا نَزّلْناَ عَلَى عَبْدِنَا فأتُوا بِسُةرةٍ نّن مِّثْلهِ وَادْعوا شهداءكُم مّن دُونِ اللَّهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (23)

بعد آيات الخلق والتقدير لنعم الخلق والبيئة والرزق وما اتصلت بها من امثلة ، الآية تشير للقرآن تذكيراً بآية الله فى القرآن كما فى صدر السورة ، وبذلك تتوالى الآيات وحجج الدين ، فالخطاب للناس فى المدينة أن لو كنتم فى ريب مما نزل الله على عبده العابد لله من تلقاء الوحى لا من تلقاء نفسه فأتوا بسورة من مثله . وصدر السورة آية ألا ريب فى القرآن كتاباً من حروف عربية بينة للمخاطبين ، وهذه آية ألا شك فى القران كلاماً عربياً من الله لايضاهيه من يتكلمون العربية . وقد جاء التحدى صريحاً . فالريْبُ المذكور هنا ليس مجرد شك فى العيان أو البيان بل فى مصدر القرآن . فبعد أن أبانت الآيات مواقف الذين آمنوا به والذين كفروا به والذين خادعوا ذكّرت بمثل القرآن فى الطبيعة ثم دعت الناس كافة للإيمان والعبادة تدبراً لدلائل الطبيعة عادت تؤكد مرة أخرى ألا ريب فى مصدر القرآن ، وإن كان عند المخاطبين وهم عرب ريب فلياتوا بسورة من مثل مبلغ القرآن لغة وحكمة ، وتتحداهم آية أن يدعوا من دون الله الذي أوحاه شهداء لهم يصدقون زعمهم أن القران ليس

إلا قول بشر عربى أو أن قد افتراه الرسول الذى يتلوه أو يصدقون استجابتهم للتحدى بإصدار مثله .

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فاَتَّقُوا النَّار اَلّتِى وقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعَدَّتْ للْكَافِرينَ ﴾ (24)

فإن كنتم لم تفعلوا تقليد القرآن ، ولن تفعلوا ذلك ، فعليكم أن تكونوا من المتقين لا من المكذبين لتتقوا الجزاء يوم القيامة ناراً وقودها مادة مسخرة لذلك تطيع الله من جسد الناس والحجارة أعدت لجزاء الكافرين بشرع الله . ولما كانت الحجارة وسائر اشياء الطبيعة تطيع أقدار الله بغير أمانة خيار والإنسان يحمل الأمانة ولكنه يعصى أحكام الله وينكر حقائق الغيب فإن جزاءه يوم القيامة أن يكون مع الأشياء تقع عليه أحكام الله عقاباً وكرهاً مثل شقاقه فالمناخ حوله نار تحترق والحجار حوله تتوقد بها .

﴿ وبَشّر الّذِينَ اَمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أن لهُمْ جَنّاتٍ تجْرى من تحتْها الأنهّارُ كُلّما رُزقُوا مْنها من ثمرةٍ رزّقاً قالوُا هذا الَّذى رُزِقْنَا من قَبْلُ وأُتُوا به مُتَشَابهاً وَلَهُمْ فيها أزْواجٌ مُّطهّرةٌ وهُمْ فيها خَالِدُونَ ﴾ (25)

إن كان ذلك نذير مصير الكافرين فالداعى الحق أُمر أن يُبشَّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم من سبق ذكره فى سياق المواقف من الدين فى مقابل الكافرين – أن يبشرهم أن لهم جنات حدائق من الأشجار تتراتب فى درجات مختلفة تجري من تحتها الأنهار دائمة الخضرة والثمرة فى بيئة تهفو إليها نفوس أهل الصحراء خاصة وكل البشر ، كلما رزقوا من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ، إذا جاءتهم ثمار الجنة تشبه فى شكلها الثمار التى عرفوها فى الدنيا فحسبوا انها مثل الطعم الذى عهدوا وألفوا ، فلم ينفروا منها لغربتها شكلاً وإن كانت طعماً خيراً لم يذقه بشر . ولهم فيها أزواج مطهرة هن من البشر الإناث ، وقد كان بعضهم من بعض وآمنوا وعملوا فى الدنيا ، لكن حسن الأزواج وجمالهن شكلاً وراءه الطهارة من خبث الجسد وسوائل الأنوثة ، كأنهن ثمار الجنة أشكالاً طيبة مألوفة وأحوالاً أطيب .

(والقرآن إذا بشر بمتاع زوجي جزاء الصالح من الأعمال يذكر الإناث وحسنهن فى الجنات حافزاً للذكور ولهن ، ولايذكر الذكور ولو كانت البشرى بذلك الحافز للصلاح موصولة ، ذلك أن الإنسان لم يعهد فى لغته وشعره ونثره حتى لدى الإناث التصويب على محاسن الذكور حافزاً بالشهوة الجنسية إلا عند مقولات الشذاذ وتصويراتهم) .

وكما كانت فى الدنيا أشياء الطبيعة كما قدمنا تطيع قدر الله ويقوم الانسان المؤمن الصالح فيها يوافقها بطاعة شرع الله طواعية بعد أمانة الخيار وكلهم معاً فى الآخرة فى وفاق طيب بيئة ورزقاً – المؤمنون والمؤمنات الصالحون والصالحات فى تزاوج طيب ، وذلك كله فى خلود واطمئنان .

﴿إن اللهَ لاَيسْتحْيِ أن يَضْرِبَ مثَلاً مَّا بَعُوضَةً فمَا فَوْقَهَا فأمّا الَّذِينَ امَنُوا فَيَعْلمُونَ أنهُ اْلحَقُّ مِن رَّبِهِمْ وَأَمَّا الذين كَفرُا فَيَقُولُونَ ماذا أَرادَ اللهُ بِهَذا متلاً بهِ كثِيراً ويَهدى به كثِيراً وَمَا يُضلُّ بهِ إلاَّ الْفاسِقِينَ ﴾ (26)

الآية موصولة بالأيات عن القرآن بلغته عربياً بيناً معجزاً للبشر وعن مصير الكافرين به والمؤمنين ، والسياق يسير موضحاً مواقف مختلفة بين هولاء وأولئك من لغة القرآن . فالله فى أمثال القرآن لايستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، ليعلم الذين آمنوا أن الخلق المصغر كالذباب لايخلقه البشر بل هو آية لوحدانية الله الخالق وأن المشركين بالله أولياء كالعنكوت اتخذت بيتاً فأمثلة الحشرات الصغيرة وما فوقها من آيات الله الأكبر فيها سنن مغازى ومعانى تهدى قياساً إلى الحكمة والهدى ، وأما الذين كفروا فيتحيرون ماذا يريد الله بتلك الامثلة المحقرة . هكذا يزداد كثير من الضالين ضلالاً وكثير من المهتدين هدى بكلمة ومثالٍ ما فى القرآن ، والقرآن هدىً للمتقين ولكن فيه للفاسقين ضلالٌ ولايزيدهم إلا خساراً.

والكفر هُو الإخفاءُ والحجب لدواعى الإيمان فى الفطرة والفسوق هو الانخلاع والانسلاخ من ضوابط الفطرة والشريعة ، والكفر هو الانكار والطغيات بكل العمد والمظاهر ، والفسوق هو الخروج والمروق بجيل التدبير والفنون.

﴿ الَّذين ينقُضُونَ عَهْدَ اللهِ من بَعْدِ ميثَاقهِ ويَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ ويُفسِدونَ فى الأرْض أُولِئكَ هُمُ الْخاسُرونَ ﴾ (27)

الفاسقون الذين ارتابوا بالقرآن وعجبوا به وهو الكتاب المبين الحق من الله الذى يذكّر بنى الإنسان بميثاق فطرتهم مع الله أن يؤمنون فيصلوا ربهم وخلقه ويصلحوا فى الأرض . اولئك هم الضالون الذين أصبح خلقهم أن ينقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ويفسدون فى الحياة . أولئك الكافرون عموماً ولكنها إشارة خاصة لأهل الكتاب الذين أخذ عليهم الميثاق بالرسالة المنزلة بناء على عهد الفطرة ، أولئك كانوا بالمدينة قادة الحملة على القرآن بادعائهم أنهم أهل ثقافة العلم ورثة للكتاب والأنبياء لكنهم بسيرتهم السالفة كلما عاهدوا الله عهداً نبذه فريق منهم ينقضون ازاء القرآن خاصة ميثاق الكتاب أن يؤمنوا بالرسول اللاحق والكتاب المصدق ذلك الميثاق الذى اتخذه الأنبياء السالفون الذين يدعون وراثتهم ، فيقطعون ما أمر الله به أن يوصل من تراث الأنبياء الذى وصله الله ألا يتفرق وموكب المؤمنين الذين وحدهم الله أمة واحدة ، بل يقطعون الصلة بين عالمى الشهادة والغيب

غفولاً عن الآخرة ، وبذلك الانبتات في سنن الوفاء لعهد ا الدين والتقطيع لشعاب الأمة ومراحل الوجود لا توحيدها وإسلامها كلها لله هم يسعون فساداً لا إصلاحاً فى حياة الأرض ومجتمعها ويصيرون إلى خسران فى الدنيا والدار الآخرة .

﴿كَيْفَ تكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أمْوَاتاً فأحْيَاكُمْ ثُمَّ يُميتكُمُ ثُمَّ يُحْييكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ ﴾ (28)

الآية تعم الخطاب لجملة من سبق ذكرهم ممن يكفرون عن تراث جاهلى أو يكفرون بعد تراث دينى ، والآية موصولة بما سبق فى أول السورة إيمانا بالغيب وعبادة لله على هدى تنزيله ويقينا بالآخرة . وقد سبقت الإشارة إلى علة أهل الكتاب إذ نسوا الإيمان بغيب الآخرة والجاهليون الذين انكروا أصلاً البعث والحساب والرجوع إلى الله فى الآخرة . الآية تستنكر الكفر بالله الذى خلق الإنسان لأول الأمر من عدم وأحياه بذلك من موات ثم يموت الأنسان سنة محتومة باجلها ، فكيف يكفر الإنسان بالله قادراً على دورة أخرى من البعث ولإحياء الآجل ثم الرجوع إلى الله فى آخر الأمر حيث الحساب والمصير المجازي لكسب الدورة الأولى .

﴿ هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاواتٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (29)

والله – من بعد خلق المخاطبين لم يتركهم لأنفسهم بل خلق بيئة الأرض كلها لهم ثم استوى إلى البنية الأسمي فسواها سماء دنيا فيها كل عظائم النجوم والافلاك شاهداً على ست طبقات وراءها تمتد افاقها إلى سماء سابعة مطلقة . فالكون نعم الله المشهودة حول الإنسان ومسويات الله المغيبة يتوحد ويمتد فيه عالم الشهادة نحو عالم الغيب ، والله الخالق المسوى هو وحده بالغ العلم بكل شئ هنا أو هناك وأول الأمر وآخره.

عموم المعاني الآيات 1–29

إذا كانت سورة البقرة بأوائلها تقدم رسالة القرآن التي يذهب الناس منها مؤمنين مهتدين وكافرين ضالين ومنافقين ذوي وجهين ، فالسورة من بعد تدعو الناس كافة لعبادة الله تدبراً فى آيات جليلة لله فى الطبيعة وفى خلق سلالة الإنسان والأرض والسماء والغيث والنبات ، آيات بينات لله خلقاً للانسان وامداداً وصرفاً له عن أن يتخذ لربه أنداداً ، آايات ذلك فى القران هى أيضاً بينات مذكرة إذ تصوّر وحى الله للانسان هدى بعجزه أن يماثله فيستغنى أو يتسعين بغير الله ، ومن ثم فليتق الإنسان أن يصير فى الآخرة إلى النار قطيعة ومشاقة مع الطبيعة حوله التى شاقها فى الدنيا بعصيان الله وهى تطيع ، وليعمل صالحاً بشارة للمصير إلى سلام ونعيم مع الطبيعة والأزواج فى الجنة . إن النقد للقرآن تعبير عن مواقف العقيدة ، فالكافر يلتمس مسألة بلاغية للنقد هى ذات التى يزداد بها المؤمن اطمئناناً . والذى ينقطع بفنون النقد للقران هو الذى اتخذ من الدين كله موقف القطع لا الوحدانية أو الوصل ، إذا عاهد الله يقطع وينقض ، وإذا أُوصى بصلة العلاقات وحدانية عبادة فى الحياة يقطع

، وإذا أُوصى بصلة المجتمع الإنسانى بالصلاح يقطع ويفسد. كيف ووجود الإنسان موصول بالله لا ينقطع عبر الأزل، من موجود فى القدر لا فى عالم الشهادة إلى حي يعبد الله مؤقتا إلى ميت بقضائه فى عالم الشهادة إلى مبعوث راجع إلى الله . كيف والإنسان موصول بما فى لأرض المسخر له من الله والسماوات موصولة طبقات وموصولة بالأرض .

ترتيل المعاني: الآيات 30–39

﴿ وإذ قَالَ ربُّكَ للْملائِكَةِ إني جَاعلٌ فى الأرضِ خَليفةً قالُوا أَتجْعلُ فِيها مَن يُفْسِدُ فيهَا ويَسْفكُ الدّماءَ ونَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقدّسُ لَكَ قَالَ إني أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلمُونَ ﴾ (30)

الآية تنعطف بالواو بعد ذكر سنة الإنسان موتاً فحياة ثم موتاً فبعثاً فى الحياة الآخرة . وترجع الآية لأول تأريخ الإنسان فى قصة آدم لبيان النمط الأول لمسيرة الإنسان خلقه وتأهيله وتكريمه وإدراجه فيمن حوله من موال له ومنائى وابتلائه بنعم المعاش وتكاليف التقوى طاعة وخطيئة وتوبة مع الله ثم اهباطه إلى عالم الشهادة فى الأرض تتنزل عليها رسالات التذكير و التكليف والإنسان بين الملك والشيطان والهدى والكفر حتى يوم القيامة . والقصة تقص ما فى سنة الله وفطرة الإنسان وما بين الله والإنسان من رسالة وتكليف وابتلاء من الله وطاعة أو معصية وتوبة من الإنسان ومصير له عند الله . وقد جاءت قصة آدم فى القرآن فى مواضع اخرى ، وجاءت فى هذه السورة موصولة بسنة رسالات الهدى وتاتى بعدها مباشرة قصة بنى إسرائيل نعمةً وعهداً وسيرة مرتدة وصحبة مع الانبياء من بعد موسى ، والقران يذكرهم أن هذه الرسالة متصلة متصادقة منذ آدم عليه السلام والى محمد ﷺ .

'إذ' ترد فى القرآن لتذكر وتنبه إلى مواقف ومفاصل هامة فى التاريخ منسوبة إلى سياق الآى ، كما تذكر و تبين هنا – خطاباً للنبى محمد ﷺ وهو بشر يُبتلى كما ابتلى آدم ويقوم أسوة وداعية لمن حوله – مقولة ربه للملائكة مهاداً لخلق آدم والملائكة ارواح من العالم المستجن الغيبى انطبعت على طاعة الله واداء أمانة تكليف فأتخذ منهم رسلاً ويبلّغون ملأكةً رسالةً أقداره وآياته من عالم الأزل والغيب الى عالم الزمان والشهادة فى ذلك الحين الأزلى العظيم الذى اتجهت فيه الأقدار من الغيب الى القضاء فى العالم المشهود بخلق الانسان ليتهيأ فى الأرض تعينه من الغيب الرسالات ، قال الله للملائمة إنى جاعل فى الارض خليفة مخلوق لايخلد ألإراده فة الدنيا لكن يسيرون حياة إلى موت باجل ويتزودون بكسبه فيها إلى بعث فحساب عند الله فى الغيب فهم فى الدنيا يتعاقبون خلفاً من بعد خلف كلما ذهب فرد من بشر أو جيل أو قرن تلاه من السلالة آخر . واستغراب الملائكة جاء من أنهم ما كانوا مطلعين إلا على الأزل بعد خلقهم وما عهدوا إلا طاعتهم الخالصة لله ورأوا من مد نظر الغيب الذى يعبر بهم الى الزمان وأحقابه رأوا حال الإنسان وطوال سيرته وما فيها من صلاح

وفساد . وما صدمهم فيها ظواهر عصيان الله والفساد وسفك الدماء لان ما سيقع من بعض الإنسان من الصلاح والطاعة والتسبيح هو معهود أصل حالهم ودوامها فلم يروا فى صلاح الإنسان إمراً عجيباً ، بل تعجبوا كيف يخلق الله انسالاً من البشر يملّكهم الله الارادة والطاقة فينزعون للافساد وسفك الدماء مفارقة لخلقهم هم مسبحين لله سابحين بعظمته فوق كل المخلوقات مقدسين له منزّها عما دونه حامدين له ثناءً وشكراً بكل صفة فيه حسنى وكل نعمة لمخلوقاته ، مطهرين من كل الذى يغشى عالم الغيب من المعاصى الروحية التى يرتكبها فساق الأرواح الجنية ، تعجبوا من الحكمة فى مخلوق بشرى يقوم أجساداً عرضة لأن تعتريها النجاسة وأن يرتكبوا المعاصى الظاهرة فى عالم المادة إفساداً وسفكاً للدماء ، فأجابهم الله أنه يعلم ما لايعلمون من مغزى تلك الخليقة ومصيرها .

﴿ وَعَلَّم آدَمَ الأَسْمَاءَ كلهَا ثم عَرَضَهُمْ عَلَى الْملاِئكَةِ فَقَالَ انبئُوني بأَسْمَاء هَؤلاء إن كُنتمْ صادِقِينَ ﴾ (31)

الاسم لغة (قبل مصطلح النحو) السمة الدالة على طبيعة الشيء ووظيفته وعلائقه فى الوجود وعلّم الله آدم الأسماء ، علم الإنسان أن يتعرف بإدراك الظواهر والسمات طبائع الأشياء ووظائفها المسخرة لتعامله ودلائلها آيات يعرف بها ربه وسننه . فالذى يتميز به الخليفة الإنسان على الملائكة انها ترى الله وتسمعه مباشرة فى عالم الازل والغيب بينما هو حين نزل لعالم الشهادة يرى آيات ربه فى سمات الخالق التى عُلّمها ويسمع الرسائل الموحاه المنزلة على عالمه من الغيب علمه الله البيان ، لانطق اللسان بالأصوات إشارة لتمييز ظاهر الأشياء ، بل البيان البالغ ، تعرّف الأشياء آيات بينة نفاذاً بها عبر الغيب إلى الله . والملائكة تطيع الله بطبعها كما تعرفه ، والإنسان مخير أن شاء نفذ الى معرفة ربه بآياته المشهودة وأطاع تعاليم الوحى المنزل ، ولكنه قد يقف عند الظاهر من الحياة الدنيا يفتنه ويلهيه ولايصل إلى معرفة ربه ، وقد يسمع تعاليم الوحى آيات لأمر الله فلا يسمع بقلبه ولايصل الى الله بل يكفر ويغمر طاقة الإيمان فى فطرته عصياً لأمره تعالى .

والإنسان قد أُعْطى النجدين مخيراً عالماً شاكراً أو ضالاً كافراً . فعلمه بالأسماء أو بالسمات لأشياء الكون المشهود حوله قد يهديه إلى آيات ربه فى الطبيعة وفى الشريعة ، وقد يكفر أى يغمر فطرة العلم . وإنما أُعطى الخيار بإعطائه العلم الذي يمكنه إن شاء من السعى لمعرفة الله والاهتداء لطاعته بكسبه . لكن الملائكة الذين استغربوا حكمة تمكين الإنسان فى الأرض بقدر يتيح لبعض بنيه العدوان والفساد والمعصية لله ، أولئك الملائكة عرض الله عليهم ذات الأشياء من عالم الشهادة ، إشارة للأشياء المعروضة بهولاء ضمير الجمع للعاقلة لانها منفذ االعقول لمعرفة الله وأُمروا إمتحاناً لهم أن ينبئوا بأى حيث منها يهتدون بأى أسماء وسمات لها يرونها آيات شاهدة هادية إلى الله أن كانوا صادقين أنهم كالإنسان طبعاً وعلماً ولو كانوا مثله خلقاً فى الارض وراء عالم الغيب فى عالم الشهادة

لادركوا معرفة الله ولكانوا فى مثل الهدى والطاعة المطلقة التى هم فيها ولما شذ منهم من يعصى ويفسد كما رأوا في سيرة الإنسان المستغربة .

﴿ قَالوا سبحانكَ لاَعلْم لنَاَ إلاَّ مَا عَّلمْتَنا إنكَ انت الْعَليمُ الْحَكِيمُ ﴾ (32)

جاوبت الملائكة لله ان سبحانه أن تُستغرب حكمة خلقه حتى لمن عصى وأَلا علم لهم إلا ما علمهم الله ملائكة بينما علم الإنسان السمات والآيات عبر الغيب ، وشهدوا لله أنه سبحانه هو بالغ العلم يعطى منه من شاء وما شاء بالغ الحكم دقيقه يخلق من شاء بما شاء من مدى التخيير وراء التسسير ليقدر له ماشاء من العلم والتكريم وليذر لمن شاء ان يباين بالغفلة والمعاصى المادية وليقرر بحكمه الحكيم الفصل بينهم يوم المصير الذى يسوى المسير .

﴿ قالَ يا آدمُ انبئْهُم بِأَسمائهمْ فَلَمَّا أنبأهُمِ بأسْمائٍهِمْ قالَ ألمْ أقُل لَّكُم إني أعْلَمُ غَيْبَ السّماوَاتِ والأرْضِ وأعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما كُنتُمْ تكْتُمُونَ ﴾ (33)

عرض الله للملائكة بعد خلق آدم مدى ما علم وامتاز عليهم وأمره أن ينبئهم بكسبه وميزته فنفذ بين أيديهم من بيان الأشياء نطقاً باللسان إلى معرفة سماتها حقاً بالجنان والإنباء عن مدلولاتها التى عبر الغيب آيات بينة لمعرفة الله وحكمة خلقه وحق عبادته . فجاوبهم الله بعد ذلك ان تلك هى البينة انه سبحانه كما قال لهم من قبل يعلم غيب السموات والأرض من فطرة آدم وطبعه وخياره ومسيرة حياته ومصيرها والكون ، وأنه يعلم ما أبدوا من استغراب لخلق العاصى وما كتموا من استحقاره وغيرتهم منه وجهلاً بحكمة تمكينه فى الأرض ، و يعلم البادى والمكتوم من المقارنة بينهم وبينه قبل أن يعلمهم الله حكمته بالامتحان والبيان.

﴿ وإذ قُلْناَ للْملائكة اسجُدُوا لآدَمَ فسجدُوا إلاَّ إبْليسَ أبى واسْتكْبَرَ وكَان منَ الْكافِرِينَ ﴾ (34)

"إذ" تنبيه للموقف الجديد فى علاقة الملائكة والإنسان التى أصبحت سنة أزلية قضاها الله وسنها أولاً بأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريماً لعلم المؤمن وميزته وتهيؤاً لخدمته ولموالاته فى عبادة الله وهم المرسلون إليه من الغيب إلى عالم الشهادة لأكاً ،فسجد الملائكة إلا إن إبليس من عالم الجن أبى لأنه لم ينطبع على الطاعة والخشوع كالملائكة بل خلق وخير فكان عصياً لأمر الله مستكبراً كافراً ومضى فيه وذريته أنه من الكافرين لا المؤمنين، فهو قطب البعد من الله والعداء للانسان والملائكة فى قطب القربى والإنسان بينهما وبهما حيثما اختار ساكناً أو متقلباً . أما سائر الجن فهم يتسمعون الوحى منهم الصالحون من الذين سمعوا الرسالات حتى القرآن فرشدوا مسلمين ومنهم الفاسقون .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكنْ أنتَ وزوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغداً حَيثُ شِئنمَا وَلاتقربَا هَذهِ الشَّجرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمينَ ﴾ (35)

وكلم الله آدم وهو الزوج الذى انفلق من النفس الواحدة ذكراً ودُعى البنون نسبة لاسمه الذى حمله من سمرة التراب مادته واصبحت مشتقاته للإلفة والخلطة والبشرة والطعام ، وهو ما انفك فى عالم الأزل

يكلمه الله مباشرة لما ينقطع بعالم الشهادة عن عالم الغيب ، وكانت تجربة رسالة من الله للإنسان ، كلمه الله بالنعمة له هو وزوجه التى بقيت من النفس الواحدة هى الأنثى التى تلد وحملت اسم حواء من لون المادة الأسود الأخضر ولانها أم تستدير وتُحرز ، ابيح لهما سواءً ذكراً وأنثى أن يسكنا الجنة ويأكلا منها رغداً سمحاً وبأمر الله ألا يقربا – فالقرب من الحمى الحرام منزلق — شجرة معينة ، فالحرام محدود والحلال طيب حيثما شاءا ، والوقوع فى الحرام يصبحان به فى الظالمين الذين ظلموا بتعدى الحدود العادلة البينة بين الحلال والحرام ، وقدر الله لادم وزوجه تجربة فى الجنة لأجل وحكمة . فبعد تجربة الملائكة مع آدم الذى أُعطى العلم والخيار جاءت تجربة الطبيعة المسخرة والتكليف بالشريعة سمحةً إلا حدودها المعنية .

﴿ فأَزَلَّهُما الشيطان عَنْها فاخْرَجَهُما مَمَّا كانا فيهِ وَقُلنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لبَعْضٍ عَدُوٌّ ولُكْمْ في الأرْضِ مُستْقرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ (32)

تتواصل التجربة بإزلال الشيطات للإنسان ، ذكراً وأنثى سواء ، عندما يغرّه فيدفعه إلى الحرام وكسر الحدود ليستحقا الحرمان والخروج من النعماء . والجنة حال من النعيم كانت فى الأولى وستكون فى الآخرة على الأرض فالهبوط بعد الزَّلِلِ هبوط حالى لآدم وذريته من بنى الإنسان فى تجربة دنيوية . الشيطان عدو المؤمنين لايريد بهم خيراً ، والمؤمن عدو الشيطان يستعيذ بالله منه ويجاهده ، ومن والى الشيطان من البشر واتبعه ضل عن الحق ضلالاً مبيناً . وأبلغهما الله مدّ الابتلاء ، لهم فى الارض مستقر من الحياة ومتاع يمتحنون به. إلى حين الموت فأجل البعث ورجوع الإنسان إلى الآخرة .

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إنهُ هُوَ الَّتوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (37)

فتلقى آدم من ربه كلمات موعظة تحاوب معها مستغفراً فتحاوب الله معه غافراً . وتلك أوبه وتوبه بين العبد المؤمن وربه بعد الخطيئة ، إن الله هو التواب الرحيم بالغ المتوبة لأنه يتوب على الإنسان مرَّة بعد مرة ، كلما ومهما يفرط فى تكرار كسر الحدود اذ كان اوابا يستغفر ، والرحيم الراحم دقيق الرحمة على زلات الإنسان واتباعه وساوس الشيطان .

﴿ قُلْنا اهْبطُوا منْهَا جميعاً فَإمَّا يأْتِيَنَّكُم مّنّيِ هُدىً فمن تبعَ هُدلي فَلاَ خْوفٌ عليهمْ ولاهُمْ يحْزنونَ ﴾ (38)

وكان أمر الله للإنسان والشيطان جميعاً على تعاديهما الهبوط من حال الجنة والغيب إلى حال الأرض عالم الشهادة حيث النعماء ليست حالا تلقائية بل مقاصد ينالها الكسب المبارك والهدى ليس بكلام الله المباشر بل بالرسالة الموحاة . وهذه موعدة و بشرى بتعاقب رسالات الهدى الآتية من الله تعُين الإنسان على فتن شهوات الدنيا ووساوس الشيطان فلا خوف عليهم فيما يستقبلون فى الآخرة ولا هم يحزنون على ما فات فى الدنيا .

﴿ والَّذينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بأَيَاتِنا أُولِئكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيهَا خَالِدُونَ ﴾ (39)

يتقدم ذكر المؤمنين وحسن عاقبتهم على الذين كفروا بالله وكذبوا رسالته ، سبق ذكرهم بذلك الترتيب فى سورة الفاتحة ، كما يرتب العابد لله فى دعوته وكما يرتب أبناء آدم المهتدون بتجربته وبالآيات التى كفر بها وكذب الآخرون آيات الكون المطبوعة والوحى المشروعة . وأولئك الكافرون أصحاب النار وهم فيها خالدون — دار الخوف من مستمر العذاب والحزن على السيئات فيما مضى ، ذلك فى الاخرة وقد يفتنون فى الدنيا بغير تلك المخاوف . وتماثل حال الدنيا ولآخرة وفاقاً فى الجنة بين الأشياء تطيع قدر الله والمؤمن يطيع شرع الله أو شقاقاً بين الأشياء والكافر فى النار . ذلك التماثل فى عبرة قصة آدم هو فى العبرة أن شذوذ الإنسان دون المخلوقات الطبيعية بالمعصية يهبط به من الجنة إلى الدنيا لكنه بالتوبة يُفتح له بعد الإمتحان باب الرجوع إلى الجنة إن لم يسقط فى الكفر والنار .

عموم المعاني: الآيات 30–39

هذه القصة لسيرة آدم وحواء فى هذه السورة هى نموذج لسيرة البشر من بعد وعبرة لصلتهم بالله ومخلوقاته فى عالم الغيب والشهادة . فالانسان علّمه الله بأن جعل فى فطرته طبيعة قابلة لكسب العلم الذى يصله بالله معرفة لآياته من خلال سمات كل أشياء الطبيعة الشاهدة ، وهو فى ذلك مخير أن يجتهد ويفقه الآيات ويبلغ إلى العلم بالله أو أن يقصر فلا يعلم إلا ظاهر الأشياء والحياة . والإنسان بذلك تميز عن الملائكة فسُخرت له الملائكة لتعينه على الفقه بآيات الله الطبيعية إن شاء . والله يمتحن الإنسان بتحريم محدود شريعة لاطبيعة وإباحة واسعة ، ولكن شهواته تنازعه نحو تجاوز الحدود . وبينما تعينه الملائكه سُخر الشيطان الذى أصر على استحقاره وعداوته ألا يعينه بل على محاولة إضلاله عن ذكر الله واخراجه عن حدوده . والإنسان عرضة للخيار والتقلب اما الهدى بالفطرة وبكلام الله وتأييد الملائكة فالطاعة من جانب أو النسيان للفطرة والشرع وإغراء الشيطان فالمعصية من جهة اخرى . ولكنه إذا عصى قابل لأن يستغفر ويتوب نحو الله نحوه مرة بعد مرة . والانسان فى ذلك سواء ذكراً او أنثى أصلاً وابتلاء وحرية وسلوكاً ومرجعاً إلى الله . ونزول آدم إلى الأرض حجبه من الغيب ولكن الله وعده بهدى رسالاته وحياً ومن وراء حجاب والملائكة والشياطين غيباً والطبيعة شهادة من حوله والفطرة والشهوات فى نفسه والطاعة أو المعصية والتوبة من خياره . والحياة الدنيا كلها ابتلاء له وخيار بين تلك الأقدار . والله معه وفاقاً لكسبه يصله فيوفقه ويرحمه أو يقطعه فيضله ويشقيه ، ذلك فى حاضر الأرض وعاجل الدنيا ، ثم الآخرة يبعث الإنسان للحساب ليرى خير

كسبه فى الدنيا نعيماً ورضواناً من الله وشر كسبه عذاباً وغضباً من الله ويرى العلاقات المناسبة المماثلة وفاقاً لحياته الأولى مع الملائكة ومع الشياطين ومع سائر البشر ومع الطبيعة .

ترتيل المعاني: الآيات 40–62

﴿ يَابَني إسْرائِل اذكروا نِعْمَتِيَ اَلَّتِي إنعمْتُ عَلَيْكُمْ وأَوْفُوا بِعَهدي أُوفِ بِعَهْدِكُم وإيايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (40)

بعد الخطاب الدينى العام للناس فى آيات سابقة وبعد قصة التجربة الدينية الإنسانية الأولى لآدم وحواء توجه الخطاب لبنى إسرائيل وسيرتهم التى كانت معلماً هاماً فى تاريخ الدين الإبراهيمى الكتابى وحضوراً هاماً فى ثقافة مجتمع المدينة الذى تنزلت عليه آيات البقرة وتراثاً باقياً وعبرة ماثلة فى تاريخ البشرية إلى هذا اليوم يطغى فيه عالم ينتسب إلى النصرانية الموصولة باليهودية وببنى إسرائيل . وخاطبهم الله : اذكروا نعمتي التى أنعمت عليكم ، نعمة الهدى إلى الصراط المستقيم كما سبق الدعاء بها فى سورة الفاتحة ، وتلك نعمة خصت بنى إسرائيل وأمرهم الله خطاباً أن يوفوا بعهده بعد ميثاقه القويم يوف بعهده بحسن العاقبة ثم أنذرهم : وإياى فارهبون ، ليوحدوا الله رهبة كما ذكروه نعمة وأوفوا له عهداً لأنهم تخلقوا بمخافة الناس دون رهبة الله وتقواه .

﴿ وآمنُوا بِمَا أنزلتُ مُصَدّقاً لِمَا مَعَكُمْ ولاتَكُونُوا أوَّلَ كَافِرٍ بهِ وَلاَتَشْترُوا بِأَتِي ثَمَناً قِلِيلاً وإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ (41)

وأمر بنو إسرائيل مخاطبة أن يؤمنوا بالقرآن الذى أنزله الله مصدقاً لتراثهم وألايكونوا أول كافر به وكان ينبغى أن يكونوا أول من يؤمن ، والا يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، الا يأخذوا قليلاً من مصالحهم العاجلة ثمناً لهجر آيات الله ، وأُمروا أن يخلصوا لله وحده التقوى . وقد توالى ذكر التقوى فى السورة منذ مفتتحها .

﴿ ولا تلْبسُوا الْحقَّ بالباطلِ وتَكْتُموا الْحقَّ وانتم تَعْلَمُونَ ﴾ (42)

واستمر الخطاب بعد احياء التراث وتجديده بالقرآن رهبة لله وزهداً فى فتنة الثمن القليل وتقوى فى وجه فتن الهوى ، فأمروا أيضاً ألا يلبسوا الحق بالباطل ، يزوروه ، فيبدو ظاهره حقاً وباطنه باطل . وألا يكتموا الحق عمداً وعلماً ، والخطاب لبنى اسرائيل لأنهم تاولوا الآيات ولآثار التى كانت عندهم وأخفوا الآثار والبينات التى تشهد للدين الجديد يدفعهم الهوى عن الحق .

﴿ وأقِيمُوا الصّلاةَ وآتُوا الزّكاةَ وارْكَعُوا مَعَ الرّاكِعِينَ ﴾ (43)

وأمروا تصديق الإحياء والتجديد والحق بالعمل الصالح اقامة لشعائر الصلاة الواصلة بالله والزكاة الواصلة بالمجتمع، وأن يركوا للحق مع الراكعين ، الخطاب متصل ليدخلوا مع المسلمين الطائعين حتى يكون دينهم صادقاً عبر الحياة والتاريخ وركوعاً لأمر الله وهداه الذى أُوحلرسول من العرب الأميين ، ليكونوا مع المسلمين الراكعين طاعة لله فوق عصبيتهم وطائفية تاريخهم الدينى .

﴿ أتامُرُون النّاسَ بالْبرّ وتنسوْن انفسكُمْ وأنتم تتلُون الكِتاب أفلاَ تعْقلُونَ ﴾ (44)

الخطاب مستمر لليهود ، وخاصة لعلمائهم ووعاظهم ، استنكاراً كيف يأمرون الناس بالبر والتوسع فى طاعة الله ، ايماناً وصدقة وجهاداً وتقوى وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب الذى يأمرهم بالإيمان والصدق والسؤال لهم افلا يعقلون ، والعقل هو الذى يمسك النفس من الزّلِلِ ، وكان ينبغى أن يتلو الكتاب حق تلاوة تعصمهم من الأمر بالبر قولاً وعلماً ونسيانه عملاً .

﴿ واسْتَعِنُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ وإنّها لكَبِيَرةٌ إلاَّ عَلَى الْخاشعِِينَ ﴾ (45)

واستعينوا فى سبيل البر بالصبر على مقاومة الأهواء وبالصلاة الواصلة بالله ، وتلك خلقة كبيرة القدر لايبلغها إلا الخاشعون لله لايطمعون فى قليل من الدنيا يصرفهم عن البر ولايستكبرون فينسون البر مع البررة ، ليست عليهم بثقيلة تعجز .

﴿ الَّذينَ يَظنُّونَ أنهم مُّلاَقُوا ربّهمْ وإنهُمْ إليه راجعُون ﴾ (46)

والسياق بدأ بالخطاب العام لبنى اسرائيل فى موقفهم إزاء القرآن ، يذكُر جملة ما جاءهم من نعمة وميثاق ليكونوا أول مؤمن بالرسالة المصدقة ، وألا يقدّموا مصالحهم العاجلة عليه فليلبسوا ويكتموا الحق ، بل أن يدخلوا مع المؤمنين الراكعين ، مقيمين معهم الصلاة ومؤتين الزكاة ثم تدخل الآيات إلى تفاصيل موقفهم ، وقد كانوا أصحاب هيمنة ثقافية ونفوذ سياسى واقتصادى وادعاء للوصاية على المجتمع العربى الجاهلى ، وما هم بأسوة ذاكرة صادقة . والآية الخاتمة تأمرهم أن يستعيون بالصبر والصلاة تكلفةً كبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون ظن اليقين أنهم ملاقوا ربهم ، فتذكّر بالإيمان بالغيب والرجوع إلى الله اليوم واليوم الآخر ، الذى غفل أهل الكتب عن حسابه فنسوا نعم الله وعهده ورهبته وتقواه فأعمتهم العصبية أن يؤمنوا بالجديد وجرّهم الهوى أن يؤثروه على الآيات والحق ونسوا البر مع جماعة الأبرار .

﴿ يَابنِي إسْرائيلَ اذكروا نِعْمَتِيَ الَّتي أنعمْتُ عليْكُمْ وأني فضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِين ﴾ (47)

الخطاب يتاكد لبنى إسرائيل ذاكراً اسمهم الذى نسبهم إلى يعقوب النبى عليه السلام أن يذكروا نعمة الله الهدى وأنهم بها كانوا خير امة فضلت على العالمين ، وذلك تفضيل فى الدينا ينبغى أن يوصل يتقوى يوم الآخرة حيث لافضل لجماعة درجة عالية إلا بعملها الصادق .

﴿ واتَّقُوا يَوماً لاّ تَجزِي نفسٌ عن نَّفْسٍ شيْئاً ولايُقبلُ منها شفاعةٌ ولايؤخذُ مِنها عدْلٌ ولاهُمْ يُنصَرون ﴾ (48)

والخطاب يأمرهم ان يتقوا يوم الآخرة ، يوم لاتجزي نفس عن نفس شيئاً مهما كانت أوهام بنى إسرائيل تزين لهم إنهم يسلمون من عذاب الله لمجرد أنهم من سلالة أنبياء فى رعاية الربانيين الأحبار ، ويوم لاتقبل من النفس شفاعة شفيع من أولئك المقربين رجاء جدوى صحبته أو اللجوء إليه ، ويوم لايؤخذ منها عدل إذ انتهى عهد الابتلاء والعمل وليس للنفس ما تقدمه من جديد عوضاً أو كفارة لسيئاتها أو ما يهدى لها الصالحون مقابلاً وفدية ،ولا هم بنو إسرائيل ينصرون على سلطان الله وشدة ملائكته الذين يمضون قدر الجزاء ، فهم يوم القيامة كسائر عباد الله وليس لهم منه إلا سابقة التقوى بالإيمان الصادق والعمل الصالح فى الدنيا .

﴿ وإذ نجيّيناكم مّنْ آل فرْعَوْنْ يَسُومُونكُمء سُوء الْعذابِ يُذّبحُونَ أبنَاءكِمْ ويَسْتحْيُونَ نِساءكُمْ وفي ذِلكُم بَلاءٌ مّن رَّبِكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (49)

بعد الخلاصة التى أجملت القصة فى شان علاقة اليهود بالرسالة التالية وبالمسلمين الجدد أهل الدين المصدق ما بين ايديهم ، بدأ الخطاب بتفصيل نعم الهدى والفضل العام تذكيراً بتاريخهم الدينى عبر معالمه ، أولها: ' إذ نجيناكم ' لا أنجيناكم بل مشددة ، إذ نجّاهم الله بكل أقداره نجاة عبر مراحل وعمليات متعددة ، مركبة فيها أحداث التناجى بالتدبير والتوجه بالسكن شرقاً والتعرض القريب لفرعون الملاحق ثم تمام النجاة من الغرق .

وبدأ القرآن ذكر تاريخهم بذكرى النجاة لأنها كانت ميلاداً جديداً وباب رسالة من الرسول هدىً وتمام إنقاذ معنوى لهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب ، فالبلاء على بنى إسرائيل كان عذاباً متصلاً كالراعى للبهائم ، ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، فالابناء ذبحاً يقتلون خشية من مدد القوة والنساء يتركن لا إعفاء من القتل بل تُستيقى حياتهن قصداً لاستغلالهن رقاً ومتعة ونحو ذلك . فالقرآن يستعمل الكنايات للأفعال التى لايُستحسن ذكرها مباشرة .

﴿ وإذ فرقْناَ بكُمُ البحر فأنجيْناكُمْ وَأغْرَقْناَ آل فِرْعَوْنَ وأنتم تَنظُرُونَ ﴾ (50)

تذكير لساعة منفذ النجاة بفرق البحر ظاهرة لم تكن مرجوة عند الخوف من اللاحقين ، وفى هذه الآية " فانجيناكم " لان النجاة تمت بحدث واحد أمام أعينهم ، عبوراً ميسوراً للبحر المنحسره تنحسر مياهه أمامهم جزراً وورائهم جنود فرعون يغرقهم مد مرتد من البحر وهم ينظرون ، آيةً ليست معتاد المد والجزر فى البحار . والخطاب يتواصل لليهود فى بيئة المدينة حيث كذبوا الرسول الموعود لديهم ، بسنة النسيان وقسوة القلوب كلما تطاول العهد بذكرى القديم .

﴿ وإذ واعَدْنا مُوسَى أربْعين ليلةً ثُمَّ اّتخذتْمُ العِجْل من بَعْده وأنتم ظَالمُونَ ﴾ (51)

نادى الله موسى مواعدة لقاء ليأخذ الكتاب ، بعد اربعين ليلة شهراً ازداد عشراً ليزداد به بو اسرائيل نعمةً وابتلاء بهدى الوحى . وكان امتداد غيبة النبى القائد امتحاناً لحفظهم معهود الدين ، ثم تراجعوا انتكاساً من بعد موسى حتى عن عقيدة التوحيد الأولى التى جاءتهم ،واتخذوا العجل إلهاً وهم ظالمون يتجاوزون حدود أصل الدين .

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تشْكُرُونَ ﴾ (52)

ثم – بعد تعاظم ذلك الضلال البعيد – خاطبهم الله بنعمة توبته وعفوه عنهم لعلهم يشكرون ويثبت إيمانهم بمزيد النعم حتى مبعث الرسول الماثل أمام خَلفَهم من يهود يوم هذا الخطاب .

﴿ وإذ آتيْنا مُوسَى الْكتَابَ والفرقان لعلَكُمْ تهْتدُونَ ﴾ (53)

والخطاب يذكّرهم بجليل قدره قبل عودة موسى والتوبة من عبادة العجل والعفو ، إذ آتى الله بأقداره هناك فى الملتقى الكتاب نصاً مُلزماً هدى وهو كذلك الفرقان بين الحق والباطل فكتاب الله هو حقاً الفرقان وهو الكتاب والميزان وهو الكتاب والحكمة كما ذكرته آيات كثيرة فى القرآن . والخطاب لبنى إسرائيل أنهم أوتو الكتاب والفرقان لعلهم يهتدون مزيد هدى بالشريعة المينة فيه .

﴿ وإذ قالَ مُوسَىِ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إنكُمْ ظَلَمْتُمْ أنفسكُم بِاتخاذكُمُ الْعِجلَ فَتُوبُوا إلى بَارِئِكُمْ فاقْتُلُوا أنفسكُمْ ذِلَكُمْ خيْرٌ لَّكُمْ عندَ بّارِئكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إنهُ هُوَ الَّتَوابُ الرَّحِيمُ ﴾ (54)

الخطاب يذكّرهم أيضاً بفول موسى لقومه فور رجعته اليهم : ياقوم ، نداءاً حاراً انهم ظلموا أنفسهم ومصيرهم باتخاذ العجل معبوداً دون الله ،وبأمره لهم أن يتوبوا لذلك الى الله بارئهم الذى خلقهم ، حتى تكون التوبة والعبادة للخالق الذى يحي ويميت لا للعجل الذى خلقوه هم ، أمرهم موسى أن اقتلوا أأفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم، إن صدق التوبة هو قتل الذين ابتدعوا العجل وعبدوه وإن كانوا من أنفسهم لأنهم خرجوا بالفتنة على هدى الجماعة المؤمنة وعلى إمارتها من هارون ولأنهم استغلوا ثروة القوم الذهبية وأضلوهم . والخطاب يذكّرهم كيف تاب الله بعد كل ذلك وعفا إنه هو التواب الرحيم كثير الأوبة والرحمة لعباده الخطائين التوابين .

﴿ وإذقُلتمْ يَامُوسى لن نؤمن لَكَ حتَّى نَرَى اللهَ جهْرةً فأخذْتكُمُ الصَّاعقةُ وأنتم تنظُرُونَ ﴾ (55)

نزوع الإنسان إلى المادية والتجسيد يجعله يطلب براهين من الماديات المشهودة ، وهو مما ذكّر الله به بنى إسرائيل كيف أصابهم ذلك بعد اتخاذ العجل تجسيداً للمعبود ، إذ قالوا ياموسى لن نؤمن لك بما رويت من كلام الله لك وايتائك ألواح الشريعة هدياً لنا نرى الله نحن جهاراً . فاختار موسى سبعين لميقات مع الله فأخذتهم الصاعقة آية للناظر الذى يرجو رؤية لله ترده عن الطمع فى مزيد تجل لله . ولعل بنى اسرائيل كانوا بنزعتهم البشرية المادية لم يعتبروا بشأن موسى عليه السلام الذى كان شأنه

شأنهم إذ أراد ان ينظر إلى ربه عند الملتقى فخر صعقاً مما وقع للجبل من تجلى الله ، لكن موسى ابتغى رؤية الله ليطمئن إيمانه فتاب وسكن بعد الواقعة ، وهؤلاء جعلوا رؤية الله شرطاً لن يخرجوا من الكفر بغيره .

﴿ ثُمَّ بعثناكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تشكُرُونَ ﴾ (56)

بعد تلك الصاعقة التى أخذتهم كما اخذت موسى بعثتهم أقدار الله وكان يُرجى وقد أقامهم الله من الصدمة المميتة أن يشكروا الله لبعث الحياة وصحوها ويزدادوا إيماناً كما ازداد موسى إيماناً .

﴿ وظلّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وأنزلناَ عَلَيْكُمُ الْمنَّ والسَّلوىَ كُلُوا مِن طَيِباتِ مَا رَزَقْناكُمْ ومَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كانوا أنفسهم يَظْلمُونَ ﴾ (57)

يستمر الخطاب بذكرى النعم كيف تكثفت عليهم باقدار الله بعد سحائب الهدى المنزل ظلال الغمائم حين كان مسيرهم فى حرور صحراء جافة ليس فيها أشجار مظلة ، وأنزل عليهم المنُّ ثمراً فيه حلاوة كالعسل وجدوه فى نبات الصحراء والسلوى طيراً يؤكل لحمه ، وتلك نعم لقيتهم فى أرض لايرجى فيها الغذاء ولكن جاءهم العطاء ، ولم يظلموا الله عندما أكلوا الطيبات المقدمة من الله دون أداء الشكر عليها ولكن ظلموا أنفسهم بجحود النعمة واستحقاق الحرمان من أن يباركها الله ويرتب على شكرها مزيد الخيرات فى الحياة .

﴿ وإذ قُلْناَ ادْخلُوا هذِهِ القرْية فكُلُوا مِنها حَيْثُ شِئتمْ رغداً وادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفرْ لَكُمْ خَطَاّيَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (58)

التذكير بعد نعمة الهدى والغمام والطعام بنعمة من التمكين والأمان المتدرج بدخول فاتح لقرية كانت على الطريق وإباحة اقواتها رغداً حيثما شاءوا أكلاً دائماً وافراً ، وقد وافتهم الوصية أن يكونوا على سنة النصر عند المؤمنين بدعاء حط الذنوب ووضع الأوزار اتقاء لفتنة النصر والاستكبار بعد الفتح ، وقد أُمروا أن يقولوا قول الاستغفار ولاينسبوا النصر إلى أنفسهم رجاء أن يستجيب الله قطعاً بغفران الخطايا ووضع الآصار وزيادة المحسنين عطايا ، مثل ما اوصى به محمداً ﷺ فى سورة النصر أن إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره أنه كان توابا.

﴿ فَبدَّلَ الَّذين ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ فأنزلنَا عَلَى الَّذينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كانوا يَفْسُقُون ﴾ (59)

فبدل الظالمون من بني إسرائيل قولاً غير ما أوصو به فبدلا عن التواضع لله والاستغفار عمدوا إلى الابتهاج بما كسبت أنفسهم وإظهار الفرح بعد النَّصر ، وظلموا تجاوزاً لأمر الله وانكاراً لنعمته وتبديلاً لطيب القول فأنزل عليهم بما كانوا يفسقون رجزاً عذاباً من السماء .

﴿ وإذ اسْتسْقى مُوسيِ لَقْومِهِ فقُلْنَا اضْرِب بّعَصاكَ ٱلْحَجَرَ فاَنَفَجَرتْ مِنْهُ اثْنَتاَ عَشْرَةَ عَيْناَ قَدْ عَلِمَ كُلُّ إناسٍ مَّشربهُم كُلُوا واشْربوا من رّزْق اللهِ ولاتْعثْوا فِي الأرْضِ مُفْسِدينَ ﴾ (60)

ذُكّروا بتاريخ نعم الله حين سأل موسى الله لقومه السقيا ، نسبة لشح مياه الشرب فى الصحراء الحراء الحجرية فأوحى إليه أن يضرب الحجر بعصاه الآلة التى تلقفت إفك السحرة آية من الله ، فانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً، بعدد البطون والعشائر فى بنى إسرائيل ، ليختص كل طائفة بعين مشرب يعلمونها ولايختلفون بالتنافس فى الصحراء على الماء ، ثم وردت عليهم الوصية من الله بعد ورود الفتح والرزق بالماء أن ينعموا بالشرب مستغفرين شاكرين دون عثو فى الأرض يشتدوا فيها مفسدين .

﴿ وإذ قُلْتمْ يامُوسى لن نَّصْبر عَلَى طَعَامٍ واحِدٍ فادْعُ لَنَا ربَّكُ يُخرِجْ لنا ممَّا تُنبتُ الأَرْضُ من بَقِلهَا وقثّائِها وفُومِها وعَدَسهَا وبَصِلهَا قال أتسْتبْدِلُونَ الَّذِي هُو أدْنى بالَّذِي هُو خَيْرٌ اهْبِطُوا مصْراً لَكُم مَّا سَألتُمْ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذّلةُ والْمسكنةُ وياءُو بغضبٍ مّن اللهِ ذِلكَ بأنُهمْ كانوا يَكْفرُونَ بأيات اللهِ ويقْتُلُونَ الَّنبِينَ بِغيْرِ الْحَقّ ذلكَ بما عصوا وكّانوا يَعْتَدُونَ ﴾ (61)

بعد السقيا والغذاء فتنهم الطمع فطلبوا التنوع والتطيب فى الطعام أن ضاقوا لن يصبروا على طعام واحد رتيب مناً وسلوى ، وقد تعلقت نفوسهم بطعام البيئة التى جاءوا منها : البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل ، فسألوا موسى أن يدعو ربه فيخرج لهم قدراً كالماء مما تنبت الارض من عهدوا قبلاً ، فقال لهم موسى أتطلبون الأدنى تعلقاً بطيب نعائم الطعام دون الذى هو خير ينبغى أن تكونوا طلابه ، أصحاب دعوة ورسالة وجهاد فى سبيل تمكين دولة الدين . وجاء جواب موسى على من آثروا عاجل المتاع أن يهبطوا أيما مصر مدينة فأن لهم ان يدخلوا حضر الأرض شمالاً وشرقاً همهم الطعام لهم ما سألوا إذا وجدوه لكن طلاباً غرباء فيها ضربتهم الذلة والمسكنة .

وكان المتبوأ والمرجع والكسب من الله بعداً الغضب لا الرضا . ذلك بان فتنة الشهوة والمذلة صارت بهم ألا يستقيموا على الهدى بل إلى الكفر بآيات الله وتعاليمه الموحاة وإلى سنة قتل الانبياء بغير حق ، ذلك بما جرّ إليه العصيان والعدوان على شريعة الله . والآية تختم رحلة بنى إسرائيل من مصر وامتدادها قبل فتح الأرض المقدسة التى بارك الله فيها وتحكى ما شاب تمكنهم من ذله ومروق على الدين لا تمكن صدق إيمان بالله واتباع لأنبييائه ووفاء لشرعه وفوز بعزته فى الدنيا ورضاه .

﴿ إن الذين امَنوا والّذين هادُوا والنَّصارى والصّابِئين مَنْ ءامن بِاللّهِ واليوْمِ الأخِرِ وَعَمِلَ صالحاً فَلَهُمْ أَجرْهُمْ عندَ ربّهِمْ ولاخوْفٌ عليهمْ ولاهُمْ يَحْزنُونَ ﴾ (62)

والاية الأخيرة تختم هذا الفصل من رواية سيرة بنى إسرائيل بعد النعم والابتلاءات والفتن ، وتؤكد أن الناس مهما تكنْ سالفتهم فى الحياة نعمةً وابتلاء وفتنة واهتداء ، فان الذين آمنوا منهم من بعد بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم من العذاب ولايحزنون من حرمان

النعيم فى الآخرة . وذلك لهم أياً ما كانوا فى الماضى سواء كانوا من الذين آمنوا بالإسلام أو من اليهود والنصارى الذين طرأ عليهم الضلال أو الذين صبأوا من العرب فى الجاهلية عن هدى متقادم من سنة ابراهيم ، كل أولئك لو تابوا بعد أى ضلة وتجددوا بعد غفلة بالايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح –كما تجيء المواعظ المتوالية فى سيرة اليهود ، فإن مصيرهم إلى الأجر والأمن والرضا فى الآخرة .

عموم المعاني الآيات 40–62

والآيات السابقة منذ تنزيلها إلى يوم القيامة خطاب لليهود ليدبروا تاريخهم ويتذكروا نعم الله ويتعظوا من خطاياهم ويتوبوا إلى دين الحق الذى صدقته وجددته الرسالة الخاتمة . وتلك الآيات أيضاً عبرة للنصارى ومغزى تاريخهم من الاستضعاف الى المتاع والسلطان الذى قد ينقلب . والآيات أيضاً عبرة للمسلمين يوم نزولها أن يحفظوا الدين وإلا تصيبهم علل اليهود فى مستقبل سيرتهم عبر الابتلاءات ، وعبرة أبداً بعظة المصائر .

الآيات اليوم تخاطب اليهود والنصارى وقد قدر الله لهم نعمة المتاع والعزة كسالف الأيام الأولى فى كنف أمة الرسالة الخاتمة . وهى أيضاً خطاب للمسلمين ان تنبعث فيهم الذكرى وروح الشكر لله لسابق نعمائه فى الماضى والوفاء بعهوده الراسخة والرهبة من انتقاضها اليوم ، وأن ينفتحوا لتجديد الدين وراء فتنة المصالح والعاجلة ، وأن يتقوا استغلال التراث للبس الحق بالباطل أو كتمانه ، وأن يقيموا شعائر الدين والبر صحبة للصالحين من العالمين وقدوة صادقة مطهرة من النصيحة بالفضائل والسيرة بالرذائل ، وان يستعينوا على الدنيا بالصلاة والصبر والخشوع وذكر نعم الله وفضله تقوى من يوم الآخرى حين لاتجديهم نسبة ولاغنى ولا مولى إلا الله ناصراً ، وأن يتذكروا فى تاريخهم خاصة أياماً ودورات من الاستضعاف والطغيان وكيف كان ينجيهم الله مهاجر فى الارض ومناصر حين اليأس وكيف كانت تنتابهم فى عاقبة الاستقلال والانتقال أحياناً فى غيبة التذكير الجديد الوافى ردة اعراف خارجة عن التوحيد وعقائد تعليقات مادية مارقة عن الإيمان بالغيب وكيف ينبغى كل حين أن يتوبوا ويكفروا ويشكروا عفو الله ويتوبوا إلى كتاب الفرقان . وتلك الذكرى ينبغى ان تتصوب إلى نعم القوت والتمكن بعد احوال الضراء والبأساء والذل وإلى الاتعاظ بسابقة سلف كانوا تغرهم الفتوح والانتصارات والنعماء فلا يستغفرون حامدين الله زاهدين فى العاجلة دون رضاه بل يثّاقلون بالعز ويتطلبون الترف ولو كلفهم ذلك الذل وألهاهم عن الإيمان بآيات الله وأغراهم بالعصيان والحملة على دعاة التذكير والتجديد .

ترتيل المعاني: الآيات 63–74

﴿ وإذ أخذنْا ميثاقَكُمْ ورَفَعْنا فوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءاتْيناكُم بقُوة واذكروا مَا فيِه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (63)

بعد ختام تذكير بنى اسرائيل بابتلاءات مرحلة المحنة والهجرة واحوال الخير والشر فيها وتقلبات البلاء والصبر ومواقف الهدى والضلال فيها ، بدأت الآياتُ تذكّر بمرحلة الانتقال إلى المجتمع وابتلاءات العلاقة فيه بالكتاب وعهده والشريعة وأحكامها .

والتذكرة بحين أُخذ من بني اسرائيل ميثاق بالشريعة ، جوهرها ومظهرها اتباعاً لا انصرافاً أو تحريفاً لما اشتد منها وما خفَّ وقد رفع فوقهم جبل الطور علا عليهم بأقدار الله الأرضية وضعاً بوقع الرهبة فيما يأخذه تحته الإنسان من عهد ، إذ أمروا هناك أن يأخذوا الكتاب بقوه وتذكروا ما فيه . كذلك تنزّل العهد بأخذ الكتاب ألواحاً بشريعة شاملة فى بيئة جبلية لها رهبة فى النفوس واستشعار ثقل وطاة التكليف ، وأمروا باحتماله بقوة وتذكر ما فيه بالذكر والمذاكرة لعلهم يكسبون تقوى الله .

﴿ ثُمَّ تولْتُم مّن بَعْد ذلكَ فَلَوْلاَ فضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لكَنُتُم مّنَ الْخاَسِرِينَ ﴾ (64)

ثم ومن وراء كل أثقال بيئة التنزيل وقوة الوصايا ذكّروا أنهم قد تولوا مدبرين عن التقوى والميثاق ، فلولا أن الله تولاهم وأدركهم بفضله ورحمته لكانوا من الخاسرين فى كسب الحياة وفى الاخرة .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتدوْا مِنكُمْ في السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِردَةً خَاسِئِينَ ﴾ (65)

والآيات تفصّل أعمال التولى بعد الميثاق والكتاب . ويخاطبون أن قد علمتم الذين تولوا عن التقوى بالتحايل على نصوص الكتاب والشرع . والسبت القطع ، وقد اتخذوا يوم السبت – نذراً من أنفسهم وعهداً – يوم انقطاع عن العمل وتفرغ وعكوف على الذكر (توهماً أن الله الذى خلق الكون وقدره فى ستة أيام عهوداً مديدة إنما قضى ستة أيام كما عهدها الإنسان بعداً دورات ليل ونهار شمسية وصّوب السابع نحو الراحة ، سبحانه عن ذلك وتعالى ، إنما كانت الوصية من الله أن يعكفوا تعاوناً على ذكر الجماعة وفاء بالنذر يوماً كل أسبوع لئلا يتطاول النسيان ، مثل الصلاة يوم الجمعة فى الاسلام ، وكانت الوصية ألا يليهم الصيد عن الصلاة كما أُوصى المسلمون ألا تلهيهم عنها تجارة ولا بيع ، ولكن هم اتخذوا السبت يوماً للذكر نهاراً ثم اعتدوا عليه حين ألفوا الحيتان شارعة وقد عرفت حريتها فيه فنصبوا لها ليلته الشباك .

وقد تعاملوا بتلك الحيل مع ظاهر احكام الشرع واشكالها وسارت بينهم تقليداً وصوراً ، ولم يتعاملوا بالمقاصد والنيات التى يطلع عليها الله . والعكوف على الأشكال وتقليدها مرض قد يصيب أهل الدين . والآية تحكى تاريخ اليهود . وقد حدث ذات الشئ فى تاريخ النصرانية ، وفى تاريخ المسلمين . وبذلك مسخ العادون من اليهود من إنسان ذى ظاهر حركة حكيمة وباطن وعقل وقلب متدبر إلى حيوان مثل القرود التى لاتتعلق الا بالظواهر والأشكال تقلدها تقليداً من تلقاء ما ترى ولا

تدرك مغازى الأفعال ، وكانوا خاسئين اذلة ومطرودين من رحمة الله المطلع على القلوب . وسنة الله مع الإنسان هى الابتلاء ، يرحم الله العبد الخاشع ويدحر من رحمته المنافقين ، وييسر لكل سيرته ولكن لايحوله إلى حيوان مهما كان مثله وأضل سبيلاً ، فالحيوان لا يكلف بأمانة الخيار فى العبادة والبشر الظاهري لاينقطع تكليفه إلا بالموت وانما ييسر للعسرى التى اختار ، وانما قضى الله على أولئك العادين الخائنين نذر السبت من بنى إسرائيل . يجعلهم قردة فى سياق أقداره الخارقة لمعتاد السنن فى سياق آيات لموسى وبنى اسرئيل متعددة .

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لّمَا بيْنَ يَديْهَا ومَا خَلْفَهَا ومَوْعِظَةً للمُتقِينَ ﴾ (66)

فجعل الله هذه السيرة والصيرورة نكالاً يحذر أن يأتى مثل افعالهم احد، عظة لما بين يديها من حضرها يرتدع ولما خلفها فالخلف لايعودون لمثلها بل ينكلون حذراً ، وجعلها أيضاً موعظة للمتقين فيهم الذين يفقهون فيها العبرة .

﴿ وإذ قَالَ مُوسَىِ لقَوْمِه إن اللهَ يأْمُرُكُمْ أن تذْبحُوا بقرةً قَالُوا أتتخِذنا هُزُواً قالَ أعُوذُ بِاللهِ أن أكُون مِنَ الْجَاهِلينَ ﴾ (67)

الآية تلتفت فى خطاب بنى اسرائيل الى التذكير بقصة نمط آخر من تولى بنى إسرائيل عن حكم الشريعة فالآية تذكر بخطاب موسى لقومه بأمر الله أن يذبحوا بقرة – إشارة وحسب لأيما بقرة حتى يعمدوا لتنفيذ ذلك دون تثاقل أو تحايل أو تساؤل يعطل الطاعة . فقالوا لموسى أتتخذنا هزؤاً سخرية ؟ لم يعاجلوا إلى طاعة أمر الله ببلاغ موسى ولما لم يدركوا المغزى من وراء الأمر بذبح بقرة ظنوا موسى يتخذهم هزؤا . فاستعاذ موسى أن يكون من الجاهلين الذين يهزأون بأمر التكاليف باسم الله وكلمته ويستعملونها فى مفتريات إفك .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا ربّكَ يُبيّن لّنا مَا هى قالَ إنه يَقُولُ إنها بقرةٌ لاَّ فارِضٌ ولاَبِكرٌ عَوَان بيْن ذلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمرُونَ ﴾ (68)

لم يمضوا حتى بعد تاكيد الجدية إلى تنفيذ الأمر الواضح . بل بدأوا فى توجيه التساؤلات التنطعية التى تعبر عن تول آخر عن طاعة الشريعة فوراً ، وهو تولى الاستغراق فى الترجئة والخلاف حول التفاصيل والمغالاة فى انتظار تبيّن فروع الاحكام وتحريها بدلاً عن الاخذ ببينة الأحكام والمسارعة لإيقاعها دون ما يؤخر الطاعة ويثير الاختلاف على الفروع ويصرف المؤمنين عن القضايا الأساسية الكبرى فيعطل العمل والوحدة بالصالحات .

تساءلوا تنطعاً وتجاوزاً عن الأمر بشأن بقرة ما ، فطلبوا الدعاء ببيان صفات معينة ، فقال لهم موسى إنها ليست فارضاً كبيرة ميئوسة ولابكراً مرجوةً ولكن عوان بين ذلك أى من أواسط ما لديكم من البقر وهكذا ردهم إلى الميسور ثم أكد لهم الأمر حتى يهرعوا للاستجابة بدلاً عن التعطيل وطلب التفصيل .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَاَ رَبكَ يُبين لنا مَا لوْنها قال إنهُ يقول إنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لوْنُها تسُرُّ الناظِرِينَ ﴾ (69)

بعد سؤال ما هى والبيان انها من أواسط أبقاركم سألوه أن يسأل الله عن اللون . فبلّغ إنها صفراء فاقع لونها تسر الناظرين من عامة بقركم ،وكان ذلك اللون هو الشائع الحسن فى بيئتهم وأكد ذلك بأنها تسر الناظرين ليسكن جنوحهم للتنطع .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَاَ رَبكَ يُبين لنا مَا هِى إنَّ البَقَر تَشَابَه عَلَينْا وإنَّا إنْ شَاءَ الله لَمُهْتَدُونُ (70)

ادعّوا أنهم قد تشابه عليهم البقر لكثرته لاسيما الأوسط الأصفر عندهم ، وعلى يسر طاعة الأمر آثروا أن يشقوا على أنفسهم تنطعاً فى طلب تعيين بقرة ، فكلما يسّر الله لهم ووسّع ضيّقوا على انفسهم ودعوا موسى ليسأل الله مزيد بيان مؤكد .

﴿ قَال إنهُ يقُولُ إنها بقرةٌ لاَّ ذلولٌ تُثير الأرْضَ ولاَ تَسْقِى الْحرْث مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيها قَالُوا الأن جِئتَ بِالْحَقِّ فذَبَحُوهَا ومَاكَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (71)

قال لهم موسى بلاغاً عن الله إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض وتحرثها ولا تسقى الحرث من بقر الساقية لا يتكلفوا ذوات الوظائف الغالية وأنها مسلّمة لاشية فيها ليس فيها عيب أو معلم خاص ليتحروا بالغ البحث عنها . وبنو إسرائيل ، بعد ان استنفدوا مدى الجنوح للتنطع والمفاصلة والمماطلة فى تنفيذ الأمر ، قالوا لموسى : الآن جئت بالحق، كأن الحق لايعرف إلا باشباع التنطع وتعيين الموضع والموقع لكل أمر من الله ، وبعد كل ذلك نفذوا أمر ذبح البقرة بغير إقبال على الفعل وما كادوا أن ينفذوه .

﴿ وَإذا قَتَلْتُمْ نفساً فادَّراَءْتُمْ فِيها وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمونَ ﴾ (72)

الآية تلتفت بالتذكير خطاباً لبنى إسرائيل بسابقه جناية فيهم إذ ارتكب بَعضُهم جريمة قتل ، وعند التحرى وتوجيه الاتهام حاول كلٌ منهم أن يصرف عن نفسه التهمة يدرأ بها لتتوجه إلى آخر . وذلك مثل من سنة بني إسرائيل فى سوء تحكيم الكتاب والميثاق من حيث قلة الصدق والنصح فى البينة والشهادة لتطبيق الأحكام على وقائع العمل لاسيما الجناية على النفس بالقتل وذكّروا انهم مهما كتموا الشهادة وتدافعوا التهمة فإن الله مخرج ما كانوا تكتمون من البينة وسينفضح عمل الجاني .

﴿ فقُلنا اضْربُوهُ ببعضِها كذلك يُحي اللهُ المَوْتى ويُريكُمْ ءايَاتهِ لَعَلَّكُمْ تعْقِلُونَ ﴾ (73)

ذلك إن الله الذى يخرج ويحيي ما دفن من الحق أمر ذلك المجتمع المتداريْ للتهمة أن يضربوا المتهم بعضو من جسد النفس المقتولة . وكانت معجزة أن ينبعث من النفس الميتة صوت حى أو حركة تدل على القاتل ، وتلك آية لبنى إسرائيل الذين كانوا لايصدقون بالغيب ولو كان وجود الله حتى يروه جهرة ، وهى آية تحملهم على الإيمان بالآخرة يوم يبعث الله الموتى ليوم الحساب ، ولعلهم بآيات يضبطون حياتهم ويعقلونها بالتقوى فلا تفلت مع الهوى .

﴿ ثُمَّ قَستْ قُلُوبُكم مّن بَعْد ذَلِكَ فهِي كالْحِجَارةِ أَوْ أشّدُ قسْوةً وإن مِنَ الْحِجَارةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنَهارُ وإن مِنْها لما يشّققُ فيخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإن مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خشْيةِ اللهِ ومَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (74)

ثم بعد كل التعاليم الهاديات والآيات البينات التى كان ينبغى أن تخشع بها القلوب التى تعبر بحركتها عن قوة خواطر الإيمان ، بعد كل ذلك يخاطب الله بنى إسرائيل أن قد قست قلوبهم فلم تنفعل لنيات الاستجابة الصادقة للايمان بل تولت وانصرفت إلى الحيل الظاهرية وإلى تحرى الأشكال والفروع وإلى كتمان الحق والشهادة ، فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة وصلابة لأن الحجارة تستجيب لقانون الله الطبيعي وإذا نزل إليها قدر الخشوع فمنها ما تنفجر منها النهار ومنها ما يتشقق فيخرج وينبع منه سائل الماء ومنها ما ينحط وهو جبل عال يهبط خشوعاً خضوعاً لقدر الزلزال . وتلك كلها اقدار ربانية تخشع لها أشياء الطبيعة التى تطيع الله تلقاءً كما يطيع المؤمن أحكامه ويخشع لها اختياراً إذ كرم وفضل بأمانة الخيار أن يوافق سائر الطبيعة أو يشذ عنها . وخوطبوا من بعد ان وما الله بغافل عما تعملون بل يحيط بظاهر الوقائع وبباطن المقاصد ويجمع كل ذلك لحساب من احتمل الأمانة .

عموم المعاني: الآيات 63–74

آيات الخطاب لبنى اسرائيل أو القصص عنهم تذكرة لهم عهد تنزيل القرآن وما بعده بسوابق سلفهم إذ استمرت سننه فيهم ، ومن ورائهم فى تراث النصارى وقانون الكنائس بينهم ، وقد أوحى الله التنزيل مصدقاً لأصول الدين فى كتابهم وسنة انبيائه ليصدقوه مذكراً ومجدداً . وهى أيضاً عبرة للمؤمنين وقد سبق ذكر ذلك فى آيات سابقه ختمتها آية المؤمنين بالله واليوم الآخر مها تكن سابقة تقاليد الملة عندهم . ومن بعد يتوارد التذكار لسالفة المجتمع الإسرائيلي بعد رحلة الهجرة كتاباً وميثاقاً تولوا عنه وأخذوا يحتالون على أحكامه ويتنطعون فى تفريعها ويتدارءون ويكتمون دون شهادات تطبيقها على الواقع . وذلك التذكار فيه اعتبار للمسلمين وهم فى أول العهد ألا يسنوا سنتهم ويصابوا بعلتهم ، لاسيما والشريعة تتنزل وتتفصل أحكامها العملية لنظام الحياة فى المدينة أكثر من الأحكام الأخلاقية العامة فى القرآن المكي ، والخطر على المسلمين إن تجرهّم المجادلات والمقارنات مع اليهود الذين طال عليهم العهد وأوغلوا فى حب الفرعيات وراء مقاصد الحكام العامة فى شرائع الدين والعبرة ماضية للمسلمين وقد مر عليهم الآن قرن أو أكثر بسطو احكام الشريعة فى شعاب الحياة ولكن ظهرت الغفلة عند بعض المنشغلين بالفقه عن كليات الأحكام ومقاصدها فذهبوا حتى عرفوا فقه الحيل وأوغلوا

فى التفريعات المتنطعة وأفسدوا بينات القضاء ، وكان ذلك أحياناً تورطاً فى المحرمات بحيل نفاقية ظاهرية وولعاً بالأشكال المتشعبة حتى تنغمر أركان الشرع ومغازية وافتناناً فى إجراءات البينة وفي اتخاذها مهنة بحجة الشهادة العادلة . وكل ذلك تول عن ميثاق الكتاب لن يصوبه عقاب عاجل أو وحي مفصل أو آية بينة كما وقع مع بني اسرائيل بل التوبة إلى الكتاب والتجديد للصدق فى الميثاق مع الله . والآيات التاليات تلتفت بعد كل هذه العبر فتخاطب المؤمنين بالنظر إلى بنى إسرائيل معهم فى المدينة وبعدها فى العالم ، وغالب ذكر بني إسرائيل فى الآيات التاليات يروى قصتهم بصيغة الغائب ، وغالبه أيضاً فى شأن علاقتهم بالمسلمين .

ترتيل المعاني: الآيات75– 86

–﴿ أفتطْمَعونَ أن يُؤمنوا لَكُمْ وقدْ كان فريقٌ مّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يَحَرِفُونهُ من بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (75)

الشأن عن بني اسرائيل لكن الخطاب الآن يلتفت للمؤمنين الذين كانوا يرجون رجاء الطمع أن يؤمن لهم ومعهم بنو إسرائيل أهل الكتاب والثقافة الدينية وأولى للناس بتصديق دعوة القرآن إذ كانت الآيات فى مكة تستشهدهم على الإيمان بالغيب والرسالة والبعث فى وجه العقائد الجاهلية المنكرة للكتاب والبعث . لكن الآية تسأل المؤمنين عن ذلك الطمع افيهم وقد كان فريق من هؤلاء القاسية

قلوبهم من الإيمان حتى بشان كتابهم يسمعون كلام الله فيه ثم يحرفونه ويزورونه بعد أن علموه وعقلوه وضبطوه تماماً ، تحريفاً متعمداً .

﴿ وإذا لَقُوا الَّذين ءاَمَنُوا قَالُوا ءامَنَّا وإذا خلاَ بْعضهُمْ إلى بَعض قالُوا أتحدّثونُهم بما فتَح اللهُ عَلَيْكُمْ ليُحاجُّوكُم بِه عند ربّكُمْ أفلا تعْقلُونَ ﴾ (76)

 الآية تذكر بما سبق من ذكر منافقى المدينة " واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون " (الآية 14) ففى أهل الكتاب فريق من حين غلب الإسلام على الحياة فى المدينة غلب النفاق على ظاهر حديثه إلى المسلمين ولكن غلب الكفر على قلبه ونجواه مع أقرانه ، فحيثما لقوا المسلمين أعلنوا الإسلام وحيثما خلوا إلى أمثالهم قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ، اذ أكلهم مرض الحسد ، أرادوا أن يحتكروا نعمة الله ولايشهدوا بما فتح الله به سلفاً فى التوارة تصديقاً للقرآن وحجة على من لايؤمن به   ويستنكرون على من يستشهد للقرآن بآيات وأدلة من التوراة يلوونها ، يسألون بعضهم إذا تناجوا أفلا تعقلون ، كأن العقل هو الكتمان والنفاق للمغالبة لا الصدق والإيمان للوفاق.

﴿ أولاَ يعْلمُونَ أن اللهَ يَعْلَمُ مايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلنون ﴾ (77)

رد من القرآن على تلك الجهالة لأهل الكتاب المنافقين ، أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون فى قلوبهم أو فى خاصة نجواهم لبعضهم وما يعلنون أمام الناس فيحيط بنفاقهم .

﴿ ومِنْهُمْ أمّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكتابَ إلاَّ أَمَانيَّ وإن هُمْ إلاَّ يظُنُّون ﴾ (78)

 ومن أهل الكتاب كذلك طائفة فشت بينهم الأمية جهلاً بالذى أنزل عليهم فمبلغ عملهم منه الأمانى الكاذبة التى يحدثهم بها أئمتهم أنهم أبناء الله وأحباوه ولن يعذبهم إلا قليلاً . وما كانوا بتلك الأمانى إلا فى ظن . والظن فى سياقات القرآن بمعانى صُور تقدير الغيب كافة ، من الظن الراجح إلى الظن الذى يبعد اليقين كما هو فى هذا السياق .

﴿ فَويلٌ لّلَّذِين يَكْتُبونَ الْكِتَابَ بأَيديهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذاَ مِنْ عِندِ اللهِ ليشْترُوا بهِ ثَمناَ قَلِيلاً فوْيلٌ لهُم مّمَّا كَتَبتْ أيْديهِمْ وويلٌ لَّهُمِ مّمَّا يَكسِبُونَ ﴾ (79)

 فويل وعذاب جزاء للأئمة أهل العلم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم شروحاً ونقولاً ومقولات من التحريف والأمانى وما تفترية أقلامهم ثم يزعمون أن هذا كله مما أُلحق منزل من الله ليكسبوا معاوضة بالافتراء ثمناً قليلاً من المتاع والمنافع، فلهم عذاب مما افتروه على الله مما كتبت أيديهم وخطت أقلامهم وعذاب يكسبونه وفاق ما كسبوا بالحرام فى الدنيا قليل مصالح .

﴿ وقَالُوا لن تَمَسَّنا النَّارُ إلاَّ أيّاماً مَّعْدودةً قُلْ أَتّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخلفَ اللهُ عَهْدهُ أمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (80)

الآية تفصل فى الأمانى والظن ما هو مبلغ علم الجهال وكسب المتعالين بالدين ، فَهُم يدّعون أن الله لن يعذبهم فى النار إلا أياماً معدودة لا خلوداً ولا طويلاً . لكن توصى الآية النبى ﷺ الداعى للهدى أن يسائلهم هل أعطاكم الله عهداً بحصانتكم مما تستحقون من شديد العذاب وأن العذاب عليكم لن يتجاوز أياماً والله لن يخلف العهد ، أم هو قول على الله بلا عهد معلوم بل بالجهل والأمانى والافتراء .

﴿ بَلَى مَن كَسبَ سيئةً وأحاطتْ خطيئةُ فأوّلئكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ ﴾ (81)

الآية تختم السياق بهذا المعنى الكلى الذى يوضح عهد الله لعباده فالجواب على سؤال العهد المظنون نفى :ألا عهد لهم عند الله برفع الحساب بل المصير حسب الإيمان والعمل ، من عمل سيئة وأحاطت به خطيئة لم يتب بل أحاطت الخطايا بحياته من أولها إلى آخرها ضلالاً عامداً بعد المعرفة والعلم أبلغ من الخطأ بالجهالة ، من كان كذلك فهم أصحاب النار لايسلمون وهم فيها خالدون لا أياماً معدودات .

﴿ والَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات أُولِئك أصْحَابُ الجَنةِ هُم فيها خالِدون ﴾ (82)

ذلك مصير من فرسته الخطيئة ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم تحط بهم السيئات أولئك هم أصحاب الجنة لا النار خالدين فيها لا أياماً معدودات . والقرآن فى غالب سياقاته يعادل ذكر مصائر المسيئين والمحسنين .

****

والآيات ذكر وحكم فى شأن بني إسرائيل ومواقفهم إزاء المسامين . وهى ايضاً عبرة لما أصاب ويصيب النصارى من ورائهم ، ولكنها هى أيضاً عبر للمسلمين ألا يبلغ بهم طول الأمد وقسوة القلب وعلة الإيمان أن يُحرفوا كتاب الله بما يضيفون إليه من أقاويل منقولة ، وألاّ ينافقوا بين إعلانهم العام على الملأ وتآمرهم الخاص على كتمان الحق القرآنى ولو كان عليهم ميزانه ، وألا تشيع الأمانى بفضيلة الملة وكتمان الحق العدل فيها دون تبيين لمعانى كتابها ، وألا يجنح اهل العلم للافتراء على الكتاب ابتغاء مصالح الدنيا العاجلة ، وألا يمنوا الناس بالشفاعات والسلامات المضمونة بغير عهد من الله ، فإن من أساء بغير توبة فهو خالد فى النار ومن آمن وصلح فهو خالد فى الجنة ،كلٌ بكسبه وعمله .

﴿ وإذ أخذنْا مِيثاق بَنِي إسْراءِيلَ لاتعْبدون إلاَّ اللهَ وبالْوالدينِ إحساناً وذِي الْقُربى واليتامى والمساكين وَقُولُوا للنَّاس حُسناً وأقيمُوا الصَّلاة وءاتُوا الزّكاة ثُمَّ توَلّيْتُمْ إلاَّ قِلِيلاً مّنكُمْ وأنتم مُّعْرِضُونَ ﴾ (83)

إذ – تذكير وتنبيه للمسلمين لوجه آخر من وجوه الميثاق والتولى لبنى إسرائيل ، فالميثاق يحمل الأمانة بوصايا ترشّد كل شعاب حياة الأفراد والمجتمع بذات التكاليف التى يحملها ميثاق الإيمان بالقران للمسلمين – ألا يعبدوا إلا الله فيجتنبوا إن تتشتت مقاصد الحياة ما يغشى التوحيد من إشراك ، وأن يلتزموا الإحسان بالوالدين فالأسرة والبر بما هو عهد المؤمن بعد عبادة الله ، وكذلك الإحسان لمن يلى المؤمن من ذي القربى ولمن حوله فى المجتمع وأولاهم بالإحسان اليتامى والمساكين لعجزهم وحاجتهم ، ثم العهد والأمر العام أن قولوا للناس حسناً حتى يشمل الإحسات كل وجوه المعاملات الاجتماعية ، ثم أن يقيموا الصلاة لله لاتنقطع وان تزكوا بوصل فقراء المجتمع إنفاقاً ولا تقطعونهم وتلك وجوه من التدين الخاص والعام للفرد والمجتمع .

والتفت الخطاب لبنى اسرائيل عما كسبوا بعد اخذ ذلك الميثاق : أن قد توليتم بعده إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ، فالتولى والاعراض عمَّ بني إسرائيل إلا قلة آمنت إيماناً شاملاً ولم تبعّض الدين لتعرض عن بعض الميثاق فى الحياة .

﴿ وإذ أخذْنا مِيثاقكمْ لاتسْفكُون دماءكُم ولا تخْرجُونَ أنفسكُم مَن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أقررْتُمْ وأنتم تسْهدُونَ ﴾ (84)

هذا تذكير تال بما أخذ عليهم من الميثاق فبعد عهد الإيمان والمعاملات الاجتماعية ، عهد الأمن الجماعى . الاّ يقتل بعضهم بعضاً أويسفكون دماءهم ، وألاّ يضيق بعضهم بإخاء بعض وجواره إذا عرضت بينهم فتنة فيخرج بعضهم بعضاً من ديارهم قهراً وظلماً .ثم تذكرهم كيف غلظوا هم ذلك العهد من بعد بالإقرار والشهادة العامة.

﴿ ثُم أنتم هؤلاء تَقْتُلُونَ أنفسكُمَ وتُخْرِجُونَ فريقاً مّنكمُ مّن دِيَارهِمْ تَظَاهرون عَليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكُم أُسارىَ تُفادُوهُمْ وهَوَ مُحرَّمٌ عليكُمْ إخْرَاجُهُمْ أفتؤمِنُونَ ببَعْضِ الْكتاب وتَكْفرُونَ ببعض فَمَا جزاءُ مَن يَفْعَلُ ذلِكَ منكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فى الحْياةِ الدُّنيا ويَوْمْ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إلى أشّدِّ الْعَذابِ ومَا اللهُ بِغافِلٍ عّمّا تَعْمَلُونَ ﴾ (85)

ثم من بعد ذلك الإقرار هؤلاء هم فى الواقع الحاضر ترد منهم صور التولى ونقض الميثاق ، فها هم كما يصفهم الخطاب يقتلون انفسهم عادياً بعضهم على بعض ، ويخرجون فريقاً منهم نفياً يشرد بعضهم بعضاً من بيوتهم وديارهم ، هكذا يظاهرون ويتعاونون عليهم بالإثم والعدوان ، لاتراحم بينهم ، وإذا وقع بعضهم فى الأسر فهم مستعدون لبذل الفدى أو لتبادل الأسرى من أجلهم طائفية وتحيزاً فى وجه الأجانب ، وقد حرم عليهم فى الميثاق إخراجهم اهكذا ينافقون الميثاق ويبغضون الكتاب مضارة فى ذات البين ، أهكذا ينقضون بعض الميثاق ويبعّضون أمر الكتاب ، يخاطبون : أفتؤمنون ببعضه موالاة إزاء الاخرين وتكفرون ببعضه مؤاخاة ومؤامنة فيما بينكم ، فما جزاء هذا الخلق منكم الذى

ينقض وحدة الميثاق واستقامة الإيمان المضطرد بالكتاب ، ما عاقبة من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون بل يرصيده للجزاء.

﴿ أولئك الذين اشْترَوُا الْحيَاةَ الدُنَيا بالأخرة فلا يخففُ عَنهُمُ العذابُ ولاَهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (86)

أولئك الذين يؤمنون ويعملون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ويعطلونه هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، آثروا مبتغى هواهم العاجل على نعيم الآخرة الآجل ، وظنوا أن بعض الموالاة الطائفية تغنى عن التزام سائر الدين، فاولئك لايخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون بالموالاة دون الله .

عموم المعاني: الآيات75–86

هذه الآيات تذكير وتحذير بتعاليم الميثاق وبأن توحيد الإيمان بالله وبالدنيا والآخرة يقتضى وحدتها ومراعاتها جميعاً وإلا فالتولى يلاقى العذاب ، والآيات بذلك عبرة للمسلمين والقرآن يتنزل إليهم بميثاق الإيمان والتوحيد وكتاب الشرع المتكامل ، عبرة ألا تفتنهم الأهواء لتبعيض الدين والغاء مغتضى موالاة الملة وإخائها بالمعاداة فيها لا براً وتعاوناً ولأأمناً مع حفظها هوية وعصبية عرقية وطائفية . وتلك علل قد تصيب أهل الدين جميعاً وقد أصابت النصارى والمسلمين كما أصابت اليهود .

ترتيل المعاني: الآيات 87–103

﴿ ولقَدْ اتيتاَ مُوسَى الْكتَاَبِ وقَفَيْناَ مِن بَعْدهِ بالرُسُلِ وءاتْينا عيسىَ أبن مَرْيم الْبَيّنات وأيدناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أفكلُمَا جَاءكُمْ رَسُول بما لاَتهْوىَ أنفسكُمُ اسْتكْبرْتُم فَفريقاً كذبْتُمْ وفريقاً تَقتْتُلُون ﴾ (87)

تصل الآية وحدة أصول الدين التى لا تتناقص بوحدة رسالة المرسلين تذكيراً وتصديقاً واعتباراً وتجديداً ، ولقد أوتى موسى كتاب التوراة وتعاقب بقدر الله من بعده الرسل والأنبياء يجددون الدين ويحفظون الشرع ، وأوتى عيسى بن مريم البينات على كتاب موسى وهو ابن مريم لا ابن الله كما ضل النصارى وقد طهره الله وأيده لا إلها بذاته فى التثليت بل بالروح القدس جبريل الملك المطهر يمده بمعجزات وبآيات تدعو للإيمان به منذ ميلاده . والآية تستنكر على بنى إسرائيل : أفكلما توالى الرسل برسالة واحدة فجاءكم رسول بما لم يوافق أهواءكم ومصالحكم الدنويوية استكبرتم على هدى الله الأكبر وعلوتم بأهوائكم على المرسلين كذبتم فريقاً منهم وقتلتم فريقاً . والآية تروى تاريخ مواقفهم من المرسلين المتعاقبين سوابق ومقدمة لموقفهم من الرسول ﷺ الماثل أمامهم برسالة القرآن فى المدينة ،والآيات التالية تفصل ذلك الموقف .

﴿وقالوا قُلُوبُنا غُلفٌ بل لّعَنهُمُ اللهُ بِكُفرِهِم فقَليلاً مَّا يُؤْمنونَ ﴾ (88)

وقول اليهود للرسول ﷺ قلوبنا غلف مغطاه ، غلافها يحميها من وقع كلام الرسول ﷺ الذى يخاطبهم بالبلاغ ، والكلام من اليهود على سبيل الاستكبار ، أن تراثهم اليهودى يغمر قلوبهم تماماً لاثغرة فيه لان يدخل عليهم خطاب غريب بالقران ، بل الحق أن كفرهم وتوليهم عن عهد الله وميثاقه أوجب عليهم لعنة الله الطاردة عن رحمته فلايؤمنون إلا قليلاً ويعودون لكفرهم وافتراءهم على الله قلوبهم غلف عن سماع الحق كله .

﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كتابُ مّنْ عند اللهِ مُصدقٌ لّمَا مَعَهُمْ وكَانوا مِن قَبلُ يسْتفْتحُونَ على الَّذين كفرُوا فَلَمَّا جاءهُم مَّا عرفوا كفروا بهِ فلعْنةُ اللهِ عَلَى الكافرينَ ﴾ (89)

ولما جاء اليهود قرآن وكتاب وحياً من عند الله لا من عند الرسول ﷺ مصدقاً لما معهم من التوراة ، ما هو ابتداع منكر لينفروا منه ، بل جاء الكتاب وفق رجائهم المعهود إذ كانوا ينتظرونه بوعد التوراة المبشر به ويتباهون على كفار العرب بفتح آيل حظه لليهود لا للعرب وبأن موعد نبيهم الجديد قد اقترب ، فلما جاءهم ما عرفوا أنه الحق بوعد التوراة وبأصولها ومعانيها كفروا به لأنه على رسول من غير قومهم خيب استفتاحهم على العرب ، كانوا أول كافر به كما فى الاية السابقة (الآية 41) ، وكان ينبغى لأن يكونوا أول مؤمن به ، فلعنة الله على الكافرين عمداً حسداً .

﴿بِئسمَا اشتروا بهِ أنفسهم أن يكْفرُوا بمَا انزل اللهُ بغياً أن يُنزِلَ اللهُ من فَضْلهِ على من يَشاءُ من عبادهِ فباءُو بغضبِ على غَضَبِ وللكافرين عذابٌ مهينٌ ﴾ (90)

بئسما اشتروا به أنفسهم باعوها ومصيرها الأزلى بالكفر والرغبة فيه صنعاً بئيساً ، رهنوا له انفسهم حسداً بغياً أن ينزل الله من فضله تجاوزاً لحدهم عندما نصبوا أنفسهم اوصياء على فضل الدين حكراً ألا ينزل الله رسالته إلا على نبى من قومهم ، ولله ان يختار من يشاء من عباده فكلهم سواء . صاروا إلى كفر بالقرآن وقد ألفوا تصادقاً مع التوراة حقاً وانتهوا إلى ذلك غيرة من انزل عليه الحق فباءوا رجوعاً بغضب من الله على الحسد مضافاً على غضب من الكفر يذهب بهم يوم القيامة إلى عذاب مهين مهانة جزاء على استكبارهم.

﴿وإذا قيل لَهُم ءامِنُوا بِما أنزل اللهُ قالُوا نُؤمِنُ بَما أنزل عَلَيْنا ويَكْفُرُونَ بِما وَرَاءهُ وُهوَ الحقُّ مُصدِقاً لّمَا معّهُمْ قُلْ فلمَ تقتلونَ أنبياء الله من قبل أن كنتُم مُؤمِنينَ ﴾ (91)

وإذا دعاهم الرسول (ص) ليؤمنوا بما أنزل الله الذى يجدون تصديقه عندهم قالوا لانؤمن بتنزيل الله إلا اذا صوبه علينا نحن ، ويكفرون بما وراء ذلك ولو كان هو الحق مصدقاً لما معهم من التوراة ، وليسألوا : فلم كنتم تقتلون من قبل أنبياء الله وهم منكم ان كنتم فعلاً مؤمنين ؟ والآية تذكرهم أنهم ابتلوا بذات مرض الغيرة من الحق المتجدد فى تاريخهم ، فقتلوا أنبياءهم .

والآية أمر للرسول الداعية أن يلقى إليهم القول بالحجة من سيرتهم ، وتتلوها الآيات تأمر بوصل الدعوة قولاً ومحاجة لمواقفهم بالحق .

﴿ولقدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالبيّنَاتِ ثُمَّ اتخذَتُمُ العِجْل مِن بَعْدِهِ وأنتم ظَالِمُونَ ﴾ (92)

الاية ترد على زعيمهم بانهم يؤمنون بما أنزل عليهم وتذكرهم أيضاً بموسى نفسه كان منهم وجاءهم بالبيات الأصول ، ولكنهم اتخذوا العجل من بعده لغيبة عارضة أربعين يوم أشركوا بالله وهم ظالمون . ولو كانوا مؤمنين حقاً لما بدلوا التوحيد فور الغياب بعبادة العجل المصنوع ، بل هم حيثما تقادم العهد ولو قليلاً بعده يتجاوزون حده ظالمين .

﴿وإذ أخذنْا مِيثاقكُم ورفعْنا فوْقكمُ الطُّور خُذُوا ما ءاتيْناكُم بِقُوة واسْمَعُوا قَالُوا سمعْناَ وعصيْنا وأُشْرِبُوا في قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بكُفْرِهِمْ قُلْ بِئسَمَا يأمُركُم بهِ إيمنكُمْ إن كنتُم مُّؤْمِنينَ ﴾ (93)

وتذكرهم أيضاً إشارات الآية بإختصار لما سبق ذكره من آثار مرض الهوى فى الدين ، إذ أخذ الله عليهم الميثاق بأقدار جليلة قوية انتصب عليهم مرفوعاً جبل الطور ، وإذ أمروا فى كنف تلك الرهبة أن يتناولوا أمانة الميثاق بيد قوية وسمع خاشع ، وإذ قالوا سمعنا واطعنا لكنهم أشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم واخلط إيمانهم برواسب من النزعة إلى الكفر تبدو آثارا متى غاب التذكير ولو قليلاً ، والآن بعد طول العهد مهما يسمعون القرآن الحق يراودهم الكفر المشربة به عقائدهم الذى يفسد ما يّدعون من إيمان جانحاً به نحو الباطل وتوصى الآية الرسول ﷺ بأن يقول لهم : بئس ما يأمركم به إيمانكم فلولا رأيتم سوء ما يدعوكم إليه ويأمركم به فزكيتموه حتى يخلص مما يُشرب به ويصدق ويحق أثراً وأمراً .

﴿قُلْ إن كانتْ لَكُمُ الدَّارُ الأخِرَةُ عِند اللهِ خالصةٍ من دُونِ النَّاسِ فَتَمنُوا الْمَوْت إن كُنتمْ صادِقِينَ ﴾ (94)

توصى الآية الرسول ﷺ الداعى لليهود المشوبة عقيدتهم بالنزعة دون الغيب مادية قد تشرك بالله عجلاً مشهوداً ودنيوية تؤثر الدنيا ، الزاعمين بانهم أحباء الله وحدهم لاتمسهم النار إلا أياماً معدوات ، أن يقول لهم : إن كانت الدار الاخرة لكم وحدكم خالصة من دون الناس ، إن اخذتكم العصبية العرقية الطائفية لهذا الاعتقاد ، فتمنوا الموت للقاء الله الحبيب فى دار النعيم الخالصة لكم إن كنتم صادقين بزعمكم .

﴿ولَن يتمَنَّوْهُ أبَداً بِما قدَّمَتْ أيدِيِهِمْ واللهُ عليمٌ بالظالمينَ ﴾ (95)

هم على علم ومعرفة بسوء عملهم فى الدنيا وبما قدموا لدار الجزاء فى الاخرة ولذلك لن يتمنوا الموت ابداً لملاقاة الله . والله عليم دقيق العلم بالظالمين أكثر ممّا يعرفون أنفسهم .

﴿ولتَجدَنُهمْ أحْرص النَّاس عَلَى حياةٍ ومن الذين أشْرَكُوا يَوَدُّ أحدُهُمْ لوْ يُعَمَّرُ ألف سنةٍ وما هُو بِمزَحْزِحِهِ من الْعذابِ أن يُعمّرَ واللهُ بصِيرٌ بما يعْملُون ﴾ (96)

يخاطب الله الرسول الداعى الذى يبسط إلى اليهود لك القول يمتحن صدقهم ، يؤكد له سبحانه أنه حقاً ليجد أولئك أحرص الناس – سائر الناس الذين يدعون هم انهم دونهم فى الاخرة ، أشدهم على حياة – هكذا بالنكرة أى حياة تمتد دون الموت مهما تكن رفيعة أو وضيعة ، فقد تعلقت قلوهم بالدنيا . لتجدنهم أحرص على الحياة حتى من المشركين الذين لايؤمنون ببعث لحياة أخرى ، وذلك تعلقاً بشهوة الحياة المستمرة حتى يود احدهم لو يعمر ألف ألف عام ، ومهما يتمنى فان الله سيلقاه ويحاسبه على عمله فالله بصير بعمله ، ولن يزحزحه من العذاب فى الآخرة طول المكث معمراً فى الدنيا ، بل قد يزيده عذاباً إذ يزيد كسبه السيء يزيادة دنياه التى يبصرها الله الرقيب الحسيب .

وفى أوائل السورة قد ورد اليقين بالآخرة مع الإيمان بما أنزل الى الرسول ﷺ وما انزل من قبله ، وكان ذلك إشارة لتضاؤل الإيمان بالآخرة عند أهل الكتاب .

﴿قُلْ من كان عَدُوّاً لّجِبْريل فإنهُ نَزَّلهُ عَلَى قَلبِكَ بإذنِ اللهِ مُصدِقاً لما بْين يديه وهُدىً وبشْرى لِلْمؤْمِنينَ ﴾ (97)

الآية ترد على حملة اليهود على جبريل بعد الحملة على الرسول (ص) لأنهم ظنوا جبريل قد خانهم عندما خرج على عصبيتهم وحمل الوحى الى غيرهم ، فسخروا أاساءوا الى جبريل عليه السلام . والخطاب للرسول (ص) أن قل : من عادى جبريل حسداً على التنزيل فإنه القرآن نزله ذلك الملك على قلبه طمأنينة بإذن الله من الرسول الملك ولا البشر وتصديقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل لا بدعاً من سنة الله الرسالية وهدى وبشرى للمؤمنين جميعاً هدى لهم فى الحياة الدنيا وبشرى بحسن المصير فى الآخرة ، فجبريل ليس عدواً لاحد ولا حامل الهدى و البشرى لخاصة من بنى الإنسان بل للمؤمنين منهم كافة ولو آمن اليهود بما أنزله من بعد كما آمنوا من قبل لكان لهم التنزيل هدى وبشرى .

﴿مَن كان عدواً للهِ وملاِئِكتهِ ورُسُلِهِ وجبْريلَ ومَيكَالَ فإن اللهَ عدُوٌ لّلْكَافِرينَ ﴾ (98)

إن من عادى الله لأنه نزل فضله حيث شاء وعادى ملائكته الذين هم رسله إلى البشر لاسيما جبريل الذى ينزل الوحى وميكال الذى ينزل أقدار الرزق –كل ذلك حسداً على الدين الجديد وغيرة من أسباب نزوله وآثاره الهادية المبشرة فى الدنيا لنهضة الذين يؤمنون فى المدينة سبقاً لليهود فيها الذين كانوا يتفضلون على الناس بتراث الدين وبثروة الدنيا – من كان عدواً لله وكافراً بوحيه وبقدره فإن الله عدو الكافرين يجاوبهم وفاقاً .

﴿ولقَدْ أنزلناَ إلِيْكَ ءاياتٍ بيّناتٍ وما يَكْفُرُ بِهَا إلاَّ الْفاسقونَ ﴾ (99)

والخطاب الان للرسول ﷺ عن الذين فسقوا عن أمر الله بفنون العصبيه العرقية والحسد والحديث السيء عن جبريل وميكال رسل الغيب الذين ينزلون شرع الله وقدره . وعلى الرسول (ص) والمؤمنين ألا يستجيبوا لحملات الفاسقين ومقولاتهم المسيئة .

﴿ أو كُلما عَاهَدُوا عهداً نبذهُ فريقٌ مّنْهُم بَلْ أكْثرُهُمْ لاَ يؤْمِنُونَ ﴾ (100)

أتظل هكذا سيرة بني إسرائيل نقضاً متوالياً لكل عهد وميثاق مع كل ابتلاء لتصديق رسول مجدد ، نقضاً يقوده فريق منهم بل اكثرهم يسيرون معهم لأنهم لايؤمنون حق الإيمان .

﴿وَلمْاجَاءَ هُمْ رَسُول مّنْ عِندِ اللهِ مُصدقٌ لمَا مَعَهُمْ نبذَ فَرِيقٌ من الَّذينَ أُوتوا الْكِتابَ كِتابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورهِمْ كانُهمْ لاّ يَعْلمُونَ ﴾ (101)

ولما جاءهم الأن رسول عربى من عند الله لايفترى من عند نفسه مصدق لما معهم إلا ما ابتدعوه من غريب وشاذ ، وقد كان عهدهم مع كتاب الله أن يؤمنوا بكل الرسل المصدقين المجددين للرسالة ، نبذ فريق من أولئك الذين أوتوا كتاب الله من قبل كتاب الله التالى وراء ظهورهم ،كانهم لايعلمون أنه من عند الله من أم كتابه وأصل رسالته الواحدة ن وقد كانوا يستفتحون على الذين كفروا كما جاء فى الآية السابقة (89) .

﴿واتّبعُوا ما تتلُوا الشيَاطَينُ عَلَى مُلْكِ سليمان وما كَفَرَ سليمان ولكنَّ الشَّياطين كفرُوا يعلمُونَ النَّاسَ السّحْرَ وما أنزل على الْملكين ببابل هَارُوت وَمارُوت وما يعلمان من أحَدٍ حتَّى يقُولا إنما نحْنُ فْتنةٌ فلا تكْفُرْ فَيتعلَّمُونَ منهُمَا ما يُفرقُونَ به بين المرْءِ وَزوجِهِ وَمَا هُم بضارّينَ بِهِ منْ أحدٍ إلاَّ بإذنِ اللهِ وتتعلَّمُونَ مايَضُرُّهمْ ولاينفعهم ولقد عَلمُوا لمن اشتراهُ ما لهُ فى الآخِرة من خَلاقٍ ولبئسَ ما شروْا به أنفسهم لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ ﴾ (102)

إن اليهود اهل الكتاب لهم تراثهم الذى يتعصبون له ولو استقاموا على الحق فيه لآمنوا بالرسالة الخاتمة ، ولكنهم قد ضلوا عن أصول الدين وسلكوا قديم تقاليد واتبعوا موروث معولات كانت شياطين الجن التى شطنت عن الحق تتلوصها على ملك سليمان عليه السلام الذى عُهدت له فيه طاقات غيبية لتسخير الجن وفعل المعجزات . ولئن كانت تقاليد السحر والضلال التى سادت فى ثقافة بنى إسرائيل قد تنوقلت عن عهد سليمان فإنه هو (ص) ما كفر بما اوتى من آيات الله ، وإنما كفرت شياطين الجن واتخذوها رسالة يعلمون الناس من السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وما روت . وهؤلاء ليسوا كالملائكة المعروفين مثل جبريل الذين سبق ذكرهم والذين هم من أسمائهم منسوبون إلى الرسالة (الملأكة أو المألكة مقلوبة) وإلى الله (إيل) ، هم رسله إلى البشر يوحون إلى أنبيائهم وحياً من عنده تعالى ويؤيدون المؤمنين به على طريق الهدى أو يصلون الإنسان بأقدار الله ورقابته فى الدنيا وإنفاذ جزائه فى الآخرة . اما الملكان فى بابل هاروت وماروت فكانا يلقيان على الإنسان رسالة علم غيبى قد يتخذه الإنسان للخير أو الشر حسب طريقة خياره فى ابتلاء الحياة ، وكانا ينذران : إنما نحن فتنة ، يوصيان ألا يكفر من يتلقى منهما العلم فيضار به الناس . وهما من جنس الجن عامة . وعالم الجن – اى الخفاء – فيه الملائكة الطهار المسبحون الطائفون لله أبداً المسخرون فى خدمة الإنسان ، وظن مشركوا العرب أنها نبات الله نسباً إلى الجن (سورة الصافات الآية 58) وفيه الجن الذى يتسمع الوحى وقد يؤمن أو يكفر مثل البشر (سورة

الجن) وقد يوحى إلى البشر ما هو فتنة يدعو للخير أو الشر . وفيه إبليس وذريته شياطين الجن الذين يوحون بالشر والكفر ويغرون به .

والآية تشير إلى مرض من أمراض أهل الدين والمعتقدات الغيبية ، يشغلهم دون الإيمان بالغيب الحق من كتاب الوحى بالسحريات والخرافات الاعتقادية دون بينة ، وذلك قد ساد حتى أوساط بعض مجتمعات المسلمين يتبعون المتلو منه الموروث يقدمونه على حق الكتاب المتجدد . وفى سالف المجتمع الإسرائيلى وفى عهد نزول الكتاب الحق كانت تشيع تلاوة السحر البابلى يُعلملونه فتنة يفرقون به بين المرء وزوجه بإيحاءات الأوهام . وكان ذلك منسوباً افتراء على سليمان وخدمة الجن بيد يديه ، وإنما هى شياطين الجن توحى إلى أهل الكتاب ما يصرفهم عن حقه ويضرب بهم نهج الفتنة والسحر والكفر ، ومهما ينحرف هؤلاء المنقولات الغيبية عن الهدى لأغراض السحر فما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، وإنما يتعلمون به ما يضرهم ولا ينفعهم وقد استعرّ فى علمهم أنه أضاليل دنيا من اشتراه يتمتع بممارسته فى الدنيا دون الهدى وبينات الحق المسنون ما له فى الآخرة من خلافه ، نصيب .

والآية موصولة بالسابقة أن لو اتبع بنو إسرائيل كتابهم وتلوه حق تلاوه ولو استقاموا على سنة رسل الحق فى تراثهم ولم يتبعوا الشائع من تراث الشياطين من الفتن والسحريات الضارة الضالة المنسوبة إلى ملك سليمان ، لو صرفوا الباطل واعتمدوا الحق لصّدقوا ما انزل إليهم من الكتاب المصدق والرسول الأمين برسالته .

﴿ولو أنُهم ءامنُوا واتَّقوا لمَثُوبةٌ مّنْ عندِ اللهِ خيرٌ لوْ كانوا يَعْلمُونَ ﴾ (103)

ولو انهم امنوا بالرسل والكتاب واتقوا الانحراف **لمَثُوبةٌ مّنْ عندِ اللهِ خيرٌ لوْ كانوا يَعْلمُونَ** .اليهود أهل الكتاب التى ذكرت فى السياق السابق خاتمة لهذه المجموعة من الآى .

عموم المعاني الآيات 87–103

بدأ الخطاب منذ الآية 75 للمسلمين وقد طمعوا فى إسلام اليهود ، وتوالت الآيات تذكرة لليهود بالتقاليد والظواهر التى تحملها ثقافتهم المريضة المتعصبة الغالبة فى المدينة . والآيات كلها موعظة للمسلمين إلى يوم القيامة ألا يتعرضوا لمثل سنة أهل الكتاب بعد تقادم الدين فيهم من مظاهر الردة والهدى بتحريف الأصول وكتمها وغشيان روح الجمود والكفر بالتجديد الحق . فعلى المسلمين أن يصدقوا فى حفظ الدين ثوابتهُ لاتبدل ونصائحه لاتكتم مجادلة أو نفاقاً ونصوصه لاتصبح محفوظات

صوتية كما شاع مع القران ولاتتعرض لمتيدعات موضوعة كما اعترى سنة الرسول ﷺ . وعلى المسلمين الاستقامة فى مراعاة الشريعة عقائدها وسائر عباداتها وأخلاقها إحساناً وصدقة ومعاملاتها العامة أمناً وسلاماً ، وألا تبعض الحياة بعضها دين وبعضها لايراعى فيه الدين ، وألا يقتصر المسلمون فى دينهم على مجرد عصبية الانتماء والموالاة فى الملة وإذ توالت الرسل قبل دورة دين الإسلام الحاضرة على المسلمين أن يصدقوا ما بين أيديهم من سلف الرسالات ويجددوا تطبيقات رسالة الختام للخلف فى كل عهد جديد ويبقوا منفتحين لدوراات التجديد والإحياء دون عصبية لتقاليد القومية أو للمذاهب القديمة ودون سقوط لهوى الاستكبار والحسد ضد الجديد الغريب أو الإشراكيات المادية دون الغيب ، وذلك من حيثما جاءت دعوة التجيدي وفقاً لمعايير الحق الاصيل . ولاينبغى للمسلمين إيماناً بالبعث والآخرة أن تاخذهم فتنة الدنيا وطول متاعها او أن يحسبوا أن الانتماء للملة يعصمهم من النار . ولاينبغى أن يدفعهم الهوى للهجوم على المصادر التى إليها ترجع حركة التجيد فذلك عداءٌ لأصول الدين . وعليهم أن يتعظوا بسوابق التاريخ فى الارتداد عن قيم الدين والانتكاس عن تعاليمه لئلا تحملهم التقاليد على المضى فى وجه التجديد المصدق للأصول ، وعليهم ألا تسوقهم التقليد الى تحويل الدين الى غيبيات سحر وروحيات شعوذة . والمسلمون عموماً يلتمسون المواعظ والعبر فى تاريخ انحطاط التدين ومظاهر ذلك عند اليهود والنصارى ويتخذون التجديد والتوبة إلى الله وإلى الإيمان والتقوى خير الحياة .

ترتيل المعاني: الآيات 104–123

﴿ يا أيها الّذينَ ءامنُوا لاتقولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انظُرْنَا واَسْمعُوا ولِلْكاَفِرِينَ عَذابٌ أليمٌ ﴾ (104)

يستقيم الخطاب والتنبيه فى الاية مباشرة للمؤمنين ، بعد ان مهد لذلك سابق الآيات حتى يؤسسوا العلاقة مع أهل الكتاب على وعى وبصيرة .

فلا يقولوا راعنا . وكلمة " راعنا " صحيحة فى الكلام العربى ، ولكن بنى إسرائيل استعملوها فى خطاب الرسول (ص) سخرية لتشير الى معنى من جذر الرعونة ، فحرفوا الكلمة كما حرفوا كتبهم وتلاعبوا بها كما كانوا يتلاعبون بالكلمات لأغراض السحر . وأوصت الآية المسلمين أن يقولوا " انظرنا " أى أقبل علينا ، وحين يقبل الرسول فالأمر على المومنين أن اسمعو بلاغ الرسول وأطيعوه ، ولايكونوا كأولئك الصم البكم الذين لايسمعون او المصرون على الباطل الذين ويقولون سمعنا وعصينا ، وليقوموا مصطلح لغتهم الدينية ولايتابعوا الذين يحرفون لهم لفظ الكلمات لاسيما إزاء

الرسول ﷺ الذى يحسده اهل الكتاب . وللكافرين الذين يسمعون فيكذبون عذاب أليم مثل ما وعدت به الآيات الصم البكم الذين لايسمعون غافلين .

﴿ مَا يودُّ الَّذين كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الْكِتابِ ولا المشْرِكِينَ أن يُنزّل عَليْكُم مّنْ خيْرٍ من ربّكُمْ واللهُ يختصُّ بِرَحْمَتهِ مَنَ يَشاءُ واللهُ ذو الْفضْلِ الْعَظيم ﴾(105)

الخطاب يتواصل للمؤمنين شارحاً لحسد أهل الكتاب الذين كرهوا ان ينزل هذا الخير على هولاء الأميين من العرب وعلى هذا النبى الامى وقد كانوا ينتظرونه لانفسهم . وقد ذكرت الآية كذلك حسد المشركين الذين ما طمعوا احتكار هيمنة ثقافية كاليهود ولكنهم كذلك كرهوا هذا الخير الذى جمع المسلمين على الايمان واستقل بهم عن سلطان المشركين .

لكن الله يختص برحمته من يشاء فالرحمة كلها لله ومن عنده ، وهو صاحب المشيئة أن يختص برحمته هذا النبى العربى من الملة الجاهلة وهؤلاء المستضعفين القلة من بين العرب . وإن رحمة الله التى يختص بها هذا النبي وهذه الجماعة وهذه الأمة لاتقطع فضله لأن فضله عظيم متواصل الفيض بعد التخصيص على من يشاء . وهذه آية ذات وقع فى المدينة بين اليهود والمشركين ، ولكنها خالدة الوقع للمسلمين لاسيما اليوم حين يغلب عليهم نفوذ أهل الكتاب ولكنهم يستشعرون فضل الله إذ تحيا وتقوم فيهم بعثه وصحوة للدين .

﴿ مَا ننسَخْ مِنْ ءايةِ أوْ نُنسها نأتِ بِخَيْرٍ مّنْهَا أوْ مثْلهَا أَلَمْ تّعْلَمْ أن اللهَ عَلَى كُلّ شيْءِ قَديرٌ ﴾ (106)

فى سياق الخطاب للمسلمين عن أهل الكتاب ، توضح الاية ان الله باقداره ما ينسخ مبدلاً آية ، كتاب رسالة ، او يُنسى (أو ينسء فيؤخر على قراءة ما ضيّعته من ذلك الذكريات والنقليات التراثية القاهرة كما حدث لنصوص التوراة والانجيل ،فأن الذى ياتى بعد تلك الاية متقدم عليها خيراً إذ يناسب الابتلاءات الجديدة وتطور الايمان أو هو مثلها تماماً فى الخير إذ يصدق الذى نسى من قبل فما ويذكر به ما جاء به الرسول ﷺ من قران هو آية من الله مصدقة لاياته السابقة و بق تماماً فى المغازى والقيم ، آيته الجديدة قد تأتى صورتها مختلفة ولكنها تحقق ذات مقاصد الحكم فى الآية المنسوخة بطريقة مختلفة . فصور الأحكام تتحقق بطرق مختلقةٍ كلما تغيرت الظروف والأسباب أو تكون الآية القديمة منسية أو مؤجلة الوقع تكليفاً . فكل آية فى التوراة نسخ العمل بها تماماً أو نسيت وضاعت تذكيرها فذُكر بها أو أُجّل بها فحق أجلها جاءت آية فى القران خير منها او مثلها . فآيات القران مثل تلك الآيات او خير منها ولو كان القدامى لايودون أن يُنزل على الخالفين خير من ربهم، والله يزيد الخير من فضله العظيم فهو حقاً على كل شيء قدير على حفظ آية تذكر بمثلها ، وعلى نسخها وإبدالها خيراً منها.

﴿ ألمْ تعْلمْ أن اللهَ له مُلْكُ السّمَاوات والأرْض وما لكمُ من دونِ اللهِ وليٍ ولا نَصِيرٍ ﴾ 107

الخطاب للرسول ﷺ الداعى إلى القران الذى يبلغه ويتلوه واهل النفوذ الثقافى يحسدونه على نسخ النصوص القديمة وهم اهل النفوذ الاقتصادى يغارون من وعد النهضة لفئة المسلمين ، ذلك ليطمئن بحق القرآن الناسخ وبقوّة المؤمنين من الله الغالب . ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض وأمرهما قادر على نسخ الآيات القديمة بجيد خير منها أو مثلها ، ولخطاب للمسلمين عامة مهما سادت حولهم قوى الحسد والعزل والضغط فلله الملك مالهم من ولى ولانصير ينصرهم نصراً قوياً الا الله .

﴿أمْ تُرِيدُونَ أن تسئلُوا رسُولكمْ كما سُئل مُوسى من قبلٍ ومن يبدل الْكُفر بالإيمان فقدْ ضلّ سواء السَّبِيلِ ﴾ (108)

الخطاب للمسلمين هل أطمأنوا بموالاة الله أم ارتابوا بأثر ثقافة الذين من حوله يريدون أن يسألوا رسولهم الأسئلة التى سألها اليهود لموسى حين لم يطمئنوا للإيمان بهدى غيبى وارادوا آيات مشهودة مادية تحذف المسنون المعتاد تصدّق بلاغة عن الغيب كان يروا الله جهرة أو يخرج لهم رزقاً أطيب لاخضب به أرضهم الجدبة او يذهب ليقاتل وحده مع ربه الجبارين .

إن من لايطمئن بآيات الله البيات يطلب آيات قدرية معجزة ، والآية تشير لاثر الحملة الثقافية من اليهود على المسلمين ووقعها الشديد الذى قد يهز إيمان بعض المسلمين فيطلبون ما طلب اليهود . فمن يرتد إلى الكفر ويبدل الإيمان فذلك ضلال عن سواء السبيل السوى الذى هو الإيمان بآيات الله البينات فى الكتاب ، يصدقه العمل الصالح والتوالى والتناصر بالله ملك السماوات والارض .

﴿وَدَّ كثيرٌ من أهْلِ الْكِتابِ لَوْ يرُدُّنكم من بعْد إيمانكُم كُفَّاراً حسداً مّنْ عندِ أنفسهم مّن بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فاعْفوا واصْفحُوا حَتَّى يَأتىَّ الله بأمْره إن اللهَ على كُلّ شيْءٍ قَديرٌ ﴾ (109)

الآية تتلو السابقة وتمضى فى سياق تحرير المسلمين من اثر الثقافة الكتابية التى قد تهز إيمان بعض المسلمين ، تذكّرهم بأن أهل الكتاب الذين يفتنونكم إنما يتمنون لكم الكفر بعد الايمان وليس لهم من دافع سوى الحسد الذى ملأ عليهم نفوسهم بعد ان تبيّن لهم وتأكد أن الذى معكم هو الحق ، وتوصيهم الآية ألاّ تتأثروا بهم ، فاعفو عفواً يزيل منكم فتنة التوتر عليهم ، و واصفحوا صفحاً يسمح صفحة أثرهم أو حملتهم ، أتركوهم ظاهراً وباطناً الآن حتى يحين وقت ينضج الأمر ويتمكن الحق ويتفاقم الحسد إلى المواجهات المختلفة ويدعو للمجاهدات . فالله قديرٌ يقدر وقت التمكن والجهاد ، وقدير عليهم فلا يضركم عفوكم وصفحكم عن حملتهم .

﴿ وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وءاتُوا الزكاةَ وَمَا تُقدِمّوا لنفسكُم مّنْ خَيْرٍ تجدُوهُ عِندَ اللهِ إن اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (110)

الخطاب للمسلمين فى سياق ظروف العفو والصفح عن اهل الكتاب الذين يعيشون بينهم فى المدينة ، وقبل الحسم والمواجهة أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة بما يعين على الصبر والصفح والتوالى والتضامن

للصف المسلم . وما يقدموا لأنفسهم من خير يجدوه عند الله اجراً مضاعفاً تذكرة بان ما يقدمون من صلاة وزكاة خيرٌ كثيرٌ لن يضيع بل هو ذخر لهم يجدونه سيجدونه عند الله ن فهو بصير بما يعملون .

﴿وقالوا لن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَن كان هُوداً أو نصارى تلْك أمانيهُمْ قلْ هاتوا برهانكُمْ إن كُنُتمْ صادقين ﴾(111)

الخطاب يتواصل متوجهاً للمسلمين ومواقف أهل الكتاب منهم إذ قالوا فيما يُعهد من جملتهم فى وجه المسلمين لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى فى ، تجمعهم الغيرة من دين متجدد فيتناسون الطائفية فيما بينهم وبعضهم يوالى بعضاً يدعون أن مصير الجنة لأهل الكتاب القديم وحدهم ، والخطاب للمسلمين ألا يتاثروا بدعاياتهم وادعاءاتهم فى حصر الجنة لأنفسهم لأنها أمانيهم المجردة ، بل الخطاب لتقوية حجة الرسول ﷺ وللمؤمنين : قل لهم هاتوا برهانكم وقدموا الأدلة والبرهان على الزعم باحتكار الجنة إن كنتم صادقين .

﴿بَلى منْ أسْلم وجْههُ للهِ وهُوَ مُحسِنٌ فلهُ أجرهُ عندَ ربِه ولاَ خوْفٌ عليْهمْ ولا هُمْ يحْزَنُونَ ﴾ (88)

" بلى – رداً على زعمهم وجواباً لنفيهم ان لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى – الله يدخل الجنة من غير اليهود والنصارى من اسلم لله وجهه رمز كرامته وظاهر وجهته وهو محسن بالغ الاحسان لايقتصر إسلامه على الظاهر بل يصدق ويصلح باطنه خير الصلاحح فقط فله اجره عند ربه ولا خوف على أولئك الذين أسلموا محسنيين ، لا خوف عليهم من النار ولايحزنون التفريط وفوات الجنة .

﴿وقالتِ اليهود ليستِ النصارى على شيءٍ وقاَلَتِ النَّصارى ليْستِ اليهود على شيْءٍ وهُمْ يتْلُونَ الكتابَ كَذلِكَ قال الَّذين لايْعلمون مثْل قولهم فالله يحْكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيِه يخْتَلِفُونَ ﴾ (113)

وأهل الكتاب يتوالون فى زعم المصير الى الجنة المحتكرة لهم معاً فى وجه المسلمين ولكنهم إذا تواجهوا أخذتهم الطائفية الأشد ، فاليهود الأسبق تاريخاً كما حسدوا ورفضوا الإسلام سبقوا الى ذلك ضد عيسى والنصرانية وقالوا ليست النصرانية على شئ من الحق ، وكذلك لحق بهم النصارى طائفية فأنكروا أن اليهود بعد المسيحية الناسخة بقوا على شئ ، وهم يتلون الكتاب الواحد الذى لايكذب سابقه لاحقه بل يتصادقان وما كان جديراً بأهلهما أن يقول بعضهم فى بعض مثل ذلك . كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم ، والذين لايعلمون شيئاً من جاهليتهم المطلقة المشركون كذلك تعصبو لتقاليد آبائهم ، وقالوا إن الذى سبق من كتاب والذى جاء به محمد منكر وليس على شئ .

هذه هى الطائفية التاريخية التى تحتكر دعوى الحق وترفضه للغير وللتجديد فالله يفصل يوم القيامة بين كل هذه الخصومات والادعاءات التى كانوا يختلفون فيها .

﴿وَمَن أظْلمُ ممّن مَّنع مَساجِد اللهِ أن يُذكر فيها اسمهُ وسعى فى خرابها أولئك ماكان لهُمْ أن يدْخلُوها إلاَّ خائفين لهُمْ فى الدُّنيَا خِزْىٌ ولهُمْ قي الأخرةَ عذاَبٌ عَظِيمٌ ﴾ (114)

ومن تشتد به العصبية يصبح أشد ظلماً للآخرين . فمن أظلم ممن منع معابد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها . اليهود منعوا النصارى ، والنصارى منعوا اليهود ، والذين لايعلمون من القرشيين منوا المسلمين من دخول المسجد الحرام حتى الحديبية . وفى هذه الاية تذكير بمسجد الله الحرام الذى حرم منه المسلمون وتمهيد لآيات تحويل القبلة . فأولئك المسيطرون على مساجد الله بظلم عصبيتهم المحتكرة المخربة هم ليسوا أهلاً لذكر الله ولرعاية معابد الله بل خانوا أمانة الدين كان ينبغى ألا يدخلوا مساجد الله إلا خائفين من الله خاشعين لا عادين ظالمين . وفى الآية بشارة ان المشركين سيجلون عن المسجد الحرام الذى اتخذوه محور ارهاب للآخرين وخربوا فيه مقام العبادة والشعائر الخالصة وما كانوا أولياءه بصلاة المكاء والتصدية وصدّ العبّاد الخاشعين فى الصلاة ، اولئك ما كان ان يدخلوا محارم الله إلا خائفين (سورة الانفال الايتان 34،35) . وكذلك اليهود والنصارى فى مسجد القدس وما حوله من معابد الله ، أولئك جميعاً لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، وبشارة للمسلمين بخزى لأولئك جميعاً فى الدنيا ونذارة لهم بعذاب فى الاخرة .

﴿ولله المشْرِقُ والمغربُ فأينما تُولوا فَثَمَّ وجْهُ الله إن الله واسعٌ عليمٌ ﴾ (115)

لئن مُنع المؤمنون العابدون من المعابد التى رفعت لذكر الله ، فكل الجهات لله مشرقاً ومغرباً هناك وجه الله ، فالصلاة لله واصلة نحو كل قبلة لأنها مصوبة إليه تعالى حيثما توجهت . وفى الآية تثبت للمسلمين وهم يصلون إلى المسجد الأقصى وتهيئة لهم برجاء زوال سيطرة قريش ظلماً على المسجد الحرام وتحوّل القبلة . فالله واسع ثَمّ وجهه حيثما ولى المؤمنون وجوههم وصلوا ، وعليم أينما كانوا فى معابد الله المرفوعة أو الأرض كافة ،والله واسع فوق كل طائفة منحصرة وعليم يحيط بعباده المؤمنين كيفما تتيسر لهم العبادة .

﴿وقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ ولداً سبحانه بل لَّهُ ما فى السَّماوات والأرْض كُلٌ له قانتُونَ ﴾ (116)

والمتوالون على المؤمنين تجاوزواً أصل التوحيد قالوا اتخذ الله ولداً . فبين اليهود قامت طائفة ادعت عزيزاً ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون العرب اتخذوا الملائكة بنات الله ، ولكن الله واسع الملك غنى لايحده ولد ولايلزمه . بل الله له مما فى السموات والارض فلا حاجة له أن يتمتع أو يستعين بالولد ، فالكون كله قانت لله عابد مطيع ، الأشياء والمؤمنون من البشر ، وذلك بأكثر مما يقنت الولد لابية ، وسبحان الله متنزها فوق أوهام من اشركوا به ولداً .

﴿وبَديعُ السماوات والارضِ واذا قضَى أمْراً فأنما يقول لهُ كُن فيكُون ﴾ (117)

الله سبحانه بديع هو الذى أبدع السموات والأرض إبداعاً دقيقاً ، هو الغنى المتصرف فى الكون بأكبر وأوسع مما يتصرف الوالد فى ولده ويعرفه ، وقضاوه نافد — اذا تمت كلمة القدر والأمر : كُن بصوت خاطف مضى النفاذ وكان ما مأراد الله مفعولاً .

﴿وقَال الَّذين لايعْلمُون لوْلاُ يُكلمُنا اللهُ أوْ تأتينا ءايةٌ كذلك قَالَ الَّذين من قبلهِم مثل قوْلهِمْ تشابهت قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنا الأَيات لقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (118)

وقال العرب الجاهلون الذين لايعلمون تراث دين لولا يكلمنا الله أو تاتينا آية لانهم ماديون لايؤمنون بالغيب الا أن يسمعوا الله كلامه مباشرة أو تاتيهم معجزة تحملهم على الإيمان كذلك قالت الأقوام فى القرى من حولهم من قبلهم طلبوا الآيات المشهودة مثل قولهم تشابهت قلوبهم بالكفر وتماثلت بطلب الآى والظواهر المادية دون الغيب والوحى ، لكن المسلمين ينبغى ألا يشابهوهم أو يسألوا رسولهم كما سُئِل موسى او الأنبياء من قبل ، ففى سياق حملة التشكيك العنيفة على المسلمين تذكرهم الآية بأن آيات الكتاب مبينة واضحة أمامهم وينبغى ألا يتأثروا بموقف أهل الكتاب والمشركين بل يكونوا قوماً موقنين

ولاتَسألْ (قراءة) يامحمد عن اصحاب الجحيم أو لاتُسأل يوم القيامة عن مصيرهم فهم المسؤولون وإنما عليك البلاغ للرسول ﷺ ، وكذلك اصحابه المؤمنون دعاة لايزرون وزر أهل الكتاب والمشركين .

﴿ولَن ترْضىَ عنك اليهود ولا النَّصَارى حتَّى تتَّبع ملتُهم قُلْ إن هُدى اللهِ هُوَ الهدى ولئن اتبعْت أهواءهُم بَعْدَ الَّذى جَاءكَ من الْعلْمِ ما لَكَ من اللهِ من ولي ولا نَصِيرٍ ﴾ (120)

فى سياق الحملة على الدين الجديد ن والمجابهة الشرسة من اليهود للرسول ﷺ وللمسلمين وفى بيئة هيمنتهم الثقافية على أمة أمية ما جاءها نذير ولا كتاب من قبل ، تدعو الآية الرسول ﷺ ومن ورائه اصحابه ألا ينشغل بهم وألا يتأثر بموقفهم منه فهم لن يرضوا عنك إلا أن تتبع ملتهم ، فأُوصى بان يعلنها جلية : إن هدى الله هو الهدى، إن الذى يأتى من الله هو الهدى الحق وليس الذى فى أهواء بنى إسرائيل ، ولقد كان كثير من ضعاف المسلمين يتّبعون أهواء أهل الكتاب تقديراً وخوفاً وابتغاء ولاية ونصرة ، ولكن لهم أسوة بموعظة الرسول ﷺ أن ليس من الله ولاية ولا نصرة إن عوَّل على أهواء الكتابيين بعد العلم المنزل .

﴿ الَّذين ءاتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونهُ حقَّ تلاوة أولئك يؤمنون به ومن يكْفرْ به فأولئك هُمُ الخاسِرُون ﴾ (121)

الذين آتاهم الله الكتاب شانهم الحق انهم يتلونه حق تلاوه ، باللسان والجنان والجوارح ، لاتلاوة اللسان لفظاً بغير سمع عاقل ولاتلاوة الأمانى ولا تلاوة نصوص وأقوال لاتتلوها افعال ، وتلك امراض تورط

فيها اهل الكتاب ووصفتها الآيات . والآية تختم الحديث عن اهل الكتاب وعلاقتهم بالمسلمين بنصيحة للمسلمين الا يقلدوا طائفة اهل الكتاب ولا عصبيتهم ، فمن كان من أهل الكتاب يتبع الكتاب حق الاتباع ، إنما يتبعه مصدقاً ، تلك تلاوة كاملة عن إيمان شامل ، أولئك يؤمنون به متجدد بالقرآن ومن يكفر به فلا يتلوه ويتبعه حيثما تجدد وتصدق تاريخاً بكتاب تال – أولئك هم الخاسرون دنيا وأخرى .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَاءِيل اذكروا نعْمتي الَّتى أنعَمْتُ عليكم وأنى فَضَلْتُكُمْ على العالمين ﴾ (122)

جاءت عبارة هذه الآية خطاباً فى فاتحة الكلام عن اهل الكتاب (الآية 74) ، وجاءت هنا فى خاتمة الحديث عنهم ، خطاباً لهم وتذكيراً مرة بعد مرة عبر مراحل سيرة الحياة بنعماء الله هداية وعفواً وتفضيلاً لهم بذلك على الاخرين سلامة ورزقاً وعزاً .

﴿وانَّقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفسٍ شيْئاً ولا يُقْبلُ منْها عَدْلٌ ولاتنفُها شفاعةٌ ولاهُمْ يُنصَرُون (123) ﴾

الآية تأمر اتقاء يوم الجزاء حيث لاتجزى نفس عن نفس شيئاً مثل الآية السابقة (48) التى ورد فيها أن النفس فى ذلك اليوم لاتجزى عنها نفس ولايؤخذ منها عدل ، وفى هذه الآية لايقبل منها عدل ، فالذى لايؤخذ قد تعجز النفس أن تعطيه والذى لايقبل يرفض قطعاً ولو قدمته النفس . وفى الآية السابقة ورد أنه لايقبل منها شفاعة ، وفى هذه الاية لاتنفعها شفاعة لن سياقات الختام تحسم فى أمرهم فإن الشفاعة قطعاً لن تنفعهم حتى وأن عرض منها غير مقبول . وفى الاولى تقدم نفى الشفاعة لعادتهم الانتساب والتشفّع بالأنبياء ، والآيات بعد ذلك كثير منها نفى وفاءهم لتلك النسبة والطمع فى حقوقها لسيرتها الفاسدة فتقدم هنا نفى قبول شيء عوضاً عن فوات الصالحات وفساد السيرة . والآية دعوة لتقوى يوم الآخرة حيث المسؤولية لكل أحد فرداً لاتعويل على آخر ينوب فى الجزاء أو يشفع ،فلكلٍ كتابه ، ولا على استدراك عدل فلا رجعة إلى الدنيا دار الابتلاء والعمل ، ولاناصر من دون الله .

عموم المعاني الآيات 104–123

الآيات (104–120) خطاب للمسلمين يعلمهم حكمة الاستقلال والمغالبة للثقافة الدينية الكتابية التى تقوم فى المدينة بعصبيتها فى وجه الإسلام الجديد القادم مصدقاً لأصول الدين الواحد ومجدداً .

وهى موعظة عامة للخلف من المسلمين فى وجه كل الثقافات الغالبة التى يُبتلى بها الاسلام متجدداً ناهضاً فى وسطها . بل هى ايضاً تذكرة للمسلمين ألاّ تتقادم فيهم الثقافة الدينية فتتجمد عصبية فى وجه الإحياء والتجديد اللازم للدين مع تطور الزمن والبلاء .

وأول الدفاع الثقافى لأصالة المسلمين ألاّ تغزوهم وتسرى بينهم المصطلحات التى تروج فى اللغة كناية عن سخرية أو هجاء ضد الدين الجديد ، مثل مصطلح خطاب اليهود للرسول ﷺ ومثل كلمات كاللاهوتية والاصولية والرجعية .. الخ وينبغى عموماً إدراك الغيرة الثقافية التقليدية السائدة ، فالقدامى يريدون لأى حق ألا يظهر إلا منهم ويغارون أن يختص بفضله الجدد لاسيما إن كان الفضل عن رسالة من الله . وإنما التجديد سنة الله فى تاريخ الدين تتعاقب الرسالات والشرائع والاجتهادات وقد تتناسخ فيها الحكام وتتبدل او تتجدد وتتحول عبر ظروف الحياة المتطورة وابتلاءاتها المتغيرة . ولكن أصول الحق ومصالحه لأهداف الإنسان ثابتة والفروع والوسائل والصور هى التى تتطور برسالة جديدة من السماء أو اجتهاد جديد فى الأرض فى إطار الرسالة الخاتمة الخالدة . إن دين الحق هو الذى ينبغى أن يواليه المؤمنون والذى تاتى عاقبة التاريخ بتأويله نصراً لأهدافهم – سلطانه وأصله من الله لاحاجة معه للمؤمنين أن يطلبوا أدلة من آيات مادية ولا مكان بينهم لتبديل الإيمان ضلالاً عن السبيل .

إن أهل الكتاب القديم والثقافات التقليدية يحبون أن يرتدّ المؤمنون بالدين الجديد إلى القديم وذلك حسداً حتى اذا تبين حق الانتقال إلى الجديد . ومهما كان ذلك الموقف النفسى الظالم فإن على المؤمنين أن يتعاملوا مع أهل القديم بالعفو والسماحة حتى يمكن الله القادر حق الدين فى الواقع ويأتى وقت الأمر بالدفاع عنه والجهاد . وحتى يأتى ذلك يثبت المؤمنون توحدهم شعائر الصلة بالله صلاة لاغفلة والصلة المالية بينهم زكاة لاقطيعة . وذلك كله مقدم أجره فى الآخرة محفوظ ولو لم تظهر آثاره فى الدنيا بعد فى حال الضعف والصبر .

إن عصيبة الدين الكتابى المتقادم تغر أهله وتمنيهتم ألا قربى من الله وجنته فى الآخرة إلا باتباعهم ولا حجة لهم فى أصول الحق ولا صدق لذلك المعيار فى استحقاق الأجر والرضا عند الله بل المعيار الحق هو مدى إسلام الحياة لله واحسان ذلك . ثم إن العصبية حتى لو انصرفت عن الحكم الغيور ضد الآخرين تنقلب على أهلها طائفية ينفى بها بعضهم لبعض أى شئ من الحق . وذلك واقع بين اليهود والنصارى ولو كان يجمعهم معا أصل الحق الواحد فى كتاب عهد قديم وجديد ، وكذلك تصيب الطائفية الجاهليين الذين لا أصل لهم من كتاب رسالة ، لكن الفطرة فى التدين الحق واحدة . والعبرة أن ذات الطائفية قدتصيب بل اصابت المسلمين الذين انتهو وراء أصول دينهم الحق المحفوظة إلى طوائف وشيع ومذاهب وطرق وشعوبيات وقطريات شتى ، وذلك بلاء بين أهل الدين بعد الشرعة

والملة الواحدة ، وقد لايشفون بعد الخلاف والفرقة بالوحدة ، والفيصل بينهم هو حكم الله يوم القيامة .

إن حمية العصبية الدينية فى مكة القديمة وغيرها تدعو لظلم اهل الدين الجديد فى مظاهر حريتهم للعبادة الجماعية ومراكزها ، فالمساجد العامرة بعبادة الله يتصدى لها الظالمون بالمنع أن يذكر فيها اسم الله وحده وتخريب المناشط العبادية فيها وهى مراكز خشوع وأمن لا ظلم لمن أراد الآخرة بغير خزى ولا عذاب ، ومهما يكن فان الأرض الواسعة كلها مشرقاً ومغرباً جعلت مسجداً ومهجراً لعبادة الله وذكره .

إن ذلك التدين الكتابى التلقيدى والجاهلى فى مكة وغيرها الذى لم يوحد الله أو يؤمن بالغيب حقاً قد دعا إلى اشراك المخلوقات بالله الخالق – ولداً بشراً إو ملائكة فاعلين فى عالم البشر المشهود . وتعالى الله فانما له ما فى السموات والأرض والكل له قانت ، وهو الذى ابدع الكون وقضاؤه فيه نافذ غنياً عن ولد . وقد يدعو الشرك المادى إلى أن يطلب الجاهلون الغيب أصواتاً من كلام الله أو دلائل طبيعية منه ظاهرة . وهذه علة قديمة فى الانسان فالآيات فى الطبيعة والشريعة بيّنة للمؤمنين الموقنين . ومهما يكن فالرسالة من الله بشارة ونذارة وقد لايؤمن بها الجميع ولكن الداعى إليها لايُسأل عن ذلك . ولن يرضى عن ذلك الرسول الداعى أهل الكتاب والأقربون إليه بأصول الإيمان بالغيب إلا أن يتبع . لكن رسالة الله هى الحق والعلم والهدى ، وملة أولئك إنما تصدر عن أهوائهم ، لا ولي أو نصير فى الحياة لمن اتبعهم دون الله .

والآيات (121–123) تذكرة لأهل الكتاب القديم أن عليهم أن يتلو كتابهم سائرين معه حق المسير نصاً يقرأ وسنة تتبع متجددة عبر التاريخ ، وذلك هو حق الإيمان وإلا فالكفر والخسران . وهى تذكرة ختام لخطابهم وعبرة للمسلمين ألا ينسى المتدينون برسالة قديمة تاريخ نعم الله عليهم وتفضيلهم على العالمين بها ومستقبل مسؤوليتهم الخاصة يوم القيامة عن عهدها .

ترتيل المعاني: الآيات 124–141

﴿ وإذ أبْتلى إبراهم ربّهُ بكلماتٍ فاتمهُن قال إني جَاعلكَ للناس إماماً قال ومن ذُريتتي قال لاينالُ عهدى الظّالمين ﴾ (124)

جاءت 'إذ ' تذكيراً بقصة آدم فى الأرض خليفة بعد آية خلق السماء والارض (الآية 30) ، ثم جاء الوعد برسالات الهدى (الآية 38) ، وبدأ الكلام فى تاريخها بقصة بنى إسرائيل النافذين

فى ثقافة المدينة واستمرت الآيات تصلها بشأن المسلمين . وهذه الآية بداية كلام جديد موصول بكل الايات السابقة . والواو فى أول الآية تشير الى ذلك الارتباط ، وان الذين يتلون الكتاب حق تلاوته من بنى إسرائيل والنصارى الذين أتوه يؤمنون بكل كتاب منه جديد ، وبكل الرسل المتتابعين منذ إبراهيم . وكذلك ذكر المشركين العرب موصول بهذه الآية وهم أبناء إبراهيم وإسماعيل من المرسلين . وقد ابتلى الله ابراهيم عليه السلام وامتحنه بكلمات ابتلاء – عقاب من أهله على هداه وتكاليف هجرة ونشر للحنيفية ، فأتم الامتحان مجتازاً تلك الابتلاءات بإحسان تام وخاطبه الله بعد ذلك التمام بأنه تأهل ليكون للناس إماماً . فدعى ابراهيم عليه السلام الله ليجعل أئمة من ذريته. وقد عقبه خلفه اليهود والنصارى والعرب ، ولئن طلب إبراهيم الأئمة فيهم فإن ربه قال إنه لا ينال عهده الظالمين منهم ، فليست بالوراثة إلا لمن جاز الابتلاء بتمام ، ومنهم ظالم لا تحق له ومحسن يناله عهدها والخطاب للمسلمين ليخرجوا نهائياً من هيمنة الكتابيين والمشركين بالمرجع إلى إبراهيم أبى اليهود والنصارى والعرب وإمام الدين .

﴿وإذجعَلَنا البيتَ مثابة للناس وامْنا واتخذوا من مَّقام إبراهم مُصَلَّى وعَهِدنَا إلى إبْراهِم وإسماعيل أن طهّرا بَيتي للطآئفين والعاكفين والرّكع السُّجوُد ﴾ (125)

ومن معالم ذكرى سيرة ابراهيم وهجرته أن الله العظيم جعل البيت الحرام مثابة للناس المؤمنين كافة ، مرجعاً وملاذاً محلاً للحج حيث المثاب إليه و المرجع كل عام ، وامنا بعدتطهيره من النجاسات والوثنيات ، وذلك ليتعبد فيه ويذكر الله الطائفون حوله محوراً للوحدة فى عبادة الله الواحد ، والعاكفون على الذكر فيه طمانينة وسلام . والركع السجود الذين اتخذوا من المقام محلا لشعائر خفض القامة والوجه والأنف إلى الأرض تذللاً وخشوعاً وطاعة لله . وفى الآية ذكر البيت أصلاً للذكر والصلاة وقومة لأصل العرب واليهود والملة منذ ابراهيم . وذلك كله تمهيداً لآيات تحويل القبلة والحج إليه . وقد وردت قصة إبراهيم عليه السلام فى القرآن من وجوه مختلفة ، وجاءت فى سورة البقرة من وجه الابتلاءات بالذرية وذكر البيت فى ارتباط وثيق بموضوع السورة وسياقات العلاقة مع أهل الكتاب فى بيئة المدينة حيث تنزلت آيات السورة لتهدى أهل الاسلام الجديد فى أمور تلك البيئة المتشابكة وعلاقاتها المعقدة .

﴿وإذ قال ابراهم ربّ اجعل هذا بلداً ءامناً وارزق أهله من الثّمراتِ منْ ءامن منهُم بالله والْيوم الأخر قال ومن كفر فأُمتعُه قليلاً ثُمّ أضْطرّهُ إلى عذاب النّار وبئْس الْمَصِيرُ ﴾ (126)

الآية تذكير لمعلم آخر من سيرة ابراهيم بعد البلاء والإمامة ثم بعد الهجرة الى الحجاز وإعمار البيت الحرام ، وذلك هو دعوة الأمن والرزق ، اذ دعا إبرهيم بالأمن لحاجة تلك المنطقة الصحراوية للطمأنينة من الاعتداء والنهب ، ودعا لأهل المنطقة الجافة عبر ذات الزرع بالثمرات لئلا يصيبهم الجوع .

وقد سأل إبراهيم من قبل العهد فى ذريته ولكن الله صوب دعاءه فلم يجعل للظالمين منهم عهداً ، وطلب إبراهيم الرزق للمؤمنين من أهل البلد ولكن الله صوب له نهج الأقدار وذكره بأن متاع الرزق فى الدنيا بالأسباب للمؤمنين وللكافرين ، فالله يعلم الأنبياء ويصوبهم ، ومن كفر قد يتمتع ولكن مناع الدنيا قليل ثم يضطره الله بعداً إلى عذاب النار وبئس المصير – إشارة للمسافة المعنوبة بين المتعة والعذاب و العذاب اضطرار والمتعة إختيار .

﴿وإذ يْرفعُ إبراهمُ الْقوَاعِدَ مِنَ الْبيتِ وإسماعيل ربّنا تقبلْ منَّا انك انتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (127)

وهنا تذكير – بعد اتخاذ الموضوع مقاماً ومتعبداً – برفع ابراهيم وابنه إسماعيل قواعد البيت من جديد إذ بوأ الله له مكان البيت وعينه ، فقد كان هناك بيت قديم جدده ورفع إبراهيم قواعده ومعه إسماعيل ، وهما يدعوان الله أن يقبل عملهما ، إذ وجها النية للعبادة لا لما يشوب أهل العمران من مقاصد ، وإليه تعالى إنه السميع الذى يسمع تداولهما والعليم الذى يعلم بنياتهما وأفعالهما . وورد الدعاء بعبارة الخطاب لله يتمثله كل قارئ للقرآن .

﴿ رَّبنا واجعلنا مُسلمين لك ومن ذُريَتنا امة مُّسْلمةً لَّك وأرِنا منَاسِكَنَا وَتُبْ عَليْنَا إنكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (128)

ثم دعا إبراهيم وإسماعيل يخاطبان ربهما أن يتم لهما ويجعلهما ملسمين له ، فإبراهيم هُو الذى سمى الدين إسلاماً لكل حياة النفس لله ، ودعوا ان يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة توحد الحياة اسلاماً لله الواحد . فإذا أسلمت نالت عهد الله بالامامة . ودعوا الله أن يبصرهما مناسكهما العبادة و الحج مناسق ذلك الذكر وإجراءاته المناسبة ، وختام الدعاء رحاب التواب عليهما خطاباً لله أنه هو التواب الرحيم من تاب إليه كلما ثاب وحج إلى بيته تاب عنه ورحمه رحمة دقيقة فى حركة كل منسك أو إسلام فى الحياة .

﴿ رَبنَا وابْعث فِيِهْم رسُولاً مّنُهمْ يَتلُوا عليْهم ءاياتكَ ويعلمهُم الكتاب والْحِكْمَةَ ويُزَكِيِهمْ إنك إنت الْعزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (129)

ودعوا للذرية أن يبعث الله فيها رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الله قراءة لنصها للبلاغ واتباعاً لها بالقدوة الحسنة ، ويعلمهم الكتاب بياناً وشرحاً لمعانية وتاليمه المكتوبة عليهم وذلك بالحديث الذى يرسيه فى الفهم والحكمة وبقدوة تنزله على الواقع وسنة دقيقة صادقة نهجاً صادقة للأمة . ويزكيهم تزكية وترقية معنوية وحسن تاديب بمقتضى الآيات . فالدعوة أن يؤدى الرسول المرجو تلاوة البلاغ للرسالة والتعليم بياناً لها وايقاعاً فى الحياة والتزكية لترقية الوجدان و المسلك ، ويذكر إبراهيم وإسماعيل ربهما انه هو العزيز الحكيم – عزيز بما تنزل من شرع أعلى من هوى البشر ، حكيم بما ينزل مناسباً لواقع الحياة .

﴿ومَن يرْغَبُ عَنَ ملَّةِ إبراهِم إلاَّ مَن سَفهَ نَفْسهُ ولقد اصْطفيْناهُ في الدنيا وانه فى الأخرة لمن الصَّالحين ﴾ (130)

ومن بعد يأتى التقويم والحكم الربانى على سنة إبراهيم وملته ، فما من أحد وصلها ثم رغب عنها كأهل الكتاب من ذريته – إلا من سفه نفسه طيشاً عن إسلام أنفسهم لله حق الاسلام . ويأتى ختام الحكم على كسب إبراهيم الإمام اصطفاء فى الدنيا للاختيار وللابتلاء والامامة مقدماً فى ملة باقية وهو مؤكداً فى الآخرة من الصالحين .

﴿إذ قال لهُ ربهُ أسلم قال أسلمتُ لربّ العالمين ﴾ (131)

وذلك الاصطفاء فى الدنيا والصلاح فى الآخرة من حيث لما دعاه ربه للإسلام قال: اسلمت لرب العالمين . وتوالت الآيات تذكر كلمة الإسلام ليظهر أسم الدين الحق دون اسم اليهودية والنصرانية ، تأصيلاً له فى دين إبراهيم نبى الإسلام الأول .

﴿ووَصَّى بها إبراهُم بنيه ويعقوبُ يابنى إن اللهَ اصْطفى لكمُ الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمُون ﴾ (132)

وصىّ ، أو أوصى بملة الإسلام ابراهيم بينة ، وهم إسماعيل واسحاق وكذلك فعل ابن اسحق يعقوب أو إسرائيل ، منادياً : يابنى إن الله اصطفى لكم الدين ، اختار لكم هذا الدين لتكونوا أئمة هدى ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وهذه وصية إبراهيم لبنيه أن يحفظوا العهد حتى الممات ، ليتركوها أمانة تؤسس وتحفظ أصل الإسلام الذى يتجدد فى الذرية رسول .

﴿ أمْ كُنتمْ شُهدَاءَ إذ حَضرَ يَعْقُوبَ الْموْتُ إذ قال لبَنيهِ مَا تَعبُدُونَ من بَعْدِي قَالُوا نَعْبدُ إلهكَ وإله ءابائِكَ إبْراهِمَ وإسماعيل وإسحَاق إلها واحداً ونَحْن لهُ مُسلِمُونَ ﴾ (133)

الخطاب لبنى إسرائيل لأنهم ارتبطوا بيعقوب ، وجعلوا الدين فى ذريته فقط إلى يوم القيامة تعصباً وطائفيةً ، هل يعلمون ذلك أم كانوا شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون ، والآية ربطت وحدة الإسلام ، دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وردت مباشراً على الذين أغلقوا الدين لبني يعقوب دون العرب ، فالله إله واحد ليعقوب واسماعيل ، والدين هو الإسلام له .

﴿ تِلْكَ أمّةٌ قدْ خلتْ لها ما كَسَبَتْ وَلكُم مَّا كَسيْتُمْ ولاَ تُسْئلُونَ عَمَّا كانوا يَعْمَلُونَ ﴾ (132)

جاءت الآية لترد على كل حجج أهل الكتاب التى جعلت الدين طائفيه ، فقد ذكرتهم بأن تلك الأمة كانت واسعةً فكسبت بإيمانها ما كسبت وكان لها ذلك ، وأنتم الذين ضيقتم وأغلقتم الدَّين لكم كا كسبتم ولا تسألون عمَّا فعلوا ، ولن يكون كسبهم كسباً لكم لكونكم من ذريتهم فمن ظلم لايجديه سلفه المسلم . والآية كذلك عامة للمسلمين تعنى أيضاً المسلمين على ملة إبراهيم ألا بنحطوا عن

كسبهم المباشر فى الدّين ، ويمنوا أنسفهم بوراثة كسب آبائهم وأجدادهم لاسيما إذا أصابهم مرض عدّ الدين كسباً موروثاً كما اصحاب أهل الكتاب .

﴿وقالُوا كُونُوا هُوداً أوْ نصارى تهتدُوا قل بلْ مِلةَ إبراهِم حَنِيفاً وما كان مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (135)

وقال أهل الكتاب خطاباً للمسلمين إن الهداية أن يكون المتدينون هوداً أو نصارى وأنهم لن يهتدوا حتى يتبعوا ملتهم ، والآية توصى الرسول ﷺ والمؤمنين أن يتصدوا لزعمهم بأن الهداية إنما هى فى ملة إبراهيم الذى الحنف عن أصنام قومه إلى سنة وحّدتِ الله إلهاً يعبده كل الذين آمنوا بالرسالات المتعاقبة ، وما كان إبراهيم عليه السلام من المشركين الذين ينسبون لله ولداً أو ينزلفون إليه بالأصنام المشركين .

﴿ قُولُوا ءامنَّا بالله ومَاَ أنزل إلينا وما انزل إلى إبْراهِم وإسماعيل وإسْحاق ويَعْقُوب والأسْباطِ وَما أوتيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُتيَ الَّنبِيُّونَ من ربِّهِمْ لا نُفَرِقُ بَيْنَ أحَدٍ مّنْهُمْ ونَحْنُ لهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (136)

الخطاب للمسلمين أن يشهدوا شهادة حق ويقولوا إنهم آمنوا بالله ومأنزل اليهم ببلاغ محمد ﷺ ومأنزل من قبل إلى إبراهيم وبنيه إسماعيل وإسحق والأسباط – الأحفاد الانبياء من ولد يعقوب ، وما اوتى موسى وعيسى وسائر ، النبيين لايفرقون بينهم تعصباً كما فعل أهل الكتاب من اليهود الذين كفروا بعيسى والنصارى الذين كفروا وأولئك بمحمد – بل بكل دعوة رسل الله نحن له مسلمون ، كما سمى إبراهيم الملة.

﴿ فَإن ءامَنُوا بِمثْلِ مَا ءامنتُم به فَقَدِ اهْتدَوْا وإن تَولَّوْا فَإنما هُم فى شِقاقٍ فَسَيكْفِيكُهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (137)

الخطاب يتواصل للمسلمين بأن أهل الكتاب اذ تطهروا من طائفيتهم وآمنوا بكل الرسل أيضاً مثلكم ووحدوا الرسالة حتى النبى الحاضر فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، إن نكصوا عن الايمان المتصل المتحد بالدين قسيظلون على شقاقهم ، تقول اليهود ليست النصارى على شئ وتقول النصارى لسيت اليهود على شيء ويقولن لستم على شئ . والخطاب للرسول ﷺ أن الله الغنى سيكفيك عنهم . وستستقل عنهم بهداه ولن تكون خاضعاً لهيمنتهم وحملتهم الثقافية ، وسيعلمك الله ويعبنك من علمهم المنحرف ، وهو السميع لمقولات العباد هدى او شقاقاً وهو العليم بنياتهم وتدابيرهم .

﴿ صِبغةَ اللهِ ومَنْ أحسنُ من اللهِ صِبْغةً ونحْنُ لهُ عَابِدُونَ ﴾ (138)

الصبغة واللون الواحد الذي يكون عليه المسلمون هو ما شرع الله ، وليس ألوان الشقاق التى عليها أهل الكتاب ، ومن أحسن من الله صبغة بل هى الأحسن ، طمانينةٌ للمؤمنين يشهد بذلك

المسلمون وهم لله من ثمّ عابدون، وتهيئة لهم للاستقلال المعنوى من هيمنة أهل الكتاب وإعلان هويتهم المسلمة .

﴿ قُلْ أتحَاجُّونَنا في اللهِ وهُوَ ربُّنا وربُّكُمْ ولَنَا أعْمالنا وَلَكُمْ أعْمالُكُمْ ونحْنُ لَهُ مُخْلصُونَ ﴾ (139)

والخطاب للرسول ﷺ يجادل أهل الكتاب : قل أتحاجوننا تدعون أن الله ربكم وحدكم وأنكم أبناؤه وأحباؤه من دون الناس وهو ربنا وربكم جميعاً ، وتدّعون الفضل بالعصبية والكسب ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم . تاكيدٌ للسعة والكسب والعمل قاعدة للمسؤولية المتاميزة بأداء الأمانة للجزاء فى الآخرة . وتمام مقولة المؤمنين : ونحن لله مخلصون أخلصنا ديننا لله ولم نشتر به ثمناً قليلاً ولم نحاصره فى هوى العصبية . ذلك إعلان المؤمنين والتزامهم .

﴿ أمْ تَقُولُون إن إبراهِم وإسماعيل وإسحاق ويعقُوب وَالأَسباط كانوا هُوداً أو نَصَارَى قُلْ ءأنتم أعْلمُ أمِ اللهُ ومَنْ أظلْمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندهَ من الله وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{140}

ى أوحى إلينا بملتهم المسلمة ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وهي فى تراثكم وتكتمونها إذ تحصركم العصبية وهى عندنا بالوحى ولانكتمها ظلماً ، وما الله بغافل عما تعملون .

﴿ تِلْكَ أُمةٌ قدْ خَلَت لَهَا مَا كَسَبَتْ ولَكُم مَّا كَسبْتم ولا تسْئلون عَمَّا كانوا يَعْمَلُونَ ﴾ (141)

تتكرر الآية بنصها تخاطب فى هذه المرة للمسلمين فى السياق وقد وردت السابقة خطاباً لأهل الكتاب ، ولكن العبرة واحدة . وذلك تاكيد للمعانى وتركيز للمسلمين على سنة الإسلام التى تعاقب عليها الأنبياء أما أمة اليهود والنصارى الذين جاءوا من بعد على غيرها وعلى عصبية فلهم ما كسبوا ولكم أيها المسلمون ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . والآية تمهيد لآية القبلة التى ترد بعدها مباشرة وتتجه بالمسلمين إلى قبلة جديدة تحيي الحنيفية الإسلامية الإبراهيمية للناس كافة لا انقطاع عنها بعصبية لبنى اسماعيل او غير ذلك .

عموم المعاني الآيات 124-141

والآيات (124-141) تأصيل للاسلام دين الحق يذكر سنة ابراهيم وتجاوز لحجاب الزيف التاريخى الذى ابتدعته سيرة بنى إسرائيل وعصبيتهم العرقية وكثفته ثقافتهم الغالبة فى المدينة لا سيما على العرب أمة الخطاب الأمية . والعبرة أن يؤصل المسلمون دينهم على أصوله التاريخية الحقة ، تجاوزاً لأى أعراف موروثة أو تقاليد منسوبة للدين زيفاً لكن رسبها التاريخ ، أو تجديداً لتنزيل قيم الدين التى عبّر عنها من قبل كسب السلف الصالح بإيقاعها على الابتلاءات الحاضرة من بعدهم فى سبيل الكسب المتجدد اتعاظاً بسيرتهم واعتباراً لكن استقلالاً يمايز المسؤولية فى الآخرة عن عهد الدين لكل أمة وقرن .

ترتيل المعاني: الآيات 142–152

﴿ سَيَقولُ السُّفهاء مِنَ النَّاس مَا ولاَّهُمْ عن قِبْلتهِمُ الَّتِي كانوا عَلَيْها قُلِ للَّهِ المشْرِقُ والمغْرب يهدي من يشاء إلى صِراطٍ مُّستْقيمٍ ﴾ (142)

الآية طالعة آيات فى تحويل القبلة ووقع ذلك فى سياق علاقات المسلمين ببيئتهم الثقافية وآثاره فى نفوسهم . وتبتدر الآية ذلك بذكر القادم من رد الفعل العظيم الذى أثاره أمر القبلة من تلقاء اليهود الذين كانوا يبتغون النفوذ والتحكم بمذاهبهم ومصالحهم ويواليهم كثير من الناس . وقد وضعهم القرآن سفهاء من اول السورة رداً حقاً لما أسموا به المسلمين (الآية 13) ، وهنا رداً على حملة أهل الكتاب الشديدة على المسلمين وعصبيتهم المتعززة ورجعيتهم المتحكمة التى ظهرت فى قلوبهم . كانت المقولة المنظورة منهم عن المسلمين : وما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ . فدينهم كله استمساك بالقديم لاسيما بيت المقدس القبلة الأولى للمسلمين . والاية بادرتهم بالهجوم لأن تحول المسلمين عن الصلاة بضعة عشر شهراً بالمدينة إلى قبلتهم نحو المقدس إلى استقبال المسجد الحرام سيكون درجة عظيمة فى انتقالهم المتدرج بمجتمع المدينة إلى إصول الإسلام حنيفية ابراهيم وتجديده واستقلاله بهدى القرآن . وإذا كانت سوابق الآى بالبقرة تقص مذاهب بنى إسرائيل وتنتقل إلى خطاب المسلمين تحرراً منهم وتجاوزاً لحملاتهم باسم التراث والتاريخ ، فتحول القبلة إلى الأصل المستقل عنهم يثيرهم فى حملة جديدة على المسلمين تقاومها عزة إيمان المسلمين " قل لله المشرق والمغرب " ،كلمة شهادة بأن كل الوجهات لله شرقاً وغرباً وما يترتب عليها من جنوب وشمال ، وهى مبدأ الرد على مقولة السفهاء ضد التوجه بالصلاة شطر المسجد الحرام . وقد مهدت لذلك كما تقدم الآية (115) بمثل اللفظ فى تأصيل القبلة التى تقام إليها الصلاة عماد الدين . والمعنى ان لله كل المكان والعابد حيثما توجه فى الأرض فهو إلى وجه الله ، وإنما القبلة شعيرة تعبير عن التوجه إلى الله توحيداً بغير التفات بالهوى نحو أى من مختلف مقاصد الحياة ووجهاتها دون الله . والله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ، إلى القبلة فيتوجه إليها الإنسان مستقيماً ، فهى جهة الصراط العملى الواقعى الجغرافى للصلاة والحج ، وهى كذلك وجهة تمثل الصراط المعنوى المستقيم الى الله فى الحياة كافة كما فى دعاء الهداية فى سورة الفاتحة التى أسماها النبى ﷺ (الصلاة) .

﴿ وكَذلِك جَعَلْناكُمْ أُمة وسطا لتكُونُوا شُهداء عَلَى النَّاس ويَكون الرَّسول عليْكُمْ شهيداً ومَا جَعَلْنا الْقِبلَةَ الَّتي كُنتَ عَلَيهَا إلاَّ لِنعْلمَ من يَتَّبعُ الرَّسُولَ ممّن ينقلِبُ على عَقِبيْه وإن كانتْ لكَبيرة إلاَّ على الَّذين هَدَى اللهُ ومَا كان اللهُ ليُضيعَ إيمانكُمْ إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (143)

والخطاب للمسلمين أن الله الظيم هدى المسلمين بتقويم قبلتهم الى صراط مستقيم وكذلك جعلهم أمة وسطاً ، والوسطُ هُو الأفضل الأمثل غير المائل إلى طرف فى المقام ، وذلك ليكونوا شهداء على الناس ، قائمين دعاة بالحق شاهدين ومشهودين مثالاً تهفو وتقاس إليه الأمم ، لا شهداء بيّنة على

مواقف الناس وحسب بل شهداء قدوة ودعوة وإشراف وقيادة ، ويكون الرسول على المسلمين المخاطبين ، شهيداً كما يقوم كل رسول قدوة وإماماً فى الصلاة والحياة ويأتى شهيداً على امته يوم القيامة . وفى المعنى تثبيت للمسلمين بقيادتهم هم فى وجه الحملة عليهم . فما جعل الله القبلة التى كان عليها الرسول إلا ليعلم ببينة الوقائع من يتبع الرسول من ينقلب على عقبية ، كان الابتلاء بالصلاة شهوراً إلى قبلة اليهود أول مجئ المسلمين إلى المدينة إلا ليبين أن محمد ﷺ جاء مصدقاً لما بين يديه لا يبدى جهلاً بدين الكتاب أو عصبية لقومة العرب ليتبعوه حيثما هداه التنزيل ، ثم ما جاء التحويل ابتلاء للمسلمين فى الثبات على اتباع الرسول إذا جاءه من الله جديد هدى ولو خالف أعراف اليهود المشهورة فى ثقافتهم المهيمنة ، ثم ألا يظنوا من بعد أن قد اضطرب عليه الأمر وأصبح يقلب القبلة . فقد كات ترك القبلة الأولى وإستقبال قبلة جديدة أمراً كبيراً على الجميع ، الكتابيين والذين تاثروا بثقافتهم من المسلمين ، ولكن ذلك لايفتن الذى هداه الله . فما كان الله ليضيع إيمان اولئك المهتدين والآية تسمى الصلاة إيماناً لنها تعبير عن الإيمان حيثما توجهت القبلة . وفى الآية طمأنينة للمسلمين أن صلاتهم الأولى لم تضع ، وإن تحولت القبلة . إن الله بالناس لرؤوف بالغ الرأفة لايضيّع صلاتهم السابقة ، ورحيم بالغ الرحمة سيكتب لهم اجرها وأجر استقامتهم على القبلة مهما تكن دعاية اليهود وتخويفهم .

﴿ قدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَولُّوا وجُوهَكُمْ شطْرهُ وإن الَّذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلمُونَ أنهُ الْحَقُ مِن ربِهِمْ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (144)

الخطاب للرسول ﷺ ، الذى كان يقلّب وجهه فى السماء منتظراً وحياً يحول القبلة شطر المسجد الحرام ، قسمته بين الجهات إذ كانت التى إذ تهيأ الرسول ﷺ بروحه العالية للأمرفقد عرف مكة بلاده وعهد فيها المسجد الحرام مركز التعبد ومرجعه الى آبائه إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام ، وعرف أين البيت الأول الذى مضت الآيات بذكره (124-129) ، وتهيأ بالعود الرضى إلى سنة إبراهيم تجاوزاً لإنحراف بنى إسرائيل كما مضت بذلك الآيات أيضاً . والخطاب كذلك للمسلمين فى التوجه تلقاء المسجد الحرام حيثما كانوا ولو خارج مكه فى المدينة أو فى أى مكان آخر . وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أن كل الدين الذى جاء به الرسول ﷺ هو الحق من ربهم ورب العالمين ، ويتواصل الحديث عن أهل الكتاب فما الله بغافل عما يعملون خروجاً على منطق الحق الذى يعلمون . والمعنى يصرف المسلمين ليتحرروا من موقف هؤلاء وأثرهم .

﴿ ولَئن أتْيت الَّذين أُوتُوا الْكتاب بِكُلِ ءايةٍ مَّا تَبعُوا قْبلتكَ ومَا أنتَ بِتابعٍ قبلتُهمْ وما بَعْضُهُم بِتَابعٍ قْبلةَ بَعْضٍ ولئنِ اَتّبعتَ أهواءهُم مّنِ بعْد ما جَاءكَ من الْعلْمِ إنك إذا لَّمِنَ الظَّالِمينَ ﴾ (145)

الخطاب مزيد طمأنينة للرسول ﷺ ولصحبه المسلمين امام الحملة التى اشتدت عليهم فى المدينة وتثبيت لهم بأن هجومهم عليكم هجوم تعصب وطائفية ، لاهجوم حق . فلئن جئتهم يامحمد الان بكل آية تخرق معهود الطبيعة كالتى يطلبونها وكما كان عهدهم مع موسى لن يؤمنوا بك ، بل ان بعضهم يكفّر بعضاً ولا يتبع قبلته يهوداً ونصارى ، فلا تبال بهم ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم وحياً إنك إذاً لمن الظالمين . ذلك دفع للرسول ﷺ وللمسلمين ليتحرروا من هيمنة أهواء أهل الكتاب ، ويستغنوا بعلم الهدى وإن ظلوا خاضعين لهم ، فهم قطعاً من الظالمين .

﴿ الَّـذين ءاتْيناهُمُ الْكتاب يَعرفُونهُ كَمَا يَعرفُون أبنـاءهُم وإنَّ فريقاً منهُم ليكتمون الحق وهُم يعلمون ﴾ (146)

الذى أتتهم أقدار الله عهد الكتاب بعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، هم يحفظونه قريباً منه ويبنّوه بالتدارس والمعرفة كتعرف الأنبياء ولذلك يدرون أن الذى جاء الرسول ﷺ حق لأن عندهم معهود حق مثله يشهد عليه ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق حسداً من عند أنفسهم ، رغم علمهم معرفتهم الشديدة لحق ما جاء به .

﴿ الْحقُّ مِن ربَّك فَلاَ تكُوننَّ من المُمْترين ﴾ (147)

الآية طمأنينة أخرى للرسولﷺ وللمسلمين لمقاومة محاولات الزلزلة من الكتابيين ، وتاكيد ودفع لتحريرهم واستقلالهم ببينة وعلم لئلا يكونوا فى مرية من مقولات هؤلاء ذوى الأهواء الظالمين الذين لايشعرون بالحق ، ولان الهدى من الله لا منهم . وقد كان تحويل القبلة معلماً كبيراً فى مسار الاستقلال عن ثقافة أهل الكتاب ودينهم ، فالحق إنما هو من الله لامن الذين يكتمون ما يعهدون منه ، والباطل ادعاءاتهم بأن ملتهم وقبلتهم وحدها الحق وهم أبناء الله ، والآية تذكير مؤكد للرسول ﷺ ألا يكون من الذين يمارون فى الحق النازل .

﴿ ولكُل وجْهةٌ هو مُوليها فاسْتبقُوا الْخيْراتِ أين مَا تكُونُوا يأتِ بكُم اللهُ جميعاً إن اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ (148)

الآية فى سياق طمأنة المسلمين وتاكيد استقلالهم وتميزهم فى وجه ثقافة مهيمنة وحملة عاتية لترفع عنهم كل استشعار بالحرج من شذوذهم عما كان عرفاً سائداً . فاختلاف الناس قبلات الناس قبلات ووجهات ولكل من البشر حريته وخياره بقدر الله ووجهته لتى يوليها ، فاستبقوا الخيرات ، تنافسوا كل يتقصد وجه الحق يراه خيراً وهدى باتجاه قبلته ، فمهما تختلف اتجاهكم فى الدنيا يأت بكم الله جميعاً لمفاصلة الخير والشر بالحق العدل يوم القيامة ، إن الله الذى ترك الناس عفواً إنما يبتليهم وهو على كل شئ من بعد قدير بعثاً وحساباً .

﴿ ومَن حَيْثُ خَرَجْت فولّ وجهْكَ شَطرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وإنه للحَقُّ مِن رَّبِك وما اللهُ بغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (149)

فى الإطار العام باختلاف الوجهات والتنافس إليها ، الخطاب فى الآية للرسول (ص) فى التعبير الخاص عن سنته — من حيثما خرج ولو متباعداً من مكة أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام وإن نازعه الآخرون ، إان ذلك لهو الحق من ربه . تأكيداً أن ما عليه الرسول ﷺ هو وجهة الهداية من الله وما الله بغافلٍ عما تعملون أو يعملون أولئك الآخرون (قراءة) فاللُه رقيب عَلَيكُم كَمَا هُوَ رقيبٌ عَلَيهِم ، لاتضيع أعمالكم الصالحة ودوافع العزة والاستقامة فيها ولا تفلت حملات العصبية فى وجه الحق .

﴿ ومَن حَيْثُ خَرَجْت فولّ وجهْكَ شَطرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وحيْثُ ما كُنتُم فولُّوا وُجُوهَكُمْ شطْرهُ لئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فلاَ تخْشَوْهُمْ واخْشَوْني ولأُتمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ولَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (150)

التكرار للتاكيد ولتثبيت التوجيه فى وجه الحملة المنازعة المتوالية ، ويصاحب أمر الرسول ﷺ أمر سائر المسلمين الذين صاحبوه أن يُولوا من أى حيثٍ وجهة شطر المسجد الحرام ، بداع معزز ألا يكون الناس عليهم حجة إمامة ، إلا الذين ظلموا من أولئك الناس الحاملين عليهم قوة وهذا التحرر والاستقلال والثبات على الحقّ يقطع على الناس وعلى الرأى العام بالمدينة أن يحتج على المؤمنين بجدليات الهدى والدين ، إلا الذين يريدون ظلماً أن يبسطوا القوة ليردوا الذين خرجوا من قبلتهم وثقافتهم . والخطاب للمؤمنين وقد استبانت لهم الوجهة والحجة ألا يخشوا ظلمهم شيئاً بل الخشية كلها تتوحد لله بوحدة التوجه كله لله عبر قبلة الصلاة . والقبلة بعد الاستقلال فيها أيضاً إتمام لما سبق من نعمة التحرر من وطاة ثقافة أهل الكتاب وتوحيد الإسلام لله دون إشراك ، ولعل المسلمين بذلك يهتدون إلى الصراط المستقيم ظاهراً قبلة صلاة وباطناً وجهة حياة .

﴿كَمَا أرسَلْنَا فِيكُمْ رَسولاً مِنكُمْ يَتْلُوا عليْكمْ ءاياتنا ويزكّيكُمْ ويُعلمُكُمُ الْكتابَ والْحِكْمَةَ ويُعلّمُكُم مَّا لَمْ تكَونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (151)

"كما " فى مستهل الآية تربطُ نعمة الهداية إلى صراط مستقيم بنعمة القبلة لئلا يكون يكون لهوى أحد عليكم حجة ولامنكم نحوه خشية نعمة الرسالة بأقدار الله فقد قوّم الله قبلتهم وصلاتهم وتوجههم يتم نهمته كما أرسل فيهم رسولاً منهم هم يجدد تراث الرسل الذين أرسلوا قبلاً من آخرين . رسول يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم ما لم يكونوا قبل يعلمون فى الجاهلية ، والآية تذكر ذات ما كان مرجواً بدعاء من إبراهيم عليه السلام الذى رفع البيت الحرام لذكر الله وللقبلة إلية صلاة وحجاً ودعا الله أن يجعل ذريته أمة مسلمة وان يبعث فيها رسولاً منها يُؤدى ذات هذه الأمانة ، سوى أنه بعبارة دعائه عندئذ ما كان يعلم الغيب أن ذريته ستظل بعده ليأتى الرسول ﷺ) يعلمهم لحاضرهم من ما لم يكونوا يعلمون قبلاً (الآية 129) .

﴿ فَاذكُرُوني أذكرْكُمْ واشْكُرُوا لي ولاَ تَكْفُرُون ﴾ (152)

فى الآية وصية وبشرى كبيرة للمسلمين على ما ثبتوا وأطاعوا وتحرروا واستقلوا ، والخطاب أن اذكروا الله وكلما اهتديتم وصليتم الذكر الأكبر فى المسجد الحرام وذكرتم الله ونعم رسالة الهدى من إبراهيم الى محمد ﷺ يذكركم الله ، وكلما شكرتم النعمة التامة سيشكر لكم الله بمزيد نعمة عاجلة ورحمة آجلة ، ولاتكفروا الله وتغمروا ذكر نعمته .

عموم المعاني :الآيات 142–152

القبلة فى الصلاة تولياً جهوياً مصوباً نحو مكان واحد إنما يرمز للتوجه إلى الله توحيداً خالصاً ، وهى ذات مغزىً لقبلة الحياة كافة ،فالصلاة هى عماد العبادة تجربة موصولة عبر الزمان والمكان من التجرد الخالص لعبادة الله قولاً وحركة وتفكراً يتهيأ لها العابد بالطهر ويمضى إلى النجوى مع ربه حتى يعود إلى الدنيا بالسلام . كذلك القبلة الحق أن تؤخذ قوى الحياة وشعابها كافة وتصوب لعبادة الله . والبشر فى عالم الشهادة قد يحجبهم الظاهر والعاجل عن الغيب فإذا بلغهم وحى الهدى من الله تعينهم الصلاة قبلة شطر المسجد الحرام – تجردات لله وتوجهات لأمره وذكريات من أنبيائه – على الدين الحق . ولكن البشر بابتلاء الدنيا فى خيارات ومذاهب ، والمسلمون حياتهم كلها لله استقامة مغالبة لدوافع الهوى والشيطان وحواجب عالم الشهادة فى تفاعل وتجادل مع آخرين غافلين عن الدين أو ضالين عن حقه . ولذلك أول نهضة الإسلام الجديدة تتعرض لأهل القديم وعقائده واعرافه ومصالحه الدنيوية كما جرى فى المدينة وكما يجرى للمسلمين فى كل مكان وكل زمان محيط بهم فيه قديم من تراثهم الضال أو من تقاليد الثقافات الدينية والدنيوية . وكل آية فى آيات القبلة تخاطب أبداً المسلمين الناهضين بدعوة الحق المتجددة فى سياق ضغوط الحملات عليهم من أهل المعهود القديم ، وتزكى اطمئنانهم من ضغوط فتنة التقليد للمدّعين حق التقاليد . فيها عزة الاستقلال عن المستكبرين وضرورة التاكيد والتأييد بالمذكرات من غاسقات الشّبه والمخاوف والريب ، اقتداءً بمثال سنة الاسلام الأولى وذكراً لنعمة الهدى من الله لتطمئن القلوب وتقوى دوافع الإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم فى الحياة الى الله . وتلاوة آيات القبلة وما يتلوها من ذكر الاستعانة بالصلاة والصبر على ابتلاءات القتال فى سبيل الثبات على قبلة الدين الى وجه الله – هى قراءة تذكير وتدبر لاستقامة الصلاة وتوحيد العبادة فى الحياة كلها لله ، وهى عبرة لسيرة واقع سنة الاسلام التجديدى التوحيدى منذ عهد التنزيل ، هى ضوء لقراءة تاريخ الإسلام وهدى لحاضر المسلمين فى سياق إتجاهات العالم والمنازعة بين الاستقلال والتبعية والعز والاستضعاف لعلهم يستقيمون ويجاهدون فى سبيل الاسلام .

ترتيل المعاني: الآيات 153–162

﴿ يأ أيها الَّذين استعِينوا بالصّبْرِ والصَّلاةِ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (153)

نداء لجماعة المؤمنين - يأايها الذين آمنوا — تنبيهاً لأمر ذى بال هو الاستعانة بالصبر على تعدد الوجهات والمنازعات والمحاجات والمضاغطات المخشية والاختلافات ، وبالصلاة عماد الدين التى يصابر عليها الانسان فتشدّه إلى قبلته ، ولايلتفت فى ظاهر قيامه للصلاة ولا فى باطنه فيها مهما تنازعته الهموم الشاغلة والعوارض الملفتة ، وبعد ما تملؤه توجهاً وتوحيداً - ألا يلتفتوا إلى كلام السّفهاء ولايركنوا لحججهم الباطلة ولايرهبوا حملتهم مهما اشتدت ، حتى إذ بلغت الأذى والجذب المادي ، فالمؤمنون يُمسّكون بالصبر والصلاة لايدفعهم أحد ولاصارف عن وجه الله .

﴿ ولا تَقُولُوا لَمن يُقتَل في سبيلِ الله أمْواتٌ بل أحياءٌ ولَكِن لاَّ تشْعُرُون ﴾ (154)

الذين يختارون قبلة الإسلام ووجهته ضد القبلات و الوجهات الأخرى ويستعينون على الثبات بالصبر والصلاة قد يبتلون بالصبر على حملة ضد وجهة الاسلام تحمى فتبلغ القتال بعدوان الكافرين عليهم ليدفعونهم ويصرفوهم عن الحق ، وقد يكلف الجهاد والمدافعة أن يُقتل من صفهم شهداء ومن يقع تحت تاثير نفوذ الكافرين ويخشى من دعايتهم قد تخضع لغتهُ للغتهم ، فبعد تحرير القبلة الجغرافية والمعنوية تحرر الآية المصطلح وتستقل به ألا يُسمى المسلمون المخاطبون قتالاهم من مجاهدين فى سبيل الله موتى كانهم صاروا الى موات بعد الحياة وذهاب إلى عدم وكأن الكافرين الذين قتلوهم ما انفكوا أحياء ، بل المقتول فى سبيل الله حيّ فى الملأ الأعلى يعجل إليه ربه كما سارع هو إلى لقائه شهيداً وينعم عليه بأطيب مصير، وإن كان ذلك غيباً لا يشعر به أهل العالم المشهود .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بشَيْء مّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوع ونَقْص مّنَ الأَمْوالِ وَالأنفس وَالثَّمَراتِ وَبَشرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (155)

ويُخاطب المؤمنون أن المؤكد فى سنن الله أن يبتلى السائرين فى سبيله ليفوزوا بالفلاح ، فثباتهم على قبلة الإسلام ووجهته سيمتحن بقدر من خطر الحملات قد يثير شيئاً من الخوف والرعب ومن الجوع وقد يؤدى الى قدر من نقص من الأموال والثمرات خسارة فى العاجلة ومن الأنفس موتاً أو شهادة وابتلاءات . وقد شهدت مدينة الرسول ﷺ فعلاً تطور الحملات المضادة المحيطة التى تسبب رعباً والمحاصرة والمقاطعة الاقتصادية التى تسبب جوعاً ونقصاً فى أموال التجارة والابتلاءات الطبيعية والقتالية التى تكلف نقصاً فى الأنفس والثمرات ، فالأية كانت إعداداً للمسلمين لتحديات المرحلة المقبلة حين يكتب على المؤمنين القتال الآية (190) ، وجاءت بالبشرى للصابرين فيها.

﴿ الَّذينَ إذا أصابتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إنا للهِ وإنا إليه راَجعُونَ ﴾ (156)

الذين إذا أصابتهم مصيبة مما تقدم صبروا عليها وقالوا إيمانا إنا لله أرواحاً وأموالاً وإنا إليه راجعون يأخذ ملكه الذى استخلفنا فيه وله الحمد ويأخذنا للآخرة أمواتاً يبعثون أو شهداء أحياء راجعين يجزون عنده والحمد لله .

﴿ أولئك علْيهمْ صلواتُ مّن ربَّهِمْ ورَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (157)

أولئك الصابرون الذاكرون عليهم صلوات من ربهم ورحمة كما صّلوا لله صلوات بالقبلة المستقيمة وصبروا على مجاهداتها يجزيهم الله صلوات عليهم تصلهم به ورضوانه ورأفته ورحمة لهم وهم إليه راجعون ، أولئك هم المهتدون الذين يستقبلون القبلة تصويباً الى وجه الله ويستقيمون بحجة الله حقاً وخشية تقوى توحده وتسلك إليه صراطاً مستقيماً بنعمة منه فى الدنيا إلى صلوات منه ورحمة فى الاخرة .

﴿ إن الصّفَا والمَرْوة من شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلبَيْتْ أو اعْتمَرَ فَلاَ جُناحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّف بِهِمَا وَمَن تَطَوَّع خَيْراً فإن اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (158)

تتواصل الآيات فى تحرير المسلمين وإخلاص توجههم نحو البيت الحرام فبعد الاستقلال من قبلة أهل الكتاب فى المدينة ، جاء الاستقلال وتجريد القبلة من أعراف المشركين العرب لاسيما فى مكة حيث المسجد الحرام ، وحيث الصفا والمروة بقية جبلين فى مكة ، سعت بينهما أم إسماعيل تطلب وتدعو الله الماء عندما ابتليت وابنها بالعطش ، وجاء ذكرهما هنا فى السياق بعد ذكر إبراهيم والبيت الحرام والقبلة التى توجهت اليه . إن الصفا والمروة والسعى بينهما من شعائر الله ، فهى من سنن الله الصحيحة المعهودة عوداً لذكرى إبراهيم وإسماعيل وأصول الحنيفية والإسلام ، وهى شعائر . علامات تهدى إلى مناسك الحج فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يتطوف ساعياً بين الصفا والمروة مزكياً بعبرة المنسك مسلك دنياه ذاهباً ضارباً فى الارض أو عائداً إلى سكنه واصلاً سعيه ومعاشه فى الحياة بالسبيل إلى الله لا ملتهيا ولا متعلقاً بابتغاء العاجلات وحسب ولاحرج عليه ان ينسك هذه السنة مهما تكون اعراف المشركين فى الحج قبلاً قد لوثتها بالأصنام التى وضعتها مقصودة ووضعتها على هذين الجبلين ، ومن تطوع وزاد فى الطواف فإن الله عليم شاكر وسيلقى الطائف شكره اجرا عنده وعليم بدقائق المشاعر والأذكار والأفعال فى تلك الشعيرة .

والآية تمهيداً لآيات لاحقة فى الحج . وقد جاءت موصولة كما ذكر بالقبلة وبذكر إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) وذريتهما العرب في الآيات السابقة . والصفا والمروة فى ذلك العهد كانت موقع مسعى لرحمة الماء بعد اليأس وبقيت سنة ترمز للسعى فى الدنيا أبداً رجاء الرحمة والصبر بلا استيئاس اذ وجدت أم إسماعيل بذلك المسعى الماء . فالمؤمن فى الحج يجدد مشاعر السعى ويتذكر كل ما تحييه فى نفسه من السنة الإبراهيمية هجرة فى سبيل الله الى موقع غير ذى رزق وتأسيس

لمركز لزكر الله وعبادته ونشر رسالته فى الارض وتتزكى بشعيرة السعى النفس للرحلة فى الحياة والتقلب فيها ذهاباً ومجيئاً وصلاً للمقاصد بسيل الله وبالرجاء لرحمته بلاقنوط أبداً.

﴿ إن الَّذين يكْتُمُون ما أنزلَنا من البَيناتِ والهدى مِن بَعْدِ مَا بيَّناهُ للنَّاسِ فى الْكتَابِ أُلئكَ يلْعنُهمُ الله ويَلعنهُمُ اللاعِنُونَ ﴾ (159)

إن دين الإسلام والكتاب السماوى المتجدد ومسيرة الحياة عبادة قاصدة سبيل الله ،كل ذلك منذ إبراهيم (عليه السلام) هو أصول وحده الملة والأمة المؤمنة بتراثتها لتاريخى الذى ترمز لوحدته بين الناس القبلة إلى المسجد الحرام صلاة وحجاً . ولكن أهل الكتاب الذى أنزل الله ببينات وهدى للناس جميعاً منهم فريق تأخذهم عصبية للعرق والقديم فإذا ظهر الحق متجدداً يعرفونه متصادقاً مع مايعهدون من قديمه كتموا أمانته كما سبقت الآية (146) . وكذلك أهل الجاهلية ذرية ابراهيم انكتم عندهم ذكر الحنيفية فى الصحف الأولى توحيداً بلا إشراك وابتدعوا الأصنام ينصبونها فى الشعائر حول المسجد الذى وضعه إبراهيم الإمام لعبادة الله والحج اليه ، ولم يبسط عليهم أهل الكتاب الهدى بل قصروا الرشد لأنفسهم والله أنزله بينات وهدى للناس كافة . وهذه الآيات خاتمة أولى لذكر المذاهب والمواقف إزاء الإسلام الإبراهيمى ، وإنما تذكر موقف الذين يكتمون الحق وبينات الهدى التى تنزلت فى الكتاب القديم يخاطب بها الناس جميعاً عبر التاريخ – لما غشيتهم هم من هوى عرقية وغيرة لقديمهم أو عصبية عمياء لمورث سلفهم ضد كتاب التصديق والتجديد والنبى الخاتم . أولئك يلعنهم الله الذى أودعهم الأمانة ليحفظوها للخلف فضيعوها ويلعنهم اللاعنون من خلق الله الذين يتبيون آثار ما فعلوا من البعد العمد عن الحق وما استحقوا من اللعن طرداً وابعاداً عن صلات الله ورحمته .

﴿ إلاَّ الذين تابُوا وأصْلحُوا وبيَّنُوا فأُولئكَ أُتوبُ عَلَيْهِمْ وإنا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (160)

يستثنون من مصير اللعنة الذين تابوا بعد أن عابوا واصلحوا ما عاجوا وبينّوا بينات التى كتموها قبلاً ، فالذى يتوب عليه أن يصدق توبته ويتمّها يأن يصلح، ومن تاب كذلك صادقاً يتوب الله عليه ، بشارة لمن تاب وآب من طريق اللعنة الى سبيل الصلاح . يبسطها الله ويذكر أنه هو التواب الرحيم ، دائم التوبة بالغ الرحمة للأوّابين إليه . وسنة الله التوبة على التائبين منذ آدم الذى أخطأ وتاب فى الجنة ، وبشراه أبداً الرحمة لمن اصلحوا وبينوا الحق .

﴿ إن الَّذين كَفَرُوا وَمَاتُوا وهُمْ كفَّارٌ أُولئكَ عَلَيْهِمْ لعْنة اللهِ والَملائكةِ وَالنَّاس أجْمَعينَ ﴾ (161)

إن الذين كفروا– من حول المؤمنين– أهل كتاب ومنافقين ومشركين عرباً – وماتوا وهم كفار ما تابوا إلى الدين قبل حضور الموت ولا استدركوا خطاياهم فى مسالك الضلال مذاهب ومواقف كتابية وأعرافاً جاهلية فى وجه الإسلام – أولئك عليهم نفاذ قدر اللعنة والطرد من رحمة الله ، والدعوة بذلك عليهم

من الملائكة والناس أجمعين . والكفر بأُصول الإيمان أصرح من كتمان الحق فيها ، يتبينه جميع خلق الله فيلعنون الكافرين .

﴿ خالِدينَ فيها لا يُخفّفُ عنُهُمُ الْعذَابُ ولا هُمْ يُنظُرونَ ﴾ (162)

يخلدون فى اللعنة طرداً من الرحمة وبعداً من رضا الله ومصيراً إلى عضبه لكفرهم طوال الحياة إلى الموت مما يستوجب عليهم الخلود فى عاقبة العذاب فلا يخفف عنهم مطلقاً برحمة من الله او بغوث دونه ولا يُنظرون مهلة دون العذاب بعد أن تحقّ ساعته بشفاعة شفيع .

عموم المعاني الآيات:153–162

(آيات القبلة 142– 162) قلبت وجهة الصلاة من القبلة الأولى الشمالية شطر المسجد الأقصى الذى كان يشد الذكرى إلى ذرية إبراهيم وإسحق ويعقوب وتراثهم الكتابى الذى بسط به بنو إسرائيل نفوذهم فى المدينة عاصمة دولة الإسلام ، واتجهت القبلة إلى الجنوب نحو البيت الحرام الذى أسسه إبراهيم مركزاً لعبادة بنى إسماعيل . وكان تحول القبلة تحرراً من الميل نحو الثقافة الدينية اليهودية وعوداً إلى الأصل لدين ابراهيم حنيفاً وراء التشوهات الموروثة ، ثم كان توجهاً موحداً نحو الإسلام المتجدد لا لقوم أو قرن بل للناس كافة فى كل بلد أبد . فالقبلة تحكم قيام المصلين طوال اليوم فى كل العالم مصوبة وجوههم نحو المسجد الحرام تصديقاً لتوحيد توجههم جميعاً إلى الله وتمثيلاً لوحدة أمتهم بخطوط التصويب إلى محور واحد . وقد يسافر المسلمون حاجين ومعتمرين إلى المسجد الحرام طائفين وساعين ومصلين عنده تعبيراً عن وحدة المقصد إلى الله وتمثيلاً مجسداً لوحدة قرون الأمة وأقوامها .

وإذا كانت الثقافات الأرضية الوضعية تتولى وتضطرب بالناس إلى جهات ومذاهب شتى فى الحياة حسب تنازع الأهواء ، فإن التزام التولى نحو القبلة فى الصلاة دون التفات ظاهر ولا باطن عن وجه الله التزام بتوحيد الحياة عبادة لله الواحد دون منصرف ولا منحرف . والمسلمون يعلّمهم استقبال المسجد الحرام التوالى حول محور واحد ، والمواجهة للمدبرين عن وجه الله ، والممايزة للمشركين المرتبكين ، والمقاومة لحملات السفهاء الذين يكتمون غيرة معارف الدين الخالدة ويريدون أن يلووا وجهة التغيير التى تهدى إلى أصوله الأولى ، والمصابرة فى وجه حجة الجانحين للهوى وظلم العادين على الحق وارتهان الجهلة للتقاليد الضآلة . فالصلاة للقبلة كالاعتصام بالرسالة تمثل للمسلمين جملة الشرعة والمنهاج .

وقد كان التحول بالقبلة لأول عهد دولة المدينة تحريراً وتمييزاً للمجتمع المسلم وتأسيساً وتوحيداً لحياته . وظلت التحولات النفسية الإيمانية والظواهر الحضارية الدينية فى تاريخ المسلمين دورات تحيا وتتجدد مع توبة المسلمين وعياً ومحافظة على صلاتهم إلى القبلة توجيهاً للحياة كلها واستقامة على الصراط

المستقيم إلى الله ، وتذكراً وتزكية لوحدة الأمة حول محور واحد وقوة وتباركاً لثبات سيرة الحياة نحو المقاصد وصبرها مهما تكن عوارض الطريق ونوازع الوجهة وتكاليف مصائب الأموال والنفوس ومهما تغزوهم الرياح العالمية الحضارية الصارفة عن أهداف الدين عامة والإسلام خاصة .

ترتيل المعاني: الآيات 163–167

﴿ وإلهكُمْ إله واحدٌ لاّ إله إلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (163)

الآية تقابل سابق ذكر الذين كفروا بالذين آمنوا وتصل شعائر التوحيد – الصلاة إلى القبلة الواحدة والحج اليها عند المسجد الحرام – وعقيدة التوحيد التى سنتها حنيفية ابراهيم إن حرّفتها تقاليد الكتابيين وأعراف المشركين ، تقابل ذلك وتصله بكلمة التوحيد التى يتحرر نحوها ويستقل المؤمنون فى المدينة وأبدا . وإذا لم يقم التحرر أو الاستقلال على عماد من التوحيد فسيقع فى شرك آخر . وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، فالله وحده يتم نعمته عليكم بالرحمة البالغة والدقيقة فى الدنيا رحمة رسالة الهدى فى سياق البلاء والآخرة رحمة الجنة والرضوان للفائزين بعد الحساب .

﴿ إن فى خَلْق السَّماوَات والأرض وَاخْتِلاَفِ الَّيْلِ والنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى أَلَّتِي تجْري فى الْبَحْرِ بِمَا ينفعُ النَّاسَ وَمَا أنزل اللهُ مِنَ السَّماء مِن مَّاءٍ فأحْيا بِهِ الأرْضَ بَعْد مَوْتها وبثَّ فِيها مِن كُلّ دآبَّةٍ وتصْريِف الريّاحِ والسَّحَابِ الْمُسخَّرِ بَيْن السّمَاء والأرْض لأيات لقْومٍ يعْقِلُونَ ﴾ (164)

يتواصل سياق التوحيد لله وصلاً لآيات الله فى الشريعة المستقيمة والشعيرة المستقبلة هدى الله ووجهه بذكر آياته فى الطبيعة : فالله هو الذى خلق السماوات والأرض قوام بيئة الانسان المحيطة ، وهو الذي نظم الحركة فيها ، اختلاف اليل والنهار دورة نحو الشمس للعمل والراحة وجريان الفلك فى بحر على قانون الطفو بما ينفع الناس ، وقدر إنزال ماء الغيث من السماء إلى الأرض لحياة الأرض الميتة بالنبات وعيش كل دابة من الحيوان المنبث فيها ، وتصريف حركة الرياح ووجهتها تحمل السحاب المسخر بالماء والغمام فوق الأرض - كلها آيات لمِن أعمل عقله ، تصلُ الإنسان بالله الواحد المتجلى فى وحدة نظام خلقه وقدره الطبيعى ، وكلها آيات رحمته فى حياة الإنسان وأفضال النعيم واليسر . والآية خطاب خالد للإنسان أن يوحد آيات الله الموحاة والمشهودة ألا ينظر معالم الطبيعة ظاهراً بل يتفكر فيها آيات لوحدة الله ولحمده على النعماء بما سخر للإنسان .

﴿ ومِن النَّاسِ مَن يتَخذ مِن دُونِ اللهِ أندادا يُحِبُّونُهمْ كحُب الله والذين ءامَنُوا أشَدُّ حُبَّاً للهِ ولوْ يرى الَّذِين ظلَمُوا إذ يَرَوْن الْعذاب أن ألْقُوَّة للهِ جَمِيعاً وأن اللهَ شديدُ الْعذَابِ ﴾ (165)

الاشارة لمشركة العرب وكفار مكة ، الذين تعلقوا بالملائكة دون الله وبالسادة الكبراء ، ولأهل الكتاب الذين اتخذوا عزيزاً وعيسى ومريم بل اتخذوا الربابيين والأحبار أنداداً من دون لله ، ثم مظاهر الإشراك عند بعض الناس فى الارض والتاريخ كافة . هؤلاء منهم من يتخذ من دون الله أنداداً ، يحبونهم كحب الله ، ويحسبون أنهم مصدر الرحمة والرزق وأنهم مسيروا الأقدار يحبونهم كحب الله إذ يعبدونهم ليقربونهم غلى الله زلفى . ولكن المؤمنون يوحدون الله ، ويعلمون أن الخلق والرحمة كلها منه تعالى كما فى الآية السابقة مباشرة ، والله اكبر عندهم وهم لذلك أشد حباً لله من كل محبوب دونه ذلك ، الحق ولو ترجياً أن يرى الذين كفروا مشاهد الآخرة ، لو يرى المشركون الظالمون يومئذ إذ يرون العذاب جزاء لهم أن القوة جميعاً لله لا ندّ له فى الدنيا ولا الآخرة فلا قوة للذين اتخذوهم أنداداً لله آلهة أو أرباباً يتعبدونهم زلفى لله ، لاقوة تتجلى لهم عنئذ غضباً أو رحمة إذ تبين القوة كلها لله وحده وانه تعالى شديد العذاب .

﴿ إذ تَبَرّأَ الَّذينَ أّتبعُوا من الَّذِينَ اتَّبعُوا وَرَأوُا العْذاَبَ وتَقَطَّعَتْ بهمُ الأسْبَابُ ﴾ (166)

فى ذلك اليوم يكون قد تبرأ المنسوبون للقوة فى الدنيا شركاء لله أو وسطاء يعبدون زلفى إليه من الذين اتبعوهم مضَلّين مستضعفين ، فالإنسان إنما يأتى واحداً ويُسأل واحداً فإذا رأى هؤلاء وأولئك عذاب الآخرة تقطعت بهم وبينهم أسباب القوة والتباعة فلا يجدون القوة فيمن اتُّبع بل القوة لله جميعاً ، والقرآن يحكى كثيراً نبأ الذين اتخذهم البشر أرباباً دون الله وتبرؤهم من ذلك يوم القيامة : تبرؤ عيسى (عليه السلام) وتبرؤ الملائكة وكذلك تبرؤ المستكبرين من المستضعفين . وكل متبرئ يرى ومن تبعه العذاب وتتقطع بهم الأسباب والمستكبرون الذين أضلوا يرون العذاب ويلقونه يحملون أثقال كسبهم وأثقالاً من كسب المستضعفين .

﴿ وَقالَ الَّذين أَّنبَعُوا لَوْ أن لنَا كرّة فنتبرّأ مِنْهُمْ كمَا تَبرَّءوا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهمُ اللهُ أعْمالهمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (167)

إذا وحّد الإنسان العبادة فإنه بستقل عن اتباع الذين يحسبهم الجاهل لله انداداً ، وإلا فيوم القيامة – الذى تصل الآيات ذكر مشاهده – يكون الذين اتبّعوا غير الله متمنين لو أن لهم كرة وردة إلى الدنيا فيتبرأون هم متحررين كما تبرأ منه المبتقون صدقاً وبراءة بالحق أو تعذراً وتورطاً بالإضلال وكذلك يُرى الله هؤلاء الضالين المشركين المتخذين والمتبعين دون الله أنداداً كتاب أعمالهم وعاقبتها حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار لكرة أخرى من الابتلاء .

***

والآيات فى ظاهرة العلّة التى تصيب عقيدة التوحيدد شركاً مع الله أو بعداً عنه وتزلّفاً إليه وحباً للأنداد والوسطاء كحب الله تعظيماً وتقديساً واتباعاً . والظاهرة فاشية فى المجتمعات الدينية المتخلفة عن إيمانيات الغيب وقيم الحق بعد طول أمد الغفلة وغشية الأوهام والأعراف الطائفية وحتى يتجدد التوحيد وينهض المؤمنون من رُهن المشهود إلى مطلق الغيب .

***

﴿ يا أيها النّاسُ كُلُوا ممَّا فى الأَرْض حَلاَلاً طيّباً ولاَ تتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشيطان إنهُ لكُمْ عدُوٌ مُّبِينٌ ﴾ (168)

يتوجه ذكر آيات التوحيد وذكر جنوح بعض الناس الى الاشراك يتوجه سياق الخطاب إلى كل الناس أن كلوا من كل ما فى الأرض من رزق واستصحبوا أن الله سخّره لكم حلالاً بأمر الله وطيباً مفيداً لكم إلا أن ينزل الله شرعاً بيان تحريمه أو يبين لكم بالعلم ضره ، وأن أخلصوا التعبد والطاعة لله وحده ولاتتبعوا خطوات الشيطان الذى يلبس عليكم فتحرموا الحلال الطيب ، وتحلوا ما حرم الله الفاسد بذاته أو الذى يفسد الإيمان بأكله ، إنه عدو واضح يضلكم بالعقائد أوهاماً وضراً وسوء مصير . والخطاب هنا امر بفطرة الدين الحق الى الرزق الحلال وذكر للناس عامة واشارة لمشركى العرب الذين ورطتهم الجاهلية فى شرك الأنداد والأصنام والعقائد الشيطانية التى دفعتهم إلى أعراف بتحريم بعض الطعام والحرث (كما فى سورة الأنعام وبتحليل الأنعام التى تذبح لأصنامهم وأُهلّ بها لغير الله الواحد . كما تشير الآية إلى تحريم اليهود لبعض الطعام وتحليل النصارى للخنزير – كل ذلك تبدلاً للحق الصادر من الله الرازق وحده بقول الشيطان.

﴿ إنما يأمُركُم بالسُّوء والْفَحْشَاء وأن تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تْعلمُون ﴾ (169)

إنما يأمركم الشيطان ويوحي لكم بالسيء من الأعمال وبالفحشاء خروجاً على طاعة الله جهاراً بالمعاصى الظاهرة بالطعام الراتب او بالإهلاك ذبحاً مشهوراً قربى للأصنام مما يسود فيكم بالأعراف والتقاليد الجاهلية ، يوحى لكم الشيطان أن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، بأن تنسبوا المحرمات العرفية فى الطعام إلى الله ولا تعلمون تنزيلاً بذلك .

﴿ وإذا قِيل لهُمُ اتَّبِعُوا ما أنزل اللهُ قالُوا بلْ نتبعُ ما ألفْينا عليْه ءاباءنا أولوْ كان ءاباؤهُمْ لا يعقلُون شيْئاً ولاَ يهتدون ﴾ (170)

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله من حيث بيان الحلال الطيب وحد الحرام الفاسد فى الطعام ، إذا ذكّر الناس كذلك والإشارة للعرب الجاهليين المشركين ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فأصروا على اتباع ما وجدوا عليه السلف عصبية . وكيف يؤثرون العرف الموروث على هدى الله المشروع ، أذلك حتى إذا لم يكن لآبائهم عقل ينضبط بتوحيد الله ولا هدى مستقيم بتنزيل الله .

﴿ ومثلُ الَّذِين كفرُوا كَمَثلِ الَّذِى يَنْعقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً ونِدَاءً صُمٌ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَعْقلُونَ ﴾ (171)

ومثل الذين كفروا اولئك الذين يتبعون التراث عصبية صماء عمياء – مثلهم مع الذى يدعوهم دعوة الرشد والهدى من الله يرجو فيهم الفقه والاستجابة ، كمثل الناعق بالحيوان الذى لايسمع منه سماع وعى ولا يعقل مغزى خطاب بل لايسمع إلا نعقاً وصوتاً مبهماً ودعاءً من قريب أو نداءاً من بعيد ولايستجيب إلا بحركة بسيطة كالمعهود فى الحيوان ، فهم صم عن السمع الواعى بمعقولات الدعوة وبكم عن التخاطب والتجاوب الراشد وعُميٌ ن رؤية سياق الهدى . والمثل المضروب من بيئة العرب المطبوعة فى ثقافتها نحو الحيوان تقاليد إشراكية من طقوس الذبح والأكل وتحريم الطعام والشائعة فيها أصوات النعيق بالحيوان دعاء ونداء .

﴿ يا أيها الَّذِين ءامنُوا كُلُوا من طَيّباتِ ما رزَقناكُمْ واشْكُرُوا للهِ إن كُنتُم إياهُ تَعْبدونَ ﴾ (172)

الخطابُ يتجه فى السياق للذين آمنوا تنبيهاً ووصية ، أن يأكلوا طيبات الطعام يعدونها رزقاً من الله بأقدار ه المسخرة ولايحرمون منها إلا ما حرمه ، وذلك تحريراً لهم من عقائد المشركين ، وتمهيداً لهدايتهم فى الطعام بعد التوحيد لله رازقاً ، ووصية لهم ان يشكروا الله عليه ، فالشكر كله لله وحده عن كل رزق طيب ذلك ان كانوا إياه وحده يعبدون محموداً .

﴿ إنما حَرَّم عليْكُمُ الْمَيْتةَ والدَّمَ ولَحْمَ الْخِنزيرِ وما أُهِلَّ بِهِ لغَيْر اللهِ فمن اضطرّ غيْر باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليْه إن اللهَ غفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (173)

" إنما" حصر . فالله لم يحرم إلا الميتة دون زكاة أو ذبح أو ذبح قاصد والدم المسفوح الذى لايخالط اللحم والرجس لحم الخنزير وما أهل به رفعاً للصوت ذكراً فى ذبحه لغير الله طقساً لمعبودات شرك ، فمن اضطر لأكل ذلك غير باغ يزيد فوق قدر الضرورة ولاعاد يتجاوز عمداً الحد بأكل الحرام ذلك المضطر الذى لايجد بدأً من اكل الطعام الحرام سوى الموت جوعاً يأكله مقداراً الضرورة بقدرها ، فلا إثم عليه ان الله غفور رحيم ، يغفر له ذلك ولا يكتب عليه اثماً بل يرحمه عفواً وحياة .

﴿ إن الّذين يَكْتُمونَ ما أنزل اللهُ من الكْتابِ ويشْتُرونَ به ثَمَناً قَلِيلاً أُولئكَ ما يأْكُلُون في بُطونهِمْ إلاَّ النَّار ولاَ يُكلّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ولاَ يُزَكِّيهَمْ ولَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾ (174)

هذه الآيات تالية تذكير سنة أهل الكتاب البين فى كتمان الحق المنزل وخيانة أمانة بلاغ الرسالة وسنة الجاهليين التى كتمت تقاليدها تركة ابراهيم وضيّعت بالأمية صحفه الأولى . وقد سبق ذكر ذات السنة فى سياق إحياء سنن ابراهيم التى أمينت ، ويأتى الذكر هنا فى سياق التوحيد والحلال الطيب من الرزق وأعراف اتخاذ الأنداد شركاً بالله وتحريم الطعام بالمأثورات والأعراف الضالة ، وكتمان الحق من أهل الكتاب الذين كانوا فى مكان الإمامة للناس كافة هو الذى مكّن لهذه الأعراف العربية الضالة

عن هدى كتاب الله ، فهم يشترون قليل القيمة من المصالح المادية الدنيوية بخيانة أمانة بلاغ الكتاب ، فما يأكلون فى بطونهم التى اشبعوها بشهوات الدنيا كتماناً للحق إلا النار فى الآخرة . وذكر أكل النار فى الآية لأن السياق كان عن الطعام وأكل حلاله وحرامه . والذين هجروا شرع الله المنزل مع موسى بكلام الله يجازون يوم القيامة بأن يهجرهم الله ولايكلمهم قربى ولايزكيهم رضواناً ونعيماً ولهم عذاب اليم ، هم لم يزكوا انفسهم ويزدادوا خيراً ببلاغ الدين بل كتموه فلا يزكيهم ولايزيدهم الله بركات نعيم فى الآخرة بل لهم عذاب أليم .

﴿ أولئك الّذين اشْتروا الضلالةَ بِالهدى والعْذَابَ بِالمَغفرة فَمَا أصْبرهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (175)

الآية تستانف الحملة على أهل الكتاب الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، سنتهم الفاشية فى الناس بكتمان الهدى الذى أوليت إليهم أمانة بلاغه واشتروا بذلك العذاب بالمغفرة يوم القيامة ، لم يصبروا على الحق فى الدنيا فما أطول مدى صبرهم على النار الخالدة .

﴿ ذَلِك بأن اللهَ نزّلَ الْكُتابَ بالْحقّ وإن الّذينَ اخْتَلَفُوا في الْكِتابِ لَفِي شِقَاق بَعِيدٍ ﴾ (176)

ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ذلك الكتاب الذى كان رسالة للناس كافة اختلف فيه الذين حملوا أمانته. اليهود ابتدعوا فى نصوصه بما فيها محرمات الطعام باطلاً ، والنصارى نسخوا شرعه ، والانجيل يصدق التوراة ، واستحلوا حرام الطعام ولو خنزيراً . واليهود اتخذوا الكتاب لأنفسهم فحجبوه عن العرب الذين ضيعوا الصحف الأولى من الكتاب الذى تركه أبوهم إبراهيم .

عموم المعاني الآيات:163–176

والآيات وصل لإيمان التوحيد فى الحياة بالطعام لأن الطعام سبب بقاء الإنسان وحاجته المعتاده وسوكه الأولي العام تعبيراً عما يؤمن به ، والتوحيد الحق أن كل ما فى الأرض مسخر من الله حلالاً طيباً لرزق الإنسان الذي يأكله شاكراً لله غلا ما حرم كتاب الله . وأوهام الشيطان وراء المعتقدات والتقاليد المورثة مما يحل ويحرم الطعام لمن يضل ولا يعرف عداء الشيطان ولايعقل بهدى الله . ولكن المؤمن من يذكر الله وحده مع كل طعام مستبيحاً للطيبات الحلال شاكراً ، مجتنباً للمحرمات متقياً لله ، مهتدياً بكتاب الله لايصرفه عن الحق عرف راتب موروث ولايكتم الحق يمدّ للشهوات والجهالة فيتكاثر الاختلاف والشقاق راتباً كأنه الطعام فى الدنيا يسوق إلى طعام من غسلين فى الآخرة .

***

آيات البقرة السابقة جملة منذ المفتتح تبدأ بذكر القرآن هدى لمن آمن به وبما قبله من كتاب وتذكّر الكافرون به والمنافقين من الجاهليين ومن أهل الكتاب القديم ، ثم تدعو الآيات لعبادة الله بآياته فى الكون وفي الكتاب، وتقص قصة تجربة الدين الأولى للإيمان ثم آخر التجارب الدينية لموسى وبنى إسرائيل وتذكرهم بالنظر فى سيرتهم منذ فرعون إلى أرض التيه وبالتجربة مع شريعة الكتاب ومن

انبياء التجديد ثم مع رسالة النبي محمد ﷺ وشقاق اهل الكتاب ومحاولاتهم وعصبيتهم فى وجه الرسالة الجدية . ثم يأتى ذكر إبراهيم (ص) وأصل ملة توحيد الله ووحدة الدين بين أهل الكتاب وبين مشركى العرب ، ثم يأتى ذكر القبلة إلى المسجد الحرام فى الصلاة والحج استقلالاً صابراً عن بنى إسرائيل الذين كتموا الهدى بين مجتمع العرب المشركين ، وكيف عرضت لذلك عليهم جميعاً مقدسات الشركاء والأولياء من دون الله وعلى العرب تقاليد حرمات دينية من الطعام بالباطل . وتاتى الآية الآخيرة لتأكيد كتاب الوحى من الله تتصادق وتتوالى تنزيلاته بالحق وأن الذين خالفوه فى شقاق ، والآية مِفصل بين تمام آيات قصة أهل الكتاب والجاهليين حجة حق وعبرة تحرر من الباطل للمؤمنين وآيات لاحقة مصوبة إليهم تفصّل شريعة الدين الحق بهذا الكتاب شريعة المجتمع العملية بعد أن استبانت شريعته العقدية . وبذلك تتكامل سورة البقرة فسطاطاً قرانياً للأمة فى دولة المدينة ، ومن بعد حكمة وعبرة باقية للأمة فى كل مكان وزمان .

ترتيل المعاني: الآيات 177–182

لَيْسَ الْبِرَّ اَنْ تُوَلُّوا وُجُوْهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالْكِتٰبِ وَالنَّبِيّٖنَ وَاٰتَى الْمَالَ عَلٰى حُبِّهٖ ذَوِى الْقُرْبٰى وَالْيَتٰمٰى وَالْمَسٰكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيْلِ وَالسَّآئِلِيْنَ وَفِى الرِّقَابِ وَاَقَامَ الصَّلٰوةَ وَاٰتَى الزَّكٰوةَ وَالْمُوْفُوْنَ بِعَهْدِهِمْ اِذَا عٰهَدُوْا وَالصّٰبِرِيْنَ فِى الْبَاْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِيْنَ الْبَاْسِ اُولٰٓئِكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوْا وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُوْنَ﴿ 177 ﴾

ف ولكن أعطاها القرآن معانى جديدة ، فليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب حتى بعد معركة تحيّر القبلة وتوجيهها ، ليس البر كما عرف أهل الكتاب طقوساً دينية ظاهرية فى شكل تولى الجهات ولكنه كسب على أصل الإيمان التوحيدى بكل الغيبيات ، بالله إلهاً واحداً وباليوم الآخر بعثاً وحساباً وجزاءً وفقاً لعمل الإنسان فى الدنيا وبالملائكة والكتاب والنبيين صلة هدى بين الله والإنسان ، وهو من بعد كسب عمل صالح لمن آمن ، منه انه آتى المال على حبه فى سبيل الله رازقه وأنفقه رغم عزته وهوى احتكاره وصلاً وتوحيداً فى المجتمع لذوى الحاجة من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لحوائج السفر ، وفى الرقاب للمكاتبة تحرراً من الرق ، وانه أقام الصلاة خشوعاً وتقوى ولم يؤد شكلها فقط متوجهاً به مشرقاً أو مغرباً ، وآتى الزكاة الفريضة الواجبة التى تزكى وتطهر مؤديها وتصله بالجماعة تكافلاً لازماً بحده فضلاً عن وجوه الانفاق

الطوعية العفو الأخرة مثل الصلاة الواجبة مع وجوه الذكر الأخرى تعبيراً عن الإيمان. كل أولئك أبرار ، والأبرار أيضاً هم الموفون بعهدهم إذا عاهدوا الله على أحكام ميثاق الدين أو عاهدوا عبادة فى علاقات العقود فى شتى شعاب الحياة . ولكن الصابرين (وقد جاءت صفتهم متميزة عن السابقات بالنصب كما تميز اللغة العربية بين المضافات بالرفع أو النصب لايلاء درجة خاصة) هم بين الأبرار خاصة لأن الصبر درجة فاضلة فعامة المؤمنين عرضة للبلاء الشديد فى البأساء والضراء وحين الباس فى الحرب فمنهم من يفتن فيرتد فى دينه أو يزلزل ومنهم البار الذى يعتصم بقوة الثبات وعزته رغم الفقر والضر وحين الخطر الحذر ، وأولى تلك الصفة أولئك من الذين صدقوا براً خالصاص لاظاهراً ، وأولئك من المتقين .

والآية تهيئة وإعداد للمسلمين لخلق الإيمان والصلاة ةالتكافل والتعاهد الذى يوحد المجتمع وللقتال صفاً مرصوصاً جهاداً يقتضى الصبر . وهى أخيراً أجملت وجوه الإيمان والخير الشامل ووصفت الذين التزموا بها بالصدق براً وبالتقوى وتلك ثمرة الهدى القرآنى كما جاء في أول سورة البقرة ، أن الكتاب هدى للمتقين .

﴿ يـاَ أيها الّذين ءامَنُوا كُتبَ عَليْكُمُ الْقصاصُ في الْقتْلى الْحُرُّ بـالْحُرِ والعَبدُ بالْعَبدِ والأنثى بالأنثَى فَمَنْ عُفِي لهُ مِنْ أخيه شيّ فاتّباعٌ بالمعْروفِ واداءٌ إليه بإِحسان ذلكَ تَخْفيف مّنِ ربَّكُمْ ورحْمةٌ فمَنِ أعْتدى بَعْد ذِلكَ فلهٌ عذابٌ أليمٌ ﴾ (178)

بعد التوحيد الايمانى والاستقلال والتحرير المعنوى ، وبعد اية البر الجامعة للايمان بالغيب والرسالة وللصدقة والصلاة والزكاة والوفاء والصبر تمضى السورة فى تبيان شريعة الصدق والتقوى فى صالح الأعمال ، وتكتب القصاص على مجتمع المؤمنين حكماً لازماً . القصاص (إتباع الشيء أو الفعل بما يماثلة) فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . وقد نزلت الآية على تقاليد مجتمع جاهلى طبقى وعرقى) لتقول أن القصاص يمكن أن يقتل فيه حرٌ او عبدٌ أو أنثى . وتعلم الناس المساواة حتى يقع القصاص بالنفوس لايؤخذ فيه أعلى من المقتول أو أدنى وفق المفاضلات العرقية اذ يعتبر العرب فى الجاهلية العبد آلة عوضه المال إن قتل ، والأنثى غير مسؤولة قاتلة وغير نفس تامة مقتولة ويعتبر بعض الأحرار أن نفوسهم لاتكافئها نفوس حرة عند الاخرين . ونزلت هذه الاية لتكتب أن النفوس تتكافأ والقصاص ينالها جميعاً فإذا كانت الواقعة قتلى معركة من طائفة بينهم الحر والعبد والأنثى فعلى الطائفة التى قتلتهم ما يكافئهم قصاصاً من حر وعبد و أنثى ارتكبوا الجناية . أما المقتول نفساً واحدة فالنفس بالنفس كما فى سورة المائدة (الآية 45) . وإذا تسامح ولي المقتول فعفا للقاتل بأن أسقط القصاص ورضى بالدية سّمت الآية ولى المقتول أخاً للقاتل حتى يتذكر الأهل بانهم رغم القتل بينهما فى الدين أخوة وحتى تتأكد المساواة قصاصاً أو دية ، وأوجبت عندئذ اتباع أخذ الولى الدية بالمعروف وأداء أولياء القاتل الدية إليه بإحسان دون مماطلة وجاء وقع الحكم

: 'ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ' إذ لم تكن الأعراف الكتابية تعرف غير القصاص ولا الجاهلية تسامح فى القتل بل تدفع للثأر ، ولكن الآية جاءت بالعفو ، والتخفيف والرحمة . فمن اعتدى بعد ذلك بعد ذلك وذهب يثأر وينتقم بعد أخذ القصاص أو الدية فلهُ عذاب أليم من الله إذ خرج من سبيل الرحمة .

﴿ ولَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الألْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (179)

لئن كان التعافى والدية رحمة بين الناس فان ثبات حكم القصاص فيه حياة درءاً لدوافع قتل النفوس خشية ما يلحقه قصاصاً ، لأن من قتل نفساً قتل ما وراءها من ذرية ومثلها كثيراً بعدوى جريمة القتل وثاراته ، فالقاتل كأنما قتل الناس جميعاً كما فى سورة المائدة (الآية 32) وتلك حكمة لذوى العقول المنفعلة بها القلوب وتلك دواع للتقوى والازدجار فى السلوك وحماية المجتمع عما يعرض لاهدار الأرواح بامضاء القصاص .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذا حَضرَ أحدكمُ الْموْتُ إن تَرك خيْراً الْوصَيَّةُ للْوالديْن والأقْربين بالْمَعْرُوفِ حقّاً عَلَى الْمتقَّينَ ﴾ (180)

بعد آية جوامع البر فى الحياة جاءت تفصيلات الشرائع العملية بما يرعى أصل حياة المؤمنين الأبرار من الأشرار قتلة النفوس بحكم قصاص وعفو ودية لتكافؤ النفوس الحية ولزجر القتل وللتراحم والإخاء ، ثم كتب الله فرضاً على المؤمنين إذا حضر وقَدِم الموت على أحدهم إن كان سيخلف خيراً وثروة ألا يتركها سدى وسبباً للشقاق بين الأهل . ذلك أن الشريعة بعد قيام الحياة للإنسان سوياً بالاخرين تحفظ له سلام الأسرة حيث يتربى ويتزكى فيها أهل البيت ويسود بينهم البر . فالوصية من التركة مكتوبة لتقسيمها دون شقاق ولتؤدى للوالدين نصيباً ثم للأقربين كما يوصى الذى يموت . وهذه الوصية كانت حقاً على من يتقى الله فى مصير رزق الله وأسرته .

وكانت تلك الوصية المكتوبة تجاوزاً لأعراف الجاهلية التى تحصر التركة للوالد دون الوالدة ودون الأقربين ومثلما كانت آية القصاص تمهيداً بمساواة الناس قصاصاً حتى يقتص للنفس بالنفس كانت هذه الآية تمهيداً لعدالة توزيع الميراث بين الوالدين والأقربين دون حجر للذكور ، حكماً أول يفصله الله بدرجة أتم بنزول أحكام الميراث فى سورة النساء .

﴿ فَمَن بَدَّلهُ بَعْد مَا سَمِعهُ فَإنما إثْمهُ عَلَى الّذين يُبدِّلونه إن اللهَ سميعٌ عَلِيمٌ ﴾ (181)

كان غالب الوصايا شفاهة لندرة الكتابة . فمن شهد إيصاء الميت لكنه بدله بعد ما سمعه ولم يؤد أمانة البلاغ الصادق فالإثم فى ذلك التبديل الظالم على الذين زوروا الشهادة والله يسمع الإيصاء وروايته ويعلم الدوافع والآثار .

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أوْ إثْماً فأَصْلَحَ بَيْنهُمْ فَلاَ إثْمَ عَلَيْهِ إن اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (182)

من قدر وخشى الوصية التى بلغها له أو تركها الميت أنصبة غير عادلة بين الوالدين والأقربين وفيها الجنف والميل أو الاثم والظلم فاجتهد لدى الموصى قبل موته فى سبيل إصلاح القسمة بين الورثة الموصى فيهم أو لدى الورثة بعد موت الموصى فأصلح بينهم بازالة أيما شعور بالظلم أو شقاق وبتسوية انصبتهم على عدل وسلام فى الأسرة ، فلا إثم عليه بتبديل وقع الوصية بل ذلك قيام بواجب الكفاية الذى دون أدائه يقع الإثم على المجتمع بترك الأسرة فى فتنة . وذلك أن الله غفور رحيم للذين يوصون ظلماً لكن يقع إصلاحه و تستدرك دواعى الفتنة .

عموم المعاني الآيات:177–182

الآيات (177–182) إن أول شريعة الحياة العملية أخلاق البر الجامعة التى تؤصل على الإيمان بالله والغيب وتغذى بشعيرة الصلاة والعبادة لله . وحياة البر الاجتماعى ايتاء الصدقة والزكاة بين الناس على حب المال والوفاء بعهود المعاملات والصبر فى علاقات البأساء والضراء وحين بأس القتال . فإذا جر البأس إلى قتلى فالقصاص أو الدية دون ثأر وعدوان ،وتلك تقوى و ضمان الحياة . وأما إذا ساق الضر فى الحياة إلى حضور الموت فينبغى الوصية لتوزيع التركة لا احتكارها ، على أن تراعى الأمانة فلا تزور الوصايا إلا إذا لابسها ميل أو ظلم حيث يقوم الإصلاح والعدل

ترتيل المعاني: الآيات 183–189

﴿ يأيها الَّذين ءامنو كُتِبَ عليْكمُ الصيّام كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذين مِن قَّبْلكُمْ لَعَلَّكُمْ تتقُونَ ﴾ (183)

تأتي آيات الصيام بعد آيات حفظ الحياة وسلام الأسرة ومقابل شرائع الطعام الجاهلية التى سبقت . فهذه أحكام أنزلها وفرضها الله الرازق وجاء فى مقدمتها التنبيه للمؤمنين خطاباً لهم بعد خطابهم فى الآيات التى سبقت تفصل الشرائع العملية للمسلمين : يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام . ألزمتوه من الله صياماً كفاً عن شهوات الأكل والزوجيه ، كما كتب على الذين من قبلكم حيث كان الصيامُ فى شرائع الدين وشعائره التى سبقت ويجددها القرآن والإسلام .

يتوالى ذكر التقوى فى سورة البقرة التى تهيء المجتمع المسلم للدهى والاستقلال والانتقال ليكون مثالاً وسطاً شاهداً على الناس . وفى السياقات ربطت التقوى بالصبر كما ربطت بالصلاة وكل الشعائر وكما ربطت بحفظ الحياة والقصاص والوصية والتقوى أظهر فى الصيام ، فهو امساك عن الشهوات يُعدّ المؤمن للصبر على كل فتنة وشهوة ويُعده لذكر الله والصلاة له ويُعده لحفظ مساواة المسلمين فى الطعام والحياة والثروة . والتقوى هى جملة الأعمال الصالحات ، التى تمسك المؤمن عن مفارقة سبيل الله .

﴿ أياماً مَّعْدوداتٍ فمَن كان مِنكُم مَّريضاً أوْ على سفرٍ فعدّةٌ مّنْ أيامٍ أُخر وعلى الَّذين يُطيقُونهُ فِديةٌ طعامُ مسْكينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خيْراً فَهُوَ خيْرٌ لَهُ وأن تَصُومُوا خيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلمُون ﴾ (184)

الصيام كتب أياماً معدودات قليلة العدد معلومة لأول العهد ، وكان ذلك بالصيام ثلاثة أيام من منتصف الشهر أو الليالى البيض مثل أيام الذكر المعدودات بمنى بعد الحج ، والمريض والمسافر عند تلك الأيام يُعذر من صيامها ويُكفّر عِدتها بأيام أخر ، وقد كان الصيام لأول العهد خياراً للمطيقين القادرين بين الصيام .وغطعام مساكين . أما العاجزون عن الصوم فعليهم الفدية وأما من أطعم المساكين تطوعاً فهو خير له عند الله . وأن يصوموا خيراً لهم لأن الصيام كان خياراً ولكن الآية تحثهم عليه، فهو للقادرين خير إن كانوا يعلمون فوائد الصيام الجمة فى الدنيا والآخرة التى قد لايعلمها الناس كلها صحة وإقتصاداً وتذكيراً أو تكفيراً بالتكافل مع المساكين وتقوى لله من الشهوات وذكراً وشكراً .

﴿ شَهْرُ رمضان الَّذى أنزل فيه الْقرءان هُدى للنَّاس وَ بَيِّنٰتٍ مِّنَ الْهُدٰى وَالْفُرْقَانِۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ؕ وَمَنْ كَانَ مَرِيْضًا اَوْ عَلٰى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ اَيَّامٍ اُخَرَؕ يُرِيْدُ اللّٰهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيْدُ بِكُمُ الْعُسْرَؗ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللّٰهَ عَلٰى مَا هَدٰىكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴿ ١٨٥ ﴾

رمضان فى أول الكلام تعظيماً لقدره . وسمى كذلك أول الأمر لأنه وافى الصيف إذ يرمض الناس ويحترقون من شدة الرمضاء . وكان ابتداءُ نزول القرآن فيه فهو عيد الاحتفال بالقرآن وموسم مذاكرته الى منتهى نزوله إذ كان جبريل عليه السلام يلقى الرسول ﷺ كل ليلة يُدارسه ويُراجع فيه معه القرآن . وأُنزل القرآن فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . هُدى عاماً للناس وبينات من ذلك الهدى بأحكامه المفصلة ومن الفرقان بين منازل الحق والباطل . فاستقر وقت الصيام المكتوب فيه وأمر المؤمنون ' فمن شهد منكم الشهر فليصمه ' من شهد وحضر هلاله فليصمه وذلك بالكف عن الشهوات، وكان ذلك خير احتفال بالقرآن تذكراً للتقوى عن شهوات الحياة حيثما جاءت بيّناته وأحكامه ووصلاً لتكافل المسلمين وذكراً وشكراً لهدى الله المنزل فى القرآن . ومن كان مريضاً أو على سفر فذات عدة الأيام التى أفطرها يصومها فى وقت آخر لاحق بينت الآية الحكمة للمؤمنين أنه يريد الله بهم اليسر ولايريد بهم العسر ، فى إجمال عدة أيام الصيام فى شهر واحد بعد أن كانت عبر كل الشهور ، والفرض ميسور للمريض والمسافر ليكمل العدة لاحقاً والفرض يوافى شهر منزل القرآن ، وليكبروا الله على ما هداهم فى ذلك الشهر البينات والهدى ، نعمة هدى اكبر من كل هدية من دونه الله ، وهى ذكر الله الأكبر بالقرآن ، وإن نعمة الرزق من الله هى الأكبر للحياة وإن أمره أكبر مما تأمر به الشهوات ومن ثم يُعلى المؤمنون ربهم باداء ما كتب عليهم فى الصيام شهر

القرآن . ويوم التمام والاحتفال وصلاة العيد بالفطر بعد الصيام بملأ المسلمون الصباح تكبيراً وذكراً كثيراً ولعل المسلمون بطاعة الصيام يشكرون الله على نعمة الهداية القرانية التى يتذكروها فى شهرها كل حول ويصدقون الشكر بالتجاوب لما فرض الله عليهم من صيام ويكبرون فى صلاة العيد فرحاً بأنهم على عهد الطاعة والصبر والتقوى والشكر وكل عام وهم بخير .

﴿ وإذا سَألك عِبَادي عَنِي فإني قريبٌ أجيبُ دعْوة الدَّاعِ إذا دعان فليسْتجيبُوا لي ولْيؤمنوا بِي لَعَلهُمْ يَرْشُدونَ ﴾ (186)

الآية تصلُ معانى الدعاء والذكر والصلاة بالصيام فالصيام عهد ذكر القران وتقوى الله عن الشهوات فى النهار وإكثار الصلاة بالليل والصدقة والتكبير فى عيد الفطر ، فهو قربى جليلة إلى الله والله يقارب المقترب بصيامه ويستجيب لدعائه – وذلك هو الجواب لمن يسأل النبى ﷺ عن الله فى سياق رمضان من المؤمنين الصّوم الذين يسميهم ربهم بذلك عبادة فليستجيبوا لربهم المجيب طاعة لما دعاهم إليه وليؤمنوا به إيماناً بعد إيمان بالصلاة والصيام لعلهم بذلك يسلكون سبيل الرشاد فى الحياة .

﴿ أُحل لكمْ ليلة الصيام الرَّفثُ إلى نسائِكُمْ هُنَّ لَبَاسٌ لَّكُمْ وَانتمِ لبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ إنكُمْ كُنتُمْ نَخْتانونَ أنفسكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فالأن باشرُوهُنَّ وأْبتغُوا ما كَتَبَ اللهُ لكُمْ وكُلُوا واشربوا حتى يتبين لَكُمُ الْخيْطُ الابيضُ من الْخيطِ الأسْودِ من الْفجْرِ ثُمَّ أتمُّوا الصّيام إلى الَّيلِ ولاتباشُروهنَّ وأنتم عاكِفون في المَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُوُدُ اللهِ فلاَ تَقْربَوهَا كَذلِكَ يُبيّنُ اللهُ ءاياتِهِ للنّاسِ لعَلهُمْ يَتَّقونَ ﴾ (187)

توسطت آية الدعاء آيات الصيام كما يتوسط الذكر والدعاء صيام العبد محاوباً ، وجاء هذا الحكم حيناً بعد تشريع الصيام لأوله إذ كان يبدأ الامساكُ متى ما نام المؤمن فإذا ناموا بعد الفطور و المغرب ثم استيقظوا ليلاً كان عليهم الا يباشروا الزوجية مهما تعسر ذلك الصيام ليلاً . وجاءت الاية تحملُ الاباحة فى الرفث كناية عن معاشرة النساء ليلة الصيام فهن لباس لهم وهم لباس لهن تصويراً للعلاقة الوثيقة بين الزوجين فاللباس فيه من المماسة مثل ما يجد الزوجان فى المعاشرة .

و يخاطب المؤمنون انه مهما يستركم الليل فالله كان يعلم أنكم كنتم فى شدة خيانة لنفسكم الصائمة فى معاشرات زوجية بعد النوم والصحو ليلاً وادعاءات لبعضكم أنكم مانمتم بعد ، فتاب الله عليكم بأن أحل لكم الرفث كل الليل يسراً بعد عسر وعفا عنكم ما كان منكم من ادعاء وخيانة لانفسكم . فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، فالآية تبيح لهم وتذكرهم المبتغى بالمباشرة الزوجية ليس الشهوة وحدها ولكن الولد إذا قدره الله وكتبه .

تستمر حالة الإباحة مع الرفث أكلاً وشراباً كل الليل حتى يستبين خيط الفجر الأبيض من خيط الليل الأسود فى الأفق إذ يحين الإمساك ويتم الصيام إلى الليل القادم وقت مغيب الشمس . ونهت

الآية عن المباشرة الزوجية فى المسجد إذا كان المرء معتكفاً مقيما هناك لأيام وليال ، والاعتكافُ أكثره فى ليالى رمضان ، ومتى فرض المؤمن على نفسِهِ الاعتكاف اتقى شهوة الزوجية هناك . وكل الذى نهت عنه الآية من الصيام عن الشهوات الزوجية فى المسجد أو عنها والطعام فى رمضان بعد طلوع الفجر حدود بينات قطعية للأحكام من الله يؤمر المؤمنين ألا تقربوها فالحد لايتجاوزه المؤمن لكن الأحوط ألاّ يقاربه حتى لا ينزلق بالفتنة إلى ما وراءه ، وكذلك يرسم الله الحدود ويبين آياته للناس واضحاً حتى ترجى التقوى فى مراعاة الحدود .

﴿ ولا تأْكُلُوا أمْوالكُم بَيْنكُم بِالباطلِ وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ لتأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أمْوَالِ النَّاسِ بِالإثْمِ وَأنتم تَعْلَمُونَ ﴾ (188)

فريضة الإمساك عن شهوة الطعام بصيام رمضان ليست للحرمان من الأكل بل لحِكمٍ رشيدة منها تزكية النفس بمقاومة الشهوات وبأن تتقى الحرام وفتنته . وكذلك بعد آيات الصيام جاءت آية الصيام عن أكل الأموال فى علاقات الناس بالباطل . فالخطاب للمؤمنين الا يأكلوها حراماً ولايُدلوا بها إلى الحكام القضاة ترسلوها لتقع عليهم رشوة لتأكلوا بعض أموال الناس فى الخصومات إثماً وظلماً وهم على بينة يعلمون أن المال الماكول ليس لهم بحق .

﴿ يَسْئلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هيَ مَوَاقيتُ للنّاسِ والْحَجّ وَلَيس الْبُر بِأن تأتُوا الْبيوتَ مِن ظُهورِهَا وَلَكنَّ الْبِرَّ مَنِ أتَّقّى وأتُوا البيوتَ مِن أبوابِهَا وأّتقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (189)

قد يُسأل النبي ﷺ عن الذكر والدعاء وأمر ذلك عند الله ، ولكن المؤمنين يسألونه لاسيما فى رمضان والفطر كل عام عن اهلة الشهور وكيف يوقون بها الحج والقتال والأشهر الحرام ، وقد يهتم الناس عندئذ بظاهرة الأهلة فيسألون عن طبيعتها من حيث ثبوتها وظهورها واستدارتها ومحاقها وإن كان فى ذلك سر تنجيم للإحرام . والقرآن هدى يبين للناس ما هم فيه يختلفون من أخلاق سلوك وتعامل وليس هدى لما لايختلفون عليه مما خلق الله بالتقدير والحساب الحسام يدركه ويضبطه السمع والبصر والفؤاد وإن كان الإنسان عن كل مسؤولاً . وجاءت اجابة القرآن ليبلغها الرسول ﷺ للسائلين عن وظيفة الأهلة التى سخرها الله للانسان : 'هى مواقيت للناس والحج ' فالهلال ظهوره ينظم أوقات الناس فى مواسم المناشط ومواعيد المعاملات ، وهى كذلك لتنظيم الشعائر مثل الحج والصيام ، وقد سبق ذكر الصيام وجاء ذكر الحج تمهيداً لذكره المفصل فى الآيات المقبلة . والآية تذكر البر الذى سبق فى الآية الجامعة (44) أن ليس البر بتولى الوجهات الظاهرية ولكنه إيمان وعمل صالح منه الصبر حين البأس ، وجاء هنا فى سياق الأهلة التى كانت فى حياة العرب متصلة بالأشهر الحرم الآمنة المحظور فيها القتال ، فالآيات التالية مباشرة تذكر القتال والشهر الحرام . فالآية هنا للسائلين عن الأهلة أن ليس البر ما كان من عرف الجاهلية أن يباح اقتحام البيوت غدراً من ورائها وحرباً على أهلها دون مبالاة فى غير الأشهر الحرم التى تستدعى السلم إنما البر أن يُتقى الله وتُراعى حرمة بيوت

الناس كل الشهور فلا تؤتى إلا من أبوابها أماناً واستئذاناً ومراعاة للسلام ولاتُغدر بيوت الناس من الوراء أبداً ولو قتالاً فى أى شهر غلا مدافعة بغير عدوان كما سياتى بيانه. وتكرر الآية الأمر بالتقوى هنا مستمراً ومنذ أول آيات البقرة وخاصة فى التمهيد لآيات القتال لعل فى ذلك الفلاح .

عموم المعاني الآيات:183–189

بعد الصلاة المفروضة كتاباً مؤقتاً مرات كل يوم وفى كل حال جاء الصيام فريضة سنوية احتفالاً وقربى من القرآن كله وصبراً على الشهوات فى سبيل التزكى لكل طاعات الله وتضامناً بين المسلمين جميعاً جوعاً وصدقة وكفاً عن التظالم بالمال تعاملاً وتحاكماً ووصلاً لآيات الشرع فى العمل بآيات الله فى الفلك أوقاتاً للمعاملات والذكر لله ودعاء وتقوى فى كل الحياة .

ترتيل المعاني: الآيات 190–220

﴿ وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذينَ يُقَاتِلُونكُمْ ولا تَعْتَدُوا إن اللهَ لا يُحبُّ الْمُعْتدينَ 0﴾ (190)

بعد ذكر الصيام تقوى والأهلة وفاء لمقيات الحج وغيرة والبر دون اتيان بيوت الناس من ظهورها عدواناً فى أى من الاشهر وإيتيانها من أبوابها سلاماً وتقوى ، بعد تكثيف ذكر التقوى تذكر هذه الآية القتال مُباشرةً ، حيث أن رمضان موسم لنزول القرآن وللاحتفال به طاعة بالصيام الشاق بل تهيؤاً لإقامة هدى القرآن كله ولو اقتضى الجهاد . فجاء ذكر القتال فى هذه الآية ابتداراً لشرع الجهاد فى المدينة وقد كانت أيدى المؤمنين مكفوفة فى القرآن المكى السابق . فسورة البقرة هى دستور المجتمع المدنى تخاطبه بالجهاد الذى يتولاه وتبين له الهوادى الدافعة والحدود الضابطة ، ولا تخاطب ولاة ولأمر الذين ينظمونه . فالواو في أول الآية تصل السياق بالآية السابقة كما قدمنا . والأمر فيها يحدد عدالة مستوية فى القتال ، على المسلمين أن يقاتلوا من يقاتلهم على ألا يبادروا بالعدوان ، فالله لايحب المعتدين ، يحب المجاهدين مدافعين صفاً ولكنه لايحب العادين . والآية أول تشريع للقتال يقوى فيها النهى عن المبادأة بالقتال وضبطه بقدر رد العدوان وحسب وإن كان المسلمون قد أخرجهم اهل قرييش من ديارهم وأموالهم .

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْث ثِقفتُوهُمْ وأخرِجُوهم مّنْ حَيْثُ أَخْرجُوكُمْ وَالْفِتنةُ أشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ولا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسجْدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإن قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذِلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (191)

والخطاب للمسلمين : إن عدى عليكم فردوا فاقتلوا العادين حيث ثقفتموهم والفيتم فيهم وجه ضربة تصيبهم بقوة وكما تعدوا عليكم فاخرجوهم من حيث أخرجوكم حتى مكة . فالفتنة أشد من القتل ، الأذى والإخراج من دياركم ليفتنوكم عن دينكم أشد من القتل فالرد عليهم بالقتل أقل مما فعلوا بكم . ولئن كان لكم أن تبلغوا كل موقع للنيل منهم مدافعة فإن حمى الحرم معروف ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام ما

فَإِنِ انتَهَوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ ١٩٢ ﴾

وكفوا عن العدوان والكفر الذى دعاهم لذلك فآمنوا فإن الله غفور رحيم يغفر لهم سوالف فتنة المسلمين ويرحمهم ويتوب عنهم تائبين .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَتكُون فتْنةٌ ويكونَ الدّينُ لِلهِ فإن انتهوا فلاَ عدوان إلاَّ عَلَى الظَّالمينَ ﴾ (193)

و قاتلوهم إن مضوا فى كفرهم وعدوانهم ، دفاعاً عن دينكم حتى لاتكون فتنة بالأذى ولإخراج والعدوان وحتى يكون الدين لله حراً خالصاً فلا يدين مستضعف خوفاً للمستكبرين المشركين لأن تلك الفتنة فى الدين أشد من القتل . فإن انتهوا عن فتنكم وحملكم بالعدوان لتدينوا لمثل إشراكهم فكفوا عدواناً فهو لا يحق رداً على الظالمين العادين أولاً .

﴿ الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتدى عليْكُمْ فاعْتدوا عليْه بِمثْل ما اعْتدَى عَلَيْكُمْ واَتَّقُوا اللهَ واعْلمُوا أن اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (194)

عرف المكان كعرف الزمان ، الشهر الحرام يراعى بالمعروف فمن راعى أمنه إزاءكم فراعوه ولكن الحرمات قصاص وتكافؤ فمن اعتدى عليكم فيه فردوا عليه ولو فى ذات الشهر وبمثل قدر عدوانه قتالاً . والآية خاطبت المسلمين بالمقاصة العادلة العدوان بعد العدوان قتلاً وإخراجاً وقدر العدوان مدى ووقعاً . وحرمات أهلة وشهور القصاص . وهذه المساواة المنضبطة تحتاج للتقوى الدقيقة ، فجاء ختام الآية أن أمرت بالتقوى ثم ذكرت أن الله مع المتقين لا مع الذين يغضبون فيفرطون رداً وانتقاماً بغير ضابط .

﴿ وأنفقوا في سبيلِ اللهِ ولا تُلْقُوا بأيديكُمْ إلى التَّهلُكةِ واحْسنُوا إن الله يُحِبُّ المحْسنين ﴾ (195)

الآية أمر بالإنفاق لا على الفقراء هنا بل فى سبيل الله لتمويل تكاليف القتال والدفاع وحاجة المجاهدين فى سبيل الله الأمر الوارد سياقه ، ونهى وتحذير : إن أمسكتم عن الانفاق للدفاع ورد العدوان فإن أيديكم المنقبضة بالمال يُلقى بها إلى انهيار المجتمع فهلاكه ، فأنفقوا فى سبيل الله وابلغوا بذلك العطاء مقادير الإحسان فإن الله يحب المحسنين . الآية تختم سياق القتال والإنفاق دفاعاً لرد العدوان ، وهذه الآيات تبين وجوهه كافة للمجتمع حتى لايندفع نحو القتال بغير هدى مبادراً

بالعدوان أو ينخذل عن الدفاع لاسيما فى وجه عدو كان لهم عنده وطن ونسب ما دام قد حرمهم الوطن وحرية الدين لله ، وحتى لايحاذر المسلم ويرعى عرف الحرمة لمكان أو زمان إذا خرقه العدو أولاً ، وحتى لاييخل بتكاليف الدفاع والجهاد فيتورط فى الخسران .

﴿ وأتمُّوا الْحَجَّ والْعُمْرةِ للهِ فَإن أحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهدى ولاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهدى مَحِلَّهُ فَمَن كان مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بهِ أذى مّن رأسهِ ففِدْيةٌ من صيامٍ أو صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإذا أمنتُمْ فَمَن تَمتَّع بالعُمْرة إلى الْحَجّ فما اسْتيسر مِنَ الهدى فَمَن لَّمْ يجدْ فَصِيامُ ثلاثةِ أيامٍ فى الْحجِّ وسَبْعةٍ إذا رجَعْتُمْ تِلْكَ عشرةٌ كامِلةٌ ذلك لِمن لَّمْ يَكُنْ أهلُهُ حاضِري الْمسْجد الْحرام وأتّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أن اللهَ شديدُ الْعِقَابِ 0﴾ (196)

جاء التمهيد للحج بذكر المسجد الحرام وأمنه الآية 114 ، ثم بذكره إذ رفع إبراهيم قواعده (الاية 127) ، ثم بآيات قبلة الصلاة إلى المسجد الحرام إذ يولى المصلى شطره (الاية 144) ، ثم بذكر شعيرة الصفا والمروة للحاج والمعتمر (الآية 158) ، ثم يذكر الأهلة بعد صيام رمضان ومواقيت الحج (الآية 189) ، ثم بدأت هذه الآيات فى بيان هذه الشعيرة الثالثة فى أركان العبادة الصلاة والصوم والحج . والأمر خطاباً 'واتموا الحج والعمرة لله ' لزوم التمام مقابل النقص ، وقد كان الحج معروفاً فى الجاهلية لكنه كان ناقصاً غير خالص لعبادة الله ولامتوجهاً كله اليه ولا متكامل الشعائر عن بعض العرب ، كقريش التى لم تكن تتم شعائر الحج والعمرة مثل بقية الحجاج والعمار وإذا انعقدت التية تامة فأن أول ما قد يحول دون تمام الشعيرة الإحصار سد الطريق دون المسجد الحرام ، والحج رحلة فى الأرض وعبور لدور القبائل والشعوب لاسيما من يتمكن حول الحرم ، لذلك الحجاج والمعتمرون عرضة للإحصار مرضاً مقعداً فى الطريق أو حبساً إن تعرضوا للعدوان وحذره كما ورد فى الآيات السابقة ، فعندئذ ، عن أحصروا فعليهم ما استيسر من الهدى ، إن يذبحوا هدياً من الانعام فى سبيل الله وصدقة لإطعام عامة أبناء السبيل إلى الشعيرة حيث يستوى الجميع فى الطعام . وفى الخطاب للحجاج الذى يكملون الشعيرة بحلق الرأس – رمزاً للتطهر بالحج من كل عالقات الذنوب وخواطرها ، عليهم ألا يؤدوا تلك الشعيرة حتى يبلغ هديهم محله عند الحرم او أقرب ما يتيسر للمحصر. والذى يُضطر مرضاً او أذى فى الشعر ألا يحلق رأسه عليه فدية صيام ثلاثة أيام لاسيما عن كان لا يستطيع الصدقة أو صدقةً إطعام لنحو ستة مساكين من الحجاج ، أو نسكٌ وهو شعيرة ذبح حيوان للعامة . اما الآمن الذى ليس عليه إحصار ووصل باكراً فاحرم واعتمر ثم تمتع بعد الإحرام قبل أن يبدأ الحج عليه أيضاً أن يذبح ما تيسر من الهدى والمتمتع فإن لم يستطع أن يمكنه أن يصوم ثلاثة أيام اثناء الحج و سبعة إذا رجع أهله ، تلك أيام تتم جملتها عشرة كاملة ، جملت حتى لايتوهم أن المقصود ثلاثة تتم سبعاً لمرجعه بأربعة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام سكان منطقته فهو إنما يصوم العشرة كلها هناك . ويتوالى ذكر التقوى فى السورة فهو فى ختام

الآية مقروناً بالعقاب الشديد من الله ، لأن الإنسان قد يظن أن التكاليف قد كثرت عليه وشقّت بالغربة والصيام والصدقة والهدى وقد يضله الشيطان بأنه اعطى كثيراً ، كما أن الحج موسم تزاحم وتدافع بين المرء يحتاج فيه الانسان أن يذكّر بالتقوى من الوقوع فى محادة ومشاقة ،وتشدد عليه الذكرى بموعظة العقاب الشديد فى الآخرة .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وتَزَوَّدُوا فإن خَيْرَ الزَّادِ التَّقوىَ واتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (197)

العمرة كل العام وموسم الحج أشهر معلومات قليلة العدد ثلاثة : شوال وذو القعدة وبعض ذى الحجة ، فمن فرض على نفسه الحج فيهن فلا رفث ولا فسوق ولاجدال فى الحج . فالحج زحمة أعداد كبيرة من المسلمين وقد ذُكّر التقوى مع موعظة العقاب الشديد درءاً لمخاطر التزاحم والتدافع ونُهي هنا عما فيه من دواعى الرفث ، الكلام والفعل الزوجى ، أو الفسوق وهو الخروج إلى المعصية فى مجتمع كثيف الصلات المغرية بالحيل والتدابير ، والجدال والمحاجة والمناظرة بالكلام الذى لاطائل وراءه إلا محاذر الفتنة ببين أمة الحجاج المكانفين بالمؤاخاة الجديرة والموادة والسلام .

ودون هذا الرفث والفسوق والجدال ورغم إغراءات الشيطان به فهنالك فى زحمة الأخوة من المسلمين فى الحج أبواب للخير كثيرة مودات وصدقات فأقبلوا عليها فإن الله يحصيها ويعلمها ، وتزودوا بالخيرات والبركات فى صحبة المسلمين الحجاج – زاد مال وطعام يأتى به الحاج ويفيض به على إخوانه ، وزاد تعارف وتناصح وتشاور – كل ذلك زاد خير اذا روعيت فيه التقوى المرعية فى العلاقات فإن خير الزاد وأكثره من التقوى . وختام الآية :' واتقون ياأولى الألباب ' وصية من الله تبرز وجوهاً دقيقة للتقوى فى الحج تحتاج للتأمل والصدق من أولى الألباب ، و تذكير آخر مضاعف بالتقوى ، خير زاد للقاء الله .

﴿ لَيْس عَلَيْكُمْ جُناحٌ أن تبتغوا فضلاً مّن ربّكُمْ فإذا أفضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ فاذكروا اللهِ عِندَ الْمشْعرِ الْحَرَامِ واذكُرُوهُ كَمَا هَداكُمْ وإن كُنتُم من قبْلِهِ لِمنَ الضَّالّينَ ﴾ (198)

الآية ترفع الحرج عن المسلمين ألا يستشعرون فى التجارة مع الحج بالعرف من الجاهلية حين كان الحج غالبة تجارة ، ولكن تذكرهم أن لهم ما التزموا التقوى أن يبتغوا فضلاً من الله بصفقات التجارة وأرباحها وان يصلوا الله ذكر الله فى الحج مجتمعاً وسوقاً للمسلمين . فإذا افاضوا فيض اندفاع كثيف من جبل عرفات إلى المزدلفة أن يذكروا الله فى المشعر الحرام أرض مشاعر العبادة – الذى يغشاه الحجيج بعد مغيب الشمس ويتهيأ فى ظلمته مناخ فريد للذكر وجمع صلاتى العشاء . وفى الإفاضة من عرفات تذكر لهبوط آدم من الجنة إلى الأرض موطن البلاء فالحجاج ينزلون إلى أيام مجتمع وابتلاء تقتضى الذكر لله ونحو نهاية الحج يتكثف الذكر خاصة على نعمة الهداية التى جمعت كل المسلمين موكباً واحداً كتلة فائضة على صعيد واحد فى شعيرة تعبر عن وحدة المسلمين من كل الأرض يسعون

على صراط مستقيم إلى أهداف يولون شطرها معاً ويطوفون على محاور العبادة يكبرون الله ويحمدونه على نعمة الهداية التى وعد عبادة منذ هبوط آدم يتعهدهم بها ، يتذكرون الله وقد مستقيمين بالإسلام وكانوا قبل ضالين لكل وجهة هو موليها .

﴿ ثم أفيضُوا مِن حَيثُ أفاضَ النَّاسُ واستغفرُوا الله إن الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (199)

الحج عبادة تبث فى المسلمين شعوراً عظيماً بالمساواة فهم ، محرمين بلباس واحد هادين بطعام واحد وعاكفين وحول الشعائر فى مكان واحد ، يعبدون رباً واحداً . ولكن بعض الناس حتى فى الحج يلتمس لنفسه تميزاً وفق مرتبته الاجتماعية ، وقد كانت قريش لاتفيض من حيث أفاض الناس بل تقف بالمزدلفة دون عرفات . والامر فى الآية لتحفظ هذه المساواة والوحدة ظاهراً وباطناً وتكون إفاضة من عرفات نحو المشعر الحرام ثم إفاضة إلى منى لرمي الجمرات شعيرة من المسلمين يعدون لها الحصى كانهم يعدون الحجج أو السلاح ، فيرمون معاً الشيطان متمثلاً فى نصب رمز لقوى الكفر والضلال الكبرى أو الوسطى أو الصغرى . ثم توصى الآية بالاستغفار من أيما شعور أو سلوك بعدم المساواة بين الشعوب والقبائل أو بين الأمراء والكبراء والعامة أو بين الأغنياء والفقراء فى جماعة المسلمين الحاجة وأمتهم المتحدة عموماً . فالأمر هدى الا يسلك فردٌ أو فئة طريقاً يشذّ ، ولكن يدخل ويسير سواء مع الناس .

﴿ فَإذا قضيْتُم مّناسِكَكُم فاذكروا الله كذكْرِكُمْ ءاباءكُمْ أوْ أشَدَّ فَمِنَ النَّاس مَن يَقُولُ رَّبنا ءاتنا فى الدُّنيا وما لهُ فى الأخرة منْ خَلاقٍ ﴾ (200)

فإذت تمّ قضاء مناسك العبادة بالحج يصل المسلم ذكر الله لئلا ينقطع بل يكون قد تزود تعبداً وحضور وعى موصولاً بالله حيثما ومتى كان . وبعد قضاء الصلاة يجلس المصلى للتسبيح والتكبير والحمد والدعاء ، وبعد رمضان تقام صلاة العيد وترفع هتافات التكبير ، كذلك بعد انقضاء مناسك الحج يستمر ذكر الله والعبرة أن تظل الحياة كلها عبادة موصولة بالله لا تنقطع بعد موسم أو ساعة لأداء الشعائر ، فإنما الشعائر هى مرابط أو وجبات غذاء للحياة روحاً كلها فى الدين . وقد كان ذكر الآباء هو السائد فى الحج أيام جاهلية العرب حيث يجلسون فى أسواق الشعر يتفاخرون بالآباء والانساب . وفى اجتماع مختلف الناس قد يتمايزون ويتعارفون بنسبهم وانتمائهم وقومياتهم ، ولكن فى الإسلام الذكر فى المجتمعات لله أكبر والانتساب إليه لاينُسى بل هو أشد من ذكر الأصول الأهلية أو الوطنية . والذكر لله غيباً همّ بالمرجع إليه ، فمن الناس من يقول ربنا اتنا فى الدنيا ، من تكون دوافعه للحج وللحياة عامة دوافع الجاهلية أو الدهرية إذا ذكر الله سأله متاعاً أو تجارة أو شهرة فى الدنيا وما لمثل ذلك فى الآخرة من خلاق – نصيب ، لأنه لم يطمع فيها بسؤاله .

﴿ ومِنهُم مَّن يقُولُ رّبنا ءاتنا فى الدُّنيا حَسنةً وفي الأخرة حَسَنةً وقِنا عَذابَ النَّار ﴾ (201)

ومن الناس لاسيما الذين يجيئون إلى الحج قاصدين لمحور التوحيد والوحدة ويمسكون عن الرفث والفسوق والجدال ويفيضون مع سائر الناس ويتزودون بالتقوى مهما ابتغوا فضل تجارة ويذكرون الله كثيراً ، أولئك دعاؤهم عقب مناسك الحج أو أى عمل صالح ربنا آتنا فى الدنيا حسنة عاجلة وفى الآخرة حسنة آجلة وقنا خاصة سوء الآخرة وعذاب النار فيها .

﴿ أُولئك لَهُم نَصيبٌ مِّمّا كَسَبُوا واللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (202)

إن لم يكن للأولين الذين لايبتغون بالعمل والدعاء إلا الدنيا خلاق آجلاً ، فأولئك الآخرون لهم خلاق مما كسبوا بحج مبرور ودعاء جامع نصيبٌ عاجل وآجل ، والله سريع الحساب يحصى الأعمال ويحسب ما للإنسان وما عليه أسرع الحساب ويرتب عليه الاستجابة والجزاء فوراً .

﴿ واذكروا اللهَ في أيام مَّعْدوداتٍ فمن تعَجَّلَ في يَوْمَيْن فَلاَ إثم عَلَيْهِ ومَن تأخَّر فلا إثم عليْه لمنِ اتَّقى واتَّقُوا الله واعْلمُوا أنكُمْ إليه تُحشَرُون ﴾ (203)

يظل ذكر الله ودعاؤه ممتداً بعد الإفاضة ويوم النحر وعيد الأضحية ، الحجاج بمنى أيام التشريق يذكرون الله مكبرين فى أدبار الصلوات ، ويذكرونه فى رمى الجمرات وفى الطواف وفى الطرقات . من تعجل العودة لأهله فقضى فى منى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر وبقى ثلاثة أيام فلا إثم عليه فى طول الغياب عن أهله . لا إثم على الحاج الذى يبتغى بحجه وجه الله ويراعى تقواه فى أن يتاخر أو يتعجل . وما يزال يتكثف فى سورة التقوى ذكر التقوى وفى الشعائر و فى شعائر الحج خاصة . وتخاطب الآية المسلمين بعد تقواهم أن يعلموا أنهم محشورين إلى الله ومشهد الإفاضة فى شعائر الحج تذكرة بيوم الحشر الأكبر فالناس فى هيئة واحدة من زى الإحرام مثل الكفن مجموعون على صعيد واحد ملبيّن ينشدون رحمة الله و يعلنون الملك له وحده .

﴿ ومِنَ النَّاس من يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياة الدُّنيا ويشْهدُ اللَّه عَلَى ما في قَلْبهِ وهُوَ ألدُّ الخِصام ﴾ (204)

الآيات بعد الحَجِّ تذكر أن مجتمع الناس على صعيد واحد قد لايكون مثل محشر الحجاج المتقين . فالمجمع فى الحج عهد نزول سورة البقرة لايجمع من هم جميعاً موّحدّون متقون تسود بينهم المؤاخاة والمساواة والإحسان بل قد يتباينون أناساً يذكرون آباءهم وينسون الله الا دعاءه حسنة فى الدنيا وآخرون ذاكرون يبتغون الآخرة عبر الدنيا . كذلك فى مجتمع الناس عموماً منهم من يُعجب قوله فى الملأ بمعايير الدنيا ، كالشعراء الذين تعلّق قصائدهم فى الكعبة أيام الجاهلية أو اصحاب الخطب الزائفة بفخر الآباء ، ولكن الذين يقولون غير الذي فى نفوسهم مما يعلم الله ويشهدون عليه يقومون فى ظاهر الجمع موالين ولكنهم فى الباطن ألد وأشد الناس خصاماً للآخرين .

﴿ وإذا توَلَّى سَعَى في الأرْضِ ليُفْسِدَ فِيهَا ويُهلِكَ الْحرْثَ والنَّسْلَ و الله لاَ يُحِبُّ الْفسَادَ ﴾ (205)

وإذا قيست الأعمال إلى الأقوال افتضحت الخطب التى تعجب وتُرجّى بالصلاح فى التجمعات فهؤلاء الألداء فى الخصومة بقلوبهم بينقضون أقوالهم إذا توّلوا عن الجمع ويسعون نشاطاً فى الأرض بالفساد والهلاك لمزارع الناس وأولادهم ، والله يحب الذاكرين الصالحين ولكنه لايحب هؤلاء ولا ينخدع لأقوالهم فالله لايحب الفساد .

﴿ وإذا قِيل لَهُ اَتقِ اللهَ أخذتهُ العِزَّةُ بالإثمِ فحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ولبئسَ المهَادُ ﴾ (206)

هَؤلاء المفسدون فى الأرض الساعون بالهلاك إذا ذكروا بأن خير الزاد التقوى فى علاقات مجتمع الناس كما تُزكّى الصالحين آيات الحجج ، وإذا نُهو عن التعّزز وأُوصوا بتقوى الله حتى ينتهُوا عن الفساد لا يستجيبون ، يستفزهم التذكير إذ تاخذهم وتحملهم العزة والاستكبار ماضين متمادين فى الإثم ، فهؤلاء حسبهم لا يكفيهم منتهى لإثمهم الا عاقبة جهنم . ولبئس البساط فى الآخرة .

﴿ ومنَ النَّاس من يَشري نفسهُ ابتغاءَ مرضاة الله واللهُ رءوفٌ بالْعبادِ﴾ (207)

ولكن بين الناس فى الصّورة المقابلة لأولئك الخصِمين الساعين بالفساد والإثم من يبيع نفسه وقوته وعزته ومصلحته الدنيوية فى سبيل مرضاة الله ، والله رؤوف بعباده لايقسو بالتكاليف فى الدنيا ليبيعوا أنفسهم مقابل جميل الله خلقاً لهم ورزقاً دون عوض فى الاخرة بل يرأف بهم ويرحم وينعم بالثواب .

﴿ يا أيها الَّذين ءامَنُوا ادْخُلُوا فى السّلْمِ كَافَّةً ولا تتَّبعوا خُطُواتِ الشيطان إنه لَكُمْ عدوٌ مُّبينٌ ﴾ (208)

خطاب للمؤمنين أن يدخلوا جميعاً متحدين في الإسلام والسّلام والطاعات تزكيهم وحدة الحج وشعيرته ويتوالون أمناً وصلاحاً وألا يتبعوا خطوات الشيطان عدوهم يصرف نفوسهم وذات بينهم عن البر والخير والتقوى ويدعوهم إلى ما يشقق المجتمع بين منافق خصم فاسد ومؤمن مسالم صالح .

﴿ فإن زَلَلْتُم مّن بعْدِ ما جاءَتْكُمُ البيّناتُ فاعْلَمُوا أن اللهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ (209)

تحذير للذين آمنوا ألا يزلوا عن السلم بعد ما جاءتهم بينات الوصايا ، وفى ذلك إشارة بعيدة لمن يخرج من السلم وتقواه اللازمة ويرتد بوساوس الشيطان فساداً ن لكن التذكير بأهل الكتاب الذين زلّوا بعد البينات والهدى ، وفيه نذير بأن يعلم الذين يزلون أن الله عزيز حكيم ، العزة كلها له وحكمته تنزُّل أحكامه وأقداره على الناس فهو سبحانه قوى قاصد للزالين .

﴿ هَلْ يَنظُرونَ إلاّ أن يأْتِيَهُمُ اللهُ فى ظُلل مّنَ الْغمام والملائكةُ وقَضِيَ الأمْرُ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ ﴾ (210)

أولئك الذين زلوا بعد البينات الواضحات إذ صرفتهم أهواء الدنيا ومشهوداتها إلى الفساد لا الصلاح ماذا ينتظرون بعد ذلك من مصير سوى أن يأتيهم الله فى أقداره العظيمة تتجلى من وراء الغيب فى

ظلل من الغمام وتأتيهم الملائكة حشوداً لقوى الله الروحية يوم يكون قد قُضى الأمر بكاسحات القيامة ورجع كله وحشر الناس كلهم إلى الله .

﴿ سَلْ بنى إسْرَاءِيلَ كَمْ ءاَتْينَاهُم مّنْ بيّنةٍ ومَن يُبدلْ نعْمَةَ اللهِ من بَعْدِ ما جاءتهُ فإن اللهَ شديدُ العْقابِ ﴾ (211)

السياق متصل والخطابُ للرسول (ص) عبرة ألا يزل الذين آمنوا بعد الثبات على بينات الغيب والهدى المنزل ينتظرون الآيات المشهودة ، وليسأل بنى اسرائيل عن كثافة الآيات البينات المادية المعجزة التى جاءتهم وزلوا بعدها ، ومن يبدل نعمة الهداية وهى أكبر النعم من بعد ما تلقّاها فإنه لا ينتظر إلا قدر الله ذى العقاب الشديد تحيط بهم ظلل الغمام والملائكة ويقضى أمر القيامة رجوعاً إلى الله .

﴿ زّينَ للّذين كَفرُوا الْحياةُ الدُّنيا ويسْخَرُونَ مِنَ الّذينَ ءامَنُوا وَالّذين اتّقَوْا فَوْقهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَاللهُ يرْزُقُ مَن يَشاءُ بغَيْر حسَابٍ ﴾ (212)

كما يتقابل الناس متعززاً آثماً بالفساد فى الأرض وداخلاً فى السلم مع المؤمنين كافة ، يتقابلون طبقات فى الرزق منهم الذين كفروا زينت لهم بشهواتهم الحياة الدنيا يتعلقون بها فاتنة عاجلة ويحرصون عليها ويبيعون لأجلها الدِّين والآجلة ، من جاءتهُم البينات وزلوا ويسخرون من الذين آمنوا لمقارنة أحوالهم الأدنى رزقاً فى الدنيا الاقتصادية والاجتماعية . لكن المتقين من الذين آمنوا فوقهم بمقارنة الأحوال يوم القيامة . وهؤلاء الذين تعلقوا بزينة الحياة الدنيا واستبدوا بها واحتقروا المؤمنين ينبغى أن يتذكروا أن الرزق كله من الله وهو يرزق بغير حساب وأن هؤلاء الذين يسخرون منهم فى الدنيا هم فوقهم يوم القيامة يوم يجزيهم الله رزقاً ونعيماً فيكونون فوقهم درجات وهم تحتهم فى النار دركات .

﴿كان النّاسُ أُمةً واحدةً فَبعثَ اللهُ النّبيّن مُبشّرين ومُنذرين وأنزل مَعَهُمُ الْكِتابَ بالْحقّ ليحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فيهِ وَمَا اختلفَ فيهِ إلاّ الذّين أُتوهُ من بَعْدِ مَا جَاءتهُمُ البَيّناتُ بغْياً بَيْنهُمْ فَهَدَى اللهُ الّذين ءامَنُوا لِمَا اخْتَلفُوا فِيه من الْحقّ بإذنه واللهُ يهدى من يشاءُ إلى صراط مُسْتقيم ﴾ (213)

إن الوحدة (التى تتمثل بين المؤمنين فى الحج) هى أصل المجتمع الإنسانى الفطرى لكنه بابتلاءات الدنيا يقع فيه الخلاف فالتعزز بالأثم فساداً أو التأخر ممن فتنتهم حظوظ زينة الحياة الدنيا إلا أن تدركهم نعمة الله الهادية للسلم والتقوى فالوحدة . وذلك وعد لبنى الإنسان من الله منذ مهبط آدم ان تأتينهم البينات هدى من الغيب وحياً . فمنذ آدم وأسرته كان الناس أمة واحدة على دين الحق ثم اختلفوا ثم بعث الله الأنبياء مبشرين للذين يقبلون الهدى ومنذرين للذين يكفرون وأنزل معهم الكتاب ، فكل النبياء يوحى إليهم ويجيء معهم الكتاب بالحق من الله الحق ميزاناً وفرقاناً يحكم بين الناس فيما

اختلفوا فيه بابتلاء الهواء على الدنيا وحظوظها والفتنة بين لدود الخصام الفاسد والذى يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله وبين الكافر المفاخر بزينة الدنيا والمؤمن التقى . وما وقع الزلل وما أُوتى الناس الخلاف بينهم إلا بعدما جاءتهم البينات الهادية بميزان الحقوق وعدل العلاقات ، انما ورطوا فى الخلاف بعد البيان بغلبة روح البغى والظلم وفتنة الشيطان ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، فقد كانت بينات الكتاب هداية لهم بالحق وتسوية عادلة وتوحيداً للقلوب بعد بلاء الخلاف ، وذلك بإذن الله الذي يهدى من يشاء من بنى الإنسان إلى صراط مستقيم من الوحدة والعدالة .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أن تدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يأْتِكُم مثَلُ الذين خَلَوْا من قَبلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذِينَ ءامَنُوا مَعَهُ مَتَى نصْرَ اللهِ ألاَ إن نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ (214)

إن المفارقة بين أهل الخصام والفساد والعزة بالإثم والشارين لأنفسهم ابتغاء مرضاة الله ، وإن العلاقة بين الكافرين الذين يتزينون بالدنيا ويساخرون والمهتدين والمؤمنين المتقين ، وإن الاختلاف بين البغاة الزالين بعد البينات والمؤمنين بالكتاب الثابتين على الحق ، ان ذلك ينتهى إلى الصراع فى الدنيا حتى يحكم الله فيها بنصر قريب أو يفصل بينهم يوم القيامة . هل اعتبر المؤمنون المخاطبون بذلك وبمصائر الذين خلوا وسبقوا من الناس المختلفين كذلك ، أم حسبوا أن مسيرة الحياة للمؤمنين فى دنيا نعمة وسلامة وسكون حتى تؤول إلى دخول الجنة فى الأخرى أن يتعرضوا للخلاف مع الكافرين بل لتفاقمه صراعاً وقبل أن يأتيهم من ثمّ مثل ما أُوتى الذين خلوا ومستهم البأساء قتالاً والضراء أذى فى اموالهم وانفسهم وزلزلتهم الأ على منهجهم وزلزهم مضطرباً باقوالهم الاضطهاد وطال عليهم البلاء كذلك حتى يتساءل الرسول القائد والذين لأ على منهجهم وزلزلهم مضطرباً باحوالهم الاضطهاد وطال عليهم البلاء ، كذلك حتى يتساءل الرسول القائد والذين آمنوا معه متى يأتى نصر الله فرحاً وفتحاً ؟ لاسؤالاً عن أجله لكن تعبيراً عن الجزع والاسيئاس . وختام الآية طمأنة للمؤمنين المستيئسين أن نصر الله قريب وأن يصبروا ويتوكلوا على الله حتى تأتيهم البشرى . الخطاب للمسلمين أن يعتبروا بقصص الخلاف والصراع ألا يستيسئوا من تطاول وقع البلاء عليهم فى اول عهد الحصار والجهاد فى المدينة وأن يصبروا واثقين أن النصر قادم قريباً فضلاً عن رجاء الجنة مكتوبة لهم فى الآخرة .

﴿ يَسْئلُونكَ ماذا يُنفِقُونَ قُلْ ما أنفقتُم مّنْ خَيْرٍ فللوالدينِ والأقربين والْيتامى والْمَسَاكين وابْنِ السَّبيل وما تَفعَلوا مِنْ خَيْر فإن اللهَ به عَليمٌ ﴾ (215)

مع هدى الشعائر للمؤمنين صلاة وصياماً وحجاً يتوحدون بها كان يأتى ذكر الإنفاق الموحد موصولاً يتوجه الصلاة براً (الآية 177) والصيام فدية وفى سبيل الجهاد حول حق الفرقان المنزل فى رمضان الآية (184 والآية 195) وبالحج هدياً للفقراء الحجاج (الآية 196) . وبعد بيان بلاءات وحدة الناس بالايمان من فتن دنيا وتساخرها وتفاخرها يأتى ذكر الإنفاق فى هذه الآية هداية

لمجتمع المسلمين المتحد بالمكافلة غير المفتون بزينة الدنيا وكان الإنفاق كذلك أول مسألة اتصلت بما سبق تُهئ المجتمع للبذل والإنفاق مع الصبر مجابهة للبأساء والضراء . 'ويسألونك ' لأن مجتمع المسلمين فى المدينة كان يسأل الرسول ﷺ ماذا ينفقون من أموال فى تلك الأحوال وخواطب الرسول ﷺ أن الذى ينفقونه كله خير لمن أصابتهم الضراء حملاً لتكاليف إيواء وخدمة ورزق لمن فى الأسرة من الوالدين والأقربين واليتامى أو عطاءً وعوناً للمساكين وابن السبيل . وقد رتبت الآية المحتاجين المستحقين وفق درجاتهم ولاية للمنفق وأولوية لوفاء الحاجة كما يجمع الأمر فى الزكاة . وفعل الخير يعلمه الله كيفما كان ، والسياقات كلها فى القرآن تشير إلى أن الصَّدقة خير يعلمه العليم سراً وعلناً .

﴿كُتبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وهو كُرهٌ لكُمْ وعسى أن تكْرَهُوا شيْئاً وهُو خَيْرٌ لَّكُمْ وعسى أن تُحبوا شيئاً وهُوَ شَرٌّ لكُمْ واللهُ يَعْلمُ وأنتم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (216)

ورد القتال جهاداً موصولاً بالشعائر ، المؤمنون صف بالصبر والصلاة يقاتلون من يخالفهم القبلة (الآية 153) ، وهم كذلك صياماً وصبراً وفرقاناً وجهاداً (الاية 190) وفى الحج سفر فى الأرض وتعرض لإحصار (الآية 196) ، والبر منهج إيمان وتدين شامل منه الصبر حين البأس (الآية 177) . والسياق متصل هنا خطاباً للمجتمع المسلم بالقتال حيث تمسه البأساء بعد الإنفاق حين تمسه الضراء . وقد كتب لقتال هنا فى أول عهد المدينة منزل السورة بعد أن ذكر فى مكة تهيئةً (سورة المزمل الآية 20) ولكن كف المسلمون عنه حتى أُذن وفرض . ومهما يكن القتال تكليفاً غير محبوب لأول عهده فقد خُوطب المؤمنون أن عسى أن يكرهوا شيئاً وهو خير لهم وعسى أن يحبوا شيئاً وهو شر لهم . وفى الآية هداية عامةٌ فى همّ المجتمعات ، فقد يكره المجتمع التكاليف الثقال والقتال أشدها وأكرهها إلى النفس ولكن الله كما جعل فى القصاص حياة للمجتمع جعل فى القتال فى سبيل الله حياة وخيراً كثيراً رغم وقعه المؤلم على النفس ومخوفاته ضراً عاقباً . وقد يحب المجتمع تكليفاً لعاجل وقعه وظاهره وهو شد فيما وراءه ، ' والله يعلم وانتم لاتعلمون ' ، فالمجتمع قد يحجبه عن تقدير الاجلة مصيراً وشعوراً العلم القاصر المباشر بمنافعه العاجلة ومشاعره الحاضرة ، ولكن الله الذى أمر بالقتال علمه فوق كل علم .

﴿ يسْئلونك عَنِ الشَهرِ الْحَرَامِ قِتالِ فيه قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سَبيل اللهِ وكُفرٌ بهِ والْمسْجِدِ الْحَرَامِ وإخْراجُ أهلهِ مِنه أكبر عند الله والْفتْنةُ أكْبرُ من الْقتْلِ ولاَ يَزالُونَ يُقاتُلُونكُمْ حتَّى يرُدوُّكُمْ عَن دينكُمْ إن اسْتطاعوا ومن يرْتدِدْ مِنكُمْ عن دينه فَيَمُتْ وهُوَ كَافِرٌ فأولئك حَبطتْ أعْمالهِمْ فِي الدُّنيا والأخِرةَ وأولئك أصحاب النَّارِ هُمْ فِيها خّالِدون ﴾ (217)

ومن تساؤلات حرج التكاليف على المجتمع سؤاله النبى ﷺ هل يلاحقهم فرض القتال فى الشهر الحرام وهو أصله كره لهم والشهر الحرام عرف سلم يجعله فيه أكره . والإجابة عن السؤال المتبرم عن القتال فى الأشهر الحرام أن نعم القتال فيه أمر كبير عند الله للخروج من عرف السلام فيه ، ولكن

رغم كبر الأمر الصدُّ عن سبيل الله والكفر بالله وإخراج أهل المسجد الحرام من ديارهم وإحصارهم عن الحج كما حدث للمسلمين أمر أكبر وأخطر عند الله والفتنة أكبر من القتل ، أن يضطهد المؤمن ليكره على الردة أكبر من أن يُقتل فقد يمضى إلى ربه مرضياً . فلا تحتجوا بحرمة الشهر عرفاً وترغبوا عن القتال فيه دفاعاً . والخطاب يتصل فى الآية شديداً على الذين استنكروا القتال فى الشهر الحرام ولو دفاعاً ، يُذكرهم أن الكافرين لايزالون يقاتلونهم ليصدوهم ويردونكم عن دينكم لايرعون أية حرمة او حرية ولا يريدون للمؤمنين إلا فتنتهم ان استطاعوا ذلك بهم . والآية تذكر المؤمنين وتخاطبهم فى هذه المحنة أن من يرتد منهم عن دينه فتنةً ويمت على الكفر فإن جزاءه إسقاط أعماله التى كانت صالحات قبل الردة ، إحباطاً بغير ثمرة صلاح فى الدنيا ولا فلاح فى الآخرة وأولئك أصحاب النار خالدين فيها ، بينما إذا قاتل المؤمن فى الشهر الحرام مدافعاً ثابتاً على دينه مضى بصالح عمله منتصراً فى الدنيا أو شهيداً إلى الله مرضياً .

﴿ إن الَّذين ءامنُوا وَالذّين هَاجرُوا وَجَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ أُولِئكَ يَرْجُونَ رحْمتَ اللهِ واللهُ غفورٌ رَّحيمٌ ﴾ (218)

فى الآية مُقابلة للمعانى التى حوتها الآية السابقة ، فالذى يخشى الكافرين ويرتد عن دينه ويموت وهو كافر يقابله تاكيد إن الذين ثبتوا على الإيمان رغم محاولات الصد وهاجروا ولو أخرجوا من أهلهم عند المسجد الحرام إلى دولة المدينة المؤمنة ثم جاهدوا فى سبيل الله دفاعاً عن الإسلام ، أولئك ما حبطت أعمالهم وخابوا بل يرجون رحمة الله فى الدنيا ويوم القيامة والله غفور رحيم لأيما زلزلة عارضة تصيب المؤمنين من كيد الكفار .

﴿ يسْئلُونكَ عَنِ الْخمْرِ والْميسر قلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناسِ وإثمهما أكْبَرُ من نَّفْعِهِمَا ويَسْئلُونَكَ ماذا يُنفقون قُل الْعفْوَ كَذلِك يُبيّنُ اللّهُ لكُمُ الأياتِ لَعَلَّكُمْ تَتفكَّرُونَ ﴾ (219)

يتصل السياق بسؤال آخر من أسئلة المجتمع فى الأمور الهامة فى حياته حيث تصريف الأموال لا إنفاقاً فى سبيل الله ومجاهدة للكافرين المعتدين ولا تكافلاً بين المؤمنين بل فى الخمر والميسر والإجابة للرسل ﷺ أن يخاطب السائلين إن فيهما إثم كبير وفيهما منافع يبتغيها الناس دفعتهم غليها وإلى التساؤل عن حكمها وإثمها أكبر من نفعها .

الآية تحرم الخمر بحيثيات تشرح للناس ليزدادوا إطمئناناً ذلك أن نفعها روحه لهوٌ وأكبر منه إثمها : فوت العقل سكراً والغفلة صداً عن ذكر الله فترة وإضاعة المال إفساداً للصحة وخطر البغضاء بين الناس ، وان القمار إثمه أنه كسب بغير عائد أو نيل بغير جهد أو رضى معاملة بل حظ صدفة أو خسران حسرة وتباغض ولئن كان تحريم الخمر والميسر يوفر مالاً كان يُرمى به تلهّياً أو تحظياً لمكسب فقد جاء سؤال المجتمع عن ماذا ينفقون من مالهم المتوافر بتحريم ذلك ، فأُوصى الرسول ﷺ أن يخاطبهم أن ينفقوا مازاد عن حاجتهم عفواً متروكاً بعد أخذ الحاجات . كذلك بيّن الله احكامه لهذا

المجتمع الذي يتساءل عن إنفاقه المال ، ويخاطبون: لعلكم أهل العاجلة تتفكرون فى الابتلاء بالمال رزقاً لامتاع الدنيا وحاجاتها فقط ولكن بهدى الآيات لمتاع الاخرة وحاجاتها أجوراً مضاعفة على الانفاق فى سبيل الله . ويصل ذيل الآية رأس الآية التالية تمماماً للمعنى فيما سبق وما لحق ، ، وتماماً لمقدم العمل الصالح فى الدنيا بعاقبته فى الاخرة .

﴿ فِى الدّنيا والأخرةَ ويسْئلُونكَ عَنِ الْيتامَى قلْ إصلاحٌ لَّهُمْ خيْرٌ وإن تخالطُوهُمْ فَإخوانكُمْ واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ من الْمُصِلح ولوْ شاء الله لأَعنتكُمْ إن الله عزيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (220)

الدنيا والاخرة موصولتان بالتفكر الرشيد المرجو لدى المؤمنين فى ذيل الآية السابقة . والسؤال التالى فى هذه الآية عن اليتامى فى المجتمع ويجئ مرتبطاً بسياق الإنفاق والمال . والجواب أن الإصلاح لأمور اليتامى خيرٌ عند الله ، وإن ولى اليتيم قد يخالط مال اليتيم بأن يأخذ منه لحاجته هو بالمعروف أو يجمعه مع ماله فى التجارة والمعاملات ، وذلك مما يستدعيه التوالى والتآخى فى الدين ، لأن مال اليتيم قد يضره التعطيل وتعطيل الأموال قد يضر ولاية اليتيم والمجتمع . وإن مخالطة مال اليتيم أمر يحتاج للدقة والتقوى لاسيما أنه صغير لايدرى ولايملك ضبط وجوه التصرف فى أمواله . ولكن الآية تذكّر المؤمن ولي اليتيم إن الله رقيب يمايز يعلم المفسد بمال اليتيم يأكله إسرافاً أو ظلماً أو يضيعه من الذى يتولاه بالاصلاح . ولو شاء الله لجعل ولاية أمر مال اليتيم عنتاً ضيقاً عليكم فيمنعكم بتاتاً عن المخالطة أو التصرف فيه ويوقع عليكم التكلفة ، لكن اليتيم فى كفالتكم والله يبيح المخالطة لصلاح اليتيم والولي ويبيح للولى الفقير ان يأكل بالمعروف على ان يستعفف الغنى . ويتأكد الخطاب للمؤمنين فى هذه المسألة إن الله عزيز يتولاكم كما تتولون اليتيم ولو شاء لأعنتكم ، وحكيم بوصيكم بالإصلاح والمخالطة دون إسراف وفساد .

عموم المعاني الآيات190–220

سبق ذكر رمضان شهر نزول القرآن الفرقان بين الحق والباطل وعيد الاحتفال به صياماً عن الشهوات وإقداماً على فرائض الدين ولو كانت كرهاً . وقد وافى رمضان فى أوائل سيرة دولة الإسلام تصديق القرآن عملاً يوم الفرقان – معركة بدر – المدافعة والمجاهدة الأولى لتمكين الدين التى جادل فيها كثير من المؤمنين وهم كارهون ، وكانت عى المفاصلة الحاسمة بين أهل الحق وأهل الباطل . وبقى رمضان شهر جهاد صوم وقتال فتحت فيه أخيراً مكة المنزل الأول للقرآن والمركز الدينة للملة الإبراهيمية وحيث مولد الرسول ﷺ والمسجد الحرام قبلة الصلاة، ومن بعد وقعت المسلمين فى رمضان معارك كفتح مكة كمعركة عين جالوت التى دحرت المغول عن دار الاسلام . وسيظل رمضان كذلك .

ولذلك نزلت الآيات التالية لذكر رمضان والصيام شريعة للمبادئ العامة التى تخاطب مجتمع المسلمين الأول فى المدينة ، ومن بعد فى شأن القتال دفعاً للعدوان وفى سبيل حرية الدين . فالمسلمون دعاة فى سلام لا يبادرون بالإكراه أو العدوان ، أما إذا بادرهم عادون فالجهاد فريضة يقاتلون لرد الاعتداء بقدر ما كان ولوقته متى كان مجاهدة سواء ضابطها التقوى ودافعها درء الفتنة وحماية الحرية . فإذا انتهى العادون تبدلت علاقات الظلم الآثم . وعلى المسلمين أن ينفقوا محتملين تكاليف الحرب حذر الهلاك .

والسعى سلماً ودفاعاً عبر الأرض وأهلها سنة المسلمين ، لكنه يتوجه شعيرة عبادة نحو البيت الحرام مثابة الأمن ومحور الوحدة ، وربما يعوقه أحياناً الإحصار من عدو أو العجز أو المرض . ولكن المسلمين يتوحدون فى كل صلاة بتصويب القبلة نحوه ويسعون ما استطاعوا لتجتمع وفودهم حوله عمرة أو لميقات كل عام حجاً . وهم هناك فى مقام واحد شعارهم فى جماعة وقيامهم بزى واحد وطعام واحد ولو بالهدى بالمتوافر وعلاقتهم كلها طهر وسلام وخير ووحدة ويفيضون سواسية فى موكب عام وحتى قبل حجة الوداع للنبى ﷺ إذ كان الحج موسماً دينياً عرفياً يجمع كل العرب قبل أن تتوحد به أمة الإسلام والحج مجمع عبادة لابأس فيه بالمعاملات المالية ابتيغاء فضل الله لكن مساعية كلها عامره بالذكر والتقوى .

الحج لقاء توحد وتساو بين المسلمين لكنه مجتمع جمهور من الناس لاسيما فى عهود اختلاط المسلمين والمشركين قبل حجة الوداع أو فى عهود انحطاط الدين حيث يختلط فيه كل المنتسبين للإسلام . فالناس عندئذ لايوحدهم جميعاً الإيمان الخالص بل يختلفون ويتمايزون . فمنهم من لايرجوا فى حجته ودعوته إلا الدنيا ومنهم المؤمن الذي يطلب الآخرة عبر الدنيا . ومنهم من يُرْضِي بكلامه الجماهير لكنه يتولى إلى فساد وخراب عن خصومه وغرور . ومنهم المخلص الذى يبيع نفسه لمرضاة الله . بل كل جماعة المؤمنين المخلصين الموحدين سواء هم أيضاً عرضة لزلة اختلاف وتمايز حيث تشقق وحدتهم فتنة لشيطان كبني إسرائيل الذين زلوا وبدلوا لاينظرون إلا أن يقضى بينهم حكم الله يوم القيامة . إن الكافرين الذين تفتنهم الدنيا وزينتها يسخرون فى مجتمع الكافة من المؤمنين المستتضعفين لكن هؤلاء المتقين هو الأعلون فى ميزان الآخرة ورزقها .

إن عبرة سنن التاريخ الناس ولو كانوا أمة واحدة عرضة لفتنة اختلاف لاتحكمها إلا رسالة السماء المتجددة . والبلاء مستمر فى الدنيا فقد ترتد بهم الفتنة خلافاً وبغياً بعد البينة . لكن المؤمنين هم المهتدون الثابتون على صراط مستقيم . وفي سنن الدين لا فلاح لهؤلاء حتى يمتحنوا بالبأساء والضراء والزلزلة فى وجه الكافرين يكادون يستيئسون من نصر الله القريب . وفى الضراء الإنفاق ولو عسراً لذوى القربى والحاجة خير لوحدة المؤمنين .

وحين البأس كتب على المؤمنين القيام صفاً للقتال ولو كرهاً فإن وراءه خير ، وكم من حب فى الدنيا وراءه الشر . ومهما يكن القتال محرماً بالعرف فإن الدفاع فيه لازم لأن التشريد والفتنة أكبر حرمة عند الله لخطر الردة التى تحبط المصير . لكن من مضى فيهم التدين إيماناً وهجرةً وجهاداً هم الراجون لرحمة الله . أما فيما بين المسلمين فالتراحم ورشد معاملات المال أولى مهما كان ابتغاء اللهو وخطوة الكسب يغرى بمنافع الخمر والقمار فاثمهما اكبر من بعض المتاع فيها مهدرةً للوقت ومهلكةً للمال ومفسدةً لذات البين ، وعليهم أن يرعوها بإنفاق العفو من أموالهم لا إتلافه فى المأثم ، وعليهم رعاية ذات البين خاصة إزاء من يليهم من اليتامى الأضعفين فيه إصلاحاً لحالهم لايتكلف العنت بل مخالطة لهم فى أموالهم بالمعروف إخوة .

ترتيل المعاني: الآيات 221–242

﴿ ولاَ تنكِحوا الْمُشرِكات حَتَّى يُؤمنَّ ولأمَةٌ مُؤمنةٌ خَيْرٌ مّن مُّشركَةٍ ولوْ أعجبتكْمْ ولاَ تُنكحُوا المُشركينَ حَتَّى يُؤمنُوا ولعبْدٌ مُّؤْمنٌ خَيْرٌ من مُّشْركٍ وَلَوْ أعْجَبَكُمْ أولئكَ يدْعُونَ إلى النَّار واللهُ يدْعُوا إلى الْجَنةِ والمَغْفِرةَ بإذِنه ويُبَيّنُ ءايَاتِهِ للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذكَرُونَ ﴾ (221)

الآيات تتوالى فى الإجابة على أسئلة المجتمع فبعد ذكر الإنفاق العام جاء ذكر الانفاق مع اليتامى حيث ينكسر إطار الرعاية الأسرية فى المجتمع ومعاملات المال بأثر موت الآباء ويتم الذرية ، وهنا يستمر ذكر علاقات الأسر التى تؤسس بالنكاح لكن فى سياق حدود الإيمان وبناء الاسرة على رشده لاعلى الشهوة والعرف فأهل الجاهلية العربية هم المشركون فى مصطلح القرآن ، وكثير فى مجتمع المدينة المسلم المهاجرون كانوا موصولين بقرابة من مشركي مكة أو القبائل المشركة فى الجزيرة العربية والأعراف الاجتماعية تدفعهم للزواج فى ذوى القربى ولكن المخالطة مع الشرك بالأسرة والنسب فتنة للمتزوج ولأهله ولذريته ولذا حرمته الآية . والأمة المؤمنة خير للمتزوج ولبيئة الأسرة من المشركة ولو كانت حرة يفضلها العرف على بنت الرق ولو أعجبتكم المشركة بحسنها أو لأى سبب كذلك حرم عليهم ألا تزوجوا المشركين من نسائكم المؤمنات لئلا يتخالط في أسرة الشرك والإيمان وإن العبد الأسير المؤمن أفضل من الحر المشرك ولو أعجبكم كسباً أو نسباً أو جاهاً . وخير أن تتزاوجوا بالأمة أو العبد المؤمن لبناء أسرة مؤمنة مباركة حياة وذرية ، والزوج المشرك يدعو وقد يفتن الطرف المؤمن ويرده عن دينه ويسوقه إلى النار ، والله يحرمه لتكون علاقات الأسرة من دعوة الله إلى الإيمان والجنة والمغفرة بإذنه تعالى . والآية فرع من قاعدة عامة فى إخراج مجتمع المؤمنين من الجاهلية إلى الإسلام من الموالاة التى يعقدها الزواج أو تفرضها القرابة أو وشيجة المصلحة أو سابق المواطنة تميزاً وتبرؤاً نحو التوالي فى الله والإسلام ولو دعا التمايز بعد الهجرة على المفاصلة والجهاد .

﴿ ويسْئلُونكَ عَنِ الْمَحيضِ قُلْ هُوَ أذى فاعْتزِلُوا النِسَاءَ فى الْمَحِيضِ ولا تقْربُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْن فَإذا تَطهَّرْن فأْتوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمركُمُ اللهُ إن اللهُ يُحبُّ التوابين ويُحبُّ الْمُتطّهِرِينَ ﴾ (222)

الواو فى مبتدأ السؤال لتوالى الاسئلة عن شؤون المجتمع والمضى فى السياق الى شئون الأسرة بعد آثار اليتم   وحد مدى التزاوج بالإيمان وهنا حدود المرغبة النكاحية لإعمار الزوجية شهوة وذرية . والسؤال من المؤمنين عن الموقف من المحيض ، والإجابة من الوحى للرسول ﷺ ليبلغهم أن المحيض أذى لنظافة الجسد   وصحة المزاج وينبغى أن يتجنبوا إتيان النساء أثناءه مهما أغرت الشهوات حتى ينقطع دم الحيض ويتطهرن نظافة منه ، وعندئذ ليرجعوا ويأتوا النساء للوقت والوجه الطاهر الذى أمر الله به مباحاً ،فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . وذلك تذكير للمرأة والرجل بأن المحيض والعزلة عنده ما هما بأمر مادى وطبى فحسب ولكن العزوف فى حال أذى ثم العود للمباح والغشيان ثم التنظيف هما بنية التعبد لله توبة بعد كل وقفة للصراط المستقيم وتطهر بعد كل تنجس وذلك كما فى شأن العود بعد النجاسة إلى التطهر غسلاً ووضوءاً إقبالاً على الصلاة فالاية تذكير بأن يصل المسلم غسله لظاهر أعضائه طهارة لأبعاده الباطنة محل الإيمان والتقوى عوداً إلى كل مطلوب أو مباح بعد الكفّ أو الصوم عنه لغاشى النجاسة وأوبة للمسلك الطاهر وتقصّد آثاره ببركة الله الذى يحب المتطهرين الأوّابين .

﴿ نِسَاؤكُمْ حَرْث لَّكُمْ فأْتوا حَرْثكُمْ أنى شِئْتُمْ وقدّمُوا لأنفسكم واتَّقوا الله واعْلمُوا أنكُم مُّلاقوهُ وبشّرِ الْمؤْمنينَ ﴾ (223)

السياق يمضى مذكراً بنعمة الله وبركته على الطريق المباح والمسلك الطاهر والتقوى ، فالآية تصف الزوجة بالحرث للبشر حيث تُودع فيه بالغرس البذور وتُنتظر الثمرة . وتخاطب الآية المؤمنين أن ائتوا الحرث أنّى شئتم لأن الله لم يضع عليكم قيوداً وعنتاً فى المباشرة الزوجية سوى التطهر من المحيض . وكما تقدمون للحصاد فى الحرث بالزراعة قدموا بذرة لولد ينتمى لكم ، وفى كل عمل ينبغى أن تصوبوا المقصد تقدماً وراء قضاء الشهوات والعاجلات ورجاء لثمار فى مستقبل الدنيا والاخرة ، والتقوى هى غرسكم المقدم فى الزوجية وفى كل الحياة لملاقاة الله يوم القيامة فاعلموا أنه لقاء مؤكد واطمئنوا ببشرى المستقبل وخيره القادم للمؤمن القاصد التقىّ .

﴿ وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (224)

فِي سِيَاق المعاملات في المجتمع عامة وفي شعبة التقديم للمستقبل بالقصد والتقوى لله لاتجعلوا ذكر الله عرضاً معتاد الورود في تعاملكم تعززون به القسم والأيمان صدوداً عما تقبلون عليه في مسالك البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، وتلك حماقة متأبية من الخير متخذة سبيلاً لتأكيد ذلك قسماً بالله داعي

الخير كله في العلاقات والمعاملات ، والله سميع محيط بكلامكم و قسمكم وعليم بنواياكم صدوداً عن البر والتقوى والاصلاح بين الناس ويحاسبكم علي ذلك .

﴿ لاَّ يؤَاخِذكُمُ اللهُ بِاللَّغْو في أيمانكُمْ ولكن يُؤَاخِذكُمُ بِما كسبتْ قُلوبكُمْ واللهُ غفورٌ حليمٌ ﴾ (225)

إن الله لايؤاخذكم حساباً سلباً عليكم ان جرى منكم اليمين لفظاً لغواً وعفواً غير عمد ولو بدا ،وإنما يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم حيث يقع ينعقد القسم بنية وعمد للصدود عن الخير . والله غفور كثير الغفران حليم يتجاوز الغضب والمؤاخذة عن اتخاذ قسم الله لغواً وإيراده عرضة عن الخير ، والكفارة عن الإيمان الجد ، فسح للمتاب إ1لى البر والتقوى والصلاح .

﴿ لّلّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نسائِهِمْ تَرَبُّصُ أرْبعة أشهُر فَإن فَاءو فإن اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (226)

بعد بيان أحكام القسم والأيمان تقديماً عارضاً دون الخير لغواً او عمداً هذه الآية تذكر اليمين فى سياق مخصوص بالعلاقات الزوجية وتضع أحكاماً خاصة له بعد أن أحاطت الآيات السابقة تلك العلاقات بإطار الإيمان والتقوى .

الإيلاء هو أو القسم من الأزواج ألا يقاربوا زوجاتهم بالمعاشرة ، وهو نمط فى القسم كان معروفاً فى المجتمع العربى وكانت غالب دوافعه الغضب بين الزوجين . وحكم الآية إن يعالج مثل اللغو ولكن هذا هو الإطار الحساس الذى ينبغى ألا ينطق فيه بالغضب والذى لايناسبه شرعاً تعليق المعاشرة قصداً وعمداً ، ولذلك الإيلاء ينتهى حكمة تعليقاً للمعاشرة يتربص وانتظار أربعة أشهر مدة من انكفاف المعاشرة الزوجية تدفع للأوبة أو القرار العازم وفترة قد تُظهر الحمل لدى الزوجة فترد الزوج إلى الأسرة . فإن فاءوا رجوعاً عن ذلك القسم فى تلك الاثناء وتجاوزاً بزواجهم تلك الأزمة فإن الله يغفر لهم ما عرّضوا له تلك العلاقة من حماقات وكلمات مناقضة ويرحمهم إذا أخلصوا لله ذلك الرجوع من شحناء النفوس .

﴿ وإن عَزموا الطّلاق فإن الله سميعٌ عليمٌ ﴾ (227)

أما إذا مضت الأشهر الأربعة ولم يرجع الزوج عن الإيلاء فإن ذلك يعنى العزم على الطلاق والمفارقة البائنة. وإن كان ذلك فإن الله سميع عليم لقولة الإيلاء ولحديث النفس وراءها ولتطاول مدى التعليق حتى ينعقد عزماً ، وعلى الإنسان أن يتذكر رقابة الله التامة فى هذا الأمر الجليل من حفظ إطار الأسرة ويتخذ مواقفه بالتقوى وبالايمان لا بالأيمان اللفظية ، وقد انقرض ذلك العرف بهذه التعاليم القرآنية فى أخلاق الأسرة المسلمة .

﴿ وَالْمُطلَّقاتُ يتربَّصْنَ بأنفسهِنَّ ثلاثة قُرُوءٍ ولا يَحِلُّ لهُنَّ أن يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللهُ في أرْحَامِهِنَّ إن كُنَّ يُؤْمِنَّ باللهِ والْيَوْمِ الأخِر وبُعُولَتُهُنَّ أحَقُّ بردّهِنَّ فى ذلِكَ إن أرَادُوا إصْلاحاً ولَهُنَّ مثلُ الذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمعرُوفِ وللّرِجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرجَةٌ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (228)

فى سياق تنظيم العلاقات الزوجية سبق ذكر حدود الأحكام فى المدخل إلى الزواج أو فى المعاشرة أو فى الإيلاء الذى قد يطول إلى طلاق ، والآية ترتب ما بعد الطلاق بعد تربص وعزم أو قرار مفارقة والحكم يرعى حفظ الأسرة وما أثمرته من بقية مودة وذرية ، وذلك أن على النساء اللائى فارقهن أزواجهن بالطلاق الانتظار ثلاثة قروء . والقراءة تتبع حروف الكلام أو آجال الأحداث ومراحلها، والقرء المرحلة من الحيض والطهر . والتربص انتظار لأجل عدته ثلاثة مراحل من الحيض والطهر ، فيه تبدو الشواهد إن كانت المطلقة تحمل ذرية تدعو للمراجعة ، وفيه مدة وفترة لبرود الأزمة المؤدية للطلاق وتجربة أشهر فى وقع الفراق .

والأمر من بعد فى الآية يتجه إلى المطلقات اللائى يعلمن وحدهن حاسة ما في أرحامهن من حمل ، فلا يحل للمطلقة أن تخفى الحمل إن وجد ، فمن النساء من تفعل ذلك حتى لاتعطى مطلقها مسوغاً يجدد رغبته فى إرجاعها اذا كانت قد رغبت عنه ، ولكن المؤمنة بالله الرقيب والحسيب اليوم الآخر لا تفعل ذلك الكتمان .

والبعول – الأزواج الذكور (والبعولة صفة الأرض والنخل المستغنية بأصولها من السقى) وذكر الأزواج بهذه الصفة للإشارة لأنهم هم القائمون قوة بأمر الأسرة والانفاق عليها ، ولهم حق أكبر من حق المرأة إن أرادوا أن يصلحوا الذي كان بينهم وبين مطلقاتهم ويردوهن إلى الزواج لما عرفوا من الحمل أو رشدوا عن الأزمة ، والحق أكبر لأنهم يتولون المسؤولية الأكبر عن إرجاع الأسرة رعاية وإنفاقاً .

والآية تأكيد للمساواة والعدل فى العلاقات الزوجية بين حقوق النساء وواجبهن . فإن على الزوجة الا تكتم حملها بعد الطلاق وأن تقبل رغبة الزوج فى العودة ، فله أن يعيدها متحملاً صدق الصلح ولا يتكتم قصد الإضرار ، وتكاليف ذلك وكل الواجبات والحقوق بينهما تتم عدلاً وفق ما تعارف عليه الناس من البر والخير لا المنكر من خيانة الصدق والأمانة الزوجية وبعد تلك المساواة والعدل بالمعروف بينهما أُعطى الرجال درجة من الفضل عندما جُعل لهم الحق والرغبة النافذة فى رد أمر الأسرة بعد الطلاق ، ولم تُعط النساء حق الكتمان فى العدة أو قطع العلاقة أو ردها بقولهن . ذلك فى شان عدة الطلاق للحكمة فى مسئولية الولاية وللرجال درجة فى امضاء الطلاق محتملين تكاليفه وتلك درجة على النساء اللائي لايمضينه إلا بأمر القضاء لترتيب عواقب التكليف الواقع على الأزواج .

' والله عزيز حكيم ' عزيز الولاية فالقوامة له سبحانه بعطيها من يشاء بالعدل والمعروف وينزلها بحكمته على ما يصلح به أمر الرجل والمرأة وما يحفظ الأسرة مودة ورحمة فى الصحبة ومعاشرة فى المعاش وإثماراً وتربية وتزكية للذرية حيث يُخلق ويتكاثر البشر . والآيات السابقة لتلك الحكمة تحفظ الأسرة ألا تتنحل بعرف الإيلاء الغاضب إلا إذا انحلت بعزيمة واعية وألا تنحل بالطلاق إلا بعد عدة قد يُستدرك فيها الأمر مراعاة للذرية المحمولة أو رضى بعد الأزمة . وتاتى الآية التالية للاستدراك مرتين .

﴿ الطَّلاقُ مَرتَّان فَإمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أوْ تَسْريحٌ بإحسان ولاَ يَحلُّ لكُمْ أن تأخُذُوا مِمَّا ء اتَيْتمُوهُنَّ شيْئاً إلاَّ أن يخَافَا ألاَّ يُقِيما حُدودَ اللهِ فإن خِفْتُمْ ألا يُقِيما حُدود الله فلا جُناحَ عليْهما فِيما اقتدتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تعْتَدُوهَا ومَنَ يَتَعدَّ حُدودَ اللهِ فأولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (229)

فالطلاق مرتان ، مرة ثم مرة حماية للأسرة من الانفراط ، ليعطى الزوجان فرصة للرجوع عن الطلاق بمبادرة كلمة أو فعل من الزوج أثناء العدة أو بتجديد العقد بينهما بعد العدة وذلك مرة بعد مرة .

فإمساك فى الفرصة الثالثة بالمعروف من حسن المعشر لا بالمنكر من المضارة المكروة أو تسريح جميلاً حيث يتفارق الزوجان بالحسنى والمعروف ولايستبقى الزوج زوجته معلقة ضراً .

ولا يحل للزوج إذ لم يتراض الاثنان أن يعلق فراق الزوجة بأن يحمل عليها مشترطاً أن تؤدى فيأخذ مما آتاها فى السابق من مهر أو هدايا . ذلك إلا إذا خاف الزوجان إذا استمرت الزوجية ألا يقيما حدود الله ، حقوقاً وواجبات متزاوجة بينهما بالمعروف . فإن كان ذلك التقدير للمصير وفاقاً لما يقدره المجتمع الذى قد يمثله الأقارب أو الحكام ، ولم يكن على هوى وميل من أحد الزوجين يُلجيء الآخر أو يغريه ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، فإذا كان التقدير عن حق مجتمع عليه لا عن هوى ورأت الزوجة ان تفدى نفسها بأن تعيد إلى زوجها ما أعطاها أو تنزل عن حق مؤجل تحفيزاً على إمضاء طلاقها بالحسنى إذ لفي العوض عما قدّم أو الوقاية عما يترتب عليه ، فلا جناح عليها .

والآية تسمى علاقات الأسرة حدوداً قطعية التعريف والبيان تُحفظ بالمعروف ويُمنع من تجاوزها ، وتخاطب المؤمنين ألا يعتدوا عليها تجاوزاً . وحدود العلاقات الأسرية فصّلها القرآن وبينها بأكثر من كل أحكام العلاقات والعقود لأنها تنظم الأسرة حيث يخلق الإنسان ويزكى لحمل الأمانة ولا تنظم علاقات المال والسياسة ومعاملات المجتمع العامة بذلك التفصيل . وإنما ترد الحدود المفصّلة فى احكام الاسرة وخاصة فى هذا السياق مما قد يقع على المرأة وهى الطرف لأضعف . والآية تتسق مع كثير من آى القرآن تدعو لحفظ حقوق النساء وتعظ الرجال وعظاً شديداً وإن تعدّوا فأولئك هم لاغيرهم الظالمون .

﴿ فإن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لهُ من بَعْدُ حَتَّى تنكِح زَوْجاً غَيْرهُ فإن طَلقهَا فَلاَ جُنَاحَ عليهِما أن يتراجعَا إن ظَنَّا إن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وتَلْكَ حُدودُ اللهِ يُبيّنُهَا لقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (230)

فإن طلق الزوج زوجته مرة ثالثة بعد المرتين فتكرر الفراق ثلاثاً بعد ثلاث تجارب فلا يعود الزوجان إلى بعضهما تجربة أخرى إلا إذا تزوجت المرأة زوجاً آخر ثم طلقها الاخر . والآية حماية لسياج الأسرة من الاضطراب الذى يقع من كثرة التردد فى النكاح والطلاق .

فإن طلقها ذلك الآخر فلا جناح عليهما معتبرين بالتجارب السابقة وما لحق أن يتراجعا إلى القديم إن وطَّنا على عزم وتقدير أنهما سيحفظان الحدود المشروعة ببيان الله فى اعادة أسرتهما التى انحلت .

وتلك حدود الله بينها لقوم يعلمون ، تأكيداً على التنبيه إلى الحدود فى تلك العلاقات والتشريعات التى بينها الله لمن يرسخ العلم والإيمان فى قلبه فينفعل بحكمتها ويتقبلها ويلتزمها لذلك .

﴿ وَإذا طَلَّقْتمُ النّسَاءَ فبلغْن أجلهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمعَرُوفِ اَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ وَلَا تمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لّتعْدُوا ومن يَفعَلْ ذلك فَقَدْ ظَلَمَ نفْسهُ ولا تتَّخذوا ءايَات اللهِ هُزُواً واذكروا نِعمت اللهِ عليْكمْ وما أنزل عَليْكُم من الكِتَابِ والحِكمةِ يعظُكُم بِهِ واتَّقُوا اللهَ واعْلمُوا أن اللهَ بِكل شيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (231)

يتواصل السياق مفصلاً لمقتضى التقوى فى علاقات المؤمنين الأسرية . والآية تخاطب الرجال خطاباً شديداً للحفاظ على المعروف فى علاقاتهم مع الطرف الأضعف فى هذه العلاقة ، إنه إذا اقترب أجل العدّة بعد للطلاق وقدّر الزوج ان يمسك زوجه ولايطلقها فليكن ذلك على نية الاستمساك بهذه العلاقة وإقامة حدود الله والمعروف فى علاقته الأسرية . وإذا قدر ألا بد من الطلاق فليسرح السراح الجميل ولايتمادى فى الإمساك بنية إطالة امد العنت وإنزال الضر عليها حرماناً من فرص السراح الجميل واعتداً على حدود الله .

ومن يفعل ذلك فقد ظلمها و بعاقبة ذلك ظلم نفسه وكان فى الظالمين كما سبقت الآية (229) والأمر الا تتخذوا آيات الله التى بيّنت حدود أحكام الأسرة إلا ماخذ الجد ولا تخالفوها فإن فى ذلك هزؤ وعبثاً بآيات الله واستخفافاً.

وإذا دعتكم أنفسكم لمثل هذا الظلم والهزؤ بآيات الحدود فاذكروا أن ذلك من فعل الجاهلية . وأنتم بهدى الله فى نعمة الإسلام واذكروا إن ذلك من عرف الجاهلية ، وقد أنزل الله عليكم من كتاب من السماء وحكمة ما يعظكم به لتلتزموا أحكام الكتاب وتراعوا الحكمة مقتضى تنزيل هذا الكتاب على حياتكم . ولتحيطوا حياتكم بالتقوى حتى تحفظوا تلك النعمة ولايقع عليكم عقاب الله يوم القيامة . واعلموا إذا دعتكم أنفسكم إلى نيات المضارة وأثقالها إن الله عليكم بكل شيء من ذلك ولله عاقبة الأمور فى الدنيا ويوم القيامة.

﴿ وإذا طَلَّقْتُم الّنساء فَبلَغْنَ أجَلَهُنَّ فلاَ تَعْضُلُوهُنَّ إن يَنكحْنَ أزْواجّهُنَّ إذا تَراضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْروفِ ذلِكَ يُوعَظُ بهِ من كان مِنكُمْ يُؤمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الأَخرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلمُ وأنتم لا تَعْلَمُونَ ﴾ (232)

تتوالى الآيات بالخطاب الشديد والموعظة لأن مشكلات الأسرة تحتاج لرقيب من الضمير المفعم بالتقوى وقد لاتخرج لتبلغ محاكم القضاء . والخطاب للأهل الأولياء الذين تأخذهم الحمية من طلاق وليتهم فيمعنون بنتاً أو أختاً أن ترضى فتعود إلى زوجها الذى طلقها وانتهت العدة إذا تراضيا ليخطبها بالمعروف لتجديد الزواج بعقد الخطاب ، ألا تعضلوها تمنعوها بقوتكم وقد رغبت هى فى أمر الزواج عقداً بالرضى لاتسييراً بالإكراه والموعظة لمن كان يؤمن بالله وحسابه يوم القيامة

فخشى الله وحسابه مهما راوده شفاء الحمية بالَعضْلِ ، وذلك لكم أزكى وأطهر أن تعود المرأة إلى زوجها مهما بدا العضل والحبس والتضييق بالقوة تعاظماً فاتناً ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما هو خير للنماء والطهر والحفظ بالمعروف لعلاقات الزوجين .

﴿ والْوَالِداتُ يُرْضِعْنَّ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لَمنْ أَرَادَ أن يُتِمَّ الرَّضَاعةّ وعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكلَّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَها لا تُضَارّ والِدةٌ بولدِها ولاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وعَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإن أرَادَا فِصالاً عَن تَرَاضٍ مّنْهمَا وتشَاوُرٍ فَلاَ جُناح عليْهِما وإن أرَتُّمْ أن تسْترضِعُوا أوْلادَكُمْ فلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إذا سَلَّمْتُم مَّا ءاتَيْتُم بِالمَعْرُوفِ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أن اللهَ بِمَا تَعمْلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (233)

قد ينتهى الزواج بالطلاق أو الموت ، والآية تهدى فى مصائر أضعف مضرور بذلك : الأطفال الرضع . فالواات (رغم الطلاق) لهن وعليهن أن يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن كانت منهن تريد أن تتم الرضاعة إلى الأجل الأنسب تربية قبل الفطام . وعلى المولود واجب مسؤلية الأب تجاه الطفل ولو مضى الزواج – أن يحتمل تكاليف رزق الوالدة المرضعة وكسوتها بالمستوى المعروف مادامت ترضع ولده ، وتكاليف الرزق والكسوة تتوجب بالمعروف وحسب وسع اوالد وطاقته ، ولايستعمل الوالد الولد لمكايدة والدته وضرها بأن يحملها هى تكاليف التغذى والكساء وحاجاتها مرضعة ولاتستغل هى الولد فى ضرر والده بأن تحمله الإنفاق أكثر من الحاجة والسعة ، فلا يكون الولد الرضيع أداة للمكايدات أو الحرج وراء الوسع بين المتطالقين . فإ ذا مات المولود له لزم من يرثه أن يقوم مقامه فى رزق الأم وكسوتها .

والأسرة مؤسسة تقوم على الشورى والتراضى من حين الخطبة والعقد وتستمر العلاقة كذلك حتى بعد انفضاضها حول آثارها فلا جرح على متطالقين إن ارادا فصال الرضيع فطاماً عن الرضاعة قبل الحولين على أن يكون ذلك صادراً عن تراض وتشاور .

أما إذا اراد الأب والأم أن يدفعا المولود لمن ترضعه غير الأم ، فلا جناح فى ذلك على أن يُسلم الأب أجر الرضاعة يؤتيه بالمعروف من الدقة والأمانة وإظهار الرضى و لبشر للمرضعة حتى لايضار الصبي من المرضعة بسبب تقصير الأب . واتقوا الله واعلملوا أن الله بما تعملون بصير ، والخطاب وصية بالتقوى سياجاً لحماية الأسرة والمجتمع حين الزواج أو عند الطلاق أو العدة فى الرضاع ، وختام الآية تذكير بأن الله يبصر أدق البصر كل أحوالكم إذا قصر عمل أيكم عن أداء ما عليه بالحق والمعروف .

﴿ وَالَّذِين يُتَوفَّوْنَ مِنكُمْ ويَذرُون أزْواجاً يترَّبصْنَ بِأنفسهِنَّ أربعَةَ أشْهُرٍ وعشْراً فَإذا بَلغْنَ أَجَلُهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيكُمْ فِيماَ فَعَلْنَ في أنفسهِنَّ بِالمعْرُوفِ وَاللُّهُ بِما تعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (234)

إذا انفضت الأسرة بوفاة الزوج لا مفارقة بسبب الطلاق فالآية لا تذكر آجال الانتظار والتربص بحساب القروء فالغالب إن الحالة فى أواخر العمر وراء الحيض ، فالأرامل يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر

وعشراً ،وقد زادت العدة عشرة أيام عن الشهر الأربعة التى ذكرت سابقاً عدة فى حكم الإيلاء تقديراً خاصاً لظرف الوفاة ومدةً لصبر الأرملة وحدادها على فقيدها ولبدو أى حمل لجنين .

والخطاب يتواصل فى الآية للمجتمع فلا يُعسِّر على المرأة الأرملة اذا انقضت عدتها وأرادت زواجاً بالمعروف ولاتفرط عليها أعراف الحداد الممتدة . وفي الآية حكم واضح بإن أمر التزوج للمرأة من حقها ووفق رغبتها وقرارها . والله خبير باعمالكم ودوافعها ضغوطاً من أهل المرأة أو رغبة منها فى خلافة زوجية ، فلا تمنعوا المرأة ن ان تزوج نفسها بالمعروف .

﴿ وَلاَ جُناحَ عَليكُمْ فِيما عَرَّضتْم بهِ منْ خِطبةِ النِّساءِ أوْ أكْننتُمْ في أنفسكُمْ عَلِمَ اللهُ أنكُمْ ستذْكُرونُهنَّ وَلَكِن لاَّ تُواعِدُوهُنَّ سِرّاً إلاَّ أن تَقُولُوا قَوْلاً مّعْروفاً ولاتَعْزمُوا عُقدة النّكَاحِ حتَّى يَبلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ واعْلَمُوا أن اللهَّ يَعلمُ مافي أنفسكُمْ فاحْذرُوهُ واعْلَمُوا أن اللهَ غَفُورٌ حَليمٌ ﴾ (235)

يتصل السياق لبيان أحلاق انتقال الأرملة إلى زواج بعد انقضاء عدتها . والآية توضح جواز الحديث مع الأرملة اثناء عدتها خطبة لزواجها على أن يكون ذلك بالتعريض إشارة وتلميحاً لا تصريحاً أو مثلاً كلمة عزاء للمصيبة فيمها إيماء للخطبة ، ولا بأس فى أن يضمر الإنسان فى نفسه إكناناً نية زواج الأرملة أثناء عدتها ، ولايصرح عنها بشيء احتراماً لفترة العدة مدى يمتد رمزاً لحرمة علاقة الزوجية والأسرة . فالله يعلم ويجيز إنكم بطبيعة الذكورة والأنوثة سيلوح لبعضكم تذكر وضع الأرملة وستخطر الرغبة فى خطبتها وقد يُعَّبر عن ذلك عرضاً فى المقابلات والإشارات ، ولكن الله ينهى عن الحديث الصريح خطبة ومواعدة للزواج ولو كان نجوى سر مع الأرملة ، إلا القول المعروف كالتعريض والإشارة لأمور الخير المرجوة فى خطاب الأرملة . ولاتبلغوا بالحديث مبلغ العزم قطع إنفاذ الإرادة نحو إمضاء الزواج حتى تنتهى العدة ، فعندئذ يمكن العزم والعقد . وقد أباح الله لكم ما أكننتم فى أنفسكم ويعلم ما يخطر فيها ولكن من تابع نفسه ومضى صريحاً عاقداً العزم على حسم أمر الزواج قبل ان تكمل العدة فإن الله يحذركم من متابعة أنفسكم ، واعلموا أن الله غفور لما يقع من خواطر دون عزم وحليم لأنه كثيراً ما يقع ما يدفع الإنسان نحو تجاوز الحدود صراحة فى التعبير .

﴿ لاَّجُناحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ النِساءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فريضةً ومتّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قّدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْترِ قدرهُ متاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً على الْمُحْسِنِينَ ﴾ (236)

السياق يتنقل لأحكام ما وراء علاقات الزوجية غير الطلاق بعد العُشرة والرمل ، الطلاق بوجه مبادر ، الآية تحيطه بما يليق بالعلاقات الإنسانية من إحسات وكرامة ، فلا اثم عليكم إن طلقتم النساء اللاتى لم تمسوهن و لما تعاشروهن المعاشرة الزوجية ولم تسموا لهن مهراً فى العقد . والاستصحاب فى الزواج المهر والمس وقد يتحرج المرء أن يقطع الزواج دون ذلك الفرض والقصد ، ولكن الله رفع الحرج إذا طرأ . لازمٌ فيما يرى الزوج .

ولكن عليكم أن تعطوا عندئذ شيئاً يكون متاعاً لهن ، والذي له سعة من المال يعطى القدر الذى يناسب حاله والذى فى ضيق من الحال يعطى الذى يناسب أيضاً والمتاع بقدر متاع المثل والمعروف الذى يرضاه المجتمع ، وليس تصدقا عفواً بل حقاً على المحسنين لأن الإحسان الدرجة الاعلى هو الذى يليق وجوباً على المؤمنين فى مثل هذه الاحوال .

﴿ وإن طَلَّقْتُموهُن مِن قَبْلِ أن تَمَسُّوهُنَّ وقَدْ فَرضْتُمْ لهُنَّ فَرِيضةً فَنِصْفُ مَا فرضْتُمْ إلاَّ أن يعْفُون أوْ يَعْفُوا الَّذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِكّاَحِ وَإن تَعْفَوا أقْربُ لْلتَّقْوى وَلاَ تنسَوُا الْفضْلَ بَينكُمْ إن اللهَ بما تْعَملُونَ بَصِيرٌ ﴾ (237)

أما من فرض مهراً مسمى للمرأة ثم طلقها قبل أن يمسها فلها نصف الذى فرض ، إلا إذا عفت المرأة وأسقطت النصف المستحق أو عفا وكيلها عنه الذى تولى عنها عقد النكاح ، فلاجناح عندئذ على المطلق من أخذه . الخطاب لكل أطراف الزواج زوجاً وزوجة ووكيلاً أن يعفو الزوج عن النصف الذى استحق أن يأخذه فيؤدى الفرض كاملاً لها أو تعفو هي أو وكيلها عن النصف المستحق فيسقط عنه ، ذلك أقرب لمناط التقوى وخلقها فلا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعص تكرماً وتسامحاً وتباعداً عن المحاقة والمحاسبة التى لا تيلق بالعلاقات الإنسانية إذا اجتمع المؤمنون فإحسان إو افترقوا فإحسان ، فإن الله بما تعملون بصير دقيق البصر يعلم الفضل والتسامح ويعلم العفو ويعلم الشح والقبح والتحسب فى مثل هذه العلاقات مهما دقت .

﴿ حَافِظوا عَلَى الصَّلوات والصَّلاةِ الْوُسْطى وَقُومُوا للهِ قَانِتينَ ﴾ (238)

الآية تدخل ذكر الله فى سياق أيات وصايا الأسرة كما يدخل ذكر التقوى لتكون حياة الاسرة كلها عبادة لله . فالصلاة شعيرة عبادة خالصة تتخلل كل سياقات يوم الحياة لتملأه بذكر الله ، فهى تدخل إلى بيت كل أسرة لتغشى أقوالها وأفعالها وعلاقاتها فى ظرف كل ابتلاء بذكر الله وطاعته وتقواه . وكذلك تغشى الصلاة بروح العبادة كل مساكل الحياة ومناشطها ، وقد وردت فى سياقات آيات القرآن ووصاياه كافة ، وهاهنا ترد فى آيات الأسرة وأحكامها . والأمر بالمحافظة على الصلوات كلها لميقاتها لاتفوت وبأركان بناءها ذكراً باللسان والجنان لله وحدة وحركة بكل الجوارح تعبّر عن صور الطاعة لله وتجددّها طوال اليوم والحياة متوالية . والصلاة الوسطى الصلاة الأعدل والأمثل وقتاً وصورة وصوتاً ومعنى . والآية بعد أمر الصلاة الأمثل تأمر بالصلاة فى قنوت ، صمتاً وتجرداً عما دون الله وخشوعاً وطوعاً لله . والإحسان فى الصلاة يغذى الحياة بإحسان بالغ الطيب لاسيما حياة الأسرة ، ورعاية أحكام الأوقات والآجال فيها وأحكام البينات والأقوال والأفعال لأى من الزوجين والحقوق والواجبات بينهما كصلاة الجماعة – كل ذلك طوعاً لحكم الله والتزاماً بحدوده المسنونة وخشوعاً لتقواه .

﴿ فَإن خِفْتُمْ فَرِجَالاً أو رُكْبَانا فإذا أَمِنتُمْ فاذكروا اللَه كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (239)

الآية تذكر الصلاة هنا فى سياقات الخوف والأمن لتحفظ الصلاة فى كل ظرف على ما ناسبته صورتها وتواصل ذكر الله فى كل ابتلاءات الحياة وفى سياق أحكام حياة الأسرة ولو تقلبت بها الظروف خوفاً وأمناً وعسراً ويسراً وتأزماً فى علاقاتها . والآية تمهد بذكر الصلاة عبادة موصولة فى الأمن والخوف بذكر الخوف والقتال والجهاد فى آيات سترد بعد قليل فى السورة . والآية لجواز صلاة الخائف واقفاً على رجليه للحذر دون ركوع وسجود أو راكباً على مركبه لحركة المعركة ، فإذا بلغتم حال الأمن صلوا على المنهج فى إقامة الصلا ة الذى علمكم الله ، واذكروا فضله عليكم عندما علمكم هذا الذكر الذى ماكنتم تعلمون .

﴿ وَالَّذين يُتَوَفَّوْن مِنكُمْ ويذَرُون أزْواجاً وصيَّةً لأزْواجِهم مّتاعاً إلى الْحَوْلِ غَيْرَ إخْراجٍ فَإن خَرَجْن فَلاَ جُناحَ عَلَيْكُم فى ما فَعَلنَ فِي أنفسهِن من مَّعْرُوفٍ واللهُ عزيزٌ حَكِيم ﴾ (240)

حول ذكر الصلاة عماد الدين والتقوى فى حياة الإنسان تمضى الاية فى سياق الأسرة إلى أحكام ما بعد الوفاة . فاللذين يتوفون ويذرون وراءهم أرامل فالوصية من الله ان تتمتع الأرملة بالبقاء فى بيت زوجها على نفقة من التركة حولاً كاملاً لايُخرجها ورثة الزوج . فإن أرادت تلك الزوجة أن تخرج برغبتها من ذلك البيت انطلاقاً أو رحيلاً إلى زواج آخر بالمعروف من تجاوز العدة ونهج الزواج ، فلا جناح على المجتمع فى تعاقب الأسر وبيوت معاشها و لها ذلك والله عزيز لايقبل أن يُعتدى على احكامه ووصاياه بالتحكّم فى التركة والأرملة وحيكم يفصل لكم دقائق أفعالكم فى حياتكم الأسرية ليحفظها من الشقاء والظلم .وغالب فقهاء القرآن من السلف على أن الآية منسوخة وأن ليس للارملة الا أربعة أشهر وعشراً ، والأفقه أنها محكمة لأن النسخ لايكون لأصل الحكم وعدة أربعة أشهر وعشراً دون الزواج واردة فى هذه الآية بإباحة الخروج دون الحول .

﴿ ولْلمطلقاتِ متاعٌ بالمْعرُوفِ حقاً على المتقيَّنَ ﴾ (241)

الآية تجعل للمطلقات كافة متاعاً بالمعروف بعد ان جعلته آية سابقة (236) حقاً حتى المطلقات غير المدخول بهن . والمعنى إن أى مطلقة ينبغى أن تعطى شيئاً تتمتع به بالقدر المعروف لأنها كانت مع زوج يقوم عليها بالنفقة وينبغى ألا ينقطع معاشها بالطلاق بل تتمتع شيئاً مّا لعلها تستقر فى وضع يؤمن كسبها 'ذلك حقاً على المتقين ' وحقاً على المحسنين فى الاية الماضية ، فهو حق وليس بخيار على من هو أهل للتقوى أساس الزواج .

﴿كَذلِكَ يُبيّنُ اللهُ لَكُم ءايَاتِهِ لَعلكُمْ تَعْقِلُون ﴾ (242)

كذلك – بكل ما سبق من آيات بيان فى أمور الأسرة تتجلى أحكام الله ووصاياه للمؤمنين المخاطبين لعلهم يعقلون لأن أحكام الأسرة تحتاج لأن يعقل الأنسان خواطره ومشاعره ويكبح رغباته وعرفياته وفقاً لما بيّنه الله . وفصلت آياته .

عموم المعاني الآيات:221–242

والآيات 222–242 نزلت تفصيلاً لأحكام الأسرة فى مجتمع الدين المؤمن الجديد حتى علاقاته الاجتماعية بالمشركين نسباً وتزاوجاً . فالشهوة الزوجية طبيعية دافعة للزواج وكذلك حاجات الولادة والبناء للأسرة . ولكن فتنة العلاقات قد تنثنى إلى فراق تضطرب به خاصة أوضاع النساء المستضعفات وحقوقهن ومصائر اليتامى ، وقد تقع وفاة الزواج سبباً لذات الاضطراب . ولذلك دارت الآيات كلها فى أول عهد المدينة بعد ذكر اليتامى وعلاقات التزوج من الأهل المشركين – درات حول الإيلاء والطلاق والوفاة .

وأحكام نظام الأسرة فى الدين خالدة وبيانها فى القرآن بهذه الاى وبآيات أخرى أدق حدوداً وأشد تفصيلاً من بيان سائر نظم الحياة ، والزواج عقد كسائر العقود ولكن الله لم يتركه عرضة للهوى والشهوة بل فصّل فيه وصاياه المحكمة . ذلك لأن الأسرة بيئة فيها يخلق فيولد الإنسان ويربى ويزكى لاحتمال أمانة الدين خياراً فعبادة أو كفراً فمسؤولية . والآيات تؤكد التزام أحكام الأسرة والبيئة بالتذكير والتطهر والعلم والحرية والعقل والتقوى والإحسان ومراعاة المعروف والفضل فالله رقيب عزيز وغفور .

وتلك المعانى تقوية لمواقف المؤمنين فى سلوك الأسرة تغذيها أيضاً الصلاة طوال اليوم والحياة . وقد ظل التاريخ يشهد إن المتدينين بالكتاب حفظوا التدين فى الأسرة حتى عندما ضيّعوه فى سائر علاقات الحياة الاجتماعية ولاقتصادية والسياسية ، وعندما غشيتهم الغفلة أخيراً عن حفظ الدين فى الأسرة تفشت فيهم ظواهر الأمراض التى تكاد تدهور كل بناء المجتمع .

والأسرة إطار لوحدة الزوجين والنسل والأهل . وإذا اضطربت بالفتن وبالطلاق أصبح أهلها عرضة للشقاق والظلم إذا لم يراعوا تقوى الله . والولد فى الأسرة المؤمنة ينبغى أن يُربى ويزكى ويؤهل لكل الابتلاءات ، حتى إذا ابتلى لا فى بيئة كأسرته السالمة الموحدة بل بأخرى فيها العدوان تقتضى المجاهدة يبقى هو مراعياً للتقوى لا يندفع إلا فى سبيل الله . والمؤمنون المصلون يحفظون نظام الصلاة وخشوعها ويغذون بذلك حفظ نظام الأسرة بتقوى الله وإذا حفظوا الأسرة انضباطاً وتضامناً وتقوى وحافظوا على نظام الصلاة قيادة وطاعة وصف جماعة وخشوعاً لله ، يغذون بذلك أخلاقهم إذا ابتلوا بتقلبات الأمن والخوف والسلام والجهاد صفاً واحداً فى سبيل الله وتقواه .

وفى الآيات التالية من سورة البقرة التى كانت فسطاطاً فى المدينة موصولة شعابها وجوانبها موحدة عبادة لله الواحد – فى هذه الآيات تذكير للرسول ﷺ وصحبه وقد آمنوا وهاجروا ليجاهدوا فى سبيل الله (الآية 129)، تذكير بعبرة بنى إسرائيل فى انتقالهم بعد عهد التيه والانخذال والجمود فى سيناء إلى عهد الجهاد والنصر والدولة فى فلسطين .

ترتيل المعاني: الآيات 243–251

﴿ ألم تَرَ إلى الَّذين خرجُوا مِن دِيارهِمْ وهُمْ أُلوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إن اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ (243)

' ألم ' استفهام نفى تنبيهاً إلى رؤية أحداث القصة وعبرتها – خطاباً لمحمد نبياً برسالة وقائداً لجهاد ودفاعاً عن أرضها بالمدينة لعهد نزول هذه السورة — ألم تر قصة بني اسرائيل مهاجرين شرقاً خرجوا من ديارهم فى مصر وهم ألوف حذر الموت هرباً من شبح الموت الذي طاردهم بجيش فرعون ، لم يخرجوا نفيراً ليعبئ ألوفه لجهاد الأعداء بل حذراً من الذين اعتدوا على ديارهم، ' فقال لهم الله موتوا ' إذ أمروا توبة إلى الله : ' فاقتلوا أنفسكم ' عقاباً من بينهم على الذين فرضوا على الباقين عبادة العجل خائنين نعمة الله بالنجاة وعهده بالعبادة وامانة انتظار موسى عليه السلام ثم تاب الله عليهم (الآية 54) . وإذ أخذتهم الصاعقة لما ارادوا ان يروا الله جهرة ثم أحياهم الله وبعثهم بعد موتهم وترك الفئة المؤمنة حية لتبعث حياة الدين وتجدد فى النفوس (الآيتان 55،56) . فإن الله لذو فضل ونعمة بتوبته عليهم ورزقهم الظل والمن والسلوى والماء فى صحراء الموات ، ولكن أكثر الناس لايشكرون الله على فضله فيؤدون شكر الجميل ولو اقتضى ذلك أن يجاهدوا فى سبيل الله تعرضاً لحذر الموت.

﴿ وَقَاتِلوا فِي سبيل اللهِ واعْلَمْوا إن اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (244)

تذكرة وعبرة أن قد غشيت بنى إسرائيل غاشية الموت ثم الإحياء من الله لئلا يقعد بهم حذر الموت ولذلك أُمروا من بعد على موسى عليه السلام أن اشكرو فضل الله وقاتلوا فى سبيله ولاتخشوا الموت واعلموا أن الله سميع عليم بالمقولات بين المتأثرين بثقافة الانخذال والشاكرين المتوكلين للجهاد . وكانت استجابة بني إسرائيل ، على ما ستبينه سورة اخرى ، الصدود عن فروض شكر الله والقعود عن القتال حذراً من الجبارين فى الأرض المقدسة الموعودة عبر الجهاد (سورة المائدة 21–26) .

﴿ مَّن ذا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قرْضاً حَسناً فَيُضَاعِفَه لهُ أضْعَافاً كثِيرةً واللهُ يَقبضُ ويَبْسُطُ وإليه تُرْجَعُون ﴾ (245)

الآية فى سياق مع آية القتال تسائل بنى إسرائيل أيهم مستعد للإنفاق لتكاليف الجهاد فى سبيل الله ، وهى عبرة وتمهيد عموماً للإنفاق العام فى سبيل الله الذى يتكثف فى الآيات من بعد فى السورة . فالذى

يقدم إنفاق المال ويرجو ثوابه عند الله كانه أعطى قرضاً أو ديناً حسناً سمحاً وافياً كريماً لقضاءٍ آجل فى الآخرة وقد يقرض الله ماله بالنفقة وقد يقرضه حياته استشهاداً فى سبيله ومن الذى يقرض الله فيرده له . جزاء مضاعفاً بوم القيامة اضعافاً كثيرة كمثل حبة وما تنبت ويحصد زرعها بعداً كما سيأتى بيانه .

الآية تذكير للمخاطبين بأن الفضل كله من الله والرزق كله من الله وهو الذى يقبض عنكم الرزق إن شاء أو يبسطه فلا تقبضوا أيديكم عن الإنفاق فى سبيل الله فيعاقبكم بالقبض بل ابسطوا يبسط أضعافاً وإلى الله ترجعون يوم القيامة فيضاعف كثيراً لمن بسط فى سبيل الله ويقبض رحمته لمن قبض .

﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الْمَلا من بني إسراءيلَ من بَعْدِ مُوسَى إذ قَالُوا لنَبِيٍ لَّهُمُ ابْعثْ لَنَا مَلِكاً نُّقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ قالَ هَلْ عَسيْتُمْ إن كُتِب عَليكُمُ الْقِتالُ ألاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا ومَا لنَا ألاَّ نُقَاتِلَ فى سَبيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْناَ من دِيَارِنا وأبْنَائِنا فَلَمّا كُتِبَ عَليْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إلاَّ قَليلاً مّنُهُمْ واللهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمينَ (246) ﴾

فى سياق التذكرة عبرة ببني إسرائيل الذين أخرجوا وهاجروا شرقاً وقصة الإماتة والإحياء فيهم وأمر الله لهم بعد الهجرة أن يعرفوا فضل الله فيقاتلوا وينفقوا فى سبيله لاتذكر الآيات هنا خذلانهم لتحريض موسى صرفاً للمسلمين بعد هجرتهم عن ذلك الخلف بل ينطوى ذلك الأمر وترد قصة الملأ الكبار من بني إسرائيل فى مرحلة جديدة من حياتهم تذكروا فيها وتابوا لايستجيبون وحسب لدعوة الجهاد بل يطلبون الإعداد له وذلك بعد سنين من عهد موسى عليه السلام الذي قعدوا عن الجهاد معه ونبذوا الذهاب للقتال له وأخيه وربه . وحين هذه المرحلة بعد موسى عليه السلام زعم القوم من بنى إسرائيل لنبيهم أنهم يردون القتال فى سبيل الله وسألوا نبياً لهم أن حاجتهم فقط أن يبعث لهم ملكاً قائداً عسكرياً يأتمرون بأمره لأن القتال لا يكون دون قيادة وصف . وقد كان لأنبياء بني إسرائيل بعد موسى دور مثل دور العلماء فى المجتمعات الدينية غير المجاهدة يصلون الحياة العامة كلها بالدين علماً ووعظاً لايقودون هم السياسة أو القتال لكنهم مصدر الشرعية والبركة من الله هداية للملوك وقد امتحنهم النبى بالسؤال قبل المضى معهم لإجابة الطلب لأنه يذكر سابق ضعفهم عن عزيمة القتال ، قال لهم هل عسيتم ألا تقاتلوا ؟ ربما لا تقاتلوا وإن فرض عليكم القتال بقيام القيادة جاءت إجابة الملأ : مالنا كيف لانقاتل مدفوعين بدوافع طلب الوطن وقد أخرجنا من ديارنا وبداوفع الأمن والثار لأبنائنا الذين قتلوا فينا تقتيلاً!ولكن عندما نزل الأمر بالقتال وقام قائده جبن الشعب الذى ادعى زعماءه طلب القتال إلا عدداً قليلاً وفى بوعده ، والله عليم بهؤلاء الذين يطلبون القتال ويجبنون عنه حذر الموت التماساً للحياة فى غير أمر الله وظلمهم تجاوزاً لحدود الله وحقوق الوطن والولد والمصلحة لإقامة حياة الدين المتمكنة المستقرة .

﴿ وَقَال لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إن اللهَ قَدْ بَعَث لَكُمْ طَالُوت مَلِكاً قَالُوا أنى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنا ونَحْنُ أحَقُ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ولَمْ يؤْتَ سَعَةً مّن الْمال قَالَ إن اللهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وزادهُ بسْطةً فى الْعِلمِ والْجِسْمِ واللهُ يُؤْتى مُلْكه من يَشَاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (247)

استمر الامتحان إن قال لهم نبيهم إن طالوت هو الذى قام فيكم ملكاً جديداً بأمر الله وعليكم أتم القبول والطاعة . لكنهم استبعدوا واستنكروا أيلولة الملك لطالوت ولو بأمر الله ، إذ كانت معايير الملك عندهم هى احقية الوراثة أو أهلية الثراء فطالوت كان فيهم من هو أحق وراثة للملك ولم يؤت مالًا وواسعاً يؤهله لنيل الملك . ولكنه ذكرهم نبيهم أن معايير الاصفاء عند الله التى فوقته عليهم ليست هذه العصبية والمادية ولكن ما آتاه الله من زيادة العلم الأبسط الأوسع الذى تساس به الحياة وتدار به الحرب والجسم ، لأن ملكية طالوت جاءت لقيادة صف القتال وتحتاج لجسم أبسط حجماً وقوة ، وإن خيار الله ليس محكوماً بمعاييركم الضيقة ، الملك والسلطان لله يؤتيه من يشاء وهو واسع يتوسع فى الاصطفاء ، عليهم بالأهلية الأحق فوسّعوا قبول الملك ولاتجعلوا الأمر احتكاراً للورثة والمال .

﴿ وقالَ لهم نبيهُمْ إن ءايةَ مُلْكِهِ أن ياتيكم التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينةٌ مّن ربَّكُمْ وبَقيَّةٌ مّمَّا تَركَ ءالُ مُوسى وءالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكة إن في ذلِك لأيةً لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤمنينَ ﴾ (248)

قال النبى لهؤلاء الذين احتجوا على ملك طالوت إنه له بعد العلم والجسم آية دليلاً آخر ، أن يظهر فى عهده بعد أن ضاع التابوت ، وهو صندوق احتوى مقدساتهم كانوا يرجعون اليه عند التوبة من الذنوب ويماسونه تطهراً وبركة ، وبشّرهم أن فى عودة الصندوق سكينة طمانينة لكم من ربكم على حق ملك طالوت وبركة للمقاتيلن وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون من كتب ورمزيات تراثية مقدسة عند بني إسرائيل ، وأخبرهم نبيهم بأن الملائكة هى التى مكنتهم من العثور على هذا الأثر وحملته إليهم حتى يطمئنوا ويقاتلوا فى سبيل الله حيث تؤيدهم الملائكة ، وذكرهم إن فى ذلك الآية و دليل وطمأنينة لكم إن صح أصل الإيمان فى قلوبكم ، ذلك لأنه كان من خلق بنى اسرائيل منذ سيرتهم مع موسى الريبة كل مرة لأمر الوحى والغيب إلا أن تعززه ما يطلبون من آية مشهودة معجزة إلا لقدر ربانى .

﴿ قَلمَا فَصَل طَالُوتُ بِالجنود قال ان اللهَ مُبتليكُم بِنهرٍ فَمَن شرِبَ مِنْهُ فَلَيَس مِنّي ومن لَّم يطْعَمْهُ فَإنهُ مِنّى إلاَّ مَنِ اغترَفَ غُرفةً بيده فَشربُوا مِنْهمْ إلا قليلاً مّنهُمْ فلمَّا جاوزوهُ هُوَ والَّذين ءامنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَة لنا اليوم بجَالُوت وجُنودِه قال الَّذين يظُنونَ أنُهم مُّلاقوا اللهِ كم مّن فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئة كثيرة بإذن اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرين ﴾ (249)

بعد كل تلك المؤهلات للقائد والآية المشهودة المطمئنة تحرك بالجيش طالوت قائداً ، وفصل واجتاز

به سائر الناس وأدارهم نحو ميادين المعركة .

وقد ذكرهم طالوت بامتحان الله لهم فى المسير نحو القتال ، أن سيعترضهم نهر يتمايز بالموقف عنده الصادق والكاذب فمن شرب منه فليس من صف القائد الوفى ومن لم يطعمه فإنه منه ، والابتلاء فالمسارعة تقدماً وتجاوزاً للنهر فمن آثر عن بتباطأ ليشرب ويرتوى فليس من الصف لأنه قد شذ من المسايرة بالطاعة والانضباط اللازم ومن ثبت للابتلاء ولم يطعم أو يذق ماء هذا النهر فإنه يمضى منحازاً إلى القائد وجيشه ، إلا من اغترف غرفه بيده ، لاحرج على من مر مغترفاً غرفة بيده عارضة واحدة .

ولكن أخفق معظم ذلك الجيش وشذوا متخلفين ليرتووا شراباً وتباطأوا حذراً فى النفوس إلا قليلاً منهم اجتازوا، ولكن حتى تلك القلة المؤمنة التى اجتازت مراحل الامتحان استجابة لتكليف الجهاد وطاعة الإمارة بسكينة ومسارعة فى المسيرة دون رواء ، من بينها من جبن عندما اقترب من عدوه واسترهب قوته ، وقالوا لاطاقة لنا تقوم لتأخذ بقوة طالوت وجنوده ، وبقى مع القائد الصفوة الخلص الذين يظنون يقيناً ويجعلون همهم لقاء الله يوم القيامة وتهيأوا للإستشهاد فى سبيله فثبتت فيهم العزيمة بمقولة التذكر إن النصر بيد الله الذى يقوى عزيمة الصبر من العدد القليل من المؤمنين وأن كم من كثير وقائع غلبت فئة قليلة كذلك فئة كبيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، كذلك توكلوا على الله ما انخذلوا عن القتال وتذكروا أن من جد مع امر الله فالله هو الغالب معه فى المواقف الشديدة التى تقتضى الصبر .

﴿ ولَّما بَرَزُوا لجَالُوت وَجُنُودِهِ ربّنَا أفْرِغْ عَليْنَا صَبْراً وثَبِتْ أقْدامنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (250)

الذين خرجوا إلى ساحة القتال وبرزوا لمقاتلة جالوت وجيشه متذكرين متوكلين كبروا الله وهتفوا بدعائه ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، يدعون الله وهو مع الصابرين أن يُفرغ عليهم مدداً من الطمانينة ألاّ تضطرب قلوبهم وألاّ تزل أقدامهم وأن يتمّ لهم النصر والغلبة على الكافرين .

﴿ فَهَزمُوهُم بِإذن اللهِ وقتل داوُدُ جَالُوت وْاتاه اللهُ المُلكَ والحكِمة وعَلَّمه ممَّا يشَاءُ ولوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاس بعَضَهُمِ بِبَعْضٍ لَّفسدَتِ الأرْضُ وَلَكنَّ اللهَ ذو فضْلٍ عَلَى العَالِمين ﴾ (251)

استجاب الله لدعاء الفئة القليلة المخلصة ووفق الله ثباتهم فى القتال فهزموا عدوهم بإذنه سبحانه ، وكان في هؤلاء المخلصين داود عليه السلام صبياً صابراً رامياً العدو بجد أعانه الله فقتل العملاق جالوت بالمقلاع ، وبسقوط قائد العداء اكتملت هزيمتهم . وهذا الذى برز من جنود طالوت الصابرين وقتل جالوت استحق بسيرة الجهاد الذى يمكن   فى الأرض أن يؤتيه الله النبوة والملك وبتمام كلمات البلاء أن يؤتيه الحكمة يُنزل الحق فى واقع الحياة و يسوس به أمر الناس عدلاً وأن يعلّمه مما

يشاء من الهدى وأصوات الذكر وصناعة الحديد لعدة الجهاد. (سورة سبا الاية10) فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، سنة عامة أن يتدافع جيش الحق والصلاح وجيش الباطل والخراب ولولاها لما ساد الصلاح بل لفسدت الأرض ، لكن الله لم يدع الباطل يسود ويفسد الأرض وجعل الإيمان والحق لدفعه وإزهاقه وأفرغ على أهله الصبر وكتب لهم النصر ، وفى ذلك فضل كبير من الله على العالمين .

عموم المعاني الآيات: 243-251

الآيات من 242 الى 251 التى تُرى المسلمين قصة نبى بني إسرائيل - وهم حول المسلمين فى المدينة وفى العالم من بعد – تروى كيف يصير المتدينون بضعف الإيمان إلى هجرة وذل يميت أهل الدين بانتكاسهم حتى يتوبوا فيحييهم الله وإلى مجتمع يحصر الدين فى العلم الموروث حتى لايكون لزعماء الدين بين الجامدين القاعدين إلا العلم والبركة لا يجمعون إلى ذلك قيادة الجهاد توحيداً لله ، حتى إذا استفزهم الأمر إلى ان ينشدوا للدين سلطاناً يدفع بالجهاد إلى العز قد يحسبون مشروعية القيادة وراثة ومالاً ، وإنما الأهلية والمشروعية هى العلم والكفاءة ، وإذا قيضّ الله لهم من هو أهل للسلطان والقيادة الجهادية علماً ودربة وإذا زادهم ثقة بان يسر به إحياء التراث فإنهم فى امتحان موصول يزعمون طلب الجهاد ، فإذا كتب يتولى منهم كثير ، ويمتحنون بالمسارعة والفرار إلى الله جهاداً ولكن كثيراً منهم يتبطأ ويتاخر لمتاع الدنيا، وبمقابلة العدو فتفتنهم عن الإقدام فى وجهه ضخامة جيشه إلا أن قليلاً منهم يمضى متوكلاً على الله صابراً ذاكراً داعياً لله حتى النصر ، وذلك التمكن فى الأرض يتم من بعد بالحكمة والعلم فى سياسة الأمور ، فهى ثمرة تلك السيرة لمن تجاوز تلك الابتلاءات فى القتال .

وتلك سنة انه لايقوم الدين فى الحياة الخاصة والعلمية ولاينبسط فى الحياة العامة والسلطانية إلا بالمدافعة بين الناس ليلبو الله قوة الحق بقوة الباطل وليحقّ فيهم الحق والصلاح ويزهق الباطل والفساد فى الأرض . هذه تذكرة وعبرة للمسلمين فى المدينة لأول عهدهم بالجهاد كتب عليهم وكانوا قادمين ، وهى كذلك لكل نهضة للإسلام من جديد .

والآيتان التاليتان عن هدى الله بالحق يتلى ويتتالى على المرسلين والأمم تذكرة متجددة وعبرة ، يتفاضل الأنبياء حسب ابتلاءاتهم ولكن أصول الرسالة والملة واحدة ، ما يكون للأمم بعدهم ان يتختلفوا على البينات فيقتلوا ، ولذلك كتب القتال فى سبيل الله ضد الكافرين الظالمين وكتب الإنفاق من كسب الرزق فى سبيل الجهاد والحاجات عامة .

ترتيل المعاني: الآيات 252–260

﴿ تْلكَ ءايَاتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وإنكَ لمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (252)

الخطاب فى الاية للرسول (ص) ليتأمل فى عبرة ما جرى لأهل الدين والكتب المنزلة من قبله وما وقع عليهم من ضلالات وصراعات حول الحق واختبارات وابتلاءات ، منهم كثرة تضل وتخفق فى تجاوز الابتلاء وقلة تهتدى ونكتب لها الغلبة إذا صابرت وجاهدت . فهى آيات تتلى على الرسول بالحق لانها ليست قصصاً تروى زوراً أو تحكى للهو والتسلية ولكنها صدق وسابقة حق ينبغى أن يعتبر بها وهى تذكرة للرسول ﷺ بأنه رسول من موكب اولئك الذين سبقوا من المرسلين يصدقون ما بين أيديهم من الحق والكتاب ويعتبرون بسيرة أولئك فيما تتلى عليهم من آيات قصص السابقين .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مّنْهُم مَّن كلَّمِ اللهُ ورفَعَ بَعْضَهُمْ درَجَاتٍ وءاتيْنَا عِيسى أبن مَرَيْمَ البّينَاتِ وأيدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شاء اللهُ ما اقْتتلَ الَّذين من بَعْدهم من بَعْد ما جَاءْتُهُمْ الْبَيِنَاتُ ولَكِنِ اختْلفَوا فَمِنهُم من ءامَنَ ومِنهُم من كَفَرَ ولوْ شاء اللهُ ما اقتتلُوا ولكِن الله يْفعلُ ما يُريدُ ﴾ (253)

تلك الرسل الذين جاءوا قبل محمد ﷺ وجاء هو منهم وقد قُدّر بأقدار الله لكلٍ منهم حظه من بلاء واقع الناس وتكاليف رسالته ليعالج عين ذلك الواقع فجعل لكل ميزة فضلاً عن الأهلية العامة للرسولية وذلك وفق ظروف رسالته وملاءمة لأنماط التحديات التى واجهته ، فمنهم من كلم الله ، إشارة لسيدنا موسى عليه السلام الذى كلمه الله من وراء حجاب واصطفاه بكلامه دون سائر المرسلين لأن قومه لايقبلون الرسالة إلا عن كلام مباشر بل طلبوا من بعد رؤية الله جهرةً وسائر الآيات المشهودات المعجزات ولكن لم يريدوا معه الجهاد . وتوالى بعد موسى رسل رفع الله بعضهم درجات فى الحياة العامة ملكاً سلطانياً مقارنة بالذى لم يتجاوز دور التعليم والارشاد . وأرسل الله عيسى ابن مريم وآتاه الآيات البينات المعجزات الدالة على رسالته وأيده بروح القدس المطهر جبريل عليه السلام بقدر لم يؤته بقية المرسلين ، فقد كان ظرف رسالته يحتاج للتاييد الزائد بسبب الاضطهاد والمكائد والقلة والذلة فى التابعين وضرورة المعجزات آية للمخاطبين وطمأنينة للحوارين. فسنن الأنبياء ورسالتهم واحدة بآيات بينات من هدى الكتاب مهما تكن درجاتهم فى الحياة ومهما تكن ميزاتهم المتفاصلة . ولو شاء الله ما بلغ ما بين أتباعهم ان يختلفوا فيقتتلوا من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن الله لايطبع الناس على الحق كرهاً بل يبتليهم ويخيّرهم فالذين من بعدهم مرقوا بأهوائهم على هذه السنن الواحدة والبينات التى أوحيت من الله الواحد ، فاختلفوا لا لاختلاف ميزات الرسل المناسبة لظروف ولكن باختلاف ضلالات عن الهدى اتباعاً للهوى ، واختلفوا على البينات الواضحات بغياً من عند انفسهم فمنهم من آمن واعتصم بتلك الملة والسنة الواحدة ومنهم من كفر بها وهو يدعى إيماناً . فالاختلاف لو شاء الله ما تفاقم حتى يبلغ حدة القتال ولكن الله بفعل بعلاقات عباده مايرير من تخيير

وابتلاء إلى أقصى ما يبلغ بالناس الخيار ولو قتالاً بين اتباع رسل ملة واحدة . والآية تذكير لمحمد ﷺ وصحبه بأن مشيئة الله جعلت أقداره وسننه تمضى على ذلك النحو ولو أراد لجعل الناس كلهم جبراً على هدى الرسالة الخاتمة المصدقة للرسالات ، ولكن سنة الله أن يمضى الخيار ويقع الاختلاف وقد يبلغ ذلك القتال بين المسلمين وبين أهل الكتاب .

﴿ يَأَيها الَّذين ءامَنُوا أنفقوا مِمَّا رزَقْناكُم مّن قَبْلِ أن يأتى يومٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ ولاخُلةٌ ولاشَفَاعَةٌ والْكافُرِونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (254)

الآية تصل وحدة الرسالات بالبينات والاختلاف بين المخالفين حتى القتال بين المؤمنين والكافرين بخطاب للذين آمنوا وإيصاء بالإنفاق سنة لازمة لحاجة الجهاد والضراء رجاء الآخرة سنة تميز المؤمنين عن الكافرين ، وضل أهل عنها الكتاب وبخلوا بأموالهم ، وهى تصل ما سبق من ذكر الإنفاق بعد أمر القتال لبنى إسرائيل بعد الهجرة فى الآيتين (244،245) وهى تمهيد لوصايا بالإنفاق العام لاحقة جاءت بالخطاب والتنبيه للذين آمنوا أن ينفقوا مما رزقهم الله طوال الحياة من قبل أن ياتى الموت ويوم البعث والحساب . ذلك إن المؤمن يوم القيامة سيسأل عن الرزق والمال الذى استخلفه الله فيه وإذا بخل عن الإنفاق فإنه لايجديه البيع يوم القيامة لأنه يومئذ لايملك شيئاً وراء ما انفق قبلاً من رزق الدنيا يبتاع به رزق الجنة أو يفتدى ويبيع به العذاب ، ولايجد فى ذلك اليوم خليلاً يدفع عنه العذاب أو يهديه اجراً بما كسب هو ولن يجد شفيعاً يقوم معه مدافعاً أو وسيطاً . والكافرون الذين اختلفوا على البينات التجاءت بالملة الواحدة للرسالات وكفروا بها كما فى الآية السابقة مباشرة ، أولئك هم البخلاء الظالمون بالأرزاق يأكلونها بالباطل ولا ينفقون فى سبيل الله ما رزقه الله بأقداره ، ذلك بينما المؤمنون لايظلمون بل ينفقون المال الذى يستخلفونه من الله طوعاً فى سبيله لا فقط بيعاً أو شراكة ويرجون اجر الله يوماً لارجاء فيه كالدنيا تجارة عاجلة ومعاملة بالمال .

﴿ اللهُ لا إله إلا هُو الحي القيّومُ لا تَأخذهُ سِنَةٌ ولانوْمٌ لهُ ما فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ من ذَا الَّذِي يَشفْعُ عِندهُ إلاَّ بِأذنِه يَعْلمُ ما بَيْنَ أيدِيهمْ وما خَلْفُهُمْ ولا يُحِيطُونَ بشيءٍ مّنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِما شاء وسعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ والأرْضَ ولا يئُودُهُ حِفظُهُما وهُو الْعليُّ الْعظيمُ ﴾ (255)

آية أو آيتان حسب القراءات – للتذكير بالإيمان والتوحيد نفياً لإلهة المشركين وتطهراً من عبادتها وإثباتاً للألوهية لله واحداً بصفاته الحسنى المطلقة ، ذلك هو أساس رسالة الرسل المتعاقبين الذين ذكرتهم الآيات السابقة وهو هدى البينات والحق الذى اختلف عليه الناس حتى غشيهم الإشراك وحتى انفرطت وحدتهم واقتتلوا وبخلوا برزق الله وغفلوا عن حسابه المحتوم . فالله الحى أزلاً لايموت ، قدره وقضاؤه يتجلى أبدا ، القيوم كامل القيام بكل المخلوقات طبعاً أو أمراً للإنسان شرعاً وتخييراً وحساباً ، لاتأخذه سنة نعاس فلذا لايبلغ النوم ، فهو حى قيوم لاتفتر قدرته ولاتجمد ابدا . كل ما فى السموات والأرض له فضلاً عما يرزق المؤمنين، لايملك أحد شيئاً من ذلك إلا بأمر الملك الى ا القيوم

. ويوم القيام له الملك والحساب لابيع ولا خلة ولاشفاعة دونه ، وله المهابة الأتم فلا ينطق أحدٌ يومئذ إلا بإذنه ولايشفع شافع عنده شفاعة مستقلة يوم القيامة . وكان العرب فى شركهم يؤنون بالملائكة بنات الله تشفع لهم عنده فى الدنيا وتحيطهم علماً مما عنده . فالله يعلم حاضر الخلق وماضيهم كما يعلم مستقبلهم فكل أمر وحركة فى الكون بمشيئته وعلمه الواسع . والإنس والجن لايحيطون بشيء من علم الله إلا بما شاء الله لهم أن يعلموا من معلومة ويحيطوا بها . والكرسى ملك الله وسلطانه الشامل المحيط بكل ما فى السموات والأرض خالقاً مقدراً لايماثله سلطان الإنسان المحدود المدى ، والكرسى تعبير عن أساس قوة الله وسلطانه المطلق باسم قاعدة الملك والسلطان فى عالم الشهادة والإنسان . وإن الله لايؤوده يعييه إن يكون حافظاً قيوماً على السموات والأرض فهو حىّ قيوم لايغشاه فتور ولايشاركه أحد . وهو العلى العظيم فوق كل ذى مقام ومبلغ عال فى السموات والأرض وعظيم أكبر من كل ما يعظم قدره وقوته فيهما . والآية تذكرة بليغة فى هذا السياق ليهتدى المؤمن فى كل شأنه بأشمل وأدق صفات التوحيد فهو يؤمن بالله موحداً ويحيا بذلك نابذاً للفرقة والاختلاف مجاهداً فى سبيل الله منفقاً لايبخل بما استُخلف وابتلى فيه من مال الذى له ما فى السموات والأرض .

﴿ لاَإِكْرَاهَ فِي الدّينِ قَدْ تَّبَيَّن الرُّشْدُ مِنَ الْغيِ فَمَن يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ ويُؤمِن باللهِ فَقَدِ اسْتمْسكَ بالعُروةِ الْوُثْقَى لاَ انْفصام لهَا واللَّهُ سَمِيعٌ عَليمٌ ﴾ (256)

بعد تبيان هيمنة الله التامة على السموات والأرض وأنه يقوم أمر إلا به فى الأية السابقة أوضحت الآية أن الله مع كل كمال سلطانه وتمامه لايطبع الناس كرهاً على الإيمان ولايجوز للداعية حتى للرسول ﷺ أن يكره أحداً على الإيمان ، كما فى سورة يونس " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (الآية 99) وكما فى الآيات الكثيرة التى ذكرت سيرة الانبياء . وقد نزل الوحى بالبينات واتضحت آيات الإيمان وتمايز الرشد والهدى عن الغى والضلال ، فمن يتطهر من رواسب الجاهلية ويكفر بالطاغوت ، الطغيات البالغ ، متحرراً بالتوحيد متجرداً عن الإلهة الكاذبة بحرية اختيار وصدق ، ومن بلغ ذلك بمحض ايمانه بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى الرابطة المتن والعقد الأسدّ إيماناً بالله وهدى ، لا انفصام لذلك الميثاق من عند المؤمن الصدوق الخالص ولا من عند الله القريب المستجيب ، والله سميع عليم يسمع جداً خبر المؤمن أو الكافر ويعلم جداً حقيقة الإيمان أو الكفر ولا يكره فى الدين خيرة الإنسان .

﴿ الله وليُّ الَّذين ءامنُوا يُخرجُهُم مّن الظُّلُمَاتِ إلى النُّور والَّذين كَفَروا أوْلياؤهم الطاغوتُ يُخرجونهم من النُّور إلى الظُّلُماتِ أولئِك أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدونَ ﴾ (257)

يتواصل سياق الآيات فى شرح الدين والتوحيد طوعاً لا كرهاً وخياراً بين موالاة الله أو الطاغوت وبين الخروج من النور إلى الظلمات أو الخروج المرتد ، والله ولي الذين آمنوا بالرحمة والنصر وبإخراجهم

من ظلمات الخبط الأعمى إلى نور الهدى وبالآيات البينات والرشد بالشرع محجة بيضاء . والذين كفروا بالله وآمنوا بالطاغوت لن يتولاهم الله ولكن يتولاهم الطاغوت فتنة تخرجهم من نور الهدى إلى الظلمات المضلة ، وأؤلئك لن تنفعهم يوم القيامة ولاية الطاغوت فهم أصحاب النار الخالدون فيها .

﴿ ألم تَرَ إلى الَّذى حآجَّ إبْراهِم في ربّهِ أن ءاتاهُ الْمُلْكَ إذ قال إبْراهِم ربّى الَّذى يُحْيِ ويُمِيتُ قالَ أنا أحى واميتُ قال إبْراهِمُ فَإن اللهَ يأْتِي بِالشَّمْسِ من الْمشْرقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمغْرِبِ فُبِهتَ الَّذى كَفَرَ واللهُ لايَهدى القَوْمَ الظَّالمِين ﴾ (258)

الآية تصل ذكر التوحيد بالله الحي القيوم والسؤال فى مستهل الآية للمخاطبة لقارئ للقرآن ألم ير ويعتبر بمشهد من آتاه الله الملك ولكنه كفر بنعمة الله وفتنة الطاغوت السلطانى وبدفعه أخذ يحاجّ إبراهيم الذى تبرأ من عبادة الأفلاك والأصنام وحج أهله فى ذلك والذى دفعته الملة التوحيدية لله أن يحاج حتى الملك . وذكر إبراهيم عليه السلام توالى فى السورة لإحكام وصل تراث التوحيد والإسلام بسنة إبراهيم ابن الحضارة السلطانية المشركة وأبو العرب المشركين عند نزول القرآن فمن فتنة الملك فكفر ولم يشكر لله النعمة تصدى لمحاجة إبراهيم لكن إبراهيم عليه السلام يذكر أكبر خصائص توحيد امر الله أنه القيوم وحده يأمر الإحياء والإماتة فى المخلوقات فى وجه ادعاء الملك أنه هو له شرك مع الله فى أمر الحياة والموت ، أقدار سيرة الإنسان ، لانه بسلطانه يستطيع أن يقتل من يشاء ويعفو عمن يشاء . فنقل إبراهيم عليه السلام المجادلة مع الملك إلى حجة أخرى من أقدار الله الطبيعية فنصب فى وجهه صفة الله الحق القائم على أمر الكون يأتى بالشمس من مشرقها المقُدّر وتحداه أن يتصرف بملكه المطلق المزعوم فيغلب بإتيانها من المغرب المعتاد ، وهذه أقدار الطبيعة وسننها التى تتبدل بعمل الإنسان كما يتسبب فى مظاهر الولادة والقتل ويتوهم أنه يحرك أقدار حياة الإنسان ، فبُهت الملك الذى كفر بالله طغياناً وانقطعت حجته ، فالله لايهدى الظالمين حجة ولا عملاً تجاوزاً للحق إلى حجة غالبة بل يبُهتون فى وجه حجة الحق كحجة إبراهيم البينّة كما يتبين الرشد من الغي .

﴿ أوْ كالذى مَرَّ عَلى قرية وهى خاويةٌ عَلَى عُرُوشها قال أني يُحْيِ هذه اللهُ بَعدْ موْتهَا فَأَماتهُ الله مائة عامٍ ثُمَّ بَعثَهُ قال كَم لبثُ قال لبِثْتُ يوماً أوْ بعض يومٍ قَالَ بَل لبثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وشَرَابِكَ لم يَتسَنهْ وانظر إلى حِمارِكَ ولنَجْعَلك ءايةً للنَّاسِ وانظر إلى الْعِظامِ كيفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نكَسُوها لَحْماً فلَمَّا تَبيَّنَ لهُ قالَ أَعْلمُ أن اللهَ عَلَى كُلّ شيْء قدِيرٌ ﴾ (259)

يتواصل السياق الغيبى التوحيدى الذى يذكر ولاية الله لهداية الإنسان وتصريف مصائره ويذكر اليوم الآخر الذى يحي فيه الله الموتى ويحاسبهم لاشفاعه عنده الإ بإذنه ، وذلك بعبرة مَثل الناظر المتسائل عن آيات الله الذى يبعث الموتى يوم القيامه و إنه يبحث عن آيات الله واليوم الآخر فى مظاهر الموت والحياة بعالم الشهادة ، إذ مر على قرية وقعت فيها الحيطان على السقوف وأضحت هياكل خربة مهجورة عليها الخلاء فخطر له أنه موت ماحق لأهلها متعجباً أنّى بأىّ وجه يبعث الله الحياة فى

تلك القرية بعد موتها وخوائها . فجعل الله لهذا المستيئس من البعث مثلاً من نفسه بأن أماته عام ، ثم بعثه للحياة مرة أخرى وأوحى له الله فى نفسه السؤال كم لبث غائباً منه المشهود وكان خاطره جواباً أنه نام يوماً أو بعضه ثم أستيقظ ، يفصح بذلك عن جهله بالسنوات المائة التى مرت عليه، وجاءه وحىُ اليقين بمدى الموت حقاً . والمكوث فى غيبته مائة عام دون أثر على جسده وأحاطت به آيات الله الذى يحفظ دون الفناء الباتّ من يشاء ، وخوطب أن يتأمل طعامه وشرابه كيف بدأ غير آسٍ فساداً بالأثر المعتاد لمر السنين وحماره كيف قام ، لم يلحق به الفناء بطول العهد ، آية أخرى ، فالله يحفظ مادة الغذاء ولحم الحيوان لا تفنى لانحلالها فى الأرض . أقامه الله كذلك ليجعله الله آية البعث لمن لقيه من الناس من عرفوا قديماً عهده وأدركوا أنه بعث إليهم من بعد قرن من الموت دليلاً على قدر الله فى الانسان نشأة أخرى حياة بعد الموت للانسان وتجدداً حياً صالحاً للطعام والحيوان ، وآيةً للبعث يوم القيامة مهما بدت ظاهرة الفناء فى قرية وأهلها . ذلك أنه لا وجود لنسبية الزمان بعد الموت يوماً أو مائة عام أو الوفاة إلى يوم القيامة فالله ، يبعث الميت متى مات لأجل البعث. وخُوطب الناظر المعتبر أن يتامل عظام الحياة فيه وفى حماره كيف يُنشزها أو ينشرها الله (قراءة) يرفعها ويبسطها مجتمعةً هيكلاً ثم يكسوها اللحم وتتم الحياة كالخلق الأول ، كيف يحفظ الله نبات الأرض بعد موته ويحييه بعد موته يكونّه ويحييه ويجمع من مادة الأرض جسداً بشرياً وتسرى فى ذلك الحياة والروح يوم البعث . فلما استبان للناظر المستغرب الحياة بعد الموت المنبعث بها هو بعد قرن رأى الآيات الباهرات وانتهى إلى الإقرار بالعلم بقدرة الله المطلقة المحيطة بكل شيئ .

﴿ وإذ قالَ إبراهيم ربّ أرنى كيف تُحيِ الْموْتَى قَالَ أولمْ تؤمن قالَ بَلى وَلَكِن لّيَطْمَئِنَّ قلْبي قال فَخُذْ أربعةً مّنَ الطَّيرِ فصُرْهن إليك ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلّ جَبَلٍ مّنُهنَّ جُزءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يأتينكَ سَعْياً واعلم أن الله عَزيزٌ حَكيمٌ ﴾ (260)

مضى سياق البعث إحياء بعد اماته بمثال من قصة إبراهيم يجادل ملكاً مفتوناً بالسلطة وقصة من يسائل ذاته عبر التجربة فى سبيل الهدى بأن الله الحى الذى لايموت يحي ويميت ويبعث . وفى الآية يصله مثال آخر من سنة إبراهيم التى تبيح للمسلم أن يثير الأسئلة الكبرى بحثاً عن طمأنينة العقل والقلب بالإيمان بالله والبعث وراء قلق الأسئلة فى الخاطر والنفس .

دعا إبراهيم عليه السلام ربه بإن يبين له بالرؤية المباشرة كيف هو تعالى يحيى الموتى ، والأية تصل السؤال بالبحث عن تأكيد البعث بمثل ما فى الآية السابقة من مشاهد كيفية البعث بعد الموت . فخاطبه الله سبحانه وحيّا : أذلك أنك لم تؤمن أصلاً وتبحث عن بيّنة بالمعاينة ؟ فأجاب إبراهيم عليه السلام أنه قد آمن لكنه يبحث عن مشهد آية تزيده طمانينة إيمان واستقرار ، فأرشده الله عندئذ أن يأخذ اربعة من الطير فيصُرْهُن يجمعهن إلى يده ويشدهن حتى يتقطعهن أجزاء مثل ما يتفتت جسد الميت ليذهب فى التراب ويجمع الأجزاء المنفتة المنخلطة ثم يوزّع على كل جبل جزءاً شيئاً

من ذلك ، ثم بعد كل ذلك القتل والتقطيع والتوزيع أن يدعو الطير الأربعة يأتينه أحياء يسعين إليه ، وأوصى أن يعتبر من ذلك ويطمئن إيمانه تجربة فى موت الحيوان وبلاء جسمه وتفرقه ثم انبعاثه ، وليعلم أن الله عزيز فى إحاطته بالكون كله لايعذب عن حوله وقوته شئ إماتة وإحياء مهما دق وصغر وإن كانت الأحياء تسرى عناصرها مختلطة بغيرها فى التراب مثل أجزاء الطير المذكور ، وان الله حكيم دقيق القدر الواقع ينشر بحكمته العناصر فى الكون الدقيقة ميتة ويركّبها حية . وكانت تلك التجربة فى المشهود المعجز تثبيتاً للإيمان عند نبي لابد ان يمتليء بعقيدة البعث ويراه قريباً ماثلاً ويعضد بها رسالة دعوته ليؤمن غيره بالبعث والدار الآخرة .

عموم المعاني الآيات:252-260

الآيات (255-260) آيات الإيمان الطوعى بوحدانية الله وعلوةّ المطلق وبالبعث والآخرة وصل لما سبق من ذكر بينات الحق فى رسالات الأنبياء ومن الإنفاق مما رزق الله فى الدنيا قرضاً ليوم لا رجاء فيه إلا أجر الله . والآيات الإيمانية أصل مبين لماسيتلو من ذكر الإنفاق لما هو فضل الله فى سبيل مضاعفة أجره بعد البعث فى الآخرة .

والآيات تؤصل الدين إيماناً بالله وكفراً بالطاغوت على الإخلاص لا على الإكراه والمنافقة وترتّب عليه موالاة الله الذى يُخرج من الظلمات إلى النور دنيا أاخرى .

وتؤسس الدين كذلك أيماناً بالبعث والحساب تاملاً فى آيات الحياة وتطهراً من فتنة مشهد الجساد تموت وتتآكل وتتقادم وتختلط رؤية تنصرف عن يوم النشأة الأخرى توهماً بفناء الحياة والأرواح . والإشراك بالله والمادة الكافرة بالغيب ضلال والإيمان بالله واليوم الاخر رشدٌ لحياة الإنسان ، لاسيما فى ابتلاء علاقات الرزق والمال حيث تغشاه الفتنة جنوحاً لحب شهوة الكسب والشح ولإيثار العاجلة . ومهما يكن أمر المؤمن مع إيمانه ويقينه ففى سنة الأنبياء إباحة لإجالة الفطر بحثاً عن طمأنينة القلب بالإيمان ومجال لطرح الاسئلة الكبرى سعياً وبحثاً مهدياً فى سبيل مزيد علم مطمئن إيماناً بالبعث وحقائق الغيب .

ترتيل المعاني: الآيات261-274

﴿ مَثلُ الَّذين يُنفقُونَ أموالهم فِي سبيل اللهِ كَمثلِ حبَّةٍ أنبتتْ سَبعَ سنابِل في كُلِّ سُنبلة مائة حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَن يشاءُ واللهُ واسِعٌ عَليمٌ ﴾ (261)

مهدت الايات (3،177،195،215،219،245،254) من قبل للإنفاق أكبر فضائل المؤمنين بعد الصلاة صلة بينهم وبين الله استمداداً من رزقه ومدً إلى نعيمه الموعود ، ويأتى تفصيل هديه فى هذه الآية وما يتلوها . (والنسق فى الطوال كسورة البقرة أن يُمهد للموضوع بذكر عارض تعقبه موضوعات ثم يعود السياق ليفصّل الموضوع . فقد سبقت الآية (245) تدعو المؤمنين للإنفاق فى سبيل الله قبل يوم الحساب الآجل ، والبعث فى الآيتين السابقتين مداه وكيفه مثل لعاقبة الإنفاق ، فإن حبة ميتة فى الدنيا يخرج الله منها النبات الحى ويبعث بها بضع سنابل فى كل سنبلة حبوب كثيرة ، تلك طبيعة البذر والإنبات ، ومثل الإنفاق الذى ينزرع عملاً صالحاً فى الدنيا كذلك كأنه حبة تنبت ويتضاعف نتتاجها فى الآخرة سبعمائة ضعف ، ذلك مثل المنفقين فى سبيل الله ومضاعفة جزائهم فى الآخرة كالزارعين ، وحتى هذا الحساب البالغ لايحصى الأجر المضاعف للمنفق الصادق فإن مشيئة الله قد تمضى أكثر من ذلك والله واسع بغير حد يجود على المنفق بالجزاء أجراً مضاعفاً يوم الآجلة وبركة فى العاجلة ، وعليم يعلم حقيقة الإنفاق وأثره ودوافعه وقدره فلا يضيع الآجر عنده.

﴿ الَّذين يُنفِقُون أمواله فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتبِعُونَ ما أنفقوا مَناً ولاَ أذى لَّهُمْ أجْرُهُمْ عِندَ ربّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَليهِم وَهُمْ يَحْزنُونَ ﴾ (262)

السياق يتواصل لترسيخ الإنفاق وأخلاقه فى مجتمع المسلمين . والآية تذكر مصير الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايصاحبون إنفاقهم بمن ولا أذى . والمن القطع والكلام والسلوك الذى يذاكر ويفاخر ويثقل وطأة الجميل على من ينفق عليه حتى تنقطع وشائج الإخاء والخير بين المؤمنين ، والأذى هو الضرر الذى يلحقه سخرية أو إذلالاً . ومصير أولئك المحسنين إنفاقاً بكيف ووقع طيب أن لهم الأجر المقابل عند ربهم ، ولا خوف عليهم من سوء العاقبة ولا هم يحزنون من فوات الكسب دنيا للأجر المضاعف آخرة .

﴿ قولٌ مَّعْروفٌ ومَغْفِرَةٌ خيْرٌ مّن صدقةٍ يَتْبعُهَا أذى واللهُ غنِيٌ حَليِمٌ ﴾ (263)

أن يصدر من المسؤول قولٌ معروف طيب عفواً ودعاء أو ترجية كالذى يرضاه عرف المسؤولين والسائلين ومغفرةٌ دعاء ستر للسائل وحاجته ذلك ولو لم يتيسر العطاء خيٌر من ذى يسرة يعطى صدقة ويتبعها بما يؤذى السائل، فالله غنى يغنى عباده عن نفقة تجر وراءها المن والأذى وذو حلم بالغ على مؤاذاة الفقير 'وحليم' ترد فى سياقات القرآن إشارة إلى معنى أكبر من 'غفور' ، فالذى يتبع إنفاقه بالمن والأذى لعباده الله يحتاج لحلم الله عليه من غضبه القريب .

﴿ يا أيها الَّذين ءامنُوا لاتُبْطلُوا صَدقاتكُم بالمَنّ والأذى كالذي يُنفقُ ماله رِئاءَ النَّاس ولاَ يؤمنُ باللهِ واليَوْمِ الآخر فمثلهُ كمثَلِ صفْوان عليْهِ تُرَابٌ فَأصابهُ وابِلٌ فَتركَهُ صلداً لا يَقدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مّمَّا كَسبُوا واللهُ لاَ يَهدى الْقوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (264)

الخطاب فى سياق الإنفاق يتوجه ويتأكد تنبيهاً للذين آمنوا للخلق المطهر فى الإنفاق من المن والأذى الذى يبطله وينسخ أجره ويجعل فاعله مثل الذى ينفق رياءاً ومنافقة للناس لابدافع نية خالصة Ḱ ኇ مطر هاطل شديد من المن والأذى الذى نزل بعد الإنفاق فانقشع التراب والوهم الظاهر فانكشف عن حجر مجردّ من كل نامية ، من يفعل ذلك لايقدر على شئ فلا يبلغون بإنقاقهم شيئاً جزءاً عاجلاً ولايستطيعون بكسبهم سبيلاً إلى أجر آجلاً فلا بيع يوم القيامة ، ولكن من أنفق عن صدق وحسنى يجد أجراً بما كسب الأضعاف الكثيرة . والله يزيد المنفق المخلص هدى فى الدنيا ويهدى إلى نعيم الآخرة .

ولكن الكافر الذي لايؤمن بالله وباليوم الآخر لن يجد مهما أنفق الهدى العاجل بركة أو الآجل يوم القيامة فكل عمل الكافرين هباء منثور .

﴿ وَمثلُ الَّذينَ يُنفِقونَ أموالهم ابتِغاءَ مرضاة الله وَتَثْبِيتاً مّنْ أنفسهم كَمَثَلِ جَنةٍ بِرَبوةٍ أصَابَها وَابِلٌ فأتتْ أكُلهَا ضِعْفَيْنِ فَإن لَّمْ يُصِبْهَا وابِلٌ فطلٌّ واللهُ بمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (265)

يتصل السياق فى الآيتين لتبيان أوجه الإنفاق فى سبيل الله بمثالين متقابلين للمنفق المرائى الذى يتبع إنفاقه المنّ والأذى وللمؤمن الذى ينفق مخلصاً ابتغاء مرضاة الله وتيقناً صدقاً من عند أنفسهم يثبت إيمانهم ويطهره من الشح والخوف والطمع ذلك أن ابتغاء مرضاة الله يعلو فوق كل ذلك الاضطراب كجنة وبستان بربوة بمكان عال أصابها وابل فرويت أحسن الرى وليست مثل الجنة فى مكان منخفض يجتاحها السيل من مياه الوابل أو يحتبس عنها الماء فيغرق زرعها فهى مستجيبة للرى المعتدل تؤتى ثمارها مضاعفة . فالصادق المخلص لين القلب إذا أنفق تنزل عليه العمل الصالح فأنبت أجراً مضاعفاً ، وذلك مقابل مثال الحجر الصلد المترب الذي لايستجيب للوابل إلا تجرداً وهو مثل قلب المنافق القاسى الذى ينفق رياءً يصب عليه المن والأذى المبطل أجره فينزلق عنه أثر عمل الخير فى الدنيا وأجره فى الآخرة فالمؤمن المنفق كالربوة الخصبة الرويّة حتى إذا لم يصبها الغيث الكثير فان الإنفاق القليل منه كالطلّ من الغيث تسستجيب له الربوة ويثمر أجراً ، والله نافذ البصر بإنفاقكم لايضيع منه شيء عن إخلاص وصدق أو رياء بمن وأذى .

﴿ أيودُّ أَحَدُكُمْ أن تَكُونَ لهُ جنَّةٌ من نَّخيلٍ وأعنابٍ تجْري من تحْتها النهَارُ لهُ فِيها من كُلّ الثَّمراتِ وأصابهُ الْكِبرُ وله ذرّيةٌ ضعفاءُ فأصابَها إعصارٌ فيهِ نارٌ فاحْترقَت كَذلِكَ يُبينُ اللهُ لَكُمُ الأياتِ لَعَلَّكُمْ تَتفَكَّرُونَ ﴾ (266)

يتصل السياق فى الآيات الثلاث بامثلة من محيط الزراعة لجلاء معنى الإنفاق ولأن نمط العمل الزراعى معروف لايستغنى عنه إنسان فى كل الأرض لأنه بذر اقدار الله الطبيعية ماءً ومدداً من الارض أو من السماء وضوءاً وأقدار حياة تبشر بحصاد وفير لايصنعه الإنسان .

الخطاب يتوجه ويتخصص لأى من الذين آمنوا تكون له جنة من نخيل وعنب تجرى من تحتها الألنهار له فيها من كل الثمرات لكن أصابه الكبر والعجز وله حاجة ملحة إذ له ذرية ضعفاء صغار فأصاب جنته إعصار – تياراً صاعداً حمل ناراً فجال بها فاحترقت أشجار الجنة . فالإنفاق عمل صالح كالجنة يثمر أجراً ويوم القيامة ينقطع العمل وتشتد الحاجة لذلك الأجر المرضي لكن سالفة منّ وأذى تهب على صالح إنفاقه فتبطله وتحرق ثمرات الأجر المرجوه . كذلك يبين الله لكم آيات القرآن ببيان الخير المرجو يوم القيامة أجراً لسابقه الإنفاق الطيب النهج ، فلعلكم تتفكرون فلا تبطلون بالمن والأذى .

﴿ يَا أيها الذين ءامنُوا أنفقوا من طَيِّباتِ مَا كَسَبْتُمْ وممَّا أَخْرَجْنا لكم مّن الأَرْضِ ولاَ تَيَمَّمُوا الْخَبيث مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلسْتُم بِأَخِذيهِ إلاَّ أن تُغمِضُوا فيهِ واعْلمُوا أن اللهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ ﴾ (267)

الخطاب يتوجه للذين آمنوا فى الآيات السابقة تنبيهاً مذكراً بيوم الحساب الفردى وموصّلا على معانى التوحيد والإيمان والرشد والاعتصام وعلى البعث بعد الممات والأجر المضاعف عنده بالآخرة ، وموصياً بأساليب الإنفاق مجرداً من الأذى وخالصاً لله ، وضارباً أمثلة العواقب لانفاق المؤمن والكافر . والخطاب يتوجه فى هذه الآية تنبيهاً للإنفاق لا من حيث أسلوبه الطيب لكن من حيث موارده وأوعيته . فالإنفاق من النوع الطيب من مكسوباتكم من الحلال الحسن من محصولات جهدكم ومن مخرجات الأرض التى رزقكم بها الله زراعة وركازاً ، ولا تصوبوا نحو الخبيث تؤثرون أن تنفقوا من السيء غير الحسن لئلا تفقدوا مما يعزّ عليكم شيئاً ، بل من الخبيث مما لو عرض عليكم لاتأخذونه لأنفسكم طعاماً أو كسباً فى التجارة إلا بالإغماص فيه عن غض طرف عن عيوبه لا عن اختيار . واعلموا وعياً راسخاً أن الله غنى عن الخبيث لا يشتريه بأجر،وحميد بالغ الحمد لمن ينفق من الطيب يضاعف له الأجر.

﴿ الشيطان يَعِدكُمُ الْفقْرَ ويَأْمُركُم بِالْفَحْشاء واللهُ يعِدُكُم مَّغفِرة منه وفضلاً واللهُ واسِعٌ عَليمٌ ﴾ (268)

الخطاب فى سياق الإنفاق فى الآية يستمر ، فالشيطان يتخذ من ذهاب المال فتنة ضعف وزلزلة ويستغل ذلك بأن يتوعدكم إذا انفقتم أن تذهب أموالكم وتتبدد وتنتهوا إلى الفقر ويوسوس لكم لتعرضوا عن بذل المال فى سبيل الله ولئلا تروا كيف تنمو الحياة كلها بالإنفاق شركة وتعاوناً بالمال ، ويأمركم من نذير بالفقر أن تبخلوا وتمنّوا وتؤذوا وأن تنفقوا من الخبيث ، فالفحشاء كل تلك السيئات البادية فى الإنفاق واساليبه وأوعيته ، ولكن إذا اتقيتم نذير الشيطان وأمره وأنفقتم من طيب الرزق

بطيب القول فإن وعد الله لكم مغفرة وفضلاً بالعفو عن سيئاتكم والبركة فى أموالكم دنيا ومضاعفة الجزاء والأجر آخرى كما فى مثال السنبلة وحبوب السنابل عن حبة والجنة الطيبة المحفوظة من الحريق . والله واسع يمد من مغفرته ويضاعف من فضله لمن أنفق ، وعليم دقيق لمن يتقى وسوسة الشيطان ويستجيب لداعى الله .

﴿ يُؤتى الْحِكْمةَ من يشاءُ وَمَن يُؤْت الْحِكمةَ فَقَد أوتِي خَيْراً كثيراً وما يذكَّرُ إلا أولُوا الألبَابِ ﴾ (269)

الآية تذكير بأصول الدين فى سياقات الإنفاق ،فالله تعالى كما يعد عباده ويعطيهم فضلاً من الرزق وكما هو فى ذلك واسع عطاء عليم هو الذى يعطى الحكمة من يشاء من عبادة ، والحكمة خير أكبر وأكثر من المال. والحكمة هى العلم الذى يهدى العمل لمواقع الحق الفاصل فمن لم يُعْطَ الحكمة لن ينفعه علمه . فالواسع العليم الذى يؤتى الرزق يؤتى ما هو خير وهو الحكمة – الحكم إنزالاً للحق على وقائع الحياة . ولايتذكر ما يؤتى من الحكمة إلا أولو الألباب والقلوب لا الخواء ، الذين ينفعل باطنهم بعلمهم فيهدى عملهم وينزله حكماً حقاً ، ومن لم يكن ذا لب عامر لم يتذكر من العلم ما يهدى عمله . والمؤمن إذا عرف رزق الله وشكر بإنفاقه يتذكر من نعماء الله الاوسع الحكمة ويشكر الله فيحيا بها وينفق منها يوزعها ويبسطها شورى على الآخرين ينشرها بينهم لايبخل ولايحتكر ، فكل محتكر لمالٍ أو حكمٍ ظالمٌ .

﴿ وما أنفقتم من نَّفقةٍ أو نَذرتُم مّن نَّذرٍ فَإن الله يعْلمه وما للظَّالمينَ منْ أنصار ﴾ (270)

تتعدد أوجه إنفاق المال وأساليبه وأوعيته كم أوضحت الآيات ، لكن الله يعلمها كلها ويعلم النّذر فَعل الذى يرهن ويربط تحقق مرجوٍ معين بإنفاق موعود ، وما يقع من نفقة أو نذر إلا علمه الله فجزى عنه ، ومن غيَّر وتجاوز موازين الخير والبر فى سبيل الله فظلم بنفقة أبطلها أو بنذر لم يوف به ما له من أنصار ، واولئك الظالمون لن يجدوا فيما أشركوا بمرضاة الله من دوافع ذلك الظلم انصاراً حين يجازيهم الله يوم القيامة .

﴿ إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعمَّا هِي وإن تُخْفوها وتؤتوها الْفقُراء فَهُو خَيْرٌ لَّكُمْ ويُكَفّرُ عَنكُم مّن سيّئِاتِكُمُ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيرٌ ﴾ (271)

الخطاب يمضى لتأسيس القاعدة الثالثة فى الإنفاق بعد بيان أساليب المعاملة بين المنفِق والمنفَق عليه وبيان الأوعية التى ينفق منها ، فتوضح هذه الآية الوقع الاجتماعى للإنفاق من حيث الإسرار والإعلان فى إخراجه . والآية تمدح للمخاطبين المؤمنين صدقاتهم عن إخلاص إن أبدوا حركة الإنفاق فنعما هى تلك الصدقات لأنها خير للفقراء ويمضى أسوة لسنة حسنة عامة . أما إن أُخفيت الصدقات وبلغت الفقراء سراً فهى خير من البادية لكم انتم المتصدقين لانها خالصة من شبهة المراءاة منكم . وكما كُفِرت أو أُخفيت الصدقة يؤتى الله الجزاء وفاقاً و يكفّر (ونِكفّره ، ونكفرْ ، بشتى وجوه قراءات

الفعل) السيئات للمنفقين كما سبق وعد الغفران فى الآية 268 ، والله ذو خبر بالغ بما تنفقون علناً وسراً لايعلمه إلا هو .

﴿ ليس عَلَيْك هُداهُم ولكِن الله يَهدى مَن يشاءُ وما تنفِقوا من خيْرٍ فلأنفسكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إلاَّ أبتِغَاءَ وَجْه اللهِ وما تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إلَيْكُمْ وأنتم لاَ تُظلَمونَ ﴾ (272)

إرساء لحكم آخر فى الإنفاق ، أنه مصوب نحو الفقير ولو كان غير مهتد للإسلام . والخطاب للذي يصوب رسالة الدعوة وقد يعينه أن تتصوب الصدقة إلى غير المسلم ليتألف قلبه ويهتدى ، ولكن الآية تذكّره أن ليس عليك إن يهتدوا مهما حرصت فالله هوالذى يهدى من يشاء وإنما ينفق المسلم على المحتاج ولو من غير أهل ملته ولم يهتد بأثر الإنفاق . والآية تؤكد معنى الإنفاق ولو على الكافر وتذكر المسلم بأنه إنما ينفق خيراً لنفسه هو لأنه سيجد ثوابه مضاعفاً يوم القيامة حتى لو كان خير الهداية وتأليف القلوب بأثر الإنفاق لم يتحقق . ونفقتكم حتى على الكافر إنما تصوب ابتغاء لقاء وجه الله الذى يتولى هو هدى الناس . وحتى هذه النفقة على الكافر يُوف إليكم أجرها يوم القيامة فلا تضيع ولن تظلموا بخيبة الوفاء فى الآخرة ولو خابت الهداية للكافر ، فإن لم يكن للظالمين من نصير فى الآخرة فإن الله لن يظلم المؤمن المنفق بل سيكون نصيره . وتأكدت الدعوة للنفقة خيراً راجعاً للمنفق مجرداً لوجه الله موفى بجزائه فى الأخرة – ثلاث مرات لأن المسلمين فى مجتمع المدينة فى ظروف فتنة الكفار وعدوانهم تحدثهم أنفسهم أن يحصروا كل خير منفق على إخوانهم من فقراء المسلمين أو يصوبوه تأليفاً للقلوب لجذب الكافرين أو بشرط الإسلام منهم . ولكن الله يبسط الإنفاق للفقراء من بني الإنسان كافة بغير قيد ولا شرط .

﴿ لِلْفُقَراء الَّذين أُحْصِرُوا فى سَبيل اللهِ لاَ يسْتطِيعُونَ ضَرْباً في الأرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسيمَاهُم لا يسْئلُون النَّاس إلحَافاً وَمَا تُنفِقُوا منْ خيْرٍ فإن اللهَ به عليمٌ ﴾ (273)

الآية توضيح لهدى آخر فى تصويب النفقة لا إلى الفقير الظاهر الذى يسأل ويُبدى حاجته وحسب بل الفقير الذى لا يُعرف إلا بسيماه ، فالإنفاق للفقراء من أصحاب االهجرة الذين أحصروا فى سبيل الله إذ غادروا ديارهم فى مكة هجرة لئلا تكون فتنة ويكون الدين لله إلى واقع جديد فى المدينة مع□ËÂQ U □ لحال يحسب أنهم أغنياء من التعفف وإنما يعرفهم المخاطب يتحراهم بمظاهر ويعرفون بعلامات البؤس فى ملبسهم وأكلهم وهم لايُلحفونُ مُلحّين فى الطلب والسؤال كما يفعل المتسولون الذين لايراعون كرامة الإنسان فى أنفسهم . ولا يُنفق أى خير على الفقير المتعفف عن أن يبدى حاجته إلا يداً لله بالغ العلم بالخير وصوبه ويجد المنفقون عنده تعالى الجزاء المضاعف الذى بشرت به الآيات فى أول الكلام عن الإنفاق .

﴿ الَّذينَ يُنفِقُونَ أموالهِم بِالَّيْل والنَّهَارِ سرّاً وعَلانيةً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِندَ ربّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (274)

الهدى الآخر في الإنفاق هو دوامة واستمراره بشتى صور أدائه فيخرج بكل وجه سراً وعلانية وفى كل وقت وحال ليلاً ونهاراً . والمنفقون بهذا النهج لهم أجرهم عن ربهم ولا خوف عليهم من خسران فى الدنيا أو الآخرة ولا يحزنون من فقد جميل الجزاء .

عموم المعاني الآيات:261–274

الآيات (261–274) تهدى فى علاقات المؤمنين الاقتصادية حيث المال بينهم صدقةً وإنفاقاً عفواً .أما التجارة فهى عرف يستصحبه كل مجتمع ، لكن الصدقة لا تنشط أن يدول المال إلا بين الذين يؤمنون بالغيب وبالمعاوضة تجارة مع الله رابحة وقرضاً يُوفى يوم القيامة مضاعفاً . وبغير الإيمان بالمال مدداً من الله العباد فيه مستخلفون وأن الله يبعث الإنسان ليحاسبه يوم القيامة لا تتحرك صدقات المال خيراً إلا فى حدود محصورة . وأخلاق الإسلام تدعو المؤمنين لتكثيف الصدقات وتحفزهم بوعد الأجور المضاعفة وتهدى الأخلاق لاداء الصدقات بلا أذى ولا رياء ولنوع الصدقات من امال طيبه لاخبيثة ودفعها بكثرة دون خشية الخسران بل برغبة فى نعماء الله الواسعة .

وتُصّوب الصدقة كذلك نحو الفقير الإنسان ولو كافراً كان أو متعففاً . ويُبشر مجتمع الصدقات بكل وجوهها جهراً وسراً وإعمار الحياة كلها بها ليلاً ونهاراً بالأمن والسعادة دنيا وآخرة . فالإنفاق الخيرى بين الناس هو أكبر معلم يميز النظام الاقتصادى الإسلامى دون الذين لايؤمنون بالغيب وتغلب فيهم شهوة المال وحكره وشح النفس ودفع الآخرين . وغالب النظم الاجتماعية فى عالم اليوم من هؤلاء الذين يضعف عندهم الإيمان بالله والجزاء فى الآخرة ويغفلون عن الدين أو يصرفونه عمداً عن ساحة معاملات المال ، هؤلاء إذا بقيت فيهم فطرة عدالة إنسانية ومعونات اجتماعية تُعنى بالفقراء ما يعولون إلا قليلاً على المحاولات الطوعية الفردية أو التعاونية أو الجماعية للمساعدات الخيرية للمحتاجين الفقراء فيضطرون إلى فرض ضريبة مال على الأغنياء الذين يتهربون عنها ولايطيبون لأنهم لا يؤمنون بعرض غيبى عائد ولايرحمون الفقراء كالمؤمنين المتآخيين فى الدنيا ويرون فى الآخرة والذين لايفتنهم المال ويتقون الله ويسعون للخير فيما بينهم . والإنفاق الطوعى أكثف معاملة بعد التجارة عند المؤمنين لأن المال حر يحرك غالبه الأفراد بينهم الكاسب يعطى الفقير زكاة أو صدقة أو وقفاً لذي القربى ولغيره للأخ فى الدين ولغيره من طيب الرزق بطيب المعاملة بخاصة التعامل أو عامته عبر كل أوقات الحياة . وقد جاء الإنفاق فى صدر سورة البقرة (الآية 3) وتوالى ذكره فى سياق حاجات الإنفاق جهاداً فى سبيل الله ، ويتفصل فى الآيات الحاضر ذكرها عماداً للتوازن فى ثروة المجتمع ولتكافله ومن ثم وحدته وسلامته من الفتن الاقتصادية .

ترتيل المعاني: الآيات 275–281

﴿ الَّذين يأكُلُونَ الرِّبوا لا يَقُومُون إلا كَما يقومُ الَّذى يتخبطُهُ الشيطان مِنَ المَسّ ذَلِك بِأنُهم قَالوا إنما البَيْعُ مِثْلُ الرّبوا واحلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّم الرِبوا فمَن جاءهُ مَوْعظةٌ من ربَّه فانتهي فَلَهُ مَا سلف وأمرهُ إلى اللهِ ومَنْ اللهِ عاد فأولئك أصحْابُ النَّار هُمْ فِيها خالِدُون ﴾ (275)

الآية وما يتلوها فى سياق المعاملات المالية تدخل لتفصيل موضوع الربا بعد تفصيل موضوع الإنفاق، فالإنفاق أساس طوعى للتوازن مالياً في علاقات المجتمع المسلم ، ولكن الربا أساس للمبادلات لا للعطاء تدفع إليه حاجة البعض يستغلها الآخرون لدين يمد قضاؤه إلى   أجل ونسيئة أو تاخر يربو ويزيد عائده ،كسب منه المدين أو استهلكه ،ولتبادل سلعة يرد عوضها رابياً .

فالذين يأخذون بشهوة الطعام وأكل الربا العائد الذى ربا فوق أصل الدين وإن حسبوا أنهم قاموا بكسب قوة رابية فى الدنيا لايقومون يوم الحساب فى الآخرة إلا كما يقوم المصروع الذى مسه الشيطان يخبط ويضرب توازن نفسه العصبى فى صدمات . والمثال من البيئة الثقافية التى تصل مثل تلك الأعراض التى لا تظهر أسباب علتها بالشيطان الجني . وصورة الجزاء فى الآخرة اضطراب خيبة لوهم قومةٍ يحسبها المرابون عاقبة الكسب بأكل الربا ولظنهم أن الربا كالابتياع برأس المال العاجل مثله زائداً مقابل الآجل بينهما يدّعون أن البيع مثل الربا يريدون ليؤكدوا مشروعيته ، ولكن الله يبطل قياسهم ويوضح أن البيع حلال والربا حرام بأمره الحكيم العليم ، لأن رأس المال الأصل لايربو بجهد صاحبه بل استغلالاً لجهد المدين الذى يتعرض لاستهلاك رأس المال وخسران طاقته هو أثناء الآجل والدائن يظلمه ويأخذ عائده عاطلاً ، أو قد يكسب المدين ويرد للدائن نصيباً مضموناً دون مخاطر الربح والخسارة بالبيع والتجارة . فمن جاءته هذه الموعظة بعاقبة الربا وكان من آكلى الربا مديراً لأمواله أو لودائع غيره كالمصرف فإن انتهي عنه مستقبلاً عفا الله عن سابقته ولايؤاخذ برد ما سلف ومضى من الربا أما إذا عاد لمعاملات الربا وأكله بعد الموعظة فسيكون من القائمين يوم القيامة تخبطاً من اصحاب النار الخالدين فيها .

﴿ يَمْحقُ اللهُ الرِبوا ويُربِي الصَّدَقَاتِ واللهُ لا يُحبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثيمٍ ﴾ (276)

الربا يدفع إليه الطمع في الربو بالمال دون عمل أو مخاطرة ولكنه ظلم يمحق الله به الزيادة المطموع فيها ، بينما يربى الله ويبارك عائد الصدقات الطوعية وإن ظن أحد أنها نقص فى المال ، ذلك يجعله الله فى عاقبة المتعامل عاجلاً فى الدنيا وآجلاً فى الآخرة.

والله يبغض ولايحب كل كفار يُبالغ فى الكفر بنعمة الله فيأكل ما حرم الله طمعاً وظلماً وأثيم شديد الظلم والأثم لا ينتهى عن الربا بعد الموعظة والوعيد .

﴿ إن الَّذين ءامَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحَاتِ وأَقامُوا الصَّلاة وءاتُوا الزكاة لهُمْ أجْرُهُمْ عِندَ ربِهِمْ ولاَ خوْفٌ عَليْهِنْ ولاَ هُمْ يحْزنَونَ ﴾ (277)

تذكير فى مقايل الكفار الآثمين بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة — الذين أساس حياتهم مالاً وعملاً الإيمان بالله المنعم المجازى فى الآخرة والعمل الصالح سنتهم لا الطمع والظلم والذين يقيمون الصلاة الذكر الأكبر لأصول الدين الذى يجمع المسلمين فى صف واحد والذين يؤتون الزكاة صدقة طوعاً يتكافلون بها بغير عوض عاجل مطلوب . والآية تقابل تخبط القومة فى الآخرة ومحق عائد الطمع الربوى بمصير المؤمنين الصالحين المزكين بأن لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، كما ورد الوعد مرتين من قبل فى سياق آيات الإنفاق للمؤمن يوم القيامة فهو لايخاف مما يستقبل من أمر الله ولا يحزن على ما فاته فى الدنيا .

﴿ يَا أيها الَّذين ءامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذرُوا ما بقي من الرّبوا إن كُنتّم مُّؤْمنينَ ﴾ (278)

خطاب وتنبيه للمسلمين الذين سبقت لهم معاملات الربا فى تجارة الحجاز وما حوله يأمرهم بعد الانتهاء من ممارسته أن يتركوا ما تبقّى لهم من أنصبة الربا من معاملات سابقة ، ويؤصل ذلك على الأمر بالتقوى حتى لا تنازعهم نفوسهم إلى رصيد باق من الربا ذلك إن كانوا مؤمنين حق الإيمان يمتثلون لتقوى الله وأمره .

﴿ فَإن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأذنُوا بِحرْبٍ منَ اللهِ ورسوله وإن تُبتُمْ فلكُم رُءُوس أمْوالكُمْ لا تَظلِمُونَ ولاَ تُظلَمُونَ ﴾ (279)

الخطاب يتواصل للمسلمين إن لم ينتهوا عن التعامل بالربا وعن بقاياه فالوعيد شديد يبلغهم إعلان الحرب من الله ورسوله . وذلك أشد ما جاء فى القرآن من نذير لمرتكبى الذنوب والآثام ، فالله يمحق الربا و يبارك المال ويسلط الفتن ، والرسول ﷺ أمير يقتدى به فى لأمارة يحارب المعاملات الربوية ، وقد حارب محمد ﷺ مشركى العرب الذين كانوا يدبرون معاملاتهم الاقتصادية على الربا ، والذين إنتهو عن الربا وتابوا لأمر الله مثل التوبات العامة لقبائل العرب إلى الإسلام ونظامه المالى أولئك لهم أصل رؤوس أموالهم التى أدانوها للاخرين ، رؤوس الأموال بالضبط لاتزيد بدعوى الربا الحرام ولا تنقص عقاباً على معاملة الربا التى عفاها الله فيما سلف لأن رأس المال تنخفض قيمته مع الوقت فالعدل أساس المعاملات المالية فى الاسلام .

﴿ وإن كان ذو عُسرة فَنظرةٌ إلى مَيْسَرة وأن تَصدَقُّوا خَيْرٌ لكم إن كُنتُمْ تَعْلَمُون ﴾ (280)

تأكيداً لمعنى الضبط والعدل والتقوى فى استرداد أصل الدين أو رأس مال الدائن عند الأجل بلا ربا تطهراً من عرف النسيئة الذى كان يؤجل للمعسر بربا يتضاعف كل تأجيل – توصى الآية المسلم الدائن إن كان حل أجل القضاء لكن الفى أخاه المديون ذا معسرة فى ظرف يتعسر فيه رد الدين أن يمهله وينتظره نظرة إلى أن يحل عليه ظرف ميسرة يتيسر فيها له الوفاء . ولئن تصدقتم بالدين وتخليتم عنه للمدين لعله ينصرف همه من الإعسار فذلك خير لكم يوم القيامة من الإمهال والانتظار حتى الميسرة فجزاء الصدقة مضاعف فى الآخرة إن كنتم بإيمانكم تعملون حساب أجر الصدقة .

﴿ وَاتَّقوا يْوماً تُرجَعُونَ فيهِ إلى اللهِ ثم تُوفَّى كل نَفسٍ مَّا كَسَبَتْ وهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (281)

الآية تختتم آيات الربا وتمهد لآيات الدين بالتذكير بالتقوى وقد اتصل ذكرها فى آيات النهى عن الربا وتحريمه . فلا تنتظروا أيامكم وآجالكم فى الدنيا لتاكلوا أموال الناس بالنسيئة أو لتمطلوا فى الوفاء ولكن انتظروا يوم الرجوع إلى الله بتقوى المسؤولية فيه ، والتقوى يومئذ كلها أنفع لكم من الأموال الكثيرة فى الدنيا إذ ترجعون . فالله يوفى لكم بصالح كسبكم أتم الوفاء ، المؤمن مديوناً يفى الديون فى كل المعاملات المالية فى الدنيا لأنها عهود مع الناس تعود إلى عهد الإيمان والالتزام به أمام الله ، والمؤمن دائناً ينتظر أجل الآخرة وجزاءها المضاعف إن ادان أخاه لأجل وأنظره الى اليسر أو تصدق له مرة واحدة ، والله لايظلمكم يوم القيامة فينبغى ألا تظلموا فى الدنيا لا بالربا ولا بعدم الوفاء .

عموم المعاني الآيات:275–284

الآيات (275–281) تطهر المعاملات المالية تطهيراً باتاً من الربا بعد الوعظ أولاً فى مكة بأنه عند الله لايربو بينما الزكاة تتضاعف أجراً (سورة الروم الاية 38) ثم بعد النهى عنه فى أوائل عهد مكة أضعافاً مضاعفة تقوى من اجل الفلاح كما فى سورة آل Ḱ لأجل بلا ربا ثم آيات توثيق الديون العفوية والتجارية بالكتابة والشهادة ، وقدر الله ان يكون ذلك تمام نظام الحياة الاقتصادية حينئذ مع تمام الدين والرسالة بالمدينة .

وقد كان نظام الدين والآجل والربا محور الجاهلية المالية وهو إلى اليوم محور العلاقات المالية فى العالم الخارج من الدين ، ولكن الله يحل التجارة بالبيع ويحرم الربا واعظاً بعاقبته الممحوقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة ، ويوصى بتداول المال زكاة وصدقة وبتطهير الواقع ولو بتدابير القوة من فتن الربا وبواقيه ويوصى فى شأن الآجال والإمهال بعلاقات تضبط تبادل رأس المال عدلاً وتبسط اليسر والعفو لا العسر والربا . وهذا هو النظام المالى الاسلامى الذى إليه ينبغى أن يتحول نظام المادية والربا السائد فى العالم الاسلامى ولو حرباً فى وجه من يبسطونه بالقوة والعدوان ، ويتحول ذلك النظام إلى العالم كافة بنصح المسلمين ومثالهم .

ترتيل المعاني: الآيات282–284

﴿ يا أيّها الَّذين ءامَنوا إذا تَدايَنتُم بِدينٍ إلى أجَلٍ مُسمّى فاكْتُبُوهُ ولْيكْتب بَّيْنكُمْ كاتِبٌ بالْعَدْلِ ولاَ يَأْب كَاتِبٌ أن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمهُ اللهُ فَلْيكْتُبْ وليُمللِ الَّذي عَليْه الحقُّ وَلْيَتقِ اللهَ ربَّهُ ولايبخسْ منهُ شيئاً فإن كان الذى عليهْ الْحق سفيهاً أو ضَعِيفاً أو لا يسْتطِيعُ إن يُملَّ هُوَ فليُمللْ وليُّه بالعدْل واسْتشْهدوا شهيدينِ من رّجالِكُمْ فإن لَّمْ يكُونا رجُليْنِ فرجُلٌ وامرأتانِ مِمَّن ترضونْ من الشُهداء أن تضِل إحداهما فتذكر إحداهمُا الأخُرى ولايأْبَ الشُهَداء إذا مَا دُعُوا ولاَ تسئمُوا أن تكتبُوه صغيراً أوْ كبيراً إلى أجَلِهِ ذَلِكُمْ أقْسَطُ عند اللهِ وأقوم للشَّهادة وأدْنى ألاَّ ترْتابُوا إلا أن تكون تِجارَةً حَاضرة تُدِيرُونها بَيْنكُمْ فليْس عليْكُمْ جُنَاحٌ ألا تكتبوها وأشهدُوا إذا تبايَعْتُمْ ولا يُضارّ كَاتِبٌ ولا شَهِيدٌ وإن تَفْعَلُوا فإنه فُسُوقٌ بِكُمْ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلمُكُمُ اللهُ واللهُ بكل شيءٍ عَليِمٌ ﴾ (282)

إنما الربا الذي سبقت الآيات بحكمه ظلم بالدين لأجل وفضل ، والآية الحاضرة تصل ذلك بتفصيل الأمر فى توثيق الدين ، والخطاب بتوجيه للمؤمنين تنبيهاً يأمرهم بأن الدين ينبغى أن يكتب ويذكر معه الأجل المسمى لرده إشارة إلى أن الأوثق والأفضل هو تحديد الأجل لقضاء الدين لأن تركه سائباً مدعاة لضعف الالتزام والمطل فى الوفاء به . وعلى المتعاملين دائناً ومديناً إحضار من يكتب الدين بينهما ، وعلى الكاتب أن يكون عادلاً فى كتابته فلا يزيد ولا ينقص ولا يزور ولا يبدل ، وعلى الكاتب أن بيستجيب ولا يأبى إذا دُعى لكتابة الدين لآن فى ذلك ضبط لعلاقات المجتمع المسلم ودفع لصلاحه وحفظ الحقوق والعدل فيه وعلى من أبى أن يتذكّر نعمة الله عليه إذ علمه الكتابة فلا يضن بنعمة الله من إنفاذ أمره ، فعلية ان يكتب وعلى الذى عليه الدين أن يقوم بإملاء نص الالتزام بينه وبين والدائن لأن املاءه تأكيد لاعترافه بالذى عليه فهو يقره شفاهية ويثبته كتابة ، وعليه أن يتقى الله فى أداء حق الإملاء وواجبه فيؤديه بالحق ولا ينقص ظالماً في شيء . وإذا كان الذى عليه الحق فى رد الدين سفيهاً لا يعرف الإملاء ولا يدرى المعاملات المالية أو ضعيفاً لعله فى الصغر أو السفه أو العجز البالغ لايستطيع الإملاء فليوكل ولياً أو ليقم ولىّ عنه بالإملاء عنه وعلى هذا الولي كذلك التزام العدل كما أُلزم الكاتب .

والآية تحكم توثيق كتابة الدين بإشهاد اثنين من الرجال أهلين لحمل الشهادة ومن الرجل المنسوبين للمجتمع لخبرة الرجل المسلم الاقتصادية والمالية التى تسود غالباً فى المجتمع المسلم لأن عليه الكسب والنفقة على الزوجة والأولاد فهو اقدر على الشهادات فى المسائل المالية من عامة جمهور النساء . فإن لم تجعل الشهادة لرجلين إذ لم يكن حضورهما معاً ميسوراً فيمكن أن تحمّل الشهادة لرجل وامرأتين على

أن يكون الشهود دائماً ولو نساء عدولاً أهل ثقة ورضى لدى طراف الالتزام كافة . والآية تذكر حكمة تحضير الشهادة تثنية فى النساء لان المرأة يقع كثيراً أن تضل رواية الحق شهادة فى الأمور المالية إذ ليس عليها نفقة ولا مهر ولاتُعنى ضرورة بوظيفة كسب المال فهى عادة أضعف وعياً بأمور مالية وذاكرة بوقائع دين لتحتمل الشهادة فيه مثل احتمال الرجل ، ولكن وجود أخرى مع أختها فى الشهادة أضمن لحق الشهادة فإذا نسيت أو غفلت واحدة عن بعض الوقائع ذكرتها الأخرى فتتناصر الشهادة . ذلك كله نظام لإعداد الشهادة الكافية لتوثيق حق الدين ، أما حين أداء الشهادة فالقاضى يقدّر وزن الشهادة بعدالة الشاهد ، وقد تتذكر شاهدة فتُغنى عن مدها بأختها ، وقد تكون امرأة تاجرة أو عالمة او قاضية فترجح شهادتها على الرجل العدل الذى قلّت خبرته وفقه . والإشهاد فى المال هكذا لغلبة رجحان شهادة الرجل بخبرته عن المرأة ولكن الإشهاد فى الشؤون الأخرى غير الدين كالوصية لدى الموت فلاثنين ذوى عدل رجلين أو أمراتين أو رجل وامرأة كما فى سورة المائدة (الآية 106) .

ولايرفض المسلم القيام باحتمال الشهادة التى تساعد على ضبط المعاملات المالية فى مجتمع المسلمين إذا دعُى وطلب منه ذلك . وقد تكثر المعاملات المالية بين المؤمنين فيسأمون من تواترها الراتب ويستصغرون شأن بعض الدين ويستثقلون كتابته ، لكن الآية تخاطبهم وتدعوهم ألا يملّوا ضبط المعاملات الدينية المالية مهما صغرت أو كبرت وأن يثبتوا فى كتابتها بأجلها المسمى تأكيداً لتحديد الأجل حتى عند كتابة الدين الصغير أو الكبير الراتب .

يخاطب الذين آمنوا أن الانضباط الشديد فى المعاملات الدينية المالية يحقق لكم مقاصد هامة ، فهو عند الله أقسط وأعدل والعدل أساس ما بين عباد الله ، وهو للشهادة أقوم لأن الشهادة بيّنة مطلوبة متى ما اختصم الناس ، والتوثيق أقوم للشهادة وأعون على إقامتها ، وهو لجميع الأطراف أدنى وأقرب لليقين البين فى حق الدين وأجل واجب القضاء الا ترتابوا لأن الريب تولد الخصومات والمرارات بغير حق أحياناً . والاستثناء أن تكون المعاملة تجارة حاضرة ناجزة تديرونها بينكم سلعة تباع فتؤدى فتلقى فى الذمة حقاً هو الثمن أو العوض فيوفى فوراَ النقد أو العين المقابل مقايضة وتنعقد الدائرة حاضراً ، فليس على المؤمنين جناح كلفة ألا يكتبوها فأسباب الخصومة محدودة، ولهم أن يزدادوا اطمئناناً بالكتابة إن شاءوا . ولكن عليهم الشهادة بمن يرضون كفاية عن الكتابة وعلى الكاتب والشهيد أن يستجيبوا لإعداد البينة وأدائها لتوثيق المعاملات المالية بين المسلمين وتصديقها بالعدل ، ولكن ينبغى ألا يضاروا المتعاملين بتزوير الكتابة أو الشهادة إذ يجلب الزور ضرراً وإن تفعلوا بالكتابة أو الشهادة زوراً مضراً فإن ذلك منكم فسوق معصية مزورة عن الحق .

اتقوا الله فى هذه المعاملات وفى كل أمر طاعةً لحكمه فيها بمخافته واتقاء معصيته وغضبه فالتقوى عماد العلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع المسلم ، وإذا اتقيتم الله فإن الله يُمدكم

بالعلم النافع لصلاح العلاقات فى الدين والدنيا والتقوى عمل صالح تضيء لكم علماً تتعلمونه هدياً للعمل ، والله محيط بكل شيء من أحوالكم ومعاملاتكم والتزاماتكم فاتقوه يعلمكم الخير فيها .

﴿ وإن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ ولمْ تجدوا كاتِباً فرِهان مَّقْبُوضةٌ فإن أمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيؤدّ الَّذِي اؤتُمِنَ أمانتَهُ ولْيَتَّقِ اللهَ ربَّه ولا تَكْتُمُوا الشَّهَادة ومَنَ يَكْتُمهَا فإنهُ ءاثمٌ قَلْبُهُ والله بِما تْعملُون عَليمٌ ﴾ (283)

الآية خطاب تفصيل لأمر توثيق الدين حتى فى حالة المعاملات المالية عند السفر ، فإن لم تجدوا كاتباً لمعاملة الدين إذ كنتم على سفر والناس غياب فعليكم ان تلجأوا لضمانة الوفاء للدين برهان أشياء تخرج من الراهن المدين وتستقر عند المرتهن الدائن لا موعودة بل مقبوضة فى يده وحوزته لا يردها حتى يرد الدين ، لكن إذا اطمان الطرف الدائن إلى الآخر ولم يجدا من يكتب لأنهما فى سفر أو لغيبة من يكتب ولم تكن لهما حاجة فى الضمان بأداء رهن وقبضه إذ توطدت بينهما الأمانة فعلى الذى أؤتن بالدين أن يقضيه فيؤدى أمانته وليتق الله ربه ويصدق الثقة به خوفاً من الله الرقيب الحسيب . والتقوى دفع للوفاء بلا التزام دون كتابة أو رهن . والشهادة فى المعاملات المالية شفاء للخصومة وحض على الأمانة بين المتعامليين فينبغى ألا تكتم ما دامت تحفظ حقاً وتدفع ظلماً ومن يكتمها فإنه آثم قلبه لأن الشهادة فعل يستدعى صدق الضمير وكتمانها أو اداؤها من علة قلب المؤمن أو سلامته ، والله بالغ العلم بالشهادة ومن يؤديها ومن يكتمها وبمن صدق أو أثم قلبه فيجزيه يوم القيامة .

﴿ للهِ ما في السَّمَاواتِ وما فى الأرضِ وإن تُبْدوا مَافي أنفسكُمْ أَو تُخفُوه يحَاسِبْكُم بهِ اللهُ فيغْفرُ لمن يشاءُ ويُعَذِبُ من يشاءُ واللهُ على كُلّ شيْءٍ قديرٌ ﴾ (284)

السياق يعود فيجمع كليات الإيمان التوحيد والرقابة والحساب ويربط معنى التوحيد ، إن الله ما فى السموات والأرض بالمعاملات المالية كافة التي مضت ، فكل ما يذهب نفقة وصدقة وديْناً حلالاً أو رِبَا حراماً ورهناً فإنه من مال الله ومن ملكه المحيط ، فاستجيبوا لداعى الله فيه واتقوه . والآية تربط الشهادة مؤداة أو مكتومة أو مضارة والأمانة موثوقة أو موثقة أو مضمونة لتؤدى ، تربط ذلك بأن ما فى النفوس أُبدى بالقول والفعل أو أخُفى بالكتمان يعلمه الله ويحاسب به فإن الله يحاسب على كل كسوب الضمير من خواطر وإرادة يترتب عليها عمل ، فيغفر الله ويعذب بعلمه ذاك ، وعلمه تعالى وعدل حسابه جوهر مشيئته بين الناس وقدرته مطلقة لإنفاذ الحساب.

عموم المعاني الآيات:282-284

وآية الدين الموثق (282) أطول آية فى القرآن تتضمن إشارة للتجارة والشهادة والتقوى وتتلوها آية الرهن والأمانة والشهادة وآية كليات الإيمان من الخلافة عن الله مالك المال والعرضة لرقابة الله وحسابه وقدرته والدين مضموناً برهان أو ثقة أو شهادة والتجارة الحاضرة ، وذلك هو غالب المعاملات الاقتصادية اليوم فى عالم التمويل والتجارة الذى غلبت فيه المصاريف والمؤسسات التمويلية ثقة أو رهاناً . وتتجلى بذلك حكمة بيان هدى القرآن فى تلك المعاملات الأغلب بأكثف بيان للأحكام وبأكثر كلمات فى آية وتتلوها آيتان مزيد تأمين لتلك المعاملات بنظم تعامل فى عالم الشهادة وعقائد تقوى فى عالم الغيب .

ترتيل المعاني: الآيات 285–286

﴿ ءامَنَ الرَّسُولُ بِما أنزل إليه من ربِّه والمؤمنون كُلٌّ ءامَنَ بِاللهِ ومَلائِكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسلِهِ لا نفرقُ بين أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقَالُوا سَمِعْنَا وَأطَعْنَا غُفْرانكَ ربّنَا وإلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (285)

ختام السورة يجمع أولها إلى آخرها . وهنا ذكر الرسول ﷺ والمؤمنين ËÂQ ومضت الآيات فى بطن السورة لتذكير مجتمع المسلمين وتحريره من عقائد أهل الكتاب الذين فرقوا بين الرسل فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعض . وقد تأكد امتثال المؤمنين للشريعة سمعاً لأحكام الشريعة التى بسطتها سورة البقرة فسطاط مجتمع المدينة وطاعة لمقتضاها صلاة وصياماً وحجاً وجهاداً ونظام أخلاق وأسرة ومعاملات مال وسائر ما قال الله وبه أمر . وذكر الله موصول فى حياة المؤمنين ولكن أوله أنهم بعد تصديق البلاغ وإعلان الطاعة يؤمنون أنهم لايبلغون فى ذلك تمام ما يوجبه الشكر ويقتضيه الهدى فيسألون الله الغفران أبلغ المغفرة ويوقنون بأنه إليه المصير حيث المرجع إلى حسابه غضباً وعذاباً أو رحمة ورضواناً ونعيماً .

﴿ لا يُكلف اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسبتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبتْ ربّنَا لا تُؤاخِذْنَا إن نَّسِينا أوْ أَخطْأنا ربَّنَا ولاَ تحْمِلْ عَلَيْنا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذين من قَبْلناَ ربنا ولاتُحَمِلْناَ ما لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمناَ أنت مَوْلانا فَانصُرْنا عَلَى القوْمِ الْكافِرِينَ ﴾ (286)

ما حملته آيات البقرة من تكاليف الشريعة جليل لايصوب الله منه إلى كل نفس إلا وسعها وطاقتها فمن رحمته ألاَّ حرج عليهم إلا ما كان ميسوراً قدر استطاعتهم ولكل نفس نصيبها من الأمانة والمسؤولية الثقيلة ولها ما كسبت من أجر لا تطمع فى شفيع وعليها ما اكتسبت من وزر لا تزر وازرة أخرى ورزها ، ويمضى المؤمنون في ضوء قدر الله بنسبة التكليف إلى الوسع والذات فقط يدعونه رباً يرعاهم حتى لو فرطوا دون وسعهم فاكتسبوا عليهم وزراً وما كسبوا لأنفسهم أجراً ، يدعونه ربنا لاتؤاخذنا فلا تحسب علينا ما يعترى الإنسان من غفلة عارضة تُنسي التكاليف أعمالاً في الظاهر ونيات فى الباطن وإن كنا نتذكر من قريب ولا تحسب علينا ما قد يقع فيه الإنسان من الخطأ يجتهد فيضل الصواب أو يفتن فيتورط فى الخطيئة وإن كنا نتحرى الحق وسواء السبيل – ذلك النسيان

والخطأ والذكر والمتاب عبرة لبنى آدم المؤمنين فى قصة أبيهم آدم فى أوائل البقرة . والدعوة متصلة : ربنا لاتحمل علينا التكاليف إصراً عبئاً ثقيلاً يعصرنا وننوء به كما حملته على الذين من قبلنا روت قصتهم سورة البقرة وهم بنو إسرائيل الذين كلفوا إصرا عقاباً على ما فرطوا فى تذكّر آيات الله ونعمائه وما كفروا وقصروا فى التكاليف الأولى التى كانت فى وسعهم وطاقتهم . والدعاء من المؤمنين ألا يشتد إصر التكاليف الذى يتقون ألا يحمّلهم ربهم فوق طاقتهم ، فهم يشيرون إلى أنهم سيحملون مخلصين ما فى الطاقة ، ويدعون الله إن صفح فطوى صفحة النسيان والخطأ بأن لم يؤاخذ أن يعفو فيسمح وزر ذلك عنهم ويغفر فيعطى ويبدل سيئاتهم بحسنات بقرباه وبركته ويرحم فيعينهم على التكاليف وعلى حسن المآب والمصير ، ويشهدون الله أنهم يتخذونه مولاهم يواليهم دون سائر عباده غير المؤمنين ويرجون نصره على القوم الكافرين من أهل الكتاب الذين أحاطوا بهم تآمراً من داخل المدينة ومن المشركين من خارجها ، والدعاء بالنصر تذكراً للجهاد المكتوب عليهم بآيات البقرة وتهيؤاً للقتال الوشيك والجهاد الكبير الذى مضى إليه الرسل ﷺ والجماعة المؤمنة فى المدينة حتى كمل الدين فيها ومن ورائها فى الأرض فى سبيل الله .

عموم المعاني الآيات:285-286

والآيتان ذكر المؤمنين شهادة بالله الواحد ورسالته الواحدة عبر التاريخ وإيماناً بالدين سمعاً وطاعة فى الدنيا ومصيراً إلى الله فى الاخرة ورجاءً للتكليف أولاً قدر الوسع المسؤولة آخراً حسب الكسب ودعاءاً بالمغفرة والعفو ورفعاً للمؤاخذة عن القصور وبالرحمة والتولى والنصر فى وجه الكافرين ، الآيتان هدى لدفعة الإسلام فى المدينة كاملة الدين ولسيرته أمس فى تأريخه يعلو ويهبط ولنهضته اليوم وغداً نحو تمامه مجتمعاً ودولة مستندة على المدينة وأسوتها إلى يوم القيامة .

سورة آل عمران

خلاصة هدي السورة

توافق سورة آل عمران سورة البقرة مطلعاً بذات الحروف (ألف ، لام ، ميم) وتليها في ترتيب سور القرآن نزولاً ومصحفاً ويطلق عليهما معاً اسم (الزهراوين) إذ ساد ثقافة البيئة العربية الأولى تسمية الأشياء المتقاربة اسماً واحداً .*

(فالبقرة) زهراء إذ أنها أكثر السور إضاءة بالتوحيد وبالعدل للمجتمع المؤمن كالشجرة المضيئة بالثمار وكالنجمة الزهراء وسورة (آل عمران) زهراء لأنها تجاورها وتكمل رسالتها فهي سورة نَيِّرَة هادية إلى تحرير المؤمنين من آثار الثقافة الكتابية السابقة – كما هي سورة البقرة ، وهي كذلك أنوار تخرج المسلمين من ظلمات الأثر النفسي للهزيمة في غزوة أحد وأيما هزيمة عرضت للمسلمين مدى تأريخهم ، كذلك توافق سورة آل عمران سورة البقرة مدخلاً بآيات التوحيد – لا سيما – ما ورد في الآيات (163 و255) والتي جاءت بعد ذكر الصبر والاستشهاد والبلاء وبعد كتمان بينات كتاب التوراة.

وقد سميت (آل عمران) إشارة لاسم العشيرة التي جاء منها رسول الله عيسى عليه السلام تأكيداً لنسبة البشرى فوق مفتريات النصرانية التي ادعته إلهاً وابناً لله . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . وإشارة للبيئة التي قام فيها، إذ يتوسع الجدل في السورة مع أهل الكتاب النصارى بأكثر من سورة البقرة التي فصلت الجدال العقدي والتأريخي مع أهل الكتاب اليهود، وقد ناسب نزول السور قدوم وفد نصارى نجران الذي عبر في جداله عن جملة فتنة النصارى ومغالاتهم التي ورطتهم في الشرك .

لكن السورة تجعل الكتب المقدسة أصلاً واحداً مندرجاً في سياق محكمة تفسر وتشرع ما تشابه معناه ليبتلي الله المؤمنين الاجتهاد في تلاوة الكتب ، لكن من الذين انتسبوا للكتب السماوية من زاغ به هوى المغالاة والعصبية فيحمل المتشابه منه فتنة الناس وتأويلاً إلى المقاصد الزائغة ، أو رفضاً للجديد بغير علم مؤصل على محكمات الكتاب فيكفرون بتجديد رسالة الإسلام المصدق بكل أصل الدين الكتابي .

فالسورة تذكرهم بعبرة سوء المصير لمن فتن بالقوة الدنيوية واستغنى بمكاسبها ، فهم مغلوبون ، كما غُلبت قريش الأغنى مالاً ، والأكثر عَدَّاً ، فالمؤمن المستقيم بالتقوى لا تفتنه ما في الفطرة الإنسانية من حب شهوات الجنس والولد والثروات فالملك والحكم لله يقلبه في التأريخ نزعاً وعطاءاً . ولكن الداعي يحاج بالحق أنه ومن معه على الإسلام لمن استجاب ولمن أعرض .

---

* مثل قولهم القمرين للشمس والقمر والأبوين للأب والأم والعمرين لعمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق اللذين كانا متلازمين.

تذكر سورة (آل عمران) علاقات المسلمين بعد انفتاحهم وراء بيئة المدينة التي هيمنت فيها ثقافة اليهود ، إلى بيئة الثقافة النصرانية التي بعث بها عيسى عليه السلام ، فقد قدر الله لرسالته أن تتوالى وتتجدد في جوار أرضي واحد وفي ذرية رسالية واحدة ، فأظهر الله مريم مولودة محررة للمعابد في ثقافة لم تعرف الأنثى لذلك ، لكن الله تقبل نذر أمها وجعل الكهان يتنافسون على رعايتها حتى كفلها زكريا . وقد أَثَّرت مريم الأنثى بنهجها في العبادة حتى على كفيلها الشيخ الكبير – فتمنى على بعد الرجاء – مولوداً مثلها ، فرزق بيحيى داعياً لمولود من مريم بأسباب أبعد ميلاداً وبرسالة جديدة . فالسورة تُفَصِّلُ لأهل الكتاب المجادلين قصة عيسى عليه السلام التي فتنوا بها زيغاً وغلواً وشركاً ، فهو مولود بمعجزة ينطق طفلاً ومؤيداً بالخوارق ينطق رسولا إلى بني إسرائيل . لكن بني إسرائيل كفرت بالرسالة المجددة للتوحيد حتى فاصل عيسى بأنصاره فلجأت للمكر والفتنة حتى أبطل الله مكرهم وبشر عيسى عليه السلام بالوفاة مرفوعاً مطهراً إلى الله تعالى . فخلاصة الأمر أنَّ مثل عيسى خلقاً بغير أب كمثل آدم والحق ما جاء به القرآن والباطل ما تأسست عليه أصول العقيدة النصرانية السائدة، ومن حاج من النصارى ولم يثبت له الحق يراجع ولو أصر مستكبراً يعود المسلمون معه إلى أصول التلاعن والتباهل أمام الله، وإن تولوا عن ذلك فالله عليم بالفاسد .

تعود السورة لكلمة الحق الواحد السواء بين أهل الديانات الكتابية ثم بين كل الناس توحيداً لله لا يعبد إلا إياه ولا يشرك به بشر رباً سواه ومن ثم وحدة أمة الذين يسلمون لله كل الحياة، وإن لم يستجب المدعوون لكلمة التوحيد فالحق إعلان الإسلام له مع المسلمين لقد ادَّعت عصبية اليهودية العرقية نسباً إلى ذرية إبراهيم عليه السلام والسورة توضح أن إبراهيم عليه السلام لم يكن على تقاليدهم المنسوبة – بُعداً – للتوراة والإنجيل وهي كتب وملل جاءت خالفة له ، بل كان في ملة وسيرة التوحيد حنيفاً مسلماً .

تذكر السورة آثار التأريخ الديني القديم الذي يحيل الدين إلى بدعيات في الحياة الخاصة تحريماً لبعض الطعام كما فعل اليهود والحق أن الطعام حلال كله إلا ما حرم الله نصاً في كتابه ، أو تقديساً لبعض المراكز القديمة كما فعل اليهود بالقدس والحق أن محور دين التوحيد منذ إبراهيم عليه السلام هو البيت الحرام ببكة، وجهة آمنة لتوحيد أمة الإسلام عبر الأراضي بغير تمايز عاكفين أو حجاجاً إليه .

تدعو سورة آل عمران المسلمين للاعتصام بعهد الله والإجماع على التقوى والإسلام اعتباراً بنعمة أقدار الله إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم ، وإذ على خط دين التوحيد دنيا وأخرى فأنقذهم الله بهدى الإسلام ، ليكونوا أمة الخير الأعظم الناهضة بالإصلاح أمراً ونهياً في سبيل الفلاح يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، لا سبيل الفرقة – كما تفرق الذين من قبلهم كنائس وأقواماً وأحزاباً .

تفصل السورة عبرة الجهاد غزواً وقتالاً ونصراً وهزيمة درساً بليغاً للمسلمين إلى يوم القيامة فالمؤمنون قد عبأهم القائد وبوَّأهم مقاعد للقتال في سبيل الله ، يتوكلون على الله جميعاً مجاهدين راجين منه النصر

وله الشكر ، وقد يقطع الله طرفاً من قوة عدوهم أو يكبتهم وقد يأخذهم بظلمهم وقد يتعظون ويتوبون إلى الإسلام فيتوب الله عليهم . لكن فريضة الجهاد تتكامل مع سائر هدى الإسلام توحيداً لسعي الحياة ، فالمؤمن الذي يقاتل يقطع ويجاهد نظام الربا ويتقي الله في كل كسبه المالي والاقتصادي والجهاد بنظامه يدفع المؤمنين في السياسة لطاعة الله والرسول أو القائد فيهم رحمة بينهم وشورى ، فالقيام للجهاد تكامله مسارعة للتقوى في علاقات المجتمع إحساناً وإنفاقاً يحبه الله وتضامناً في السراء والضراء وتآخياً في المعاملات كظماً للغيظ وعفواً .

إن جماعة المسلمين المجاهدة إنما تتحد في سبيل الله لا حول القائد ولو نبياً ولا ينقلبون مدبرين إن قتل أو مات ولكنهم موصولون بالله الذي لا يضره المدبرون ، ولو هزم المؤمنون في دولتهم وانتصر عليهم الكفر في معركة ينبغي ألا يهنوا ولا يطيعوا الكافرين حتى لا يرتدوا خاسرين فالله مولى المسلمين ، وإنَّ خُلُق المسلمين الصبر لا الوقوع في الهزيمة النفسية في علاقاتهم الخارجية أو الحزن فهم الأعلون بالإيمان وإذا مسهم قرح وجرح في المعركة فليتذكروا ما يمس عدوهم من أذى مماثل .

ولو اتخذ الله منهم شهداء فليس ذلك حباً في الظالمين الذين قتلوهم لكن تمحيصاً للمؤمنين وتأهلاً للجنة لا بالانتماء ولكن بالجهاد والصبر ولا بتمني الموت في سبيل الله ولكن بلقائه في مشاهد الشهادة .

تنزلت سورة آل عمران في السنوات الأولى لمجتمع المدينة المسلم وقد قامت فيه سطوة من ثقافة دينية كتابية ، وتتداعى حوله حيناً دعوة نصرانية عقائدية وكان مجتمع المسلمين يجاهد في سبيل نهضته لتستقل وجهته وتتعاصم شعابه وتتزكى أخلاقه ومعاملاته ولكنه يتعرض وراء النفوذ الديني الكتابي للهجوم الجاهلي الإشراكي العربي ومن ثم يجاهد فتن القتال لاسيما صدمات الهزيمة في معركة أحد ولكن المجتمع المؤمن يصبر ولا ينهدم ذلك عبرة لكل مجتمع مسلم متجدد ، فجاءت خواتيم السورة تؤسس لأصول الدين وتصل بذلك أولها إلى آخرها عبر سياقاتها كافة ، توحيداً لله المالك الخالق لكل الوجود القادر على كل حركته ثم أصل الاستجابة لله ذكراً ونظراً وإيماناً ودعاءاً صدقاً للنيات قولاً وعملاً وهجرة إلى الله عن الديار واحتمالاً للأذى ثم صبراً وتوكلاً على الله مهما تقلبت الأوضاع وداول الله سبحانه – الأيام .

ترتيل المعاني: الآيات 1-9

~§§ آل عمران(مدنية)200 §§~

الم{1}

بسم الله الرحمن الرحيم

حروف التهجي في أول السورة ترمز لذات معاني البيان والإعجاز في الكتاب المنزل على أهل اللسان العربي، بيّناً من ذات حروف لغتهم ، معجزاً لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، وتماثل الحروف كذلك إشارة إلى الترابط بين السورتين المتجاورتين (البقرة وآل عمران) كأنهما سورة واحدة، وإلى التكامل في هديهما [9]، والحروف المطَالع ألف – لام – ميم ، عربية لأمة الخطاب بيانا وضبطاً لمعاني آيات الكتاب لاسيما المحكمات التي ترد إليها المتشابهات وتُأوَّل بغير زيغ للفتنة كما سيرد في الآية بعد قليل.[10]

اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ{2}

توافق سورة آل عمران في مدخلها آيات التوحيد في سورة البقرة لاسيما ما ورد في الآية (163) وفي الآية (255)[11] التي جاءت بعد ذكر الصبر والاستشهاد والبلاء وبعد ذكر كتمان بيّنات وذكر كتاب التوراة. فذِكر الله لا إله إلا هو الحيّ القَيُّوم جاء في سورة البقرة بعد ذكر عيسى وبعد التمهيد بقصة طالوت لفرض القتال على المسلمين. والآية هنا تفتح السورة بتوحيد الله وباسمي ، الحي ، والقيُّوم ، الأوجب ذكراً للمؤمنين وقد اشتدت عليهم الوطأة بعد غزوة أحد – ألاَّ يموت الإيمان فيهم للهزيمة بل يؤمنوا بالله ويوحِّدوه حياً فوق أحداثها وقتلاها، وقيُّوماً قائماً بأمر الحياة والناس كله مهما طغت ظاهراً قوة المشركين. كما يجئ ذكر توحيد الحيّ القَيُّوم في مستهل الجدل مع وفد نجران الذي ناسب قدومه نزول السورة وعموماً مع أهل الكتاب النصارى الذين حملت السورة أخبارهم وسُمِّيَت (آل عمران) إشارة إلى نسب رسولهم عيسى عليه السلام البشري ، وذلك يناسب دحض افتراءاتهم بألوهية البشر فلا إله إلا الله وهو وحده الحيّ القَيُّوم المتعالي عن صفات الموت والعجز البشرية.

اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ{2} نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ{3}

الحيّ القَيُّوم بتدبير الهدى نزَّل الكتاب بالحقّ و"نزَّلَ" صيغة شِدة وتكثير وتنجيم لنزول آيات الكتاب أبلغ في ذلك من صيغة "نَزَل" التي تجئ في سياقات أخرى و"عليك الكتاب" صيغة وقعٍ أشَدُّ من (إليك) موافقة للعزم الذي تشدُّ إلية السورة الجماعة المسلمة من وطأة المجادلة الكتابية ثم المقاتلة والهزيمة في جهاد أحد. و"الكتاب" الهدى المقرر إشارة للغة العربية التي ترمز إليها الحروف في أول السورة وتنزيل

---

[9] راجع المدخل الى السورة

[10] الآية رقم 7 نفس السورة

[11] راجع تفسير الآيات 163 والآية 255 من سورة البقرة

الكتاب بالحق إشارة إلى أنه بالوحي الصادق للهدى الثابت من مصدر الحق، فهو من الحيّ القَيُّوم وليس من عند الرسول كما ادَّعَتِ اليهود والنصارى وكما ادَّعى خاصةُ من تنزَّلتِ الآيات في مناسبة قدومهم للمدينة – وفد نجران – الذي جاء مجادلاً للرسول ومشككاً في مصدر الكتاب.

وتنزَّل القرآن مصدقاً لما بين يديه ، لما سلف من صحف مكتوبة وأصول معان دينية كانت تراثاً في بيئة أهل الكتاب وكل الكتب المتوالية هي من مصدر واحد تأتي تأكيداً وتصديقاً لأصول الدين وقد ترد الإشارة إليها في آيات القرآن بكلمة الكتاب المفردة والتوراة والإنجيل أنزلها على اليهود والنصارى على ذات سنة التصديق والتجديد بالتنزيل فتوراة اسمه من الورى قَدْحُ النار الظاهر بعد الظلام وإنجيلا اسمه من النحل النابت من الباطن استكمالاً للظاهر من أحكام التوراة الذي قَصُرَتْ عليه سيرة علماء اليهود.[12]

مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ{4}

مِنْ قبلُ سابقاً للقرآن اللاحق، فكل الكتب متواصلة متصادقة بالحقِّ هدىً للناس ، وكل التنزيل جاء هدىً من ضلال الناس كافة، لا لطائفة تنغلق بعصبيتها على كتاب دون كل الكتب . والهدى جاء ذكره في سورة الفاتحة " اهْدِنَا الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ" وفي أول سورة البقرة "ذلكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيه هدىً للمتَّقين" وفى آيات كثيرة تالية منها ومن سائر السور. والفرقان صفة للكتاب الذي تواصل وحْيُه وتَصدَّق عبر الرسالات وهذه الصفة للكتاب ترد في الآيات لإبراز التمييز بين الحق والباطل شِرعةً أو سنةً أو شِيعةً ، وفي هذا السياق لأن الكتب جميعاً جاءت فرقاناً واضحاً تهدي النَّاسَ لله الواحد الذي لا يموت والقيُّوم الذي لا يعجز ولا يدع مجالا للشك والريب والإشراك بتعدد الآلهة أو تثليثها ، وبجعل الأصنام آلهة أو الأنبياء آلهة كما فعل المشركون والنصارى.

وأنزل بالكتاب فرقاناً بيِّناً واضحاً للمخاطَبين من ذات لسانهم العربي الذي ترمز إليه الحروف في مطلع السورة، فالذين كفروا بآيات التوراة والإنجيل والقرآن التي تنزلت كتاباً فرقاناً واضحاً وهدىً قيما وغطوا الحق بالعقائد الباطلة أولئك لهم الوعيد والعذاب الشديد والآية تمهيدٌ لآيات تاليه لوعظهم ومجادلتهم بالحق الواضح القويم . وذِكْرُ موقف الكفر وجزاؤُه دون الإيمان وأجره هو لمناسبة خطاب وفد نجران وثقافة النصرانية الكافرة بالكتاب الشاهد الخاتم. فالله عزيز بعلياء هديه المنزَّل المكتوب هيمنةً ومغالبةً للكافرين، ذو انتقام دائم وغضب في الآجلة بالعذاب وفق عدله وحكمته.

إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء{5}

موصولاً بما سبق، إن الله الحيّ القَيُّوم المنَزِّل الفرقان العزيز المحاسب لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء بل هو حكيم بكل ما يهدي الناس فرقاناً فيهما ورقيب على كل شيء فيهما من وجود الإنسان وكسبه ، محيطٌ علماً بكفر أهل الكتاب بعد الهدى والفرقان مهما ستروا وكتموا من عقيدتهم

---

[12] راجع لسان العرب مادة توراة وإنجيل

وليس كمثل الله عيسى عليه السلام الذي يبدو من سيرته – حتى في الإنجيل – أنه بشر يجهل كثيراً من الأشياء ولا يحيط بها.

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{6}

إن الله لا يخفى عليه علم البشر وكسبهم ، حتى المكنونات من أجنة البشر في الأرحام هو يعلمها بل هو الذي يصورها على أي صورة شاء وفي المعنى – كذلك – إشارة لخلق الله سبحانه لعيسى عليه السلام ونفخ الروح والحمل في رحم مريم والميلاد بكيفية على غير سنة الأبوة – كانت – سبباً لكفر النصارى ، وبنى على ما تقدم من علم الله وقدرته أن لا إله إلا هو – كما سيرد في الآيات اللاحقة[13] – لا شريك له من دونه لأنه الواحد العزيز على المخاطبين يصوِّرُهم ويهديهم ويحاسبهم الحكيم الذي يتصرف بهم أجنةً في الأرحام وينزل عليهم آيات الهدى ويحكم بينهم يوم المصير.

هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ{7}

الآيات تتوالى في سياق متصل مترابط يوحد الله من الوجوه التي تناسب البيئة التي تتنزل عليها السورة ويؤكد صدق الكتاب وحياً منزلاً فالله لا يخفى عليه شيء والذي يصور البشر منذ الأرحام هو الذي أنزل جملة الكتاب الذي نزلت آياته منجمة وجاءت كلماته مركبة على الأحرف العربية البينة هدىً وفرقاناً بعضُ آياته مضبوطة في بيانها العربي قطعية في دلالاتها نازلة معانيها على وقْعٍ واحد، وهي أصول الإيمان والتوحيد وهي أم الكتاب يعود إليها أصله ومرجعه كما أن الأم هي الأصل في كل شيء وهي محكمة فاصلة بوقعها تفسر المتشابه فلا يضل به أهل الأهواء. وآيات أخرى غير متناقضة لكنها غير محكمة قطعية البيان الفاصل بل فيها ابتلاء الله للناس في كل الحياة ، متشابهة قد تحمل الرؤية إلى معان متعددة تتشابه وتُشْكِل فلا يتميز فيها الحق فرقاناً وقطعاً فيحتاج فقهها إلى تأمل وتَفَكُّر في المحكمات لتستنبط وجوه الحق المختلفة شكلا والموحدة مغزىً. وقد ترتب عن توارد المحكم والمتشابه من الآي أن الذين قي قلوبهم ضلال من أهل الكتاب وأمثالهم يتصيدون المتشابهات ليحملوها بوجه إلى باطلهم ويتغافلون عن أم الكتاب وعن المحكمات التي لم يجعلوها فرقاناً. وذلك كما فعل اليهود بنصوص التوراة ولم يحملوا كتابهم بفقه إيماني صادق ليؤدوا بإخلاص أمانة حمل الكتاب بل زيفوا المتشابه إهمالاً للمحكم القطعي وزاغوا عنه بالحيل التأويلية وبالظاهر دون آيات الأمان والنية المخلصة وإنما بعث عيسى عليه السلام ليوحد معاني الظاهر إلى الباطن وإلى آيات الإيمان وهي أم الكتاب أصل الدين إيمان بالغيب واليوم الآخر.

[13] الآية 18 من نفس السورة

– كذلك – فعل وفد نجران الذي قدم إلى المدينة واحتجوا لدى الرسول ﷺ ببعض نصوص الإنجيل ومن القرآن مثل (الأب) و(الابن) في الإنجيل و(روح الله) و(كلمة منه) في القرآن ومثل دلالة الخوارق المعجزة على يد عيسى وسائر النصوص التي حاولوا أن يزيفوها عن معناها الحق ويبرروا بها ألوهية المسيح. وفي أم الكتاب – وبتلك المناسبة – نزلت الآيات في صدر السورة فرقاناً بأن عيسى عليه السلام عبد ونبي يدعو لعبادة الله الحيّ القَيُّوم وحده . واتباع المتشابهات من مرضى القلوب إنما هو ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، وذلك الزَّيْغ عن الآيات المحكمات تتبعاً للمتشابهات عند أهل الكتاب زَيْغ متعمد يريدون تسعير الفتنة بينهم أو بين المسلمين أو بينهم وبين الناس كما مضت المجادلات منذ الرسول ﷺ ويريد زائغو القلوب بعزل المتشابهات وحدها بسوق تأويلها وسنتها ومآلها ومعناها إلى مقاصد يستهدفونها سلفاً بالباطل. وما يعلم تأويل المتشابه مسلكاً إلى وقعه الفاصل حقاً إلا الله الذي يحيط بالمحكم والمتشابه إحاطة مطلقة وينزل حق التأويل.

والآية تذكير للمسلمين كيف يتعاملون مع آيات الكتاب فلا يجعلونها أسباباً لفتنة فكرية، كما فعلت اليهود والنصارى ، فإن المرجع في التأويل لله.

الراسخون في العلم هم الثابتون الراسخون بإيمانهم في العلم – كما وضح من معاني دعائهم في الآية آخر هذا السياق – هؤلاء العلماء المؤمنون يقولون كل من ربنا ، فهم يوحدون آي القرآن ولا يبعضونه ويحملون المتشابه على المحكم ويفسرونه ويأوِّلُونه به وحتى إذا لم يعرفوا كل تأويل معنى الآيات المتشابهة فهم يُسَلِّمون لمصدرها ، فكل الكتاب محكمه ومتشابهه من عند الله. والعلم الذي يذكر إنما هو العلم المليء بالإيمان وليس بالمعلومات نظراً ، واللب هو القلب الذي ينفعل بما يعلم وأولو الألباب هم الذين تخفق قلوبهم إيماناً بما يعلمون فلا يقعون في فتنة التأويل ابتغاء الوصول إلى الضلال البعيد.

رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ{8}

دعاء العلماء المؤمنين موصول بشهادتهم أن المرجع إلى الله، يدعونه ألا يزيغ قلوبهم بعد أن هداهم بالكتاب ، كالذين ابتغوا الفتنة اتِّباعاً لتأويل المتشابهات زَيْغَاً ومرضاً في قلوبهم حيث لم يرسخ فيها العلم بضعف الإيمان وغشيان الكفر بعد الهدى. ويدعون ربهم أن يهب لهم رحمة من لدنه ، من عنده فلا تزيغ قلوبهم بعد الهدى كما زاغ اليهود والنصارى ويذكرون الله المدعو كثير هبة الهدى ورسوخ العلم والرحمة لعباده.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ{9}

صلة بالآية السابقة [14] إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام، يُعْلِن العالمون المؤمنون بأن ربهم يحشر الناس كافة الراسخ الإيمان المهتدي منهم والزائغ المفتون ليوم فيه تنقطع التأويلات ويبطل ابتغاء الفتنة ويقع على الذين كفروا العذاب الشديد وذلك الانتقام ويرجون أن توهب

[14] نفس السورة الآية رقم 8

لهم يومئذ الرحمة فهو يوم قطعي لا ريب فيه فالآية المحكمة وأم الكتاب أن الله لن يخلف موعد الكافرين يومئذ فلن يفلتوا من عزِّه وانتقامه ولن يخلف موعد الرحمة للمؤمنين فهو الحي أبداً القيُّوم بالمصائر.

عموم المعاني الآيات:1-9

إن الكتب التي تنزلت من السماء هي من الحيّ القَيُّوم الذي لا تأخذه غفلة ولا عجز عن هدى عباده في الأرض. وقد كانت قديما تتطاول العصور وتتوالى الأقوام فيجدد الله نزول الهدى مصدِّقاً ما سلف مذكراً بما نُسي ، ويَتَنَزَّلُ كل كتاب بلسان المخاطبين فرقاناً واضحاً بين الهدى والضلال. وقد راجت – لا سيما – في العصر الحاضر – عقيدة كافرة قد تعرف الإله أصلاً لأسباب الخلق لكنها تجعله موجوداً ميتاً عاطلاً يتحرك من دونه الكون بأسباب الطبيعة ويسعى فيه الإنسان بإرادته وأحكامه الوضعية.

فحتى ورثة الملل المتدينة منهم من يكفر بآيات الكتب المقدسة وضعيف إيمان بأن الله عزيز حكيم يحاسب الكفار يوم القيامة وينتقم من كل من أخذته عزة بهوى الكفر، لكن المسلمين بأصول القرآن المحفوظة الخالدة يؤمنون بأن الله عليم لا يخفى عليه أي هدىً للناس وأي كسب منهم وأنه عزيز يصرف حياة البشر ومصيرهم من أول خلقهم أجنة في الأرحام.

والكتب المقدسة أصل واحد يسلك ويدرج في سياق محكمه القطعي وما يتشابه معناه . وذلك الازدواج ابتلاء للاجتهاد في تلاوة الكتب كسائر ابتلاءات الحياة لكن بعض المنتسبين إلى علم النصوص الكتابية من يزيغ به الهوى فيحمل المتشابه منها وحده فتنة للناس ومآلاً إلى مقاصد الزَّيْغِ. ولكن ذوي العلم الراسخ في الإيمان يوحدون الكتاب مرجعاً ويردون مُتَشَابِهِهِ إلى مُحْكَمِهِ، يفقهون الكتاب بأصوله لا نظراً متجرداً ويدعون الله في تفسيرهم للقرآن توفيقاً ورحمةً دون زيغ ، إيماناً بالحساب يوم القيامة على أمانة الكتاب.

وقد ورط اليهود في الفقه التأويلي والظاهري زيغاً وجاء عيسى عليه السلام لِيُقَوِّمَ أحكام التوراة ويُحْيي نيات الإخلاص لله، لكن النصارى ورطوا أيضاً في اللفظيات التي زاغت بهم عن الحق في العقيدة، ولم يسلم المسلمون من تلك العلة في اتباع المتشابه الملتبس بغير تحكيم المحكم وتبعيض نصوص الكتاب فذهب متكلمون بجدليات الفلسفة ومتفيقهون بحيل الظاهر والباطن وباطنيون بالتأويلات المجازية المفرطة إلى كثير من الزيغ والفتنة. والآيات في صدر سورة آل عمران لمن حفظها علماً وعملاً هي الهادي للحق في الدنيا وللرحمة يوم الجمع في الآخرة.

ترتيل المعاني: الآيات 10–32

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ{10}

وصلاً بالآيات السابقة في الذين كفروا بالتنزيل وزاغوا بمشتبه آياته – حقاً لن تغنيَ الذين كفروا يوم الجمع والانتقام أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ما ولو قليلاً وذلك تذكير لليهود المولعين بالأموال والأولاد وكذلك للنصارى الرومان الذين اشتهروا في التأريخ بثروتهم الكثيرة وعَدِّهم الكثيف وهي تهيئة للتذكير بزينة حسب الشهوات للناس وبحال بعض المسلمين الذين فتنتهم شهوة الغنائم في أحد فأوقعت عليهم الهزيمة كما سيرد فيما بعد لكن الله سينتقم من الكافرين بأن يجعلهم هم وقود النار.

} كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ{11

تتصل موعظة الكتابيين بعبرة ما سبق قريباً من تأريخهم بأن لن تغني عنهم الأموال والأولاد فغرورهم واستغناؤهم بالثروة كالدأب والسلوك المستمر لآل فرعون الذين قام فيهم نبي الله موسى يدعوهم لتحرير قومه والذين نزل عليهم كتاب التوراة المذكور في أول هذا السياق. وذلك أيضاً دأب من كانوا قبل آل فرعون يكذبون بآيات الله والمرسلين فتنة وغروراً بوزن مالهم وعَدِّهم كما روى القرآن من قصصهم في السور المكية [15]، كذبوا فأخذهم الله بذنوبهم ولم يغنهم ما هم فيه.

والآية تذكر المسلمين حتى يطمئنوا مهما أحدث الكافرون من أهل الكتاب من فتن وتأويلات في كتبهم ومهما كثرت أموالهم وأولادهم لئلا يقعوا أسرى فتنتهم الفكرية والفلسفية ولا يهابوا قوتهم المادية وإن كانوا مثل قوة آل فرعون ومَنْ قبلهم فقد أغرقهم الله وأخذهم بذنوبهم وأنجى الأنبياء والمؤمنين – والله شديد العقاب – مثل الآية السابقة – عزيز ذو انتقام – تأكيداً بشدة عقابه للمكذبين الكافرين في ذلك اليوم الذي يجمع الناس لا ريب فيه ولن يخلف الله يومئذ موعد العقاب الشديد والآية تَذْكُر الطغيان المادي مع طغيان العقيدة فهما مرتبطان يفضي الأول فتنةً إلى الآخر.

} قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{12

الخطاب لرسول ﷺ وللمسلمين حتى ينهضوا لمجابهة الذين كفروا من أهل الكتاب فلا يخشوا طغيانهم – لا سيما – أنهم استخفوا ببدر الكبرى وعدوا قريشاً أغراراً وفرحوا بإصابة المسلمين في أحد فالوصية

---

[15] سورة الأنعام رقم الآية 124 سورة آل عمران الآية رقم 36-37

للرسول ﷺ أن ينذرهم أنهم سيغلبون في الدنيا – وفي ذلك بشرى للمسلمين بهزيمة أعدائهم من اليهود أو الرومان كما هزموا مشركي قريش – والآية وصلا بما سبق[16] يذكر يوم الجمع والوعيد بالنار فيما سبق الخطاب للرسول ﷺ أن ينذر الذين كفروا أنهم في الآخرة لمقابلة استكبارهم وطغيانهم سيحشرون حشراً إلى جهنم وستكون لهم بئس المهاد أو الفراش البئيس.

} قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ{13}بخطاب للكافرين من أهل الكتاب موصول بنذير الآية السابقة أن قل لهم أن قد كان لكم في قتال فئتين آية ودلالة وعظة بقدر الله الغالب حتى لو أغرتكم قوة المال والعدد أن ستغلبون بعد الجدال بالقتال. وهي إشارة لغزوة بدر التي فصَّل القرآن حدثها وعبرتها إذ كانت حاسمة لأول تمكن الإسلام في التأريخ وفاتحة لمرحلة أخرى، إذ قامت فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله تقابلها أخرى كافرة من المشركين ، يرى المؤمنون المجاهدون الفئة الكافرة مثلهم مرتين فلم يخافوا الكثرة بل توكلوا على الله وتقديرهم أن الكفار مثليهم ليس إلا مبلغ رأي العين تقليلاً للكفار وتطميناً لهم للإقبال على القتال . وكانوا حقيقة أكثر ثلاثة أمثالهم فلم تغن الكثرة كما سبق القدر المذكور في الآية السابقة [17] ورأي العين هو الصورة الظاهرة للناظرين كما سيرد ذكرها في سورة الأنفال ومغزاها ألا يفشل المسلمون فرقاً وخوفاً وأن يقع قضاء القتال والنصر أمراً مفعولاً إذ قلل الله عدد المسلمين في أعين الكافرين فتجرأوا على قتالهم ولكنه أيدهم بالملائكة لتقوى عزائمهم فكتب لهم النصر والله يؤيد من يشاء بالنصر ولو قل نظراً وفعلاً ويخذل من شاء ولو كثر عدداً . والإشارة لمن أضمر شراً للمسلمين من أهل الكتاب أن يعتبر بما حدث لمشركي قريش ولا يظن أن ذلك حدث بسبب قلة مشركي قريش أو فقرهم بل بتأييد الله للمؤمنين آية وعبرة لمن كان لهم أبصار نافذة وذلك موصولاً بما سبق من يرونهم مثليهم رأى العين[18] فذو البصر المعتبر لا تغشاه رؤية الأشياء فتفتنه كثرتها ظاهراً.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ{14}

المعاني موصولة بالسياق الذي ذكر فتنة الأموال والأولاد التي لن تغني عن الله شيئاً والتي اشتهر بحبها آل فرعون كما في الآية السابقة قبل قليل [19] وأعداء المسلمين يومها من يهود ونصارى ومشركين وقد زين الله حبَّ هذه الشهوات للناس ابتلاءً واختباراً في فطرة الناس من متاع الدنيا نعم للشاكرين وشهوات تشد إليها قد تفتن وتغرق فيها مجتمعات وحضارات بأكملها . كما هي شهوة النساء إذ غرق نصارى

[16] الآية 10 نفس السورة
[17] نفس السوورة الآية 10
[18] راجع تفسير سورة الأنفال الآية 44 التفسير التوحيدي المجلد الثاني تحت الطبع
[19] نفس السورة الآية 10

الرومان في الجنس وعشق النساء شهوة وحب البنين عدداً وكما فتن العرب بكثرة الولد. وشهوة الأموال المكومة المكثرة من الذهب والفضة وهي شهوة شائعة. وشهوات الخيل المزينة المسومة والأنعام من البهائم والحرث من الزراعة وكلها شهوات تهفو إليها نفوس الناس وتضعف إزاءها. فهذه الشهوات مهما بدت مزدانة فهي إلى زوال لأنها متاع الحياة العاجلة وهى فتنة مادية دنيوية لن تغني أمام الله في يوم لا فدية فيه ، وقد تفتن الإنسان في الدنيا وتقعد به عن القتال في سبيل الله كما في الآية السابقة مباشرة وبالمقابل للعقاب الشديد والحشر إلى المهاد البئيس لمن تحرر من فتنة تلك الشهوات ولم تخدعه زينة حب متاع الدنيا بل اتخذه زاداً لحمد الله وحباً لعبادة الله الذي عنده زينة المآب وحسن المرجع.

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{15}

الخطاب للنبي الداعية بعد إنذار الذين كفروا أن لن يغنيهم متاع الدنيا بل يصير الأمر إلى أن يغلبوا وينتهي إلى بئيس الآخرة، وفي مقابل فتنة شهوات متاع الدنيا ، إن أراد المخاطبون نبأ ما هو خير لهم من ذلك أن للذين يتزودون بتقوى الله أن يصير الأمر بهم عند ربهم إلى جنات نعيم تجرى من تحتها الأنهار فلا ينضب ماؤها ولا يجف مناخها ولا يذبل شجرها وهم في ذلك خالدون وليس كالشهوات في الدنيا التي تنقضي متعتها وتزول . ولأولئك المتقين أزواج من نساء الجنة أشد طهارة من مشتهيات الدنيا.

والقرآن دائما يشير إلى طهارة النساء وجمالهن في الجنة ترغيباً لأن صفات الجمال والطهارة تناسب المرأة وتتعلق بها ولا تناسب أن يوصف بها الأزواج الرجال.[20]

ثم لهم رضوان من الله ورضوان الله أكبر للنفس في الآخرة من كل النعم المادية والمعنوية والله بصير بالعباد ، يبصر من عباده المتقين وأعمالهم ويبصر الكافرين وأعمالهم ويجازي عليها يوم القيامة.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{16}

المتقون الذين سبق ذكر مصيرهم الخير هم الذين يتقربون إلى الله بتأكيد إيمانهم ويتوسلون به دعاءً لله ليغفر لهم ذنوبهم وليقيهم الله من عذاب النار فلا يكونوا وقوداً لها. والذكر والدعاء أسلحة المؤمن التي تحفظه من الشهوات وتبلغه الجنات ورضوان الله والدعاء سند المؤمن فلا ينكسر للهزائم ولا يصيبه الإحباط من خسارة عارضة في الدنيا .

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ{17}

تتبين صفات المتقين وتفصل صبراً عن الشهوات وعلى الابتلاء وصدقاً للإيمان بالأقوال والأفعال ، وقنوتاً يخشع القلب لله ذكراً ودعاءاً كما سبق وإنفاقاً يقاوم شهوة المال والقناطير المقنطرة ، واستغفاراً

[20] الآية في وصف نساء الجنة (إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين) الآيات 51 - 54 سورة الدخان..

بالأسحار حيث ينشغل أهل الشهوات في شهواتهم أو يستغرقون في نومهم والسَحَرُ أفضل أوقات الدعاء خلوة مما يلهي وأقربها للإجابة كما في الحديث[21]

شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{18}

يستمر سياق توحيد الحيّ القَيُّوم العزيز الحكيم الذي يكفر أهل الكتاب بآياته ويزيغون بتأويلها ويُغْرَون بكثرة متاع الدنيا وشهواتها، فيتقرر هنا أن في كتب الحق المنزَّل شهادة الله بوحدانيته وشهادة الملائكة وشهادة أولي العلم الراسخين فيه الذين يؤمنون بالآيات محكمها ومتشابهها من الله الواحد ويؤمنون باليوم الجامع خيراً للمتقين. والشهادة هي بتوحيد الله حياً قيوماً بالقسط وبميزان العدل على كل الكون وفي رد الحكم بين مصائر المؤمنين والكافرين والشهادة بتوحيد الله عزيزاً فوق شرك المشركين وعما يصفون وحكيما فيما يخلق ويهدي ويجازي.

إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ{19}

تلك الشهادة والحق أن الدين عند الله الإسلام فالدين الخضوع الحق عند هدى الله وحكمه هو الإسلام منذ إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وهو أن يُسْلِم العباد أمرهم بتمامه لله وحده فلا يشركون ولا يكفرون ولا يبغون. ولئن كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى في بيئة التنزيل وإلى اليوم في اختلاف ، اليهود تقول أن النصارى ليسوا على شيء وكذلك تقول النصارى عن اليهود. واليهود والنصارى فرقوا دينهم وصاروا شيعاً وطوائف فيما بينهم واختلفوا عما جاء به الرسول الخاتم ﷺ من الحق، فإنهم ما اختلفوا كذلك عن الإسلام الواحد إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، فمن بعد ما جاءتهم آيات التنزيل وشهادات التوحيد تعلمهم الوحدة في دين الإسلام ولكن العلم لم يرسخ في قلوبهم فاختلفوا بسبب البغي وهو الظلم الذي يناقض أمر الكون الحق ، القائم على القسط والهدى، الذي يجعلهم يتَّبِعُون الشهوات ويتجاوزون ويخالفون الدين الحق ويختلفون . فمن يكفر بآيات الله اختلافاً بعد العلم وبغياً فإن الله سريع الحساب عاجلاً في الدنيا أو آجلاً يوم القيامة حيث ينحسم كل خلاف ويبطل البغي ويقوم القسط ويحشر الكافرون إلى جهنم وبئس المهاد.

فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{20}

الخطاب مستمر للرسول ﷺ الداعي في مواجهة محاجة أهل الكتاب وشبهاتهم أن يعلن أنه مهما ظلوا على خلافهم وبغيهم بعد البلاغ والشهادة، مسلم وجهه لله تعبيراً عن الاستقامة على الإسلام الذي هو الدين عند الله ثابت لا يلتفت لحججهم الباغية الباطلة. مسلم هو إماماً ومن اتبعه من صحبه

[21] الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (لو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة الى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولأضاءت ما بينهما ولتاجها على رأسها خير من الدنيا وما فيها) نقل من كتاب وصف الجنة ووصف النار ، لوحيد عبدالسلام ، ص 29

مستقيمين لا يتنازعهم البغي وموحدين لا تفتنهم الخلافات والشهوات. وقل بلاغاً ودعوة لأهل الكتاب وللأميين من مشركي العرب وغير أتباع اليهودية والنصرانية في كل مكان وزمان سائلاً لأمة الخطاب تلك ءَأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإذا خرجوا من البغي والخلاف والجاهلية واستقاموا على الدين الواحد إسلاماً لأمرهم كله إلى الله فقد اهتدوا إلى الحق وإذا غلب عليهم البغي والجهل فاختلفوا عن دين الله وتولوا عن الإسلام فذلك لن يضرك في شيء فأنت رسول ما عليك إلا الإعلان وبلاغ الدعوة ، لست لهم بمكره ولا عليهم بمسيطر، فليس لك من أمرهم شئ إذا تولوا فالله بصير بعباده يبصر أعمالهم وبغيهم وخلافهم وهو سريع الحساب –كما سبق القول .[22]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{21}

الخطاب يتصل بذكر سيرة أهل الكتاب الذين يكفرون بآيات الله والذين يبلغ بهم التولي عن الإسلام أن يقتلوا بعض النبيين بغير حق بل بالخلاف والبغي وأن يقتلوا العلماء والدعاة الذين يأمرون بالقسط والعدل شهادة بأمر الله القائم بالقسط فالخطاب يوحي للرسول ﷺ أن بشرهم بعذاب أليم وتلك البشارة منه لهم في أمانيهم ثم تخييبها نذارة بالمصير إلى العذاب الأليم في الآخرة.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{22}

أولئك الذين سبق وصف سيرتهم هم الذين حبطت وسقطت أعمالهم مهما ادعوا شعار الدين ، لا قيمة لها في الدنيا ولا في الآخرة وما لهم من ناصرين مهما ادعوا في بغيهم على الدعاة النسبة إلى ناصر من الله أو من دونه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ{23}

الخطاب يذكر الرسول ﷺ ألم تر وتستشهد وتعتبر أن اليهود والنصارى الذين أوتوا نصيباً مقدراً من الكتاب – التوراة والإنجيل – يدعون برسالتك إلى القرآن المصدق للكتاب ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، وكان ينبغي أن يتأكد الدين عندهم ويتذكروا حكم الله، ثم بعد ذلك كله يتولى فريق منهم وهم معرضون عن بينات الحق المتوالية.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ {24}

---

[22] ختام الآية السابقة مباشرة

ذلك التولي والإعراض إنما حمله الافتراء الذي أقحمه أهل الكتاب على آيات الله، فاليهود ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه فلن تمسهم النار إلا أياماً معدودة قدر ما عبدوا العجل كما في سورة البقرة والنصارى ادعوا أن المسيح مخلص لهم بفرية الصلب فلن يمسهم العذاب وقد غَرَّ أهل الكتب في دينهم ما كانوا يفترون.

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{25} فكيف: تعجباً من هول مآل الكافرين المغرورين في دينهم من أهل الكتاب إذا جمعهم الله ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس جزاء ما كسبت من عمل وعداً ووعيداً ، والناس يومئذ لا يظلمون بشفاعة أو فدية أو عدة عذاب لبعض دون بعض.

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{26}

الخطاب للرسول ﷺ وللداعي ليخاطب المسلمين وأهل الكتاب وسائر الناس وهم ينظرون إلى مظاهر الملك والقوة من حولهم وقد سبقت الآية بالبشارة للمسلمين والنذارة للمشركين فالمدينة كانت محاطة بقوة فارس والروم وبغلبة الأميين الذين يناصبون المسلمين العداء.

وفي الآية ذكرى شاملة بأن الله الحيّ القَيُّوم بأمر السموات والأرض يؤتي الملك من يشاء وإن شاء نزعه منه وأن القوة والعزة الظاهرة في الدنيا هي بأمر الله إن شاء بدلها ذلة وضعفاً وتلك الأيام يداولها الله بين الناس في كل زمان ومكان والعبرة ألا يغتر من تكثر أمواله وأولاده لتفتنه كدأب آل فرعون وألا يهن المسلمون ولا يحزنوا بذلة السلطان بل يتذكروا أن الله هو القاهر فوق عباده وهو قدير على كل شيء من شؤون النصر والهزيمة والعزة والذلة وكل أمر بيد الله ولا مجال لقوة عظمى فوق مشيئة الله. والخطاب في الآية أن كل المصائر له سبحانه وتعالى وأن بيده الخير الذي يرجوه المسلمون ملكاً وعزة وفي الآية بشرى لهم بقرب زوال قوة الكفر المهيمنة من حولهم وتتم نعمة السلطان لهم إن الله على كل شي قدير .

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ{27}

المعني يتصل بتقلب أحوال المجتمع في النظام الإقليمي والعالمي. فالخطاب المستسلم لله المتصرف في أحوال الملك والعزة يستمر، أنه هو المتصرف كذلك في أحوال الكون كلها فهو كما يقلب السلطان يقلب الليل والنهار يتوالجان ويتداخلان عبر الأرض كل دورة، ويقلب الحياة والموات يتعاقبان بسنة مشهودة في مظاهر حياة الإنسان والحيوان والنبات ويقلب أيلولة الرزق فقراً وغنى ولكن الرزق كالملك والعزة بغير حسبان مسنون معلوم كحساب اليوم والعمر . وفي الآية بشرى أخرى للمسلمين أن معايير

الثروة الظاهرة ووسائل كسبها وسبل جمعها ليست بيد الأغنياء خطراً خالداً ولكن بيد الله الرزاق كما أن السلطان بيد الله المالك، وفيها أيضاً عظة لأمة الخطاب جميعاً ألا يأخذهم الغرور بخلود نعم الدنيا أو النجاة بأماني الدين.

لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ{28}

يتصل ذكر الفرقان بين المهتدين بالكتاب والكافرين بآياته ، والراسخين في العلم والزائغين بالفتنة، وبين الفئتين المتقاتلتين ، ومن أحباب الشهوات والمتقين وبين المسلمين والمتولين، وتصل تقلب الملك والرزق بين الناس كتغلب الليل والنهار والحي والميت ، تصل كل ذلك بعلاقة المؤمن بالكافر فلا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين نهياً للمؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء ذوى مودة ونصرة تحيزاً لهم دون المؤمنين لأن المسلمون جماعة موحدة قد يعاهدون باسمهم جميعاً الكافرين تقديراً لمصلحة عامة في إطار السلام والاستقامة ولكن ليس لمؤمن أو لطائفة من المؤمنين أن ترتبط مع الكافرين بموالاة خاصة تخون بها عهد الإيمان مع الجماعة المؤمنة فالذي يفعل شيئاً من مثل تلك الموالاة فليس في شي من موالاة الله الواحد الذي يتحد بموالاته المسلمين، ولا من رجاء الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء وبيده الخير وهو على كل شيء قدير. وذلك إلا أن تتقوا منهم تقاة ففي حالة استثنائية قد يضطر المؤمن – أو الطائفة – إلى موالاة منحازة للكافرين يدفع ويتقى بها ضرر عن النفوس يخاف من تلقاء الكافرين.

والتحذير والوعيد – في ختام الآية – حتى لا تختل وحدة موالاة المؤمنين بعذر تقية الكافرين وتتجاوز دفع الضرر إلى الوهن والفتنة فمهما تكن أوضاع المؤمنين والكافرين في الدنيا فإن مصير كل تلك الأوضاع إلى الله يوم القيامة وسيلقى المؤمن المصابر مع جماعة المؤمنين جزاءه وسيلقى الذين والوا الكافرين جزاءهم .

قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{29}

الآية تذكيراً بعلم الله الذي لا يخفى عليه شي منذ خلق الإنسان في الأرحام ووصلاً بوصايا الموالاة ونيات التقاة والتحذير من المصير تخاطب النبي ﷺ الداعي أن يُذَكِّرَ الناس أن الله يعلم ما في الأنفس إن أخفاه المؤمنون أو أبدوه وما يضمرون في الموالاة للكافرين دون المؤمنين اتقاءً لضرورة حقاً أو وصلاً لعاطفة نسب أو لعارض مصلحة أو بمرض قلب دون الولاء في الله ويعلم الله ما في السموات والأرض وحول أحوال المسلمين وظروف علاقاتهم وحركة مصائرهم ، مثل ختام الآية السابقة فإلى الله المصير، ووصلاً بأقدار الملك العزة والقوة والرزق في الآيات قبلها، فالله قدير على كل شيء من أمر الكون وأمر العزة والقوة والرزق وقدير على الجزاء حينما يرجع وينتهي إليه المصير.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ{30}

تمضي الآية بعد علم الله بدوافع النفوس في العلاقات بين مجتمع المسلمين والمجتمعات الأخرى إلى ما يترتب من حساب الله يوم القيامة إذ تجد كل نفس ما عملت وكسبت من خير في هذه العلاقات حاضراً بائناً أجره، وما عملت من سوء وخيانة في هذه العلاقات ماثلاً عرضه ورزءاً ثقيلاً يَكْره الإنسان أن يلقاه كتاباً وحساباً وخزياً أمام الناس ويتمنى بينونة من دونه لأمد بعيد. وقد سبق تحذير من أداء موالاة الكافرين من دون المؤمنين إبطاناً للمودة ويتأكد ذلك بالتحذير من جزاء الله للخافي والبادي والخير والسوء يوم القيامة. والله شديد الرأفة بالعباد إذ يحذرهم ليتقوا مصير عمل السوء يوم القيامة.

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{31}

في سياق الموالاة الوصية للنبي ﷺ الداعي أن يخاطب المسلمين الذين يحبون الله والذين قد تؤثر عليهم علاقاتهم القديمة مع المشركين والكتابيين فيحتفظوا بمشاعر الموالاة والمودة تجاههم، ولاسيما المنافقين الذين يبدون حب الله رب الإسلام ويخفون المحذور من مغبة الموالاة للكافرين دون المؤمنين وينسون التحذير . فمن كان يحب الله إنما صدقه الاتباع المخلص للرسول ﷺ اتباعاً للذي أرسله هادياً وموالاته ولاءً للذي اختاره إماماً وبصدق حب الله يستجيب الله بالمثل حباً لاتباع الرسول ﷺ ويمضي الخطاب الداعي أن صدق الحب والاتباع يطهر ويغفر الذنوب التي تراود بها موالاة الكفر، والله غفور رحيم – كثير المغفرة لمن زاغ قلبه عن اتباع الرسول ﷺ ولكن ثاب لإيمانه وحبه لله واستقر عليه ودقيق الرحمة يطهر ويزكي من شوائب اتباع الهوى والميل إلى ذوي الأهواء.

قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ{32}

مهما يكن ادعاء الكافرين والمنافقين يوصي النبي الأمير ﷺ أن يأمر بطاعة الله والرسول أساس الدين والإسلام ونسب طاعة الرسول ﷺ إلى الله تعالى كما سبق في الآية الأخيرة. فإن تولى بعد هذا الأمر بالطاعة هؤلاء المنافقون تولياً عن حب الله واتباع رسوله وعن طاعة الله ورسوله فإن الله لا يحب الكافرين ولو ادعوا حبه لأنهم يتحابون ويتوالون جهراً ونفاقاً في الكفر.

عموم المعاني الآيات:10-32

إن حملة تراث التوراة والإنجيل (وبعض ورثة القرآن من بعد) إذ تقادم دينهم يمضون فيه بغير علم مؤصل على محكمات الكتاب بل زيغاً لابتغاء الفتنة والتأويل للمتشابه من النصوص ، ويرتهنون للقديم

فيكفرون بتجديد رسالة الإسلام المصدق لكل أصول الدين والكتاب، ويستغنون بمكاسب الدنيا مالاً ونسلاً . ودعوة التجديد تبصرهم بأن تلك المكاسب لا تغنيهم عن قدر الله الغالب إذ يصير بهم إلى النار، وتذكرهم في الدنيا بعبرة سوء مصائر أولي القوة الدنيوية قديماً الذين فتنوا بها وكذبوا الحق فتنذرهم بأنهم في العاقبة مغلوبون وأن من عِبَر ذلك التأريخ انتصار الإسلام على قوة قريش التي كانت الأغنى مالاً والأكثر عدداً.

وإذ يتضاءل في الناس الدين والتقوى يفتنهم ما في فطرتهم من حب شهوات الجنس والولد والثروات، والداعي للحق نذير لهم بأن خير مصير ليس للمفتونين بل للتقاة الذين لهم نعم الآخرة لأنهم الذاكرون الله دعاة للتوبة من الفتن والوقاية من النار والصادقون الصابرون على شهوات الدنيا.

إن الحق– بشهادة الملأ الأعلى والعلم – هو توحيد الله قائماً بالقسط عزيزاً حكيماً بين الناس ، وأن الدين عند الله هو الإسلام ، وإنما اختلف عنه أهل الدين المتقادم لما غلب الهوى على العلم وتفرقوا بغياً بينهم وتعرضوا لسريع الحساب من الله.

إن الداعي يحاج بالحق أنه ومن معه على الإسلام ، فإن استجاب أهل القديم فذلك الهدى، وإن أعرضوا فما على الداعي إلا البلاغ وإنما متعصبة الدين القديم الكافرون بالجديد هم الذين يكرهون ويقتلون الدعاة للحق والقسط. وأولئك يخيب رجاؤهم وتحبط أعمالهم ما لهم من ناصر في الآخرة.

إن أهل الدين المتقادم مهما ورثوا من الكتاب يتولون إعراضاً عن تحكيم شرع الله وكتابه تمنياً أن لن يحاسبوا كثيراً وغروراً بما يفترون. فليذكر هؤلاء أن الملك والحكم لله يقلبه في التأريخ نزعاً وعطاءً وهو الذي يقلب الكون نهاراً وليلاً والرزق كما يشاء.

المؤمنون بالإسلام الجديد لا يوالون الكاذبين من أهل القديم دون سائر الأمة الواحدة المتجددة وذلك الولاء ليس من الدين في شي إلا لضرورات التقية في الدنيا ومهما أخفى المؤمنون أو أظهروا من دواعي ذلك الولاء فإن الله يعلم كل شيء ويقدر يوم القيامة جزاء الكسب حاضراً خيراً ومباشراً شراً. إن الدعوة لأمة الإسلام أن يصدقوا حبهم لله بطاعته وطاعة قيادة الأمة ليلتمسوا من الله الحب والمغفرة والرحمة.

ترتيل المعاني: الآيات 33–63

إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ{33}

كما اتصلت طاعة الله حباً باتباع الرسول محمد ﷺ تصل هذه الآية ذلك بسالفة المرسلين من الله وتؤكد أن قد اصطفاهم واختارهم بدءاً بأبي البشر والأنبياء آدم فهو الذي بدأ به الوحي والنبوة وبدأت به تجربة الإنسانية مع الشيطان والتكلف والابتلاء والتوبة والطاعة والخلافة. ثم تربط الآية طاعة الرسول واتباعه إلى الأنبياء تلك المنطقة الوسطى من العالم . وأولهم نوح عليه السلام ثم إبراهيم عليه السلام الذي يجتمع إليه

نسب المسلمين ونسب أهل الملة الكتابية الذين كانوا في جوارهم بالمدينة وهو الذي يعود إليه التراث المشترك للعرب واليهود والنصارى والآية تبيان خط الاصطفاء وسنة الأنبياء لاسيما إبراهيم وآله لأنه أبو سلسلة الأنبياء إسحق ويعقوب وأسباطه وإسماعيل الذين عود إليهم نسب وتقليد رسالي ولآل عمران وهم من هذه الذرية جاءت منهم مريم ابنة عمران وسيأتي بيان قصتها وميلاد عيسى عليه السلام تمهيداً للجدل مع النصارى منذ وفد نجران عند نزول هذه السورة إلى آخر الزمان. كل أولئك من الأنبياء وآلهم اصطفاهم الله على العالمين في الأرض.

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{34} إ

لقد كان آدم أبا البشر ونوح أبا سوادهم ولئن دعا إبراهيم لكل ذريته أن يكونوا أئمة كما في سورة البقرة[23] فإن المصطفين الذين ذكرهم الله في الآية السالفة ذرية بعضها من بعض ليست جميعاً من المصطفين بل منها المحسن والظالم وإنما يختار الله منها الصالح المحسن الذي هو أهل لعهد النبوة والرسالة وذلك بعض من بعض.

والله سميع بكلمات الهدى التي ترويها وتتناقلها ذريات النبوة المصطفاة وكلمات الدعاء فيها لتتصل عهود الرسالة ، والله عليم بكسب الذرية ومن كان من سلالتها ظالماً أو صالحاً لاتصال الرسالة وتجديدها. وذلك بفرع ذرية نحو مريم وعيسى – عليهما السلام – وبفرع نحو محمد ﷺ.

ِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{35}

الآية تصل سلالة الاصطفاء بفرعها نحو امرأة عمران أم مريم التي تأتي السورة بمناسبة النزول ومن بعد في قصتها وابنها عيسى – عليه السلام – وتراثه النصراني فتذكر الآية بكلمة دعاء في الذرية لبقاء عهد الدين وذلك من سنن تلك الذرية الصالحة التي تنذر بعض مولودها لله. وهو هبة ما في بطنها ليجيء مطهراً خالصاً لخدمة المساجد والعبادة فيها محررا من مقاصد الوالدين أن يولد لهم من يأتي بمزيد مال أو قوة أو جاه.

وهي تدعو الله أن يتقبل هبتها فهو يسمع دعاءها ويعلم نيتها ودعاؤها بالقبول سنة في الذرية لمباركتها وذكر الله – سميعاً عليماً – بذات الاسمين الأحسنين الواردين في تواصل الصلاح والاصطفاء في الذرية في الآية السابقة.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{36}

فلما وضعت امرأة عمران بعد ذلك النذر والدعاء أحست شفقة من ميلاد أنثى لأن الأنثى قد لا تفي لها بنذر التحرر لشعائر العبادة على الوجه الأتم وقد كان السائد في بيئتها أن الذَكر هو الذي يحرر

[23] سورة البقرة الآية 123

لخدمة المساجد وليس الأنثى ومهما قالت امرأة عمران اعتذاراً فالله أعلم بما في الأرحام ويعلم ما تخفي وما تبدي، وكان يعلم دعاءها ونذرها ولكنه قدر لها مولوداً أنثى وهو أعلم بأهليتها لعبادته وبما تبشر به مستقبلاً ، وليس الذكر كالأنثى، تمام مقولة امرأة عمران أن ليس الذكر الذي يحرر لخدمة المساجد كالأنثى فيما مضى به العرف. وقد ورد علم الله سلفاً في الآية عارضاً سابقاً تمام المقولة والله هو المستجيب لدعائها أن يتقبل النذر كيفما قدر وعلم من سيكون ثم مضت مقولة امرأة عمران أن قد سمت مولودتها مريم .. وأنها تعيذها بالله خطاباً ودعاءً وتعيذ ذريتها – على سنة دعوات الذرية المتواترة – والاستعانة واللجوء لله من الشيطان الرجيم المرجوم الذي يضل بالذرية ويغويها عن طريق الصلاح إلى الشهوات والهوى والضلال.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ{37}

السياق يتصل بعلم الله وقضائه أن توضع أنثى نذراً لله محرراً ، أن ربها تقبلها أشد القبول إذ حملت بالقبول الحسن رفعاً للحرج الذي استشعرته امرأة عمران من أنوثة الموهوب نذراً وأنبتها نباتاً حسناً تعبيراً عن حسن التربية والتزكية التي لقيتها مريم غرسا طيباً نبت في تربة طيبة، وكفلها زكريا كما أحسن الله تقبلها وإنباتها كفلها الله (بتشديد الفاء في قراءة)[24] حمَّل رعايتها زكريا ، وكان مما راعى زكريا إذ أصبحت مريم سادنة لخدمة المسجد قائمة في المحراب أن كلما دخل عليها وجد عندها طعاماً وكان يتعجب وهي ملازمة للمحراب لا تكاد تخرج لجلب الرزق وهي أنثى كيف ومن أين يأتيها رزقها كثيراً متى دخل عليها فيسألها ومريم ترد الرزق كله إلى الله مهما يكن مصدره إذ يأتيها محسوب الأسباب من المتصدقين ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء{38}

(هنالك) – عند حال مريم التي رآها أنثى تلازم المحراب وترزق دائماً بغير أسباب معدة عندئذ– دعا زكريا ربه هبة من لدنه –تعالى– إذ تؤسس لمريم الذرية الطيبة فهي أنثى وعابدة وسادنة ومعها حالة وحسابها من الولد – أن يهب له ذرية طيبة كمريم التي جاءت ذرية طيبة كالرجاء وهي أنثى كانت أمها قلقة وفي أعراف تلك البيئة ألا تطيق الأنثى أمانة السدانة وهذا النذر إذ كانت حاله والدأ وراء الرجاء فقد دعا الله وخاطبه أنه سميع بالغ سمع الدعاء في كل حال.

[24] رجح هذا التفسير أن الرزق كان يأتي لمريم لأماكن شعائر العبادة ومحاريبها ومساجدها ورجحت تفاسير أخرى في التراث أن الرزق كان يأتي لمريم بمعجزة خارقة لسنن الرزق ولكن الآية لم تشر إلى رزق عجيب أو شاذ كما أشار بعض المفسرين جهلا والمصدر النصرانية أن فاكهة الصيف تكون عندها في الشتاء وفاكهة الشتاء تكون عندها في الصيف.

فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ{39}

استجاب الله دعاء زكريا ونادته الملائكة وهو قائم في المحراب ذات مقام البركة التي يكاد يشهدها لمريم أن الله يبشرك بقدوم ولد لك فهو يجيء مصدقا شاهداً بصدق كلمة من الله حقت بميلاد عيسى عليه السلام ورسالته التي سيصدق بها (يحيى) في ظروف الفتنة والتكذيب ، وسيجئ (يحيى) كما دعا أبوه ذرية طيبة سيداً في قومه ولكنه حصور، يحصر نفسه ويمنعها من الشهوات كافة والشائع المعروف أن يتعلق الناس –لاسيما السادة– بالشهوات لا بالتقوى كما سبق في الآيات[25] ونبيا من الصالحين نبيا صالحاً لا تفتنه السيادة عن أنباء السماء ولا السلطة عن صلاح الأتقياء.

قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ{40}

بعد بلاغ الملائكة وبشراهم توجه زكريا بالكلام إلى الله (أَنَّى يكون لي غلام) فقد تمنَّى زكريا الذرية الطيبة عندما رأى حسن حال مريم وتعجب أنى تأتيها ولكنه تعجب أيضا ساعة الإجابة لدعوته أَنَّى تستجاب له ببشري غلام وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ، فجاءته مقولة الوحي: (كذلك الله يفعل ما يشاء) أن تحق البشرى وإن بُعَدت الأسباب المعهودة كما يحق قضاء الله وفعله ما يشاء رزقاً أو ذرية بغير حساب معهود.

قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ{41} دعا زكريا علامة يطمئن بها على بشرى الملائكة بغير المعهود فأوحى الله إليه أن الآية ألا تكلم الناس بل ينحبس منك النطق ثلاثة أيام تعبر للناس إلا بالإشارة والرمز وأمر زكريا وقد كف عن كلام الناس أن يتجرد لربه وينصرف لذكره كثيراً وتسبيحه عشياً وبكره طوال أيامه الثلاثة فلَّله المرجع والحمد في نعم الحياة والولد لا لأسباب علاقات الناس.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ{42}

تتواصل في السورة قصة مريم ولم ترد قصة زكريا إلا في سياقها بقدر ما قدمت مريم مثالاً جعله يتمني الذرية الطيبة وبقدر ما يهب الله الولد وراء أسباب الولادة المرجوة. وتلك إشارة سابقة لعيسى ولداً لمريم وراء أسباب البنوة الزوجية.

إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك فالملائكة تتكلم إلى مريم مباشرة قولاً على الهيئة التي تخاطب بها الأنبياء تقول لها إن الله اصطفاك – كالمصطفين الأخيار من الأنبياء – بالقبول والنبات الحسن والكفالة الطيبة والرزق الموهوب وملازمة العبادة وقد طهرها الله من وساوس الشيطان محررة له كما دعت أمها مزكاة من الذنوب مصطفاة على نساء العالمين بنعمة أخرى فوق سائر نساء البشر اللاتي يترجين الزواج والولد فمن ورائه أبلغ ترجي الأنوثة.

[25] راجع تفسير الآيات 14 الي 17 نفس السورة

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ{43}

تخاطب الملائكة مريم لشكر الاصطفاء وتكاليفه قنوتاً خاشعاً لربها وسجوداً متذللاً له تعالى في الصلوات ولو في الخلوة والليل وركوعاً مع الراكعين خاضعاً لتكاليف عبادة الله الواحد في وحدة مع جماعة الخاضعين.

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ{44}

الخطاب للرسول ﷺ قبل تمام القصة مسارعة طمأنينة أنها وحي من الله وتمهيداً للانتقال بها من حياة مريم إلى ميلاد عيسى الذي يبدأ به عهد دين المسيح موضوع الجدل مع النصارى الذي به تنزلت السورة والآية تشير إلى أن تكذيبهم للرسول ﷺ لم يؤسس على الحق فقصة مريم السابقة تقويماً لما يلحق أنباء غيب عن الرسول ﷺ توحي إليه وتذكر بأنه لم يشهد قومها آل عمران إذ يلقون أقلامهم يقترعون من يتولى كفالة بنت امرأة عمران التي نذرتها للعبادة وإذ يختصم كهنة المعبد في ذلك، فقدر الله أن يتولى زكريا حفظ كفالتها – وذلك أن في تقاليدهم الاختصام على حظوظ رعاية أمور الدين وأن الله يجعل الفوز لمثل زكريا النبي الصالح وهكذا سيظل النصارى في تنافس وخصام للفضل في رعاية الدين والفضل سيحق –لك– للنبي محمد ﷺ الذي يأتيه الوحي بالأنباء والحق.

إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ{45}

أنباء غيب القصة وحياً إلى محمد ﷺ تنتقل إلى مقدم عيسى وميلاده وبداية النصرانية إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه وذلك إذ خاطبت الملائكة مريم يبشرونها بمعجزة ولادتها عيسى معجزة أكبر من معجزة ميلاد يحيي لزكريا المعَمِّرَ ويحيى الذي سيصدق بهذه الآية الكلمة كما سبق في الآية[26] وعيسى كان بشرى وكلمة قضاء وقدر تمت معجزة من الله ، اسمه المسيح عيسى بن مريم، اختار الله له اسم المسيح سمة المسح البالغ بالبركة ظاهراً وباطناً . وعيسى بن مريم لا يدعى لأب لأنه ولد من أمه بكلمة الإعجاز لا الزواج وليس ابن الله كما يغالي النصارى بنسبته إلى الله زيفاً عن الإيمان بكلمة القضاء المعجز على غير سنن الذرية وكفراً بوحدانية الله سبحانه وتعالى عما يصفون من أبوة بشرية . وهكذا يتصل ذكر عيسى كثيراً في القرآن – عيسى بن مريم – اسماً وتذكيراً.

وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، مقدماً ظاهراً في الدنيا بالنبوة وعلو الذكر وفي الآخرة بالشهادة علي ما بلّغ من الحق وبعلو الدرجات والقربى من الله. في الدنيا ميلاده كلمة إعجاز وروح بركة

[26] نفس السورة الآية رقم 39

ورسالته آيات إعجاز وهداية وصبراً ووفاته عصمةً من العدوان ومقرباً يوم يبعث في الآخرة شاهداً وفي سلام الله ومرضاتهِ.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ{46}

ويكلم الناس طفلاً في المهد نطقاً بمعجزة من الله ويكلمهم كهلاً بلاغ رسالة وهو من الصالحين والناس لا يصلحون كافة ولو كانوا ذرية صلاح.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{47}

توجهت مريم بالخطاب إلى الله عند بشرى الملائكة كما توجه زكريا من قبل عند البشرى وجاءت دهشة مريم من أن يكون لها ولد وهي لم يمسسها بشر ذكر على سنة النسل.

(قال كذلك الله يخلق ما يشاء) لئن أجيب زكريا (كذلك الله يفعل ما يشاء) في حال مرجو بعيد لعمر الوالدين يتحقق فعلاً من الله، فقد ذكر هنا أن الحالة كنه خلق لله لما يشاء ولو كانت خارقة لسنة الخلق بالزوجية التي أجراها الله في معهود سنة الطبيعة . إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، إذا قضى الله أمراً فإنما يوجه نحوه المشيئة يقول له كن كلمة فيكون وجوداً ولو على غير السنن والحيثيات المعهودة التي طبع عليها توالد البشر والوجود.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ{48}

الآية موصولة مذكرة بأول السورة (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل)* ، فالبشرى بعيسى أن كما يخلقه الله بقضاء غيبي يعلمه الكتاب وهو الهدى المفروض على الناس ، والحكمة وهي مقتضى التطبيق لأحكام الهدى على الواقع وذلك هو كتاب التوراة الذي نزل على موسى يُعلم عيسى بيان آياته، فالإنجيل الكتاب الخاص الذي نزل على عيسى عليه السلام تصديقاً لمعاني كتاب التوراة الخالدة وإتماماً لمقتضى أحكامه وحكمته في واقع بنى إسرائيل وابتلاءاته المتجددة.

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{49}

جاء عيسى عليه السلام بالكتاب والحكمة رسولاً إلى بني إسرائيل وكانوا مجتمعاً بالغ الغلظة شديد الجدال فيه بقية من دين موسى عليه السلام ومن كتابه التوراة وذكرى آياته المعجزات وفيه تراث من تطور شريعة التوراة أحكاماً ظاهرية متنطعة وحيلاً تراعي حروف النصوص لا حكمتها وكان في تأريخ بني إسرائيل صدٌ عن الأنبياء المجددين للكتاب المؤكدين للحكمة الباطنة وقتلٌ لبعضهم ولذلك صدع فيهم عيسى أن قد جئتكم بتأييد آية مؤيدة من ربكم فيها المعجزات الخارقات صدمة وتحدياً كبيراً لأصحاب القلوب

* نفس السورة الآية رقم 3

القاسية والظاهرية المتنطعة فمن ذلك أني أخلق – أبني من غير الحيث الطبيعي المعهود لكم بأثر دلالته من الطين الميت شكلا كهيئة الطير ثم أنفخ فيه فتدب فيه الحياة طيراً بإذن الله (صدمة لمعهود علمهم بالسحر) وإني أعالج وأبرئ الأكمه والأبرص (تحدياً بمعروف تجربتهم بالطب) ثم بعد ذلك – تجاوزاً لمراودات الشك من مألوفات السحر والطب وظنونها – إني أحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم نبأ الغيب بما في بطونكم وما تأكلون وما وراء المشهود لديكم وما تدخرون . ويؤكد لهم عيسى عليه السلام أن في ذلك لآية ودلالة على مدد من الله إن كنتم مصدقين مؤمنين وفي الآية شرح لفضل عيسى عليه السلام على بعض الأنبياء بالتأييد بالروح القدس – كما في سورة البقرة وسورة المائدة [27]– وبالتأييد بالمعجزات الباهرات . ولم تتكرر هذه الخوارق فوق الطبيعية في رسالة محمد ﷺ لأنه جاء برسالة خاتمة خالدة ممتدة في الزمان لا تناسبها المعجزات المؤقتة الوقع على حاضر المخاطبين وذلك بالرغم من أن قومه خاصة كانوا يطلبون الآية لما طبعت عليه الأشياء بوقعها المشهود مهما تحدثهم آيات القرآن لغة بخارق وقعها المسموع.[28]

وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ{50}

قام عيسى عليه السلام مبلغا بأنه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة وليس ناسخاً لشريعتها والخطاب لبني إسرائيل الذين كفروا به مجدداً ثم يبقي حجة علي خلفه من النصارى الذين تعلقوا به ناسخاً لسالف التوراة بل حاجبا لغيب الإيمان بالله وحده وظل ذلك خلافاً أساسياً بين اليهود والنصارى إلى اليوم وبينهم وبين المسلمين.

وقد جاءت بعض الأحكام في الإنجيل تطويراً مع تطور الابتلاءات لأحكام كانت في التوراة منها رفع التحريم الذي كتبه الله عقابا لبني إسرائيل قديماً كما في سورة النساء (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا)[29]

ومع آية قوة من الله تدل على مدد قدسي بخوارق معهود طبيعة الأشياء فإن في تصديقي لما سبق من كتاب منزل وتخفيف أمره آية تعليم بوحي من الله : ويترتب عن آيات العلم والحكمة وحياً من الله أن تصدقوا وتلتزموا ، فاتقوا الله وأطيعون ، اتقوا الله والتزموا تعاليمه وتكاليفه خشية حسابه وأطيعوني لأن الله يرسلني هاديا وإماماً دعوة وقدوة فطاعة الرسول طاعة الله الذي بعثه بالآيات، وكما دعا الرسول محمد ﷺ في الآية السابقة[30]

إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{51}

---

[27] راجع تفسير سورة البقرة الآية 87 والآية 253 وراجع تفسير سورة المائدة الآية 110
[28] راجع تفسير سورة الأنعام
[29] سورة النساء الآية 160
[30] نفس السورة الآية (31- 32)

يعلن عيسى عليه السلام توحيد الله مؤكداً أن الله ربي – وما أنا إلا عبد مطيع ورسول مبلغ والله ربكم فأنتم وإياي نتحد في رؤية آياته المعجزة في الأشياء وسماع آياته في الوحي فاعبدوه وهو الذي أعبده، وهذا صراط مستقيم طريق مضى عليه الأنبياء من قبل فهو مستقيم إلى الله لا يعوج ولا ينقطع بعبادة أشياء الطبيعة وأشخاص المرسلين فما هذا ولا ذاك إلا معبر الآيات والدلالات إلى الله المعبود وحده – وهذه الآية تأكيد لما صد عنه بنو إسرائيل وضل عنه النصارى من بعد حول عيسى عليه السلام – خاصة.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ{52}

يمضي السياق نحو ختام قصة عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل دون تفصيل كما جاء في سياقات أخري من سور القرآن لأن التركيز في هذا السياق على التوحيد وقضية ميلاد عيسى التي كانت فتنة وسبباً لشرك النصارى برغم توارد المعجزات الأخرى في سيرته ، فعندما أحس عيسى﷤ منهم الكفر بعد كل الآيات إعجازاً وإعلاماً ، قال من أنصاري إلى الله ، أعلن كما أعلن الأنبياء من قبل مواقف الحسم والمفارقة أن يسأل من هم الذين اختاروا عبادة الله وتقواه واتباع الرسول وطاعته ليمضوا معه مفارقين لملة الكفر ناصرين له على الصراط المستقيم، قال الحواريون الذين استجابوا له واختاروا الاستقامة حوله وحوره – قالوا نحن دون الآخرين أنصار الله نقصده ونوحده الذي أرسلك فنحن أنصارك إلى الله واشهد – والرسول يقوم في الدنيا ويسال في الآخرة شهيداً على أمة الخطاب – بأننا مسلمون أمرنا لله.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ{53}

تمضي بقية مقولة الحواريين لله أمنا بما أنزلت من التوراة والإنجيل واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين لاشتداد الكفر من حولهم يسألون الله أن يميزوا في كتاب الحساب مرقومين مع فئة المؤمنين الشاهدين بالله والرسول حقاً.

وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ{54}

السياق ينتقل للحديث عن بني إسرائيل الذين أحاطوا بالحواريين ولمكرهم لأخذ المؤمنين ولاغتيال عيسى ﷤، وقد مكر الله ، والله خير الماكرين، يقابل مكرهم بمكره تدبيراً ينقلب على الماكرين بما يفسد كيدهم إحباطاً وجزاءً والله خير الماكرين أعلم وأكبر وأقدر لا يعلم الماكرون كيف يأتيهم مقابل عملهم ولا ينجون من عاقبته وتلك إشارة إلى مبادرات بني إسرائيل ضد النصارى ومصائرهم معهم ومع العالمين.

إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{55}

إذ –في مستهل الآية– لاتصال السياق تمييزاً للأنصار الشاهدين والآخرين المشاركين ولشرح مكر الله وإبطاله لكيد الكافرين يأتي عيسى عليه السلام الوحي أني مستوف أجلك بالوفاة الطبيعية لا مكراً ، ورافعك إلي ومطهرك – ورافعك إلى الجوار الأعلى ومطهرك من جوار الكافرين وخبثهم ، وجاعل الذين اتبعوك طاعة على الصراط المستقيم فوق الذين كفروا ومكروا إلى يوم القيامة فمن بعد وفاته رفع النصارى – في الدنيا – ولما ضلوا عن صراطه رفع المسلمون المتبعون ذات صراطه إلى يوم القيامة، وعداً لمن صدقوا اتباعه لا لمن تسموا باسم المسيح أو اسم الإسلام، ثم من بعد تمايزكم في الدنيا وترافعكم ، إلى الله مرجعكم أيها الناس خطاباً لأمة الخطاب كافة، الذين كفروا بدين عيسى في عهده ومن بعده والذين آمنوا وصابروا متبعين له ولصراطه من بعد – كلكم راجعون إلى الله يوم القيامة والحساب والفصل فيحكم بينكم بالقسط والعدل في ذلك الاختلاف.

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{56}

تمضي الآية في ختام قصة رسالة عيسى وتمايز الناس في مواقفهم منها إيماناً وكفراً واختلافهم ومصائرهم نحو المرجع والحكم لله فتفصّل مصير الذين كفروا، أمر الله فيهم وحكمه أن سيعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ومن ذلك في الدنيا ما سبق ذكره إن الذين آمنوا فوقهم إلى يوم القيامة عبر التأريخ ، وما لهم من ناصرين على المؤمنين أو على الله في الآخرة. والآية تحمل بشرى للمسلمين في الدنيا قبل الآخرة انهم إذا اتبعوا التنزيل وأطاعوا كلمة الرسل فإن عدوهم مخذول غير منصور.

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{57}

وأما مصير المؤمنين الصالحين فالله سيوفي المؤمنين أجورهم – الله أحكم الحاكمين وهو لا يحب الظالمين، ولا يحابيهم ليذرهم من توفيتهم العذاب أو يسويهم بالمؤمنين الصالحين فيذر هؤلاء من الأجر بل يعدل ويميز الجزاء والحب عنده لمن تمايزوا بالكسب الصالح منهم.

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ{58}

ذلك الهدى من الحق والعبرة في قصة عيسى عليه السلام موضوع الجدل مع النصارى نتلوه عليك نتابع روايته وحياً من الغيب من الآيات، آيات نشأته أماً ومولداً وآيات رسالته ،طبيعة معجزات وغيبات، وشريعة تقوى وطاعة وآيات مصير أمته مؤمنين ناصرين وكاذبين وماكرين، ومن الذكر الحكيم – ذكر الله في تسييره للنشأة إنزاله للرسالة وفصله بين اختلاف الأمة كل ذلك ذكراً حكيماً منزلاً لأقدار الله إلى الواقع قضاء وتصريفا وحكماً – الآيات والذكر تتلى على محمد ﷺ ليبلِّغ ويصدق ويخلد الحق في العالمين.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ{59}

السياق يتوجه مباشرة بعد ختام القصة لمجادلة النصارى بمثل يشابه بين خلق آدم وخلق عيسى فقد خرج آدم من النفس الواحدة من غير أب كما في أول سورة النساء ،(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها)[31] ، وخرج عيسى كذلك من غير أب وهما الحادثتان المتشابهتان في تأريخ البشرية فقد قامت النفس الواحدة من التراب بكلمة من الله وتكون عيسى عليه السلام بكلمة الله في بطن مريم من غير زوج وفي ذلك قدر وقضاء – كن أمراً فيكون فعلاً – مهما كان فيه من خلاف للسنة الطبيعية التي مضت في البشرية بقدر ألا يكون كل ميلاد إلا باجتماع الذكر والأنثى نفساً متحدة.

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ{60}

الحق هو الذي يتلى عليك خطاباً للرسول ﷺ بالآيات والذكر الحكيم وبحقيقة خلق عيسى والآية تأمر الرسول ﷺ لذلك ألا يكون من الممترين اليهود والنصارى الذين يمارون يجادلون شكاً في آيات الله البينات.

فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ{61}

الخطاب يمضي للرسول ﷺ ولكل محاجّ بعده بالحق المتلو : فمن حاورك وحاجك من أهل الكتاب الذين كثفوا حملاتهم وجدلهم من بعد ما جاءك حقا من العلم في ميلاد عيسى ومغزاه، يحاجونك في الحق. فإذا كنتم في مقابلة كتلك ، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، فيدع كل منا أبناءه ونساءه ونجتمع إليهم بأنفسنا ثم ندعو الله قائلين (بهلة الله على الكاذب منا ومنكم) . والبهل اللعنة والمباهلة الملاعنة والدعاء بالطرد من الرحمة لمن كذب من الجانبين . وكانت الملاعنة والمباهلة سنة في الثقافة الدينية الكتابية.

وفي الآية إقرار بالحوار مع أهل الخطاب إلى درجة المفاصلة والمباهلة فالذي يؤمن بإله دون الله أو يعتقد بسمعيات دون الحق يزعم أنها من الله ويدين بذلك يمكن أن يفاصله المسلمون بالابتهال وفي الآية تعضيد وتثبيت للمسلمين في وجه الحملات الكتابية وتحد للمؤامرات والمكر والحصار الذي يحيط بالمسلمين طمأنينة لا فتنة وريبة بالحق الذي يتعرض لغارات الجدال لا سيما حين تحيط بالمسلمين دورة من الذلة أو الانحطاط الحضاري.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{62}

يمضي التثبيت صبراً بالحق على الجدال إن القصص التي تليت في الآيات السابقة هي القصص الحق إذ جاءت لتحسم الأمر في أكبر الخلافات والزلات الدينية عن التوحيد عبر التأريخ ، فما من إله إلا

---

[31] سورة النساء الآية رقم 1

الله، تأكيداً لوحدانية الله عماد الحق والقسط في هذا القصص وفي وجه تثليث النصارى وكفرهم الإشراكي فما من إله إلا الله تأكيداً بعد تأكيد وإفراداً بعد توحيد ان الله لهو قوى العزة والحكمة سبحانه في ذلك عن شريك.

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ{63}

فإذا أبَوْا حجة الحق ورفضوا المباهلة مُوَلِّين عن ذلك فإن الله يعلم فساد قلوبهم تمام العلم، والعلم إشارة وعيد بعذاب المفسدين منهم في الدنيا والآخرة.

عموم المعاني الآيات:33-63

المسلمون من بعد ووراء بيئة المدينة الأولى التي سادت فيها ثقافة اليهود وخاطبتها سورة البقرة انفتحوا جنوباً وشمالاً ومن بعد والآن في العالم على ثقافة العقيدة النصرانية السائدة.

في تأريخ الرسالات الأولى لم يبلغ الإنسان من وسائل حفظ التراث ما يخلّد الحق نصوص كتاب أو قصص قدوة، ولم يستو وعيه للتدبر في آيات الله وحكمته في الطبيعة المشهودة وفي الكتاب المنزل، في ذلك الحيث جعل الله رسالاته تتعاقب وتتجدد في جوار أرضي واحد بل في ذرية رسالية واحدة، وكان يرسخ الإيمان في المخاطبين بوقع الخوارق الأخَّاذة وهكذا كانت رسالة عيسى عليه السلام لتصل توالى الحق من سابق الرسالات إلى تاليها القادم.

فأظهر الله أولاً مريم مولودة في ثقافة لم تعرف الأنثى للمعابد لكن تقبلها الله بنذر أمها في ذرية طيبة وكانت محررة للمعبد فتنافس الكهان علي رعايتها وكفلها زكريا ، وتأثر بنهجها ورزقها الحسن ذلك الشيخ الكبير حتى رجا – على بُعْد أسباب النسل – مولوداً مثلها، ورزق بيحيي ليقدر الله أن يكون من بعد داعياً لمولودٍ من مريم بأسباب أبعد ميلاداً وبرسالة جديدة. وتزكت مريم بالعبادة قانتة مطهرة فاضلة على النساء وجاءتها من بعد بشرى تهيئتها لمعجزة ميلادها ولداً – عيسى – ينطق طفلاً وترتفع مكانته الدينية، وكانت حتى ظهر تتساءل إشفاقاً لتطمئن لميلاده بغير أب ثم لبشرى جمعه لكتب الدين قديماً وجديداً نصوصاً وحكمة . ثم غدا عيسى من بعد الخوارق المشهورة في ميلاده ونطقه رسولاً إلى بني إسرائيل لا بوقع الحكمة المنزلة وحسب بل بخوارق قوته إحياءً للموتى واشفاءً للمرضى وإنباءً بالغيب.

وجاء عيسى عليه السلام مصدقاً لما سلف مجدداً ومؤكداً لتوحيد الله وعبادته ومضى بعد ذلك البلاغ ليحرك في المجتمع المفاصلة بين أنصاره إلى الله إيماناً بما أنزل واتباعاً لرسوله وفئة أخرى كافرة لجأت للمكر والفتنة ولكن الله قابل مكرهم بقدره مبشراً لعيسى أنه مُتَوفّىً مرفوعاً إليه تعالى مطهراً منهم وللذين معه أنهم فوق الكافرين إلى يوم القيامة إذ الجميع راجع إلى الله حاكماً بينهم معذباً للكافرين آجراً للمؤمنين.

ودين الإسلام الحق إزاء النصارى هو أن تلك قصة الآيات الطبيعية والرسالية وذلك هو ذكر القرآن الحكيم وخلاصة الأمر أن مثل عيسى خلقا بغير أب كمثل آدم . والباطل هو أصول العقيدة النصرانية السائدة والحق في القصة والأمر ما جاء به القرآن فمن حاج في ذلك من النصارى ولم يتبينوا الحق نراجعهم جميعاً قديماً وأبداً إلى أصول التلاعن ديناً أمام الله للكاذبين دون الحق ونتباهل معهم. أما إذا تولوا فالله عليم بالفاسد عقيدة وحياة ولو انتسب إلى عيسى مسيحياً والى بلد مولده نصرانياً.

ترتيل المعاني: الآيات 64-78

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ{64}

السياق يتصل في محاسمة الجدال والحوار مع أهل الكتاب والخطاب للرسول ليدعوهم إلى كلمة سواء بين الطرفين كسواء المباهلة ولكنها تَنَادٍ نحو الصدق لا نحو عاقبة الكذب، وهي أن نتحرر معاً لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً. لا يدعوهم ليكونوا تحت تقديس أو سيطرة له هو أو لعيسى أو لشي آخر ، وذلك حتى لا تغشى القلوب شبهات أن الرسول ﷺ يريد ذلك لنفسه دون عيسى والأنبياء بل تتم الكلمة السواء التي جاء بها كل الأنبياء ،ولا يتخذ الناس الرسل البشر مثلهم أرباباً من دون الله ولا يتخذوا الأئمة والآباء والقسيسين أرباباً من دون الله فإن في ذلك تعبداً وتقديساً مخالفة للكلمة السواء بين البشر ، فإن تولوا عن الكلمة السواء كما تولوا عن الإيمان بحجة المباهلة فقولوا لهم مجابهة اشهدوا علينا بأنا مسلمون كما تشهدون بأنكم لا تسلمون لله وحده.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{65}

السياق يوجه الخطاب مجادلة إلى أهل الكتاب مباشرة متعرضاً لإحدى أكبر حججهم المتهالكة وهو نسبة إبراهيم عليه السلام إلى ملتهم طائفية وعصبية أحاط بهم مرضها فزيفوا بها منطق الحق وحرفوا بها التأريخ

فإبراهيم إنما كان بدينه قبل نزول التوراة والإنجيل قبل موسى وعيسى وما أنزل الكتابان أصلا ملتكم إلا من بعده أفلا تعقلون وتضبطون الجنوح لاستصحاب إبراهيم مشمولاً مسمى بأسماء مذهبكم في الملة.

هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{66}

الخطاب يستمر ها أنتم هؤلاء حاججتم جدلاً فيما لكم به علم من نصوص الكتاب وتراث سيرتكم فلم تأخذكم العصبيات والطائفيات لتحاجوا فيما ليس لكم به علم كسابق ملة إبراهيم وسيرته والله يعلم ذلك ويروي أمره وقصصه بالحق وأنتم لا تعلمون وتخوضون بجهلكم في خلاف وحجاج.

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{67}

الآية ترد على طائفية أهل الكتاب ومحاجحتهم بغير علم وتروي الحق عن إبراهيم نافية لأي نسبة له إلى اليهودية والنصرانية في خلفه الخالف وإنما كان حنيفاً الحنف عن تقاليد قومه عقائد ذلك وطقوس أصنام ومسلماً أسلم حياته كلها لله وحده وسمي ذلك المنهج الحق إسلاماً ولم يسم الدين باسم النبي ولا باسم بلدته، أما اليهودية فنسبت الدين إلى اليهود الذين هادوا إلى الله والنصرانية نسبت الدين إلى بلدة الناصرة التي ولد فيها عيسى عليه السلام وقد ظل دين الحق إسلاماً وان عمد أهل الكتاب المتأخرين إلى تسمية المسلمين بالمحمديين بسبب تمكن ارتهانهم لملابسات الدين التأريخية لا لمعانيه منهاجاً في الحياة ، ولم يكن إبراهيم عليه السلام من المشركين من قومه السالفين بمثل منهاج عرب الجاهلية الذين – كذلك – يدعون انتساباً إليه وتراثه لأنه أبو جدهم إسماعيل .

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ{68}

الآية تدحض مباشرة حجج المغالطين من الكتابيين والمشركين المدعين جهلاً وطائفية وعرقية أنهم أولى المنسوبين إلى تراث إبراهيم، وإنما الأولى من اتبعوه حقاً من الأوائل لعهده ومن خلفه وهذا النبي محمد ﷺ الذي سلك الإسلام حنيفاً وكذلك الذين آمنوا بالدين الحق الذي يدعو إليه محمد ﷺ ، والله ولي المؤمنين وناصرهم لأنهم يوالون الله إسلاماً ويوالون إبراهيم الحنيف المسلم لله.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ{69}

الآية تبدأ سياق مقاصد أهل الكتاب للضر بالمسلمين في معاملاتهم وتذكير المسلمين بمفاصلتهم وشرح أمراضهم ومواقفهم من الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ والآية تشير إلى أبرز الأمراض فيهم بعد أن اشتدت قوة الإسلام وعز مجتمع المسلمين وهو الحسد، فمنهم طائفة يودون ويتمنون للمسلمين العودة من الهدى والإسلام إلى الكفر والضلالة. ولكن هذه الأمنيات الجانحة للإضلال لا تزيد قلوبهم هم إلا ضلالاً وقد أعمتهم العصبية والطائفية أن يستشعروا خطل موقفهم وضلاله.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ{70}

الآية تذكرة للمسلمين ألا ينجرُّوا إلى الضلال والكفر بآيات الله بعد الهدى بدفع من أهل الكتاب وذلك بمخاطبة أهل الكتاب أنفسهم لم يكفرون وهم يشهدون بعلمهم الكتابي أن ما جاء به الرسول من الآيات والقصص هو من عند الله، والتساؤل لموقفهم المتناقض فهم يشهدون بأن آيات الله النازلة على المسلمين هي الحق ولكنهم لا يتمنون لهم إلا الضلالة والردة بدلاً أن ينضموا هم لجماعة المؤمنين التي اتبعت الحق.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{71}

يتصل السياق لتذكير المسلمين ألا ينجروا للضلال من تلقاء مخاطبة أهل الكتاب وسؤالهم لم يلبسون بالخلط العامد الحق الذي يعلمونه بالباطل من عند أنفسهم كراهية وحسداً للمسلمين. ثم سؤالهم عن كتمان الحق عن الناس وهم يعلمون أنه الحق الذي ينبغي أن يعلن وينشر بين الناس لكنهم كتموه مرض حرص وشفقة على مصالح الدنيا وعصبية وطائفية.

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{72}

بعد كفر أهل الكتاب وتلبيسهم وكتمانهم للحق وبعد أن قيد إيمان المسلمين بالحق وعزمهم ولم تعد تضلهم الحملات الكتابية لمهاجمة الإسلام إلا ببينة واضحة، تطور الحسد بطائفة منهم إلى أن تداعوا للدخول ظاهراً في الإيمان بالحق المنزل على الذين آمنوا صدقاً بالإسلام بنية إلا يقضوا في ذلك إلا وجه النهار المشهود للعامة من الناس ثم الكفر آخره وقت المرجع للتدبر في كسب اليوم كأنهم يعلنون كفرهم بحجة تبين فساد أمر هذا الدين عن تجربة من داخله وإنما هي حركة إضلال عامد يطمعون أن تجر المسلمين إلى الرجوع والارتداد عن الإيمان.

وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{73}

وفي ذات السياق من مظاهر الحسد والغيرة ، بعد التظاهر بالإسلام ساعة ثم الارتداد دعماً للكفر به ، مضى التواصي بينهم التواصي إلى التناهي عن أن يؤمنوا إلا لمن اتبع دينهم فرسول من غير عرقهم ودين يهيمن على تراثهم من أصل آخر ينبغي ألا يتبع. وذلك هو مرض الطائفية أن يغاروا فلا يؤمنوا لمن لا يتبع الطائفية . والخطاب في الآية عارض لداعي الإسلام أن يصدع بالحق المتجرد من العصبيات الطائفية أن الهدى هدى الله ذلك أصل الحق وليس في الاتباع لطائفة أو تراث. وتستأنف مقولة الغيرة أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم – ألا يؤمنوا للإسلام ويسلموا أن أحداً كمحمد قد أوتي مثلما أوتوا من الكتاب ، وأن تحتكروا الهدى والكتاب بغير مثيل منافس ، وألا تؤمنوا بأصول الدين التي تنزلت على المسلمين ولو كانت مصدقة لما معكم فيحاجكم المسلمون عند ربكم بحجة الحق الذي أُوتُوه والموقف

إنما هو غيرة وتعجب على أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده كما في سورة البقرة [32]، ويخاطب داعي الإسلام أيضا أن يرد عليهم :(قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) والله هو الذي يملك الهدى الفائض وهو الذي يؤتيه من يشاء من الناس.

وقد تفضل عليكم فيما سبق وهدى واليوم يتفضل على من يشاء لكن كله حق متصادق من عند الله ليس لكم أن يأخذكم فيه الحسد والغيرة. فالله واسع عليم يتسع الفضل ويجعل هداه لمن يشاء من كل الناس سابقا ولاحقاً، وعليم بعلمه المحيط يؤتى هداه لمن هو أهل له غنى عن شهادة المتنافسين الغيورين الذين يدعون الاستئثار بالهدى والفضل لما فيهم من أهلية مزعومة.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{74}

الله واسع الفضل والهدى عليم بمن يتصوب نحوهم والهدى المنزل رحمة للناس من الله يختص بها من يشاء بعلمه وإنزال رحمة الهدى فضل عظيم والله أعظم المتفضلين يسع بها من بعد العالمين.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{75}

الآية تذكر وجهاً آخر من مرض أهل الكتاب فبعد الطائفية والحسد الذي يصيبهم في علاقات التفاضل مع المسلمين ملة ومصدراً للحق المتنزل وذلك بأن منهم من يصيبه ذات المرض في معاملات الكسب المادي وعلاقاته بين الملل. والبدء فى الآية ذكر صفة الخير والوفاء قبل صفة الخيانة فيما تبقى من القيم الدينية الفاضلة في بعض أهل الكتاب فمنهم الأمين على أمانته يؤديها مهما عظمت وأغرت ولو كانت قنطاراً ، ومنهم من ضعف فيه الدين أن يؤدى الأمانات إلى أهلها أياً كانوا وأن يتذكر تقوى الله عدالة سواء بين الناس وحسابه على العلاقات وفاء لا خيانة للقريب والغريب، وغلبت عليهم المادية ووجدوا في دينهم من التحريف ما يبرر لهم مال الغير مادام ليس أخاً في الملة ومهما تفه المبلغ ولو كان ديناراً واحداً ، لا يرجع الأمانة إلى صاحبها إلا بعد إلحاح شديد بقيام ضاغط متصل وذلك بأنهم قالوا : (ليس علينا في الأميين سبيل) المقولة الكاذبة التي وجدوا فيها ما يبرر أكلهم مال الأميين من غير طائفتهم التي زعموا أنها ذات الكتاب والعلم وحدها، وأن ليس عليهم في الإضرار بأموال الأميين ومصالحهم سبيل وسبب للمحاسبة عند الله الذي يحبهم ويميزهم عن موازين العدالة. فهم يشيعون مثل هذه المقولات ويبررون بها فعلهم السيئ وهم يعلمون بنصوص كتابهم أنها كذب ليست من الله في شئ.

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{76}

بلى – رد بالنفي على نفي أهل الكتاب سبيل المحاسبة عليهم في خيانة الأمانة في الأميين، ورد بإيجاب السبيل ، لمن أوفى بعهد الله في كتابه أن يؤدى الأمانات إلى من أعطاها والتزم أداءها وعدم

[32] راجع تفسير سورة البقرة الآية 89

خيانتها واتقى بذلك حساب الله العدل، فإن الله يحب المتقين الموفين بالعهود لا الانتساب لملة الكتاب واضطراب السلوك بعصبيتها وفاءاً للأخ فيها وخيانة للأميين من غيرها .

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{77}

الآية في سياق العهود والمعاملات عند أهل الكتاب ، والتأكيد يتوجه مباشرة إلى الذين طغت عندهم شهوة المال والمصالح وغلبت عليهم المادية فاشتروا بعهد الله في الإيمان به وبرسله وكتبه ينتقضونه ومن ثم بعهود المعاملات يعقدونها ثم يخونونها وبأيمانهم قسماً يقدمونه تأكيداً ثم يحنثون به كل ذلك مقابل كسب حرام فمهما كان حسابه العاجل في الدنيا فهو ثمن قليل القدر منسوباً إلى ربح الأجر على الوفاء والصدق عند الله دون خسران والعقاب على الخيانة والحنث. وأولئك ما من نصيب يخرج لصالحهم في الحياة الآخرة ، وسيكونون في أحط منزلة يوم القيامة لا نصيباً يكافئ ما يدعون من بنوة الله ومحبته ولا اعتبار لهم عند الله فلا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة فذلك تعبير عن رضوان الله وهو أكبر نعماً والجنة وسعادتها وهم لا يستحقون ذلك ، ولا يزكيهم ، في الدنيا ترقية لنفوسهم يجتازون بها ابتلاءات الحياة وفي الآخرة زيادة في الرضى والسعادة ولهم عذاب شديد الألم لأنهم خانوا عهد الله ومقتضاه في عهود الدنيا فحجبوا أنفسهم عن الله وحسناه وسلكوا طريق العسرى.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{78}

وجه آخر من وجوه الخيانة لعهد الله وأمانة كتابه وبيعه بالمصالح العاجلة وهو تحريف الكتاب. فإن من أهل الكتاب فريقاً وطائفة يلوون ألسنتهم تلاوة تنحرف بالكتاب ، يلقون ذلك إليكم – أيها المسلمون – لتحسبوه رواية من الكتاب وما هو حقاً من الأصل ، ويقولون أن ما يلقون منزل من عند الله شهادة زور على باطلهم وما هو من عند الله وإنما يروون الكذب ويحملونه قولاً على الله لا خطأ بل وهم يعلمون أنه كذب وقد كان متاحاً لهم التزوير والتأويل والتحريف لكتبهم لأنها أصبحت روايات وسير.

وكل أقوال اليهود من الكذب عمداً وهم يعلمون تزوير الكتاب في هذه الآية وأقوالهم الكفر بما يشهدون أنه حق وأقوال التلبيس وكتمان قول الحق والقول بأن ليس عليهم في خيانة الأمانة سبيل[33] كل ذلك موصول بكذب النصارى حين دعوا إلى المباهلة لعنة من الله على الكاذبين فتولوا ورفضوا المباهلة لأنهم يعمدون إلى الباطل وهم يعلمون الحق.[34]

---

[33] راجع تفسير الآيات 75، 71، 70 نفس السورة

[34] راجع تفيسير الآيات 61-63 نفس السورة

عموم المعاني الآيات:64-78

كلمة الحق الواحدة السواء بين أهل الديانات الكتابية – ثم بين كل الناس أبداً هي توحيد الله لا يعبد إلا إياه ولا يشرك به بشر رب سواه، ومن ثم وحدة أمة الذين يسلمون لله كل الحياة فإن لم يتجاوب المدعوون إلى التوحيد والوحدة، فكلمة الحق هي إعلان الإسلام لله مع المسلمين.

والتوحيد لله دين حق خالد عبر التأريخ حوله يتحد المسلمون قديماً وحديثاً وقد تأخذ البعض العصبية لانتسابهم التأريخي فلا يدعون الناس إلى كلمة سواء بل يّدعون احتكار الدين القديم دون الآخرين. هكذا هي عصبية اليهود العرقية ومحاجتهم نسبة إلى ذرية إبراهيم . لكن إبراهيم ﷺ لم يكن على تقاليدهم المنسوبة بُعداً إلى التوراة والإنجيل ولم يكن على ملتهم الخالفة له يهودية أو نصرانية بل كان في ملة وسيرة لا يعلمونها حق العلم، مسلماً موحداً حنيفاً عن الإشراك الذي نما بعد في ذريته العربية، وأولى الناس به حقاً لا من ينسب إلى ذريته بل من يتبعه على ملة الإسلام أو من جددها من بعد محمد النبي الخاتم ﷺ أو من سار على درب ذلك الإيمان حتى من بعد في الناس كافة يوحدهم سواء الولاء لله .

إن من علل العصبية للقديم دون التجديد الصادق لذات التوحيد الحق هي أن يصاب بعض ورثة الدين كاليهود من هوى الجمود وحسد للقادمين على الجديد فيستثمرون الثقافة التقليدية المتقادمة ليضلوهم عن الحق الخالد المتجدد، بل يلجأون إلى الكفر قصدا وتلبيس الحق القديم وكتمانه عمداً حتى لا تبدو وحدة الحق عبر القرون تخرج الحي من الميت البالي.

إن مرضى العصبية الذين لا يؤمنون بكلمة الدين سواء حقاً عبر الزمان بين القديم والجديد وسواء صدقاً بين الظاهر والباطن قد يتخذون الحيلة دخولاً في الدين المتجدد ثم خروجاً تذرعاً بدعوى الكفر عن تجربة وتبين حتى يردوا الناس عن الحق ويؤكدوا ألا وحدة ولا مساواة بين أهله قديماً وحديثاً لكن الله الواحد الهادي يؤتي فضله ويختص برحمته تجديداً من يشاء لا يحتكر ذلك لأحد بل يسوى الدين الحق من بعد بين العاملين.

إن بعض أهل الدين القديم تفسد فيهم – بانحياز العصبية– وحدة معايير العدل والحق والمساواة في معاملات أهل الجديد والناس كافة ويظلمون زعماً بأن الوفاء بالأمانات إنما هو بينهم وحدهم وإن الخيانة تباح – إلا لضرورة– في وجه الآخرين، وذلك كذب على الله فالناس سواء والعدل مطلق في دين الله الذي يحب ذوى الوفاء والتقوى ويقطع ذوى الخيانة بثمن الدنيا القليل في الآخرة.

إن دوافع مرض العصبية للقديم تحمل أهله في وجه الجديد صدوداً عن الاتحاد معه إيماناً والاتحاد مع القادمين به مساواةً والاتحاد بين الظاهر والباطن صدقاً واندفاعاً إلى التحريف الذي يلوي كلمة الحق والتزوير الذي يروى عن الله كذبا.

هذه قصة أحوال الانتقال من تقادم الدين الكتابي القديم واعتلال أهله بالعصبية إلى جديده بدعوة القرآن يبلغها النبي الخاتم ﷺ وصحبه الأولون ، وهي عبرة لكل مراحل تجديد الإسلام – هذا الدين الكتابي الخالد لكل العوالم والعصور.

ترتيل المعاني: الآيات 79-99

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ{79}

بعد الآيات التي فَصَّلت وجوهاً من مرض أهل الكتاب السابق يعود السياق إلى أصول الدين الحق للملة الكتابية التوحيدية المتصادقة المسلمة ، وما لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة – إشارة إلى أنه ما كان للرسل والأنبياء الذين توالوا حتى خاتمهم محمد ﷺ بشراً مثل سائر الناس ليسوا من الأرباب والآلهة يؤتيهم الله رب العالمين الواحد – الكتاب – آيات موحاة منزلة، فهي نصوص تكليف على كل منهم، تصدقها نصوص تنزيل من أصل كتاب على من يليه ثم يؤتيهم الله الحكم هدى بتنزيل أمر الكتاب حكومة في واقع الحياة ، وسنة على الأرض ويؤتيهم النبوة هيأها الله فيهم أهلية لتلقي الوحي والنبأ منه – سبحانه وتعالى– فما كان لهؤلاء البشر الذين يؤتون ذلك كله من الله أن يدعي أحدهم ربوبية لنفسه ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله. فيدعي للناس أمراً وتكليفاً بالعبادة له هو دون الله الذي آتاه ما ميزه على سائر البشر، وما كان لأحدهم أن يقول ذلك وإنما الحق أنهم إنما يصوبون الربوبية لله والعبادة والنسبة للرب الأعلى الذي خلق ووعي ويقول النبي بهدى الكتاب والحكمة لأتباعه كونوا ربانيين منسوبين لا إلى النبي بل للرب ، والرباني من يعتصم بالرب وبما جاء من عنده على الأنبياء المرسلين. وتتأكد نسبة الربانيين إلى الرب بما كانوا يُبلِّغون الكتاب ويُعلِّمونه للآخرين ويَدْعُون إلى تعاليمه وحكمته، أو يَعْلَمُونَه هم [35](في قراءة) فلا يكذبون على الله بعد العلم بالحق. وهم ربانيون أقوياء بما كانوا يدرسون الكتاب ويَنْزِلون بقوة عقولهم وبحياتهم درساً على شعاب معانيه وحكمته كالراسخين في علم الكتاب لا الذين يتلونه باللسان أو بالنظر العابر.

وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{80}

وصلا بوصية المرسلين ينبغي أن يكون أمر النبي أن الربوبية والعبادة والسنة والهدى إليه سبحانه والنبي بشر فكما لم يكن له أن يطلب العبادة نحو نفسه كما يدعي المخاطبون بهذا القرآن من نصارى في شأن عيسى واليهود أو بعضهم في شأن عزير، لم يكن لنبي ولكم أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً وتلك إشارة لتقاليد المخاطبين عرباً، إذ كانوا يتخذون الملائكة وينتسبون إلى سنة أبيهم إبراهيم حتى قام فيهم خلفاً من ذريته، محمد ﷺ بشراً مثلهم يدعوهم لتوحيد الله رباً وينهاهم عن عبادة كل ما هو دون

[35] قراءة... قرأ نافع (والنبوءة) وقرأ الباقون (والنبوّة)

الله من ملائكة وأصنام تمثلها. والآية خطاب لأهل الكتاب أيامركم نبي لكم بالكفر بوحدانية الله بعد إذ أنتم مسلمون لله وكأنهم كانوا يغارون من محمد ﷺ إذا آمنوا به أن يقوم هو في الناس رباً معبوداً مع الله – كما ظنوا وزعموا في أنبيائهم – وإنما هو داعية التوحيد ومبلغ كتاب الله دعوة للإسلام له تعالى وحده ولا ردة إلى الإشراك في العبادة.

وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ{81}

كما ذكر في الآية السابقة أن الله ما اصطفى بشراً فاتخذهم أنبياء وآتاهم الكتاب المنزل والحكمة السائرة إلا دعوا للربانية والتوحيد لله، تذكر هذه الآية أن الله أخذ منهم جميعاً – أيضاً – عهداً وميثاقاً يبلِّغونه إلى أمة خطابهم رسالةً وميثاقاً لله أن يتهيأوا لتجديد الرسالة . فما أتاهم من كتاب وحكمة لهو تأكيد ميثاقه الموصول المبشر بالتجديد، أن إذا جاءكم من بعد رسول تالٍ مصدق لما معكم عليكم الإيمان به. فميثاق الله أن كتابكم وحكمته هدى وتوطئة – أيضا – لاتصال الهدى فإذا تلا رسول بكتاب مصدق لما معكم ، عليكم أن يتصل إيمانكم ، ولا تأخذنكم غيرة وطائفية بل عليكم بالميثاق والكتاب أمرٌ مؤكدٌ أن تؤمنوا كذلك بالرسول التالي ورسالته ولا تكفروا به، وأمرٌ مؤكدٌ أن تنصروه ولا تعادوه. وكان تمام أخذ الله لذلك الميثاق أن قال سائلاً لأولئك السابقين أأقرتم وأخذتم على ذلك إصري وحَمْلِي قالوا أقررنا مؤمنين محتملين أمر الميثاق فقال لهم الله عندئذ اشهدوا على أنفسكم وبعضاً على بعض ممن سبق واحتمل الميثاق ومن لحق يوم الوفاء ومن أدرك الرسول التالي وخاطبهم الله أنه معهم من الشاهدين عليهم وله سبحانه الحساب للموفين للميثاق وللمتولين يوم القيامة.

فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{82}

فمن تولى عن الوفاء بالميثاق إيماناً ونصرة بالكتاب والرسول التالي – وهو اليوم محمد ﷺ المصدق برسالته لما مع أهل الكتاب السابق فأولئك هم الفاسقون، الخارجون على أمر الله وميثاقه بالحيل والتدابير على اللسن بالكذب على الكتاب والهروب من المواجهة والمباهلة والتوحيد والكلمة السواء.

أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ{83}

بعد ذلك الميثاق الكتابي الموصول أيريد ويبتغي هؤلاء المتولون غير دين الله، أيرفضون أن يمضوا وفاءاً بالأمانة كما أمر بها الأنبياء الذين توالوا لتثبيت الوحدة التأريخية بين النبوات عبر الأمة الكتابية، أينصرفون عن دين الله وتوحيد عبادته ، والكون المخلوق كله في السموات والأرض موحد عابد لله مسلم الأمر إسلام العاقل ذي الإرادة طوعاً، ومن الأشياء الطبيعة تسلم لله كرهاً وتأبى أمانة الخيار وملائكتها

تسلم طوعاً ، وهؤلاء البشر المخيرون ألا يسلمون طوعاً كسائر العابدين لله أيبغون أن يدينوا لغير الله وإلى الله يرجع هؤلاء المتولون يوم الحساب والعذاب.

قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{84}

الخطاب في الآية للرسول ﷺ ولمن تبعه من المسلمين ألا يكونوا مثل أولئك الذين بدلوا الميثاق بالتفرقة والفصل بين الأنبياء وتشقيق الدين الرسالي الواحد ، فالمسلمون يقولون أنهم يؤمنون إيماناً ماضياً بالله وما أنزل عليهم في الرسالة الخاتمة ولا تقطعهم الطائفية عن سالف الرسالة والأمة الكتابية بل يؤمنون أيضاً بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون فكل هذه السلسلة من الأنبياء التي ينتمي إليها الرسول نسباً وسنة هي من رب الأنبياء لا تفرقة بينهم وليس كما انتسب مشركوا العرب إلى إبراهيم وإسماعيل وانقطعوا، وكما سار بنو إسرائيل إلى أبيهم ووقفوا، وفَرَّق النصارى بين الأنبياء جملة وعيسى تأليها له وكفراً بما بعده من الرسول خاتم. يقول أهل القرآن نحن لرب الأنبياء الواحد مسلمون دينا واحداً هكذا نهجه واسمه منذ إبراهيم لا نبتغي غيره.

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ{85}

أما من يبتغي غير الإسلام ديناً فيخرج عن ميثاق أمانته الخالدة معنى واسماً ويبتغي غيره فلن يقبل منه عند الله مهما قبله هو قطيعة وغيرة وطائفية ومذهبيةً وهو في الآخرة من الخاسرين عند الله إذ إليه يرجعون هؤلاء لا يقبل منهم شئ حيثما ولَّوا عن دين الله ولا يرتجون عاقبة فلاح.

كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{86}

الخطاب عن أهل الإيمان بالكتاب أن كيف يدعي أو يرجو من الله الهداية هؤلاء الذين أخذوا ميثاق الأنبياء وعهدهم في الإيمان والنصرة من قبل وأبداً وشهدوا أن الرسول الخاتم ﷺ محمد حق بشروا به وانتظروه يستفتحون بمجيئه على الناس وظهر مصدقاً لما معهم وجاءهم حق الآيات البينات ودعاهم الرسول إلى عهد الإيمان، كيف يهدى الله الذين ما كفروا إلا حسداً وعصبية وطائفية وهم شاهدون والبينات أمامهم ، وإليه يهدي الذين يسعون صدقاً نحو الإيمان والهدى ولكنه لا يهدي الظالمين تجاوزاً عمداً لبينات الحق ونوراً إلى ظلمات الكفر.

أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{87}

أولئك ظُلْمُهم كبير بخيانة الميثاق والكفر بالبينات وجزاؤهم يوم القيامة عن ذلك أن عليهم لعنة الله والملائكة كذلك الشاهدة على عبادة الله وعلى رسالات التوحيد المنزلة المتوالية صدقاً وعلى مواقف أولئك الظالمين ولعنة الناس أجمعين لأنهم يعرفون أن ارتكاسات الكفر العمد وفتنه صدور عن أولئك الضالين الظالمين.

خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{88}

ويوم اللعنة وعواقبها يخلدون فيها لا يخفف عنهم العذاب كما يتوهمون في عقائدهم ولا هم ينظرون تأخيراً دون تعاقب الظلم فاللعنة فالعذاب.

إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ{89}

استثناءاً من أولئك وفتحاً لأبواب الرحمة للذين يتوبون بعد ذلك الظلم ويصلحون حياتهم إيماناً وعملاً بميثاق الرسالة المتجددة ونصرة لها بعد فساد حياتهم غيرة وتولياً وفسوقاً عن سنة الأنبياء وكفرا بالإسلام فإن الله واسع المغفرة والرحمة للتائب من دواعي الفتنة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ{90}

إن الذين كفروا بعد إيمانهم سابقاً للأنبياء وميثاق الدين الواحد كفروا مرتدين استمساكاً بالقديم عصبية وغيرة وتولياً ثم ازدادوا كفراً في وجه بينات الحق الجديد لن تقبل توبتهم العارضة التي فسخوها بالكفر وكان من أهل الكتاب من يتوب ويسلم ثم يتولى مدبراً فالذي يتقلب يقاوم بالقديم ثم يتوب فيؤمن بالرسالة المصدقة بما عنده ثم يرتد إلى كفره بميثاق الدين الواحد، أولئك الذين لم يستقيموا على الإيمان والدين المتجرد، هم الضالون الذين يتقلبون بين الحق والباطل ولا يثبتون إلى الهدى. ومن هؤلاء الضالين النصارى الذين تابوا من اليهودية وآمنوا بعيسى استقامة على الميثاق لكنهم كفروا بمحمد ﷺ قطعاً لاتصال الإسلام فهم الضالون ومنهم يهود عند ظهور النبي محمد ﷺ كانوا يتقلبون توبة إلى الإسلام فَرِدَّةٌ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{91}

أما حال الذين كفروا بالميثاق والعهد على الدين الواحد المتجدد من قبل في وجه عيسى عليه السلام وفي وجه محمد ﷺ واستمسكوا بعصبيتهم وكفروا وقطعوا حبل أمة الرسالة والإسلام وماتوا على كفرهم فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به وتلك إشارة لليهود في المدينة والنصارى جنوباً وشمالاً أصحاب الأموال حتى لا تغرهم ثروات الدنيا فهي لن تقبل منهم يوم القيامة كأنها حسنات سابقة بجزاء حسن ولو كانت ملء الأرض ذهباً ولو افتدوا بها عوضاً فيما يزعمون عن العذاب، بل أولئك مالهم من أجر حسنات ولا فداء بل عذاب أليم ولن يجدوا بمالهم – مثل أحوال الدنيا – من ينصرهم أمام عذاب الله الواقع.

لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ{92}

الآية موصولة إلى آيات أوائل السورة التي تحدثت عن شهوة الثروة وفتنتها في القناطير المقنطرة من الذهب والفضة (الآيات 14–17) والآيات التي تحدثت عن فتنة الذين كفروا من أهل الكتاب بالمال والمادية التي جعلتهم يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً (الآيات 10،75–77) وهذه الآية السابقة مباشرة تعظهم أن ذهب الأرض كله لن يفديهم عن عذاب الله يوم القيامة. وهذه الآية تذكير لأهل الكتاب وعبرة وتمهيد لطوالع تذكير المؤمنين المتواتر بالرسالة الخاتمة الممتدة منذ ملة إبراهيم عبر أهل الكتاب إلى رسالة الكتاب في مكة والإسلام. والآيات ستتوالى في المال والإنفاق والفتنة كفرا ودنيوية (116–117) وربا أو تقوى أو إنفاقاً (130 –134) إلى الذكرى في مأساة أحد وعلة حب الغنيمة والغل فيها (161) إلى الآيات الخواتم بموعظة بخل أهل الكتاب (178–183) وتجاوز الشر نحو كل معاني الخير والطاعة لله والخطاب لمن فيهم بقية من دين الكتاب ولمن يتقدم نحو الإسلام أن لن تنالوا خير الدنيا فالآخرة حتى تنفقوا مما تحبون وتشتهون من الرزق . وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم أن الله دقيق العلم محيطه بإنفاقكم من أي شيء مهما قل ومهما كثر وستجنون جزاءه عند الله العليم في الآخرة.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{93}

أحب الرزق عند المخاطبين العرب اللحم والبِرُّ أن يُعْطَى الأكل والطعام للمحتاج وثقافة بني إسرائيل وتقاليدهم كانت تغلب بتضييق الحلال مثل ما فعلت الثقافة الجاهلية وبعد التذكير لبني إسرائيل فيما سبق من تبديل الحنيفية والإسلام الحق القديم ومن القصور عن البر وإنفاق ما يحبون، لينتقل السياق فى الآية – لتبديلهم لأحكام الله المنزلة في الكتاب في شأن الطعام ، قبل موسى والتوراة – على عهد ملة إبراهيم وإسلامه – لم يحرم الله طعاماً على بني إسرائيل ولكن نبي الله يعقوب (إسرائيل) حرم على نفسه بعض الطعام نذراً كما فعل الرسول ﷺ وعاتبه القرآن[36] كان ذلك من قبل أن تنزل التوراة والخطاب يتحداهم أن يأتوا بالتوراة فيتلوها إن كانوا صادقين.

فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{94}

الذين يفترون الكذب فينسبون إلى التوارة كتاب الله المنزل تحريماً في الطعام لم يرد فيها ويدعون ذلك حتى بعد تلاوتها ولم يوجد فيها فأولئك هم الظالمون يتجاوزون على الله حدود صدق التنزيل وعلى الناس صدق الرواية.

قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{95}

الخطاب للرسول ﷺ بعد أن بانت فرية الكذب من أهل الكتاب بشهادة التوراة تلاوة أن يعلن صدق الله العظيم بهذا الكتاب الذي أوحى عليه بطلان زعمهم وروى صدقاً أحكام التوراة في الطعام وسائر الأحكام ولذلك فالخطاب الحق لأهل الكتاب وللمسلمين المتأثرين بهم ألا تتبعوا تقاليد الافتراء بل تتبعوا

[36] راجع سورة التحريم الآية (1)

ملة إبراهيم حنيفاً مائلاً إلى الحق خارجاً عن تقاليد الإشراك والمشركين ولا تفتروا على الله كذباً بتحريم الطعام الحلال مثل أعراف الشرك العربي بتحريم بعض الطعام افتراءً دينياً من دون الله على تراث إبراهيم وإنما عليكم اتباع ملة الإسلام الذي جاء به إبراهيم ويتجدد بالرسالة الخاتمة صدقاً والخروج عل كل تقاليد الشرك والافتراء المنسوبة كذباً إلى الله.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ{96}

الآية موصولة بذكر ملة الإسلام منذ إبراهيم وتراثه فإليه يعود أصل الملة الحنيفية التوحيدية وإليه يعود نسل الذرية من أنبياء الحق وإليه تعود ذكرى تأسيس مراكز الدين ومنها البيت الحرام الذي قام به إبراهيم وإسماعيل وذرية العرب إلى عهد الرسول الخاتم ، وهو من تلك الذرية مجدداً للإسلام مطهراً لبيت الدين من الإشراك. وقد كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام سبباً لخلاف شديد بين المؤمنين برسالة الإسلام وأهل الكتاب – كما فصلت ذلك سورة البقرة – وذكرت بناء البيت الحرام في مكة والنزاع من بعد بين ملة إبراهيم إسلاماً وبين الذين ورثوا البيت الثاني منذ يعقوب هوداً ونصارى ثم ذكرت الحملات الكثيفة ضد المسلمين الذين ولوا عن قبلتهم الأولي بيت المقدس ليصوبوا نحو البيت الحرام في مكة[37] ، وسياق القرآن في هذه الآية والآيات قبلها يحاصر أهل الكتاب بحجج من كتبهم وثقافتهم يتحداهم أن يثبتوا ما يلوون به ألسنتهم كذبا، ويدبرون به عن الإسلام خيانة والذين قد يتأثرون بهم من مسلمي المدينة ويعيدهم إلى ملة إبراهيم والى مركزه ومسجده أول البيوت وأعتقها وأعرقها فهو أكثر قداسة من بيت المقدس ولا سبيل لاستنكار عودة القبلة إليه في الصلاة إليه وعودة سنة الحج لتوحيد الله وتوحيد أمة الإسلام وإحياء ذكرى سنن دين إبراهيم. وبكة هي مكة (نطقاً أول وأقدم بحرف شفوي مثل الميم) ووضع البيت بها للناس كافة لا لسلالة عرقية مباركاً كثير الخيرات التي ينبتها في الزائرين والأجور عليها وهدى للعالمين نحو قبلة واحدة في وجهة الحياة الى الله يتوجه إليها كل المؤمنين فلا يضلون بتولى وجهات شتى.

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ{97}

وذلك البيت المبارك في بكة فيه علامات واضحة لسنن إبراهيم عليه السلام مشاهد شعائر وذكريات كلها تصف محل إقامة إبراهيم عليه السلام بأمر الله وقيام دينه في هذا المكان. وكل من دخل حرم البيت كان آمناً بسلام علاقات الزائرين وآمنا بطمأنينة النفس وحتى عندما انحرف الناس عن تقاليد التوحيد ظل تقليد الأمن والحرمة محفوظاً حول البيت. والبيت هدى للعالمين وعلى الناس فيه فريضة مقاصدها العبادة والتوحيد لله وهي الحج، وتوالى الزيارة إليه ذلك من بين الناس على من استطاع إليه سبيلا، وتوافرت له سبل الوصول والإقامة أما من عجز فهو يصلى كل يوم مرات، يسري بروحه لا

---

[37] راجع تفسير سورة البقرة الآيات (123-161)

بجسده نحوه ويجدد المشاعر والذكريات . ومن لم يتوجه نحو ذلك البيت وما فيه من آيات إبراهيم بل انصرف عنه فعن تلك السنة التوحيدية وكفر فغطى وقع تلك السنة بما ابتدع من الشرك الجاهلي أو الافتراء والتبديل الكتابي، من كفر خاصة أهل الكتاب الذين يخاطبهم سياق الايات الذين ازدادوا كفراً فلم يمضوا مع تقاليد التوحيد التى بعثها الإسلام بل أصروا على باطلهم فإن الله غني عن العالمين الذين ارتدوا عن عبادته وتوحيده مهما ادعوا من كسب المال وجاه الإرث، وعباد الله من المسلمين يستغنون بالله عنهم ويتركونهم مفاصلة في الملة والقبلة والحج ومباهلة بالرجوع باصول الدين إلى الله.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ{98} السياق موصول أن يخاطب النبي الداعي إلى سنة ابراهيم ملة واثراً أهل الكتاب لم يكفرون بآيات الله لا الظاهرة في الأثر بيتاً مقاماً بل وفي الملة منزلة بالوحي في القرآن. والله شهيد رقيب على ما يعملون – مثل ما ذكر فيما سبق – يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ويلوون ألسنتهم بما ليس من عند الله زوراً ، فالله شاهد على سائر أعمال الكفر وكان ينبغى ألا يكفروا بل يتذكروا الهدى إيماناً برسالة القرآن.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{99}

الخطاب موصول إلى أهل الكتاب في خواتيم سياق الجدال معهم ، لم تصدون عن سبيل الله من آمن، استنكاراً عليهم موقفهم لأنهم أهل التراث الديني كان ينبغي أن يقوموا لنصرة دين الله والسائرين على طريقه لا الوقوف أمام مده والصد لمن أراد أن يمضي فيه من المؤمنين وحربه وتخذيله، فقد كان إبراهيم حنيفاً مسلماً مائلاً إلى الحق وأنتم تدعون نسبةً إليه فلم تميلون إلى الباطل وتريدون أن تحرِفوا المؤمنين عن سبيل الله المستقيم الى السبيل العوجاء ، وأنتم على ذلك شهداء تعلمون كذبكم وتحريفكم وصدكم وحسدكم وما الله إلا شهيد ليس بالغافل عما تعملون وسيحاسبكم عليه يوم القيامة.

عموم المعاني الآيات:79–99

إن الأنبياء أئمة الديانات بشر ما هم بآلهة، كلهم رسل من الله يتلقون آيات الكتاب وحياً وهدى السيرة حكمةً، لم يدعوا الناس ليعبدوهم هم، وإنما ليكونوا ربانيين يصوبون العبادة نحو الرب المتعال

وحده لا إلى ما دونه من الوسائط أنبياء أو ملائكة. وقد أصابت الدين الكتابي القديم ظاهرة تأليه لعزير وعيسى والروح القدس والأحبار والرهبان يتخذونهم غاية للدين لا وسيلة إلى الله وينسبون تلك العقائد زوراً إلى تعاليم الرسل والكتب. وقد يغشى المسلمين أحياناً شي من أعراض ذلك المرض من بعض تقديس وتعبد للنبي أو لصالح، وقد غلبت تلك الأمراض على الديانات الآسيوية التي طال الأمد منذ أصولها فانقطعت عن الغيب وتمحورت على ذكرى البشر الذين أسسوها.

إن الرسالات المتوالية عبر سيرة الدين الحق تترابط وحدتها بمواثيق راتبة تأخذ إصر المسئولية على القرون المتوالية أن تظل منفتحة للرسالات أو الحركات التصديقية التجديدية ليبقى الدين حياً إيماناً بمعانيه بصورها المتجددة ونصراً للقوى الناهضة به كل حين، والله فوق ذلك دائم شاهد أبداً، لكن البشر عرضة بتقادم الذكرى لفتنة التولى والفسق عن إطر الميثاق بالحق الخالد.

إن الدين الحق أبداً هو الإسلام – وهو كذلك في الكون كله من أشياء الطبيعة المسلمة كرهاً وإلى المؤمنين البشر طوعاً يسلمون وجودهم وحركتهم لله وحده لا شريك له وهو كذلك في الزمان كله، اتصل به تراث الرسالات منذ إبراهيم إلى ذريته المصطفاة من الأنبياء ودعاة الحق لا يشذون عن الطبيعة المسلمة ولا يفرقون بين رسل الإسلام ارتهاناً لبعض مراحل التأريخ.

إن الارتهان للقديم بعد الإيمان السالف يعقب كفراً بالحق المتجدد وبالآيات البينات والرسول الخالف الخاتم وأولئك المرتدون يرتد عليهم الوجود كله لعنةً من الله ومن الملائكة والناس أجمعين وخلوداً في عذاب الآخرة إلا أن توافيهم التوبة والإصلاح بالدخول في الجديد والمغفرة والرحمة من الله.

إن الذين يكفرون ويزدادون كفراً في وجه الحق المتجدد مهما كان إيمانهم بالدين قديما قد أورثهم بآثار النهضة الأولى ثروة في الدنيا العاجلة لن تجديهم ولن تغنيهم أموالهم من عذاب الآخرة وإنهم لن ينالوا البر لدى الله حتى ينفقوا مما كسبوا مهما زينت حبه الشهوات.

إن آثار التأريخ القديم قد يحيل الدين إلى بدعيات من الحياة الخاصة يتمايز فيها أهلها تحريماً لبعض الطعام عندهم كما فعل اليهود، والحق أن الطعام رزق من الله حلال كله إلا ما حرم الله حقاً في الكتاب. وقد يكون ذلك تقديساً لبعض مراكز الدين القديمة الخاصة بهم كما فعل اليهود بالقدس والحق أن محور الدين الموحد لأصول الإسلام منذ إبراهيم هو البيت الحرام ببكة وهو الرمز المبارك لهدى التوحيد وهو الوجهة الآمنة لتوحيد أمة الإسلام عبر الأرض للعالمين بغير تمايز عاكفين أو حجاجاً إليه .

إن قيادة الإسلام الحق ينبغي أن تستمر كل التأريخ بلاغاً وتذكيراً بالدعوة لاسيما لأهل الدين الكتابي المتقادم تنهاهم عن منكر كفرهم بآيات الله المتجددة تنزيلاً أو تأويلاً وعن صدهم عن سبيل الحياة الذي لا يعوج مستقيماً أبداً إلى الله وحده.

عموم المعاني الآيات:100-120

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ{100}

الخطاب ينتقل وجهاً إلى المؤمنين في علاقتهم مع أهل الكتاب لتؤسس المعاملة على معايير الحق والإيمان لا على نفوذهم الصاد إلى الكفر . فإن وهن الإيمان بالحق أو أطعتم فريقاً من أهل الكتاب، ذلك الفريق الذي يسوقه مرض العصبية والطائفية إلى الكفر والصدود عن الحق - لا الذي يستعين بذكر الحق في تراثه على دفع الإيمان بالحق الجديد - أولئك الفريق الأول يردوكم بعد إيمانكم كافرين، يصدون أنفسهم عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ويصدون المسلمين بعد إيمانهم ليرتدوا نحو الكفر.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{101} ي

الآية تحذر الذين آمنوا وتستنكر كيف النكسة والكفر بعد أن جاءتهم الآيات تتلى عليهم حاضراً بالحق وفي وسطهم ومنهم رسول الله بدعوته وسنته كيف مهما طال العهد بأهل الكتاب الذين يحرضونكم على الردة فضيعوا الآيات وبدلوها ونسوا الرسل فغمروا سنتهم الدينية كفراً. من يستمسك بالله بما يتلى عليه من آياته وما يقوم به رسوله فقد هدي إلى صراط مستقيم، ولا يطيع أهل الكتاب فلا يردونه من الإيمان إلى الكفر ولا يصدونه من الاستقامة إلى العوج.

ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{102}

سياق الخطاب للذين آمنوا فعلاً ماضياً، يتواصل يأمرهم بتقوى الله خشية وتحفظاً مما يغضبه لأن التقوى هي الحماية للمؤمن ولمجتمع المؤمنين من المعاصي والنكسات التي حذرت منها الآيات السابقة. وحق تقاته لأن المؤمن يبذل أقصى ما يستطيع من تقوى وأصدق ما يبلغ تطلعاً نحو مثال التقوى الأخلص الأكمل الحق الذي يبلغه جهد الإنسان . والأمر أن يظل المؤمن ثابتاً مستقيماً معتصماً يبذل حق التقوى وحق الإيمان حتى يموت على الإسلام وإذا لم يجتهد في التقوى قد ينتكس ويرتد ويموت على ملة كفر بعد الآيات التي هدته للإيمان بأثر الطاعة للأهواء أو لثقافة الكفر - ينتهي عند ذلك كما سبق النهي في الآيتين السابقتين وما قبلهما.

وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{103} فكما سبق فمن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم والآية دعوة لمجتمع المؤمنين أن يعتصموا جميعا بحبل الله، من آيات هي هدى الله الواحد ومن رسولٍ سنته هي محور الوحدة. وخطاب للمؤمنين ألا تفرقوا ولا تصرفكم أهواء العصبية القبلية أو نوازع الفتنة التي كانت تنشط بها

بطانات اليهود في المدينة بين المسلمين فيذكرون الأوس والخزرج بماضيهم الجاهلي ويثيرون الفتنة بين المهاجرين والأنصار. والآية تدعو المسلمين للاعتصام بحبل الله متحدين في وجه دواعى الفتنة المفرقة، ثم تذكير للمسلمين بتأريخهم القريب في الخلاف والفرقة والعداوة في المدينة وبنعمة الله من بعد في الهدى الذى ألف بين قلوبهم بالإيمان فأصبحوا إخواناً بعد أن كانوا أعداءاً. وذكر نعمة التآلف داع للحمد والبقاء عليها والاعتبار بالانتقال إليها والعظة من ماضي العداوة إذ يُذكَّرون : (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) تذكيراً بماضيهم في الجاهلية مجتمعا تستعر فيه نار الخلاف وهو بكفره ذاك يقف على حافة نار جهنم يوم القيامة ولكن الله انقذهم بنعمة الهدى والأخوة وبشرى الجنة. والله يبين آياته بعظة من تأريخهم وحالهم وعلامات الهدى ونعمة الانقاذ لعلكم تعتبرون وتهتدون بالآيات وتستقيمون بحبل الله الذى يوحدكم.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{104}

الدعوة موصولة لمجتمع المسلمين ليعتصموا بالله ويهتدوا بآياته للإخاء فتخرج منهم أمة – جماعة تؤم هدفاً واحداً بحبل وصراط واحد ، وذلك بأنها تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر والصراعات الداخلية لا تصرف سيرتها الى الضلال ولا تبدد طاقاتها بالخلاف والفراق.

فأمة المسلمين كلها مأمورة لِتَعلَم دعوة الله إلي الخيرات وتُعَلِّمَها وتنزلها على الواقع أمراً بما هو خير يجمع عليه ويعرفه المؤمنون وتنهى عما هو منكر عندهم، ومجتمع المسلمين مجتمع رباني تعتصم طاقاته حتى تمتلئ بالخير وتفيض علي الآخرين دون اضطراب أو صدود عن وجهة أو قعود عن الدور الرسالى في الحياة بين الناس وأولئك هم المفلحون في الدنيا والآخرة.

وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{105}

تذكيراً بعد تذكير للمسلمين بعظة تأريخ أهل الدين ألا يكونوا كأهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات فيها كل الهدى دعوة إلى الوحدة ودفعاً لرسالة الخير. كل ذلك بنعم وبآيات بنيات ، أولئك الذين تفرقوا عن صراط الهدى والوحدة والخير واختلفوا عن سبل ذلك لهم عذاب عظيم يوم القيامة إذ سقطوا في النار بعد أن اقتحموا شفا حفرتها بأعمالهم.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ{106}

أولئك الذين سبق ذكرهم، هم المفلحون وأولئك الآخرون لهم العذاب العظيم[38] وذلك يأتي يوم القيامة إذ تبيض وجوه تشرق وتنشرح من الرضى والفرح إنقاذاً من النار ونعيماً وتسود وجوه انفعالاً واكتئاباً وغشيان الدم للوجه من الحزن والخوف والعذاب أما المسودة صحائفهم ووجوههم فسؤال محاسبة

[38] الآية 104 و 105 نفس السورة

أكفرتم بعد إيمانكم وتفرقتم بعد الهدى واختلفتم بعد التوحيد؟ وأمر زجر أن يذوقوا لذلك العذاب بما كانوا يكفرون ردة وانتكاساً من بياض صحائف سيرتهم بالإيمان إلى سوادها بالكفر وذنوبه مما أثر في الآخرة سواد الوجوه وظلام المصير.

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{107}

وأما الذين ابيضت وانفرجت وجوههم فهم المفلحون، إذ ابيضت صحيفة حياتهم، ومثل ذلك جزاؤهم بياض الوجوه في الآخرة فرحاً وبياض مصيرهم من ظلام الزجر والعذاب بل هم في رحمة الله نعيماً ورضواناً هم في ذلك خالدون.

تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ{108}

تلك التي مضى بها السياق من آيات الله إنما تتلى على النبي ﷺ الداعية الأسوة تتنزل عليه حقاً بدعوة الاعتصام والائتلاف والبشارة وبخطر الفتنة والفرقة والاختلاف والنذارة بالجزاء. فالله – سبحانه – لا يميز المصائر يوم القيامة ظلماً بغير سابق رسالة بشيراً ونذيراً لينعم بعضهم ويشقى آخرون، بل جزاءاً وفاقاً على العمل فالذين اسودت وجوههم لمذاق العذاب العظيم قد هداهم الله بالآيات التي تتلى عليهم وحذرهم من النزاع والصراع الذي يبدد الخير وأنذرهم بسوء المصير وحق عليهم ذلك عدلاً لا ظلماً.

وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ{109}

الآية تعيد السياق الذي أنذر من الاختلاف والتفرق في المسير والمصير إلى كلمة التوحيد الشاملة التي ينبغي أن يتوحد عليها الناس ويؤسس عليها مجتمع المسلمين فالآية تعالج أصول الفرقة بين الناس وترد ملك الكون وأمره كله إلى الله في وجه العصبيات الإقليمية والعرقية والقومية والمذهبية التي كفرت بالله وتصارعت على الادعاءات بأن بعضاً أزكى وأرفع من بعض ، فإذا وحد الناس الأرض كلها لله والسموات فسيعرفون أن الأمور كلها ترجع الي الله والمصير كله واحد فخير المصير لمن آمن ان الملك والأمر كله لله فاتبع آياته التي تليت بالحق ورجع إلى ربه راضياً مرضياً حيث انحسم الخلاف ليختلف المرجع الي جنة أو نار.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ{110}

خطاب للمسلمين إذا اتبعتم الآيات بالحق واعتصمتم بحبله مضت فيكم كلمة الحق الواقع خير أمة أخرجت للناس، أفضل جماعة تؤم غايةً توحيداً ، أخرجت وظهرت للناس غير مغمورة في أمة أهل الكتاب الذين يسعون بينهم بالفتنة والردة ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، سيرة على نهج الأمر في الآية السابقة [39]. فالمسلمون قاموا خير أمة حيثما استجابوا لشروط الخيرية في الإيمان والدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر فهي ليست خيرية تأريخية كالتي يدعيها أهل الكتاب بل خيرية

[39] نفس السورة الآية 104

كسب وفيض فعلي مؤصل على الإيمان بالله. وأهل الكتاب لو آمنوا بالحق الذي جاء مصدقاً لما معهم واتبعوا الرسول ورسالته هدى للناس أمراً ونهياً لصاروا مع المسلمين في خير أمة ولكان ذلك خيرا لهم من الارتهان إلى دعاوى الخيرية عصبيةً . لكن فريق منهم المؤمنون الذين دخلوا في المسلمين خير أمة وأكثرهم الفاسقون بفنون كفر فلا يؤمنون إلا حيلة لإضلال المسلمين (الآية 72) وينتهكون الأمانة في معاملة المسلمين (الآية 75) ويلوون ألسنتهم لهم كذبا على كتاب الله (الاية 78) ونحو ذلك من الفسوق.

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ{111}

الخطاب للمسلمين ألا تتخذلوا نفسياً أمام حملات أهل الكتاب فهم لن يضروكم بحيلهم ومعاملاتهم وافتراءاتهم إلا أذى ضررا بسيطاً ولتصمدوا أمامهم توكلاً على الله الحق الناصر حتى إذا تجاوزوا الأذى إلى العدوان والقتال فهم فئة مخذولة مؤسسة على باطل إذا واجهتموهم سينهار صفهم أمامكم وسيولون الأدبار فراراً ثم لا ينصرهم عليكم ناصر.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ{112}

النصر والعزة لله الغالب ولعباده المؤمنين أما أولئك الفاسقون من أهل الكتاب الذين يؤذون المسلمين ويقاتلونهم فقد ضربت وسقطت عليهم الذلة والاستضعاف في كل جدال وفي كل قتال حيثما أصيبوا من غيرهم في تأريخهم ، إلا في وجوه من حياتهم تابوا توبة إلى مدد الله أو ظلوا متصلين فيها بحبل ومدد من الله أو وجوه من حياتهم يعصمهم فيها حبل علاقة مع الناس أو مهادنة أو معاودة وهم مع الذلة انتهوا من سيرتهم بغضب من الله ولبعدهم بذلك من الله القوي ضربت عليهم المسكنة ضعفاً توطنوا فيه ذلك في تأريخهم بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله كلما جاءهم نبي وتنزلت عليهم الآيات وحياً وكتاباً متلواً وكانوا يقتلون الأنبياء الذين توالوا عليهم يصدقون الحق ويجددونه قتلاً بغير حق. ذلك عموماً بما عصوا الله كفراً وفسقاً عن الشرع وبما كانوا يعتدون أذى وقتلاً للدعاة المصلحين.

لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ{113}

أهل الكتاب منهم المؤمنون قديماً ومنهم الفاسقون[40] فهم ليسوا سواء ولئن ضرب الله الذلة والغضب والضعف على الفاسقين أمة الكفر والعصيان والاعتداء فمنهم أمة كانت قائمة بالحق لا تقعد بالعصبية

[40] راجع الآية 110 من نفس السورة

إذا سمعت الحق تصدقه وتجدده رسالة الإسلام والقرآن يتلون آيات الله قراءة باللسان وتدبراً بالجنان لا يغفلون عنها ولا ينامون آناء الليل بل هم يسجدون وجوههم خاضعة لا يعصون ولا يدبرون يؤمنون بالله واليوم الآخر.

يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ{114}

قيام التلاوة والعبادة يملأ شعاب قلوبهم إيماناً بالغيب، بالله خالقاً مبتلياً هادياً وباليوم الآخر مرجعاً إلى الله وجزاء. ويدفعهم الإيمان لأن يفيضوا به هدى للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في خيرات الأعمال بنيات العبادة والكسب الملح إعداداً للآخرة. تلك الأمة من أهل الكتاب المؤمنون الذاكرون الداعون هم من الصالحين لا من الفاسقين وأولئك من خير أمة أخرجت للناس فالمسارعون في الخيرات كانوا خير أمة.

وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ{115}

وما يفعلوا شيئاً من خير وقد كانوا قبلاً هم المسارعين في الخيرات كافة إيماناً وعبادة وخُلُقاً يُوفي قدره اجره فهم لم يكفروا بالله بل كانوا من الشاكرين فلن يُكَفَروا، بل الله شكور رحيم سيوفي إليهم أجرهم مقابل عملهم كاملاً يوم القيامة. والله دقيق العلم بالمتقين الذين اتقوا الله حق تقاته[41] فامتازوا على الفاسقين فلن يُضَيِّع شيئاً من صالح خيراتهم وتقواهم السابقة لظهور الإسلام المتجدد ودخولهم في الصالحين اللاحقين.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{116}

كان ذلك أجر الله الشكور للذين آمنوا بالله واليوم الآخر وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر من أهل الكتاب أما الكافرون الذين غمروا فطرة الإيمان والدعوة للخير مسارعين إلى العاجلة جمعاً للأموال والأولاد مفتونين بشهوات الدنيا مغترين بها، فإنها لن تغنيهم ولن تفديهم من حساب الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والآية تذكر بذات المعني لمصير الكافرين من أهل الكتاب المفتونين بالدنيا وبذات المعني عموماً في الآيات.[42]

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{117}

ذات الفئة من أهل الكتاب التي كفرت بالله تغتر بالأموال ثم تسخرها وتنفقها لحرب الإسلام بدلاً عن دعوة الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالآية تضرب لهم مثلا من البيئة الزراعية المعهودة لهم

[41] راجع الآية 102 نفس السورة
[42] راجع الآيات 14 الى 17 نفس السورة

– مثل قوم لهم حرث نبات يرجى أن يثمر، ذلك كالإنفاق في الدنيا الذي قد يثمر أجراً مضاعفاً في الآخرة. لكنهم ظلموا أنفسهم التي كانت لهم الخيرة أن تصير بالإيمان إلى الثواب أو بالكفر إلى العذاب فظلموها باختيار الكفر والمصير إلى العذاب فالنية الفاسدة بدلت ثمرة الإنفاق في الدنيا والآخرة.

كأن ريحاً فيها صِر وبرد شديد قد أصابت حرثهم وضربته فحرقت أخضره وأهلكت حصاده المرجو فأهل الكتاب كان لهم تراث وكسب من الدين والإيمان كالحرث لم يسخروه في الخير بل سخروه لحرب الدين الواحد المتصل عبر الأنبياء فأضاعوا نصيبهم من التراث القديم ومن الكسب الجديد بكفرهم وعصيانهم وعدوانهم في مقابل من كان منهم حافظاً لذلك الكسب عاملاً به، وجاء الإسلام فآمن به ونصره فقد اتصل عمله الصالح وأجره وثمره من كسبه الثاني، ولم تحرق غيرة الكفر بالدين الموصول كالرياح الباردة كسبه في الدنيا ولا في الآخرة . إن الله لا يريد ظلما للعالمين ، إذ لم يقدموا عملاً بنية صالحة ليكافئه الله آخراً بجزاء العذاب وإنما أفسدوا عملهم رغم الخيار والنذير بالنية الفاسدة ظلماً لأنفسهم فكان حصادهم هلاكاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ{118}

السياق يستأنف خطاب المؤمنين بعد أن عرض شأن أهل الكتاب معهم وجزاؤه في الدنيا والآخرة فيحذرهم من الركون إلى العلاقات الخاصة بينهم ، ألا يتخذ المؤمنون بطانة من دون صفوفهم المسلمة ليكونوا لهم أهل مودة وسر وخاصة يتخللونكم من أهل الكتاب . وقد سبق التحذير عن موالاة المعادين من أهل الكتاب في الآية التى سبقت [43] وحيثيات التحذير تمضي ، فهم لا يألون جهداً ولا يدعون سبيلاً لخبال إفساد فيكم إلا اتخذوه ، وكل أمانيهم أن تكونوا في عنت وأزمة وضيق وحصار، صدورهم لا تكتم كل مشاعرها التي تبدو وتفيض أحياناً بكلمات الكراهية والبغضاء ضدكم ومن تحت ذلك ضمائرهم تخفى بغضاء أكبر وأعظم مستكنة في صدورهم. لكن الله فصل لكم أمر بغضهم وعدوانهم ومقاصدهم لضركم وخبالكم في آيات واضحة لعلكم تعقلون وتضبطون عن حذر بين دواعي المودة الخاصة والتورط في الموالاة مع هؤلاء.

هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{119}

الخطاب يتصل للمؤمنين ها أنتم أولاء عيناً شهوداً تحبونهم ولا يحبونكم هم، وتؤمنون بالكتاب، عبر الرسالات تصدقه وتجدده كما تنزل منه على موسى‌عليه السلام ثم على عيسى‌عليه السلام ثم على محمد ﷺ ، كتاباً واحداً فرقاناً. وأنتم تؤمنون بتنزلاته كلها ولكنهم هم يكفرون بما جاءكم، ينافقونكم إذا لقوكم قالوا آمنا وما هم من المؤمنين التالين آيات الله الساجدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر المسارعين في

[43] الآية 28 نفس السورة

الخيرات بل من الكافرين المنافقين الذين يدعون الإيمان ظاهراً لكم خوفاً ورياءً ومخادعة فإذا خلا بعضهم إلى بعض عضوا عليكم الأنامل غيظاً وحسداً من حجة الحق عندكم ومن كل خير أو عز أو نصر تنالونه ،والوصية في الآية أن صارحوهم موتوا بغيظكم، وليدفعكم إلى المنتهى إن الله بالغ العلم حتى بما في صدوركم من علة الغيظ التي لا تبدون.

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{120}

الخطاب موصول للمؤمنين بحقيقة موقف منافقة أهل الكتاب – حتى لا يدعوا لمكايدهم سبيلا لشق الصف المؤمن – فإن مستكم حسنة من حسنات الحوادث مساً غاشياً يقع فيها في أنفسهم ما يسؤهم غيظاً وحسداً وإن أصابتكم سيئة إصابة واقعة يفرحون بذلك. أن هؤلاء المنافقين لا تنشرح صدورهم المغيظة ولا يفرحون إلا بالسيئات والنكسات تصيب مجتمع المؤمنين ، والآية تمهد لذكر غزوة أحد في الآية التالية إذ أصابت المسلمين سيئة تفرح المنافقين الكتابيين .

وقد سبق تبشير المسلمين وتذكيرهم أن هؤلاء لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون،[44] وهذه الآية تجعل الصبر على أذى القول من أهل الكتاب والتقوى لله فلا توالوهم من دون المؤمنين ، مناط النصر لمجتمع المؤمنين وشرطاً إن وفاه المسلمون لا يضرهم كيد المنافقين أي شئ.

والآيات تمهد للمواجهة الوشيكة مع أهل الكتاب في مجتمع دولة المدينة وقرب إجلائهم منها. إن الله بما يعملون محيط، فمهما حاولوا أن يحيطوا بكم كيداً وضراً فإن الله بما يعملون ويتآمرون محيط يحفظ أولياءه المؤمنين ويعاقب الكائدين.

عموم المعاني الآيات:100-120

إن المؤمنين بالإسلام هم أهل الحق الخالد المتجدد ، ولكنهم قاموا ويقومون دائماً – وحولهم أهل عصبية وارتهان للدين الكتابي القديم انتساباً عرقياً أو ابتداعاً في طعامهم أو آثارهم الدينية الخاصة يتميزون بذلك ويتعالون هيمنة على سائر الناس. إن مذهب المسلمين في وجه أهل الباطل المتعزز المتسود بالتأريخ أن يستقلوا ويتذكروا بأنهم أهل الدين الأصل وألا يخضعوا لتقاليد القديم طاعة وضلالة وارتداداً

[44] راجع الآية 111 نفس السورة

إلى الوراء بعد الأصالة والتقدم بالحياة على صراط مستقيم توكلاً على الله، إن المسلمين يدعوهم إيمانهم بالله أن يبلغوا بسلوك الحياة المنضبط أعلى مثل التقوى وأن يثبتوا على طريق الإسلام طوال الحياة.

إن الإجماع على التقوى والإسلام يتأكد بالاعتصام بعهد الله، لا يتفرق عنه المسلمون اعتباراً بنعمة أقدار الله في تأريخهم إذ كانوا قبلا أعداء في صراع فتألفت قلوبهم بالإيمان وظهرت بينهم الأخوة في الله، وإذا كانوا على حد خطر المصير دنيا وأخرى فأنقذهم هدى الإسلام نحو أمة تدعو للخير عامة في الحياة وتنهض فيها بإصلاح المجتمع أمراً ونهياً في سبيل الفلاح وان للمسلمين لعزة في مصائر الحياة الدنيا كيف بعد أن تبين طريق الهدى لمن قبلهم من أهل الكتاب ضلوا بالأهواء وتفرقوا – كنائس وأقواماً وأحزاباً – بابتلاءات الاختلاف . وإن لهم لعظة من الإيمان الغيبي بمصائر الآخرة أن زمر الناس تتفرق يومئذ وفاقاً – وجوه تبيض إذ تتفتح أمامها الرحمة الخالدة لأن صحيفتها في الدنيا كانت بيضاء شهادة للفلاح ووجوه تسود وتكتب من ذوي المصير المرير لأن كتاب كسبهم في الدنيا أسود ردة بعد إيمان.

إن الحق والتصرف في الحياة لله، وعدل الجزاء ومصير الأمور لله، والإسلام بذلك انتج خير أمة أخرجت للناس بأمانة الإمامة لا بذلة التقليد، تقوم بالإصلاح في الحياة وتؤصل ذلك على الإيمان أما أهل الدين التقليدي حول صحوة الإسلام ونهضته فإن منهم من يؤمن به حقاً متجدداً ومنهم من يتجمد على نهج الفسوق الذي حطهم إليه ابتلاء التقادم.

إن المسلمين وقد استقلوا وعزوا عن التقاليد واعتبروا واتعظوا بمصائر الدنيا والآخرة ثم ترجموا الإيمان إلى حياة فعلية ناهضة لن يغرهم من حولهم من الكتابيين بالحملات إلا بعض أذى وحتى إذا تفاقم الصراع معهم إلى قتال فإنهم سيهزمون.

إن التأريخ عبرة للمسلمين عزاً أو ذلاً حسب الكسب من الدين، فلينظروا كيف ذل أهل الكتاب القديم واستضعفوا لما كانوا يكفرون بآيات التجديد ويخرجون على الشريعة ويصارعون ويقتلون أئمة الدين ما سلموا في تأريخهم إلا عند توبات إلى عهد الله وتحالفات مع الناس ، أولئك كانوا الفاسقين عن ميثاق الدين ولكن ما كان كل أهل الكتاب سواء فان منهم من ظلوا على شعائر العبادة وأعمال الصلاح من قبل ظهور الإسلام المتجدد، وكسبهم ذلك من الخير يحفظه الله . وأما الذين كانوا يؤثرون الدنيا فمهما بلغوا مع الكافرين تكاثراً أو ثروة مادية فإنها لن تغنيهم في الدنيا ولا في الآخرة يوم تحترق ثمرات ما فاضوا به على الناس من فضل أموالهم وحضارتهم بنيات غير مخلصة لله.

إن على المسلمين بعد الاستقلال والعز إزاء أهل القديم أن يتحفظوا فلا يقيموا معهم علاقات خاصة تتخلل صف أمة الإسلام ، فإنهم غيرة وكيداً لا يألون في المسلمين إلا فساداً ويضمرون شراً أكثر مما يبدون ومهما بدا من المسلمين من عاطفة حب نحو حملة الدين القديم لتراثهم أو أثرهم فأولئك لا يتجاوبون ، ومهما بدا في المسلمين من تسامح إيماناً بوحدة كل الديانات الكتابية فأولئك لا يؤمنون بالكتاب الخاتم والإسلام المتجدد وقد تبدو منهم أمام المسلمين أقوال إيمان لكنهم في خلوتهم يمتلئون

غيظاً على ظهور الدين لاسيما وسط المسلمين فهم يراقبون أحوال المسلمين يستاءون من كل تطور حسن ويفرحون بكل شئ يصيب المسلمين لا يتجردون للإنسانية العدل .

إن سياسة أمة الإسلام في علاقاتهم ينبغي أن تكون صبراً على الضغوط وتقوى في المعاملات وتوكلاً على الله فان كيد اليهود والنصارى ومثلهم من أهل الدين المتقادم قد يؤذى المسلمين الناهضين ولكنه لا يوقع الضرر بسيرة الإسلام.

ترتيل المعاني: الآيات 121-175

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{121}

الخطاب للرسول ﷺ عطفاً على ذكر السيئة التي تصيب في الآية السابقة مباشرة ، وذلك في مستهل الحديث عن الوقائع الكبيرة التي لابست غزوة أحد لما كان للرسول ﷺ من دور قيادة وأسوة فيها ومشاطرة في ضرائها ونهضة بعدها.

والسياق يتصل بذكر أهل الكتاب بالمدينة والاعتبار بتأريخهم والصبر على أذاهم وكيدهم والتحرر من موالاتهم ، ولكن السياق يلتفت الى الشأن مع المشركين من قريش بمكة ووصايا الصبر والتحرر والتقوى إزاءهم.

والخطاب للرسول وعنه حين غدوت من أهلك برزت صباحاً من خاصة الأهل إلى الأمر العام الجلل للمؤمنين تبوئهم وترتب مواقفهم وتهيئ لهم مقاعد ومراكز ثابتة. يؤمر المرابطون فيها ألا يتحركوا تأميناً للصف المسلم. والله في ذلك سميع عليم بشورى المسلمين وتَجادلُهم أي المواقع في المدينة أم أحد ينبؤون وبالحوار من بعد الخلاف وتولى المنافقين واضطراب الصف من بعد ذلك.

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{122}

حين همت طائفتان منكم هما بنو حارثة وبنو سلمة أن تفشلا وينسحبا من المعركة بعد أن أثر فيهم انخذال المنافقين بقيادة عبدالله ابن سلول بثلث الجيش والله وليهما يتعهدهما بتثبيت القلوب والأقدام وبالحماية والنصر إن ولياه بالإيمان والتوحيد لا يخافون إلا إياه ولا يستنصرون إلا به وفي كل الابتلاءات والمعارك يكلون أمرهم إلى قوته ولا ينخذلون لانكسار سند من المنافقين والضعاف فإنما الله هو الوكيل الناصر.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{123}

ينعطف على التوكل تذكير بنصر الله في غزوة بدر يُخاطب المؤمنون بأن الله تولاكم فيها بنصره وأنتم أذلة في العدد وفي الموقف العام والخاص لبيئة المعركة فاتقوا الله ضبطاً للنفوس في المعارك حين يجنح بها انفعال الخوف أو اندفاع الحمية لتجاوز حدود الثبات بلا إدبار والدفاع بلا عدوان لعلكم تشكرون الله الولى الناصر ولا تكفرون فتحسبون التوكل على القوة التى تليكم أو الضعف فتدبرون فَرَقاً أو تحسبون النصر قد كان بأيديكم غروراً.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ{124}

الخطاب تذكير بعد تذكير بحين الغدو للقتال وحين عبرة النصر السابق وحين تقول للمؤمنين تعبئة بطمأنينة المدد الرباني ألن يكفيكم الله وكيلا، إن قاتلتم وصوبتم أن يمدكم بثلاثة آلاف من الملائكة تتنزل عليكم من السماء، وإذا كان الشيطان مدداً نحو المعصية والدفع الخائب والانخذال عن الجهاد، فالملائكة للإنسان المؤمن مدد نحو الطاعة والدفع الصائب والإقدام بروح من التثبيت والطمأنينة والتوكل على الله والرجاء في وعد النصر الصادق. وقول الرسول ﷺ فيه تزكية لتوكل المؤمن وشحذ لعزيمة الإيمان ورفع لمعنويات بشرى القتال أساس الانتصارات العسكرية ، والسؤال في مقولة الرسول ﷺ تحريضاً تتلوه الاستجابة في الآية التالية.

بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ{125}

بلي، الإجابة تأكيداً وتثبيتاً للمؤمنين أنه إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم المشركون يقاتلونكم من فورهم، هذا بعد معركة أحد إذ يكون الصبر والتقوى من بعد الانهزام والقرح والاستشهاد إشارة للآيات التالية[45] جيشةُ إيمان وتوكل ودفعة طاعة وجهاد يستجيب لها الله استجابة زائدة مباركة يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين لا منزلين غيباً وحسب بل يشاهد المؤمنون المقاتلون الملائكة تنحشد معهم في صفهم لتعمره بقوة الغيب اطمئناناً وبقوة عالم الشهادة مسوَّمين بعلاماتهم القتالية صور عدد ومدد.

وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{126}

ما جعل الله إمدادكم بالملائكة منزلين ومسمومين إلا بشرى لكم بقوة تدفعكم نحو النصر وترفع حوافز العمل والأمل للمجاهدين، ولتطمئن قلوبهم به ولم يجعل وجودها مدداً مادياً حسياً في المعركة ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، فما هو بقوة من عند الملائكة ولا حتما بعدِّ قوتكم أو شدتها ولا عاقبة لضعف عدوكم بل هو بأسباب من ذلك وبما وراءها مما تنظمه أقدار وآجال بقضاء الله قوى العزة يمد بها من يشاء فيعزه بعد ذلة بالغ الحكمة ينزل النصر واقعاً لمن يشاء وعلى من يشاء.

لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ{127}

---

[45] الآيات 172 - 174 نفس السورة

في أحد كان لكم من عند الله العزيز الحكيم نصر بقدر كسبكم من الصبر والتقوى فلم يكن لكم إلا ليقطع الله طرفاً من الذين كفروا هو قتلى نحو العشرين أو يكبت الله محاولاتهم لاجتياح المدينة رجوعاً عليها بعد أن حدثتهم أنفسهم غروراً بغلبتهم في أحد. لكن المسلمين بعد الفرح تهيأوا للتصدى لهم عند حمراء الأسد[46] فانقلبوا نحو مكة خائبة أطماعهم المغرورة، فأحد لم تكن نصرا تاماً للكافرين ولا خسارة مطلقة موئسة للمسلمين.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ{128}

الخطاب يستمر للرسول ﷺ أن ليس له من الأمر شيء فقد كان وقع الهزيمة والشهداء عليه ثقيلاً حتى أخذ يدعو على المشركين ويتوعدهم بأن يمثل بهم كما فعلوا بعمه حمزة. والخطاب النافي أن يملك الرسول ﷺ شيئاً من التصرف بالكافرين تأديب له بأن يدع الأمر كله لله فهو لم ينهض للرسالة ويخوض في سبيلها المعارك إلا بأمر الله ونصره فقدر الله في الأمر كان ليقطع طرفاً من الكافرين أو يكبتهم خائبين أو قد يقدر أن يتوب عليهم فيتوبوا كما حدث من بعد لبعضهم إسلاماً أو يعذبهم فإنهم ظالمون كما كان قضاؤه على الذين ماتوا كفاراً ظلمة يستحقون عذاب الآخرة.

وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{129}

بعد ذكر عبرة الهزيمة والتي كانت عامة وشديدة على المسلمين وبعد تذكير الرسول ﷺ والمسلمين بأن ملك الأمر وتصريفه كله لله ينبغي توحيده مقدراً في كل الأمر قاضياً ببعض النصر أو الهزيمة أو التوبة أو العذاب، الآية تتقرر توحيد القدر والقضاء الشامل كله لله.

فأمر الكون كله إلى الله له ما في السموات وما في الأرض وليس لبشر في الأمر من شئ ، الله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء بقضائه تائباً على البعض فيهديهم أو معذباً للظالمين والله غفور رحيم بالغ المغفرة والرحمة، لمن كان مشركاً يقاتلكم ثم اهتدى وعلى المسلمين أن يتأدبوا لله حتى في حال الحزن والغيظ على الذين يقاتلونهم ويقتلونهم فيلتزموا تقوى الله وتوحيد أمر الناس ومصائرهم إليه عزيزاً رحيماً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{130}

خطاب تنبيه للمؤمنين إلى شأن ذي بال فكما نبهّوا من قبل ألا يتخذوا بطانة من دونهم من أهل الكتاب نبهوا الآن نهياً ألا يأكلوا الربا أضعافا مضاعفة وهي معاملات مالية رائجة مع الأغنياء من مشركي مكة وقد تفتن المؤمنين عن التمايز عنهم ومجاهدتهم في مثل أحد تجرداً ومصابرة. وقد روي من مناسبات نزول الآية قصة يهودى جاء إلى المدينة ليجمع حقوقه ربا على بعض المسلمين ووجدهم نحو معركة أحد فاستجاب بروح المعركة لداعى الإيمان بل ذهب مشاركاً في أحد وزهد عن رباه واستشهد. وفي سياق جهاد ضد الكافرين ومقاتلة في سبيل الله إذ كان على المؤمنين أن يصبروا ويتقوا ليثبت الله قلوبهم ويمدهم بأضعاف مضاعفة من الملائكة للنصر وغشيتهم فتنة المال غنائم في أحد فأصابهم كثير

---

[46] راجع كتب السيرة ابن هشام وسعيد رمضان البوطي

قرح واستشهاد، في سياق ذلك ورد النهي عن معاملات الربا شهوة الأضعاف المضاعفة من المال فإنه لن يغني عن الله شيئاً وفي صراعات الحياة حوله قد يغلب أهل المال ويخسرون في الآخرة حيث الخير لأهل التقوى كما سبقت الآيات لأول السورة [47] فعلى المؤمنين أن يتقوا الله ويصبروا عن فتنة المال في كل ابتلاء لعل الله يكتب لهم الفلاح ولله الأمر كله.

ثم إن مقاصد المسلمين قتالاً في سبيل أن يقيموا علاقات مالية عامة ومنهجاً بينهم شرعياً ليس في ذلك ظلم وربا بل هو عدل وتقوى . وعلى المسلمين الاستناد على تقواهم في كل حياتهم السياسية والعسكرية والمالية التي تدور وجوهها كلها عادلة متساندة متكاملة في سبيل الفلاح عاجلاً وآجلاً.

{وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}(131)

الفلاح آجلاً واتقاء النار هو في اتقاء الربا وشهوة المال فقد أعدت النار للكافرين الظالمين أضعافاً مضاعفة بأكل الربا ومثل خُلقهم الذي يهرع إلى الغنائم دون النصر في مثل أحد.

وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{132}

كما أُوصي المؤمنون بطاعة الله مجاهدة للكافرين فيتولاهم وبطاعة الرسول القائد ينظم لهم ويبوئ مقاعد للقتال فيكتب الله لهم النصر ويُكْبَتْ الكافرون ، أمروا أيضاً أن أطيعوا الله ورسوله في مجاهدة فتنة الربا المضاعف في معاملات المال لعل الله يرحمكم واتقوا غضبة الحرب من الله والرسول بسبب الربا كما في سورة البقرة.

وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ{133}

وبعد تذكرة سابقة في السورة بفتنة حب شهوة الأموال المقنطرة والغرور بأنها مغنية، ثم بأكل الربا المضاعف الذي قد يحمي الصراع حربا بين الظالم والمظلوم، وفي سياق حول غزوة أحد التي سارع فيها بعض المسلمين من مواقع الدفاع إلى فتنة الغنائم، يرد هنا الأمر العام أن سارعوا لا إلى المتاع الدنيوي بل إلى مغفرة من ربكم عن فتن المال العاجل في سبيل الآجلة. وجنة عرضها السموات والأرض إن أُعدت النار للكافرين فقد أعدت هي للمتقين في كل مسالك الحياة التي جاءت بها الآيات الماضية مجاهدات أو معاملات مالية وهي لهم واسعة عرضها يغنيهم عن المصالح العاجلة الفاتنة القاصرة المدى.

الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{134}

المسارعون للاستغفار المتقون الذين أعدت لهم جنة عرضها السموات والأرض هم الذين ينفقون في السراء والضراء في حال اليسر والرخاء والعسر والعناء ومجتمع المؤمنين المتقين مجتمع إنفاق وليس مجتمع ربا وحب احتكار المال وأولئك المتقون الخيرون للناس هم الكاظوين الغيظ والعافون عن الناس، وذلك

---

[47] راجع الايات 10 - 14 نفس السورة

تذكير للرسول ﷺ وللمؤمنين بالمصابرة والتقوى يهيئهم حتى لما أصابهم من غزوة أحد لئلا يغشاهم شي من روح الانتقام من المشركين فلا يظهرون الجزع بل يكظمون الغيظ بل هم العافون عن أناس ولو قاتلوهم وقتلوا أعزاء لهم ،وذلك استغفاراً عن خواطر الثأر وتقوى لله الذي قد يتوب على الكافرين ويتوبوا وهو الغفور الرحيم والله يحب المحسنين – الإنفاق حتى في الضراء والكظم للغيظ والعفو حتى عن العادين إحساناً أحسن الإيمان وأحسن التقوى ودرجة تؤهل أهلها لحب الله.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{135}

المسارعون إلى الاستغفار والتقوى والإحسان وتأهلوا لجنة الله وحبه هم المحسنون حتى في الأزمات والزلات مثل قصة أحد منهم الذين أفحشوا فعلة عظيمة وظلموا أنفسهم بتجاوز مقتضى الإيمان والطاعة ممن ارتدوا على أدبارهم للمدينة أو ممن هموا أن يفشلوا أو ممن تهافتوا على الغنائم فتركوا ثغرة الدفاع والتزام المواقع عن أمر الرسول ﷺ وانخذلوا عن حمايته. وهؤلاء المفحشون الظالمون ذكروا الله فاستغفروا فوراً لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله وقد سارعوا إلى الاستغفار بعد الذكر ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون، لم يصروا على فاحش فعلهم وظلمهم مضياً إلى الفشل أو تبريراً للعمل بعد العلم والموعظة بأطوار معركة أحد بل عادوا للمعركة أو تابوا بعدها لله مستغفرين.

أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ{136}

أولئك عيناً الذين أفحشوا وظلموا أنفسهم ولكنهم ذكروا الله وتابوا له مستغفرين يستجيب الله لهم وجزاؤهم مغفرة من ربهم يوم القيامة وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين المصدقين استغفارهم وتوبتهم بعمل صالح موصول لنصرة الإسلام.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ{137}

تذكيراً للمسلمين أن قد خلت وسبقتكم سنن تأريخية ممتدة عبر الأرض منها ما قصته عليكم الآيات القرآنية فسيروا وامسحوا الأرض تنظرونها وتتدبرونها لتروا عاقبة من كذب بآيات الله. فقد كانت الخسران مهما طغى يوماً بقوته المادية واستبد بانتصاراته العسكرية، تلك تذكرة للمسلمين ألا يصيبهم انطواء عن عبرة سنن التأريخ وانكباب على حال الهوان والحزن الجاثمة بعد غزوة أحد غفلة عن عاقبة المكذبين في بدر القريبة وفي قرى المكذبين من حولهم في قصص الأنبياء.

هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{138}

هذا قرآن تنزلت آياته للناس بياناً برب العالمين وبأصول الوجود والكون، عِلماً ليؤمن الناس وبياناً بالإنسان ورسالة الله إليه وابتلائه، وقد تنزلت للمستجيبين المتقين هدىً لشريعة الحياة المؤمنة وموعظةً لعاقبة المكذبين والمصدقين.

الآيات الماضية تصل التقوى بالشكر والتقوى بالصبر والتقوى بالاستغفار والإحسان وهذه الآية وما يتلوها تصل التقوى بالهدى والموعظة عبر كل ابتلاءات الحياة ونعيم العاقبة في الدنيا الآخرة.

وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{139}

يستمر سياق الوصايا التي يجاهد بها وفي سبيلها المؤمنون جهادهم في غزوة أحد، فينهون عما قد يقع في نفوسهم من آثارها شعوراً بالوهن وضعفاً في العزيمة والمصابرة وعما قد يغشاهم من حزن على استشهاد بعض كبار الصحابة وعلى مواقف الضعف والارتباك والانهزام ينهون عن الوهن والحزن بينما هم الأعلون مستوى في الدنيا ديناً وتمكناً، ومصيراً في الآخرة نعيماً وقربى إلى الله – ذلك إن كانوا مؤمنين حقاً بدرجة الهدى بين الناس ومكانة المهتدين عاجلاً وآجلاً.

وفي الآية دفع لصبر المسلمين وشحذ لقوتهم فهم الأعلى بالإيمان والتقوى رغم ظاهر الهزيمة العسكرية والفقد مما قد يفتن ويحط نحو الهوان والحزن.

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{140}

الإيمان عزاء واعتبار والخطاب بذلك للمسلمين أنه إن يمسسكم قرح في أحد شهادة وأذى وهزيمة فليتذكروا غزوة بدر أمس إذ مس فيها ووقع بالقوم المشركين قرح مثل ما مسكم. سبعون من موتاهم مثل عدِّ شهدائكم في أحد وجرحى كذلك وهزيمة للمشركين. والآية خطاب من الله بعبر السِّيَر وأيامها الحاسمة يداولها بأقداره الغيبية القاضية بين الناس دولة لهؤلاء وجولة للآخرين، كسراً ونصراً يبتلى كل قوم بقدرهم في الحياة حسب الكرَّة. وليعلم الله بينةً في عالم الشهادة الذين آمنوا حقاً فصبروا غير مفتونين بالخسر أو بالنصر وعلم الله في الأزل سابق لكل وقائع الزمان المشهودة ولكن علمه بحادث الواقع وبرهانه حق لحساب الناس يوم القيامة، بما علموا هم أيضاً وإنضاج لهم بالتجربة السالبة والموجبة ليعتبروا بها ويتعظوا في مستقبل سيرتهم في الحياة الدنيا. والشهداء الذين يتخذهم الله هم صدَّقوا شهادتهم بكلمة الإسلام بفعل الإقدام، مجاهدة لخطر عدوان الكافرين على نفوس المؤمنين، مسارعة إلى الله ونعيمه ورضوانه في الغيب، فيتخذهم الله مجاوبةً لما اتخذوا من خيار الدين والجهاد حقاً وخيراً أعلى وأبقى من حاضر شهوات الحياة الدنيا.

والله لا يحب الظالمين فالقرح الذي مسكم والقرح الذي مس المشركين – لم يكن ذلك بسبب حب الله المشركين الظالمين المتجاوزين الحق فالله لا يحب الظالمين بل يحب المؤمنين المتقين المحسنين كما سبقت بذلك الآيات أما ظاهر الغلب وغمرة فرح الظالمين فمدد ابتلاء من الله لا مسارعة خيرات باقيات.

وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ{141}

فقدر الله بين الناس وتداول الأيام بمثل ما وقع في أحد إنما هو ليبين الله المؤمنين ويميزهم ويتخذ منهم الشهداء وليمحص الذين آمنوا بالاختبار والتجربة والتطهير وليمحق الكافرين – لا يظهرهم على المؤمنين

حبا لهم وهم الظالمون بل هي دولة يوم بين الأيام يفتنهم ويغرهم فرحاً بالظهور مدداً من الله ليدول عليهم يوم آخر ويرتد بالمحق الحق من الله، فالأيام بقدر الله دول.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ{142}

التمحيص والتطهير ليعلم الله الذين جاهدوا حق الجهاد وصبروا ثباتاً في المعركة وعلى الأذى والخطاب للمسلمين أنه لا يكون إلا كذلك. أم حسبتم تمنياً أن تدخلوا الجنة عاقبة لدخول الإسلام بشهادة القول وحباً قبل أن يمحصكم الله ويعلم ببينة الواقع المشهود الذين جاهدوا منكم مدافعين جهد أهل الباطل بجهد أهل الحق وقوتهم ويعلم كذلك الصابرين على ابتلاءات الجهاد تجرحاً وأذىً واستشهاداً وغَلَباً في الظاهر.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{143}

ولقد كنتم يا صحابة محمد ﷺ في المدينة لاسيما ممن لم يشهد منكم بدراً تتطلعون إلى معركة جهاد تشهدونها وتثبتون إيمانكم بالحق فيها صبراً حتى كنتم تتمنون الموت في سبيل عاقبة التمكين في الدنيا لدينكم، وعاقبة الجزاء في الآخرة للشهداء وذلك الطلب للموت والاستشهاد كنتم تتمنونه غيباً من قبل أن تلقوه شهادة بين أعينكم ولكن الموت الظاهر المتكاثر في أحد قد رأيتموه إذ التحمت الصفوف وتساقط القتلى وأنتم تنظرون إلى المشاهدة.

والإشارة في الآية لأولئك الذين تمنوا الموت إدعاء صدق ثم اختبرهم الله بمشاهدته واقعاً فغشيهم شيء من الوهن والحزن فزعاً والعظة لهم ألا يتطلعوا للقتال والموت حتى يوجبه الله قدراً وتمحيصاً واختباراً.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ{144}

في سياق الإبتلاء بالجهاد وبغزوة أحد إذ تكاثر القرح والاستشهاد وفتن المسلمون فأصاب بعضهم الحزن والفزع، وزلزلت بعضهم تجربة التمحيص حتى الذين كانوا يتمنون الموت صدقاً في سبيل الله، تذكر الآية الامتحان الذي تمثل في الشائعة بينهم أن الرسول ﷺ قد سقط بين القتلى وقد أحدثت فيهم اضطراباً وهلعاً وانخذالاً . وتُذَكِّر المسلمين خطاباً أن محمداً ﷺ ليس إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل، ليس هو غاية الجهاد وأصل الدين الواجب الوجود أبداً، بل هو رسول من الله وقد سبق من قبله مرسلون يبلغون رسالةً وحسب من الله الحي الذي لا يموت، الذي تجاهدون في سبيله. أفإن مات أو قتل في مثل تلك المعركة ماتت فيكم غاية الدين وانقطع سبيله وزالت أمامكم قبلته فانقلبتم متقهقرين على أعقابكم، فراراً من العادي عليكم من المشركين في المعركة مرتدين عن دوافع الصبر ثباتاً على سبيل الأقدام وتولياً بالوجوه قبل وجه الله. فإن من انخذل مدبراً عن الإقدام في المعركة ومنقلباً عن الاتجاه نحو الله، فاشلاً في ساعة الابتلاء ومصيبة التمحيص، فإنه بذلك لن يضر الله شيئاً فالله يحمي دينه ورسوله ويدفع الضر غنياً عن العالمين.

ولكن ذلك الانقلاب سيضر الذين نسوا الله ونسوا عاقبة أجر الصابرين في سبيله وتعلقوا بالرسول ومن دونه ، وسيجزي الله الشاكرين للهدى سيرا وصبراً في سبيله رغم الابتلاء، المشاركين للرسالة التي بلغها الرسول والأمانة التي أداها مضياً وإقداماً في سنتها وصلاً بميثاق الله – أولئك سيجزيهم الله الوفي لمن قدم لوجه الله فكسب خيراً ودفع ضراً ، وهو الغني عمن انقلب مُدْبِراً.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ{145}

السياق يتصل مذكراً بأن موت الرسول ﷺ وأي نفس مقتولة في معركة جهاد أو مدركها الموت حيثما تكون في الأرض قضاء ما كان له أن ينفذ إلا بإذن الله، ويكتب واقعاً لأجل مقدر. فالموت كيفاً وأجلاً قدر وحق واقع يتبلى الإنسان بإيمانه ومذهبه في الحياة دون الموت. فالإنسان الذي يريد خير الدنيا العاجلة يقاتل في سبيل المغنم الحاضر ويتبع الرسول ﷺ ما دام حياً يؤتيه الله عاقبة بقدر كسبه ونيته ثواباً مغنماً أو متاعاً من الدنيا قاصراً عليها لا وراءها ، ومن كان كالرسول ﷺ والمجاهدين الصادقين والشهداء يريدون ثواب الآخرة في مسيرة حياتهم وجهادهم فسيؤتيهم الله ثوابا منها هو خير من ثواب الدنيا وأخلد.وكما سبق في الآية الماضية الشاكرون غير كفار بالهدى والسنة ولا مرتدين ، الموفون بحق الشكر صبراً ونية متوجهة إلى لقاء الله في الآخرة، سيجزيهم الله بكل أقداره المشهودة في عاجل الدنيا والغيبية في آجل الآخرة.

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ{146}

السياق يتصل ذاكراً قصص الصبر التي تنفع المؤمنين في مثل تجربتهم، بشائعة مقتل النبي ﷺ في مأساة أحد، وبزلزلة المؤمنين وانقلاب بعضهم حزناً ووهناً من ظن انقطاع الرسالة وانكسار الدين. فكأين من نبي قاتل كم كثير من الأنبياء قاتل أو قتل فعلاً في جهاد (وقتل كما في قراءة أخرى تبدو أرجح توحداً مع السياق المذكر حول شائعة مقتل محمد ﷺ وأثره).[48] فكثير من أنبياء كذلك معهم ربيون كثير – كل منهم ربِّي وصلته الرسالة من ربه فما أصبح منقطعاً بمقاصد دينه على الرسول بل ببلاغ ذلك الرسول ودعوته وقدوته بالغاً الرب الأعلى يعبده ويجاهد ويقاتل في سبيله والربِّيون كثيرون فما كان منهم من زلزله الابتلاء بل هم جميعاً شهدوا مقتل نبيهم فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، ما أصابهم الوهن لما أصابهم في سبيل الله كما وهن بعض المسلمين من شائعة مقتل النبي ﷺ وما ضعفوا في المعركة كما تولى بعض المسلمين، وما استكانوا كما ظهرت أعراض الاستكانة والذل في أحد.

[48] قراءة: قرأ نافع وابن كثير وابو عمر ويعقوب (قُتِلَ) وقرأ الباقون (قاتل)

والله يحب الذين يصبرون في المعركة مهما أصابهم لا الذين يضعفون فالصبر اعتصام وحب لله والله يستجيب له بحب الصابرين.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{147}

لم تضطرب أقوال الربانيين المصابين بفقد القيادة أو بالأذى كما اضطربت أقوال المسلمين في أحد ولكنها توجهت إلى الاستغفار قولاً واحداً. (ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في امرنا) سألوا الله أولاً أن يطهرهم من الذنوب ومن الإسراف في الأمر لأنهم عندما أشتد عليهم المصاب لم يعزو ذلك إلا إلى ذنوب كثيرة ارتكبوها وأوقعت عليهم هذا الابتلاء فسألوا لله التطهير منها كما في سورة الشورى[49] . ثم أخذوا بعد سؤال التطهر يسألون الصبر، وأن تثبت أقدامهم بمدد الله من طمأنينة القلوب وتأييد الملائكة فلا يضعفون ويخورون ويفرون من المعركة مثل بعض المسلمين في أحد. وكان ختام ذكرهم لله إذ لقوا فئة ، (وانصرنا على القوم الكافرين)، يكتمل دعاء الربانيين بطلب النصرة فبعد التطهير والتثبيت يرجون تمام عطاء الله ونعمائه بالنصر على عدوهم من القوم الكافرين.

فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{148}

سبقت الآية في السياق (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسيجزى الشاكرين)[50]، وهنا أعطى الله الربيين المؤمنين الذاكرين الصابرين ثواباً في الدنيا نصراً عاجلاً وفتحاً وحسن ثواب الآخرة الآجل المضاعف الأحسن ثواباً من العاجل.

والله يحب الصابرين ويحب الذين أحسنوا ذكراً وصبراً والله لا يحب الظالمين فإنما يجئ تعالى ثواب الدنيا والآخرة لمن آمنوا وصبروا وأحسنوا وقد يجئ عارض ثواب زائل فتنة في الدنيا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ{149}

تنبيه وخطاب وتحذير للذين آمنوا أن لا تهنوا استسلاماً للهزيمة في أحد وانكساراً للعزيمة غير معتبرين بسيرة الربيين الذين قاتل معهم وقتل نبي فما استكانوا ضعفاً بل صبروا فنصروا أن تطيعوا من ثم الذين كفروا يردوكم على أعقابكم بعد الجاهلية أن أقدمتم على الهدى والفلاح فتنقلبوا إلى الخسران نحو الكفر والذلة.

بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ{150}

الخطاب يستمر للمؤمنين لا يطيعون ولا يوالون الكافرين فيخسرون بل يتذكرون مهما كان ابتلاء الأذى والهزيمة شديداً، فانه تمحيص لإيمانهم والله يحب المؤمنين فهو يتولاهم والكافرون لا مولى لهم والله

---

[49] سورة الشورى الآية 30 وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير

[50] نفس السورة الآية (145)

هو خير من ينصركم في خاتمة جولات المجاهدة بين الكفر والإيمان إذ يمتحنكم بالأذى فيعلم المجاهدين الصابرين المحسنين منكم فيؤتيكم الثواب نصرا.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ{151}

يتكامل السياق بما سيجعل الله في نفوس الكافرين من رعب هو مزيد طمأنينة للمؤمنين ليتحرر موقفهم من أن تردهم الهزيمة إلى طاعة المشركين أو الردة الشاملة. والرعب والخوف قدر يلقيه الله في قلوب الكافرين المشركين ونفوسهم وذلك أنهم لم يوحدوا الله رغبة ورهبة في العاجلة والآجلة بل أشركوا به أهواءهم ومراميهم الدنيوية خروجاً على ما أنزل الله به سلطاناً من مقاصد الحياة المؤمنة الهادفة كلها لله مرجعاً. فليس لهم من حجج التنزيل وآياته سلطان فإذا ابتلوا بمعارك القتال لاح لهم خطر الأذى والموت فارتعبوا بينما يطمئن المؤمنون بتأييد يرجونه من الله ومصير خير للصابرين والشهداء.

وليس للمشركين من قلوب مطمئنة الدوافع تدعو المؤمنين للاستكانة والضعف إزاءهم، بل بعد معركة أحد إذ غشيتهم خواطر بعد الانسحاب من المعركة التي فرحوا بها أن ينقلبوا راجعين إلى المدينة ليستأصلوا مسلميها، فراودهم من إشراكهم الرعب خوفاً أن يفسد كسبهم بجولة مثل بدر فارتدوا إلى مكة يدفعهم الرعب من المؤمنين وروح الثأر مما أصابوهم به. والمشركون يرعبون كذلك مستقبل الدنيا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين في الآخرة. وذلك تذكير للمسلمين ألا يطيعوهم وهناً فينقلبوا مثلهم خاسرين آجلاً وعاجلاً. والله لا يحب الظالمين كما في الآية السابقة[51] بل الله مولى المؤمنين يحب المحسنين يأوون إلى عزته دنيا وجنته أخرى ونعم المأوي والمثوى.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ{152}

في سياق عبرة المعركة وتقديم أحداثها وأحوالها يُخاطب المسلمون ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه في أول المعركة ومبتدأ القتال وتستأصلونهم بإذن الله لقد تجلى صدق وعد الله لكم أن تصبروا وتتقوا بالمدد والنصر (الآيات 125–127) حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم، امتد دفع الغلبة لكم حتى وهي فيكم الصبر والتقوى ففشلتم سقوطاً من التوكل والدفع إلى الخوف والتراخي وتنازعتم في الأمر إذ دبَّ في صفوفكم بعد التقوى جنوح البعض إلى ترك المقاعد والثغور التي بوأها لهم الرسول ﷺ وأمرهم بالثبات عليها. فنازعهم طلب الغنائم ونزعهم عن وحدة صف إخوانهم وحماية أظهرهم، وعصوا أمر المرابطة في الموقع ونداء الرسول ﷺ أن يجمعوا أمرهم ويثبتوا من الفرار ويصبروا على مجاهدة الهجمة التي أقحمتهم من ورائهم وأمامهم. وذلك الفشل والتنازل والعصيان أمر منهي عنه في أي

[51] نفس السورة الآية 140

مجابهة عسكرية[52] ولكنه هنا من بعد ما أراكم ما تحبون، من بشائر النصر وطوالع الفلاح تفرقتم فمنكم من يريد الدنيا ويؤثر الغنائم فاشلاً عن الصبر منازعاً عاصياً لأمر الوحدة والتقوى ومنكم فريق آخر يريد الآخرة ثابتاً في موقعه معتصماً بالصف والطاعة ولو كثر منهم الجريح والشهيد لقد صدقتم وبدأتم بصبر وتقوى وصدق الله لكم وعده فبدأ لكم مطلع نصر بحّس الكافرين ثم ضيعتم بالفشل والتفرق تمام الصبر والتقوى شرط النصر من الله. ثم صرفكم عن حسهم وقتلهم والاستيلاء عليهم ليبتليكم لا بتمام النصر فما وفيتم تمام شرطه بل بما أصابكم من أذى وشهادة.

ولقد عفا عنكم بعد الفشل والتنازع والعصيان فلم يسلط عليكم المشركين ليحسوكم حساً بدت فرصته لهم بل فرحوا بما أصابكم وولوا . هكذا ينبغي مهما فشلتم وتنازعتم وعصيتم ألا تيأسوا من عفو الله ومغفرته وتطهير وتأهيل لثبات ونصر جديد، والله ذو فضل على المؤمنين، أعطاهم فضلاً فوق ما يكسبون، قطعاً لطرف من أعدائهم وكبتاً وصرفاً وقذفاً للرعب في قلوبهم والله ولي المؤمنين يتفضل عليهم ولو وقع فيهم فشل وتنازع وعصيان.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{153}

صرفكم الله عنهم ليبتليكم وذلك إذ تصعدون في جبل أحد ولا تلوون على أَحَد ، إذ حوصرتم عند قاعدة الجبل بجيش المشركين أمامكم وبفرسان خالد من ورائكم إذ ترك حراسة ثغر الحراسة من أغرته النصرة الأولى بالجري إلى الغنائم، ولا تلوون وجوهكم من وجهة الصعود فراراً إلى أحدٍ تناصرونه ثابتاً في ساحة المعركة بل سبب صعودهم السريع هرباً من سقوط الحجارة وزيادة الاضطراب في الصفوف . والرسول ﷺ القائد الذي بوأكم مقاعد القتال يدعوكم في أخراكم وأنتم مدبرون عنه صاعدون :(إليَّ عباد الله إليَّ عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة) فأثابكم الله غماً بغم ، إذ غمكم كثيراً وأظلم عليكم سير الواقعة وتساقط الشهداء أمامكم. فأعقب عليكم ذلك الغم بغم جديد، وإرجاف من شائعة موت الرسول ﷺ وذلك الغم المتراكب قُدِّر لكم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من تمام النصر وكسب الغنائم، والله خبير بما تعملون من فشل وتنازع وعصيان في سبيل المغنم وفراراً صعداً غير مستجيبين لدعوات الرسول .ﷺ

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ

[52] سورة الأنفال الآية 47

عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{154}

يمضي سياق الأحوال والأقوال عقب المعركة والتعليم والتزكية للمسلمين عبر تطوراتها فيخاطبون: من بعد الغم المتوالي ألقى عليكم الله أمنة وسلاماً فرحاً بحياة الرسول ﷺ فانصرفت عنكم الغموم والأحزان وحالت إلى برد واطمئنان نعاساً يغشطائفة منكم هم المؤمنون فضلاً من الله وطائفة أخرى قد أهمتهم أنفسهم فيهم غواشي النفاق وعلة في الإيمان، انحصر همهم في أنفسهم وما فاتهم من نصر ومغنم وما أصابهم من مقتل، حتى ارتدوا إلى غير الحق من ظنون الجاهلية وخواطرها أن الله لا يملك النصر ولا يصدق وعده للمؤمنين به الصابرين المتقين والحق أن الأمر لله . وظنهم أن النصر كسب تقدير وتدبير من أمرهم فيتساءلون بعد الهزيمة وما فاتهم يقولون هل لنا من نصيب في تدبير أمر المعركة لنكسب النصر أو نتقي المعركة أم أخرجنا كرهاً، والخطاب للرسول القائد للمعركة أن الأمر كله لله هو الذي يكتب النصر أو الهزيمة والحياة أو الموت والكسب أو الفوات حسب تكليفه للمؤمنين في الجهاد، دفع صبر ونظام تقوي وقدره لهم وفاقاً بوعد النصر وصدقه وحب فشل ونزاع وعصيان يرتب الله عليها فوات المغانم والأرواح. فهم يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك من جاهليتهم، منافقون مبدين طيب الكلام ومظهر الإسلام مخفين في أنفسهم ظنون الجاهلية الباطلة بالله، ويعبرون عن باطنهم من ورائك، يقولون ملاومة وتحسراً لو كان لنا الأمر والسلطان والقرار شيء لسلمنا وانتصرنا وما قتلنا وفاتنا هذا العدد من المقتولين منا ها هنا في أحد عند حمى دارنا المدينة.

وقد نزل الرسول ﷺ على شورى الغالب من بين المسلمين إذ كان يقدر أن الأحكم القتال في شوارع المدينة بين بيوتها ولكنه خرج إلى أحد كما أجمع سوادهم الأعظم وتولى عن جيش المسلمين كثير من المنافقين ومن بعد المعركة أصيبوا أذى وقتلاً وهزيمة ولكنه مناخ حسرة وأحزان إلا لدى المؤمنين المطمئنين أمناً بعد كل بلاء.

والوصية للرسول القائد ﷺ أن يقول للمنافقين الذين انتهزوا أثر المعركة مدعين أن لو كان لهم شيء من الأمر لما استمر القتل ، فإن قدر الله غالب فلو قاتلتم المشركين في وسط بيوتكم بغير صبر وتقوى وكتب الله عليكم وفاق ذلك لبرز الذين جاء عليهم أجل الموت وكتابه من داخل بيوتهم ولواذها إلى مضاجع قتلهم ومواقعه لمصارعهم المقدرة من الله، لا يؤخر الأجل ما عندهم من الأمر حذراً واحتياطاً. لقد كان كل ما كان نفاذا لقدر الله في أجل مقتل من قتلوا وامتحاناً لسائركم، وليبتلي ما في باطن الصدور إيماناً يصدقه ظاهر الصبر والتقوى أم نفاقاً وظنوناً وملاومة بالباطل وليمحص قلوبكم وتتصفى وتتزكى إيماناً بعد وقع المعركة أم مزيد ريبة وخبث ونقص.

والله عليم بذات الصدور، بالغ العلم بحقيقة الصدور من خواطر البواطن التي تخفق لوقعها القلوب مع إنه يبتليها ويمحصها ليخرج إلى الظاهر المشهود مقولات ومواقف معبرة مصورة للشاهدين.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ{155}

تالياً لذكر طائفتين من المسلمين آمنة ساكنة وظانة بالله ظن الجاهلية يتأكد ذكر الذين تولوا فراراً إلى المدينة بينما أدبر آخرون صعداً في الجبل والرسول يدعوهم من أخراهم ساعة الالتحاق والالتقاء بين الجمعين وهو وقت فرقان الشرك الباطل فيه ماثل أمام الحق يستفزه ليدفعه ولم يقع التولي من بعضكم أيها المؤمنون إلا لأن الشيطان استزلهم فحملهم على ذلك ببعض ما كسبوا فلولا أنهم ببعض ما عملوا وكسبوا من ذنوب حب المغانم ومعصية الرسول ﷺ موقفاً والتنازع مع صف المسلمين لما أصبحوا عرضة لفتنة الشيطان فيغريهم بالزلل عن الساحة فراراً.

ولقد عفا الله عنهم وسامح خطأهم الكبير في التولي وطهر قلوبهم من الكسب السيئ ودعوة الشيطان. فالله غفور حليم، يغفر الكسب والزلل وحليم بالغ الحلم يسامح حتى بعد الذنوب الكبيرة مثل التولي عن الجهاد يوم الجمع في أحد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{156}

يمتد سياق القصة والعبرة لمعركة أحد إلى الموعظة بآثارها خطاباً للذين آمنوا ألا يكونوا كالذين كفروا على خلقهم وسنتهم إذا فقدوا بعضهم في الحياة وقالوا تذكراً لإخوانهم أولئك إذا ضربوا سفراً في الأرض لطلب الرزق والمتاع أو كانوا غُزًّى ذهبوا غازين آخرين، قالوا لو كانوا عندنا مقيمين في حرمنا وأمننا ما ماتوا بعلة من غربة وما قتلوا بضربة ممن يغزون قتالاً ، إذا قضي الأجل نسبوه إلى السفر رحلةً أو غزواً وادعوا أنه بالتحسر الراجع والتمني المرتد في الآجال كان يمكن كف القضاء، فلا يؤمنون بقدر الله النافذ قضاءً لأجله ولا يرون نظام الحياة والموت إلا مسيَّراً بتدابير الأسباب البشرية فإن حبسوا إخوانهم عن الخروج ضمنوا لهم الحياة.

تركهم الله في ذلك الضلال عن اليقين والصبر بقضاء الله وأجله المنحسم، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم وندماً على حياة انقضت، تمنوا لو حفظوها، وحزناً على موت لأجل تلاوموا أن لم يستأخروه. والله يحيي ويميت والحياة والموت أمر أسبابه وأجله لله وحده لا بأيدى البشر يستأخرون القضاء ويستقدمون بخيارهم وقرارهم والله بما تعلمون بصير الله بالغ البصر علما بما تعلمون تحسراً وجزعاً وتلوماً راجعاً أم إيماناً بكل قضائه ورضى وصبرا.

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ{157}

بعد النهي عن خلق الكافرين في التحسر السببي القدري لموت إخوانهم وقتلهم تذكير هنا للمؤمنين لئن قتلتم في سبيل الله جهاداً أو متم على سبيل الإسلام حيثما خرجتم في الأرض لمغفرة من الله

تطهركم ورحمة تقربكم إلى نعيم الله ورضوانه خير لكم مما تجمعون من مغانم ومكاسب في الدنيا أو يجمع الذين يؤثرون طول العمر لذلك دون القتل والموت على الدين.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ{158}

القتل في سبيل الله مقدم خيرٌ مصيراً يليه الموت على الدين، ولئن متم قدراً مصيرياً أعم لكل الناس أو قتلتم وجهاً من ذلك يرفع إلى حياة عليا. كيفما انقضت بكم الحياة الدنيا ثابت أنكم رجوعاً إلى الله تحشرون جميعاً في عالم الأزل.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ{159}

خطاباً للرسول ﷺ النبي القائد ترتيباً على كل خطايا المسلمين أثناء المعركة وعقبها برحمة مؤكدة – أوتيتها من الله – لنت لهم وبقيت رفقاً سهل العتاب، ولو كنت فظاً جافاً غليظ القلب عنيف الحساب لانفضوا نفراً من حولك، وتركوك وحدك واعتزلوا أمر الدين والرسالة، فاعف عنهم عصيان أمرك بالمواقع والإدبار، وأنت تدعوهم في أُخراهم، واستغفر لهم الله الفشل والتنازع والتولي والتندم والتحسر دون الرضى بقضاء الله، فالقائد يعفو كما سبق ان الله يعفوا خطايا المعركة ثم من بعد ومهما كان إجماعهم في الخروج عن المدينة إلى أحد مؤدياً إلى نتائج وخيمة من كثرة القرح والاستشهاد والتولي والانهزام بل وأذاك في وجهك أنت شاورهم في الأمر واحفظ سنة الشورى العامة حتى في سياق الحرب والعمليات العسكرية التي تبوئهم أنت مقاعد القتال ونظمه، فإذا عزمت على القرار مترتباً عن إجماع الشورى فتوكل بعد اجتهادكم جميعاً في الرأي على توفيق الله لأن الأمر كله لله فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين لا الذين يظنون أن يكون الأمر كله لهم ولو شورى بل الذين يكلون النجاح على الله بعد الاجتهاد والعزم.

إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ{160}

الخطاب للمؤمنين في سياق تحريرهم من الخوف والتذبذب ساعة والجهاد والقتال وتذكيرهم بأن الأمر لله والتوكل عليه بعد الشورى والعزم في الإقدام مطمئنين – أن ينصركم الله وقد وفيتم شرط وعده فلا غالب لكم من دونه فهو الغالب على أمره. وأن يخذلكم لقصوركم عن الوفاء بشرط الصدق في الجهاد وفاقاً لانخذالكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده إذ الأمر والقدر له وحده يكتب هو النصر أو الخسران وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون بأمره مقدمين كما أُوصِي النبي القائد بالتوكل والإقدام بعد العزم.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{161}

تمتد العظات في أعقاب المعركة تذكيراً بدور النبي ﷺ القائد عفواً عما سلف من جنوده واستمراراً لمشاورتهم في الأمر العسكري ثم أمانة وعدلاً في قسمة الغنائم التي كانت الغيرة على نيل النصيب منها سبباً في كشف ظهر المؤمنين والهزيمة. وما كان لنبي أن يغل، ما حق لقائد نبي أن يغل فيتعدى خلسة أو خيانة على عدل قسم الغنيمة أو يُغل فتتعدى على عدله خيانة من أحد. ومن يكسب شيئاً من الغلول يأت به يوم القيامة بينة على خيانته ورداً للظلم الذي حسبه كسباً ثم تعطى كل نفس بعد بينة الحساب يوم القيامة وفاء ما كسبت وهم لا يظلمون فذلك كامل حق المعاقبة لما قَدَّموا.

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{162}

التساؤل يترتب على تبرئة النبي قائد من الغلول وتوفية عقاب الغلول فهل من اتبع رضوان الله أمانة في الغنائم أو ثقة بأمانة النبي وصبراً كمن باء بسخط من الله غلولاً أو ظن سوء بالنبي وانشغال بنيل الغنائم عن الثبات والجهاد ومأوى الأخير يوم القيامة هو جهنم وبئس المصير توفية لمثل ما كسب غير مظلوم.

هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ{163}

هؤلاء وأولئك من اتبع رضوان الله أمانة في الغنائم ومن باء بسخطه غلولاً هم درجات متفاوتة عند الله درجات عليا في الجنة ودركات دنيا في جهنم والله بالغ البصر بما يعملون إدراكاً لحظِّ كلٍ من الجزاء.

لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ{164}

النبي القائد المشاور في الأمر الأمين في الغنيمة لقد منّ الله بفضله العظيم على المؤمنين إذ بعث وأقام فيهم رسولاً منه تعالى من أنفسهم ليس غريباً عنهم نسباً أو لساناً أو عرقاً يتلوا عليهم آياته المنزلة تبليغاً عن الوحي ويزكيهم فيطهرهم من أرجاس الجاهلية وينمي فيهم فطرة الحق والخير ويعلمهم الكتاب ببيانه حديثاً والحكمة بتنزيله الحق على الواقع قدوة وسنة وسيرة. وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، فما كانوا من قبله في هدى بل في ضلال مبين واضح.

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{165}

في أعقاب معركة أحد وابتلاءات تدبرها حزناً أو صبراً يُسأل المسلمون أولما أصابتكم مصيبة من الشهداء سبقتها معركة بدر إذ أصبتم أنتم ووقعت مصيبة على أعدائكم المشركين قتلتم فيها وأُسرتم منهم مثلما أصابكم في أحد، أولما جرى ذلك اليوم قلتم أَنّى ومن أي وجه حدثت علينا المصيبة ؟ أُوصِي النبي القائد: قل هو من عند أنفسكم من أن الصبر ووحدة الصف والتقوى وزهد ركب الغنائم في بدر كان غير ما كسبته أنفسكم من الفشل والنزاع والشهوة في الغنيمة تحركم إلى معصية النبي القائد في مواقع القتال. وسواء أن يوقع عليكم ما لقيتم في أحد أو أن تصيبوا كسباً مثلما قدرها في بدر ذلك حق

مؤكد أن أقدار الله نافذة تجري بما كسبت نفوس المؤمنين من صبر وتقوى أو خلاف ذلك فاستحقوا مجاوبة الأقدار بالمثل.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ{166}

عطفاً على حكمة قدر المصائب التي سبق ذكرها، ما أصابكم ووقع عليكم يوم التقى جمع المشركين وجمع المؤمنين في أحد كانت بإذن الله وقدره الذي يوافي ما كسبت أنفسكم وليعلم الله – لا العلم غيبا سابقاً فالله محيط بالغيب بل العلم الذي يشهد له عالم الشهادة وبينات واقعه ليعلم كيف حال المؤمنين حقيقة لا ظاهراً ولا نفاقاً وصبراً وتقاة أم دون ذلك من الإيمان.

وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ{167}

في سياق ابتلاء الله لكم في غزوة أحد بالمواقف ليعلم المؤمنين حقيقة وليعلم ويميز بالشهود كذلك حقيقة الذين نافقوا وانفضح نفاقهم فلم يجيبوا داعي المؤمنين أن تعالوا إلى القتال في سبيل الله أو حتى الخروج تكثيراً للسواد في صف المسلمين ترهيباً ودفعاً للمشركين العادين ولو دون القتال. لكن خذلهم نفاقهم وفضحهم حتى قبل بدء القتال فردوا على دعاء المؤمنين للقتال قائلين أن لو نعلم ونحسب أنكم قادمون صدقاً إلى قتال لاتبعناكم إليه. وقد كان زمرة المنافقين نحو ثلاثمائة بقيادة عبدالله بن أبي دعوا للبقاء في المدينة وانصرفوا عن المسلمين خارجين للقتال إلى جبل أحد . وجاء فيهم حكم الله علام القلوب ، أن إذ اضطرب إيمانهم فكانوا بوجدانهم المنحط دركاً أقرب يومئذ إلى الكفر منهم إلى الإيمان يقولون بأفواههم ظاهراً – لو نعلم قتالاً لاتبعناكم وهو ما ليس في قلوبهم فليس فيها نية صادقة تعبر عنها مقالة الحرص على اتّباع داعي القتال وإنما هم منافقون.

والله أعلم بما يكتمون في أنفسهم من اضطراب إيمان وكره وحسد للمؤمنين مما تعلمون بظاهر مواقفهم ومقالاتهم المتناقضة المضطربة.

الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{168}

تتصل مقولات أولئك المنافقين بعد المعركة إذ قالوا من أجل إخوانهم الشهداء من جماعة المسلمين وهم من الخزرج اتخذهم المنافقون إخواناً بالنسب لا بالدين، قالوا وكانوا هم سلفاً قد آثروا القعود على الخروج إلى القتال وقالوا: لو أطاعونا فقعدوا معنا ولم يخرجوا مع سائر المسلمين إلى أحد ما قتلوا. ويوصى النبي أن يصدع في الرد عليهم بالحق: قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ما دمتم تحسبون القعود يصرفكم ويمنعكم من الشهادة مقتولين فأدرأوا عن أنفسكم الموت الذي قد يصيب القاعد – ذلك إن كنتم صادقين أن الحفاظ على الحياة واتقاء الموت مضمون بطاعتكم وبالقعود عن القتال، لكنكم لا

تصدقون بل تعلمون أن الموت أجل وقدر متمما وكيف ما شاء الله وإنما تكذبون في مقولاتكم تستراً لنفاقكم وتعذراً عن قعودكم خوفاً وكفراً بعاقبة الجهاد نصراً من الله أو شهادة وحياة في الجنة.

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ{169}

سبق خطاب النبي ﷺ أن يصدع بالحق في وجه المنافقين أن الموت حسب قدر الله وأجله لا حذر الإنسان وحرصه على الحياة ويلحق ذلك وصيته ألا يحسب الذي يقتلون في سبيل الله أمواتاً – ففي الدنيا أناس هم موتى لم يحيوا أنفسهم بالإيمان صما بكما عميا لا يعقلون ، والشهداء أحياء انبعثت نفوسهم بأعلى درجات الإيمان بالغيب صدقاً بالجهاد في سبيل الله مسارعة من الملأ الأدنى في الأرض إلي الملأ الأعلى عند ربهم ومن الرزق الذي يحفظ الحياة للبشر في الدنيا – قد تقعدهم شهوته عن الجهاد وخطره أو تدفعهم إلى المغانم دون الدفع لتكون كلمة الله هي العليا – إلى مقام فالشهداء أحياء عند ربهم قريباً منه تعالى يرزقون رزقاً أطيب ومغنماً خيرا وأبقى في الآخرة.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{170}

الشهداء يفرحون – بالغاً سرورهم – وما أتاهم فضله ووسعه رزقاً ورضواناً ويرون ما هم فيه من مصائر المؤمنين الصادقين خلفهم الماضين علي طريقهم جهاداً ولم يلحقوا بهم استشهاداً فما هم في استحسار عليهم مثل شعور المنافقين بل يستبشرون مزيد فرح بالوعد الحق للخلف ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لا خوف من شر مصير في الدنيا ولا الآخرة ولا حزن يصيبهم بفقدان مغانم الدنيا فهم يجدون في العاقبة الفضل والفرح.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ{171}

الشهداء يستبشرون بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف ولا حزن في الدنيا ولا في الآخرة بل نعمة من الله وفضل نصراً وعزاً في الدنيا ينتظر المؤمنين يرى الشهداء بشائره في عالم الأزل إذ هم هناك يرون مسير الدنيا ومصيرها في ماضي زمان عالم الشهادة ومستقبله.

وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين في الآخرة فلا يقومون بالإيمان ويجاهدون سدىً يضيع أجرهم يوم الحساب.

الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ{172}

أولئك المؤمنون الخلف الذين يستبشر الشهداء بنعمة وفضل ينتظرهم هم الذين من وراء الشهداء استجابوا لنداء الرسول ﷺ عندما دعاهم للخروج في سبيل الله دفاعاً عن كيان الإسلام في وجه محاولة المشركين العودة لمهاجمة المدينة بعد مضي يوم من انقضاء المعركة في أحد عندما حدثت المشركين أنفسهم من تجربتها تلك بأن ينقلبوا ليجهزوا على المسلمين بالمدينة وقد استجاب المؤمنون للخروج في سبيل الله

بدعوة رسوله رغم ما بهم من قرح وجرح فتحاملوا على أنفسهم ونهضوا دفاعاً عن الإسلام. فأمنت المدينة من مغبة ارتداد المشركين عليها وانقلبت معنويات جيش المجاهدين من الهزيمة إلى العزيمة ولم يستسلموا لحالة الانكسار المعنوي للنفوس كما لم يستسلموا لحالة الأذى المادي في الأجساد.

ويتأكد استبشار الذين سبقوهم بالشهادة فإن الذين أحسنوا من المؤمنين، جولة استجابة وصبر بعد صبر واتقوا الله من أن يحملهم خوف وانكسار، لهم أجر عظيم عند الله وفرح لا يضيع.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ{173}

أولئك المستجيبون المحسنون المتقون هم الذين قال لهم الناس فيما يروي الركب السفر من أمر حركة المشركين وينقلون من خبرهم ما يروج من بعد المنافقين أن الناس الذين انصرفوا عنكم بعد أحد قد جمعوا لكم وتهيأوا مرة ثانية للانقلاب عليكم فاخشوهم وخافوهم. فلم يثبت إيمانهم وصبرهم فحسب بل استفزهم وزادهم إيماناً وخرجوا ليقابلوهم ثانية في حمراء الأسد[53] وقالوا معبرين عن فيض إيمانهم حسبنا الله هو الكافي مهما تكاثر علينا في الحساب المشهود المشركون العادون نصبر ونكل إليه التوفيق وهو وكيل بالغ القوة لمن يتكل عليه بل نعم هو وأعظم به من وكيل.

فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ{174}

خرج المؤمنون تحدياً للمشركين المتجمعين ارتداداً عليهم وتوكلاً على الله، وسمع المشركون وانصرفوا مرتعبين أن تخيب فرحة أحد بوطأة ينتصر فيها المسلمون، فانقلب المؤمنون بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، وذلك تحقيق البشرى التي رآها الشهداء. واتبع المؤمنون واستجابوا للداعي نحو رضوان الله ولو بسبيل المصابرة والقومة بعد القرح والله ذو فضل عظيم يفيض في الدنيا والآخرة على من ابتغى في العسر رضاه.

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{175}

ليس ذلك لكم إلا الشيطان متجلياً في شياطين الناس يروج الأخبار يخوف أولياءه من المنافقين وضعاف الإيمان في مجتمعات المسلمين ليضطربوا ويتذبذبوا في مواقف المواجهة والحصار ولكن المؤمنين يدعون أن يستعيذوا من ذلك بالله فلا يخافون الناس مهما جمعوا لهم لأنهم موحدون الخوف والخشية من الله إن كانوا مؤمنين بالله وحده .

[53] راجع السيرة

عموم المعاني الآيات:121-175

المؤمنون متى عبأهم القائد وبوأهم مواقع للقتال في سبيل الله ، فالله رقيب عليهم وما قد يراود بعضهم من التهرب، فليتوكلوا على الله جميعاً مجاهدين راجين منه النصر وله الشكر . ذلك ولو كانوا أذلة بميزان القوى المشهودة ، كما كانت العبرة في غزوة بدر الأولى للإسلام. أن مددا من الله وملائكته تدفع روح المجاهدين متقين يستبشرون مطمئنين بوعد النصر من العزيز الحكيم. أما عاقبة الأعداء فهي بأقدار الله الواسعة لا بثأرات المسلمين، فقد يقطع الله طرفاً من قوتهم أو يكبتهم وقد يأخذهم عذابه بظلمهم أو يتعظون توبة إلى الإسلام فيتوب الله عليهم.

إن فريضة الجهاد تتكامل مع سائر فرائض الإسلام توحيداً لمقاصد الحياة ومساعيها في سبيل الله. فالمؤمنون كما يقاتلون ينبغي أن يقطعوا ويجاهدوا نظام الربا ظلماً مضاعفاً فالتقوى في المال طريق إلى الفلاح والكفر إلى النار . والجهاد بنظامه يدفع المؤمنين في السياسة لطاعة الله والرسول أو القائد فيهم رحمة بينهم وشورى ، والقيام صفاً للجهاد تُكَامِلُه المسارعة للتقوى في علاقات المجتمع الداخلية إحساناً يحبه الله بالإنفاق والتضامن المالي في السراء والضراء وبالتآخي في المعاملات كظماً لدواعي الغيظ وعفواً وبالخلق الذي يتجاوز الإصرار على الفعل الفاحش أو اللمم الظالم للنفس بل يذكرُ الله استغفاراً ورجاءًا لجزائه الخالد. إن عبرة التأريخ وسننه العالمية لمصائر الكاذبين بالدين ينبغي تحريها . وإن بيان القرآن لهدى بتعاليمه وموعظة بقصصه للمتقين الصادقين في صراعهم مع أولئك الكاذبين.

إن خلق المسلمين الصبر ولو دالت عليهم الهزيمة في معركة جهاد ، ألا يوقعهم ذلك نفسياً للهوان في علاقاتهم الخارجية والحزن فهم الأعلون بالإيمان. وإذا مستهم حالات قروح وجروح في المعركة فليتذكروا ما يمس العدو المقابل من أذىً مماثل. وسنة الله أن يداول الأيام ويجاول السراء والضراء لاختبار الذين آمنوا وقد يصدقون ويسقط منهم من يتخذهم الله زلفى شهداء وليس حبا من الله للظالمين الذين قتلوهم . وذلك كله تمحيص للمؤمنين ومحق للكافرين وتأهل للجنة لا بالانتماء للمؤمنين لكن بالجهاد والصبر ولا بتمني الموت في سبيل الله ولكن بلقائه في مشاهد الشهادة.

إن جماعة المسلمين المجاهدة إنما تتحد في سبيل الله لا حول القيادة ولو نبياً. ولئن أشيع أو وقع أن القائد مات أو قتل فالمؤمنون لا ينقلبون على أعقابهم انقطاعاً عن الغيب وعن الله الذي لا يضره المدبرون والذي يجزي الشاكرين له هادياً وحده في الحياة أبداً إن النفوس كلها راعياً ورعية في الدنيا إنما تموت بإذن الله وأجله المحتوم ثم يؤتي الله ثواباً من الدنيا لمن أراد ويحفظه لمن أراده من الآخرة حيث يؤتي

جزاء الشاكرين. وكم من نبي أو قائد قتل في القتال ولكن أنصاره كانوا ربانيين لم يهنوا أو يضعفوا أو يستكينوا بفقد القيادة ، بل بقوا في حب الله صابرين سائلينه تعالى المغفرة والثبات والنصر على الكافرين فآتاهم الله عاجل الثواب وآجله.

إن المؤمنين في دولتهم لو انتصر عليهم الكفار في معركة ينبغي ألا يهنوا ويطيعوهم لئلا يردهم ذلك إلى الوراء ويسقطهم في الخسران. الله وحده مولى المسلمين وخير ناصر فله الطاعة ومنه الرجاء وهو الذي يقذف في قلوب الكافرين عند القتال الرعب لأنهم يشركون به مولى بغير سلطان آوين بظلمهم إلى بئس المصير. إن الله يصدق وعده للمؤمنين المجاهدين بالنصر ليحسموا الكفار، كما جاءت الموعظة في قصة معركة أحد . يلوح للمؤمنين في الجهاد النصر إلا أن تطرأ فيهم علل الفشل والتنازع على المغانم والعصيان للنظام وتختلط بينهم المقاصد فينصرفون عن العدو منهزمين بالفوضى مدبرين عن محور القيادة ثم تغشاهم هموم تغمر أحزان الفقد والمآسي ويختلف بينهم حال الأمنة للبعض وحال القلق لآخرين يظنون الجاهلية وأماني النفوس والأحاديث الخاصة أن لو كان أمر القيادة بيدهم لما تورطوا في موقع المقتلة. إن قدر القتل لله يقع على المقتول أينما كان. وإن المعارك ابتلاء للمؤمنين يتجلى فيها ما يغشى نفوسهم وما قد يطرأ فيهم من الفرار استزلالة شيطان بسيئ كسبهم ، لكن الله الغفور الحليم يعفو بفضله عن كل حال المؤمنين.

إن على المؤمنين ألا يكونوا كالكفار يعلنون حسرة على إخوانهم الموتى سفراً أو غزواً أن لو كانوا عندهم ما وقع عليهم القدر. إنما الإيمان أن مغفرة ورحمة عبر الوفاة في سبيل الله خير مما تجمع كل حياة الدنيا، وأن الناس كيفما انتهى أجلهم محشورون وراء الدنيا ليوم الحساب.

إن خسران معركة جهادية ينبغي كذلك ألا تأخذه القيادة ملامة لقاعدة المقاتلين ومن ثم تغلظ عليهم فظاظة أو تعزلهم عن تدابير المعارك بل ينبغي إبداء الرحمة والعفو نحو القاعدة والتضامن معها بالشورى في حركة الجهاد ومن ثم عزم القرار والتوكل على الله الذي يحب المتوكلين فإذا نصرهم لا غالب لهم وإلا فلا ناصر بعده ثم ليس للمقاتلين أن يجنحوا إلى سوء الظن بالقيادة أن ربما تتصرف غلولاً بالغنائم فيفسدون بالطبع ترتيب المدافعة ويقلبوها هزيمة. إن الأولى بالمؤمنين إحسان الظن بالقيادة إيماناً بأن الكسب الحرام مغنماً توفى كل نفس حسابه يوم القيامة وأن المتبع لرضوان الله أمانة وصبراً والمتبع سخطه درجات شتى عند الله البصير، إن ظنون السوء في معركة أحد صُوبت حتى نحو القائد النبي الذي كان منّةً من الله على المؤمنين يتلو عليهم الآيات ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة بعد الضلال ، والمؤمنون أولى دائماً أن يثقوا بالقيادة والنظام ويقدروا فضل الله فمن ذلك من أن تراودهم الظنون والأطماع.

إن المصيبة العسكرية مهما كان وقعها ينبغي أن يقرأها المؤمنون في سياق التجارب فلربما سبقها نصر أكبر ، وأن يراعوا أنها ليست قدراً سدىً بل هي من قصورهم ، فالله القادر يقدرها ليميز فيهم المؤمنون

حقاً والمنافقين الذين ينادون للقتال أو الدفاع فينصرفون عن الصف منكرين الخطر كاتمين موقفاً أقرب للكفر من الإيمان قاعدين عن النفير للجهاد مدعين من بعد تعذراً أن الشهداء لو أطاعوهم ما قتلوا ولكنهم لا يدرأون قدر الموت عن أنفسهم.

ليس للمسلمين بعد معارك خاسرة أن يعدوا المقتولين موتى خسارة بحساب الدنيا، فقد كانوا على كلمة الشاهد بالإسلام فصدقوها بفعلة الشهيد فداء بحياتهم في الدنيا، فهم أحياء عند ربهم في ملأ أعلى يرزقون طيباً وهم بفضل الله يفرحون، وعن بينة يستبشرون بالمجاهدين من خلفهم ألا خوف ولا حزن في العاقبة ، ويوحون إليهم بالأسوة أن يلحقوا بهم على طريق الجهاد والاستشهاد في سبيله نعمة من الله وفضل من الله، وأن يستجيبوا لنداء النفير طاعة لله وللقيادة ولو أغرت الواقعة الخاسرة العدو ليجمع عقبها قوته لاستئصال المسلمين . إن في الاستجابة بعد قروح الهزيمة إحساناً وتقوى وأجراً من الله عظيماً لاسيما إذا غزت الدعايات بأخبار الحشد المعادي وبالتخويف من خطره ذلك أن المؤمنين يعلنون عندئذ صابرين أن حسبهم الله ونعم الوكيل وله تكون العواقب لا سوءاً بل نعمة وفضلاً من الله ورضواناً أن مثل تلك الدعايات إنما مصدرها الشيطان يخوف أولياءه لكن المؤمنين يوحدون الخوف نحو الله وليهم وحده.

ترتيل المعاني: الآيات 177-188

وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{176}

الخطاب للرسول ﷺ ولصحبه المؤمنين المحتسبين لله وحده المتبعين رضوانه لا يخافون غيره ألا يحزنهم الذين انتكسوا بالهزيمة في أحد الذين يسارعون في الكفر ارتداداً وتوالياً يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة – كما سيأتي في سورة المائدة* – وذلك في مقابل الذين استجابوا لله وللرسول مسارعين إلى التقوى، كما في الآية السابقة* ، مسارعين رغم القرح بعد أحد، فالمسارعين للكفر نحو المشركين المنتصرين إذ فتنتهم

* الممائدة الآية 22.
* نفس السورة الآية 133

هم الهزيمة في أحد، الحق أن لن يضروا الله ودينه بذلك شيئاً بل إن الله يسَّرهم للعسرى بسبب نفاقهم فسارعوا ردة للكفر ومضت عليهم إرادته ألا يجعل لهم حظاً من النعمة والفضل في الآخرة ولهم عذاب عظيم جزاء ما كسبوا في الدنيا.

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{177}

كل الذين اشتروا الكفر مسارعة إليه بالإيمان مهاجرة منه – أمثال السابق ذكرهم – لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم. وتأكد الحكم السابق بحكم أعم، مزيد طمأنة لقلوب المؤمنين الذين استشعروا خسران ما قتل من شهدائهم في أحد، ثم استشعروا الخسران المبين لهؤلاء الذين ارتدوا للكفر.

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{178}

الآيتان السابقتان تذكرة للمؤمنين في شأن الذين كفروا أما الذين كفروا من المشركين أنفسهم فينبغي أن لا يحسبوا بتقديرات خاطئة رائجة فيهم أن ما يملي لهم الله إمهالاً وتركاً بعودتهم منتصرين هو خير لأنفسهم، فليس ذلك الإمهال إلا ليزدادوا إثما على إثم شركهم. لهم في آخرة الوجود بعد إملاء الدنياء عذاب مهين. فكفاءً لغرورهم بالقوة والفخر الفاني بعد مثل أحد يجازون بالهون والذل الخالد في الآخرة.

مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ{179}

من الصبر والحكم لمجتمع المؤمنين بعد معركة أحد أن الله ما كان ليدع المؤمنين على ما أنتم عليه بلا ابتلاءات واختبارات من انتصار أو انكسار في الجهاد ومن صبر أو ارتداد بعد ذلك حتى يقع، فيميز الله عندئذ بصور المواقف في الدنيا وبمصير أصحاب الخبائث المنافق المتظاهر المسارع إلى الكفر بعد الفتنة في الآخرة، من الطيب المؤمن الصادق المصابر المسارع للاستجابة بعد البلاء وكذلك يلتفت الخطاب للمؤمنين الذين امتازوا وما كان الله ليطلعكم ويكشف لكم الغيب بمصائر الناس عند الحساب في اليوم الآخر من سينتهي إلى نعمة وفضل ورضوان ومن إلى عذاب عظيم أليم مهين. ولكن الله يجتبي ويختار فيكم من رسله من يشاء ليتلو عليكم آيات الله ويعلمكم كتابه وحكمته في ابتلاءات الدنيا ومعايير الحساب الآخر لمن النعيم ولمن العذاب حسب الكسب في الاختبار بعد التكليف فآمنوا بالله غيباً وآمنوا برسله وما في رسالاتهم إليكم من بيان الغيب، وأن تؤمنوا بذلك وتتقوا الله وفق موعظة رسالته في مذاهبكم ومواقفهم في الدنيا فلكم أجر عظيم في غيب الآخرة.

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{180}

في سياق وصية المؤمنين بأن يتميزوا طيبين بالإيمان بالله ورسله ولا يفرقوا بينهم فينقطعوا عن آخر الرسالات منذ إبراهيم، يوحي في المجتمع المدني وأهل الكتاب من اليهود وخاصة في مواقفهم إزاء المسلمين بعد غزوة أحد وخسارتها إذ يتمايزون عنهم ويبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ثروة مالية ظاهرة ألا يحسبوا أن ذلك خير لهم بل هو شر لهم فكما لم يكن الإملاء بالنصر خيراً للذين كفروا والمشركين بل مزيد إثم نحو العذاب ليس بخل هؤلاء بما آتاهم الله أن يناصروا به المسلمين الذين هم بوثيقة عهد المدينة أمة واحدة في الحرب والسلم* وأن يؤثروا توفير أموالهم لتمكين سيطرتهم الاقتصادية في المدينة على المسلمين لاسيما بعد انكسارهم في أحد- ليس ذلك خيراً لهم كما يظنون بل هو شر لهم يزيدهم إثماً إذ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة سبباً للعذاب بمثل عملهم في الدنيا بخلا وتطويقا للمسلمين بالحاجة ولله ميراث السموات والأرض يخلف ويستخلف ما شاء المال الذي يحوزه ويبخل به اليهود لله وإليه راجع يكتبه لمن يشاء والله بما تعملون بخلاً خبير محيط يجزي به يوم القيامة والآيات تصل ما سبق في أواخر السورة ووسطها أن الذين كفروا من أهل الكتاب لن تغني عنهم أموالهم شيئاً ومصيرهم نار (الآية10- والآية 116) والعبرة للمؤمنين ألا يبخلوا بالإنفاق في سبيل الله كما يفعل أهل الكتاب.

لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ{181}فضحاً لخلق البخل عند اليهود تذكر الآية أن الله سمع قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء حيثما سمعوا وصية القرآن بإقراض الله مما يخلف الناس من مال أو علموا حاجة المؤمنين بالله في المدينة وهم أغنياؤها وسيكتب الله وكل رقيب من ملائكته ما قالوا إزاء النبي والمؤمنين وقتلهم الأنبياء من قبل بغير حق ويقول وكل عتيد من ملائكته يوم القيامة ذوقوا عذاب الحريق.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ{182}

يقول لهم الله ذلك الذوق لعذاب الحريق بما قدمت أيديكم في الدنيا من كفر وبخل على النبي الخاتم ﷺ ومن ظلم قبلا للأنبياء ، فالله ليس بظلام لعباده وإنما يجازيهم كفاء بما كسبت أيديهم فليسوا هم بأحبائه المؤثرين كما يقولون فالعذاب ليس ظلماً لهم بل عدل بما قدموا فعلاً.

الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{183}

أولئك اليهود هم الذين اشتدت حملاتهم على المسلمين بعد هزيمة أحد وروجوا في ذلك المناخ دعايات كفرهم وشكهم في نبوة محمدﷺ بعد أن ألجم انتصار بدر ألسنتهم لبعض الوقت قاموا يطالبون برهاناً من الرسول ﷺ بالمعجزات والخوارق كما فعل سلفهم مع الأنبياء يدعون أن الله أوصاهم وعهد إليهم في كتبهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تتنزل عليه نار تأكله ولكن أُوصي الرسول بأن يرد

* مراجع - وثيقة عهد المدينة بين السيرة.........

على زعمهم بأن قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات التي سألتموها فلم كذبتموهم وقتلتموهم كما جرت سنتكم إن كنتم صادقين أن الآية المعجزة شرط هداية لكم إلى الإيمان.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ{184}

عزاء وتسلية للرسول ﷺ في وجه حملة أهل الكتاب هؤلاء بعد هزيمة أحد وتشكيكهم في أن إن ذكرتهم فكذبوك فاذكر أن قد كُذِّب رسل من قبلك جاءوا بالبينات من الخوارق لنواميس الله في الكون وجاءتهم الآيات البينة المتلوة في زبرٍ متفرقة ومجتمعة في كتاب منير هو التوراة والإنجيل ولكنهم ظلوا يكذبون الرسل فلا تحزن على مذهبهم من القرآن.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ{185}

تتوالى العبر في سياق ما بين المسلمين ومن حولهم بعد معركة أحد فلئن أصاب المسلمين في حساب المشركين واليهود نصيب كبير من الموت بعد شهداء أحد فذلك قدر عام كل نفس ذائقة الموت لأجل محتوم، وبعد ذلك اليقين الخطاب للناس كافة: إنما توفون أجوركم يوم القيامة. ومناط الأجور يوم القيامة ما قدمت أيدي الناس فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز منسوباً إلى الآخرين وليس الفوز في الغلبة والنصر عرضاً في معارك الدنيا كما أملى للمشركين ولا في أموال الدنيا كما يحسبها اليهود خيراً فكل ذلك إلى زوال وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور قد تفتن الإنسان وتشبع غروره بكسبها الزائل وإنما الفوز لمن كسب الخير الخالد في الجنة بُوعد عن العذاب الأشقي الأبقى في النار.

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ{186}

تذكير للمسلمين في المدينة أن قدر ابتلائكم حقاً ممن حولكم في أموالكم وأنفسكم، فلا تغتروا بمتاع الدنيا فيفتنكم نقص الأموال والغنائم أو يحيط بكم البخل من الواهمين أن الله فقير وهم أغنياء ولا حب الحياة في الدنيا للأنفس فتفتنكم كثرة الشهداء في القتال فالموت من الدنيا حق تذوقه كل نفس. وقدركم في الابتلاء حقاً أن تسمعوا من الذين أوتوا الكتاب والمشركين حولكم أذى كثيراً كالذي أصابكم في معركة أحد بالسلاح وبعدها باللسان وأن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ينهض بأمركم في معارك القتال وبه مهما اشتد البلاء بالأموال والأنفس وكثر الأذى من بعد.

وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ{187}

تذكير للمسلمين المبتلين ببخل وتكذيب وبأذى كثير من الذين أوتوا الكتاب وسابقتهم عندما أخذ الله ميثاقهم وعهدهم أن يبينوا حقا ذلك الكتاب للناس إيضاحاً له بأقوالهم دعوة وبأعمالهم أسوة ولا يكتموه أبداً فخانوا عهد الكتاب فنبذوه وتركوه وراء ظهورهم حجباً لنوره وهجراً لهداه في الحياة تأريخاً

وراءهم دون الوفاء إيمانا بعد بالنبي الذي بشروا به وبالقرآن المصدق للكتاب ونكثاً للميثاق واشتروا به ثمناً قليلاً من اتِّباع الغيرة والحسد وإيثار المصالح العاجلة فبئس ما يشترون من قليل متاع الغرور في الدنيا صدوداً عن الفوز بكثير نعيم الآخرة والآية بعد خواتيم قصة معركة أحد وعبرها وبعد آثارها في ابتلاء المسلمين بمن حولهم من أهل الكتاب تصل الأمر رجوعاً إلى ذكر أهل الكتاب في السورة قبل ذكر غزوة أحد وكتمانهم للحق وخيانتهم لميثاق الرسالة الموصولة وأذاهم للمسلمين وإيثارهم قليل متاع الدنيا . كما سبقت الآيات في أول السياق *

لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{188}

الخطاب للنبي ﷺ وصحبه أو على قراءة أخرى (لا يحسبن) فالخطاب لأهل الكتاب من يهود المدينة – حقاً لا تحسب أو لا يحسب أهل الكتاب الذين يفرحون ويغترون بما أتوا من بخل وتكذيب وأذى ومواقف عصبية ضد المسلمين، لا يحسبن – أولئك – الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا كما يدعون تَمَنِّيَاً لا عملاً صالحاً أنهم أبناء الله وأحباوه ولا يقبلونه من محمد فاعله ومحبة لله من أتباع محمد ﷺ بل يحبون الحمد بالانتساب إلى الكتاب وتقاليده ولا يوفون بميثاقه أولئك لا يحسبنِّ أنفسهم أولا تحسبهم حقاً بمفازة من العذاب بل لهم عذاب أليم.

عموم المعاني الآيات:176–188

إن المجتمع – لاسيما – في نزع إيمان وولاء ، انتقالاً من جاهلية إلى إسلام لله، عرضة بأي تجربة قتالية خاسرة –كما جرى للمسلمين في المدينة بعد أحد أن ينفتن البعض بالدائلة الظاهرة فيسارعون في الكفر . عندئذ ينبغي للقيادة والرعية المسلمين في المجتمع أن يصبروا ولا يحزنوا فإن أولئك المتولين عن الله وغير المؤمنين به لن يضروا الله ولا المؤمنين شيئا. بل إن الذين اشتروا الكفر إيثاراً للعارضة وباعوا الإسلام هجراً للآجلة لن يضروا بتلك الصفقة الدنيوية إلا أنفسهم، فقدر الله فيهم بسوء كسبهم ألا يكون لهم حظ في الآخرة كالمؤمنين المجاهدين الصابرين، بل لهم فيها العذاب العظيم. ولا يحسبن أولئك الكافرين أن ما قدر لهم مما يؤثرون في الدنيا إمهالا أو إرجاءً بنصر مؤقت هو خير بحساب الآخرة بل يزيدهم إثما غروراً بكفرهم وعلى المسلمين نحو عذاب مهين.

إن مكاره الأحداث والمآسي النازلة على المسلمين لله فيها حكمة ألا يذر مجتمعهم مرتبك المعايير مختلط الوجهات بل يعرضه لابتلاء وتمحيص يتميز فيه الخبيث من الطيب . وما كان ليطلع المؤمنين على

* راجع -(الآيات 71-81--111)

غيب اختلاف المصائر فحكمة الله أن يختار فيهم رسولاً برسالة فيها معايير الآخرة حيث يتميز المؤمنون المتقون فيها بأجر عظيم.

إن من حول قومة المسلمين أهل الرسالات والكتب القديمة الذين كسبوا بفضل الله ثروات في تأريخهم كاليهود في المدينة قديماً أو الكتابيين جميعاً في الغرب اليوم لكنهم يتصفون بالبخل لتكتنز أموالهم وتزيد ما يكون لهم أن يحسبوا ذلك خيراً بل هو شر إذ يطوقون قدر بخلهم أثقالاً في حساب العذاب يوم القيامة، وما يكون لهم أن يحسبوا أنهم يحتكرون الثروة أبداً فلّله ميراث السموات والأرض يختص بالثروة من يشاء. إنَّ في تراث أولئك أنهم ينسبون الفقر لله وللدعاة إليه والغنى لأنفسهم بل قتلوا الدعاة الأنبياء ليُجْزوا في الآخرة عذاب الحريق، ولم يرثوا من دينهم إلا العصبية فلا يعترفون بالدين المتجدد إلا ببرهان من خوارق الطبيعة كما عهدوا قديماً، لكن جاءهم بذلك أنبياء فقتلوهم بغير حق وليعلم لذلك الداعية المسلم على سنة النبي ﷺ أن تكذيب دعوته للتجديد سنة جرت من قبل لمن جاءوا بالآيات والكتاب المنير.

كل نفس في العالم ذائقة الموت لتوفى حسابها يوم القيامة فمن زحزح عن النار وعذابها وأدخل الجنة وأجرها فقد فاز وما الحياة الدنيا قوة أو ثروة إلا متاع الغرور.

إن الحياة دون الموت كلها ابتلاء وإن المؤمنين في مجتمعهم لممتحنون دائماً في أموالهم وأنفسهم أن تصاب ولمبتلون بالأذى كثيراً ممن حولهم من أهل عصبية الكتاب القديم ومن المشركين بالله مقاصد الدنيا الكافرين بغيب الآخرة ، فإن صبر المؤمنون على البلاء واتقوا في سلوك حياتهم فإن ذلك عزم لا غرور بالدنيا . إن العبرة في ذكر ميثاق الدين لأولى الكتاب السابق ان يبينوه للناس كافة ولا يكتمون حقه، فقذفوه وراء ظهورهم تراثا لا دليلاً للحياة، واشتروا بهديه وشرعه ثمناً قليلاً من كسب الدنيا فالمسلمون خلفاً من بعدهم مبتلون كذلك هل يبلغون كتاب الدين ويصدعوا به للعالم أم يهجروه أوراقاً وأصواتاً مقدسة وأن يبدلوا هديه بأهواء الدنيا وغرور كسبها القليل. ولا يحسبن أهل الدين الذين يفخرون ويفرحون بما أتوا من كسب ماض ولا يتقدمون ويحبون أن يحمدوا بما يقولون شعارات ولا يفعلون – لا يحسبن أنهم بمفازة من عذاب الآخرة الأليم فعلى المسلمين بعد سالف أمرهم أن يقبلوا على المجاهدة الحاضرة في سبيل الدين وأن يزكوا بعد القول بالعمل الصالح، وذلك صبراً وتقوى وعزماً في وجه البلاء وأداء رسالة الدين وأمانته وبيعاً لأنفسهم لله ولدنياهم للآخرة.

وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{189} فصلت السورة مذاهب أهل الكتاب والمشركين ومواقفهم نصارى ويهود من رسالة الإسلام توحيداً وتصديقاً للكتاب منذ إبراهيم ومن المسلمين مجادلة للنصارى في عيسى عليه السلام ومعاملة لليهود بأموالهم وسلطانهم في المدينة ومقاتلة للمشركين وقوتهم في أحد وهنا نحو ختام السورة يثبت معنى التوحيد – كما في مستهلها – فللّه ملك السموات والأرض – لا إله إلا هو يخلق في الأرحام كما يشاء يؤتي الملك وينزعه كما يشاء ويرزق الأموال من يشاء ومعنى المقدرة والله على كل شيء قدير هو الحيّ القَيُّوم يصيب من يشاء وينصر من يشاء.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ{190}

يتجلى سياق التوحيد توحيد الله لا إله إلا هو الحيّ القَيُّوم بذكر خلق الله للسموات والأرض، فالذي خلقها يملكها وحده ويتصرف فيها بقدرته مغلباً دورة حركتها فيتخالف ويعاقب الليل والنهار، وفي ذلك آيات ودلائل لأولى الألباب الذين يتفكرون في خلق الكون وحركته ويتأملون، وتنفعل قلوبهم بأن وحدة نظام الكون آية لوحدة الله وحق رسالته توحيداً بين عالم السماء وعالم الأرض حياة موحدة عبادة للخالق وحركة الكون وتعاقب دورته آية على تخالف عالم الغيب في الأزل كالليل ثم خلق الإنسان ونزوله إلى عالم الشهادة كالنهار، ثم تدور دورة الحياة الآخرة في عالم الغيب بناء على ما كسب من قبل.

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{191}

أولو الألباب – من آيات الكون المخلوق المنتظم المتحرك – يذكرون الله باللسان والجنان حيث هم نهارا وليلاً قائمون في مناشط الحياة قاعدون في معاملاتها كذلك وعلى جنوبهم راحة وتهيؤاً للمنام ويصلون هذا الذكر بالتفكر في آيات الله المنبثة مدى السموات والأرض وعلاقاتها وتقلباتها ويهديهم هذا للتفكر إلى الإيمان بأن الله لم يخلق هذا الكون وأبعاده ونظامه ودورته غيباً وشهادة لم يخلقه باطلاً دون غاية أو مغزى حق فالله سبحانه وتعالى عزيز حكيم منزه عن الباطل العبث. بل يهديهم تذكرهم وتفكرهم أنهم خلقوا يمتحنون بالدوافع والضغوط في الحياة في بيئة الكون حولهم وبالآيات العادية لهم في الكون وبالآيات النازلة وحياً من السماء: هل يؤمنون بالآيات ويصدقون إيمانهم بحياة لا تفتنهم فيها امتحانات عالم الشهادة فيسألون الله آخرة في عالم الغيب أن يقيهم عذاب النار، إن كانوا من المتذكرين

المؤمنين لا الغافلين عن الآيات الكافرين في الحياة ويطرقهم الخوف قبل الرجاء لأن التذكر والتفكر نفي للغفلة والباطل أولاً والإيمان انتهاء عن فتنة الشرك والكفر في امتحان الحياة أولاً وذلك يصوب نحو الدعاء خوفاً من النار أولاً.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ{192}

أولو الألباب من المؤمنين الخائفين مصير النار الداعين الوقاية منها يقولون لله ربنا إنك مَنْ تدخل النار فقد أخزيته فلا تخزنا عن المصير وأنه ما للظالمين من أنصار يقونه من النار يوم القيامة ولذلك فوحدك نصيراً فلا نتجاوز حدود دينك ونظلم كفرا بآياتك في الكون والكتاب أو حياة في ظلمات الكفر وهذه مقولة دعاء في سبيل الله للمؤمنين حقاً بالموت والجزاء يوم القيامة في مجتمع حولهم فيه المشركون واليهود كافرين بالغيب ظالمين في الحياة متناصرين فيها دون الله.

رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ{193}

أولو الألباب يرفعون إلى ربهم أنهم سمعوا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فلم يصموا عنه آذانهم ولا وجدانهم غفلة ولم يصدوا عنه عصبية بسالف من المرسلين بل استجابوا فآمنا وسألوا الله أن يستجيب لتجاوبهم مع الرسول المنادى ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا يقدمون دعاء التطهر مما سلف قبل الاستجابة والإيمان مسحاً للذنوب وستراً بالغاً أو تكفيراً للسيئات من الأعمال وإذ كانوا يؤمنون بأن كل نفس ذائقة الموت سألوا الله أن يتوفاهم مع الأبرار أهل البر والخير لا مع الظالمين.

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ{194}

يتصل دعاء أولى الألباب المتذكرين المتفكرين ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك من الأجر بالجنة والرضوان للمؤمنين ولا تخزنا يوم القيامة بدخول النار للظالمين وذلك بأن تيسر لنا اليسرى إيماناً ونعمل صالحاً ويحق لنا وعدك الحق إلا تيسر لنا العسرى بكفرنا وظلمنا فنستحق الخزي يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد واليوم الذي بشر به رسلك وما أنذروا جميعاً، الرسول الذي سمعنا نداءه فآمنا وكل الرسل الذين لا نفرق بينهم.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ{195}

يتصل سياق شأن الموحدين الذاكرين المتفكرين الداعين لله أن يقيهم الخزي ويؤتيهم الوعد الحسن، يتصل بما ترتب عليه كسبهم من استجابة فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم ،إلا الذين

يقصرون الدين على خواطر التفكر وكلمات التذكر ثم التمني والدعاء بل يصدقون إيمانهم بأن يفعلوا ما يقولون عملاً صالحاً لا يريدون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بل أن يؤجروا بالإيمان والقول والعمل الصالح وسواء كان ذلك منهم ذكراً أو أنثى فبعضهم من بعض ومهما كان الجاهليون يظلمون الأنثى والكتابيون يرهنون مقامات التدين العليا للذكور ، فإن الله يسوى خلقه وآيات ذلك أن بعضهم من بعض تتحد الذكورة والأُنوثة في نفس واحدة كالأولى ليتوالدوا ذكوراً أو إناثاً وللأنثى دور في الحمل والرضاع تبدي أن الذكر المولود منها والله يساوى البشر حتى يتمايزوا بالإيمان والعمل الصالح. وذلك حسب الكسب مما ابتلى بتكاليفه الذين تنزلت عليهم كلمات الاستجابة من الله في هذه الآية في المدينة: فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم صدقاً بالإيمان لم تفتنهم ابتلاءات الضيق من أهلهم وفي وطنهم فهجروا ذوي القربى وقبلوا الإخراج من ديارهم في مكة في سبيل الله وأوذوا في سبيله حتى في المدينة ممن بسط فيها نفوذه منافقاً أو يهودياً يؤذيهم بالكلام والكيد ثم اشتد عليهم في المهجر الابتلاء فقاتلوا دفعاً للفتنة وسلامة أموالهم وديارهم ونفوسهم، وقتلوا في سبيل الله شهداء مدافعة وجهاداً لاسيما بعد معركة أحد التي انبسط ذكرها في هذه السورة – أولئك يقول الله ومن أصدق منه قيلا أن سيراعي لإيمانهم وعملهم وصبرهم ويستجيب لدعائهم حقا وسيكفر عنهم سيئاتهم كما دعوا وسيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم القيامة وذلك ثواباً وجزاءاً من عند الله فما من أنصار يومئذ وما ذلك الثواب إلا رحمة من الله لأن الإيمان والعمل الصالح إنما هو شكر ووفاء لحسن جميل الله الخالق الرازق الهادي في الدنيا فالثواب عند المثاب إليه فضل من عنده والله عنده حسن الثواب من جنات بالغة النعيم ومرضاة منه أكبر.

لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ{196}

الخطاب للرسول ﷺ وهو في قيادة المؤمنين المتفكرين المتذكرين العاملين المجاهدين المصابرين ولصحبه أولئك ألا تغرهم قطعاً انتصارات الكافرين وتقلبهم في البلاد في غالب الجزيرة العربية لاسيما بعد غلبهم في أحد. ذلك تحرير من وطأة الهزيمة وتطهير من فتنة الكفر إلى عزيمة الإيمان والتوكل والجهاد في سبيل الله حتى يلقوا نصر الله في الدنيا أو وعده يوم القيامة.

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{197}

ذلك التقلب في البلاد متاع قليل لأنه محصور على إشباع شهوة الغلبة مقصور الأجل على الدنيا الزائلة عن قريب ثم بعد القلة مأواهم ومسكنهم جهنم التي يفضي إليها ذلك المتاع وبئس المهاد بعد الزهو والاستعلاء بمقامات الغلبة.

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ{198}

ذلك مصير الذين كفروا المتقلبين في الدنيا غلباً وغروراً متصلاً لكن الذين اتقوا ربهم وكانوا في زمرة المؤمنين مهما كان نصيبهم من البلاء ووضعهم في الدنيا لهم مصيراً في الآخرة لهم جنات تجري من تحتها

الأنهار خالدين فيها نزلاً كريماً من عند الله – لا كمتاع الدنيا الزائل – مقابل المهاد البئيس الذي جعله للكافرين وما عند الله خير للأبرار الزمرة التي دعا المؤمنون ربهم أن يتوفاهم فيها كما سبقت الآية. *

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ{199}

الخطاب للمؤمنين أن من أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم في صدور السورة وأذيالها حقاً مَن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم فيدخل في زمرة المؤمنين موحدين الرسالة والكتاب لديكم وقبلاً لا يفرقون بين المرسلين، خاشعين لله مع المتقين لا يشترون بآيات الله ثمناُ قليلاً لا كإخوانهم ناكثي الميثاق كاتمي الكتاب ، كما سبقت الآية* ، الذين أثروا بعهد الله المتاع الدنيوي القليل والمصالح العاجلة والأموال في المدينة أولئك المؤمنون الخاشعون منهم لهم أجرهم عند ربهم والله سريع الحساب لا يعجزه أن يجمع أمرهم عن سالف الإيمان بالكتاب ويخالفه صبراً على دواعي العصبية وخالفه فيؤجره مرتين* كما في سورة القصص، وإن يحسب لهم أجر الخشوع لله لا الخضوع لفتنة المال في الدنيا ثمناً قليلا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{200}

ختام السورة تنبيه وخطاب للذين آمنوا أن اصبروا على كل البلاء مجادلة وأذى من حولكم من أهل الكتاب ومن المنافقين وأن صابروا في وجه من يقاوم صبركم عدواناً ومقاتلة فجاهدوا ودافعوا خطر غزو المشركين في بدر أو أحد ومن بعد وأن رابطوا في مقاعد القتال وثغور الجهاد وحدود المدينة والإسلام ألا يغزوكم العدو وألا تسارعوا انفلاتاً إلى الكفر وأن اتقوا الله حيثما ابتليتم بشهوات الأموال والثروات وبفتن الفرقة بدواعي القديم وبدواعي الهزيمة أو النصر في الجهاد . وتواتر ذكر الصبر والتقوى على الكيد والعدوان والبلاء ذكره في السورة الآيات (120،125،186) على الشهوات والجهاد وفقد القيادة وكذلك ذكر الصابرين الآيات (17،112،146) وتواتر أيضا ذكر الوصية بالتقوى والمتقين صبراً على فتن الشهوات والعصبية والجهاد يبشر الله المؤمنين في خاتمة سورة آل عمران وبعد أن ابتلاهم في المدينة بمجادلات أهل الكتاب يهوداً ونصارى وبمجاهدات المشركين نصرا وأسراً في بدر وانهزاماً واستشهاداً في أحد – تكامل البلاء في المدينة لعلهم بالصبر والمصابرة والتقوى يفلحون في خواتيم الدنيا والآخرة.

عموم المعاني الآيا ت200–189

سورة آل عمران تنزلت في السنوات الأولى لمجتمع المدينة المسلم وكانت بيئة دينية كتابية فيها سطوة ثقافية ومالية يهودية وتتداعى إليهم حيناً دعوة نصرانية عقائدية وأهل الثقافة الكتابية كانوا يجادلون المسلمين دون الوحيد والتجديد ويعاملونهم دون السواء والوفاء وكان مجتمع المسلمين في بكرة نهضته

* راجع الآية 193 . نفس السورة .
* راجع الآية 187 . نفس السورة
* سورة القصص الآية 54.

يجاهد لتستقل وجهته وتتعاصم شعابه وتتزكى أخلاقه ومعاملاته ، لكنهم يتعرضون وراء النفوذ الديني الكتابي للهجوم الجاهلي الإشراكي العربي يريد أن يهدم بنية دولة الإسلام بالعدوان ومن ثم يجاهدون فتن القتال لاسيما صدمات الهزيمة في معركة أحد لكن المجتمع يصبر ولا ينهدم وتلك عبرة لكل مجتمع مسلم متجدد في كل القرون وفي العصر الحالي . وكما أتى ختام آل عمران آيات تزرع جملة أصول الدين لابتلاءات ذلك المجتمع لأول عهده ، تأتي خالدة لتمكين تلك الأصول في كل مجتمع مسلم ناهض جديد محاط بالابتلاءات والأوضاع الدينية والعرفية من حوله في عالم اليوم.

الأصل الأول هو التوحيد لله المالك الخالق لكل الوجود سماوات وأرض القادر على كل حركته في دورة الزمان ليلاً ونهاراً وتلك الطبيعة آيات يتجلى فيها الله فيذكره ذوو الألباب من البشر في كل حركاتهم وأوقاتهم من الحياة مؤمنين غير غافلين عن الغيب ويتذكرون فيتفكرون أن خلق الكون بهذه السنن ليس باطلاً فكل أشيائه المشهودة بطبعها طائعة لأقدار الله، والإنسان ينبغي أن يتحد معها طائعاً لله خياراً وهو مسئول آمل إلى أزل الآخرة والجزاء إذ يقوم مع الأشياء في سلام إن كان في دنياه مثلها ومعها، في آلام إن كان عاصياً لله ظالماً لما حوله. فأولوا الألباب يتذكرون ويتفكرون ويتعبدون لله سائليه أن يوفقهم إلى ما يقيهم عذاب الآخرة وخزيها ولا يجعلهم في زمرة الظالمين . وهؤلاء لا يبنون دينهم على تدبر آيات الطبيعة وهواديها ليس إلا بل يستمعون أيضاً لآيات الله المنزلة على رسول بكتاب فيؤمنون بها سائلين الله في حياتهم أن يطهرهم من الذنوب ويكفر السيئات وأن يكونوا مع سائر المؤمنين الأبرار جماعة في سبيل الله ليؤتيهم وعده في الآخرة.

والأصل الثاني أن استجابة الله لهذا التوجه ذكراً ونظراً وإيماناً ودعاء إنما يتم إذا صدقت النيات والأقوال بالأعمال حتى يستكمل الإنسان كل قدراته شمولاً لحياته لله القادر شمولاً على العالم . وإن الاستجابة لعمل كل إنسان بر ذكراً أو أنثى سواء لا بتمايز كما يعتل فهم الدين للكتابيين وللمسلمين. وأبلغ الاستجابة لأبلغ الأعمال هجرة في الله من الديار مقاومة لحب الوطن بالحب الغالب لله وطريقه أو احتمالاً للأذى أو التعرض للقتال والوفاة استشهاداً صبرا وتجاوزاً لطلب العافية وشهوات الحياة ومغانمها في سبيل دفع الباطل ومجاهدته ولو على الأذى ومقاتلته ولو تصديقاً بكلمة اللسان ببذل الروح وتلك استجابة من الله بحسن الثواب تكفيراً للسيئات وإدخالاً للجنات.

والأصل الثالث ألا يبالي المسلمون بتداول الأيام وتقلب الأوضاع يبتلون بها ويمحص صدقهم فينبغي ألا يغرهم تغلب الكفار في البلاد بل هو متاع قليل في الدنيا يأوي بهم إلى بئس المهاد في جهنم وكما يتمايز الأبرار والكفار في الدنيا فالذين آمنوا واتقوا في الآخرة في الجنات نزلاً خالداً . ثم إن من أهل الكتاب على مجادلاتهم العقدية بغير التوحيد ومعاملاتهم بغير الصدق من تحيي فطرة الإيمان فيهم الدعوة فيؤمنون بالله وما أنزل من هدى جديد وقديم ويخشون الله لا يرتعون متاع الدنيا ثمناً قليلاً يشترون بالغفلة

عن آيات الله في الطبيعة والشريعة فهؤلاء أجرهم أن الله سريع الحساب مهما غرت الدنيا باستطالتها واستبطاء أجل الساعة.

والأصل الرابع للمؤمنين أن يصبروا جميعاً على فتنة الشهوة والأذى ويجاهدوا في سبيل الله وأن يصابروا مهما تطاول البلاء ووقعت المصائب وأن يرابطوا على ثغور الدين في حرمة أرضه الطاهرة وفي الولاء لطائفته الطيبة دون الخبيث وأن يتقوا حفاظاً دقيقاً في كل الحياة على حدود الدين رهبة ورغبة لله استقلالاً بالطاعة من فتن المضلين وصلاتهم وتآخياً في أمة بغير فرقة وتعاوناً بغير ظلم وضبطاً لأهواء الغضب والطمع بآثار الصراع بين الحق والباطل . إن التدين إذا تأصل وتمكن وتثبت وانضبط كذلك فإنه طريق الفلاح دنيا وآخرة.

سورة النساء

خلاصة هدي السورة

تنزلت سورة النساء متأخرة زماناً عن السورتين السابقتين البقرة وآل عمران نحو العام الرابع للهجرة وقد تأسس بناء المجتمع المؤمن في المدينة، فمن بعد المولاة والمهاجرة والنصرة أصبحت الأسرة عماداً للمجتمع. ثم اشتد الجهاد وكثر الاستشهاد وتوالى الموت مع مر الأيام وتكثفت أسئلة المسلمين حول أحكام الأسرة والميراث، فتصوب كثيراً من هدي آي السورة للأسرة وتعاملاتها وتوارثها. وهي موصولة بسابقتها مباشرة في ترتيل المصحف، إذ استهلت بذكر التقوى الذي ختمت به آل عمران، وهي موصولة بها في توصيل محاجة أهل الكتاب وتقريع المنافقين وآيات التوحيد والقتال.

لكن سورة النساء فصلت هدي الأسرة المؤمنة تحريراً من ضلال العرف الجاهلي، وقد وردت فيها كلمة النساء أكثر من مثلي ورودها في السورة الأطول الأسبق (البقرة) والتي حوت من آيات وأحكام كثيرة في أول تأسيس المجتمع. وهي تشمل أضعاف ما ورد في السور الأخرى من آيات النساء والأسرة ، وفيها تمام التحرير من التقاليد الجاهلية التي كانت تظلم الأسرة أصلاً وزوجاً ومعشراً وطلاقاً وميراثاً، اتحدت في آياتها شعاب حياة المجتمع وقضايا واقعه، منذ نبتة الانسان الأولى في الأسرة ثم تفاعله تربية وتذكية وتذكيراً مع جملة شئون المجتمع وعدله وحكمه وجهاده واقتصاده، ومع رؤاه ومذاهبه الدينية.

فمن بعد الذكرى للأصل الواحد للبشرية نفساً الأمر بالتقوى مساواة لا تفاخراً وتراحماً لا تهاجراً ذكوراً واناثاً وفي العروق الشعوبية المتكاثرة، عدلاً في المواريث تؤل لورثة الميت جميعاً ذكوراً واناثاً ولمن حولهم قربى والله من وراء أحكامه رغيب على من يظلم الضعيف ولو يتيماً انثى بالزواج، والتقوى على المؤمن أن يبتغي المباح من غيرهن ولو بلغ من الزوجات أربع.

والسورة تقدر الانصبة فرائض مفصلة من الله ليس فيها مجال للتصرف بالوصية ،احكاماً قطعية طاعتها تجزي جنات ومعصيتها ناراً خالدة ،كما هو الشأن في سائر معاملات الأسرة معاقدة ومعاشرة ومفارقة ، وبما لم ينزل مثله لإحكام العقود الاخري في المجتمع تجارة واقتصاداً او حكماً وسياسة .لان الاسرة يلزم ان تتوحد وتتكافل باموالها مطمئنة آمنة من كل غيرة وتخاصم وتحاسد او فتنة ،إذ أنها الاطار الذي ينشأ ويتربي فيه الانسان ويتزكي سنيناً عدداً.

فالحكم الاول في الاسرة هو الحصانة لعقد الزوج والطهارة لعلاقات الرجال والنساء والعقوبة الرادعة اذي لمن يقع في الفتنة ولكن صيانة لاعراض الناس فلا تثبت إلا بأربعة شهداء ، والزوجية عقد عدل ورضي لا تعامل المرأة فيه متاع ميراث ولا تعضل عن حقها المالي والزواج من بعد مصان من وشائج القربي الوثيقة أماً او زوجة أب او بنت او زوجة إبن او تلية اخوة او تحتها او اخوة لوالدية دماً او رضاعة .

إن العلاقات في الاسرة ميزان عدل بين الزوجين واجبات متجاوبة وحقوقاً متكاملة ، فالزوج قوام علي الزوجة بما يؤهله فضله النسبي وفضلها والسلام في علاقات الزوجيين خير لهما وللولد والاهل ، وإن بدر النشوز من المرأة فالزجر والوعظ وإذا افرطت فالهجر في الفراش وإن تعدي للفاحشة فإنما يردعها ولاة الامر جلداً بشروط الحد المعروفة .وإذا وقع الشقاق فالمجتمع يحكم الاهل بعلم الاحوال والضغوط في سبيل تسوية علل الشقاق .

والتقوي منذ مستهل السورة اصل الوصايا علي مفصلات فتنة المال في اسرة الانسان وقد يتزكي فيمتد انفاقاً لاولي لقربي والجيرة والصحبة والحاجة ، والصلاة لا يقربها المؤمنون سكاري او بعد غاشيات شهوة الزوجية حتي يغتسلوا تطهراً بالماء او بالتراب اصل خلق الانسان كالماء ، لان الصلاة الذكر الاكبر للغيب يمد بها تقواه المؤمن ويتزكي ،ويخرج لحياة المؤمنين العامة يماريس قوة السلطان بميزان الحق امانات تؤدي الي أهلها ، وحكماً عدلاً او قضاء يفصل بين الخصومات. اولئك يخرجون من المسلمين عن شوري او يترتبون علي اصلها اويقومون علي مبايعة بشروطها ، ويرد النزاع كله الي حكم الشريعة كما يجمع عليه المؤمنون .

وأهل التراث الديني قد تغشاهم فتنة في اصول السلطان السياسي تؤدي الي كفر صريح بالله ملكاً راعياً للامانات حكيماً بين الناس بشرعه وقد تقود الي نفاق بين الزعم والعمل ،يصد به اهله بعث الدين المتجدد .

كما حدث في المدينة حين تجدد الاسلام، إذ صوب عليه – أيضاً – أهل الدين الكتابي، ونحو محمد (ص) خاصة غيرة وحسداً وما دعى ليطاع إلا بإذن الله لا لذاته هو.

وإذا تمكن المسلمون في الأرض بسلطان تصدت لهم قوى الباطل، وهدي السورة الحذر أول الضرورات دفاعاً عن الاسلام نفيراً عاماً للجهاد وإن ابطأ البعض، فالقتال بيع للحياة الدنيا بالأخرة لسيما في سبيل الدفاع عن المستضعفين مهما كانت نسبة القوى المتقاتلة، فأهل الطاغوت يقاتلون بكيد ضعيف أمام أولياء الله الذين يقاتلون بمدد قوي. فالجهاد فرض بتطور مراحل قيام الاسلام بعد الصبر وكف اليد والتقوى بالصلاة والزكاة، وقد يتأخر البعض عنه ويبلغ بهم بؤس الفقه بأقدار الله أن ينسبوا المصيبة الى سوء القيادة والحسنة من عند الله. وعلى القائد أن يقوم قدوة يحاسب نفسه على كل واقعة سيئه ويشكر الله على كل حسنه وينشر في الناس فقه القرآن القائم على التوكل، ولو أسرَّ البعض الإنخذال والتخذيل ونشر ما ياتيه من أخبار الأمن والخطر يرعب الصفوف ولا يرد الأمر الى القيادة المختصة.

أما العلاقات الدفاعيه للمسلمين نحو من حولهم فمواصلة على السلام ورده بأحسن منه والمعاملة بالمثل ولا ولاية للمنافقين إلا من إنقلب وهاجر، ومن قاتل عدواناً فيؤخذ قتالاً ومن حايد فلا حجة عليه إلا من تظاهر به ينتهز سوانح العداء على المسلمين. وحيث ما يوجد المسلم فلا يجوز قتله الا خطأً يكفر بتحرير رقبة مؤمنة كأنها عوضاً عن المفقودة وتسليم دية لأهله ومن عجز فصيام شهرين متتابعين. أما

القتل العمد فكبيرة مجلبة للعنة الله وخالد العذابٍ، ولا تجاوز إليه بشهوة الإغتنام بعد هدي الله من هوى الجاهلية.

والمؤمن الصادق القائم للجهاد لا يستوي والقاعد مهما وعد الله كلنا الحسنى، وحيث يجتمع المسلمون أمة واحده في دار الاسلام لا يستوي المهاجرون اليها مع القاعدين دونها إلا اذا لم تكن له حيله ولا سبيل الى الهجرة. والجهاد والهجرة كلها فرائض موصلة بالصلاة ذكر الله الأكبر، ولو صلاة إلتحام في ساحة خطر الحرب، ولا هوان في إبتغاء قتال المعتدي مهما ثقلت على المسلمين آلام الشهادات والقروح فكذلك يصيب العدو.

وكذلك على من تولى أمر السلطان والقضاء أن يركع لأمر الله، فيحكم إجتهاداً يتوخى مقتضى هديه وجهاداً لهوى الذين يخونون أمانة الحق فلا يجادل عنهم ولا مناجاة في مداولاتهم إلا بالخير ةالصدقات. ذلك أن المشاقه لهدي النبي (ص) والمخالفة للقائد الرشيد الذي يجمع عليه المسلمون قد تبلغ بالتمادي ضلالاً بعيداً الى جهنم مصيراً. مثل ضلال الجاهلية التي عبدت الأصنام إناثاً ملائكة رغم كرههم للإناث، وتلك دعوة الشيطان يمنيهم الأماني ويأمرهم بشعائر أفساداً للوجه والجسد وبتكاً لآذان الأنعام.

أما الجنة والنعيم الجاري فلمن والى الدين المتجدد ملتزماً صادقاً ذكراً أو انثى حنيفاً لسنة ابراهم.

والمؤمنون الذين لا يشاقون الله وسروله إذا ثارت قيهم مسائل تتصل بشئون النساء مرجعهم كتاب الله يستفتونه، تتلى عليهم أحكام خاصة في المستضعفات اليتيمات وفي النشوز والإعراض وفي الصلح والتسوية عدلاً دون ميل تقوى لله بين الزوجات وإن تفرقا فبإحسان يغني الله كلاً من سعته.

وحيث ما نظر الانسان في الكون فهو آيات توحيد لله المالك المتصرف، الذي أمر بالتقوى وخاصة في الأسرة حيث يخلق جديد الانسان ويزكى ويهيأ بالتقوى لكل العلاقات خارجها. وهي وصية متجددة عبر الازمان في التورات والانجيل ومن مرق عليها كافراً فالله المالك غنيٌ عن عباده الذين يكفرون ولا يشكرون فسبحانه عما يصفون، ومن لزمها مؤمناً فالله معه هادياً ناصراً يعجل ويؤجل الهلاك أو الاستبدال بمشيئته التامة. وحيث ما تولى المتقون حكاماً قوّامين بميزان القسط قاموا بالحق شاهدين ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، والضلال البعيد لمن كفر بالتوحيد ونصب الشريك في الملأ الأعلى أو في الرسالة الدينية أو دون توحيد الحياة دنيا وآخرى.

وإذ يثبت المؤمنون على تقوى الله يتقلب الكافرون توبة وإيماناً ثم ردة وكفراً أو نفاقاً بين ظاهرٍ يرائي بالاسلام وباطنٍ يطوي كفراً، ولا بشارة لمن تغلب أو نافق بل عذاب أليم في الأخرة. ومن آيات النفاق في الدنيا – لاسيما في مراحل الإنتقال قبل تمكن الاسلام — موالاة الكافرين يبتغون عندهم العزة، وعلى المؤمنين إعتذال مجالسهم التي تهزأ بآيات الله وذكره سبحانه ولو تقاربوا أو تباعدوا وفقاً لتربصهم بتقلبات الظروف ظفراً وكسباً للمؤمنين أو عليهم وللكافرين. ولكن مهما تغلبت الابتلاءات فلا سبيل للكافرين على المؤمنين في الدنيا والأخرة، ومهما نافق الناس وتوهموا أنهم يخادعون حتى رب العالمين يقومون

للصلاة كسالى مذبذبين لا يذكرون الله الا قليلا، فإنهم في الدرك الأسفل من النار إلا من تاب واتقى شاكراً، فالله لا يحب خطاب السوء إلا رداً على ظلم بل يحب العفو والغفران.

أما الذين يكفرون ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله مؤمنين ببعض وكافرين ببعض فلهم عذاب مهين، ولمن أمن وحدّ الله ووحدّ رسله فلهم الأجور، حتى من رهنته طائفية القديم ثم تاب موحداً مجدداً. وقد يطول العهد بالتدين وتتمكن المادية كما حدث لليهود فاحتجوا على القرآن وحياً إلا أن ينزل ألواحاً من السماء كالتورات، كما سلف لهم مع موسى (ع) فطلبوا رؤية الله جهرةً.

ومن حرب الإحياء والتجديد كفر اليهود بمريم والبهتان عليها بميلاد عيسى (ع)، ولكن وعد القرآن في السورة أن كل من ينتسب إليهم سيؤمن بعيسى قبل موته. وقد يزيد مرض التدين في أهل الرسالات ويزيد ظلمهم فيحرم الله عليهم بعض الطيبات الحلال عقاباً، حتى يثوبوا اليه في نفحة إحياءٍ وبعث جديد فيحل ما حرم عليهم. وأن من أهل الكتب السالفة من يؤمن بالتنزيل القديم والجديد كبعض يهود المدينة في عهد الرسول (ص) وأولئك لهم أجر الآخرة العظيم.

هكذا تتوحد رسالات السماء وحياً متجدداً الى محمد (ص) ومنذ ابراهيم — رأس ميراث دين الاسلام وأب الأنبياء — عبر اسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط والى رسالة أيوب ويونس وهارون والى داود حيث تمكن سلطان الدين وتجدد شرعه بوحي الزبور. ولئن كفر أهل التراث الرسالي بالرسالة الخاتمة والقرآن فالله سبحانه مصدر الوحي أنزله بعلمه وله يشهد والملائكة وكفى بالله شهيدا. وعلى أهل الدين أن يجتنبوا التنطع فلا غلو في الدين يؤله النبي كما فعلت النصارى مع عيسى (ع) وهو لا يستنكف أن يكون عبداً لله.

حيث ما مضت آيات سورة النساء جدالاً وقتالاً وقضاءاً وحكماً تعود الى ذكر النساء وهدي الأسرة، تختم بحالة التركة كلالة لميت من غير ولد ولا والد يرثه. والله بكل شئ في الحياة عليم يهدي الناس علماً وحكمةً نوراً مبيناً ورسالةً خاتمة.

ترتيل المعاني

الايات (1– 14)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ[54] بِهِ وَالأَرْحَامَ[55] إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (1)

بدأت السورة بالخطاب العام تنبيهاً للناس كافة (يا أيها الناس) لأن السياق التالي عن أصل خلق الإنسان ومنتشره . والنداء للناس جميعاً ليؤسسوا دين الحياة على أصل الإيمان بالله واحداً وعلى تقواه، ومن ثم على أصل الوحدة بين الناس رحماً وذكوراً وإناثاً وكافة.

الأمر للناس بالتقوى لله الذي هو أَحَقُّ بها لأنه ربهم الذي خلقهم من النشأة الأولى والآخرة ، ومنه تَعَهُّدُهم عبر العمر ورعايتهم بتسخير الكون من حولهم. وخلقكم إيجاداً للأصل مُبْتَدأٌ من غير شيء قبله، من نفس واحدة وخلق منها زوجها الرجل والمرأة الأولَيْن، إذ خلقا من نفس واحدة ومن ذات الجنس والأصل، فالبشر ذكوراً وإناثاً تالين يخرجون تناسلاً وينبثون تكاثراً بعضهم من بعض من ذات النفس الواحدة حيثما اتحدت الذكورة والأنوثة. وفي سياقات أخرى من القرآن جعل:

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً....(النحل 72)

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً.... (الروم 21)

(هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به... الأعراف 189)

(خلقكم من نفس واحدةٍ ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) .. الزمر (6)

وفي هذه الآية (خلق) وليس (جعل) لأن الآية هنا في صدر سورة تتوارد فيها أحكام الأسرة الزوجية حيث يخلق المواليد. والآية تشير لوجه آخر في معنى النفس الواحدة التي خلق منها زوجها. وهو أن الزوجين الذكر والأنثى كانا أول الأمر نفس واحدة في جسم حي واحد ، فيه الذكورة والأنوثة، أُماً مزدوجة الجنس انفصل عنها مخلوقاً ذكراً آدم وبقيت أنثى فقط حواء، فآدم مخلوق لغير أب كما في سورة آل عمران [56] . تلك سنة طبيعية قدرية ماضية لا يخلق مولود إلا إذا اتصلت الذكورة والأنوثة حيواناً منوياً أباً وبويضة أُماً ، تلَقُّحاً واستقراراً في رحم الأم، فَخُلِقَ بذلك ثم وُلِدَ بشرٌ جديدٌ.

---

[54] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (تسّاءلون) بالتشديد

[55] قرأ حمزة (والأرحامِ) خفضاً

[56] سورة آل عمران الآية 59

والمرأة لم تخلق من ضلع آدم كما روت الإسرائيليات. والحديث المروي عن الرسول ﷺ[57] أنها خلقت من ضلع أعوج إنما هو مثلٌ عبرةً للتعامل الحكيم اللطيف مع المرأة ، بعاطفتها ووظيفتها التي كُيِّفت الأضلع المنحنية لها بدقة ورقة كما كيفت الأضلع المنحنية في جسم الإنسان ، صدراً لأداء وظائف معينة كالتنفس للرئة وحفظ القلب، فإذا قُوِّمَتْ الضلوع لم تؤد وظيفتها بل انكسرت كالمرأة، يتوهم الرجل أنها عوجاء العاطفة يحاول أن يقومها فينسى وظيفتها بل يكسرها.

فسنة الله أن يتناسل الزوجان أولاداً فأحفاداً ينشأون وينتشرون في الأرض ، يتشكلون شعوباً وقبائل ويتكاثرون رجالاً ونساءً . وتقوى الله أن يتراعى الذكر والأنثى متكاملَيْنِ فلا تحملهما العصبية على التفاضل والتظالم. وأن يتآخى بالأصل الواحد والأسرة الأولى الواحدة منتشرو البشر ، لا يتفاخرون بعصبية العرق واللون واللسان أو الأرض والعمر. فالتقوى أن الله الخالق لا أصل ولا رب سواه، وأن الأزواج من نفس واحدة سواء، وأن الأقوام والبطون كذلك سواء. ثم تأكدت وصية التقوى السابقة لله (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)، جاءت الوصية السابقة : اتقوا الله ربكم الذي ربىَّ منذ الخلق والأصل خطاباً للناس جماعة سواء مَوَحَّدين وتأكدت الوصية بتقوى الله الإله الأوحد المعبود المتوجه إليه مخشياً مرجواً في تأكيد المعاملات، فالعابدون كما يقسمون بالله يتساءلون ويطالب بعضهم بعضاً كثيراً بالله، ليتجاوبوا ذِكراً لله الذي يُجزي ويَعطي.

(والأرحام) علاقة يتساءل بها الناس – أيضاً – ليتجاوب المسؤول حباً واحتراماً للرحم وجاءت موصولة بالتزاوج وأرحام الأمهات والأصول الواحدة للنسل المتكاثر معطوفة على التساؤل الكثير بالله. وذلك تأسيساً لعلاقات الرحم على تقوى الله ومدخلاً وتمهيداً للآيات التالية التي تذكر علاقات الأسرة عبر السورة.

والتقوى هي الضابطة في مواضع الميول والعواطف والشهوات التي تشوب العلاقات الإنسانية ، خاصة ضمن أطر التواصل الكثيف في الأسرة حيث يُخلق ويُربى ويُزكى الإنسان ، وتلزم التقوى في رعاية تلك البيئة. وذكر الرقابة لله في آخر الآية موصولة بالتقوى في مدخل الحديث عن علاقات الأسرة ، حيث تتأكد التقوى برقابة الله المحيطة في تلك الوشائج الخاصة التي تقصر رقابة المجتمع والسلطان أن تحيط بنجواها وسرها ومعاملاتها المستورة.

(وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) (2).

بعد ذكر أصل الخلق الواحد للزوجين وتأكيد الأمر بالتقوى وبالتذكير برقابة الله تعالى يجئ ذكر اليتامى مباشرة في أول سياق الحديث عن أحكام علاقات الأسرة. واليتيم هو الصغير الذي مات عنه

[57] الحديث "أن المرأة خلقت من ضلع. وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقومه كسرته وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج"

أبوه فهو الأصغر الأقرب لأصل الخلق وهو الأضعف والأحوج في علاقات الأرحام لذكر التقوى ورقابة الله أكثر من النساء عامة اللائى سميت بذكرهن السورة.

فالخطاب يتصل للمتقين الله، لمن قدر الله له القيام بالحفظ أو الرعاية لمال يتيم أو ليتامى أن يجعل هذا المال موصولاً بصاحبه اليتيم لا موصولاً بمصالحه هو الراعي. ورعاة الأيتام ينبغي أن يأكلوا أو ينفقوا من مالهم الذي كسبوه حلالاً طيباً ويُنْهَوْنَ ألا يتبدلوا ذلك ما يأخذون من مال اليتامى فإنه عندئذ يخبث عليهم الكسب. والنهي ألا يخلطوا أموال اليتامى بأموالهم ، فاليتامى صغار لا يستطيعون المراقبة والمحاسبة بالحق ، وجمع أموالهم إلى أموال الرعاة مأكولة شهوة ،كَسْبٌ بلا تقوى لله الرقيب ولا عدل ضابط بل (إنه كان حُوباً كبيراً) إثماً وظلماً كبيراً إذا استصغر شأن اليتيم فلا يستصغر أكل ماله.

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا) (3)

الواو في المستهل عطفاً على ما سبق من وصايا رعاية حقوق اليتامى فالذين يَرعَوْن أو بين أيديهم يتيمات وقدروا الخوف ألا يقسطوا في أموالهن وألا يعدلوا في إقامة رعايتها إذا تزوجوا بهن، الوصية: فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، يباح لكم أن تنكحوا زواجاً ما طاب لكم وأعجبكم من سائر النساء ، تَصْرِفون إليهن عن اليتيمات دوافعَ الزواج ولو مثنى وثلاث ورباع ، أنماط تعدد ولو بلغ رباعاً حسبما يشفي الدافع الحلال دون يتيمات غيرهن.

أبيح الانصراف إلى الزواج ولو تعدداً إلى أربع زوجات ، فإن خاف المخاطبون بوصايا القسط والتقوى في اليتيمات حتى إذا تجاوزوهن في الزواج ألا يعدلوا بين زوجات يتعددن، وأن يتورطوا في ظلم آخر فليقتصروا الزواج آحاداً. حرة واحدة أو ما ملكت أيمانهم من الإماء الأسيرات يشفين دوافع الزواج ويصرفنه عن اليتيمات المخوف ظلمهن فى أموالهن فالإماء ما لهن من أموال.

ذلك الاقتصار في الزواج أدنى وأقرب ألا يعول الرجال المخاطبون – ألا تتعاظم لديهم حاجات نفقات الزوجات والذريات فتصيبهم عيلة ، فيصبحون عائلين تفتنهم الحاجة إلى الظلم بين الزوجات ، أو على حساب يتيمات يتزوجن ويُظْلَمْنَ. وتعدد الزوجات عند الاطمئنان للعدل فيه وعند دفع الرغبة إليه أبيح ليتبارك التوالد أو البقاء ، للإنسان ، ولفطرة في النساء ، فهن أقصر مدىً خصوبة وعرضة لصوارف الحيض والحمل والنفاس عن النكاح ، وأزهد فيه مع الولد والعمر ، ولئلا يقع بعض الرجال في الحرج والعسر وليس فى فطرتهم مثل تلك الصوارف – وذلك كله مع تحريم الزنا وظلم الأسرة، ألا يبلغ بالتعدد حيثما وقع أكثر من أربع حكمة وعدلاً وشرعاً.

(وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا) (4)

ساقت الوصايا عن يتامى النساء إلى زواج النساء في الآيات السابقة عامة عدداً أو آحاداً وساق ذلك إلى حق النساء في مهر الزواج. (وآتوا النساء صدقاتهن): أمرٌ يخاطب الرجال بأن يعطوا النساء عند الزواج صدقاتهن نحلة – عطية هبة تؤتاها الزوجة فتتصرف فيها كما تشاء.

والمهر ابتدار مع عقد الزواج إقراراً ومهاداً للنفقة التي تصبح بعده حقاً راتباً. فإذا نزلت الزوجة عن شيء من مهرها لزوجها عن طيب نفس دون ضغط أو حرج أو إكراه فهو لكم – للأزواج – مباح لا حرج فيه أن يأخذوه ويأكلوه هنيئاً مريئاً طيبة نفس بهانئ مستساغ تتجاوب مع طيبة نفس الزوجة المتنازلة.

(وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا58 وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا) (5)

الخطاب للمجتمع عامة رجالاً ونساءً في سياق أحكام اليتامى، فلا تؤتوا السفهاء أموالكم ، لا تؤدى إلى السفيه عامةً الذي ضعف عقله أو من كان يتيماً ولم يُؤمَن بعد عند البلوغ رشد التصرف في أمواله، بل هي أموال مواردها وميراثها بالمعاملات للمجتمع وهي خطاباً – للمجتمع – (التي جعل الله لكم قياماً) تقوم به حياتكم فلابد من أن ترعى رُشداً وأن تبسط عليها ولايةٌ عامةٌ إن دعى لذلك السفه.

ارزقوا هؤلاء السفهاء في حركة هذه الأموال التي تليهم ولا تبقى جامدة، فقد تتحرك تجارة وأرباحاً ويُرْزقُ من تليه من السفهاء بقدر ما يقوم به معاشهم فيها.

والذي يمسك بالأموال وولاية التصرف فيها يقول لهؤلاء السفهاء كلاماً معروفاً مقبولاً لطيبه لا منكراً دون منٌ أو أذىً حتى بعد رزقهم فيها، بل يزكيهم نحو الرشد بعد السفه لتعود إليهم ولاية أموالهم وأمانتها.

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) (6)

الخطاب موصول للأولياء على أموال اليتامى. على الأولياء أن يختبروا ويقدروا في نشأة اليتيم نمو مقدرته في حسن التصرف بأمواله حتى إذا بلغوا سن البلوغ – النكاح – فإن آنسوا وعرفوا منهم رشداً فليدفعوا إليهم أموالهم. ولا يعاجلوا كبر عمرهم بأكلها إسرافاً وإفراطاً ومبادرة ومسارعة قبل أجل أدائها إليهم. فالولي الغني عليه أن يستعفف مزيد عفة عن أكل شيء من مال من يلي من يتيم صغير لا يعرف التصرف في أمواله. والولي الفقير يباح له ما احتاج أن يأكل بالقدر المعروف لا المنكر من مال اليتيم الذي يلي جزاءً أو أجراً نظير قيامه على ولايته أو استدانة مؤداة لأجلها.

---

[58] قرأ نافع وابن عامر (قِيَماً) من غير ألف

سبقت الآيات في خواتيم سورة البقرة التي شددت على كتابة الدَيْن لأجله وشهادته، وكذلك اليتيم إذا أعيدت إليه أمواله بعد بلوغه الرشد يوثق دفع الأموال بشهادة الشهود، فالمجتمع المسلم في بيّنة من كل معاملاته دفعاً للشبهات لا سيما بالشهادة البينة حفظاً لعلاقات الأسرة الواحدة التي غالباً ما يكون منها اليتيم ووليه ويتزكون بأخلاقها.

وكفى بالله حسيباً في معاملات الأداء لأموال اليتامى الراشدين التي تقتضي الشهادة والحساب الدقيق لدرء التخاصم والتقاضي والتظالم، فلا يجورنَّ الولي في حسابه ولا يهملنَّ الشهادة عند الأداء والله من فوق ذلك ولي رقيب حسيب كفى به حسيباً لمن يجور في الحساب والأمانة.

(لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) (7)

بعد ذكر تقوى الله والتذكير بأصل خلقه أسرة الإنسان ذكراً وأنثى من نفس واحدة ووراؤها نسل البشر المتكاثر وأرحامهم ، ثم حقوق أبناء الأسرة اليتامى في أموالهم ورعايتها ، ثم الزواج باليتيمات ووراءهن عدداً أو واحدة ، ثم ولاية أموال السفيه في الأسرة ورده إذا رشد، ينتقل السياق للتقرير في أمر الميراث في أموال الأسرة بدءاً بإثبات حقوق النساء مع حقوق الرجال وهو أمر كان ينكره المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، فهن جزء الأسرة الأضعف في المجتمع بعد اليتامى الصغار لا سيما إن كنّ هن يتيمات وارثات من تركة الوالد المتوفى. فللرجال نصيب فقط، لا كلّ أموال الميراث لهم مما ترك الوالدان والأقربون المتوَفَّوْن، وللنساء نصيب معهم حقاً وقاعدة عامة في الميراث قبل بيان قدر الأنصبة، مما قل من الميراث أو كثر حتى لا يُضيّع الرجال على المرأة حقها ولو في الميراث القليل (نصيباً مفروضاً) تأكيداً وتشديداً أن نصيبها فريضة من الله ينبغي ألا يُتَجَوَّز فيها.

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا) (8)

حكم قسمة الميراث موصول : إذا حضر قسمتها بعض أولي القربى حالتهم مثل حاجة اليتامى فيها والمساكين عامة حول الأسرة، إذا حضر هؤلاء القسمة فينبغي أن يرزقوا شيئاً بعضاً من مال التركة فهو تركة منقسمة لا كمالِ السفيه يرزق هو فيه ولو حتى ينفد (الآية 5).

(وقولوا لهم قولاً معروفاً) فلا مّن ولا أذىً ولكن إكرام ومسامحة ودعاء وطيب القول المعروف. فالقول المعروف للسفهاء المحجورة أموالهم ولأولي القربى الممنوح لهم – سنة في المعاملات المالية بين الأسر وفي المجتمع كافة.

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا) (9)

يُختم سياق الوصايا المفروضة في رعاية أموال اليتامى والضعفاء بوصية عامة تخاطب المؤمنين الذين لو تركوا من خلفهم بعد الوفاة ذريةً ضعافاً خافوا على مصائرهم تُوصيهم أن يتذكروا ويخشوا على مصائر الضعفاء أولي قربى ويتامى ومساكين.

الأمر بتقوى الله في حفظ أموال الذرية واليتامى ورعايتها يتأكد منذ الأمر أول السورة بالتقوى في الأنساب والأرحام ويتصل بالوصايا منذئذ. والأمر بالقول المعروف يتصل كذلك في كل شأن الميراث وهنا في شأن الوصية التي يتركها الميت يتصل الأمر أن يتقي فيها الله ويسدد القول بمقتضى التقوى والرحمة على الضعفاء من الوارثين.

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ[59] سَعِيرًا) (10)

بعد الوصية العامة السابقة يتأكد نذير شديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً لا بالمعروف فما يأكلون في بطونهم إلا ناراً، ما يستهلكون احترازاً لأنفسهم إلا حراماً مآله حريق لا متاع، ويتأكد وعيدٌ شديد أنهم لمستقبل القيامة يصلَون يحمّون بمباشرة سعير يوم القيامة، وذلك تذكيراً بأن ترك التقوى بالظلم سينتهي بالمذنب إلى أسوأ المصير، وعليه الخشية على مصيره كما يخشى على مصير الذرية الضعيفة، فهو أضعف منها أمام وعيد الله وعذابه. والوصايا والنذر في رعاية اليتامى توالت بعد مطلع السورة حتى هذا الوعيد بمصير خطير.

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً[60] فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ[61] الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي[62] بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) (11)

الوصية مترتبة على الحكم المفروض في الآية (7) فبعد تقرير الأمر بقسمة الميراث عدلاً بين أنصبة الرجال والنساء الآية تفصل الأمر بأقدار الأنصبة المفروضة.

والوصية في الآية تخاطب المؤمنين في أقدار نسبة ميراث أولادهم ، مَن عليهم تربيتهم ونفقتهم في الحياة وأولى من تؤول إليهم التركة بعد الموت بكل بقيتها بعد الأنصبة المحددة، وهو غالب التركة في غالب الأحوال. والوصية من الله فرض لا يخونه ولي تركة ولو كان الأولاد يتامى صغاراً، ووصية من الله أكبر من كل وصية يتركها ميت لميراثه.

كما سبق أن لكل من الرجال والنساء نصيب مما قل أو كثر، يوصي الله أن للذكر مثل حظ الأنثيين. وتمضي الوصية فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك تأكيد حق الأنثى في الميراث نصاً

[59] قرأ ابن عامر وشعبة عن عاصم (وسيُصلون) بضم الياء

[60] قرأ نافع (واحدةٌ) بالرفع

[61] قرأ حمزة والكسائي (فلإمه) بكسر الهمزة

[62] قرأ ابن كثير وابن عامر وشعبة عن عاصم (يوصَى) بفتح الصاد

وتصريحاً وفيها النصيب ولو كثر ، فمن مات وترك بنات خلصاً ليس معهن ولد ذكر فلهن إن كن اثنتين أو فوقهن ثلثا ما ترك، وتقسم البقية على أولي قرباه ممن سبقت ذكراه أو يذكر لاحقاً.

إن كان للميت بنتٌ واحدة فقط يذهب لها نصف ما ترك ، ويتساوى أب الميت وأمه من بعد فيأخذ كل منهما سدساً وهما يليان الأبناء في ولاية النفقة من ابنهما حياً، فبقية التركة للأطفال.

تأخذ الأم الثلث والأب البقية كنسبة الذكر للأنثى إذا لم يكن للميت أبناء حفدة لوالديه. الوصية أن للأم السدس إذا كان للميت إخوان يرثونه اثنان فصاعداً وللأب ضعف ذلك.

فشتى تلك الأنصبة في قسمة الورثة يُقدم عليها دفع الدين المستحق ثم إنفاذ وصية الميت ، وقد تقدم ذكر الوصية على الدَيْن لأن الدين أقل وقوعاً ولأنه يجد غريماً يطالب به بسلطان ، والوصية أكثر وقد لا تجد من يطلبها إلا التذكير الأول بها في وصية القرآن.

والمخاطبون لم تترك لأهوائهم قسمة الميراث وصيةً منهم ، فهم بشر لا يدرون بين الأبوين والأبناء ذكوراً وإناثاً أيهم الأقرب نفعاً والأولى بنصيب يوصون له به. بل الله وحده يوصي بأحكام الميراث لأنه يعلم أي الأقربين الأقرب نفعاً والأحق بنسبة مقدرة.

فالوصية من الله فى أمر الميراث جاءت حقاً فرضاً ملزماً أنزله الله بعلمه الدقيق وحكمته التامة فلا تبدله أهواء البشر الجاهلية ولا ظنونهم بنسب القربى والنفع والمصلحة فلا وصية لوارث وراء نصيبه بعلم الله وحكمه.

(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى[63] بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) (12)

السياق يتصل في تفصيل أحكام الميراث ووصيته المفروضة على المؤمنين، فالخطاب للمؤمنين بعد الأولاد فالآباء يذكر الزوج الحي، فالرجال لهم نصف ما توفيت عنه وتركته زوجاتهم من ميراث إن لم يكن لهن ولد حياً وإلا فللأزواج الوارثين الربع، وذلك من بعد الوصايا أو الديون.

أما إن كنَّ هنَّ الوارثات والأزواج هم المتوفَّون فلهن الربع مع الولد وإلا فلهن الثمن من بعد الوصايا أو الديون. ثم ترد أحكام الكلالة – ميراث القرابة من غير جهة الولد أو الوالد وهي الأكلّ الأضعف في علاقات التكافل نفقة أو مسئولية.

فالإخوان من طريق الكلالة لهم أنصبة متساوية ذكوراً وإناثاً – الأخ والأخت لأم لكلٍ سدس وإن كانوا أكثر من ذلك اشتركوا سواء في الثلث. وذلك من بعد أي وصية أو دين. وعلى الذي يحضره الموت ولا قرابة إلا كلالة ألا يضار الورثة بوصيته أو دينه هجراً لقرابة الكلالة وعصبية للقرابة عن ذكر.

---

[63] قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي (يوصِي) بكسر الصاد

وكذلك في التركة عموماً لا مضارة فيها بوصية من المتوفى ولا سبباً للفتنة في إطار الأسرة وذوي القربى، بل الأحكام وصية من الله ذي العلم التام بأولويات علاقات القربى وجدواها وحقوق التوارث فيها. وذي الحلم لحفظ القرابة مطمئنة الصلات برحمة الله لا تتوتر بعارض فتتظالم بقسمة الميراث فهو العليم الحكيم.

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (13)

تلك – أحكام الله ووصيته المفروضة في رعاية اليتامى وأموالهم وفي أحكام الميراث كتبها الله حدوداً ومعالم قطعية مفصلة نسبها الله إليه وضعاً على المؤمنين تأكيداً لمغزاها ووقعها وخطر اجتيازها.

ومن يطع الله بالتزام تلك الحدود ويطع الرسول الذي يبين فيها ما أجمل ويتولى أمر المؤمنين إنفاذاً لهم أو عليهم بحقها العادل، فجزاؤه أن يدخله الله في الآخرة جناته خالداً فيها وذلك وراء أموال الدنيا وميراثها ومتاعها وفتنها هو الفوز العظيم حقاً.

(وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ[64] نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) (14)

سبق ذكر الطاعة للسابقين بالإيمان – أما من يعص الله ورسوله تعدياً للحدود وحقوقها، فجزاؤه أن يدخله الله يوم القيامة النار خالداً فيها وله عذاب مهين لأنه استهان بحكم الله وبذوي الحقوق المفروضة.

***

عموم المعاني

الآيات(1 – 14)

على الناس أن يتقوا ربهم تذكراً أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل ذلك أصلاً لوحدة البشر، يتساوى ولا يتفاخر ويتراحم ولا يتهاجر في الأمر الذكور والإناث وفي العروق الشعوب المتكاثرة. ومن وراء ذلك على الناس رقابة الله الواحد.

إن في تصريف المال بين أهل الأسرة ونسبة الضعف بينهم فتنة. فالوحدة والعدل في الأسرة ابتلاء لا تحفظ الناس فيه إلا تقوى الله طاعة لأحكامه المفروضة لها.

فاليتامى ضعاف طيبةٌ أموالهم عرضة لأن يأكلها خبثاً قريبٌ وليٌ وذلك حوب كبير. واليتيمات عرضة لأن يعدو على حقوقهن الأولياء بالتزوج. ومن خاف ذلك الظلم اتقى الله وآثر المباح تزوجاً بغيرهن ولو بلغ من الزوجات أربعاً. وذلك مباح للرجل لأنه قد تمتد أيامه بلا علة جماع أو نفاس كما

[64] قرأ نافع وابن عامر (ندخله) بالنون

هي الأنثى وقد تمتد سنواته خصوبةً وشهوةً إلى أواخر العمر الطويل ويتسع كسبه لتكاليف الأسر قواماً عليها. وكما يُدفع الولي إلى التزوج بأخريات عدداً اتقاء عدم القسط لليتيمات، يدفع الرجل اتقاء عدم العدل بين الزوجات الاقتصار على واحدة وحتى لا تتكاثر النفقات فتتعسر فتدفع إلى الظلم.

وقد يبتلى الأولياء بالأيتام يبلغون عمر التكليف ليتولوا بأنفسهم أموالهم. فمتى وجدوا فيهم سفاهة أو في مثلهم فإن ذلك المال الخاص قيام عام لجماعة المسلمين فينبغي أن يرعاه ولاة السفهاء مؤدين إليهم فيه تكاليف الحياة بالمعروف في إطار الخطاب بالمعروف، فإن آنسوا منهم رشداً ردوا إليهم الأموال فوراً بلا سرف ولا مطل.

بذلك ترعى حرمة أموال المسلمين ورشد علاقاتهم لا سميا حول قربى الأسرة وأمانة الولاية يؤديها الغنُّي طوعاً وعفواً، فإن أخذها الفقير له أن ينال منها بالمعروف عدلاً وعقلاً. ورد الأموال إلى أصحابها ينبغي أن يضبط حسابه بالشهادة عليه وبتقوى الله الحسيب.

إن أموال الأسرة تؤول بوفاة صاحبها إلى جميع الورثة فيها لا يحرم بعضهم من نصيبه، رجالاً أو نساءً. وإن لمن حول الأسرة وحضر قسمة الورثة من أولي القربى واليتامى والمساكين نصيباً كذلك رزقاً محدوداً وقولاً معروفاً. وذلك لحفظ أطر الأسرة ذكوراً وإناثاً والبيئة الاجتماعية حولها بمشاركة مبسوطة في الميراث ومودة عامرة فى الصدور.

إن الخشية ألا تُرعى الذرية الضعيفة يستشعرها كل أحد في نفسه نحو خلفه فلابد أن يراعي الأمانة ليتامى الآخرين تقوى لله وسديد قول، وإلا ليذوقن فيما يأكل منها في بطنه ناراً وليتعرضن في أخراه للسعير.

إن أقدار أنصبة الميراث من مال الأسرة مرسومة في نصوص القرآن ومعلومة بفقه الشريعة. ومن أحكامها بين الأبناء أن نصيب الذكور ضعف البنات لأن على الذكر في الشريعة العامة تكاليف الحياة الأثقل وعليه المهر والنفقة في بناء الأسرة وقيامها. ولكن للأنثى على ذلك حقها المقدر في الميراث. وكذلك نسبة الوالدين أباً مكلفاً وأماً إلا إذا تناقض نصيبها مع الأولاد فأصبح قليلاً فحقهما سواء. وكذلك نسبة الزوجين وراثة لبعضهما يؤول للزوج ضعف ما يؤول للزوجة من بعده. والميراث كلالة إخوة عن أم عن أصل من أنثى قليل فهم فيه سواء.

وأقدار الأنصبة فرائض من الله ليس فيها مجال للتصرف بالوصية للوارثين. وقد كانت على الذين تحضرهم الوفاة الوصية كما يقدرون وكان ذلك أول عهد الإسلام لمجتمع المدينة [65]، حتى أحكمت فرائض قسمة الميراث سورةُ النساء. وقدم على حق الورثة خصم الوفاء بالدين الذي لا يحق أصل المال إلا برده أولاً ثم خصم الوصية لغير الوارثين وقفاً للخير أو عطاءً لقريب أقصى أو لغريب بغير قصد المضارة للوارثين.

[65] راجع تفسير سورة البقرة الآية 180

جاءت أحكام الميراث حدوداً قطعية الحساب فريضة من الله طاعتها تجزى جناتٍ ومعصيتها ناراً خالدة وعذاباً مهيناً. ذلك أن الأسرة إطار ينشأ فيه الإنسان ويتربى سنين عدداً وينبغي أن يتزكى بالظن والقول الحسن ويتخلق بذات البين الطيبة تأهلاً لعلاقات المجتمع. ولذلك يلزم أن تتوحد الأسرة وتتكافل بأموالها مطمئنة وتقسم ما بينها من ميراث آمنة من كل غيرة وتحاسد وتخاصم أو فتنة وتظالم وتجارم ، ولذلك فصل الله أحكام الميراث تفصيلاً كثيراً كما فصل سائر أحكام معاملات الأسرة – معاقدة ومعاشرة ومفارقة ما لم ينزل مثله بياناً لأحكام عقود التجارة. فالناس يعلمون منافعهم التجارية ولهم عهودها وشروطها لكنهم لا يعرفون بين الآباء والأبناء وذوي القربى أيهم الأقرب نفعاً والأولى بوصية تترك له النصيب الأكبر. والمجتمعات التي تترك قوانينها الوضعية التركة كلها للوصيات أصبحت تضطرب نصوص وصياتها بالأهواء العارضة ويسود بمقتضاها الصراع مما تفسد به حياة الأسرة ونباتها. ولكن القرآن يرعى الأسرة وأيتامها وذريتها وفروعها وحواشيها، البيئة حيث يخلق الإنسان ويتهيأ لحمل أمانة الدين.

***

ترتيل المعاني

الايات (15– 35)

(وَالَّلاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ[66] حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) (15)

الآيات السابقة تؤسس علاقات الناس على توحيد الله وعلاقات الرجال والنساء على أصل النفس الواحدة وتجعل رعاية أموال اليتامى وقسمة الميراث فرائض وحدوداً لحفظ الآثار الزكية للأسرة الموحدة، وبعد ذكر الطاعة ثم المعصية في رعاية أمانة الأسرة – يتصل بالمعصية ذكر جريمة الزنا – الفاحشة – أخطر الفواحش خيانة لأمانة عهد الأسرة. اللاتي يأتينها من مؤمنات نساء المؤمنين المخاطبين تطلب عليهن شهادة أربعة منهم شهادة على طرفين في الجريمة والعدل أن يقابل كل طرف بشاهدين حتى لا يكون هنالك سبب للمكايدات والشبهات التي قد ترمي بريئاً بهذا الجرم العظيم.

فإن شهدوا جميعاً وأثبتوا الجريمة على زانيات يحبسن في البيت حتى يتوفى عمرها الموت أو حتى يجعل الله لهن سبلاً للتوبة إلى نهج جديد إن كن متزوجات أو يتزوجن إن كن عازبات تأميناً لخروجهن من البيوت.

(وَالَّذَانِ67 يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) (16)

---

[66] قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبه وحمزه والكسائي (البِيوت) بكسر الباء

[67] قرأ ابن كثير (اللذانّ) بتشديد النون

طرفا جريمة الزنا المثبتة يؤذيان بعد ذلك. والأذى فصلته سورة النور بمائة جلدة، [68] وذلك فضلاً عما سبق من حبس المرأة التي يخشى أن تحترف الزنا متبرجة خارجة ولا حبس بعد الأذى على الرجل لأن واجباته تجاه نفسه والمجتمع تقتضي له الخروج. فإذا تاب الزاني والزانية لله وأصلحا السلوك ظاهراً فعلى المجتمع المؤمن بالله أن يتوب عنهما ويرحب بهما معرضاً عنهما الذي سلف. إن الله كان تواباً يتقبل حتى توبات الخطائين ورحيم بالغ الرحمة لهم من عنده.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (17)

ليست التوبة التي كتبها الله تعالى على نفسه إلا للذين يعملون السوء بجهالةٍ – لمن يرتكب السوء معصية أو فاحشة مدفوعين بجهالة الشهوة أو الغفلة ثم يتذكرون ويترشدون ويتوبون في بعض زمن قريب لا يتمادون مع الجهالة تتراكم سيئاتهم حتى ساعة الموت.

فلذا يتوب الله عليهم وفاءً بما كتب على نفسه، بالغ العلم بكل عملٍ للسوء بجهالة، بالغ الحكمة بأن كتب على نفسه التوبة على من تاب من قريب وصلح عمله لا سيما أن فتنة الشيطان بالفاحشة ينبغي ألا تقطع كل صلات القرابة والمجتمع بل يُعرض عنها لمن تاب وترجى توبة الله ويُصلح فتصلح العلاقات.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الأَنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (18)

وليست التوبة المكتوبة من الله وعداً للذين يعملون السيئات ويتمادون بعيداً حتى إذا حضر أحدهم الموت وأيقن من انطواء ساحة الشهوات والسيئات والإقبال على موسم الحساب بلا مرجع قال محاولاً استدراك التمادي إني تبت الآن مسابقة للموت الحاضر، وليست تلك التوبة من الله للذين يمضون في سيئاتهم حتى يموتوا فعلاً على حال الكفر، أولئك جميعاً أعد لهم الله خاصة في ملئه الأعلى لا توبة بل عذاباً أليماً في الآخرة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا[69] وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ[70] وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (19)

في سياق شؤون الأسرة أموالاً وأخلاقاً وتحريراً للنساء من ظلم الجاهلية، وبعد التذكير بالأصل الواحد للنفس البشرية ذكورة وأنوثة وتشديد الأمر بالتقوى يُخاطَبُ المؤمنون الرجال–(لا يحل لكم أن ترثوا

---

[68] سورة النور الآية (2).

[69] قرأ حمزة والكسائي (كُرهاً) بضم الكاف

[70] قرأ ابن كثير وشعبة عن عاصم(مبيَّنة) بفتح الياء

النساء كَرْهاً) إذ كانت الزوجة في الجاهلية تورث وتحاز كما يورث المتاع فإذا مات زوجها قد يحوزها ابنه أو أخوه أو وليه كرهاً يتزوجها أو لا يزوجها دون أن تسترضي، وإذا كانت ذات مال عجوز تستبقى في حبل الزواج كرهاً وهجراً وينتظر موتها ليؤول إلى الزوج ميراثها. وذلك كله لا يحل في حق النساء.

ولايحل للمخاطبين الرجال أن يعضلوا ويمسكوا قهراً زوجاتهم يمارسون عليهن أنواع القهر والضغوط بما يضطرها أن تنزل عن بعض ما أوتيت من مهر قبل التسريح والفرج ليذهبوا به لأنفسهم. إلا أن يأتين بفاحشة مبينة: لا يجوز الحمل على النساء إلا أن يأتين بفاحشة بانت وظهرت بحمل أو بشهادة الشهود كما مضت الآية، فأولاء يمسكن حتى يتوفاهن الموت أو يجعل لهن سبيلاً بالتوبة وبأن يعفون عن بعض ما آتيتموهن للتسريح والخروج.

الأمر للرجال إزاء زوجاتهم المعاشرة بالمعروف دون إكراه أو عضْل أو المنكر من المعشر. فإذا ابْتُلِى الأزواج بضراء المعاشرة الزوجية وطوارئها المعتادة كثيراً وكرهوهن فعليهم أن يصبروا على ذلك صبراً دون يأس وفراق، فسيرة أقدار الحياة تحتمل أن يُكره شيء منها حاضراً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً يبدو في مقبل الآجال.

(وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (20)

سنة أخرى من أخلاق الجاهلية يُنهى عنها لتحرر المرأة مما يلحق بها من ظلم، أن قد كان الرجل إذا تطلع لزواج من أخرى يستبدلها مكان زوجته حدثه الشيطان أن يحمل عليها ليأخذ كرهاً مما أعطاها من مهر ليشتريَ به الأخرى. ذلك يُنهى عنه حتى إذا كان قد أعطى الأولى كثيراً قنطاراً من المهر فلا يحل أن يأخذ منه شيئاً. ويُستفهم منه استنكاراً أيأخذ ذلك بهتاناً وإثماً مبيناً صدمة ومجافاة للحق بارزة. وما القنطار بمستحسن فهو فوق المهر بالمعروف ، ولكنه بالغاً ما بلغ ينبغي ألا يطمع معطيه في استرداد شيء منه كرهاً.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (21)

الاستنكار يشتد بأخذ شيء من المهر ظلماً كما سبق بعد علاقة أفضى فيها بعضهم إلى بعض تفاشياً وتداخلاً شديداً وبعد أن أخذت الزوجات المظلومات من أولئك الرجال ميثاقاً غليظاً عقد الزواج ووفاءً ومودة ورحمة.

(وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (22)

السياق يتصل محرراً أسرة المؤمنين مطهراً حرماتها من أعراف الجاهلية في التزاوج. وأول الأعراف المنهي عنها زواج الابن من زوجة الأب إذا مات عنها أو فارقها، وذلك لحفظ حرمة العلاقة مع بيت الأب وشريكات الأم وأمهات الإخوة لأب، ألا تشوبها فتن الشهوات واضطراب نظام تلك القرابة الوثيقة.

ولكن الحكم استثنى ولم يُبطل الزيجات التي سبقت التحريم لأن فصم عقود لأسر قامت بالفعل يسبب اضطراباً في المجتمع والرعاية إذ يذهب بشرعية الأبناء الذين ولدوا في هذا النمط من زواج الجاهلية. وقد كان العرف بحكم مؤكد فاحشةً عند الله ومقتاً لأن مجتمع الجاهلية نفسه كان يسميه زواج المقت فهو كريه عند الله شنيع عند الناس، إذ كان سبيلاً ومنهجاً يمارسه المجتمع على سوئه في علاقات أسرة الأصل والفرع حول الأب وابنه.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّلاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ الَّلاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ الَّلاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) (23)

الآية تشير إلى محرمات كان غالبها محرماً بفطرة المجتمع وأعرافه تأكدت بتصريف التحريم بناء على المجهول لا نهياً مباشراً مصوباً مشدداً كما سبق لإبطال عرف كان سارياً على الحرام.

حرمت أولاً الأمهات لأنهن الأقرب نسباً الأدنى عرقاً والأدعى للبر والأنفى للشهوة، ثم مضى التحريم إلى ما دونها قربى – البنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت. ثم حرمت الأم من الرضاعة لا بالعرق ولكن بوحدة اللبن جسداً للرضاعة، والأخت من الرضاعة للتآخي جسداً من لبن واحد. ثم حرم الزواج من الربيبة وهي ابنة الزوجة التي يربيها الزوج أباً فهي مربوبة لديه وهي في حِجره إذ تضمها أمومة زوجته في أسرته مودة ورحمة. أما إذا جرى عقد زواج لأمها لكن انقطع بلا دخول بطلاقها أو موتها فلا ربوبية ولا حجر أسرة فلا حرمة من بعد للبنت. حرمت كذلك زوجات الأبناء فهن حلائل يحللن في الأسرة والأبناء من الأصلاب من غير التبني الذي كان عرفاً شائعاً في الجاهلية العربية وتوازي بنسبتها للفرع من الصلب المحرمة بنسبتها للأصل إذ حرمت زوجة أب. وحرم كذلك الزواج من المرأة وأختها ولم تفصم الزيجات التي جمعت بين الأختين قبل نزول آية التحريم لذات الحكمة التي لم تفصم الزيجات من زوجات الأب التي سلفت قبل التحريم كما سبق الذكر. ويقاس إلى تحريم جمع الأخت إلى أختها زواجاً جمعها إلى العمة والخالة لأنهن أمهات لها كما بين الرسول ﷺ. إن الله كان غفوراً رحيماً، شديد المغفرة فعلاً للمؤمنين فيما كان منهم من أخطاء اقترفت بجهالة وبأعراف الجاهلية في جمع الأختين زواجاً سلف، بالغ الرحمة للمجتمع بالهداية إلى سواء السبيل في حفظ حرمة قراباته من الشهوات المخلة ومن الضراء بعد أن كان يسير في سيء السبيل.

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ[71] لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) (24)

[71] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم (وأَحَلَّ)

الحرمات بالقرابة موصولة بحرمة المتزوجة أن يعدى عليها بعقد زواج مركب على العقد القائم. المحصنات وهنّ لأنهن في حصن زواج وحرم بعقد يحميهن من دخيل الا أن ينقطع ويبين – إلا ما ملكت أيمانكم – من أَسَرَ المسلمون من النساء في الحروب التي تقطع عقود العلاقات فيما مضى وتؤول بالأسيرات إلى ولاء جديد فيمكن الزواج بهن وإن كن محصنات بالزواج قبل الأسر. ذلك المدى من حرمة القرابات الدنيا والزواجات القائمة هو (كتاب الله عليكم)، كتبه تحريماً عليكم كتاباً وفرضه فرضاً مؤكداً. وأباح لكم كل زواج وراء هذه المحصنات، فحلال أن تطلبوا بأموالكم مهراً واستعداداً للنفقة مبتغين زواجاً محصنين أنفسكم ونساء بعقد مشروع ، غير مسافحين ، غير مقيمين علاقاتكم الذكورية الأنثوية على السفح خارج حصن الزواج وإطار العقد.

فإذا أحصن المخاطبون بزواج يجدون من ورائه متاعاً لشهوة الذكورة والوالدية، عليهم أن يؤتوا النساء مهوراً أجراً وجزاءً على ما عرضن من متاع. والمهر فريضة واجبة مقدمة لكل ما يليها من تكاليف النفقة والقوامة. ولا حرج إذا أعطى الزوج زوجته رضىً عفواً فوق المهر المعهود بينهما أو إذا نزلت الزوجة عن بعضه رضىً وطيب نفس كما سبقت الآية،[72] لا حرج في ذلك بعد وقوع الفريضة فعقد الزواج كله تشاور وتراض. والله كان عليماً حكيماً، هو تأكيداً وفعلاً بالغ العلم والحكمة بحيثيات الدوافع والميزان في علاقات الزواج مالاً وعفواً.

(وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَات[73] غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ[74] فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (25).

السياق يتصل في بيان أحكام تأسيس العلاقات الزوجية في إطار المجتمع، والحكم لمن لم يستطيعوا طولاً وفضل مال ولم يتهيأوا بوسعٍ لعقد زواج ما طاب لهم واحدة أو مثنى وثلاث ورباع من الزوجات المؤمنات اللائي يُكَلِّفْنَ المهر والحفل والإنفاق بالمعروف، فالذين لا يجدون طول المتزوجات المؤمنات أباح الله لهم زواجاً ممن في ولايتهم من الفتيات الأسيرات المؤمنات اللائي لا يُكَلِّفْنَ متزوجات مالاً كثيراً.

لكن تتفاوت التكلفة والحاجة للطَوْل بين عامة المتزوجات المؤمنات والأسيرات المؤمنات المعروضات للزواج ولكنهن في الإيمان سواء، فالله أعلم بمبلغ درجات صدقه في القلوب، وبعض المجتمع المؤمن من

[72] راجع الآية 4 نفس السورة.

[73] قرأ الكسائي (المحصِنات) بكسر الصاد وكذلك (محصنات)

[74] قرأ شعبة عن عاصم وحمزة والكسائي(أَحصَن) بفتح الألف والصاد

بعض، فالأَمَةُ الأسيرةُ المؤمنة قد تكون أفضل إيماناً من عامة المؤمنات، فالأصل واحد للإنسان كما في أول السورة، وذلك لئلا يتحرج الذي لا يجد الطَوْل أن ينكح الإماء المؤمنات.

والآية تضع الضوابط لزواج الإماء في المجتمع فهو بإذن من لهم عليهن اليمين ويد الولاية وهؤلاء أهلهن، فبعض المؤمنين من بعض ولهن مثل سائر المتزوجات الأجر فريضة وهو بالمعروف يقل عن أجر المتزوجات الحرائر ولكنه لهن لا لأوليائهن، وهن بذلك محصنات في حصن وحمىً بالزواج بالإذن مثل عقود الزواج مع سائر المؤمنات غير مسافحات، فلا يعاملن سفاحاً في المجتمع، بل بذات قيم الإيمان والزواج، ولا يدعن متخذات الأخدان الأخلة بالصلات الجنسية السرية، ولكن محصنات بمهر بالمعروف. فإذا أُحصِنَتْ هكذا بالزواج ثم ارتكبت إحداهن فاحشة الزنا فعليها نصف ما على المتزوجة غير الأمة من عقوبة الأذى والجلد كما بينته الآيات من قبل وفي سورة النور. ذلك الالتماس لزواج الأمة لعدم استطاعته الطول لزواج معتاد مما طاب إنما هو أيضاً لمن خشي العنت النفسي، فالذي لا يسعه زواج حرة أو حرائر ويخشى على نفسه ما يجر إليه ذلك من فتن فله أن يتزوج من الإماء بالضوابط المذكورة.

والصبر مع العنت على العزبة أو الواحدة خير للمؤمنين من تزوج الأمة وتكاثر الرقيق، فالأولى لمجتمع المسلمين أن يُحرَّرْن بشتى وجوه التحرير ليتزوجن حرات. والله غفور بالغ المغفرة لمن تجاوز عزائم الصبر وبالغ الرحمة لمن تاب إلى هدى الله وحكمته.

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (26)

يريد الله بسوق المعاني المتقدمة في أحكام الأسرة وفروعها وأصولها وعلاقات المجتمع – أن يبين لكم وضوحاً الرشاد، ويهديكم بياناً السنن التي كان عليها الذين من قبلكم سلفاً من مجتمعات الجاهلية والضلال زواجاً من محارم وسفاحاً بغير إحصان ومن مجتمعات التوحيد. ويريد بالهداية أن تتوبوا بعد الأعراف والسنن الضالة فيتوب عليكم استجابةً. والله عليم حكيم بالغ العلم بما مضت عليه سنن التأريخ في مجتمعات الهدى وفي مجتمعات الضلال، بالغ الحكمة ينزل بها هذه الأحكام ويفصلها وفقاً لتطور المجتمع وظرفه.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا) (27)

والله يريد أن يتوب عليكم مجاوباً توبتكم إلى سنن الهدى بعد سنن الضلال، ولكن أَتبْاع الشهوات في علاقات الذكور والإناث يريدون أن تميل مجتمعاتكم المؤمنة عن سبيل الهدى ميلاً عظيماً ارتهاناً لتقاليد الأعراف الجاهلية.

(يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا) (28)

ينختم سياق بيان الهدى للمجتمع بأن الله عليمٌ بالإنسان إذ خلقه ضعيفاً، وحكيم يريد بأحكامه أن يخفف وطأة العنت والعسر عنكم لئلا تفتنه الشهوة فتوقعه بضعفه في السبل السيئة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً[75] عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) (29).

جاء ذكر الأموال خطاباً للذين آمنوا في أوائل السورة تحذيراً من أكل أموال اليتامى الضعفاء في حفظ أموالهم ورعايتها، واستمر ذكر الأموال أداءً وأمانةً وعدلاً في حقوق الزوجات والتزاماً بفرائضها المحدودة في حقوق الورثة وأداءاً لحقوق المهور والنفقات للنساء، واتقاء لأخذها عَضْلاً وكرهاً. ويجمل هنا خطاب التقوى في الأموال عامة وراء أموال الأسرة، فلا يأكل المؤمن مال أخيه بأساليب الباطل ، فإذا أكله ظلماً أو غشاً أو رباً أو سرقة أو خيانة فقد أكل مال المجتمع كما يأكل السفه أموال المجتمع[76]. فالمعاملات الخاصة بغير الحق تخل بحركة الائتمان والتعاوض والتكاسب وتَبَارُكِ المال عامة وعمران شركة الحياة الاقتصادية بالخير.

يستثنى ويتميز عن التعامل بالباطل أن يكون تجارة يتعاوض فيها الطرفان مالاً بمال ويتراضَوْن عرضاً وقبولاً، وتلك أطهر المعاملات المالية المشروعة لا بالباطل بل بالتراضي مباشرة أو وكالة، وذلك الرضى أساس كل العقود في الإسلام: عقد الإيمان بالله بلا إكراه أو نفاق وعقود الزواج وعقود البيعة توالياً وتولية للحكم. (ولا تقتلوا أنفسكم) تعاملوا بالتراضي لا بالباطل يظلم بعضكم بعضاً كما سبق النهي ولا بالصراع لاسيما اختصاماً وتناهباً للمال بالباطل الذي ينحسم بقتل بعضكم بعضاً، فالمال الخاص مالكم جميعاً والنفس الخاصة هي نفسكم جميعاً لذا تجب فيها تقوى الله الذي خلق الناس من نفس واحدة.[77] والنهي عن التآكل باطلاً والتصارع قتلاً هو من الله المؤكد فعلاً أنه بالغ الرحمة بمجتمعات البشر يهديهم إلى نهج التراحم لا التظالم.

(وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) (30)

عدواناً على مال أخيه ونفسه وظلماً – والأموال والأنفس بعضها من بعض في مجتمع واحد – فسوف يصليه الله بكل قوى الغيب ناراً يوم القيامة وذلك قطعاً يسير على الله مهما ظن الظلمة قوة على أكل أموال الناس وقتلهم دون أن ينالهم عقاب.

(إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً[78] كَرِيمًا) (31)

إن تبشير المؤمنين ومجتمعاتهم بعد أن وضحت لهم سنن الهدى واستبانت سبل السوء وبعد بيان العاقبة : إن تجتنبوا وتتقوا كبائر ما تنهون عنه – العدوان والظلم أكلاً للمال بالباطل وقتلاً – نكفر عنكم سيئاتكم عندئذ – نُغطيها ونُبدلها بحسنات الكف عن الكبائر، وندخلكم مدخلاً كريماً إلى ساحة الجنات والرضوان في الآخرة.

[75] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر(تجارة) بالرفع

[76] راجع الآية (5) نفس السورة.

[77] راجع الآية (1) نفس السورة.

[78] قرأ نافع (مَدخلاً) بفتح الميم

(وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْئَلُوا[79] اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (32)

في سياق خطاب المؤمنين في العلاقات المالية في المجتمع :(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) في قسمة الوظائف التي يتزايد فيها النساء والرجال ومن ثم أنصبة الميراث ينبغي ألا يتحاسد المؤمنون متمنين ما فضل الله به بعضهم على بعض، كما عليهم ألا يأكلوا أموالهم بالباطل ولا يقتلوا أنفسهم. فقد جعل الله للرجال نصيباً في الميراث مما اكتسبوا من كسب مال وجعل للنساء نصيباً من الميراث والمهر والنفقة مما اكتسبن من أموال، وهو كله بأحكام الله فلا يتحاسد الناس، ولا يدعي الرجال أن المال ينبغي أن يكون كله لهم كما في المجتمعات الجاهلية التي لا ترى للمرأة حقاً في أي ملكية بل تعتبرها نفسها بعض المتاع الذي يورث ويملك. وكذلك للنساء نصيب ينبغي أن يرضَيْن به ولا يدعين أن لهن حقاً مثل حق الرجال. فالرجال والنساء في مجتمع المؤمنين بعضهم من بعض وقد جاءوا جميعاً من نفس واحدة وكتب الله لهم أنصبة مختلفة ولكنها متكاملة عدلاً. الفضل والرزق كله عند الله فإن رجوتم أكثر من نصيبكم المكتوب فتوجهوا إليه بالدعاء ولا تتوجهوا بعضكم نحو البعض بالتحاسد والتباغض. فإن الله عليم بأحوال النفوس التي تغار من التفاضل وبأحوال المجتمع الذي تتباين فيه وظائف الرجال والنساء وقد قسم أنصبة الكسب والميراث بعلمه بكل شيء.

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ[80] أَيْمَانُكُمْ فَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) (33).

موصولاً بما سبق لكل أحد جعل الله موالي يلونه بنوة أو قرابة يرثون أنصبة مفروضة مما ترك الوالدان والأقربون.

والخطاب للمؤمنين أن الذين عاقدت أيمانكم توالياً وتواصياً بالتوارث إذا مات متعاقد فإلى جانب مواليه الوارثين فرضاً، فعلى المؤمنين أن يؤتوا الموالين بالتعاقد نصيبهم من التركة وفاءً للعقد وصيةً وسواءً في التوالي. إن الله حقاً شهيد على كل شيء من هذه العقود، وإن مات أحد أطرافها فعلى ولاة التركة الوفاء والله شاهد قريب.

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) (34)

في سياق الحياة الزوجية والأسرة – لا الرجال والنساء عموماً – يقوم الرجال الأزواج على زوجاتهم أولاً بما فضل الله بعضهم على بعض ذكورةً وأنوثةً ومميزات عضوية وعاطفية، فيأتيها قضاء شهوة وتسلم

---

[79] قرأ ابن كثير والكسائي(وسَلوا) بفتح السين وحذف الهمزة

[80] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (عاقدت) بالألف

له، ويشرف على قضاء حاجتها وهي عاجزة بحمل أو نفاس ويدفع عنها وهي أضعف حيلة على القيام بدفع بعض الأخطار عليها. وليس التفاضل بين الذكور والإناث في الصفات مطلقاً فبعضه تمايز وبعضه درجة تمايز. والرجال قوامون على النساء بفضلهم النسبي فيما يؤهلهم للقوامة، ولهن فضل نسبي يناسب أن يقوم عليهن الرجال. ويقوم الرجال على النساء بإنفاق شيء من أموالهم وقد يقومون على إدارة مال مملوك لهن، وقد لا يقومون، ولكنهم ملزمون بكسب المال وتولي القوامة على خدمة حاجاتهن المعاشية. فالزوج قيّم على الأسرة برعاية حاجة أنوثة الزوجة وأمومتها ومعيشتها وحاجة أولادها والأسرة قائمة على التراضي والشورى والبر والقيام على التحمل والطاعة والصبر.

فالصالحات الزوجات مقابل ما يحمل أزواجهن من واجب القوامة يحملن واجب القنوت طاعة للقيمين والحفظ لأمانتهم في غيابهم بما حفظ الله ذلك من وصايا وحدود شرع.

واللاتي يسلكن نحو الشذوذ والخروج على القوامة والقنوت وحفظ الأمانة سلوكاً يؤدي لذلك بما يرجح عند تقدير رقابة المؤمنين حول الأسرة وخوفهم، والخطاب ليس للأزواج بل هو للمؤمنين وأولياء أمر مجتمعهم عامة خطاباً موصولاً عبر الآيات السابقة. فأولئك الناشزات جزاؤهن الواقي الوافي درجات من التعامل من المؤمنين حولهن توافق درجات النشوز وأنماطه، فالنشوز المحدود قد يجدي معه الوعظ، والوعظ قد يكون من الزوج خاصة عند نشوز في الحياة المستورة للأسرة وقد يكون أيضاً من ذوي القربى أو الجيرة أو الصحبة للأسرة إذا بدا النشوز، والهجر في المضاجع للزوج فعلاً فبينه وبينها فراش الزوجية لكن الناشز لن يجاب لها عندئذ قضاءً طلب الطلاق بسبب الهجر. أما ضرب الناشزات فإذا دعا إليه النشوز ضرباً بين الأزواج غير مبرح فلا حجة فيه للتقاضي المشهور، وحياة الزوجية خيرها الستر بابتلاءاتها. أما النشوز الذي يبلغ الفاحشة حيث يقع عقاب الأذى ضرباً وجلداً يباشره طرف من الأسرة ستراً لأمرها أو إذا بانت الفاحشة بالشهادة يتولاها المجتمع قضاءً. فإذا عادت الزوجات عن نشوزهن إلى القنوت والحفظ بقوامة الأزواج وأمانتهم فعلى المؤمنين: الزوج والأهل والمجتمع أن يكفوا عن كل عقوبة فلا سبيل لهم للبغي بفتنة تعالي الذكور على مَن ثَابتْ إلى الصلاح.

إن الله حقاً هو العلي الكبير وهو الذي يعطي الأزواج حق القوامة وواجبها ويعطي المجتمع حق تأديب الزوجات الناشزات فعلى المؤمنين الذكور ألا يتعالَوْا ويستكبروا بالقوامة تأبياً عن الخدمة وجبروتاً في التوجيه ولا بالوعظ والهجر والضرب بغياً بغير نشوز من النساء أو عدل فيه أو بعد المتاب.

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا) (35)

الخطاب موصول عبر الآيات السابقة للمؤمنين مجتمعاً بأولياء أمره فإن علم المؤمنون خلافاً بين زوجين وخافوا ترجيحاً أن يؤدي إلى شقاق وفصال بينهما، فليجعلوا التحكيم إجراءً لازماً قبل أي طلاق. وليبعثوا ويرسلوا إلى الأسرة حكماً يُختار من أهل الزوجة وآخر يختار من أهل الزوج، فإن سعى

بين الزوجين الحكمان لتجاوز الشقاق وانشرحت صدورهما وأرادوا مخلصين إصلاحاً لذات بينهما ودرءاً لأسباب فسادها فإن الله استجابة لذلك يوفق بينهما ويعيذهما من شر الفتنة[81].

إن الله كان عليماً خبيراً : إن الله حقاً بالغ العلم بأسباب الفتن والشقاق بين الأزواج وبما تحمل القلوب من رغبة الإصلاح وهو خبير بما يوفق بين القلوب.

***

عموم المعاني الآيات 15 – 35

صدر سورة النساء هدى في شأن الأسرة، أوله في ذيولها أيتاماً وورثة، ثم يتصل لحفظ حدود الزوجية من الفسوق، ولبسط التراضي فيها بلا إكراه، ولحرمة القرائب الدانيات حول الزوجين، ولبناء الزوجية على عقد مستقر وتعاوض مشروع، ولاتقاء شهوة الكسب عدواناً على الأموال والأنفس في المجتمع عامة أو غيرة أو غارة داخل الأسرة بين أنصبة الذكور والإناث أو حولها بين الموالي ورثة والمتعاقدين عهداً. والهدى أخيراً هو التجاوب المتوازن بين واجبات الأزواج والزوجات وهو التدبير الحاسم الحاكم لأزمات النشوز والشقاق.

وحكمة الهدى إسعاد الزوجين في الأسرة حضانة ورضىً وتعادلاً وتقوى واستقراراً وأمناً. وهي أيضاً تهيئة الأسرة لتربية الخلق الوليد فيها وتزكيته لاحتمال أمانة الدين بالخلق المضمون والإطار المأمون. ثم هي قيام حِمَىً حول الأسرة حرماً بين الزوج والنساء الأقرب.

والحكم الأول في الأسرة هو الحصانة لعقد الزوجية والطهارة لعلاقات الرجال والنساء بفرض عقوبة رادعة أذىً لمن توقعه الفتنة في المجتمع مشهودة من أربعة – بينة مضاعفة تدين الاثنين. والأنثى بعد الأذى تحبس في البيت لأنها لا تكلف كسباً في الخارج بل تحمى من التعرض لمثل ما أسلفت حتى يجعل الله لها سبيلاً. والتوبة منها لأجل الإصلاح يجاوبها من الله القبول وعلى المجتمع أن يتجاوب أيضاً إعراضاً عن السابقة.

والزوجية عقد يقوم على العدل والتراضي – لا تعامل المرأة فيها متاع ميراث ولا تكره عَضلاً عن حقها المالي، وتعاشر بالمعروف، لا تأخذ الزوج كراهية لها عارضة فقد يكون وراء المكروه خير كثير في عاقبة الأسرة المستقرة. ولا يسعى الزوج لاسترداد المهر مهما بلغ ليوفره مهراً لبديلة فذلك قطع لوصل التراضي والميثاق الغليظ بين الزوجين.

والقربى الأدنى حول الزوجين مجال للبر ولإعمار حياة الأسرة بالخلوات الخاصة والمعاملات العفو الوثيقة. لكن مقتضى صحة النسل ومبرأة الأسرة من الفتنة أن يصان ذلك الحرم من استباحة التزوج بالإناث القرائب فيه. لذلك يحرم للرجل الزواج بأي ذات قربى تليه أماً أو زوجة أب وبنتاً أو زوجة ابن أو تليه أخوة أو تحتها أو أخوة لوالديه. والحرمة للأم والأخت سواء دماً أو عن رضاع لأنه وشيجة كالدم.

---

[81] راجع تفسير الآية (128) و(129)، نفس السورة.

ويحرم الجمع بين الأختين لئلا تفسد الغيرة ما بينهما في الأسرة، وبالطبع يحرم عقد الزواج بمحصنة زوجة لآخر إلا عبر عسر و"عنت" يسوق الرجل إلى من قطعتها عن زوجها طارئة الحرب وولاية الأسر لدى المسلمين لأهل جدد يزوجونها. والزواج حلال واسع لأي قريبة أو غريبة وراء ما تقدم من حرم تنتهك بعضه الأعراف الجاهلية قديماً وحاضراً.

إن الزواج تعاقد مستقر مشهود ومعاوضة بين استمتاع ومهر وفضل أو تنازل بالرضى. لذا يحرم السفاح بخليلة متعة سائبة عفواً لا يترتب عليها التزام. فلا يجوز حكر المرأة إلا بعقد مشهود ومهر بالمعروف بادئة بينة عن الالتزام بالنفقة على الأسرة زوجة وولداً. إن علاقات السفاح والاستمتاع استغلالاً للمرأة سنة جاهلية تمتد في كل العصور التي تتبع الشهوات بالأنوثة وتميل لطغيان الذكورة والتي لا تتوب اتباعاً لشرع الله البين وتقوى لخالق الزوجين من نفس واحدة أسرة يتكاثر منها المجتمع.

إن الخُلق العام الذي يهيىء لقوام الأسر وتؤدب به فيها الذريات هو ألا يُغرَّ المؤمن بشهوة المال التي تغالب موازين الحق والعدل بين الناس – ألا تؤكل الأموال باطلاً بغير عدل وألا تقتل الأنفس بغير حق، فالأموال والأنفس شركة المجتمع كله يتداعى بينها العدوان. بل ينبغي ألا يدعو حب المال إلى التحاسد والظلم في حمى الأسرة المصانة لمعاش أهلي وقيام، وألا يتحاسد ويتغاير الرجال والنساء فيما كسبوا من أنصبة متوافية بفرائض الشريعة الموزونة مع تناسب ثقل الواجبات، وألا يتظالم الموالي بأحكام الميراث مع المتعاقدين الذين يؤول إليهم من التركة نصيب عن عهد كما تؤول سائر الوصايا والديون.

إن العلاقات في الأسرة ميزان عدل بين الزوجين واجبات متجاوبة وحقوقاً متكاملة. فالزوج قوام على الزوجة قياماً فاعلاً بما يؤهله فضله النسبي وفضلها. فبالتفاضل العضوي ذكورةً وأُنوثةً يقوم عليها في المعاشرة الزوجية. وبالتفاضل الوظيفي تعافياً بقوة له وضعفاً بالحمل والنفاس والرضاع والحضن كما يقوم عليها خدمة وحماية من الخطر. ويقوم عليها كذلك بما أنفق من ماله إذ خلا وفرغ للكسب من علل الأمومة وهمومها. وتتجاوب الزوجة الصالحة مع قوامة الزوج لأنها بفضلها ألزم لرعاية البيت وأقنت وأطوع وأحفظ لغيبة الرجل الذي يدير البيت أميراً عن شورى ويخرج لكسب في الحياة العامة.

السلام في علاقات الزوجين خير لهما وللولد والأهل. وقد يبدر من الزوجة نشوز من حمية عاطفة في المرأة لا يشفيها مثل ما بيد الرجل من حق مبادرة الطلاق ولا يكفّها مثل تبعة النفقة على الرجل متاعاً وحضانة في الفراق. ويردُ نشوز المرأة جزاءٌ زاجرٌ وعظاً خاصاً أو إذا أفرطت هجراً في الفراش. أما إذا كان النشوز بفاحشة فإنما يردعها من ولاة الأمر الضرب جلداً بشروط الحد المعروفة. وقد يقع شقاق بين الزوجين. فكما يشهد الأهل الزواج وبه يحفلون عليهم أن يصونوه ألا ينقطع حبله بالشقاق. فعلى المجتمع أن يقيم حكماً من أهله وحكماً من أهلها يستعينان بعلم الأحوال وضغوط الأهل في سبيل تسوية علل الشقاق. فإن أراد الزوجان إصلاحاً بأثر طيب تلك المساعي فإن الله الذي قدر بينهما سكينة ومودة ورحمة يوفق بينهما بعد الخلاف ليستقيم بينهما سواء لا يعلو فيه ولا يكبر طرف على

الآخر، بل تسود روح التراضي وإرادة إصلاح البين فالله وحده هو العلي الكبير. ذلك هدىً لازم لتأمين الأسر في مجتمع المسلمين لكن أعراف التقاضي اليوم في خصومات الأسر عطلت التحكيم وضلت عن ذلك الهدى!

ترتيل المعاني

الايات (36– 43)

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا) (36)

السياق ينتقل من وصايا شؤون الأسرة السابقة إلى أصل وصية الحياة للمؤمنين : العبادة لله الواحد الذي لا شريك له والإحسان لذى القربى حول الأسرة والتحرر كما سبق لمجتمع المؤمنين من أعراف الشرك المادية المختالة البخيلة.

المؤمنون مخاطبون أمراً بعبادة الله وألا يشركوا به شيئاً. وذكر عبادة الله موصول كما في سياقات أخرى في القرآن بذكر الإحسان للوالدين. فالله الذي خلق الإنسان إلى الوجود أولى بإحسان العبادة له. والوالدان هما السبب الظاهر المباشر لوجود المخلوق ميلاداً. وهما بعد الله أولى الناس ذكراً وإحسان معاملة وفق حاجتهم، رزقاً أو براً ثم من حولهم ممن هو أحوج الناس للإحسان. فكل من له قربى رحم ونسب ينبغي أن يفيض عليه الإحسان. (واليتامى والمساكين) أولئك من ذكروا في الآيات من أول السورة لحفظ حقوقهم ويشملهم بهذا الذكر الوصية بالإحسان حتى ممن ليس لهم في ذمته وولايته شيء من حقوق. وكل ذي قربى نسباً وجواراً مكاناً يتعهدهم المؤمن بالإحسان. (والجار الجنب) الغريب ومن جمعته إلى المؤمن صحبة راتبة مثل زملاء العمل والسفر. والذي يمر على السبيل مسافراً أو ضيفاً. والذي تملك الأيمان حق الأسر عليه، له على المؤمن أن يحسن إليه. فالبشر كلهم من نفس واحدة مهما ميزتهم العلاقات والأوضاع الاجتماعية وصلهم بالإحسان. فالله يوصي بأن ترعى بالإحسان كل هذه العلاقات قرابة نسب أو جيرة أو صحبة أو ولاية سبيل أو أسر وأن الله لا يحب من مضت معاملاته فيها على الاختيال والافتخار فلا يستكبر المؤمن على عبادة الله ولا يختال على أخيه الإنسان لا سيما اذا ابتلى إزاءه بعلاقة خاصة، فالمجتمع الإنساني المتقارب كله موحد قائم على الإحسان.

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ[82] وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) (37)

بعد الوصايا السابقة في إطار الأسرة ألا يقع التظالم في الحقوق والأموال، يرد الأمر بالإحسان في إطار التقارب أسرة وخارجها، والنذارة إن الله لا يحب المختال الفخور غير المحسن، ويتصل وصفه ذلك

[82] قرأ حمزة والكسائي (بالبَخَل) بفتح الباء والخاء

الذي لا يحبه الله بأنه من الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل لئلا تضغط عليهم في المجتمع أعراف الإحسان بل لتشيع حولهم عادات البخل ويسود تمايز الطبقات المادية في المجتمع وأن أولئك هم أيضاً الذين يكتمون حكراً وسراً ما آتاهم الله من فضله رزقاً ومالاً عن بخل وهدىً وعلماً من ظلم. وكتمان فضل الدين احتكاراً والبخل بالمال استثماراً خلق يعبر بعضه عن بعض ويشير إلى خلق اليهود في المدينة، المشهورة في آي القرآن قصص بخلهم بالمال وكتمانهم للهدى. وذكر ذلك تمهيد لذكرهم بعد آيات، وصرف المسلمين عن الاختيال والفخر والبخل والكتمان تهيئة للانتقال بالسياق فيما يلي إلى تحرير المجتمع المؤمن من أمراض أهل الكتاب الأخلاقية بعد التحرير من أعراف الجاهلية. والإحسان لمن حول المؤمن تعبيرٌ عن عبادة الله وتوحيده ونشر فضله بين عباده، والاختيال والبخل والكتمان تعبيرٌ عن الإشراك بالله هوى النفس والكفر بفضل الله وحجبه عن العباد. وقد أَعتد الله لأولئك الكافرين المختالين الفخورين البخلاء الكاتمين عذاباً مهيناً يوم القيامة إهانة جزاءً على التكبر.

(وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الأَخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38)

السياق يتصل في الآيات لتحرير مجتمع المؤمنين مما حولهم من أخلاق اليهود بالمدينة من فتن المال التي قد يتورط فيها من ينحط عن الإحسان إلي الاختيال والفخر والبخل بفضل الله والدعوة لإشاعة ذلك الكفر بنعم الله أو يضطر إلى الإنفاق ولكنه ينفق ماله مرائياً للناس مراعياً لضغوطهم ترهبه أو طامعاً في مدحهم يرغبه، لكنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر ولا ينفقه شكراً وإشهاداً على فضل الله ونعمائه ورجاءً للأجر المضاعف يوم القيامة، فنياته في الإنفاق ليست عبادةً للرحمن حيث تظاهره الملائكة في الحياة الدنيا وتسالمه في الآخرة، بل هي من حيث يقارنه الشيطان يناجيه ويُسوِّل له الاختيال والبخل والكفر في الدنيا ويخذله عدواً في الآخرة قريناً إلى الخسران.

(ومن يكن الشيطان قريناً له فساء قريناً) ملازماً يزيد له السوء العاجل ويحشر معه في السوء الآجل.

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً[83] يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) (40)

بالغ علم الله موحد إلى بالغ عدله، فالله لا يظلم جزاءً ولو في مثقال ذرة وهو يضاعف جزاء الحسنة من العمل والإنفاق الخالص لله أضعافاً كثيرة يوم القيامة، ويبارك للمحسن إذ يؤتى من لدنه أجراً عظيماً. والآية في ختام السياق عن العلاقات المالية والاقتصادية في الأسرة خصوصاً وفي المجتمع عموماً تجمع ما قبلها من هدىً وتصله بأشد معاني الإيمان والتقوى والإحسان وجزاء الآخرة وتجرده عن الشرك والبخل أو الاختيال والرياء.

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا) (41).

[83] قرأ نافع وابن كثير (حسنةٌ) بالرفع

الله عليم بالإيمان والإنفاق كما يعلم الرياء والبخل، عدل لا يظلم مثقال ذرة بل يضاعف أجر الحسنة. كما أعد للكافرين عذاباً مهيناً. ويترتب على ذلك يوم القيامة أن تتوافر البينة للحساب. (فكيف) تقوم الشهادة أو البينة والحساب؟ ترتيب سؤال وعظي بياني لتلك الكيفية (إذا جئنا) حين أتى أمر الله من كل أمة جماعة من البشر بشهيد على أنه قد بَلَّغَهم تكاليف الرسالة وأحكامها. وجاء الله بالرسول المخاطب ﷺ شهيداً على الأمة المخاطبة أنه قد بلغها أن من آمن بالله واليوم الآخر موحداً بعبادته غير مشرك ومن بنى على ذلك الإيمان الإحسان والإنفاق إلى والديه وذوي قرباه وجيرانه وابن السبيل ومواليه أهل عند الله للجزاء المضاعف والأجر العظيم، وأن من كفر بالله وبنى على ذلك الفخر بالمال والبخل والتحريض عليه وكتمان فضل الله أو الإنفاق مراءاةً للناس لا قرين له إلا الشيطان، ولا مصير إلا العذاب المهين. والرسول الذي جاء بالرسالة إيماناً وإنفاقاً وتكاليف طاعة ووعداً ووعيداً شهيدٌ على أمة خطابه لتتم البينة بالبلاغ لا عذر لمن كفر وعصى.

(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى[84] بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (42).

(يومئذ) يوم القيامة إذ قامت الشهادة وحق الوعيد، يود الذين كفروا بالحق الذي جاء به الرسول إيماناً بالله واليوم الآخر وعصوا الرسول عندما دعاهم للإنفاق مما رزقهم الله – هو في هذا اليوم شهيد عليهم بالبلاغ إيماناً وأمراً ونذيراً.

يودون لو كانوا ذلك اليوم تراباً مهيناً. مستوياً على الأرض لا أهلاً من بعد للسؤال والعذاب المهين. وقد كانوا في الدنيا مختالين فخورين. ذلك اليوم بعد شهادة الرسول بالنذير تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم لا يكتمون الله حديثاً، وقد كانوا في الدنيا يكتمون فضله بخلاً ويكتمون كفرهم رياءً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ[85] النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43))

ذكر الصلاة يتخلل سياقات القرآن كما تتخلل الصلاة بدوامها ومواقيتها شعاب حياة الإنسان المؤمن. وقد جاء ذكر الصلاة هنا موصولاً بفتنة المال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.[*] وإقامة الصلاة وعياً بالله لا يغشاه السكر وطهراً لا تغشاه الجنابة تزكّي المؤمن، فلا يغشى المصلّي الفتنة مع المال رياءً للناس أو تنجساً بالفخر والخيلاء غفلة عن الله ونعمة في الدنيا. والخطاب تنبيه للمؤمنين ألا يقربوا الصلاة وهم سكارى، أن يباعد السكران ما بينه في حال غفلة وعيه وبين مقام الصلاة أو مسجدها، فهي صلة المؤمنين بخواطر يقظة وقلوبٍ خاشعة يعلمون ما يقولون من أذكار الصلاة، وتتوحد صلتهم

[84] قرأ نافع وابن عامر (تسَّوَّى) مشددة، وقرأها حمزة والكسائي (تسَوّى) مخففة السين وبفتح التاء

[85] قرأ حمزة والكسائي (لَمَستم) بحذف الألف

[*] سورة العنكبوت الآية 49

ونجواهم بالله وعياً وقولاً وحركة لعبادةٍ خالصةٍ لله مستقبلةٍ وجهه في حالة نفسية وفي بيئة الموضع مسجداً يعمر بذكر الذاكرين.

والسكر بلذة الزوجية يغرق المؤمن لحين في لهو وغفلة مثل السكر بالخمر، فحالة الجنابة بأثرها المجانب لحاله العادي تباعد الإنسان عن مستوى أمانة ذكر الله وتنحط به إلى جانبه الحيواني، ولكن شعيرة الغسل تجدد فيه التطهر والذكر وتعرج به وتهيئه للاقتراب من الصلاة ومسجدها. سوى أن عابري السبيل إذا كانوا جنباً فيمكنهم أن يمروا مروراً بصلاة المصلين الذاكرين متجاوزين إقامتها وعابرين مسجدها حتى يغتسلوا فيدخلوا الصلاة.

ثم أباح الله للمؤمنين إن كانوا مرضى لا يتيسر لهم الغسل خوف العلة أو على سفر أو جاء أحدهم من الغائط (وهو الموضع المنخفض حيث كان الناس يذهبون يقضون به ستراً حاجتهم حدثاً ونبذاً للفضلات من الفروج – والغائط من ثم كناية عن ذلك العمل) أو لامستم النساء (مباشرة بلذة الزوجية واللمس كناية عن ذلك) أباح لهم إن لم يجدوا ماءً للغسل أو الوضوء أن يتيمموا الصعيد الطاهر – أن تقبلوا على وجه الأرض التراب الطاهر من عارض فضلات النجاسة الطبيعية للإنسان. والتيمم يستكمله أن يُضرَب التراب باليدين فتمسح بأثر ذلك الوجوه والأيدى – فعلاً يمثل الغسل والوضوء صورةً ويؤدي مسه شعوراً بالخروج من حالات الحيوانية واللهو والغفلة إلى حال من الطهر تهيء للزلفى من الله صلاةً.

والله حقاً بالغ العفو والمغفرة يمسح عفواً عسر وقع التكاليف على عباده المؤمنين بما ييسر لهم عبادتهم وشعائرهم وفق أحوالهم وظروفهم ويغمر غفراناً بمسح من التراب حال كسب الذنوب التي كان يطهرها الغسل والوضوء ظاهراً وباطناً. فقد جعل الله التيمم بديلاً عن الغسل والوضوء لأصحاب الأعذار تخفيفاً وتيسيراً.

عموم المعاني

الآيات (36 – 43)

تقوى الله مذكورة في مستهل السورة وهي انضباط الهداية والحذر وهي أصل الوصايا التاليات المنزلات على مفصلات فتنة المال في أسرة الإنسان في أدق علاقات الحياة وأقربها إليه. وعبادة الله مذكورة في مستهل هذه الآيات هي الهداية العامة في الحياة وهي الأصل للإحسان – خلق يتربى الإنسان في الأسرة وقد يتزكى به فيمتد إنفاقاً للمال من بعد الرعية التي يتولاها رب الأسرة نحو أصولها والدين ثم إلى ما وراءها بصلة القربى أو الجيرة أو الصحبة أو الحاجة. وعبادة الإنسان لله شكره لا كفره بالفضل ، وولاؤه لله ثم لمن يلي من البشر لا للشيطان الذي قد يغري الإنسان فلا يتواضع بالعبادة بل يختال بالرزق المكتسب ، ولا يتكاثر شكره لله بل يفاخر بامتياز ذلك الكسب ، ولا يوالي في الله بكل حياته بل يحتكر المال وكل فضل ويكتمه على الآخرين إلا إذا اضطرته العلاقات أن يرائي ينفق ليكسب فوق الآخرين بالظاهر فخراً.

إن رسالة الإيمان تذكر الناس بحساب الآخرة حيث لا يظلم الله ذرة فالمنفقون من رزق الله إحساناً يعلمه الله ويضاعف لهم أجره العظيم. والمختالون ينتهون إلى مهانة عذاب، وأولياء الشيطان إلى قرين السوء، والكاتمون فضل الله إلى البوح والاعتراف، والمفاخرون إلى التمني أن تسوى بهم الأرض.

إن الإحسان والإنفاق وتجاوز غاشيات فتنة المال خلق يغذيه المؤمنون بالصلاة الذكر الأكبر للغيب إيماناً بالله ولقائه واليوم الآخر. ذلكم إذا أقيمت الصلاة تجاوزاً للغاشيات الحجب لذكر الله والغيب.

فالصلاة لا يقربها المؤمنون سكارى لأنها لا تمد القنوت والخشوع والإيمان إذا غشيها السكر حجاباً للوعي والذكر والصلة بالله. ولا يقربونها وقد استغرقتهم غاشيات الشهوة الزوجانية في عالم الدنيا حتى يغتسلوا تطهراً بالماء تعبيراً عن تحرر باطني يهيء المصلي لملاقاة الله ومناجاته. فإذا تعذر الغسل أو الوضوء مرضاً أو سفراً أو افتقاد ماء يمسح المؤمن ظاهر جسمه بالتراب الطاهر – أصل خلق الله الإنسان كالماء فهو أيضاً صلة الرجاء أن يجاوب الله التيمم بمسح باطن السيئات عفواً فيتلقى المصلي الطاهر وتتوحد الصلة بعالم الله الذي يعرج إليه المصلي.

تريل المعاني

الايات (44–57)

(أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44).

(ألم تر) انتقال بالسياق خطاباً وسؤالاً بالنفي تنبيهاً لمشهد من خُلُقِ بعض أهل الكتاب مما عمر به مجتمع المدينة ومما مهدت له الآيات السابقة بذكر الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله*. والذين أوتوا نصيباً من الكتاب : الإشارة لليهود الذين لهم تأريخ وبقية نصيب من علم الكتاب والنبوة السالفة، نسوا حظاً من الكتاب وكتموا بعض الحظ الذي بقي لهم تعصباً وطائفية ضد الرسول ﷺ غير الإسرائيلي ذريةً والإسلام المصدق المجدد للدين. فلا يحفظون خُلقُهم اختيالاً وفخراً ومالاً يبخلون به وحسب بل يهجرون نصيبهم من الكتاب الذي يبشرهم بالرسول ﷺ ويشهد على حق الرسالة التي جاء بها من عند الله ويشترون بذلك الضلالة عن الهدى المتجدد ويصرّون على التيه في الظلمات عن الطريق المبين، ويريدون أن يتابعهم المسلمون في ضلالهم وأخلاقهم وأن يضلوا معهم عن السبيل القويم وألا يستقلوا عنهم بالهدى الذي اختصهم الله برسالته ويخاطب المسلمين بما يريد بهم بعض أهل الكتاب.

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45)

خطاب المسلمين وعتاب لبعضهم ممن يستجيبون لنفوذ أهل الكتاب، يتخذون فيهم الولاية وينشدون النصر والله ينذر المسلمين بأن أولئك ضالون يريدون أن تضلوا السبيل ويبين أنه أعلم منكم

* نفس السورة الآية 37

بأعدائكم يلقون إليكم بالعداء لا المولاة والمناصرة. فاعتصموا بالله ولي الذين آمنوا وناصرهم وخازل أعدائهم ويكفيكم وحسبكم الله ولاية ونصراً.

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً) (46)

خطاب موصول للذين آمنوا أن الله أعلم بأعدائكم طائفة من الذين هادوا يتخذون مواقف كائدة، يحركون كلم الحق الذي أنزل إليهم عن حد سياقه في المعاني وعن حرف موقع أحكامه في الحياة، طلباً للضلالة وخروجاً عما يشهد للهدى الجديد عداءً للإسلام.

ويقولون استجابة لدعوة الرسول ﷺ وخطابه لهم بآيات الهدى (سمعنا) : تَلَقّينا صوتاً ما تأمر به وعصينا، يريدون إعلان الاستغناء عن مزيد خطاب والإياس عن رجاء طاعة، في عبارة ظاهر لفظها أنه هو ﷺ بلّغ وسمعوا وأنهم هم قصروا بالعصيان ويلقون على الرسول ﷺ أن اسمع منا كلمة الإباء ويدعون عليه لا أسمعك الله ما تحسبه وحياً وهدىً بعبارة ظاهر لفظها أنهم يحدثونه راجين أن يسمعهم ولا يسمع منها مكروهاً. ويؤذون الرسول ﷺ بقولهم : (راعنا) يلوون ألسنتهم عوجاً بلفظ كلمة في خطابه ظاهرها عربياً طلب رعايةٍ ونظرٍ ومقصدها من ذات الصوت بلغتهم إساءة ساخرة تنسب المخاطب للرعونة.

ولو أن اليهود إذ استمعوا لما أنزل الله قالوا لفظاً عربياً تعبيراً صادقاً ومعنى قويماً سمعنا : تلقت آذاننا كلمات الأمر التي جئت بها ونفذت إلى قلوبنا وأطعنا خشوع نفوس وخضوع جوارح لها، ولو أنهم حدثوك وطلبوا عندك التجاوب الرفيق فقالوا اسمع سؤالنا ومقالنا وانظرنا تمهلنا وتصبر علينا – إذاً لكان خيراً لهم من الكفر إباءً وسخرية وأكثر عدلاً واستقامة في الكلام والمذهب بعدما أوتوا من الكتاب. ولكن لعنهم الله لعنة استحقوها بكفرهم يشترون الضلالة عمداً عن علم بالحق ويعادون أهل الحق ويسخرون من داعيته ولا يؤمنون بما يبلغ أسماعهم من هدىً، إلا قليلاً منهم سمعوا فأطاعوا وآمنوا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (47).

خطاب وتنبيه بالنداء يتوجه مباشرة بالدعوة إلى أهل الكتاب – بعد ما كان من عداء وإباء وسخر – الدعوة بأن آمنوا بما نزل الله من ملئه الأعلى وجاء به الرسول ﷺ مصدقاً لما معكم ينبغي أن تؤمنوا به مطمئنين ولا عذر لكم إذ لا خلاف فيه لبقية الحق الذي معكم.

وسارعوا بعد أن استبان لكم الحق وتأكد، إلى الإيمان من قبل أن يدرككم يقين الموت فتلقَوْن جزاء الآخرة فنطمس فيكم وجوهاً منكرة لا مكرمة فنردها على أدبارها وقفاها، غير مقبلة، وفاقاً لما طمستم وبدلتم معالم الحق وحرفتم الكلم عن مواضعه وأدبرتم لا تعرفون قبلة ولا وجهة، ضالين عما هُديتم من قبل على سبيله قدماً.

أو سارعوا قبل أن يلعن الله وملؤه الأعلى أصحاب تلك الوجوه كما لعن أصحاب السبت الذين تلقوا الأمر من الله بالفراغ لشعائر العبادة ذلك اليوم فأدبروا واستحلوا الصيد بالحيل يوم السبت فلعنهم الله وكتب عليهم جزاء مضى قضاؤه ليوم القيامة، إذ جعل منهم القردة والخنازير إذ اتخذوا أعمال العبادة صوراً وحيلاً شكلية وتورطوا عمداً في الخبث والرجس*.

والوعيد من الله ماض نفاذه فالجزاء واقع قضاؤه وأمره سابق به القدر مفعولاً فعلى أهل الكتاب أن يسارعوا لاتقاء القضاء بالجزاء.

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) (48).

إن الله لا يغفر أن يشرك به، والإشراك في سياق كفر اليهود أن قد اتخذوا هواهم – هوى إباء الحق وعدائه عمداً وصداً – اتخذوا ذلك الهوى إلهاً من دون الله لا يؤمنون بالله معصية لتنزيله ويتعبدون للهوى طاعةً لغروره. ولكن الله يغفر ما دون ذلك من ذنوب يأخذ صاحبها الجهل أو تنازعه الشهوة أو يغلب عليه النسيان في عمل ولكنه لا يعمد عن علم وخيار وبعد تبين أن يعبد الهوى وما دون الله إشراكاً ونقضاً لأصل التوحيد. والذي يشرك بالله قد ارتكب إثماً عظيماً وافتراه عمداً وخرج قصداً عن مدى الغفران والرحمة من الله.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (49)

(ألم تر) سياق متصل وخطاب سؤالاً بالنفي تنبيهاً لمشهد ذات أهل الكتاب اليهود أنهم كانوا يتعبدون لأهوائهم شركاً بالله انتهت بهم خلقاً إلا أن يزكوا أنفسهم مدعين أنهم أبناء الله وأحباؤه لن تصيبهم النار إلا قليلاً. فهذه التزكية المفتراة هي من الهوى الذي أفضى بهم إلى الشرك ومرض الظن أنهم عرفاً خير أمة لا كسباً مهما فعلوا.

ولا يزكي المؤمن نفسه بل الله هو الذي يزكي من يشاء تقديراً لكسبه الصالح لا لعرقه، فالناس من أصل واحد والله هو الرقيب الحسيب على الأعمال، ولا يظلمهم الله فتيلاً قليلاً إذا استقام دينهم ولم يزكوا أنفسهم قولاً بل كسبوا تزكية من الله تقويماً لعمل صالح منهم لا يظلمهم الله العادل شيئاً في جزائه.

(انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (50)

خطاب ودعوة للنظر والتأمل كيف يفتري أهل الكتاب على الله الكذب تزكية لأنفسهم بما لم يزكهم به الله، ذلك بينما يكتمون الحق عن الله تصديقاً للكتاب الجديد وحملته، ويكفي ذلك الافتراء للكذب إثماً ويكفي بياناً أظهر من سائر الآثام.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلاً (51)

---

* راجع التفسير التوحيدي : سورة البقرة الآية 65

(ألم تر) خطاب آخر للرسول ﷺ المتلقي الوحي وأصحابه المسلمين بسؤال نفي ينبه إلى مشاهد الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت.* والطاغوت : فمهما أوتوا من بعض الكتاب وجاء تاليه من القرآن مصدقاً له ومهما كان ذلك ينبغي أن يهديهم للحق ألا تروهم يؤمنون بالجبت – ما دون الله من أصنام وسحر وكهانة ويؤمنون بالطاغوت، ما بلغ الطغيان المضاعف من شيطان أو سلطان أو ذي هيمنة اجتماعية أو روحية من البشر. ومن غيرتهم وحسدهم يقولون للذين كفروا بالغيب والآخرة والرسالات من المشركين العرب هؤلاء أهدى سبيلاً من المسلمين الذين آمنوا بالغيب وبالرسالة والكتاب الذي جاء مصدقاً لما معهم. وقد أوقعهم هم الافتراء والخيلاء والهوى والعداوة للمسلمين إلى التحالف مع أهل الجاهلية الإشراكية من عبدة الأوثان لأنهم حسداً كرهوا أن ينزل الله سبيل الهدى على من يشاء من عباده وأن يروا مجتمع المؤمنين في المدينة يستقل عنهم في دينه وثقافته ويكسب بقوة دولته وجهاده فضلاً على المشركين.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52)

أولئك من أهل الكتاب هم الذين وقعت عليهم لعنة الله بعد أن سبقت إليهم الدعوة للإيمان والتذكير بجناياتهم في التأريخ والتحذير والنذير بالعقاب طمساً للوجوه ولعناً كما لعن أصحاب السبت كما سبق ذلك (الآية 47) ولم يستجيبوا للإيمان بل غالَوْا في الكفر ومتابعة المشركين.

ومن يلعن الله فلن يجد المخاطب بالقرآن له نصيراً. بذلك يتحرر المسلمون من كل أثر لنفوذهم أو خضوع لثقافتهم أو استنصار بمن لا نصير له (الآية 45). ولن يوجد لليهود نصير مهما التمسوا ذلك بالتعاطف مع أهل الشرك والجاهلية (الآية 51) واللعنة واقعة بهم، كما هي الهزيمة واقعة بهم ولن يجدوا نصيراً من دون التوبة للاستهداء والاستنصار بالله.

(أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53)

أم أن الذي أغرى اليهود بحب الاختصاص والمفاخرة أنهم كما أوتوا نصيباً من الكتاب فحسدوا أن يؤتى مثله أحد ولو مصدقاً لهم كرهوا أن يؤتى نصيباً من الملك والتمكن والسلطان. وكما بخلوا بمثل الكتاب أن يكون لغيرهم وكما كان لهم نصيب من المال فبخلوا به مفاخرين حرصوا على نصيبهم من الملك والسلطة وبخلوا أن يتمكن المسلمون فينالوا نصيباً منه في دولة المدينة فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً من الملك ، قدر النقر الصغير على ظهر نواة التمر ويؤثرون احتكار السلطة في المدينة كلها ، السياسية والاقتصادية والثقافية ولا يقبلون أدنى مستوى من المشاركة. وقد تنزلت الآيات في حين اشتد فيها الصراع بين اليهود والإسلام الجديد وتطور من ثقافي إلى سياسي داخل المدينة، ومن حوله الصراع بين المشركين والمسلمين ، وقد بلغ حسد أهل الكتاب مبلغاً بعيداً وهم يرون الرسول ﷺ والإسلام يتمكن ويفك احتكارهم الشامل ويستقل عن نفوذهم ويمتد في وجه المشركين.

* إشارات كتب اللغة إلى الأصل الإثيوبي لكلمة الجبت

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54)

العداء مع المسلمين مفاخرة وإيثار الاختصاص أم هو أنهم يحسدون أيما بشر من الناس غير اليهود على ما آتاهم الله من فضله. والآية تردهم إلى ذكر آل إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعندهم أصول الدين وأصول العرب واليهود، وقد آتاه الله الكتاب تنزيلاً بالشرع والتكاليف وآتاه الحكمة هدىً تطبيقاً وتنزيلاً للكتاب على مقتضى الواقع. وآتاهم الله ملكاً وسلطاناً عظيماً شمال الجزيرة العربية وجنوبها، وكيف يحتكر اليهود الكتاب والملك ويحسدون المسلمين وهم عرب من آل إبراهيم الذين أوتوا ذلك.

(فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55)

فمن آل إبراهيم حسب تأريخهم من آمن بما آتاه الله من فضل رحمة بكتاب وحكمة وعلى ذلك نعمة بسلطان. لكن من آل إبراهيم ذرية من كفر برحمة الله وصد مدبراً عن هدى الكتاب والسنة وكفر بالنعمة غير شاكر وصد ضالاً عن الرشد مؤمناً بالطاغوت. ذلك كما كفر اليهود في المدينة وهم من ذرية إبراهيم – كفروا بفضل الله كتاباً وحكمة وملكاً لمحمد ﷺ وصحبه حسداً في وجه الفضل الجديد.

وكفي بجهنم سعيراً مصيراً للصادين عن سبيل الله كفراً وصدوداً.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56)

ختاماً لذكر أهل الكتاب وكفرهم وصدهم عن سبيل الله يثبت مؤكداً وعيد الله للذين كفروا بآيات الله المنزلة من كل هؤلاء ومن سواهم أن سيدخلهم ناراً تتبدل جلود الكافرين فيها كلما نضجت، والجلد موضع الإحساس يتجدد في الدنيا بطبعه كثيراً وهو مظهر الخيلاء وشعورها جعل الله احتراقه مستمراً متجدداً يوم القيامة ليذوقوا العذاب ألماً كلما حيي الجلد حساً بعد النضج والموات وخزياً كلما ظهرت بشرته، بعد السواد والرماد.

إن الله كان عزيزاً حكيماً : تتأكد واقعاً بذلك الوعيد للكفار صفة عزة الله البالغة لا يرضى الخيلاء والتفاخر على عباده وحكمته العالية يودع أمانة الكتاب وينزل عواقب الجزاء وقدر الله عزيز غالب وقضاؤه حكيم عادل.

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (57)

في خواتم قصة أهل الدين القديم وفي الوجه المقابل للكافرين ولعذاب النار يضاف ذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فمن كل أولئك المقيمين في البيئة التي تنزلت عليها لهم هذه الرسالة ومن ورائهم العامة المؤمنون من الناس وعداً من الله أن سيدخلهم في ملئه الأعلى جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين في نعيمها أبداً، كما خلد أصحاب النار في عذابها المستمر، ولهم مع نعيم الجنة وأنهارها ومائها وغذائها متاع الزوجية أزواجاً مطهرةً لذةً أبداً ويدخلهم ظلاً – مناخاً من الكون لا حر فيه بينما يحترق الكفار ولا برد وظليلاً كثيفاً باقياً.

عموم المعاني

الآيات (44 – 57)

إن للمسلمين أهل القرآن تذكرة بأن التدين عرضة بابتلاء التأريخ للتقادم والاعتلال، ولهم عبرة في سيرة اليهود ومن ورائهم النصارى أهل التوراة والإنجيل. وكما سبق للإسلام ديناً متجدداً في المدينة فهو كلما تجدد في العالم من بعد يقابل ظاهرة التدين المتقادم المريض من ملة اليهود والنصارى بل حتى ممن ينتسبون لملة الإسلام.

إن تقادم أصول الدين قد يجعل أهل التراث عرضة لهجر هدى الكتاب واتباع الهوى والضلال، ومن ثم لأن يعتصموا بذلك الضلال القديم ويسدوا سبل الهدى المتجدد ولو كان تصديقاً وإحياءً للأصول. إن أهل الكتاب المنزل الذين يضلون عنه يحيلونه إلى عصبيةٍ للتاريخ وحسداً وعداءً للجديد وأهله، يحيلون نص كتابهم إلى أصوات فيحرفون الكلمات عن سياقها ويتخذون العبارات أدوات نفاق للمجادلة والاستهزاء مع الجديد المحسود. كما يتخذون الأحكام نفسها أشكالاً ظاهرية ينقلبون عليها بالحيل المنافقة. إن ذلك النفاق بالدين ليس إلا مجلبة للعنة من الله والرد على الأدبار لكل المصائر فهو شرك للهوى بالله لا يغفر كما تغفر سائر الذنوب.

إن الدين المتقادم قد يبدله أهله من هداية تتجدد إلى تزكية لهويتهم بحكم التأريخ يفترون على الله الكذب أنهم بعرقهم أو بماضيهم خيار دون البشر ولكن الله العادل هو الذي يزكي الناس وذلك بكسبهم لا بالموروث. إن أهل التوحيد إذا ضلوا بالتقادم غشيهم التدين بماديات عالم الشهادة في خرافات روحية أو قوى طاغية بالهوى والجهالة على قلوبهم. ولذا مهما كان غيرهم مادياً لا يوحد الله ولا يؤمن بالرسالات ولا بالآخرة فهم يرونه أهدى وأولى لهم من المجددين الموحدين لله المؤمنين بالغيب. وذلك تورط في اللعنة المادية دون الله وليست مهما بدت طاغية نصيراً دون الله.

إن أهل الدين قد يمكنهم الله بسلطان في الأرض كما مكنهم حجة في الهدى، ولكنهم إذا تقادم تدينهم قد يضلون ويحسدون الآخرين حباً لاحتكار الهدى وبخلاً به واحتكاراً للملك من كل قادم جديد.

إن عبرة التأريخ منذ إبراهيم ﷺ أن إذا صدق المؤمنون بكتاب منزل فهو لهم حكمةٌ يتنزل على واقع حياتهم وقد يمكنه الله من ثم سلطاناً في الأرض. وكل تجديد للدين تسوقه سنة التأريخ بقدر الله لذلك في الدنيا. أما في الآخرة فللمؤمنين المتجددين أعد الله نعيماً حياً وللكافرين عذاباً متجدداً.

ترتيل المعاني الايات (58– 70)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا[86] يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)

استهلال الخطاب للمؤمنين بشأن الأمانات والحكم بعد أن مهد له السياق بذكر الملك العظيم الذي آتاه الله لآل إبراهيم، وبعد أن ذكر حسد أهل الكتاب والمنافقين وتحالفهم مع المشركين في مكة وهم يرون المسلمين وقد أسسوا سلطانهم وحكمهم على طاعة الله والرسول.

إن الله يأمر المخاطبين المؤمنين أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها –كل أمانة من عين أو مال لأحد وكل أمانة ولاية على حق أحد أو رعايته وكل أمانة مسئولية تجاه أحد – تؤدى إلى أهلها ترد أو تقضى أو تنفذ. والخطاب للمسلمين في بيئة التنزيل وقد آلت إليهم بحكم علاقات المجتمع والسلطة أمانات كثيرة. وأهل الأمانات أصحابها ملكاً أو من هم ذوو أهلية لها حقاً. والأمانات تمثل فتنة وابتلاء لكل قادم جديد على المجتمع والسلطة.

وحيثما حكمتم أيها المؤمنون بين الناس من كانوا في خصوماتهم معاملاتٍ وتصرفاتٍ تؤمرون بالحكم بالعدل. وأداء الأمانات والحكم بالعدل شرطان أساسيان للقيام بأمر الله لكل من مكن له الله في الأرض بنظام مجتمع وسلطان.

ويتأكد الخطاب في الأمانات والحكم بتأكيد تعظيم ما يعظ الله به المؤمنين و(إن الله نعما يعظكم به) : فمما مكن لهم الله وصاروا متصرفين في أمور الناس – ألا يخونوا في أمانة ولا يجوروا في سلطة. والخطاب يتشدد بهذه الموعظة حتى يؤسس المسلمون حياتهم العامة ويتطهروا من مثل سوابق أهل الكتاب في الأمانات وفي الحكم ، أولئك الذين لما كان لهم نصيب من أمانة الكتاب والمال والملك احتكروا وبخلوا أن يعطوا الناس شيئاً ، بل كتموا الحق والكتاب وبخلوا بالمال وصدوا عن الحكمة والعدل.

وقد تأكد حقاً أن الله رقيب بالغ السمع والبصر بالأقوال والأعمال في الأمانات والأداء أو الخيانة وفي الحكم والعدل والظلم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (59)

السياق يتصل مكملاً موعظة الله في الحكم والأمانات موضحاً مصادر الحكم في الإسلام ومبيناً واجب المجتمع المؤمن والرسول وأولي الأمر.

---

[86] قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي (نَعما) بفتح النون

الخطاب والتنبيه للذين آمنوا أمراً بأصل الطاعة لله، وأن للرسول من بعد طاعة معلماً وقائماً ببيان أمرالله يلي ببيعة المسلمين الأمر عليهم، ثم من بعد الرسول ﷺ كل من يلي سلطة الأمر من بين المسلمين وببيعتهم لا مستلباً سلطان ولاية الأمر من خارج صفهم. والآية ترتب المصادر ومن يلي السلطة وتوحد أصول الطاعة لله، فالطاعة لله أولاً وهي من ثم للرسول ﷺ مبلغاً عنه ومبيناً ثم لأولياء الأمور مؤمنين بالله متبعين للرسول.

فإن تنازع المؤمنون – والابتلاء لو رشد المؤمنون لا يؤدي إلى نزاع إلا قليلاً – ولكن إن تنازعوا وفيهم أولو الأمر فإنما يُحتكم ويُرد الحكم والعدل إلى الله – في القرآن وإلى الرسول ﷺ حكماً مباشراً في حياته أو مرجعاً إلى مرويات مسنونة حَكماً عنه. ذلك إن ثبت حتى مع فتنة النزاع الإيمان بالله وباليوم الآخر يوم الحساب – (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) – إن ثبت حقاً إيمانكم بالله عادلاً تعالى بميزان الحق عن ميول المتنازعين وباليوم الآخر يوم يأخذ الظالمين ويؤجر المقسطين أحكم الحاكمين.

الطاعة لله والرسول والرد لكل نزاع إلى القرآن وسنة الرسول خير من الاحتكام إلى الأهواء والطواغيت، وأحسن تأويلاً ومصيراً وقراراً لحفظ سلام المجتمع وتسوية سيرته ونزاعاته من الظلم والفتنة والفوضى.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا (60)

السياق يتصل لبيان موقف الزاعمين الإيمان المتحاكمين إلى ما هو شر ميزاناً وأسوأ تأويلاً. (ألم تر) الخطاب لمن نزل عليه القرآن بالسؤال نفياً وتنبيهاً لمشهد المنافقين من أهل الكتاب اليهود في مجتمع المدينة المسلم يزعمون أنهم آمنوا بشرائع القرآن الذي أنزل إليك وبشرائع التوراة الكتاب الذي أنزل من قبلك، ولكنهم لا يرضون تحاكماً إلى أمر الله وأمر الرسول ﷺ بل يريدون التحاكم إلى الطاغوت – من طغى منهم وتجاوز حتى ادعى لنفسه وهواه مرجعاً وسلطاناً يعود إليه الناس من دون الله – ذلك بينما أمروا في كتابهم وفي القرآن أن يكفروا بكل طاغوت يردهم لغير أمر الله وحكمه. ومن ورائهم الشيطان يوحي على إرادتهم تلك من إرادته أن يضلهم ويحرفهم عن هدى حكم الله إلى حكم أعرافهم الجاهلية الظالمة ضلالاً بعيداً يؤول بالمجتمع إلى شر عظيم.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (61)

أولئك المنافقون في مجتمع المدينة الذي يؤسسه ويقوده الرسول (ﷺ) إذا ذكروا وقيل لهم بعد المضلة تعالوا إلى حكم الله المنزل والرسول، قاوموا ذلك ويراهم الرسول المخاطب بالقرآن يصدون عنه ويرتدون عما يدعوهم إليه ارتداداً مطلقاً إلى الهوى ووحي الشيطان.

(فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62)

فكيف حالهم إذا أرادوا التحاكم إلى ما هو شر وأسوأ تأويلاً إذا وقع عليهم بما كسبوا بخيارهم فعلاً إن أصابتهم مصيبة وفتنة بالتظالم ثم من بعد جاءوك راجعين متعذرين يحلفون كذباً بالله أنهم بذلك الكسب الذي ورطهم في الفتنة ما أرادوا إلا إحساناً في تسوية النزاعات وتوفيقاً بالتحاكم إلى طاغوت متعارف لا شراً وظلماً كما وقع.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (63)

أولئك المنافقون في التحاكم هم الذين يعلم الله حقيقة ما في قلوبهم من غير ما يزعمون ويحلفون بالله عليه ويتعذرون به، وهو الذي يتولى بعد العلم جزاءهم. أما الذي يخاطبه القرآن قائداً حاكماً لمجتمع المدينة فيوصيه الله في شأنهم أن يعرض عنهم غير قائم عليهم بقوة السلطة وغير عاطف راحم، وأن يعظهم مذكراً بالتوبة إلى الحق وبحسن مآل التحاكم إلى الله وبعاقبة الارتداد، وأن يقول لهم في أنفسهم، في نفاقها وصدودها عن الصدق والإيمان قولاً بليغاً ينفذ إلى الموقع الباطن في النفوس لأنه يفضح حقيقتها ويعظها بالمصير.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (64)

السياق موصول في شأن طاعة الله ورسوله وشأن المنافقين الصادين عن إمامة الرسول وطاعته حاكماً وقائداً للمجتمع حتى تقوم وحدته ويستقر نظامه على تلك الطاعة. فأصل الدين أن الله في ملئه الأعلى ما أرسل من رسول كمحمد ﷺ إلا ليطاع لا لذاته أو مكانه بعرف الجاهلية ولكن بإذن الله رسولاً مبلغاً تالياً لأوامر الله وحكمه، على ذلك بايعه وأمّه وحكّمه المؤمنون.

فالخطاب من بعد لذلك الرسول بشأن أولئك المنافقين إذ ظلموا أنفسهم بالصدود عن مقتضى الإيمان وعرضوها للجزاء. فلو أنهم استجابوا للعظة والقول البليغ فتابوا وجاءوا للرسول ﷺ فاستغفروا الله عما سبق منهم وتجاوب معهم الرسول إذ اتحدوا معه طاعة بإذن الله فاتحد معهم مستغفراً الله لهم، إذاً لوجدوا عند تلك الزلفى الله ربهم تواباً رحيماً سريع التوبة بالغ الرحمة للتائبين لله ولحكم العدل عنده بعد أن صدوا عنه للظلم متعذرين.

(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)

يتصل ذكر طاعة الرسول ﷺ والياً لأمر المجتمع وتحكيمه شرطاً لتمام الإيمان، ويتأكد الخطاب قسماً بالرب وتكراراً لنفي تمام إيمان أولئك المنافقين الصادين مهما زعموا الإيمان وتذرعوا حلفاً بدعوى حسن الإرادة. لا يصدق ويتم لهم إيمان حتى يحكموك فعلاً في كل شجار ونزاع ينشأ بينهم، ثم يصدق باطنهم إجراء التحكيم بألا يجدوا في أنفسهم خواطر حرج أو ريبة مما قضى به الرسول حكومة فيما شجر بينهم

مهما كان وقع الحكم على أحد الخصوم ومهما ساد عليهم جميعاً بالحكم أمر الرسول وطاعته بإذن أمر الله وشرعه في الكتاب، وحتى يرضوا ويسلموا تمام الرضى والتسليم ظاهراً بالطاعة وباطناً بالرضى.

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ[87] مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66)

ولو أن كتب الله من ملئه الأعلى على أولئك المنافقين الخارجين على طاعة الرسول وأمره تعالى – لوكُتب عليهم حكماً أن تقتلوا من أنفسكم كفارة لجناية عامة راجت بينكم أو مقاتلة في سبيل الله أو اخرجوا من دياركم حذر الموت فيها أو الهجرة في سبيل الله أو جهاداً ما فعلوا ذلك إلا قليل منهم. وهذه عظة وتذكرة بسابقة الجناية من أهل الكتاب اليهود إذ خرجوا من التوحيد إلى عبادة العجل بحكم الطاغوت فيهم وسابقة خروجهم من ديارهم حذراً من فرعون، وفي كلٍ جاءهم حكم الله بقيادة الرسول موسى عليه السلام (.. إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم..) (البقرة 54) (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم..) (البقرة 243) ولو أن الله في المدينة كتب عليهم بالقرآن تصديقاً لما بين أيديهم أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من المدينة كفارة وهجرة ومجاهدة ومقاتلة ونفيراً في سبيل الله، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم من المضي في إصرارهم على الكفر والصدود عن حكم الشريعة وقضاء الرسول ﷺ، ولكان أشد تثبيتاً لهم على الحق من المنافقة والتعذر.

(وَإِذًا لأَتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67)

وإذاً لو استقاموا بالموعظة على حكم شريعة الله لآتاهم الله من لدن ملئه الأعلى أجراً عظيماً عاجلاً وآجلاً.

(وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (68)

وإذا لهداهم الله العلي صراطاً مستقيماً يؤدي للخير في الدنيا وللخير الخالد في الآخرة.

(وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69)

والذين يطيعون الله محتكمين لرسوله أولئك سيمضون مع أهل الصراط المستقيم إلى يوم القيامة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين الذين اهتدوا وامتازوا بالفضل أجراً بقدر من هَدْوا، والصديقين الذين آمنوا وصدقوا ذلك بلا ريبة ولا نفاق، والشهداء الذين كانوا شاهدين بكلمة الله حتى قتلوا في سبيلها، والصالحين الذين لزموا عمل الصالحات. فالذي يطيع الله والرسول ﷺ سيجد تلك الرفقة الكريمة يوم القيامة ويكون معها كما كان في الدنيا صاحباً وتالياً للنبي، صادقاً في طاعته ولو كلفته مصيبة في النفس والسكن، صالحاً يتقي الفساد في الأرض.

[87] قرأ ابن عامر (قليلاً) نصباً

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿70

ذلكم الأجر العظيم والهدى القويم وتلك الرفقة الكريمة هي فضل الله على عباده المؤمنين الذين يلتزمون حكمه ويطيعون رسله، شكروا جميل نعمة الله الذي خلقهم وهداهم مكافأة بالعبادة والطاعة في الدنيا ثم زاد الله عليهم فضلاً في الآخرة بنعمة خير وأبقى.

(وكفى بالله عليماً) كفى بالله بالغ العلم بالمؤمن لاينافق والطائع لا يصد غنياً عن شاهد أو دليل على أهل أجره وفضله.

عموم المعاني

الآيات (58 – 70)

قوة السلطان في حياة المؤمنين العامة ابتلاء لتمارس بميزان الحق. فالسياسة العامة أولاً أمانات تؤدى إلى أهلها – تصرف الولايات والوظائف العامة إسناداً إلى من يزكى لها، وتوزع العطايا والخدمات العامة لمن هو أولى بها بين الرعية ويحاط بالحقوق الخاصة التي تنتظر أن ينفذ ردها إلي أصحابها. والسلطة العامة ولاية على أحكام بين الناس تنزل بالحق والعدل تشريعاً أو تنفيذاً لنظام تسوى به الأوضاع والعلاقات العامة حكماً عاماً عدلاً في المجتمع أو قضاء يفصل بين الخصومات الخاصة عن بينة حكماً بالعدل بين الأطراف.

والأصل الحق الأول في ممارسة السلطان أمانة وعدلاً هو طاعة شرع الله توحيداً دون اتباع الهوى أو تحكيم القوة الطاغية. وذلك بتنزيل آيات القرآن الخالد على الواقع. والقرآن يهدي لأن يطاع الرسول بإذن الله وفق هديه ليبلغ ويبيّن للمسلمين وليأمر ويحكم بينهم سيرة أو سنة مروية بعده. وأصل الشريعة – قرآناً وسنة – يقيم للمسلمين من يتولى فيهم الإمارة والقضاء ويطاع. وأولئك يخرجون من المسلمين عن شورى أو يترتبون على أصلها ويقومون على مبايعة بشروطها. وأيما نزاع بين المؤمنين ووالي أمر منهم فإنما يرد إلى حكم الشريعة كما يتبينه ويجمع عليه المسلمون إذا كان أمراً عاماً أو كما يتبينه ويحكم به قضاتهم إن كان أمراً خاصاً.

هذه أصول الأحكام في الإسلام موحدة مرتبة من أدنى ولاية أمر إلى السنة إلى القرآن مرجعاً إلى الله. لكن الحياة العامة يغشاها الشيطان بفتن السياسة – يُغري قوياً باستلاب السلطة بلا شورى أو بالظلم بغير أحكام الشرع. وتقع بين المسلمين فتن الخلاف بلا تسوية أو إجماع طاعة للشرع الواحد. وإنما يحفظ المسلمون وحدتهم ونظامهم إذا كانوا موحدين لأصول الطاعات العامة لابظاهر النظم وحسب بل براسخ الإيمان بالله الواحد وميزان عدله ورقابته وباليوم الآخر ترقيباً وترهيباً. وذلك خير نظام أمانة وعدلاً بخير عاقبة في الدنيا رضى وسلاماً ووحدة وفي الآخرة كذلك.

إن أهل التراث الديني المتقادم قد تغشاهم فتنة في أصول السلطان السياسي يزعمون أنهم مؤمنون ثابتون عن تأريخ لكن يضلون عن حق الأمانات وميزان الأحكام بالأهواء يسلبون الأمانات ويخونونها

ويحكمون بهوىً أو طاغوت دون شرع الله – العوام يجهلون ويغفلون والوعاة يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً من عاجل المصالح أو يخشون الطاغوت. وكل الديانات تعرضت لتلك الفتنة التي قد تؤدي إلى كفر صريح بالله مالكاً راعياً للأمانات حكيماً بين الناس بشرعه، وقد تقود إلى نفاق بين الزعم والعمل فينفضح إذا قامت الدعوة من جديد لتحكيم شرع الله. ذلك كما حدث حين تجدد الإسلام في المدينة أو كلما تجدد الدين من بعد في سيرة المسلمين إذ يظهر المنافون صادين عن أداء الأمانة والحكم بالعدل حتى يبدو لهم أنهم اجتنبوا تطبيق الشرع خيراً وأحسن تأويلاً فأصاب المجتمع الشر وعاقبة السوء. عندئذ ينقلبون إلى دعاة الدين ورعاته يحلفون أنهم ما أرادوا بمواقفهم المتذبذبة إلا إحساناً وتوفيقاً في ضوء تطورات الظروف وضروراتها. أولئك موكولون إلى الله العليم، ولكن المؤمنين الذين يحملون راية التجديد والإحياء للإسلام ينبغي أن يعرضوا عنهم لا يحملون عليهم كرهاً وأذى ولا يوالونهم ولا يوادوهم بل يعظونهم بالحق ويواجهونهم صراحة بمذاهب النفاق في نفوسهم.

إن الله لم يرسل رسولاً والياً على الناس إلا ليطاع بإذنه تعالى لا لذاته هو. لكن الذين تزعموا الدين الكتابي في المدينة صوبوا لمحمد ﷺ الغيرة والحسد وخرجوا على شرع الله المتجدد برسالته. ولو أنهم بعد ذلك الظلم لأنفسهم تابوا راجعين إليه ليستغفر لهم لوجدوا الله تواباً رحيماً. هكذا لا يقوم تكوين سلطان شرعي حاكم إلا ليطاع بأصل طاعة الله فإذا نافق بعض المنتسبن للإسلام تقليدياً وصدوا عن الشرع بمختلف التعذرات عصبية لقديمهم الذي عطل الشريعة فعليهم أن يتوبوا ويعلنوها لقيادة المسلمين ليتوب الله عليهم. إن الحق المبين أنه لا يتم الإيمان حتى يحكموا القيادة الشرعية ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً من وقع الأحكام من جديد ويسلموا تسليماً لمقتضاها. وقد يكتب سلطان الشريعة على الناس تكليفاً هو كره لهم في جاهليتهم التي غشيتهم بعد ذبول تقاليد الدين كما وقع للكتابيين في المدينة إذ لو سمعوا خطاب تكليف الجهاد قاتلين مقتولين في سبيل الله أو مهاجرين الديار التحاقاً بصف المسلمين حيث سار ما استجاب إلا قليل. تلك عبرة فإن فريضة الهجرة والجهاد كلما تجدد الدين تحيا بعد موات وتصبح لزاماً لقيام الدين الذي يبدأ غريباً تحت وطأة الطاغوت القائم. وكلما وجب الجهاد لأول الأمر ما تجاوب له إلا قليل من ورثة التدين المتقادم. ولو كان المؤمنون يتجاوبون لا قولاً بل فعلاً لأيما موعظة لفرض ولو مكروه، لكان فيه خير كثير ولكانت استجابتهم تثبيتاً لإيمانهم ولصدق وعد الله لهم بأجر عظيم وهدى الله إلى صراط مستقيم في الدنيا من سنة المرسلين ونهج الصديقين والشهداء والصالحين وإلى حسن رفقتهم كذلك في الآخرة فضلاً من الله العظيم بعد أجره العظيم.

* * *

ترتيل المعاني

الايات (71– 104)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (71)

الخطاب ونداء التنبيه للمؤمنين والسياق يمتد إلى الحذر والنفير للقتال. فإقامة نظام الطوع للشريعة والتحكيم للسنة والولاية للأمر العام المؤسسة على الدين – ذلك لن يتمكن إلا بالجهاد ينفر له الذين يطيعون الله ورسوله. وقد مهدت الآيات السابقة بذكر كتابة الجهاد وقتل الأنفس في الله والهجرة من الديار وأجر فعل ذلك وحسن عاقبته وحسن الرفقة مع صف الجهاد ومع زمرة الذين أنعم الله عليهم في الآخرة : النبيين والصديقين والصالحين ومع المجاهدين الشهداء [*] .

والوصية بأخذ الحذر في الإعداد للجهاد خاصة في مجتمع المدينة الذي يقوم فيه جيوب من المنافقين يخافون على تقاليدهم ومصالحهم من سلطان الدين الجديد ولا يطمئنون بعد لحكم الشرع خاصة إذا اشتدت الابتلاءات وبلغت تكاليف الطاعة لحكم الله والرسول الطاعةَ لدعوة القتال في سبيل الله وتحرير المستضعفين الطائعين للظلم وتطهيرهم لطاعة الله وحده. فالحذر واجب من خطر العدوان من الخارج ومن علة الخذلان في داخل صف الجماعة المسلمة من المنافقين الصادِّين الذين إذا قيل لهم قاتلوا واقتلوا أنفسكم واخرجوا من دياركم سياحة في الجهاد ما فعلوه إلا قليل منهم.

فانفروا للجهاد ثباتٍ جماعات متفرقة سرية خلف سرية أو انفروا جميعاً تتعبأون جيشاً منتظماً كله في فيلقٍ واحد. وذلك حسب دواعي المعارك ومخاطر العدوان، وهو استجابة ونظام للجماعة المؤمنة في القتال خلف قيادة يتوحد تحتها الصف بعد أن توحدوا خلفها محكمين الشريعة من الله ورسوله ومن أولياء أمر المؤمنين بإجماعهم ومرجعهم إلى الدين.

(وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (72)

ويتصل الخطاب للمؤمنين المستنفرين للجهاد أن منهم حقاً فئة – منافقة خذلت جماعة المؤمنين من الاحتكام لأمر شريعة الدولة المسلمة وقيادتها – منخذلة عن القتال تبطئ عن النفير قاعدة عنكم هي التي تأخذون حذركم من خطرها على تمام التعبئة كما تحذرون من الخطر الداعي لتعبئة النفير.

فالمنافقون يتقلبون مع تقلب ابتلاءات الشر والخير والمصيبة والفضل، فإن أصابت المؤمنين المخاطبين بالنفير مصيبة وانتهى أمر الجهاد إلى هزيمة أو خسارة أو شهادة وقرح فأحدهم يفرح بسلامته دون صف المؤمنين ويقول قد أنعم الله بالنجاة عليَّ أن لم أكن معهم شهيداً للمصيبة.

(وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن[88] بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (73)

ذات المنافق الذي بطَّأَ عن القتال والذي لا يستشعر اتحاداً مع المؤمنين على المصيبة إذا أنعم الله عليهم وعادوا بفضل الله منتصرين أو غانمين فهو لا يذكر إلا نفسه وهواه وما فات عليه من مصالح النصر فيتحسر على خسارته الشخصية من فواته له ويقول كأن لم تكن بين المؤمنين المخاطبين وبينه

---

[*] راجع الآية 66 – 69 نفس السورة

[88] قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم وحمزة والكسائي (لم يكن) بالياء

مودة : يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً – أشاركهم في فضل مغنم النصر. فهو يبطئ عند النفير فإذا فقد مغنماً تحسر وتمنى سابق صحبة مع صف الجماعة. فالذي كان معها إنما كان عشرة ظاهرة لا تضمر وداً صادقاً يثبت عند النفير ويصبر على المصير أو يشكر بل نفاقاً لا يسارع إلى الجهاد ثم يفرح أو يتحسر حسب العاقبة مصيبة أو فضلاً للمجاهدين.

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالأَخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74)

الأمر بالقتال في سبيل الله موصول مترتب على سياق الوصية السابقة بأخذ الحذر والنفير بغير تبطؤ وفي سبيل الله بغير عاجلة خوف أو طمع فإذا تبطأ المنافقون عن القتال فليمض إليه الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة بائعين العاجلة طلباً للآخرة.(ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) من بعد الآيتين (66 – 67) أن الطاعة واجبة لكنها من قليل لو كتب أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم تكاليف كفارة أو جهاد أو هجرة وإذاً لآتاهم الله من لدنه أجراً عظيماً. من ينفر ولا يبطيء ويقاتل في سبيل الله فيقتل شهيداً أو يغلب منتصراً ولايميز بين مصيبة وفضل فالجهاد شهادة أو نصر هو وعد الله الذي يستقبله في الملأ الأعلى أن سيؤتى المجاهد أجراً عظيماً.

(وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (75)

وماذا يقعد بالمؤمنين المخاطبين المستنفرين عن القتال في سبيل الله بعد بيان أجره العظيم. فمالهم لا يقاتلون في سبيل الله ابتغاء أجره وفي سبيل خلاص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان بفئاتهم كافة.

تلك الفئات المستضعفة في المجتمع التي تدعو الله لحريتها وخلاصها وخروجها من القرية التي هم فيها – مكة – أو غيرها من قرى الجزيرة العربية التي يستبد فيها أهلها ظلماً يصادرون حريات الضعفاء وحقوقهم – الفئات التي تدعوه تعالى أن يجعل لها من لدنه ولياً يواليهم برحمته في عزلتهم وأن يجعل لهم إلى جانب ذلك نصيراً ينصرهم بعزته في صراعهم مع الظالمين.

(الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)

الذين آمنوا حقاً نافرين للجهاد ناصرين للضعفاء المظلومين يقاتلون في سبيل الله طاعةً لأمره ولإقامة شرعه العدل وابتغاءً لأجره العظيم. أما الذين كفروا فعلاً فهم يقاتلون في سبيل الطاغوت اتباعاً للأهواء الطاغية لفرض الأحكام الظالمة وتجاوزاً لحد الحق والعدل للوقوع في العذاب العظيم. فمن كان قتاله في سبيل الله يكن وليه الله، ومن كان قتاله في سبيل الطاغوت يكن وليه الشيطان يحرضه ويُغريه. ومن والاه الله هو الأقوى بقوة الله ووعده الصادق يضعف أمام قوته كل كيد للشيطان الكاذب الخاذل. فالأمر

للمؤمنين أن يقاتلوا الطغاة مطمئنين أن الله معهم وأن كيد عدوهم مهما بدا قوياً ضعيف أمام سلطان الله وعزته.

(أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ[89] فَتِيلاً (77).

(ألم تر) توالت في السورة سابقاً خطابات السؤال نفياً وتنبيهاً لمشاهد ذوي المواقف غير الصادقة ذات العظة في سيرة أهل الدين القديم. والآن تتوجه الإشارة لموقف من لا يصدق إيمانه بالدين المتجدد وقد تصاعدت تكاليفه لتبلغ فرض القتال. ففي مرحلة مكة حين القلة والذلة وبناء جماعة المؤمنين تزكيةً للإعداد وصبراً على الانتظار : قيل للمؤمنين كفوا أيديكم – لا تستفزكم المحنة من أهل الباطل يستضعفونكم ويحملون عليكم بفتن الأذى، فاصبروا وكفوا أيديكم ولا تندفعوا بالغضب لرد العدوان وأقيموا الصلاة تعزز إيمانكم وتكبيركم وخشوعكم لله وحده وتحرركم وتوحد صفكم وتوثق توكلكم على الله صبراً في الدنيا ورجاءً في الآخرة، وآتوا الزكاة تكافلاً للجماعة وتطهراً من حب المال وفتن المجتمع المادي الجاهلي – ولعل بعض المؤمنين كان يتهيأ فيعاجل المجاهدة بالقوة.

لكن لما قوي بأس المسلمين وانتظم كيان جماعتهم في دولة الإسلام وكتب عليهم بعد الشعائر واجب القتال في وجه تحديات العدوان، إذا فريق منهم لم يتهيأ بعد بقوة الإيمان ليصدقه بالطاعة جهاداً، بل شق عليهم أمر القتال حتى فتنهم وجعل خشيتهم للناس وخطرهم كخشية الله أو أشد خشية لم يصدقوا ويوحدوا الخوف من الله والتوكل عليه وحده إنما شاركت شعاب إيمانهم بالله غيباً وخالطته مشاعر عالم الشهادة تقديراً بالغاً لخطر ابتلاءاته، حتى دفعتهم ضآلة توحيد الخشية لله إلى أن يسألوا ربهم مشفقين : لم كتبت عليهم القتال تكليفاً كبيراً خطيراً، وأن يتمنوا على الله تأخير ذلك الكتاب إلى أجل قريب، لعلهم متعذرين أنهم – لذلك الأجل يرجون تمام التهيؤ بثبات النفوس أو الاستعداد بقوة الصف والشوكة. وأنهم دون ذلك في خوف من خطر على النفوس والأموال إذا دفعوها من بعد الصلاة والزكاة إلى القتال.

والخطاب للنبي القائد المذكر المحرض على القتال – قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى – أن يقول مجاوباً تساؤلاتهم المشفقة وتمنياتهم المسَوِّفة أن متاع الدنيا قليل ينبغي أن يباع من أجل متاع الآخرة الخالد. بنبغي ألا يفتن المؤمن حب متاع الدنيا وطول أجلها فكل ذلك قليل محدود فالآخرة خير لمن اتقى (ولا تظلمون فتيلا) إذا قاتلتم بالنية الصادقة في سبيل الله متقين دافع الحمية والغضب والغنيمة والجاه فالآخرة فيها متاع خير من الدنيا، أكثر وأطيب نعيماً وأبقى أمداً ولا يظلم المؤمنون المتقون فتيلاً جزاءً لما يصابون به في القتال جوعاً أو خوفاً أو نقصاً في الأموال والأنفس بل البشرى للصابرين الذين لا

[89] قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (يظلمون) بالياء

يخشون إلا الله ويسارعون لا يبطئون ولا يسوفون مجاهدين نصراً أو شهادة وفتحاً وكسباً عاجلاً أو سلاماً ونعيماً خيراً وأبقى في الآخرة.

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُل كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78)

القتال كما سبق التذكير واجب إقامةً للشرع المطاع ورجاءً للآخرة. وكما ينبغي ألا تأخذ المؤمنين خشية الخطر أو تمنى تسويفه وتراودهم دون خشية الله والمسارعة إلى آخرته، فليعلموا أن مكان الموت كأجله قدر من الله يدرك الإنسان أينما كان ولو شيّد بروجاً لإخفائه. فينبغي ألا يتخلف المؤمنون عند الإقبال إلى ساحة القتال معتصمين بالتحصينات والحراسات والواقيات من البروج المشيدة. فالموعظة لهم ألا يتقاعسوا عن الجهاد خوفاً من الموت فهو آتيكم متى ما قضى أجله وأينما قُدِّرَ أن يدرككم.

لكن المنافقين جهلاً بالأقدار المفعولة إن تصبهم حسنة كسباً من سَعْي أو قتال يقولوا هذه من عند الله نسبة إليه تعالى وإذا وقعت عليهم سيئة الموت أو القرح أو الهزيمة في الجهاد أو الشر والعسر في الحياة ردوا ذلك إلى رسول الله ﷺ تطيراً وشؤماً.

ثم الخطاب للنبي الهادي أن يعلمهم أن منظوم تصاريف الأحداث والواقعات بهم ضراء أو سراء عاقبة للجهاد أو لمساعي الحياة – كله بأقدار الله وأقضيته. فما لهؤلاء المنافقين والجهلة لا يفقهون أي حديث ومهما تنزل عليهم الهدى يعلمهم ويحدثهم عن منظوم القدر لم يحسنوا فهمه ، ويأخذهم إزاء قيادة الدولة المسلمة مجافاة سنتها والتشاؤم بتدبيرها ينسبون إليها المصائب ولايتذكرون قدر الله إلا فيما طاب لهم حسناً.

(مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79)

الخطاب يلتفت إلى الرسول ﷺ الذي برأه الله من تطير المنافقين ونسبة مصائب السيئات إليه جهلاً بفقه أقدار الله الغيبية ويذكر الرسول أن قضاء الأقدار من الله يُصَرِّفُهُ وحده على عبده. فالحسنة التي تصيبك نصراً في جهاد أو يسراً في الحياة فإنما هي قضاءٌ من الله جزاءً وخيراً مُقَدماً قبل جزاء الآخرة على عمل صالح من كسبك، أو فضلاً ونعمة ابتلاءً لك شاكراً. والسيئة التي تصيبك – بأساً أو ضراً– هي قضاء من الله ولكنها سبب بما قدمت يداك حقت عليك من نفسك وأوقعها الله عليك جزاءً وابتلاءً لصبرك وتوبتك عما سلف. وأرسلك الله من ملئه الأعلى للناس رسولاً – لا فألاً ولا شؤماً غيبياً – بل لتبلغهم هدى الله فيحسنوا فيجزيهم الله حسنة عاجلة وآجلة ولئلا يسيئوا حتى لا تصيبهم من الله سيئة بما كسبت أيديهم.

وكفى بالله وحسبه شهيداً على أنك رسوله وكفى به شهيداً على تبليغك الرسالة وأدائك الأمانة ولو أنكر الكاذبون والمنافقون رسالتك ونصبوك ملوماً بكل ما يصيبهم من سيئة جاهلين أنها من الله قضاءً ومن سيئات عملهم أنفسهم جزاءً.

(مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80)

السياق يتواصل لتثبيت الرسول ﷺ وطمأنته في وجه حملات المنافقين، فالذي يطيع أمر الرسول ﷺ القائد وحكمه فقد أطاع بذلك أمر الله واستحق جزاء الحسنة بالحسنة لا تفرقة بين طاعة الله وطاعة الرسول ولا شراكة للرسول في مصيبة السيئة بقضاء الله كما يتوهم ذلك الذين لا يفقهون. أما من تولى فَيُذَكِّرُ الرسول أنه ما أرسل عليهم حفيظاً ضامناً أقدار مصيرهم فهم أحرار منك مسئولون لله إن أحسنوا أو أساءوا أصابهم قدر الله جزاء بحسنة أو سيئة.

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ[90] طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (81)

وجانب آخر في سلوك الفئة المنافقة في مجتمع الرسول ﷺ أنهم يقولون :(طاعة) بمعنى سمعاً وطاعة لأمر الرسول ﷺ فإذا غادروا الرسول ﷺ بارزين من عنده تولوا عما أظهروه من سمع وطاعة وباتوا يتآمرون على عصيان ويتحدثون ليلهم غير الحديث الذي أظهروه أمامه. (والله يكتب ما يبيتون) الله يسجل في كتاب حسابهم كيدهم الخفي للمسلمين لا يخفى عليه منه شيء ولا تضيع بينة. والوصية للرسول ﷺ ألا يعاقبهم رغم نفاقهم ومؤامراتهم بل يدعهم معرضاً عنهم ويتوكل على الله فهو حسبه وكفاه وكيلاً يعصمة منهم ويرد عليهم كيدهم.

(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا (82)

أولئك المنافقون الذين يبيتون المعصية ويُظهرون الطاعة لا يكادون يفقهون حديثاً : يضطربون في فقه الحادثات وتأويل الابتلاءات فإن كانت خيراً قالوا هي من عند الله وإن كانت شراً نسبوها إلى الرسول ﷺ الذي يُصَرِّفُ الله حوله الحادثات جزاءً وبلاءً وما بعثه إلا رسولاً لاحفيظاً من الأقدار. أفلا يتدبر أولئك القرآن من الله الواحد ويفقهون تعاليمه متسقة موحدة في نسبة الأقدار غيباً وشهادة وفي غير ذلك. لا اختلاف فيه ولا تناقض. ولو كان كتاباً من عند غير الله لوجدوا فيه مثل اختلاف ما هم فيه من اضطراب تأصيل الحوادث وتأويلها ، ولو تدبروه هداية إلى سواء السبيل وقوام فقه الدنيا لآمنوا به كتاباً من الله وبالذي بلغه رسولاً صادقاً يطاع طاعةً لله.

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (83)

---

[90] قرأ أبو عمرو وحمزة (بيّت طّائفة) بإسكان التاء وإدغامها في الطاء

ويتصل السياق بوصف أولئك المنافقين وضعاف الإيمان الذين لا يردون الأحداث إلى فقه القرآن وتدبره توحيداً بل يثيرون بها مواقف تشاؤم بالرسول الذي ينافقونه نهاراً ويعصونه بياتاً.

فإذا ورد عليهم خبر أمر مما يتعلق بأمن المجتمع المسلم أو خوفه قراراً أو حدثاً ذهبوا يذيعون خبره ويشيعون الاضطراب في المجتمع بما لا يعلمون أصله وحقيقته. ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، كما أمرتهم الآيات بأن يردوا الطاعة للرسول ولأولي الأمر طاعة لله وأن يتدبروا الأقدار ويوحدوا أصلها كله بهدى القرآن، كذلك يوصيهم أنهم لو ردوا تلك الأخبار التي تتعلق بمجتمع المسلمين اقتصادية أو عسكرية أو سياسية – ردوها إلى الرسول ﷺ قائد ذلك المجتمع وإلى أولي الأمر الذين يمثلون الولايات المعينة المختصة من عامة المجتمع، إذاً: لأحاط بتأويل الخبر الذين يستنبطونه ويخرجون مغزاه من سياقات الأمور العامة بخبرتهم ومعلوماتهم ويردونه إلى ما ينبغي أن يترتب عليه ويبسطون ذلك على المجتمع بياناً وهدياً لا إشاعة وفتنة واضطراباً.

ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون ورحمته في مجتمع قد تؤثر فيه الشائعات وتضله وتفتنه عن سبيل الله، لولا ذلك وبنظام قيادة رشيدة ضابطة لاتبعتم سبل الشيطان وذهبتم مع المنافقين مذاهب الفتن والاضطراب والغواية لسوادكم الأعظم إلا قليلاً ممن يعلم الله.

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (84)

بناءً على أوامر القتال في سبيل الله ووصاياه للمؤمنين عامة الخطاب للرسول ﷺ قائداً وقدوة للمسلمين في وجه تحديات العدوان وابتلاءات الجهاد أن يبادر للقتال في سبيل الله، وذلك تكليف عيني يقع على نفسه بوسعها وإن لم يتجاوب معه أحد ويسأل عنه هو لا تزر وازارة وزر أخرى من المجتمع فلا يركن ولا يضعف أمام إرجاف المنافقين وحملاتهم وتبطئهم وخذلانهم، بل إن استجابة القائد أسوةٌ حسنةٌ توحي تجاوباً من الآخرين.

والقائد لا يقاتل وحده اعتزالاً بالتكليف والمسؤولية بل عليه أن يحرض ويدفع المؤمنين – حملة الإيمان صدقاً وتميزاً عن المنافقين، تعبئهم القيادة تجنيداً وتحفيزاً وأمراً للقتال. فبمبادرة القائد المتوكل الهاجم قوة وقدرة وبالتحريض والتدافع والحشد للقتال (عسى) –رجاء الموقنين ووعد المجيب الصادق– الله أن يكف صداً ودفعاً بأس الذين كفروا وقوتهم بعزته وقوته المطلقة والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً: يطمئن المؤمنين حتى لا يخافوا ويضعفوا أمام الكفار ويتوكلون على الله، فالله القاهر بأسه أشد من بأس الكفار عليكم، وتنكيله وهو المعز المذل أشد من تنكيل الكفار بالمؤمنين.

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (85)

من يشفع فلا يقوم وحده ولا يترك غيره وحده بل يكون شفيعاً لكل حال وتر ومن تكن شفاعته حسنة تصحب غيره إلى التي هي أحسن من صالحات الأعمال يكن له نصيب من الشفاعة فضلاً عن نصيبه العيني في الصالح الحسن، ومن يشفع صحبة التي هى سيئة يكن له كفل وزر منها فضلاً عن وزره في سيئته العينية. والشفاعة إضافة للوتر تضيف نصيباً أو كفلاً حسنة أو سيئة في كل عمل. وفي هذا السياق للآية الماضية أن النبي القائد مكلفٌ وتراً بالقتال وموصىً بالشفاعة تحريضاً. فالشفعاء هنا هم الذين يشفعون شفاعة حسنة في القتال بأن يحرضوا المؤمنين، فهؤلاء لهم نصيب من الأجر المضاعف، للمبادر أجره ومثل أجر من يشفع له دون أن ينقص ذلك من أجر المشفوع له شيئاً، والقيادة عيناً أول المبادرين للقتال لكنها لا تقاتل وتراً وحدها منعزلة بل تحرض وتعبئ للقتال، والذي يبطئ وينخذل ويدعو المؤمنين إلى التثاقل له كفل من سيئتهم مساوٍ لها.

وكان الله على كل شيء مقيتاً : يكتب قوتاً وأجراً لكل شيء، فالذي يشفع شفاعة حسنة يجد نصيباً من الأجر ونصيباً بقدر شفاعته الحسنة وجزاء الحسنات مفتوح بعدّ الذين يشفع لهم ويحرضهم على القتال، والذي يشفع شفاعة سيئة يجد كفلاً بقدر من يشفع لهم كذلك وعدّهم منخذلين عن الجهاد.

(وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86)

التحية لجماعة المؤمنين المخاطبين في خواتيم سياق القتال والتحريض عليه والتشفع للحشد له، هي موقف في العلاقة بين الجهتين المتقابلتين الكفار والمؤمنين. مبادرة التحية تعبيراً عن السلام يرد على المؤمنين بعد حال العدوان أو القتال. فالعدوان حال قد يرد دونها أو بعدها السلام. وأيما تحية سلام كذلك على المؤمنين أن تكون استجابتهم بمثلها أو بأحسن منها إذ لا يبدأون بالعدوان ولكن من اعتدى عليهم يردون عليه بالمثل لا يتجاوزون قدره أما إذا حياهم بالسلام فهم يجاوبونه بالمثل أو بأحسن، وإذا جادلهم جاوبوه يجادلونه بالتي هى أحسن.

إن الله كان على كل شيء حسيباً، بالغ الحساب دقيقه لكل على كل شئ من عمل، يحاسب من يشفع حسنةً محرضاً للجهاد بنصيب من حسنها، ويحاسب من يجئ بالسيئة بكفل منها، ويحاسب الذي يرد تحية السلام بأجره بقدر عمله مثلها أو أحسن منها، ويحاسب الذي يأبى أن يرد التحية ويصر على العداوة والقتال محتكماً إلى أهوائه متجاوزاً ميزان التعامل عدلاً وتقوى.

(اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87)

الدنيا قد يجتمع فيها الناس يُبتلَوْن، منهم من يُفتن فيتعبد لشتى المقاصد العاجلة ومنهم المؤمن الذي يوحد الله معبوداً. والجمع يوم القيامة والجزاء مقصوداً عبر كل ابتلاءات الحياة التي سبق ذكرها في سياق الآيات الماضية. والحق هو أن الله لا إله إلا هو لا تشرك به أهواء الدنيا وأن موعداً مؤكداً يجمع المؤمنين والمخاطبين من الناس كافة إلى يوم القيامة لا ريب ولا شك في ذلك حسيباً مقيتاً. فالذي يطيع الله وقيادة المؤمنين حتى إذا حُرِّضَ للقتال والذي ينافق القيادة ويتآمر عليها بياتاً، والذي يشفع شفاعة

حسنة ، والذي يشفع شفاعة سيئة ، والذي يقف بالقتال عند حدود التقوى ويرد تحية السلام بأحسن منها، والذي يسرف في العدوان ويتمادى في القتال مهما بسطت له التحية –كل هؤلاء سيجمعهم الله إلى يوم القيامة وسيحاسبهم الله وحده وهو على كل شيء شهيد (ومن أصدق من الله حديثاً) حديث الله بكل تلك الوعود صدق مطلق وحق لا يخلف ومَن مِن آلهة المشركين هوى يرجِّى وشيطاناً يُمَنِّي أصدق من ذلك الحديث، سبحان الله وتعالى.

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (88)

الخطاب منتقل من التوجه إلى الرسول ﷺ قدوة المؤمنين إليهم مباشرة والسياق موصول من القتال والسلام إلى العلاقات والتحالفات في ذلك بين القوى السياسية في الساحة العربية الأولى كلها حول المسلمين. وترتيباً على ذكر الله الرقيب الحسيب يسأل المؤمنين ماذا أصابهم في شأن المنافقين إذ تفرقوا في ذلك فئتين ، فرغم بيان حكم الله فيهم تذبذب المؤمنون حكماً في شأنهم وموقفاً: فئة تتخذ العطف والموالاة وأخرى تتخذ الفصل والمجابهة نحوهم.

والفئة الأولى كانت تمثل ظاهرة النفاق الداخلية لا يقبلون على الجهاد ومصائبه ويعرضون الطاعة للرسول ﷺ ويبيتون غيرها ويشيعون أخبار الاضطراب في المجتمع المسلم (الآيات 77–83). وكانوا نحو العلاقات الخارجية أقرب عاطفة إلى الديار والقبائل الكافرة باطناً والمنافقة لما بدا من قوة المسلمين وديارهم. وكانت القوى المنافقة منتشرة في أرض العرب حول المدينة.

فلم ذلك الاختلاف بين موقفين نحو القوى المنافقة والله أركسهم وردهم عن طريق الهدى وأهله بسبب ما كسبوا من نفاقٍ. ويسأل المؤمنون الذين عطفوا نحوهم موقفاً هل يريدون بذلك أن يهدوا من أضل الله ورده بكسبه ولن يجد المرء سبيلاً لهداية من أضله الله بكسبه فلن يقلبهم المؤمنون إلى الهدى بعد الضلال بالانعطاف والموالاة.

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (89)

المخاطبة والمساءلة دوماً للمؤمنين تتصل بذكر حيثيات النهي عن ولائهم، هؤلاء المنافقون الذين أركسهم الله بما كسبوا فارتدوا كافرين يكرهون لكم الإيمان والهدى حسداً من عند أنفسهم ويتمنون لو عدتم كافرين مثلهم، فلا ترجوا بهم خيراً وهم يرجون بكم شراً. وفي سياق العلاقات الخارجية بأولئك المنافقين ولما تقدم عنهم يُنهى المؤمنون أن يتخذوا منهم أولياء حتى يبدو منهم الانحياز والولاء لصف المسلمين صدقاً بعمل ظاهر في سنن الموالاة القائمة – الهجرة في سبيل الله من ديار المنافقين إلى المدينة التي مثلت مركز كيان المسلمين أمة متوالية متناصرة.

فإن تولى أولئك المنافقون وأدبروا عن الولاء والهجرة لمركز الإسلام انحيازاً للعداء والحملة عليه فالأمر أن يأخذهم المسلمون اجتياحاً وحرباً حيث وجدوهم وأينما ألفوهم في سياق حملة تطهير الجزيرة العربية من القوى والجهات القبلية المنافقة التي تظاهر المسلمين بتحية السلام ولكنها تحيطهم كيداً وبأساً عادياً وظلماً على المستضعفين، فلا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً بل هم في صف الأعداء يفاصلهم الصف المسلم في دار الكفر حيث الأخذ والقتل في سبيل الله لإنقاذ المستضعفين المظلومين، ولا يتخذ إزاءهم موقفين بل موقف واحد من فئة واحدة كلها منافقة في صف الأعداء [*].

(إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (90)

الاستثناء من حكم المفاصلة والمقاتلة مع القوى المنافقة للذين يصلون قوماً آخرين، بين المسلمين وبين أولئك القوم ميثاق تحالف أو تسالم ألا يعتدوا ولا يعتدى عليهم ولا يناصر عدو ضدهم ، فالقوة المنافقة تدخل في ظل الأمان صلة بهذا العهد مع أولئك القوم.

وحالة استثناء آخر من المفاصلة والمقاتلة للمنافقين الذين لم ينحازوا بالهجرة لمركز المسلمين ولكنهم جاءوا إليهم معبرين عن حرج حصرت به صدورهم وضاقت به أنفسهم أن يقاتلوا المؤمنين أو يقاتلوا قومهم تحيداً وقد أعلنوا هذا الموقف للمسلمين. فالله يذكر المؤمنين بنعمة الحياد التي ألزم بها هؤلاء أنفسهم وكان يمكن لو شاء الله بقدره أن يسلطوا عليكم فلا يحايدون، بل تنحاز قوتهم لصفوف أعدائكم فيقاتلوكم قطعاً معهم.

إن ثبت هؤلاء المحايدون على حيادهم معتزلين عن قتالكم وألقَوْا اليكم السلم (فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً)،يترتب على قدر الله أن لم يسلطوا عليكم بل رَمَوْا إليكم بالسلام أن الله لم يجعل لكم عليهم سبيلاً حجة تقوم عليهم طريقاً للمقاتلة وفق ميزان العدل في العلاقات الخارجية ألا عدوان بالقوة إلا على من بادر بالاعتداء وبمثله وأن من حيّا بتحية السلام فإنما يُحيّا بأحسن منها أو مثلها.

(سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إلى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (91)

يستمر الخطاب للمؤمنين في شأن فئة ثالثة من قوى النفاق حولهم غير الفئة التائبة المهاجرة إليهم والفئة المحايدة المسالمة، فستجدون قوة منافقة أخرى غير من سبق ذكره أولئك يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم المعادين للمسلمين يبحثون عن سلامتهم هم من خطر في الجانبين. فهؤلاء لا السلام لهما وكف يد القتال نحوهما، لكنهم كلما ردوا إلى الفتنة وعُرِّضوا بعد المآمنة نفاقاً لحالة ابتلاء وتمحيص أركسوا فيها

[*] الآية 75 نفس السورة

فارتدوا منحازين لقومهم ضد المسلمين، فاضحين أن حيادهم ما كان صدقاً بل حيلة للأمان. فإذا ترتب عن ارتكاسهم أنهم لم يعتزلوكم أيها المؤمنون نأياً عن العدوان وأنهم لم يلقوا إليكم كلمة السلام وميثاقه ولم يكفوا أيديهم فعلاً عن المقاتلة – إذا لم يوفوا شروط الحياد الصادق بل تعدوا حدود السلام، يترتب الرد العادل أمراً أن خذوهم ولا تكفوا عنهم واقتلوهم دفعاً دماً بدم حيث ثقفتموهم – تأخذون المتولين بياناً وتقتلونهم حيث وجدتموهم، وتفعلون ذلك للماكرين حيث أصبتم فيهم وجه الارتكاس.

فعلى أولئك المتذبذبين نفاقاً ومكراً جعلنا لكم حجة في قتالهم واضحة وفق معايير العدل وميزان العلاقات الذي لم يجعل لكم سبيلاً على المعتزلين المسالمين مصدقي كلمة السلام.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92)

يأتى ذكر قتل المؤمن بعد الذكر السابق لمجتمع المسلمين للتحاكم عدلاً للشرع والأمر العام وبعد الذكر التالي لعلاقاته بالقوى من حوله التي تختلف مواقفها إيماناً أو نفاقاً ومواثقة مسالمة ومحايدة أو ارتكاساً وعداءً – مجتمع جديد البناء بعد الجاهلية وعلاقاتها المضطربة التي قد يقتل فيها المؤمن خطأ أو عمداً.

وتقوم الأحكام عامة على كل قتل لمؤمن. فالإيمان يحرم على المؤمن قتل المعاهد أو المحايد أو المسالم وإن كان كافراً، فنفس المؤمن أشد حرمة، والمؤمن أتقى لله من قتلها، وما كان له أن يفعل ذلك إلا خطأ، فمن قتل مؤمناً خطأً فعليه كفارة لذنبه وخلفاً لمن قتل تحرير رقبة مؤمنة من العبودية، فالذي يحرر مؤمناً يؤدي مما دفعت يمينه كأنه قد ولده من جديد إذ وهب له الحياة الحرة وفي مقابل المؤمن الذي فقد بسبب القتل الخطأ كأنما أخلف بهذا التحرير مؤمناً جديداً. ثم على القاتل خطأ أن يؤدي ديّة يسلمها إلى أهل القتيل عوضاً إلا إذا تنازلوا عنها للقاتل تصدقاً منهم لله. فإن كان القتيل من قوم عدو للمؤمنين وهو مؤمن فلا تدفع لهم دية إذ ليس بينهم وبين المؤمنين معاملة تعاوض عدل بل بينهم تخاصم ومجاهدة. لكن كفارة التحرير قائمة على القاتل.

فإن كان القتيل من أهل عهد وميثاق مع المؤمنين فتدفع إليهم الدِّية عن قتيلهم المؤمن فضلاً عن كفارة التحرير. فمن عَجَز ولم يجد ما يلزمه لتحرير رقبة بعد أداء الدية فكفارته عن القتل الخطأ لمؤمن أن يصوم شهرين، فكما كان تحرير رقبة مؤمنة كإطلاق حياة أتم، تجيء كفارة الصيام قيداً على شهوات حياةً المخطئ يتطاول توبةً إلى الله.

الله حقاً بالغ العلم دقيقه بحياة عباده وحوداث الشر وموازين الخير في علاقاتهم وهو عادل الحكم ينزله على وقائع حياة للمجتمع حفظاً لأرواح المؤمنين من الخطأ وكفارة وتسوية لآثاره.

(وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)

الوعيد الشديد لمن يقتل مؤمناً متعمداً بالخلود في النار جزاءً وغضب الله واقعٌ عليه ولعنته، وأعد الله له عذاباً عظيماً. ولا تذكر له كفارة ولا توبة لتأكيد عظم الجرم وشناعته ولا يذكر عفو من الله ولا مغفرة ولا رحمة. والله يقبل التوبة عن كل الذنوب حتى الشرك وهو أعظم من القتل العمد ، ولكن الوعيد الشديد يؤكد أن توبة القاتل المتعمد تقتضي أداء التكاليف السابقة كلها الفدية والصيام وتحرير الرقبة ثم إخلاص القصد والأعمال الصالحة عسى أن تثقل الموازين لمغفرة الله ورضوانه يوم القيامة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا[91] وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ[92] لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94)

الخطاب للمؤمنين إذا خرجوا ضاربين في الأرض مسيراً وجهاداً في سبيل الله ألا يتعاملوا مع الغرباء جهالةً وريبةً بالظاهر الحسن لمبادرتهم وفتنةً ومناهزةً للغرض بل تقوى وعدلاً. والأمر انضباط حركة المؤمنين المجاهدين خارج بيئتهم المعروفة بتأسيسها على التبين والتثبت لحيثيات الواقع، فمن لاقَوْه عرضاً فأعلن السلم بكلمة ألقاها لا يجوز أن تغلب ريبتهم فيجاوبون ظناً بباطن من علم الله وحده أنه ليس بمؤمن، فهم لا يأمنونه ولا يثقون بكلمته، وتفتنهم النهزة السانحة العارضة من متاع الدنيا ليهجموا عليه، يبتغون الغنيمة العارضة القليلة سلباً لمال من لقيهم أو كسباً لسمعة وشهرة بالهجمة عليه أو قتله. فعند الله مغانم كثيرة تغني المؤمن التقي وتفرحه في دار السلام.

كذلك كانت فيكم أخلاق الجاهلية تناهز الفرص هجماً وقتلاً ومن أجل عرض الحياة الدنيا مغنماً وبطراً فَمَنَّ الله عليكم بنعمة الإيمان، يدعوكم ألا تسيروا في سبيل الله أو تعاملوا إلا عن بينة وإلا ابتغاء وجه الله.

ويتأكد الأمر كرةً أخرى بعد الموعظة أن تبينوا لا يقع المؤمن في الظلم ظناً أو القتل عمداً. إن الله حقاً خبير بواقع ما تعملون بآثاره الظاهرة ودوافعه الباطنة في سبيل الله أو لعرض الدنيا. وقد سبق ذكر غضب الله ولعنته وعذابه لقتل المؤمن تعمداً.

(لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ[93] أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95)

---

[91] قرأ حمزة والكسائي (فتثبتوا) في الموضعين

[92] قرأ نافع وابن عامر وحمزه (السَّلم) بالقصر

[93] قرأ نافع وابن عامر والكسائي (غيرَ) نصباً

بعد الأمر بالقتال والتحريض عليه في سبيل الله جاء ذكر يتوالى وتتكثف وجوهه لضوابط مساعي المسلمين خارج ديارهم في سبيل الله علاقات ومجاهدات، وتلحق الآية دوافع للجهاد بذكر فضله على القعود.

فالمؤمنون القاعدون عن النفير والضرب في الأرض للجهاد غير أولي ضرر عذراً كالمرض والعجز لا يستوون درجات مقام عند الله والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم يبذلونها لنفقات الجهاد – إعداد سلاح أو محمل أو خلافه – وأنفسهم جنوداً خارجين سائرين مقاتلين.

فقد فضل الله أولئك ورفعهم درجة فوق القاعدين، وكل المؤمنين وكلا الزمرتين منهم مجاهدين وقاعدين بصالح الأعمال دون الجهاد وعد الله المثوبة الحسنى، لكن درجة الفضل التي جعلها الله للمجاهدين فوق القاعدين هي أجر عظيم يوم القيامة، أعظم من مستوى الحسنى الموعودة لكل مؤمن صالح.

(دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (96)

درجة فضل المجاهد تتعاظم درجات من الله ومغفرة ورحمة تزيده تطهراً وتبركاً. وكان الله حقاً في شأنه واسع المغفرة بالغ الرحمة في شأن من تعلو درجاته وهو كذلك الله الغافر الراحم على من يوعد الحسنى أيضاً.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97)

إن القيام للجهاد خروج من أثقال القعود بفتن الخوف ولهو المتاع ولكنه من قبل خروج من أرض الكفار وتعلقاتها نسباً ومعاشاً وهجرة لدار السلام وانضمام لصف المسلمين ليتمايز الصفان خبثاً وطيباً فيتدافعا مجاهدة. إن الفئة من المسلمين الذين ترهنهم التعلقات بأرض الكفار ظالمي أنفسهم حارميها من حرية التطهر والتحرر والفلاح بين المسلمين – ذلك حتى يأتيهم يقين الموت على فراشهم أو مصرعهم حيث كانوا في معسكر الكافرين قتالاً مع المسلمين. أولئك تتوفاهم الملائكة قابضة أرواحهم وتسائلهم محاسبةً في أي حال كانوا قابعين من أمر الحياة والدين ويقولون متعذرين أنهم كانوا مستضعفين في أرض الكفار ولا يستطيعون في تلك الدار وفتنتها الاستقلال والهجرة، ولكن الملائكة تدحض عليهم ادعاءهم اعتذاراً وتسألهم استنكاراً ألم تكن أرض الله واسعة يتحرك فيها المؤمن مهاجراً خارجاً من هيمنة فتنة الكفار داخلاً دار المؤمنين وصفهم المجاهد.

أولئك الذين رهنوا أنفسهم للكفار ظلماً لا مأوى بالهجرة إلى دار المؤمنين حتى حين الوفاة والحساب لا ملجأ لهم من بعد بالأعذار وإنما مأواهم جهنم وساءت مصيراً هجرة من حسنى المسير نحو عسرى المصير.

(إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (98)

يقوم الحساب ويحق العذاب للذين تثاقلوا من الهجرة إلا المستضعفين فعلاً وصبراً لا قولاً وعذراً، وهم الرجال الذين سلكتهم حالهم في أسرٍ مع آخرين من النساء والولدان الواهنين طبعاً وبعرف تلك البيئة الجاهلية وقد أحكم عليهم الكفار الحصار حتى أنهم لا يستطيعون ولو قوة لحيلة يكسرون بها ذلك الطوق ولا يهتدون سبيلاً وطريقاً يتخذونه للهروب والهجرة إلى مراكز المؤمنين.

(فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99)

فأولئك المستضعفون المحصرون عن الهجرة عسى الله – أن يعفو عنهم – رجاءً في حال كبيرة دعت إليها الضرورة التي تقدر بقدرها ويشفق المؤمنون ألا تبلغ درجة العفو ويطمعون في سعة الله. وحقت سعة الله سمح العفو كثيراً بالغ الغفران وفيره ينجو برحمته من حَبسه الضعف عن الهجرة للصف المسلم وأربك بذلك الحال تمايز الجماعات عن أن تراجع حبسه بغير علم المؤمنين المقاتلين.

(وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (100)

يمضي سياق المفاصلة والمجاهدة بين المؤمنين والكفار وخاصة حركة الارتهان أو الإحصار استضعافاً دون الخروج والهجرة والانحياز إلى مركز المؤمنين، فالذي يعزم على التحرر من أثقال أرض الكفر وينشد دار الإسلام فيخرج ساعياً في سبيل الله يجد في الأرض الحرة مهرباً ومهاجراً من الكفار ومغضباً لهم كثيراً رغماً عنهم ومتسعاً لسعي الرزق وساحة العمل والعبادة والجهاد في سبيل الله.

ومن صدقت نيته من مبتدأ الخروج من البيت لا هارباً وحسب بل مهاجراً ساحة الباطل وأهله إلى قبلة العبادة والجهاد ومقام الطاعة والموالاة للرسول ثم يدركه الموت قبل أن يبلغ هدفه وقعت عليه مصيبة الموت دون انقضاء سعيه فقد وقع أجره على الله وأتم له الجزاء. والله حقاً واسع الغفران بليغ الرحمة يغفر له ما اضطر إليه من احتباس مع الكافرين قبل الهجرة إلى قريب من أجله، ويرحمه بتمام الأجر ولم يبلغ انتهاء المسعى إلى مقصده.

(وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (101).

يرد ذكر الصلاة في كل سياقات القرآن لأنها عماد الدين عبر كل سياقات الحياة ويأتي ذكرها هنا في مسير الضارب في الأرض الخارج من مقامه المستقر الآمن، لأنها صلة بالله في كل مكان وظرف. والخطاب في الآية يرفع الحرج إذ لا يميل عليهم جناح وطأة إثم إذا ضربوا في الأرض مسافرين أو مهاجرين منتقلين إلى بلد أو مقاتلين عند مسافة، فلا جناح عليهم أن يقصروا صلاتهم فيختصروا الأربع الركعات من الظهر والعصر والعشاء في اثنتين. ذلك إن خافوا أن يفتنهم الذين كفروا بحملة فجاءة من وراء وهم في صلاة تطول.

والحكم كذلك في قصر الصلاة حيثما سافر المؤمن – فهو في غير أمن مطمئن النفس كما في الوطن إقامته المألوفة (كما بسطت ذلك سنة النبي العزيزُ عليه عنتُ المؤمنين الحريصُ على التيسير لهم حيثما صلَّوْا في السفر والغربة مخافة الفتنة). وكان غالب سفر المؤمنين هجرة ومسيرة جهادية غير آمنة في بيئة يحيط بها الكافرون والمنافقون، فالكافرون يتأكد عداؤهم البين للمسلمين الذين لا يطمئنون ولا يأمنون في صلاتهم وحياتهم إلا في الوطن المستقر.

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (102)

في صلاة المسلمين – وهم يضربون في الأرض جهاداً للكفار يخافون فتنتهم ويحذرون هجمتهم المتربصة ذكرٌ لله يحافظ أصله لا سيما في حين ابتلاء، وكما تقصر الركعات قد تُجمع الصلوات مُشتركة الوقت بلا جناح تُنظم صلاة الجماعة بما يراعي الحراسة المتناوبة.

والخطاب للرسول ﷺ القائد إذا كان بين المؤمنين أقام لهم الصلاة إماماً فلينقسم حشدهم ولتقم طائفة منهم مأمومين مع صلاة الإمام وعليهم أن يصلوا آخذين أسلحتهم استعداداً واحتياطاً ، فإذا سجدوا ركعة أولى جلس الإمام وأتموا ركعتهم الثانية وقضوا الصلاة قصراً ثم انصرفوا وقاموا من وراء طائفة أخرى كانت قائمة حارسة هي تدخل الصلاة ليؤمهم الإمام في ركعته الثانية ويسلم ويتمون هم ركعتهم الثانية آخذين حذرهم وأسلحتهم. والتجرد أو الخشوع في الصلاة لا يتم اطمئنانه إلا بهيئة تهديء الخوف، وسلامةُ المسلمين أقرب إذا أخذ المصلون الحذر بقوة بينما يستمدون من قوة الله بخشوعهم ودعائهم في شعيرة العبادة. في ظرف القتال على المسلمين أن يتخذوا غاية الحذر ولا يدعوا أسلحتهم حتى في الصلاة لأن الكفار المتربصين يودون لو غفل المسلمون بإقامة الشعيرة عن حمل الأسلحة وولوا شطر القبلة مكبكبين وجوههم قانتين لا يلتفتون لمراقبة أمتعتهم فيميلون عليهم ميلة وهجمة واحدة تأخذهم فجأة على غرة. فالأصل في حوائط الجهاد والمواجهة ألا يضع المسلمون سلاحهم حتى في الصلاة، لكن لا جناح عليهم في ظروف استثنائية كأذىً ووحل من مطر أو إن كانوا مرضى أن يضعوه، لكن يلزم أن يظلوا آخذين الحذر من المتربصين لا يفعلونه سائبين.

ختام الذكر أن الله أعد لهؤلاء الكافرين الذين تربصوا بالمؤمنين واضطروهم لذلك الحذر وحمل السلاح وقصروا من صلاتهم وشقوا جماعتها وقاتلوا من بعد المؤمنين – أعد لهم عذاباً مهيناً وفي ذلك طمأنة وعزاء للمؤمنين.

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (103)

الصلاة ذكر الله الأكبر فإذا قضاها المؤمنون صلاة خوف اقتسمت جماعتها وقصرت، أو صلاة التمام لم يتيسر فيها نظام جماعة ولا تمام قيام وجلوس وركوع وسجود إلا إيماءً وذكراً. فإذا قضوها فإن ذكر الله ينبغي أن يلازم حياة المؤمنين في كل أعمالهم التي ينصرفون إليها وفي كل صور حركتهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم لا سيما في ساحة الجهاد وأيامه إذا لقوا فئة حرباً أو ترقبوا الخطر أو تهيأوا للالتحام أو أمِنوا حيناً فأخذوا راحة.

فإذا اطمأن المؤمنون بعد جولة المقاتلة والمواجهة وأمنوا بعد الحذر من الأعداء فعليهم أن يقيموا الصلاة بحركاتها وجماعتها ولأوقاتها المسنونة أينما كانوا ومتى حل وقتها إن الصلاة حقت على المؤمنين تتخلل كل حياتهم كتاباً وفروضاً موقوتة.

فالصلاة كتاب موقوت لا يفوتها المؤمنون لوقتها ولا ساعة التحام أو خوف تجمع أوقاتها، أما إذا اطمأنوا فهي توبة إلى الله لأوقات في اليوم لمبتدئه في الفجر يتخذها المؤمن ذكرى لخطة يومه عبادة، ثم في الظهر والعصر يرجع بها إلى ذكر الله لا يطول عليه الشغل واللهو بالدنيا ينسيه ربه، ثم بالمغرب، ثم العشاء ختام كتاب يوم ومراجعة واستغفار.

(وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)

الصلاة قيام جماعة المؤمنين شعيرةً للعبادة، الإمام قيادة كقائد الجهاد مطاعاً والصف مرصوص كصف الجهاد بلا تحرف ولا تخلف، وحركات الجماعة منظومة كوقع القوة المجتمعة في القتال، والاستقامة على القبلة ثبات كإقبال الجهاد بلا إدبار، وذكر الله بالنيات والأقوال والأعمال فيها وصل بالله ومدد لتكبيره على كل عدو مستكبر، والتجرد لوجهه تعالى صبراً على كل خاطر أو مشهد صارف يتعزز بذلك المجاهد ويصابر ويرابط. ولذلك اتصل سياق الصلاة والجهاد ذكراً في القرآن واتصل فرضهما مكتوباً في الحياة، لا يخلو المؤمن بصلاته عن الجهاد ولا تنصرف بهم المجاهدة عن الصلاة، بل يتحدان كما تتحد كل شعاب الحياة عبادة لله الواحد. فالمؤمنون المصلون المجاهدون لا يهنون في ابتغاء القوم العادين عليهم ليردوهم عن دينهم، فهم يصلون طوال يومهم زلفى إلى الله العزيز الكبير ويتقدمون في الجهاد يبتغون هلاك القوم، عزةً ونُصرةً وإبطالاً للباطل في سبيل الحق لا يدبرون.

والآية تذكرة وخطاب للمؤمنين المجاهدين المقدمين على الكفار أنهم إن كانوا يألمون ظمأً ونصباً ومخمصة ومقروحين وشهداء فإن الكفار يألمون بمثل تلك المصائب بأثر القتال.

المؤمنون المخاطبون يرجون من الله موالاة ونصراً في الدنيا ومجازاة وأجراً في الآخرة ما لا يرجو الكفار. فالفرقان بين أهل الحق والباطل في أصل دينهم وفي مصيرهم عاجله وآجله مهما تماثلت عليهم عوارض

الابتلاء لتصديق دين المؤمنين واستحقاق خير المصير(وكان الله عليماً حكيماً) الله حقاً تام العلم بأحوال المؤمنين وابتلائهم في كل ظرف، تام الحكمة يهديكم إلى صالح العمل والجهاد وإلى المرجو من خير المصير.

عموم المعاني

الآيات (71 – 104)

إذا تمكن المسلمون في الأرض بسلطان من شرع الله فتصدت لهم قوى الباطل فأول ضرورات الحذر دفاعاً عن الإسلام هو النفير العام للجهاد، لتخرج منهم قوى بقدر الخطر ثُباتٍ أو جميعاً في تعبئة شاملة. وبينما يسارع للنفير الصادقون فإن البعض قد يبطئ عن الصفوف مترقباً لتقلبات عاقبة المعارك، فإن وقعت مصيبة حمدوا الله أن لم يشهدوها وإذا جاء نصر تمنوا –كأنهم غرباء– لو أنهم اندفعوا بأنفسهم معكم نحو ذلك الفوز العظيم.

والتعبئة للجهاد في سبيل الله تذكير بأن القتال بيع للحياة الدنيا بالآخرة سواء كان قدر المقاتل قاتلاً أو مقتولاً وصفه غالباً أو مغلوباً. وذلك لاسيما في سبيل الدفاع عن المستضعفين الذين لا يجدون محرراً من الظلم ولا ولياً ولا نصيراً غير المجاهدين وذلك أيضاً مهما كانت نسبة القوى المتقاتلة – فأهل الطاغوت أولياء الشيطان يقاتلون بكيد ضعيف والمؤمنون أولياء الله يقاتلون بمدد قوي.

إن الجهاد إنما يفرض تطوره في مراحل قيام الإسلام. فالمسلمون في مرحلة التأسيس إيمانهم يتغذى وصفهم يتقوى بالصلاة والزكاة يكفون الأيدى عن المدافعة ولو في فتنة اضطهاد حتى ترسخ فيهم روح التقوى والصبر لبذل الأنفس والأموال، ويتكامل بناءهم نظام الجماعة. فإذا تهيأت بذلك مرحلة فرض الجهاد قد يلاحظ في البعض أنهم ما انفكوا يرجون تسويف التكليف بالقتال، وأنهم بعد أخشى للعدو من تكبير الله وأحرص على متاع الدنيا من خير الآخرة، لا يتذكرون أن أقدار الموت الـمُخوِّفة واقعٌ قضاؤها لأجلها مهما شيد الإنسان من دفاعات التحوط والتحصن. إن البعض حال الاستنفار للجهاد قد يبلغ بهم بؤس الفقه بأقدار الله أن يراقبوا طوارئ الجهاد فإن وقعت مصيبة حسبوها من سوء القيادة وإن وقعت حسنة عدوها من عند الله لا من كسب القيادة. وعلى القائد أن يقوم قدوة يحاسب نفسه على كل واقعة سيئة ويشكر الله على كل حسنة. وما هو لرعيته إلا حامل رسالة للجهاد طاعتهم له في سبيل الله طاعةٌ لله، وما هو بحفيظ على أرواحهم وأموالهم من قضاء الله. والجماهير فيهم من يعلن على الملأ الطاعة لأمر النفير ولكنهم في النجوى يسرون الانخذال والتخذيل. والراعي القائد ينبغي أن يعرض عن هذه الظواهر الخاذلة ويتوكل على الله وينشر في المجتمع فقه القرآن الذي يستقيم على منطق التوكل مهما وقع للناس من أقدار الحياةْ إن من الرعيّة من قد ينشر ما يأتيه من أخبار الأمن والخطر بما يشيع الذعر بين الصفوف دون أن يرد البلاغ إلى مراتب القيادة المختصة وتلك مزالق الشيطان لولا رحمة الله لا يسلم منها إلا قليل.

إن القائد مكلف هو نفسه مقاتلاً وقدوة ودعوة للجهاد، متوكلاً على الله الذي يدفع بأس الأعداء، وذلك مهما تبطأ وتعذر واضطرب كثيرون. إن من يشفع لدى آخر بالتحريض على الجهاد فيزاوجه مستجيباً فله نصيب من الأجر ومن يشفع مع أحد تخذيلاً فله كفل من وزر ذلك عند الله المقيت على كل شئ.

إن علاقات المسلمين الدفاعية نحو من حولهم من أقوام ينبغي أن يتوحد فيها موقفهم وتستقيم أصول سياستهم على السلام والمعاملة بالمثل فالذين يُحيُّونَ المسلمين في علاقاتهم بكلمة السلام يجاوبهم المسلمون بمعاملة أحسن منها أو مثلها بحساب الله الواحد الذي يجمع الناس صدقاً يوم القيامة. وقد تحيط بالمسلمين أقوام منافقة مرتدة إلى الضلال ولن يجد المسلمون سبيلاً لهُداهم بحسن العلاقة وهم لا يريدون فيها بالمسلمين إلأ أن يساووهم ويكونوا مثلهم كفراً وضلالاً، فهؤلاء لا يتخذ منهم المسلمون أولياء إلا من انقلبوا تائبين مهاجرين إلى المسلمين. أما إن تولوا عدواناً فيؤخذون قتالاً حيثما كانوا لا يواليهم مسلم. أما من قاموا محايدين صلة بقوم بينهم وبين المسلمين عهد أو بإقبالهم هم على المسلمين ضيقة صدورهم أن يقاتلوا ضد الإسلام أو ضد قومهم هم، ملقين بالسلام العام فما جعل الله للمسلمين عليهم حجة. لكن آخرين قد يتظاهرون بالحياد ليأمنوا المسلمين وقومهم أعداءً للمسلمين وحيثما ابتلوا بفرص سوانح ارتدوا للعداء لا يعتزلون القتال ولا يلقون السلام صدقاً، فأولئك عليهم حجة بموقفهم أن يؤخذوا قتالاً حيثما ثقفوا.

إن المجتمعات المحيطة بالمسلمين قد يكون فيهم مؤمنون ولا يجوز للمسلم قتل مؤمن منهم أو دونهم إلا خطأً. فإذا وقع ذلك فعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة كأنه يخلف بها عن المفقود من المؤمنين. وعليه أيضاً تسليم دية عوضاً لأهل القتيل إلا أن يصدقوا بها، ومن عجز عن الدية فعليه كفارة لذنبه صيام شهرين متتابعين. هكذا تحمل هذه الأحكام ما ينفر المؤمن من التفريط في حرمة الحياة فلا يهمل حتى يخطئ بقتل نفس حرام، وما يفتح للمخطئ باب التوبة بعمل صالح كبير. أما القتل للمؤمن عمداً فتلك كبيرة مُجلبة للعنة من الله وغضب وعذاب خالد عظيم. أما إذا لقي المسلمون في أسفار الأرض غريباً فألقى إليهم السلم فلا يجوز الرد عليه دون تبين أنه ليس بمؤمن واستصحابه عدواً في حرب فيقتل. فتلك دفعة من شهوة الاغتنام في الدنيا كسباً مادياً أو بطراً، والمؤمنون إنما ينشدون الغنائم عند الله الذي هداهم بعد هوى الجاهلية، فلابد من التبين قبل العدوان على نفس أحد والله خبير بالأعمال.

المؤمنون الصادقون يتعبأون كلهم صفاً للجهاد، القاعدون منهم غير أولى الضرر لم ينفروا للجهاد لا يستوون مع القائمين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، ومهما وعد الله كلاً الحسنى فإن المجاهدين يتجاوزون القاعدين درجة من الفضل والمغفرة عند الله. والمسلمون يجتمعون أمة واحدة في دار الإسلام إذا أحاطت بهم دار الحرب والعدوان. ولا يستوي المهاجرون إلي دار الإسلام والقاعدون دونها الذين تتوفى الملائكة أرواحهم في دار الظلم يتعرضون للحساب علي البقاء مستضعفين في أرض وراءها أرض الله الواسعة

المأوى، فهولاء مأواهم جهنم وساءت مصيراً، إلا إذا لم تكن لهم حيلة ولا سبيل للهجرة فأولئك رجاؤهم عند الله الغفور. أما المهاجرون في سبيل الله فكم في الأرض لهم من مراغم وسعة حتى إذا أدركهم الموت في الطريق فعلى الله لهم الأجر والمغفرة

إن الهجرة والجهاد من الفرائض الموصولة بالصلاة ذكر الله الأكبر. فالصلاة هجرة من الغفلة إلى النجوى لدى الله، وهي مجاهدة لصلات عالم الشهادة للصلة بالله، وهي في جماعة وصف وقيادة كنظام الجهاد. فإذا سافر المسلمون في الأرض وتعرضوا لخطر الفتنة ولهموم الغربة فلهم قصر الصلاة نصفاً. أما المجاهدون فإذا دارت فيهم حركة القتال ولزم ألا يفوت وقت الصلاة ذكراً لله وقوة وصبراً، فتلك صلاة التحام تؤدى ولو لم يتيسر بعض حركاتها أو تعسر نظام الجماعة فيها. أما إذا أقيمت الصلاة في ساحة خطر الحرب فيها قائم فتلك صلاة خوف تزيدهم توكلاً فلا تُعَطل ويحفظ فيها نظام الصف والإمامة كالقتال ينقسم المجاهدون فئتين يؤدونها خلفه ويقسم الأمام ركعاته بينهم مع الحذر دون غفلة وحمل السلاح إلا لعذر من مطر أو مرض دون تعرض للهجمة من العدو المتعرض لعذاب الله المهين. فإذا قضى المسلمون الصلاة ظلوا يذكرون الله في كل حركاتهم فإذا اطمأنوا أقاموا الصلاة لوقتها المكتوب.

ينبغي ألا يعقب معارك الجهاد هوان في ابتغاء المسلمين قتال العدو تثقلهم آثارها وآلام الشهادة والقروح فإن العدو كذلك تصيبه من المعارك ذات الآلام، لكن المسلمين يرجون من العليم الحكيم ما لا يرجو أعداؤهم من كسب الأجر العظيم وعاقبة الخير عند الله للعباد.

ترتيل المعاني
الايات (105– 130)

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105)

كان الخطاب إلى الرسول ﷺ إماماً للمؤمنين المقاتلين المصلين وانتقل الآن إليه قاضياً حاكماً بالحق بين الناس. والسياق كما يصل ذكر الجهاد والهجرة في سبيل الله بالصلاة يصل تلك العبادات المفروضة بالحكم بما أنزل الله. فالجهاد لتمكين الشرع والهجرة إلى دار الإسلام والصلاة ركوعاً وسجوداً وذكراً لله محفوظاً في كل حال – تلك فرائض تدعو للاستقلال والتجرد والمجاهدة والهجران في وجه الباطل وأرضه والتوجه والطاعة أبداً لسلطان الحق توحيداً لحركة الحياة لوجه الله لا تسلم ولا ترتد ولا تميل لحكم الباطل. والآية تذكير مؤكد للرسول ﷺ بأن الكتاب أنزل من ملكوت الله لا تكليفاً عليه وحسب بل إليه بالحق شرعاً يدافع عنه ويجاهد وميزاناً يقوم به بين الناس. والرسول ﷺ يقوم بما أراه الله في الكتاب المنزل ميزاناً يفصل ويقضي به ما بين الناس من خصومات، أراه الله الحق حكماً ولم يتركه لرأيه الذي قد يميل به إلى الظلم والهوى في القضاء. فالنهي يخاطب الرسول ﷺ ألا يكون للخائنين خصيماً، أن يتحرى ويقوم

بالقسط، فالخائنون للحق ينبغي ألا يحمله ميلٌ للمدافعة عنهم والمخاصمة لهم، بل يقوم شهيداً عليهم لا خصيماً لهم. وقد تعرض الرسول ﷺ لامتحان العدل في قضائه إذ نظر في نزاع وقع بتهمة السرقة صوبت إلى منافق فمال للخصومة والمجادلة التي حامى بها عنه مسلم واستصحب أنه أَوْلى بالصلاح قبل التحري عدلاً في الوقائع التي أثبتت أن ذلك المنافق كان خائناً لأمانة الله وسرق مالاً لا يحق له. والوعظ للقاضي القيام بالحق تحرياً والقسط حكماً ولو على النفس أو الخصم والذي تُحامي عنه المجادلة الألحن.

(وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (106)

كتب الله الهجرة والجهاد من أجل تمكين الحكم بما أنزل الله فلا ينبغي لمثال الدين في الحكم إلا أن يؤسس على العدل والحق. وإذا مال الحاكم إلى خصم بفتنة المجادلة وإلحاحها وهو الظالم حقاً فينبغي أن يتذكر أَن الحكم بميزان الشرع المنزل الذي يُري الله عباده لا بما تُريهم فتنة الدنيا ميلاً عن الحق. وينبغي للقاضي الحاكم ميلاً دون الحق أن يرجع ويستغفر كما أمر الرسول ﷺ القدوة أن يستغفر فيما جرى عليه من ذلك، إن الله كان غفوراً رحيماً فهو حقاً واسع المغفرة تام الرحمة للمخطئ التائب الطالب للمغفرة.

(وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107)

السياق يتواصل موعظة للرسول ﷺ ولمن على سنته من المسلمين ألا يقوموا خصماء للخائنين مدافعين يجادلون في القضاء والحكم عن الذين يختانون أنفسهم فيدفعونها ظلماً لحقوق الناس. من سبقت وتوالت أعماله خيانة لأمانات الحق ولم يستدركها بالتوبة بل كان خواناً أثيماً – من كان كذلك لا يحبه الله فكيف يحبه المؤمن بكتاب الله الحق فيخاصم عنه ويجادل؟

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108)

يستخفي خونة الحق من الناس بحقيقة جرمهم خوفاً من حكم الحق وطمعاً أن تحميهم مكانة لهم بين الناس ولدى القضاء، ولكنهم لا يستخفون من الله الذي هو معهم سميع بصير أينما كانوا وإذ يبيتون تدبيراً سراً بليل ما لا يرضى من القول مكراً وزيفاً للحق بالمزاعم ومرافعة بمجادلات الادعاء الباطل لينجوا من وقع حكم الحق ويبدلوه، والله حقاً محيط بما يعملون شاهد عليهم بما يخفون لا يفلتون من جزائه.

(هَاأَنتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (109)

خطاب يصوب علينا ويشير للمؤمنين يأخذهم الميل عن الحق للمجادلة للدفع عن الخونة للحق المجرمين، دفعاً قاصراً بمدة أثره على الحياة الدنيا وقضاء الخصومات فيها، فمن يتولى المدافعة عنهم وراء

ذلك يوم القيامة ويجادل عنهم الله المحيط بما يعملون الملك الحق القاضي بين الناس بقسط للمظلوم ويجزي الظالم عن كسبه في الدنيا؟

أمّنْ يكون قائماً على الخونة الظلمة وكيلاً يكلون له المجادلة عنهم والحماية ؟ لا أحد يجادل الله عن بينات الكسب في الدنيا ولا يدفع دونه الجزاء في الآخرة.

(وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (110)

من يعمل سوءاً من مظلمةٍ أو يظلم نفسه فيختانها ويوقعها في خصومة الحق والأمانة ثم من بعد ذلك لا يعوِّل على ما أضمر من أقوال مخاصمة أو على من يجادلون عنهم دون الحق يوم القيامة، بل يتوب للحق صادقاً فيستغفر الله فإنه يجد الله غفوراً رحيماً وتتجلى له رحمة الله أحكم الحاكمين.

(وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111)

ومن يكسب إثماً من كل خوان أثيم ممن سبق ذكره فإنما يكسبه على نفسه، لن ترفع عنه بينةٌ خادعةٌ الوزر، ولن تلقى عنه المخاصمة الباطلة والمجادلة الوزرَ على آخر، ولن يقوم عليه وكيل لدفع الجزاء، وكان الله فهو حقاً محيط العلم بالحقيقة عادل الحكم بالحق.

(وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (112)

ومن يكسب خطيئة جانفاً عن صواب الحق أو إثماً عادياً على حق الغير ثم لا يستدرك بالتوبة والاستغفار والعدل والاستعفاء بل يرم بخطيئته وإثمه بريئاً وقد يستعين بمن يخاصم له ويجادل عنه، فقد احتمل بذلك أيضاً خطيئة بهتان وإثم مبين يثبت عليه حمله بيناً عند الله العليم الحكيم.

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113).

الخطاب للرسول ﷺ القائد الحاكم أن لولا فضل الله عليه فوق هديه للقيام بالقسط ولولا رحمته تعالى بعصمته من الشر – لولا ذلك لهمت طائفة من الخائنين وأوليائهم أن يضلوك وبلغت همها – بطانة سوء تحاول التضليل للقائد النبي المبلغ الحق والعدل الحاكم به، لتصرف الخطيئة والإثم عن خائن للحق، تجادل عن صلاحه وهو يرمي بما اكتسب بريئاً. ويريدون بذلك إنزال حكم الرسول لا بالحق بل ميلاً بالمجادلة إلى تصديق ما يستخفي من الخيانة وما يبيت من القول الزور دون تحري الحقيقة والحق. والخطاب للرسول ﷺ أن هؤلاء بفضل الله ورحمته ما يضلون إلا أنفسهم عن المتاب إلى الله، ركوناً إلى محاولة إضلال الرسول بالمجادلة، بلا استغفارٍ عن البهتان والإثم. فمهما مالوا بك أول وهلة بالمجادلة الألحن، يقع الضرر عليهم لأنهم خاصموا عن الخائن حمية له بالظن لا بالحق واليقين واحتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً.

وقد أنزل عليك تكاليف الكتاب بالحق وأنزل عليك الحكمة لتنزل الحق على الواقع ولتحكم بين الناس بما أراك الله في الخصومات (الآية 105). وعلمك ما لم تكن تعلم من هدى القيام بالحق متحرياً بالبينات للحقائق وبالقسط قاضياً عادلاً ولو على مسلم لغير مسلم، وكان فضل الله عليك عظيماً، إذ آتاك من فوق هذا الهدى من محاولات التضليل فضل الكتاب والحكمة والنبوة فلا تجادل مع جدال الذين يختانون أنفسهم بل اشكر الله على فضله واحكم بما أراك الله. والوصية عامة تهدي الرسول ﷺ بهدى الله عن كل خروج عن الحق ميلاً وموالاة للخائنين.

(لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ[94] أَجْرًا عَظِيمًا (114).

في ابتلاءات علاقات الرعية أن يتناجوا تآمراً بالشر، كأن يدبروا محاولات التأثير على النبي أو الحاكم، وإنما الخير أن يتناجوا بينهم بنصيحة. ولا خير إلا ممن ناجى فأمر بفعل من صدقة أو معروف أو إصلاح ذات البين في مجتمع الناس مما يقتضي السر والتناجي، فقد يؤذي إعلان النصيحة منّاً أو شهرةً أو فتنةً بين الناس. فالذي يناجي أخاه أو الحاكم في سبيل ذلك الخير لا استخفاءً وتبييتاً لقول يبتغي إضلال الحاكم محاباةً أو كيداً لأحد في الخصومة أو الشر فيما بين الناس بل ابتغاء مرضاة الله فمن وراء مسعى الخير سيؤتيه الله أجراً عظيماً يوم القيامة.

(وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115).

في سياق العلاقة مع الرسول ﷺ الحاكم، من يشاقق الرسول ﷺ خارجاً سافراً على حكمه من بعد ما يتضح له ما للرسول من الهدى، متحرياً للحقائق بالبينات لا بالمجادلات والنجوى بالباطل، منزلاً على الوقائع ما أراه الله في الحكم بما أنزل عليه، ومن يتبع بذلك غير سبيل المؤمنين المحتكمين لله والرسول الطائعين المسلمين تسليماً، المجمعين على حكومة الهدى وقضائه، فإنه يتجه لموالاة الشيطان نحو الهوى، والميل نحو المشركين والخارجين على الهدى فييسر الله له العسرى كما شاء، ويوليه ما تولى لا موالاة الله ورسوله والمؤمنين، ويجزيه الله مصيراً جزاءً وفاقاً يصليه جهنم لا الجنة دار السلام وساءت جهنم مصيراً.

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا (116).

تأكيد بأن الله لا يغفر أن يشرك به. والشرك خروج بائن عن حق التوحيد والإيمان بالله وحده شارعاً للكتاب هادياً للحق أحكم الحاكمين بالبينات يوم القيامة للقائمين بالإثم دون العدل. وذلك في سياق مواقف الذين يخاصمون ويجادلون عن الخائنين ويحاولون إضلال الرسول ﷺ حاكماً ليميل إليهم بالباطل على أحكامه وقراره بشرع العدل وقضائه ببينة الحق، الذين يناجون الرسول ﷺ بغير الحق والخير والمعروف

[94] قرأ أبو عمرو وحمزه (يؤتيه) بالياء

– ذلك نذير بما قد يسوق إليه ذلك المسير من الشقاق مع هدى الرسول ﷺ واتباع غير سبيل المؤمنين مما قد يعود بالمسلم إلى تقاليد أهواء الجاهلية وعصبياتها ويرتد به إلى شركها وذلك خروج لا يغفره الله لمن مات عليه. ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولو مات على الإثم، ويغفره لمن شاء ولا سيما لمن تاب عما اكتسب من خطيئة أو إثم. وقد يضل المسلم عن بعض الأحكام ويكتسب الآثام ولكن التمادى في سبيل الضلال لا سيما الهم بإضلال النبى القائد ومشاقته ومفارقة السبيل قد تفتن المسلم وتنتهي به إلى الشرك وهو أبعد الضلال وأشده لا يغفره الله الذي قد يغفر ما دونه لمن يشاء.

(إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (117).

ذلك الشرك غاية الضلال فتن أهله في الجاهلية العربية فهم يدعون من دون الله ولا يصوِّبون الدعاء إلى الله وحده، وما يدعون من دون الله إلا الملائكة الذين يعدونهم إناثاً وهم يستحقرون الأنثى في البشر لكن يسمون الملائكة بأسماء الإناث ويدعون أنهم بنات الله، وما يتخذون آلهة من الأصنام يدعونها لذلك إلا إناثاً كاللات والعزى ومناة. والحق أنهم بذلك الشرك وتأليه الملائكة ودعائهم إنما استزلهم الشيطان شديد التمرد على الله الخارج على أمر الله وأضلهم ضلالاً بعيداً وما يدعون بذلك الشرك إلا ذلك الشيطان. وذلك يميزهم عن المؤمنين الذين يتحاكمون إلى عدل الله لا إلى الطاغوت، صدوداً عن التنزيل ومجادلة للرسول عن الباطل وشقاقاً حيث يريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً[95]. وذلك يميزهم في القتال عن المؤمنين لأنهم هم أولياء الشيطان كما سبقت الآية [96].

(لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (118).

ذلك الشيطان الذي يوالون ويدعون تعلقاً به أولئك المشركون هو المَريد الذي لعنه الله لتمرده الأزلي الأول على أمر الله أن يسجد للإنسان، فهو الذي خاطب الله منذئذ أن سيتخذ من عباده نصيباً مفروضاً، مهما كتب قدر الله الذي أولى عباده الخيرة من أمرهم، فلم يؤمن بعضهم بالله عابدين موحدين بل أشركوا بالشيطان دعاة له أولياء.

(وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (119).

وكلمة الشيطان المَريد أنه سيضل ذلك النصيب من بنى آدم قطعاً بوجهتهم عامة في الحياة ليهيموا بغير هدىً من الله، وليضيعوا متبعين الآلهة بغير طريق مستقيم. وسيمنيهم الأماني الكاذبة في الحياة الدنيا بطول الأجل تمتعاً بالشهوات وبالعاقبة الموعودة في الآخرة، ويأمرهم تأكيداً وراء الضلال والأماني بشعائر للعبادة الجاهلية ليقطعوا فعلاً آذان بعض الأنعام ويدّعوا أنها بذلك مقدسة محرمة لا تُذبح وليمضوا فعلاً

[95] راجع تفسير الآيات (60-62) نفس السورة.

[96] راجع تفسير الآية (76) نفس السورة.

بالشعائر الشيطانية نحو خلق الله في الإنسان فيغيروه بالقطع والعلامات والأوشام طقوس تعبر عن تدين المشركين تأمر به أعراف البيئة وعقائدها. ومن يتخذ الشيطان ولياً ينساق به ضلالاً وتمنياً في العاجلة والآجلة حتى ينحط إلى ما تأمر به وتعبر عنه شعائر عبادته من دون الله الهادي للشرع القويم المرجو بالوعد الصادق، من يفعل ذلك فقد خسر خسراناً مبيناً تشهد به بينات الدنيا والآخرة.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (120)

ذلك الشيطان الذي يوالون يحفزهم للضلال وموالاة أمره واتباع وعده وأمانيه بالعواقب المغرية وما يعدهم إلا كذباً وغروراً وخلفاً.

(أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (121)

أولئك الأولياء للشيطان –الذين اغتروا بوعوده فأَضلهم وأمرهم بشعائر الباطل والظاهر– مأواهم مع خلف الميعاد جهنم ولا يجدون عنها محيصاً ومخرجاً فما هو بمصرخهم ولا هم بمصرخيه منها.

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (222)

تميزاً في مقابل المشركين الموالين للشيطان ضلالاً وتعبداً وتمنياً والآوين معه إلى جهنم مصيراً – الذين آمنوا بالله ورسالته وعملوا الصالحات عبادة لله يعدهم أن سيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار تغذى نباتها بالماء أبداً، وهم خالدون فيها أبداً، وعد الله حقاً لا ما يُمني الشيطان المشركين كذباً، ومن أصدق من الله قيلاً يبشر بالوعود الحسنى.

(لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (123).

يتوجه الخطاب إلى المؤمنين أن أقدار المصائر بقضاء الله ليس بأمانيكم كأمانيّ المشركين التي يمنيهم بها الشيطان غروراً. ويتصوب ذلك الحكم أيضاً إلى أهل الكتاب فليس مصائرهم بأمانيهم إذ يدعون يهوداً أنهم أحباء الله لا يمسهم العذاب إلا أياماً معدودات أو نصارى أن عيسى عليه السلام حمل عنهم كل الآثام والخطايا وجزاءها. بل ليتذكر الناس جميعاً أن حكم الله ليس بأمانى أحد فالذي يعمل سوءاً سيجد جزاءه يوم القيامة. لا ولياً من الشيطان ولا نصيراً، ولا شفاعة ولا نصر إلا بإذن الله.

(وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ[97] الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124).

ما سبق في الآية هو لعامل السوء مهما كانت أماني الغرور، ولكن من يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن نية لوجه الله بالعمل ورجاءً لوعده الصادق فسيجد الجزاء الأوفى، فلا يظلم حتى مقدار النقرة في ظهر التمرة. فالتباين الزوجي لا يمايز بين الذكر والأنثى من حيث الجزاء عند الله على

[97] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم (يُدخَلون) بالبناء للمجهول

الإيمـان والعمـل، كمثـل تـوهم التمـايز في القـربى مـن الله والـذي جعـل ملائكـة الله بنـاتٍ إناثـاً عنـد المشركين[98].

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ[99] خَلِيلاً (125)

ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه وقبلة حياته لله ظاهراً وباطناً مؤمناً لا يشرك به شيئاً وموالياً لا يعصى له أمراً وهو محسن بلغ في صالح الأعمال درجة الإحسان، من أحسن ديناً ممن بلغَ ذلك بإسلامه عقيدة وإحسانه عملاً واتبع كذلك ملة إبراهيم حنيفاً انحنف عن بيئة الإشراك إلى الإسلام – إسلام وجهة الحياة كلها لله، فإلى إبراهيم عليه السلام الذي يعود إليه الانتساب والتراث وإسلام الوجهة كلها لله لكل المخاطبين بالذكر في الساحة من مشركي العرب وأهل الكتاب. وقد اتخذه الله قريباً مرضياً لأنه أسلم وجه حياته لله وأحسن عملاً لم يدع الله أباً وحبيباً خاصاً ولم يتزلف عبادة للأنبياء كأهل الكتاب ولم يتخذ الشيطان ولياً كالمشركين.

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (126).

كيف التعبد والتزلف والترجى للأنبياء والملائكة والشيطان ولله ما في السموات وما في الأرض وحده ينبغي أن تُسلم له الوجوه إيماناً وتحسن الأعمال إليه عبادةً، وكان الله بكل شيء محيطاً، فهو الذي بملكه وقدرته يتولى من تولاه ويعلم باطن المؤمن المحسن وظاهره والملك والجزاء له وحده يوم الدين بلا شفيع ولا نصير غيره.

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127).

بعد ختام ذكر العلاقة بين النبي راعياً حاكماً بما أنزل الله عادلاً والمؤمنين رعيةً تختصم وتُبتلى بميزان البينة والقسط، وبعد تأصيل ذلك على اتباع هدى الرسول لا مشاقته، وسبيل المؤمنين لا التولى عنه، والتوحيد لله لا موالاة الشيطان، يعود السياق إلى ذكر الأسرة المنزل على النبي في صدر السورة. وترد العلاقة بين الراعى والرعية بخطاب النبي ﷺ فيما تستفتيه فيه رعيته المؤمنة حكماً عدلاً في شأن النساء فيفتيهم الله وكتابه. وبعد ذكر الإيمان والعمل الصالح والإحسان على ملة الإسلام يذكر النبي الراعى الحاكم أن من علاقات المؤمنين به مجتمعاً من حوله متبعاً : أنهم يستفتونه لينشر عليهم ويفشي بينهم الهدى في شأن النساء، فيوحي إليه بأن يقول لهم : إن الله هو الهادى الذي يفيتهم في شأنهن عموماً ويفتيكم في ما يتلى عليكم في الكتاب في حال منهن خاص إذ يستضعفن فيبتلى المؤمنون في معاملتهن

[98] راجع تفسير الآية 117 والآية السابقة مباشرة.

[99] قرأ هشام عن ابن عامر (إبراهام) في هذين الموضعين، وفي آخر السورة الآية 163

كما يبتلون في سائر المستضعفين من الولد واليتامى في الأسرة. والفتوى وردت في الكتاب (الآية 3 من هذه السورة) خطاباً هناك وهنا للمؤمنين في شأن اليتيمات من النساء اللاتي لا يؤتيهن المؤمنون حقهن الذي كتب لهن قسطاً ويرغبون أن ينكحوهن ، فيبتلى المؤمنون برغبة الزواج منهن وبالخوف أن يظلموهن ليتمهن ولا يرغبون من وراء الزواج إلا التسول على مالهن الموروث، فلا يؤتوهن عدل الصداق والنفقة للزوجة. والفتوى أن ينصرف المؤمنون إلى ما طاب غيرهن من النساء ولو عدّاً إلى الرباع لإشباع الرغبة دون وقوع في فتنة الظلم مع اليتيمات. وليذكر النبي الراعي كذلك أن الله يفتي في كتابه أيضاً في شأن المستضعفين من الولدان ذكوراً أو إناثاً فللرجال والنساء أنصبة عادلة.[100] ويفتيهم في ما يتلى عليهم من الكتاب أن يقوموا عموماً على أمر اليتيمات واليتامى ورعايتهم في أنفسهم وأموالهم بأحسن العدل وأتم القسط (الآيات 2 – 10). الخطاب في ختام الآية للمستفتين في شأن الأسرة أنهم ما يفعلوا من خير وفاءً بالحقوق ومعاملة بالمعروف والبر للمستضعفين نساءً أو ولداناً أو أيتاماً أو صدقةً لمن حضر قسمة الميراث[101] فإن الله كان به رقيباً تام العلم وإن ضعفت رقابة المجتمع وعلمه.

(وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَن يُصْلِحَا[102] بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128).

سبق ذكر الفتوى في مستضعفات النساء وتستمر الفتوى في شؤون النساء : فإن طرأت في حياة الزوجين الأزمة فخافت امرأة من زوجها ما بدا نشوزاً كرهاً ونفوراً إلى الخروج عن السكن أو عنها إلى أخرى أو إعراضاً وصدوداً عن مودة الزوجية ورحمتها صلةً ورعايةً فلا جناح ولا حرج عليهما مهما استيأسا بعد النشوز أو الإعراض أن يبادر أحدهما ويسعى أو يخفضا معا جناح الذل بعد الغضب ويغفرا ويتوبا عن أي خطأ ليصلحا ما فسد من ذات البين صلحاً، والصلح خير من التمادى في النشوز والإعراض إلى تمزيق كيان الأسرة. وتتوالى الكلمات بالصلح – فعلا واسماً مطلقاً ومعهوداً لتتوالى الدوافع إليه تأكيداً لخيره، والشح بخلاً وحرصاً شديداً أحضرته الأنفس البشرية فهو حاضر في طبعها يؤدي إلى الإعراض والنشور، فإذا غشيت فتنة الشح نفس المرأة أو نفس الزوج فينبغي أن يتذاكرا الخير سعياً نحو الصلح وتجاوزاً عن الحرص وتنازلاً عن المطلوبات الملحة الداعية للنشوز والإعراض.

وإن بلغ الزوجان في الصبر والصلح درجة الإحسان وفي ضبط دواعي الحرص والخصومة والنشوز درجة التقوى فالله تأكيداً وحقاً خبير بمقاومة دوافع الشح في النفوس وبلوغ الإحسان والتقوى وعنده تعالى الخبير بالكسب الجزاء الأوفى.

---

[100] راجع الآية (7) نفس السورة.

[101] راجع الآية (9) نفس السورة.

[102] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (يَصَّالحا)

(وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (129).

إن الفتنة بين الزوجين التي قد يجر إليها طبع الميل أو الشح إلا لمن قاومه فصالح وأحسن واتقى أعسر مقاومة إذا عادلت الزوجة ذوات حسن يطلبن للزواج أو ذوات قربى يطلبن النفقة لا سيما إن جر إليها تعدد الزوجات للبعل. فالعدل الذى قضاه الله شرطاً أو داعياً –من الخوف ألا يقع– للاقتصار على زوجة واحدة * ليس عدلاً مطلقاً. فطبع النفس البشرية غالب أن يميل بها بين اثنتين إلى إحداهما راجحة إليها منعطفة ولن يستطيع زوج أن يعدل قلبه سواء بين زوجتين ولو حرص على تقوى الله بحفظ ميزان العاطفة سواء بينهما. القلب طبعاً يميل بين الزوجتين ولا يستطيع الاعتدال المطلق ولكن أمر الله الذى خلق الطبع ابتلاءً أن يجاهده الزوج فلا يفتن وينزلق بالميل إلكل الميل مما يعبر عنه بعلاقات ظاهرة تحتكره فيها إحدى الزوجتين ويذر الأخرى ويدعها كالمعلقة، لا هى موصولة يسكن إليها زوجها ويوفيها حقوقها ويتجاوب معها سواء، ولا هي محررة يفارقها لتسلك سبيلاً أخرى.

وإن اتقى الأزواج هذا الميل الجانح الظالم الذى يجر مقتضى علاقات الزوجية إلىحال تعليق، إن تابوا عن مزالق فتنة الميل إلى الإصلاح واجتنبوا أعراضها إلى التقوى في المعاملة فإن الله حقاً بالغ المغفرة لبعض زلات الابتلاء بطبع القلوب ودقيق الرحمة لمن تغشى شعاب قلبه وبوادي عمله بعض أعراض الميل فيتذكر ويصلح ويتقي الله.

(وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130).

إذا امتحن الزوجان كما سبق وبلغ بهما العجز عن العدل أن يتعسر الإصلاح ولكن اتقى الزوج فلم يظل ظالماً يذرها كالمعلقة بل تراضيا على الفراق أو الطلاق، فإن الله يغني كلاً من سعته – لا ترهنمها أزمة الفراق إلى حال الحسرة واليأس من رحمة الزوجية بل يفتح الله لهما من سعة رحمته سبيلاً جديداً في الحياة (وكان الله واسعاً حكيماً) واسعاً لا تضيق رحمته الواسعة بمن غشيتهم أزمة في الحياة الاجتماعية، بالغ الحكمة إذ أوصى كثيراً بالصلح، وجعل الطلاق أبغض الحلال ولكن متى وقع فإن الله ورحمته قريب من المحسنين.

عموم المعاني

الآيات(105 – 130)

كما تقوم الجماعة المؤمنة عابدة لله بالصلاة صفاً مرصوصاً كصف الجهاد، وكما يقوم فيهم الإمام قائداً كقيادة الجهاد المنظومة، وكما يؤدونها لوقتها المفروض ليملؤوا بها سائر أوقات حياتهم وأوضاعها ذكراً، وكما يتميزون بتكاليفها وتبعات الجهاد دون الكافرين رجاء لله، فإن على من تولى فيهم أمر السلطان أو

* راجع الآية (3) من نفس السورة

القضاء أن يركع لأمر الله وكتابه فيحكم بما يلهمه الله اجتهاداً وصدوراً عن أصول الحق المنزل وجهاداً لهوى الخصام عن الذين يخونون أمانة الحق. فإذا انعطف نحوهم كذلك فليستغفر الله متراجعاً إلى الاستقامة. أما من اندفع حتى المجادلة عنهم فليتذكر أن الله لا يحب كل خوان أثيم ولا من يواليه. وقد يستخفي أولئك الخونة عن الملأ الظاهر ويبيتون في قضية ما لا يرضي الله حقاً لكن الله هو الشهيد المحيط بما لم يحط به ظاهر البينات. وقد يتورط بعض المسلمين في مرافعات الجدال محاماة في الدنيا ووكالة خصومة عن خونة الحق ولكن لا مجادل عنهم ولا وكيل عند الله يوم القيامة. إن المسؤولية تنصب على الفرد من حيث وقع عمله، وحيثما تجاوز الحق فذلك ظلم يلقيه على نفسه، إذا استغفر الله ألفى الغفران والرحمة وإذا اكتسب إثماً يرتدعليه مسؤولاً عند الله العليم الحكيم. ومن يكسب كذلك إثماً أو خطيئة أشد ثم يريد أن يتغلب وَيُلقيَ الكسب على برئ فذلك إثم بيِّن آخر من البهتان يحتمله. وقد تكون في المجتمع طوائف ذات عصبية وضلال تريد ضغطاً أن تضل النظام العدلي. ولكن الالتزام بالكتاب المنزل وتنزيل حكمه على الواقع وتغيير المعايير العرفية الضالة – ذلك فضل من الله عظيم ورحمة مما يحفظ القضاة والحكام وشعاب السلطة والمجتمع عامة، فكلها عرضة لأهل أهواء لا يتناجون بالخير في مداولاتهم إلا من أمر بصدقة أو بمعروف عام أو إصلاح بين الناس، فمن فعل ذلك في سبيل مرضاة الله لا خيانة للحقوق ولا ظلماً للخير فإن العاقبة أجر عند الله عظيم.

إن المشاقة لهدى النبي أو القائد الرشيد للمجتمع والمخالفة للنهج الذي يجمع عليه المسلمون مما يؤدي إلى التمادي تولياً نحو مقاصد الضلال حتى توصل إلى جهنم مصيراً سيئاً. ذلك أن بَعيد الضلال عن الحق قد يبلغ الشرك بالله الذي لا يغفره الله مهما غفر ما دونه من زلات الضلال. ومن أضل صور الشرك عند العرب في الجاهلية مما قد تتكرر العقائد الغيبية التي اتخذت من الأنوثة صفة إلهية بينما يكرهها العرب فيما يلدون، لكنهم يؤمنون بالأصنام إناثاً وبالملائكة بنات الله آلهةً يدعونها لحاجاتهم. ومن تلك العقائد الغيبية الإشراكية إيلاء الشيطانية صفة إلهية ودعوة للشيطان، ذلك بينما شيطانية إبليس حال تمرد على أمر الله جلبت عليه منه تعالى اللعنة وساقته لأن يدّعي من عباد الله نصيباً مفروضاً يتعبدونه ويلازمهم ليضلهم ويمنيهم الأماني الغيبية ويأمرهم بشعائر تعبد كما فعل بالعرب قديماً، يبتكون آذان الأنعام ليحرموها مقدسة ويفسدون الوجه والجسد الذي خلق الله للإنسان أو الحيوان بعلامات طقوس دينية، هكذا موالاة الشيطان لا تؤدي إلا إلى خسران إذ تخيب وعود الغرور والأماني وتنتهي بالمشرك إلى جهنم بلا محيص.

أما الموحدون لله الذين يعبرون عن إيمانهم بصالحات الأعمال فإن ربهم يعدهم حقاً أن سيدخلهم حياة أبداً بالماء الجاري خالدين فيها ومن أصدق من الله قيلاً. ذلك المصير السعد ليس بالأماني والعصبية للملة من المؤمنين بالدين المتجدد أو بالقديم كما زعم أهله بل بالعمل الصالح، فمن يعمل سوءاً يواف جزاءه عند الله ولا يجد ولياً ولا نصيراً، أما من يعمل الصالحات ذكراً كان أو أنثى عملاً مبنياً على الإيمان

فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً. والديانات عبر التاريخ ملل شتى، أحسنها التوحيد إسلام الوجه وجهة لله بلا شريك وبلوغ درجة الإحسان بصلاح العمل والوفاء سنة لملة إبراهيم عليه السلام الحانف إلى الحق من ضلال الشرك والذى أحب الله وحده فجاوبه تعالى فاتخذه خليلاً. وذلك التوحيد والإسلام حق فإنه له وحده ما في السموات والأرض جميعاً وأنه وحده المحيط بكل شيء.

إن المؤمنين بالله لا يشركون به شيئاً في الحكم ولا يشاقون رسالته في الهدى ولا يخالفون إجماع المؤمنين – أولئك إذا ثارت فيهم مسائل تتصل بشؤون النساء إنما يستفتون فيها مرجعهم كتاب الله حيث تتلى أحكام خاصة في أحوال استضعاف النساء يتيمات، قد يفتن أولياؤهن فلا يؤتونهن ما كتب لهن من مهر وحق، ويرغبون أن يتزوجوهن، أو من الولد بنات يرثن ويلزم أن يستدرك حقهن في الميراث أو من اليتامى لا يقام عليهن بالقسط. فإذا قام المؤمنون في ذلك بخير وبميزان قسط لا يميل بهم الهوى الظالم فالله المجازي العليم. ومن فتاوى الحق الأعلى أن إذا خافت زوجة من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ينبغي ألا تحركها عاطفة الشقاق البائس إلى الفراق بل لا حرج مهما بلغ الغضب أن يصالحا بينهما صلحاً وتسويةً للخلاف والصلح خير مما يجر إليه شح النفوس الطبعي، والمؤمنون الذين يبلغون بالمصالحة درجة إحسان بعضهم إلى بعض وتقوى الله يرجون الجزاء من الله الخبير بما في أنفسهم. والعدل المطلق بين أكثر من زوجة لن يتيسر بشرياً للزوج مهما حرص ولكن الميسور المفروض ألا يظهر الميل كله نحو واحدة وتترك الأخرى كالمعلقة بلا مودة الزوجية ولا حسن الفراق. ومن اجتهد فأصلح أثر الفتنة واتقى الله بين زوجاته فإن الله يغفر له ميل العاطفة الباطنة ويرحم ذات البين، أما إذا دعا الأمر إلى أن يتفارقا بإحسان فإن الله الغني يعوض كلاً من سعته في خيارات الدنيا الزوجية وهو الواسع الحكيم فى أقداره وأحكامه.

ترتيل المعاني

الايات (131– 149)

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131)

الأسرة دائرة الابتلاء للإنسان منذ خلق فيها يولد ومنذ بلغ فيها يتزوج ويعامل، وفي الأسرة يتزكى الإنسان إذ يمرن على تجاوز الابتلاءات بتقوى الله كما توصيه بتعاليم الله تفصيلاً في آيات القرآن تنزيلاً في شأن الأسرة. وإذا تربى في الأسرة وتزكى الإنسان تهيأ مرانه على تقوى الله في كل دوائر الحياة وعلاقاتها من بعد الأسرة وخارجها فكل الوجود لله ساحة لآياته وملكه وحكمه وابتلائه للإنسان ووصيته ورقابته.

فالسياق يعود بالذكر لآيات التوحيد في الكون موعظة تختم ذكر الأسرة، تنزل بالتقوى على حياتها وعلاقاتها وتبنى على تجربة الإنسان في الأسرة تقوى تخرجه منها إلى الكون، فالله له ما في السموات والأرض محيط بعلمه وحكمه بذلك كله وبمجرى حياتكم في الأسرة ثم المجتمع كافة. ولقد أوصى الله في

ملئه الأعلى الذين من قبل المؤمنين المخاطبين بالقرآن في رسالة الإسلام، منذ إبراهيم والأنبياء السابقين قد وصاهم وأوصى المسلمين المخاطبين أن يتقوا الله في الحياة عموماً. وإن يكفر المخاطبون بنعمة الله حاكماً مدبراً الحياة بأقداره هادياً معلماً موصياً بالتقوى في كل علاقات الحياة بآياته – إن يكفروا فإن الله غني لا يضره ذلك الكفر لأن له كل ما في السموات والأرض عابداً طوعاً أو كرهاً. والله حقاً غني عمن خيره تعالى بقدره فاختار الكفر، والله حميد له بالغ الحمد بأنه رب العالمين مهما خير المشيئة للإنسان فكفر الكافرون.

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (132).

لله ما في السموات والأرض غنياً وحميداً إن لم يشكره ولم يحمده الكافرون، وله كذلك ما في السموات وأيضاً ما في الأرض ومن ثم كافياً وكيلاً، وحسب المؤمنين أن يتوكلوا عليه هادياً في ابتلاءات الحياة من كل ضلال وأن يتوكلوا على قدره ناصراً بالعدل في ابتلاءات الحياة من كل ظلم وأن يتوكلوا على قضائه إن اتقوه مكافئاً أوفى الجزاء.

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِأَخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (133).

الموعظة الشديدة لمن لا يسلم لوصية الله بالتقوى في حياته الخاصة والعامة، ان الله الذي بيده الملك والمتصرف والمقدر لما في السموات والأرض غني عنكم أيها الناس إن يشأ ومجتمعكم المخاطب بالتقوى يكفر ويعصي، يذهبكم ويهلككم هلاكاً عاجلاً ويأت بآخرين خلفاً مؤمناً تقياً، وكان الله الذي يحيط بقدره بكل الوجود قديراً حقاً على ذلك ولكنه قد يؤجل الأخذ بالحساب لأجل مسمىً.

(مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالأَخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134)

بعد موعظة النذير بالهلاك العاجل إن شاء الله لمن كان كفر ولا يتقي موعظة البشير لمن كان يريد ثواب الدنيا وأجرها العاجل أن عند الله ثواب الدنيا العاجل وأيضاً ثواب الآخرة الآجل لمن كان آمن واتقى، (وكان الله)، إن الله حقاً وملكه محيط بالوجود محيط السمع والبصر لمقولات الناس ومفعولاتهم عليها يجازي فوراً أو آخراً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُا[103] أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135).

الخطاب والتنبيه خصوصاً للمؤمنين بما في شهادة الأيمان، والأمر – من الله – أن يكونوا أيضاً قوامين قائمين دوماً وقوة بالقسط عموماً في كل ما سبق به الذكر في شأن الأسرة، اليتامى والولدان المستضعفين والزوجة والعدل تقوى في كل شأن الحكم والحياة مما سبقت به الوصايا. والأمر أن يكونوا كذلك شهداء بالحق وميزان القسط لله حاكماً وجازياً لينهض المجتمع المؤمن كله بالقسط ويجعله معياره ومسلكه في كل

[103] قرأ ابن عامر وحمزة(تَلُوا) بضم اللام وواوٍ واحدة

شؤون حياته فالله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. ذلك عدل مأمور به المؤمنون ولو على أنفسهم متجردين من الهوى والشح حتى إذا اقتضى الحكم والشهادة بالقسط أن يقع الحق عليهم لا لهم أو إذا وقع كذلك على الوالدين والأقربين، متطهرين مع البر لهم عن كل عصبية جانحة عن الحق.

فالمؤمنون القوامون بالقسط ينبغي ألا ينحازوا لحظ المحكوم أو المشهود بينهم من الكسب الدنيوي محاماة للغنيّ أو مناصرة للفقير وحمية ظالمة لطبقة الأغنياء أو الفقراء. إن يكن الشأن لغني أو فقير فالله أولى بهما فإذا نزل عليهما ميزان حكم الله، قام فيهما الحق والقسط والشاهد بينهما والحاكم إخلاصاً لله يؤمن بأن تقوى الله أولى بحقهما من مقتضى الهوى المائل مع حظوظ سوى الحق.

فلا تتبعوا فتنة الهوى الجانحة بالنفس ظلماً إلى ذاتها أو ذوي القربى أو الفقير أو الغني دون أن تعدلوا مراعين ضوابط الحق وموازين القسط. وإن يلوي الذين آمنوا المخاطبون عند الاستقامة والميزان أو يعرضوا عن مقتضى أداء القسط والشهادة بالحق منفعلين بالأهواء الذاتية والعصبية فتشهدوا أو تحكموا بالباطل والظلم لياً أو تكتموا الحق إعراضاً فالله يؤكد بالغ علمه بخبر ما تعملون من أفعال بنيات قائمة بالقسط لله أو ظالمة بالهوى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ[104] عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا (136).

الخطاب والتنبيه للذين آمنوا حقاً أن يؤصلوا الطاعة الصادقة لكل ما سبق من أوامر ووصايا على عقيدة الاستجابة لأمر الإيمان بأصول الدين، وأن يجددوا إيمانهم بعد إيمان ويرتقوا به درجة بعد درجة يؤمنون بالله رباً وملكاً وإلهاً للناس، وبرسوله مبلغاً أمانة الرسالة إماماً وقدوة لحياة المؤمن، وبالكتاب الذي نزل من قبل وحياً من الله الواحد يصدق بعضه بعضاً.

والمؤمنون المسلمون يوحدون كتاب الله ولكن أهل الكتاب السابقين كاليهود والنصارى منهم من تحمله الطائفية ويرتهن لذكرى كتاب دون سائر تنزيلات أم الكتاب. فمن لا يستجيب للإيمان الشامل بل يكفر بالله وبالملائكة لم يعرفهم غيباً أو حسبهم إناثاً لله –كمشركي العرب–، أو غار فكفر ببعضهم كجبريل لأنه نزل ببلاغ الكتاب التالي –كبعض أهل الكتاب القديم –، ومن يكفر برسل الله أو يفرق بينهم وهم موكب رسالة واحدة، ومن يكفر باليوم الآخر غيباً فلا يقيم للحساب والجزاء اعتباراً ورغبة ورهبة في حياته – من كفر كذلك فقد ضل عن الهدى ضلالاً بعيداً في الحياة.

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (137).

بعد ذكر الذين كفروا بالغيب أو بعضه وضلوا عن الإيمان المتصل المتجدد، يأتي ذكر فئة من الناس اضطربت مذاهبها وتذبذبت فآمنت حيناً ثم لم تثبت على الابتلاء فكفرت ثم تيسر لها المتاب إلى الإيمان

---

[104] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر(نُزِّل، أُنزِل) بالبناء للمجهول

فآمنت ثم تعرضت لفتن الحياة المتوالية ولم تعتصم بالتجربة فكفرت، ثم تواصلت ظروف الابتلاء في الحياة فتمادت في طريق الضلال وازدادت كفراً – هؤلاء لم يكن الله في سنته ليغفر لهم لأنهم ارتدوا بعد التوبة، ولا ليهديهم سبيلاً لأنهم آثروا عبر التجارب طريق الضلال فيسر لهم ما اختاروا ولم يصابروا ويجاهدوا الفتن ليبسر الله لهم سبيلاً إلى مزيدٍ من الإيمان والهدى.

(بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138).

الذين تذبذبوا بين أحوال إيمان وكفر وتوبة وردة ولم يرجعوا ثباتاً على السبيل منهم الذين لم تختلف بهم الأحوال وحسب بل اضطرتهم ضغوط البيئة العامرة بالمؤمنين أو الكافرين فاختاروا أن يتذبذبوا لا أحوالاً بل ظاهراً وباطناً، استقر في نفوسهم الكفر والضلال ولكنهم أبدوا مواقف ترائي المؤمنين وأحياناً ترائي الكافرين. وقد سبق ذكر أثر نفاقهم على المؤمنين إذ اختلف المسلمون كيف يقفون معهم بما يبدون من إسلام أم عليهم بما يلوح منهم حيناً من موقف جانفٍ نحو الكافرين (فما لكم في المنافقين فئتين... (الآيات 88 – 91) ولئن كانوا باضطرابهم يشيعون البلبلة في صف المجتمع المسلم فالتذكرة للنبي القائد الموحد لذلك المجتمع أن يبشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً وليسوا يومئذٍ مثل ارتباك مذهبهم باطناً وموقفهم ظاهراً ولكن المصير بين واضح بين نعيم مقيم وعذاب أليم.

(الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139).

الاضطراب الذي يعتري مواقف المنافقين المتذبذبين بين إبطان الكفر وإظهار الإيمان أنهم يفضحون باطنهم إذ يتخذون الكافرين أولياء بالصلة والصداقة والتعاون من دون المؤمنين الأولى بأن تصدق بينهم المولاة في سبيل الله. ويرد في ذكرهم التساؤل استنكاراً لتلك الموالاة الضالة نحو الكافرين : أيطلبون عندهم العزة مناصرة وحماية ؟ وقد كانت تلك المواقف المنكرة التي يعتري أهلها ضعف الإيمان في عهد موالاتهم للمسلمين وللرسول ﷺ ويميلون نحو الكافرين –كانت ظاهرة في المدينة إذ ظل اليهود والنصارى داخلها وخارجها في حال جاه بالتراث وقوة بالثروة والسلطان مما يفتن المنافقين فيوالونهم. لكن التساؤل الذي يستنكر منهم مقاصدهم الضالة يتأكد جوابه بأن العزة لله تبتغي الموالاة في سبيله وتتوحد كلها جميعاً عنده تعالى لا شريك فيها ولا نفاق.

(وَقَدْ نَزَّلَ[105] عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140).

في سياق ذكر مجتمع المدينة إذ تغشاه ظاهرة الاضطراب في الدين والتذبذب في المواقف والنفاق والموالاة للكافرين من أجل الكتاب الغالب بشيوع ثقافتهم التقليدية الكارهة للدين الجديد – في ذلك السياق – يُذَكَّرُ المؤمنون أن قد نزل عليهم أن إذا سمعتم في جلسات المجتمع آيات الله المنزلة عليكم قرآناً يكفر بها تجديداً للكتاب ولو تصديقاً لما سلف عندهم ويستهزأ بها لتنفير المستمعين من وقعها وسلطانها عليهم

---

[105] قرأ القراء السبعة – إلا عاصماً– (نُزِّل) بالبناء للمجهول

إذا تعقلوا وتدبروها – إذا سمعتم ذلك الكفر والهزؤ في مجالسة الكافرين والمنافقين فأعرضوا عنهم واهجروهم ولا تقعدوا معهم حتى تخوض المجالس في حديث غير ذلك. والآيات السابقة من الكتاب التي يذكر بها المؤمنون هي (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) في سورة الأنعام* وقد نزلت بمكة تنهى النبي ﷺ والمسلمين عن مجالسة المشركين الذين يخوضون في الكتاب جهالة ولعباً، والنهي هنا في المدينة للمؤمنين الذين كانوا يجلسون إلى أهل الكتاب ويستمعون إلى كفرهم واستهزائهم، وهم يشابهون بذلك عمل المشركين لكن عن طائفية وحسد، لا يداولون المؤمنين ويسألونهم ويجادلونهم بالجد والحسنى. فالمؤمنون يُنْهَوْن عن معاشرة أولئك المرضى في مجالسهم التى تُعْدِي كل قاعد مُراصد فيها ويُنذَرون بأنهم إن رضوا بتلك الصحبة المجلسية فهم إذاً مثل سائر الخائضين في حديث الهزؤ بآيات الله. ويتأكد النذير بتأكيد وعيد الله أنه يوم القيامة جامع أولئك المنافقين الموالين وأولئك الكافرين المجاهرين بالصد عن التنزيل – وذلك المجلس يوم القيامة جزاءً وفاقاً لمجالسهم الكافرة اللاهية في الدنيا سيكون مجلساً في جهنم يجمعهم كذلك جميعاً.

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (141).

يُخاطب المؤمنون أن أولئك المنافقين الموالين المجالسين للكفار حتى في مجالس الكفر والهزؤ بالآيات التي ينبغي أن تعرضوا عنها، هم الذين يتربصون ويراقبون رصداً مصير أحوالكم، فإن كان لكم فتح من الله فرجاً ونصراً في مدافعة القوى الكافرة حول المدينة بادر المنافقون إلى تذكير المؤمنين بنصيبهم في كسب النصر يسألونهم : ألم نكن إلى جانبكم في المواقف والمعارك يفاخرون بالمعية ويبغون حظاً في الغنائم. وإن كان للكافرين نصيب من الغلبة والمغنم رأوا المنافقين يسألونهم: ألم نستحوذ عليكم في المعارك ولم نأخذكم قتلاً وسلباً بل منعناكم من المؤمنين بأن خذلنا حملتهم عليكم ووقيناكم منهم؟ هكذا يتذبذب المنافقون المتربصون للمؤمنين أو عليهم ليراءوا المؤمنين أو الكافرين وليأكلوا من مائدة هؤلاء أو أولئك حسب تقلب سوانح الفرص. لذا يخاطب الله صف المؤمنين وجيب النفاق فيهم أنه – تعالى – بعلمه يحكم بينكم يوم القيامة ليميز المؤمن الطيب بأجره والمنافق المتخابث بوزره، وأنه تعالى بعزته لن يجعل للكافرين سبيلاً مأخذاً على المؤمنين ولو من تلقاء المنافقين المتربصين فرص الموالاة للكافرين على المؤمنين ومن بينهم.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (142).

---

* سورة الأنعام الآية 68

يستمر سياق ذكر المنافقين تحريراً لمجتمع المؤمنين من ظاهرة النفاق وبياناً لأعراضها المخادعة فالمنافقون بلا ريب يظهرون في السلوك سمات منسوبة للإيمان تعبيراً تحدثهم أنفسهم أن يخادعوا بها الله كما يخدعون الناس، ولكن الله يعلم الحقيقة المستكنة في الصدور فلا يكون خداعهم إلا عليهم لأن الله يخدعهم بطول الأجل وطول الأمل وكف يد المسلمين عنهم، وذلك قدر الله أن يخلي ويملي للإنسان حسب مشيئته ييسره لليسرى أو العسرى وفق كسبه واختياره. ولكنه يوم القيامة سيوقع عليه المصير عذاباً أو نعيماً.

فالمنافقون مهما أظهروا القيام بالعبادة إذا قاموا إلى الصلاة لم ينشطوا بل بدا عليهم الحق كسالى في القيام يراءون الناس بشعائر الصلاة وإنما هي صور تعبير للصادقين عن العبادة ولا يذكرون الله إلا قليلاً. وإنما الصلاة كلها ذكر لله وهم فيها وهم حولها في ثنايا الحياة التي تعمرها الصلاة بالذكر الموصول – هم لا يذكرون الله إلا قليلاً منافقة بالإسماع الظاهر.

(مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (143)

المنافقون باضطراب إيمانهم يقومون في حياتهم وسط المسلمين وفي شعيرة الصلاة والذكر فيهم وفي ولائهم ومجالستهم للكافرين مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء المؤمنين اعتصاماً صادقاً ثابتاً ولا إلى هؤلاء الكافرين تحيزاً ظاهراً مستقراً، بل بين بين موالاة ومجلساً ومقولات ومخادعات بالشعائر [*]. فالله بسنته يذر الإنسان كما يشاء وييسر له كما يختار يضل الذي صد عن طريق الهدى بكسبه ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً للهدى بغير الله ويظل مذبذباً لا سبيل له مع المؤمنين لأنهم اختاروا الإيمان معاً فاتحدوا في سبيل الله، والمنافقون ضلوا السبيل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (144).

الخطاب يباشر المؤمنين ألا يسلكوا ضلال المنافقين ومواقفهم المتذبذبة – يُؤمر المؤمنون ألا يتخذوا الكافرين أولياء من دون سائر إخوانهم المؤمنين، لا يخونون صف الأمة المتوالية بينهم وبين الكافرين يوالون أحياناً الكافرين يبتغون عندهم العزة، ومن يتخذ الكافرين أولياء فقد اقترب من سخط الله وعقابه فهل يريد المؤمنون أن يفعلوا ذلك فيجعلوا لله عليهم حجة وسلطاناً مبيناً مما يحق به العقاب؟

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ[106] الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145).

إن لله السلطان المبين على المنافقين وهم يقيناً أهل بكسبهم إلى المصير إلى الدرك الأسفل من النار. ولئن كان الله يجمعهم والكافرين في جهنم جميعاً (الآية 140) فإنهم بمخادعتهم الله ومراءاتهم للمؤمنين كسبوا كسباً أحط من الكفر الظاهر وأولى بأحط طبقات النار. فلن تجد يا من يُخاطبه هذا الحكم للمنافقين

---

[*] راجع الآيات 139 - 142

[106] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر(الدَّرَك) بفتح الراء

نصيراً يوم القيامة من الكافرين الذين ابتغوا عندهم العزة ولا من غيرهم ينصرهم من ذل عذاب الله كما لا تجد لمن يضلل الله سبيلاً.(الآية 143)

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146).

الله غفور توابٌ يخاطب المنافقين لا قدراً مفعولاً ولكن نذارة وبشارة فما سبق ذكره من مصير إلى درك أسفل من النار، يستثني منه الذين تابوا فعلاً من المنافقين وأصلحوا سلوكهم ولا يوالون إلا المؤمنين ويعرضون عن أحاديث الكفر معتصمين مع المؤمنين في القومة أو الأزمة وفي الصلاة والذكر تقويماً لكل ما سبق من سيئات وجموح وتذبذب، ثم أخلصوا دينهم لله لا يخادعون بل يصدقون الدين بعد التوبة، فأولئك استوفوا الإصلاح والاعتصام والإخلاص فهم مع صف المؤمنين، فلا يجمع التائب كما يجمع المنافق في النار وفي درك أسفل بل يؤتيه مع المؤمنين أجراً عظيماً.

(مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147).

الخطاب للمؤمنين ماذا يفعل الله بعذابكم؟ إنه لا يحمل نحوكم بغضاً أو يطلب ثأراً بسبب سابق إن تاب وشكر الذين كانوا يكفرون وينافقون منكم وشكرتم جميعاً وآمنتم واعتصمتم بالله وأخلصتم له دينكم ماذا يفعل الله عندئذ بعذابكم؟

وهو حقاً شاكر لمن شكر بالغ العلم بحقيقة التوبة، توابٌ للتائبين المؤمنين وسيؤتي المؤمنين الأجر العظيم.

(لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148).

يحب الله القول بالمعروف ويحب الإعراض عن قول السوء رداً حتى للمجالس المستهزئة الكافرة أحاديثها بالدين، وكذلك لا يحب الله الجهر بالسوء من القول حملة جارحة على المنافقين إلا من ظُلِمَ من المؤمنين فجاهر المنافق برد السوء دفاعاً عدلاً. فالله حقاً محيط سمعاً وعلماً بمقولات السوء الجهر وبالظلم قولاً وبالرد أو تجاوزه حدود دفع الظلم.

(إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149).

يستمر الخطاب للمؤمنين في سياق الكف عن المجاهرة بالأقوال المسيئة أن يبدوا خيراً أو يخفوه – كالنفقة جهراً أو سراً، لا كقول المنافق البادي خيراً والخافي شراً – إن تكن كذلك مبادرات قولهم في حق الآخرين فلم يتجاوبوا جهراً بالسوء رداً لمثله بل آثروا العفو، فالله حقاً واسع العفو وهو البالغ القدرة على الرد على عباده جزاء فإن آثر المؤمنون الخير والعفو في وجه السوء فذلك تخلق نحو صفات الله.

عموم المعاني

الآيات 131 – 149

إن الكون كله آيات توحيد لله فهو المالك المتصرف لكل ما في السموات والأرض. ولقد تنزلت من الله من ملئه الأعلى الوصية بالتقوى لتلازم الإنسان في كل الحياة وابتلاءاتها، لا سيما في الأسرة نواة المجتمع

الزوجي لبنى الإنسان التى وردت بشأنها وصية التقوى في صدر السورة وفي الآيات السابقة (128 – 129). فالأسرة حيث يخلق جديد الإنسان ويزكى ليتهيأ بالتقوى لكل العلاقات خارجها في ساحات الحياة.

ولقد تنزل الوحي يوصي بالتقوى الإنسان جميعاً عبر جميع الزمان – من تنزل عليهم الكتاب قديماً في التوراة والإنجيل أو متجدداً في القرآن فإذا مرق الإنسان على التقوى ومن ثم على أصل الإيمان فيها فكفر بنعم الله في الحياة خالقاً هادياً، فإن الحقيقة الأزلية ثابتة أن له تعالى كل ما في السموات والأرض غنيٌ عن أي من عباده كفروا لا يشكرونه ولا يتقونه حميد سبحانه عما يصفونه غير حامدين. والحقيقة كذلك أن له ملك الكون والتصرف فيه كافياً لمن يؤمن به من عباده ويتوكل عليه هادياً وناصراً في ابتلاءات الحياة وجازياً في الآخرة. وإن شاء الله المالك القدير على كل شئ لعجل التصرف في الناس جزاءً فيذهب بمن كفروا ولم يتقوا هلاكاً حاضراً ويأتي بآخرين مؤمنين متقين. ولكنه تعالى يعجل أو يؤجل ويذهب أو يأتي بالناس جزاءً وفاقاً. ومن كفروا بالغيب لا يريدون بالكسب إلا ثواب الدنيا ليعلموا أن عنده تعالى ثواب الدنيا العاجل وثواب الآخرة الآجل يعطيه لمن آمن بالغيب واتقى، والله سميع بصير بالأعمال ليجازي بها متى شاء.

إن على المؤمنين المتقين لذلك أن يكونوا حكاماً قوامين بميزان الله قسطاً في علاقاتهم وشهوداً صادقين في الحقوق. ولو كان ذلك أن يرجح الحق على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، ولو كان الحكم على غني أو فقير – لا ميل عن الحق للذات أو القربى أو للوضع الاجتماعى فميزان الحق لله أولى اعتباراً للأوضاع. ومتى غلب على الحاكم أو الشاهد هواه يلوي نحو الظلم ويعرض عن الحق فالله خبير بكسب النفوس يجزي عليه.

إن على الذين آمنوا أن يثبتوا على توحيد العقيدة إيماناً بالله ورسوله والكتاب المجدد الخالد الذي نزله الله وبلَّغه الرسول الخاتم برسالة الإسلام المصدق للكتب السابقة. وإن من يكفر بالله رباً واحداً مالكاً هادياً جازياً وبملائكته آلهة بل عباداً له وواسطة نحو البشر، وبكتبه تحملها بالوحي الملائكة إلى رسله الذين يتلقونها تتوالى موحدة ويبلغونها إلى الناس، وباليوم الآخر حساباً وجزاءً لكسب الإنسان في ضوء الرسالات، من يكفر بذلك فقد كفر بتوحيد الملإ الأعلى وتوحيد الرسالة الدينية وتوحيد الحياة دنيا وآخرة وذلك هو الضلال البعيد.

إن عهد الانتقال من الكفر استجابةً للإسلام مثل عهد ظهور الإسلام بالمدينة يجعل من ظواهر الكفر التقلب بالمذهب عبر سير الحياة إيماناً لعهد أول ثم انتكاساً إلى كفر ثم توبة إلى إيمان ثم ردة إلى كفر وذلك انقلاب يقطع أهله من غفران الله وضلال يحرمهم من هدايته. ويغلب أيضاً من ظواهر الكفر في عهود الانتقال التذبذب عند كثيرين نفاقاً بين الظاهر يبدي إسلاماً لمراءاة الطائفة المؤمنة في المجتمع

والباطن يطوي كفراً موالاة للقديم ولنفوذه الباقي. وذلك نفاق لا بشارة فيه وفق ظاهره إلا بالعذاب الأليم للكفر المتمكن في القلوب.

ومن آيات النفاق أن ابتلاءات العلاقات الاجتماعية والدولية تجعل المنافقين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين الذين ينتسبون إليهم ظاهراً، ذلك أنهم يبتغون لدى الكافرين العزة مناصرة وحماية بواقع قوة الثروة والسلطة التي يتمتعون بها قبل تمام الانتقال لتمكن قوة الإسلام. وطوائف النفاق هكذا كطوائف الكفر مجالس نواديهم لا تعمر بذكر آيات الله بل بالكفر والاستهزاء بها، فعلى المؤمنين أن يعرضوا عنها حتى لا يندرجوا في صفهم ويتحدوا معهم بالمعاشرة، فالأولى أن يتحد المنافقون والكافرون والله سيجمعهم كذلك في جهنم. إن المنافقين لا تستقر فيهم أخوة ووحدة مع المؤمنين، إنما يتربصون الظروف يتقاربون منهم أو يتباعدون حسبها. فإن كان للمسلمين فتح وظفر ذكروا المسلمين بمعيتهم في صفهم ليشاركوهم في أي كسب، وإن طرأ للكافرين نصيب من ظفر ذكروهم بأنهم هم الذين أحاطوهم وحموهم ومنعوهم من وطأة المسلمين – هكذا يسوي المنافقون الكافرين والمؤمنين موقفهم مع هؤلاء أو أولئك حسب الظروف بينما يحكم الله ولا يسوى بينهم يوم القيامة، ومهما داول الأيام وابتلى المسلمين بحملة من الكافرين أحياناً لن يجعل للكافرين على المؤمنين الصادقين سبيلاً. إن المنافقين يتخذون منهج المخادعة حتى مع الله الذي يمد لهم الخيار إلى أجل الحساب فيتوهمون أنه تعالى راض عما يتكلفون ظاهراً وأنهم في شعيرة الصلاة يؤدون صورها وظاهرها ويقومون إليها كسالى مراءاة للناس لا نشطين قربى إلى الله ولا ذاكرين الله إلا قليلاً، وهم مخادعين الله أولى بمخادعة البشر مذبذبين لا إلى المسلمين ولا إلى الكفار ثباتاً، ومن كان الضلال خياره يمد له الله مداً فلا يجد بهواه سبيلاً للهدى بين المواقف.

إن خلق المؤمنين ألا ينافقوا بل يخلصون ويستقيمون في مواقفهم مجتنبين المخادعة والذبذبة وألا يتخذوا الكافرين أولياء من دون سائر المؤمنين لئلا يجعلوا لله عليهم حجة بينة يحق بها العذاب. إن من وقع في سنة المراوغة أصبح من المنافقين، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار ولن يكون لهم دون الله نصر. وذلك إلا من تابوا بعد ذلك من النفاق وأصلحوا مواقفهم فاستقامت واعتصموا بالله ولياً وحده وأخلصوا دينهم صادقين فأولئك لا مع الكافرين دنيا ولا أخرى بل مع المؤمنين الموعودين بأجر عظيم من الله. ولا وعيد بالعذاب ولا معنى متى تاب المنافقون وأصبحوا مؤمنين شاكرين لنعماء الله وإنما يجاوبهم الله شاكراً توبتهم عليماً بإيمانهم. ولا يحب الله أن يستفز المؤمنون المنافقين بخطاب سوء جهراً في وجوههم وحملة عليهم جارحة إلا ما كان رداً على ظلم، فالله سميع عليم بحيثيات الخطاب ووقائعه، وإنما يحب الله الغفور عن السيئات القدير على الجزاء أن يبدي المؤمنون ويبطنوا لإخوانهم خيراً ويعفوا عن السوء.

***

ترتيل المعاني (151–

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (150).

مهما مال المنافقون نحو الكافرين موالاةً ومجالسةً وحمايةً مدعاة فإنهم يمكن أن يتوبوا إلى المؤمنين. أما الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، أولئك من أهل الكتاب في المدينة الذين إذا ادعوا الإيمان بالله الواحد كفروا بأن رسله يحملون رسالة واحدةً بكتابٍ واحد الأصل. فإن توالي الرسل بما ينزل إلى كلٍ وحياً من أم الكتاب فهم يصدق بعضهم بعضاً ملة واحدة، أما أهل الكتاب القديم بالمدينة الذين صدوا عن توحيد الرسالات النبوية ويدعون إيماناً بموسى كافرين بعيسى – يهوداً، وبعيسىكافرين بمحمد – نصارى ويريدون أن يمضوا دون التوحيد طريقاً بين الإيمان والكفر، مذبذبين بين أصل رسالة رسول به يؤمنون وبين اتصال الرسالة من الله برسول آخر تالٍ به يكفرون.

(أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (151).

أولئك المفرقون لوحدة رسالات الدين هم الكافرون حق الكفر أعتد الله وَمَلؤُه الأعلى لأولئك عذاباً يهينهم جزاء استكبارهم على رسولٍ من الله.

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ[107] أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (152).

الفئة الثابتة على الإيمان توحيداً بالله ورسله ولم يفرقوا طائفية بين أحد منهم سابق أو تال أولئك المؤمنون مبشراً ومصدقاً بعضهم لبعض، أولئك الموحدون سوف يؤتيهم الله أجورهم. (وكان الله غفوراً رحيماً) الله بالغ المغفرة حتى لهؤلاء الذين رهنتهم عصبيتهم الأولى لشرعة نبي دون آخر ثم آمنوا ووحدوا بهم جميعاً والله يرحمهم رحمة بالغة.

(يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ[108] عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا (153).

الخطاب للرسول الداعية لله الواحد وللرسالة الواحدة عبر حملتها من المرسلين المتعاقبين، أن أهل الكتاب اليهود الذين سبقت الإشارة لكفرهم تفريقاً للرسل، عصبيةً للقديم من عرقهم وتأريخهم وصدوداً عن الجديد المصدق لقيم الرسالات، يسألك اليهود آيةً ماديةً ألواحاً وقراطيس يلمسونها ويرونها تتنزل من السماء إن فعلوا ذلك فالتذكرة للرسول ألا ييأس فسابقتهم مع نبيهم موسى أن سألوه بينة مادية على رسالته أكبر من كتاب من السماء أن يروا الله جهرة –كأن الله موجود مادي يقع الضوء عليه فينعكس ليراه البشر بياناً عينياً.فكان سؤال الرؤية العينية ظلماً عظيماً يتجاوز رؤية آيات الله العينية في الكون والكتاب، فسلط الله عليهم تجلياً لقدرته مرئياً في الطبيعة الصاعقة فأخذتهم بوقعها فخروا مأخوذين رعباً. وفوق ذلك ومن بعد البينات والإيمان بالله ارتكس اليهود إلى مادية التأليه حين غياب الرسول فعبدوا العجل متخذينه إلهاً.

وقعت سابقاتهم ولكن الله رتب عليها عفواً لا هلاكاً وآتى من مَلَئِهِ الأعلى موسى سلطاناً وحجةً بينةً من ألواح الكتاب ومن سيرة قيادته.

(وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا[109] فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (154).

ويمضي سياق الذكر للآيات والوصايا لذوي السوابق الظالمة من اليهود لئلا يأسى الرسول بحاضر موقفهم،وليُذَكَّروا هم ويعتبروا بتأريخهم فلا يفرقوا بين المرسلين فيكفرون بالخاتم كما كفروا من قبل. فمن السلطان المبين السابق للإيمان أن الله إذ أخذ منهم الميثاق والعهد ورفع فوقهم الطور إذ انتصب الجبل متفجراً بالزلزال بوقع ماديّ من الرهبة تعلو عليهم لترسخ وطأة العهد في قلوبهم. وآية أخرى أن الله فتح

---

[107] قرأ القراء السبعة – ما عدا حفصاً – (نؤتيهم) بالنون

[108] قرأ ابن كثير وأبو عمرو (تُنْزل) مخففة

[109] قرأ نافع (ولا تعّدوا) بتشديد الدال وفتح العين أو اختلاس فتحها

لهم قرية منتصرين وأوصاهم أن يدخلوا بابها سجداً ليكون النصر شكراً وخشوعاً لله لا شكراً بالفخر وكفراً. وسلطان آخر أن يسر الله لهم نعمة رزق البحر حيتاناً شرعاً وأوصاهم ألا يعدوا صيداً يوم السبت تقوى وشكراً لنعمة الله. أمرهم الله هذه الأوامر بهذه الآيات والسلطان وأخذ منهم عهداً مغلظاً بألا يخالفوها.*

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (155).

ترتب مصير أهل الكتاب اليهود دنيا وأخرى وعذاباً مهيناً على سابق ما نقضوا من ذلك الميثاق الغليظ وعلى كفرهم بآيات الله وعلى قتلهم الأنبياء ظلماً وصداً عن رسالتهم بالهدى لا قصاصاً ولا دفعاً لعدوان من الأنبياء. وترتب ذلك المصير أيضاً على إصرارهم رفضاً للحق كلما جاءهم رسول من قبل يعلنون أن قلوبهم غلف مغلقة عن أي خطاب جديد،* والله لم يخلقها غلفاً ولكنهم غطوا عليها بما كسبوا من كفر، فلا يزكون قلوبهم لتلقى الهدى مطمئنة فلا يؤمنون إلا قليلاً بهذه القلوب القاسية.

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156)

ومن كتاب سوابقهم التي بها صاروا إلى كفر حق وعذاب مهين كما سبقت الآية * أنهم كفروا بآية الله المشهودة في ميلاد عيسى وقالوا بهتاناً عظيماً، واتهاماً بالزنا رموا به مريم التي وضعت عيسى – عليه السلام – وذلك على سنتهم في الكفر بالجديد من الأنبياء.

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157).

وقولهم كفراً وتعصباً لقديمهم وإصراراً على سنة قتل الأنبياء الجدد وادعاء لفعل ذلك وقولهم إنَّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله.وإنما شبه لهم غير عيسى فقتلوه وفرحوا بادعاء قتل نبي. وكان الاشتباه مدعاة للاختلاف والشك بينهم في من قُتِل، وما لهم من علم بيّن إلا أنهم يتبعون الظن بأنه عيسى شفاء لغيرتهم وعدوان نفوسهم عل نبي جديد،(وما قتلوه يقيناً) اليقين أنه ما قتلوا عيسى عيناً.

(بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (158)

بل قضى الله لنبيه عيسى عليه السلام ألا يقتل أو يصلب بيد أعدائه وأعداء تجديد الرسالة وتوحيدها بل رفعه الله إليه، فقد جاء إلى الدنيا بميلاد مختلف عن سنة البشر وغادرها على نحو مختلف مما يموت عليه البشر.

---

* راجع تفسير سورة البقرة الآيات 57، 62، 64، وتفسير سورة الأعراف الآيات 161، 193

* راجع تفسير سورة البقرة الآية 88

* نفس السورة الآية 151

وكان الله حقاً بالغ العزة لم يسلم نبيه إلى رغبات أعدائه فلم يقتلوه فرفعه إليه تكريماً، وبالغ الحكمة جعل ميلاد عيسى مختلفاً وموته مختلفاً آيةً لأداء رسالة في بيئة لا تؤمن إلا بالآيات الطبيعية لقضاء الله المعجز.

(وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) (159)

ليس من أهل الكتاب الذين كفروا بعيسى عليه السلام وادعوا قتله وصلبه إلاّ ليؤمنن وصيغة الأمر ليؤمنن تأكيداً أن يؤمن به وبرسالته لا يفرق بين الرسل ولا يقطع بين الرسالات المتوالية المتصادقة. وذلك قبل أن يموت ذلك الكتابي لئلا ينقطع عمله كافراً عن عصبية. ويوم القيامة يقوم عيسى عليه السلام عليهم شهيداً أنهم يهوداً كفروا به وبآيات ميلاده ووصايا الوحي وقد أبلغهم الرسالة وأنهم – من صار منهم نصارى ما أوصاهم أن يعبدوه بل أن يوحدوا الله إلهاً ويوحدوا الكتاب توراة وإنجيلاً ويوحدوا الرسالة من موسى وسلفه من الأنبياء إلى النبي عيسى إلى من يبشر به محمد عليهم صلوات الله.

(فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) (160)

فبجملة ظلم مما سبق ذكره من الذين هادوا عجل الله لهم أن غلظ عليهم التكاليف فأنزل عليهم تحريم بعض المطعومات التي كانت تحل لهم طيبات كما في سورة الأعراف*، جزاءً ببغيهم وبصدِّهم عن سبيل الله هدىً ووصايا كثيراً.

(وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (161).

وكان مع الظلم والصد أخذهم للربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس باطلاً دون مراعاة للحق والعدل وجازاهم الله على ذلك الأكل الحرام بتحريم بعض الحلال. وأعد الله في ملئه الأعلى لمن مات منهم على كفره ناقضاً للدين ظالماً صاداً آخذاً للحرام عذاباً أليماً في الآجلة بعد العاجلة السابقة في عسر التكاليف.

(لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ[110] أَجْرًا عَظِيمًا) (162).

سبق ذكر الكافرين من أهل الكتاب بالجديد رسولاً ورسالة وما أعتد الله لهم من عذاب، والمؤمنين وما سيؤتيهم الله من أجر (الآيات 150–152). وقد فصلت الآيات التالية مفعولات الكافرين ومقولاتهم ومصائرهم، وانتقل السياق إلي صفات المؤمنين وما يوعدون.

فقد أعتد الله للكافرين من أهل الكتاب عذاباً أليماً، لكن ليسوا كلهم كافرين فمنهم الراسخون في العلم تمكنوا منه فلا يزيغون مع المتشابه، بل يوحدون كل الكتاب القديم الجديد من الله – كما في سورة آل

* الأعراف الآية 146

[110] قرأ حمزة (سيؤتيهم)

عمران، * ولا يفرقون بين الكتب والرسالات ولا يزلهم التعصب ضد الأنبياء الجدد ونقض ميثاق الحق والتورط في سوابق التقاليد بالظلم تجاوزاً والكفر احتيالاً وصدوداً، فهم برسوخ العلم وثباته المؤمنون الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم من الطائفية والعصبية بل : (يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك)، هذه الفئة المؤمنة آمنت بالرسول ﷺوبالقرآن المنزل إليه ولم تسأله أسئلة الظلم والكفر وآمنت بعيسى عليه السلاموبالإنجيل ولم ترم أمه بالبهتان العظيم كما آمنت بموسى والتوراة، فهم لم يفرقوا بين الله ورسله بل آمنوا بالكتب التي جاءت من بعدهم مصدقة لما معهم.

والمقيمون الصلاة كما قرىء "والمقيمين[111]" –كما قرىء عند الأكثرين– تصويباً خاصاً نحو صفتهم مقيمين للصلاة التي يستعينون بها على الصدق والوفاء وإخلاص الإيمان واتقاء صفات لبس الحق وكتمه والحسد ألا يؤمنوا بما يصدق ما معهم، وألا يصلوا مع المصلين ويبروا مع الأبرار كما سبق في سورة البقرة.* والمؤتون الزكاة لا يبخلون بالمال الذى استخلفهم فيه –كما في سورة البقرة وآل عمران والنساء* – فبعد الإيمان العام هم المؤمنون خاصة باليوم الآخر والمسؤولية والجزاء موصولاً بالإيمان بالله لأن أساس كثير من أمراض أهل الكتاب ضعف إيمانهم غيباً باليوم الآخر وحصر الدين في صراعات الدنيا.* أولئك العالمون المؤمنون بالرسالات المنزلة جميعاً المصلون المزكون وفق شرائعها المؤمنون بغيب عاقبة الآخرة جزاء لكسب الحياة الدنيا وعد الله في ملئه الأعلى أجراً عظيماً لأولئك المؤمنين. بينما أَعتد للكافرين عذاباً أليماً.

عموم المعاني

الايات 150 – 162

إن الإيمان الحق توحيد لله ومن ثم توحيد دين رسالاته التى توالت تهدي البشر عبر التاريخ لإسلام الحياة لله تعالى. وإن الذين يكفرون بتوحيد الله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله مؤمنين ببعض وكافرين ببعض ويتخذون بمذهبهم المفرق بين المرسلين سبيلاً طائفياً –كاليهود يؤمنون بالرسل منذ إبراهيم ثم يكفرون بعيسى ومحمد والنصارى يؤمنون بعيسى ويرفعونه بالتثليث إلى الألوهية ويكفرون ناسخين لشريعة ما سبق ورسالة من لحق محمد ﷺ – أولئك هم الكافرون حقاً بالتوحيد، وأعتد الله لهم العذاب المهين لا ما يعتقدون من القرب والحب والعصمة والإنقاذ من العذاب. أما المؤمنون الموحدون له ولرسله جميعاً بغير استثناء يصدق من خلف سلفه ويبشر بالتالي حتى رسالة الختام – أولئك يعد الله لهم

---

* سورة آل عمران الآيات 7 –9

[111] المصاحف العثمانية مجمعة على رسم (والمقيمين) بالياء

* سورة البقرة الآيات 40 - 60

* البقرة 43، آل عمران 150، النساء 37

* سورة البقرة 4، 64

الأجور، وهو الغفور الرحيم للذين كانوا منهم رهنتهم العصبية الطائفية للقديم حيناً ثم آمنوا بالتوحيد والتجديد.

وقد يضعف الإيمان بالغيب إذا طال العهد بالتدين كما حدث لأهل الكتاب القديم اليهود إذ أخذتهم المادية واحتجوا على القرآن وحياً إلا أن يتنزل ألواحاً من السماء كالتوراة. وقد سلف منهم مثل ذلك قديماً مع موسى نفسه إذ ظلموا تجاوزاً لآيات الله البينة في الكون والكتاب فطلبوا من موسى رؤية الله جهرة فسلط الله عليهم تجلياً لقدرته في الطبيعة صاعقة أخذتهم بوقعها. وظلموا تجاوزاً لآيات جاءتهم في مسيرة الإنقاذ من فرعون، إذ ما غاب منهم موسى إلا اتخذوا العجل صنماً مادياً مؤلهاً، ولقد عفى الله في ملئه الأعلى عن تلك المادية المشركة وآتى موسى لهم سلطان شريعة بينة، ونصب الله فوقهم جبل الطور متفجراً بالزلزال والرهبة ليرسخ فيهم ميثاق الإيمان بالشريعة، وكتب لهم فتح قريةٍ نصراً وأوصاهم أن يدخلوها ساجدين عرفاناً لنعمة الله فكفروها وبدلوا التواضع شعارات فخر وكفر، وبسط لهم رزق البحر على أن يتذكروا النعمة ولا يعدوا في طلب الحيتان يوم السبت يوم العكوف على الذكر والصلاة فلما رأوها تظهر يومئذ شرعاً احتالوا للصيد حراماً.وقد أخذ الله منهم عموماً ميثاقاً غليظاً من شريعة ألا يخالفوها ويأخذوها بقوة، فنقضوا الميثاق وكفروا بجميل آيات الله وقتلوا بعض الأنبياء الذين بعثوا فيهم مذكرين وأعلنوا أن قلوبهم غلف وإنما طبعها قدر الله –كذلك– بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً. هكذا الدين عرضة عند تطاول العهد وابتلاءات الحياة لنقض ميثاق الإيمان ونسيان نعم الله وجعل الأقوال والأعمال لمخالفة شريعة الدين.

وعصبية التدين بالقديم تحارب كل إحياء وتجديد الدين، وهكذا اليهود كفروا بمريم ورموها في ميلاد عيسى ببهتان عظيم وحملوا عليه وعلى أصحابه عندما قام فيها برسالة إحياء الدين، وادعوا أنهم قد قتلوه ليقووا الدين بذلك، وما قتلوه حقيقة بل شبه لهم وكانوا في شك بلا يقين، وإنما رفع الله روحه إليه آية خاصة من الله العزيز الحكيم مثل آية ميلاده – آيات حق ضل عنها اليهود والنصارى، وإنما الحق – الذي لا حق غيره – أن يؤمن كل من ينتسب إليهم بآيات عيسى ورسالته الجديدة قبل أن يموت كافراً ويبعث يوم القيامة، إذ يقوم عيسى شاهداً أنه قد أبلغ رسالة الحق توحيداً لله وإسلاماً وتبشيراً بمن بعده من رسالة.

وقد تتكثف علل التدين بتقادم الدين كما تعرض له اليهود من أمراض. فقد ظلموا فتنزلت عليهم بعض التعاليم تحرم بعض الطيبات الحلال عقوبة لا فرضاً دينياً عبر رسالات تجديد الدين وقد أخذوا يصدون عن دين الله لا ينفتحون أو يدعون لإحيائه، وقد شاع فيهم أكل الربا الحرام وأكل أموال الناس بالباطل فتنة مالية، واشتد كفرهم فأعد الله لهم عذاباً أليماً.

لكن كفر التقاليد الدينية أو ضلالها مهما ارتهن له بعض أهل الدين قد يتحرر منه بالرسالة المتجددة الراسخون منهم في العلم والمؤمنون بأصول الدين، لا الحافظون وحسب لمنقولاته أقوالاً. فهؤلاء

كبعض اليهود في المدينة في عهد الرسول محمد ﷺ يؤمنون بالتنزيل الجديد والقديم وصلاً لحق الدين ويقيمون الصلاة ذاكرين لا عرف إجراء وغفلة عن أصول الدين، ويؤتون الزكاة لا تفتنهم شهوة المادية دون مد الدين الجديد، ويؤمنون بالله واليوم الآخر إذ يقوم الله محاسباً جازياً فلا تموت فيهم مشاعر الأمانة والمسؤولية عن الحياة بالدين الحق. وأولئك يعدهم الله بكسبهم أجراً عظيماً في الآخرة.

ترتيل المعاني

الايات (163–176)

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ[112] وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا[113] (163).

الرسالة الواحدة التي يتوالى بها التنزيل ويؤمن الراسخون في العلم بما أنزل فيها من قرآن للرسول المخاطب محمد ﷺ وما أنزل من قبله إنما مصدرها الوحي من الله وملئه الأعلى، بذات معاني الحق التي أوجبت من قبل رسالات يكلف الأنبياء السابقون بتلبيتها منذ نوح عليه السلام وذرية صالحة من بعده تحفظ تراث الدين وتجدده بكلمة الوحى. ويخصّ إبراهيم – في الآية – لأنه ميراث الإسلام الباقي أثره وأبو الأنبياء والعرق الذي تفرع نحو إسماعيل أبي العرب ومحمد ﷺ، ونحو إسحق والأسباط آباء اليهود عرقاً وتراثاً، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان أنبياء اليهود والنصارى. ثم ختم ذكر تلك السلالة النبوية الرسولية بذكر داوود عليه السلام وكتابه الزبور لأن الله آتاه أصل السلطان وجعل وحيه كتاباً منزلاً رسالة مفصلة وليس وحياً فقط مصدقاً لوحي قبله أو هادياً لنبي بغير بلاغ أو سلطان.

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164).

مهما كفر بمحمد ﷺ أهل الكتاب القديم فالخطاب يثبته ويطمئنه أنه على خط الوحي الرسالي عبر التأريخ السالف، مما ذكر ومن رسل قد قص سيرتهم عليه القرآن، وممن بعثوا في ذات منطقة العالم الوسطى التي بعث فيها الرسول ﷺ، والذين أدوا أماناتهم بأثر متصل في التأريخ والحاضر للمجتمعات التى خاطبها الرسول برسالة ومعانٍ وعبر موصولة بذكرى هؤلاء الأنبياء. ثم ذُكِّر الرسول بآخرين من موكب الرسل في التاريخ بعثهم مبشرين ومنذرين ولم يقص القرآن عليه قصصهم كلها كما قص أنباء رسل المنطقة من حوله.

كما خص داوود وحياً بزبور مفصل فختم به ذكر أصول سلالته وفروعها اصطفى الله موسى بأن كلمه الله تكليماً لا وحياً بجبريل وبكتاب مفصل الشريعة هو التوراة فخصه الذكرُ بختام قصة جملة المرسلين.

(رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165).

---

[112] قرأ هشام عن ابن عامر (إبراهام)

[113] قرأ حمزة (زُبوراً) بضم الزاي

أولئك أجمعين كانوا رسلاً مبشرين للمؤمنين بالنعيم في اليوم الآخر ومنذرين للكافرين بالعذاب الأليم، وذلك لئلا يكون لمن كفر من الناس حجة على الله بعد الرسل أنه لم يبلغه علمٌ وعداً مبشراً بأجرٍ أو وعيداً منذراً بعقاب حافزاً للإيمان والعمل الصالح أو منفراً عن الكفر. والله حقاً بالغ العزة ولا يحتاج لإيمان الناس ولا يضره كفرهم ولكنه حكيم ينزل حكمه على الناس عدلاً لا يعذبهم حتى يبعث لهم الرسل مبشرين ومنذرين.

(لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166).

يتعنّتُ أهل الكتاب كفراً بما أنزل إليك وإنكاراً للحق لا يشهدون به وهم يعلمون، لكن العزاء والاطمئنان الكبير للرسول ﷺ خطاب له: إذا كان الراسخون في العلم من البشر يشهدون بالحق فالله أعلم بالحق الذي أنزل بعلمه، يشهد سبحانه وتعالى به والملائكة يشهدون لأنهم يعلمون ما علمهم الله يشهدون بالحق من الله ويسجدون لأمره. وكفى بالله شهيداً يغنى وحده الرسول ولو لم يشهد بشر بالحق الذى أنزل إليه، وحسب الرسول أن يشهد له مالك يوم الدين.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيدًا (167)

إن الذين كفروا بما أنزل الله على محمد ﷺ حقاً شهد عليه الله والملائكة والمؤمنون وصدوا عن سبيل الله معرضين عن رسالة الحق المصدقة لرسالاته الماضية والكتاب المصدق للكتاب الذين هم أهله إليه ينتسبون، أولئك قد ضلوا عن الهدى ضلالاً بعيداً إذ انقطعوا عن أصول الحق لا عند فروعه القريبة.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168)

إن الذين كفروا وظلموا متجاوزين سواء السبيل كما سبق ذكرهم لم يكن الله الحكيم ليغفر لهم كسب حياة الكفر والظلم في الدنيا ولا ليهديهم طريقاً إلى الآخرة..

(إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169).

لن يهديهم الله بعد كفرهم وضلالهم البعيد إلا إلى طريق جهنم مصيراً إلى جزاء وفاق. فهؤلاء الذين يدعون أنهم أحباء الله لن تصيبهم النار إلا قليلاً والذين يستكبرون على الرسالة المتجددة وعلى المؤمنين لن يستكبروا على الله يوم القيامة وسيدخلون جهنم بلا حول منهم ولا قوة، لأن عذابهم بذنوبهم على الله يسير.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآَمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (170)

الخطاب يعمم تنبيهاً للناس كافة بعد البيان الشديد عن الحكم على أهل الكتاب الكافرين بالرسول ﷺ حتى يتحرر كل من في بيئة الخطاب من نفوذهم وادعائهم: (قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) الذي خلقكم ورعاكم وليس من دونه، فالتكليف أن تؤمنوا بالله وبالرسول والكتاب تلقون خيراً

لأنفسكم في العاجلة والآجلة، وإن تكفروا فالله غني لا يضره كفركم، له ما في السموات والأرض حمداً وطوعاً، وكان الله عليماً حكيماً، وهو حقاً بالغ العلم بما ينزل حقاً بالغ الحكم بالخير للمؤمنين وبالعذاب للكافرين.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (171).

والخطاب يخص لأهل الكتاب النصارى بعد تفصيل البيان عن أهل الكتاب اليهود، وبعد التمهيد بذكر مريم والبهتان الذي وقع عليها من قول اليهود وذكر عيسى وجريمة اليهود في محاولة اغتياله وادعاء ذلك. وبعد أن ذكرت الآيات أخطر أمراض الدين التي أصابت اليهود وضلت بهم الضلال البعيد في تأريخهم وفي الحاضر الذي خاطبه القرآن، فالنصارى يخاطبون منبهين يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم تنطعاً بالإيمان بعيسى ، وتعلقاً مفرطاً بمغزى ميلاده وسيرته المعجزة، ولا تقولوا في شأن الله إلا الحق إلهاً واحداً لا شريك له ولا كفؤ له، فليس الحق في الله وعيسى ما ورط فيه النصارى تطرفاً وغلواً وليس المسيح – وهو ابن مريم بشراً – إلا رسول من الله كما هو محمد وكما هم الرسل من قبله، وليس عيسى إلا قدراً وأمراً وكلمة الله ألقاها إلى مريم حملاً بغير أب معجزةً وإلا روحاً من الله نفخت في مريم لتتجسد في مولود بشر، لكن بخواص معجزة للبشر، آيات لرسالة الله فيه تخاطب قوماً سألوا موسى المعجزات ثم تصلبوا على إيمانهم يكفرون بالأنبياء ويقتلونهم.

والنهي للنصارى عن التثليث الذى جعل الآلهة ثلاثة أباً وابناً وروحاً قدساً والانتهاء عن ذلك يكون خيراً لهم وليس الله إلا إله واحد يتجه إليه الإنسان وحده بالإيمان والعبادة، منزه – تعالى– عن أن يكون له ولد كصفة الأب البشر، فهو يملك كل ما في السموات والأرض الخلق كلهم ملكه والبشر عباده سواء وهو الغني الحميد.

هو وحده يكفي حقاً وكيلاً البشر في غنىً به أن يتخذوا من دونه من يكلون إليه رحمتهم ولو كان مثل عيسى الذي وكيله الله.

(لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) (172)

الحق الذي ينبغي أن يكون عليه النصارى والمؤمنون في أمر عيسى بعد بيان طبيعته ورسالته الخاصة التي ورط دونها النصارى في الغلو في الدين والإيمان بعيسى ولداً وشريكاً لله سبحانه، الحق أن المسيح ببركة الله لن يستنكف منذ مولده ولن يستكبر أن يكون عبداً مطيعاً لله، ولا يرضى بأن ينسب مولوداً لأبوة الله ولا معبوداً من دونه تعالى. وكذلك الملائكة المقربون، وقد أسمت النصارى جبريل الروح القدس

واتخذوه إلهاً ثالثاً وما هو إلا ملك مقرب لا يستنكف أو يستكبر عن عبادة الله كسائر الملائكة عباداً له سبحانه مرسلين نحو عبادة البشر.

ومن يستنكف عن عبادته تعالى مستكبراً عن الذل له والطاعة إنساً أو جناً غير مرئي فسيحشرهم الله إليه يوم القيامة جميعاً مع سائر الناس وذلك على الله يسير.

(فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا) (173)

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم يوم الحشر يوفيهم الله أجورهم الموعودة جزاءً وفاقاً، ويزيدهم وهو الشكور من فضله يبارك حسناتهم أضعافاً. وأما الذين استنكفوا واستكبروا في الدنيا فيعذبهم الله يوم الحشر عذاباً أليماً. و لا يجدون ولياً ممن أشركوا بالله الولى وحده ولا نصيراً دون الله النصير وحده وكفى به والياً ناصراً وتعالى عن شريك يتعالى مثله والياً أو ناصراً.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) (174)

الخطاب والتنبيه يعمم للناس في خواتيم السورة موصولاً من قريب بخطاب أن قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم *مبشراً ومنذراً لئلا يكون على الناس حجة بعد الرسل*، فالرسول الذي جاء مبشراً ومنذراً هو عليكم حجة وبرهان في الدنيا والآخرة من ربكم، وقد أنزل الله من ملئه الأعلى إلى المؤمنين خطاباً مباشراً نوراً من الهدى مبيناً قرآناً هادياً يخرجكم من الظلمات إلى طريق بين ومن الضلال البعيد للكافرين إلى الهدى للحياة.

(فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) (175)

فأما الذين استجابوا للبرهان واتبعوا النور فآمنوا بالله وحده هادياً من الضلال والاستكبار واعتصموا به وكيلاً ولياً ونصيراً، هؤلاء سيدخلهم في رحمة منه في مقابل أولئك الذين سيحشرهم إلى العذاب الأليم من استنكف واستكبر عن عبادة الله، وسيجدون فضلاً كبيراً من الله فوق مقابل عملهم الصالح وسيهديهم الله إلى صراطه المستقيم ديناً وآخرة ولا يهدي أولئك إلى طريق جهنم.

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (176)

* الآية 170 من نفس السورة

* الآية 165 نفس السورة

(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) المؤمنون بالله المعتصمون به وقد جاءهم الرسول برهاناً من ربهم والقرآن نوراً مبيناً يستهدون ويستفتون الرسول المخاطب الذي يذكرهم بأن الله يفتيهم في القرآن مبيناً أدق وسائل الحياة :

الكلالة. ليس لله ولد ولا والد فهو الغني الحميد وقد لا يكون للمرء منكم ولد ولا والد فيهلك هكذا عن كلالة وضعف في الوارثين، لا يموت ووارثه المباشر ذكر ذو قوة في الكسب وقوامة على الآخرين. وهذا ختام سورة النساء التى اتصلت وتعددت فيها موضوعات الحياة لكنها نحو صدرها وعبر هديها الموصول أثناءها، كانت تقود آياتها لتفصيل الأحكام في اقتصاد الأسرة ومعاملاتها وتوارثها حتى هذا الختام. وقد سبق حكم في حال الميراث كلالة إن كان الأخوة لأم يستوون (الآية 13)، وقد بدأت آيات الميراث بأهم المسائل وأكبرها في الأسرة وانتهت إلى أدقها مثل أحكام الكلالة إخوة لأم، وتنزلت خاتمة النساء لتستكمل أحوال الكلالة، وروي أنها من خواتيم التنزيل الذي يحفظ أمن الأسرة حيث ينشأ الإنسان حامل أمانة الخيار والمسئولية والدين.

(إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك) من مات وليس له ولد أو والد وكانت له أخت فهي تأخذ من ميراثه نصفَه لأن من كان له ولد لا يذهب من ميراثه شيء لأخته. (وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) إن وُرِثت المرأة كلالة ليس لها ولد فأخوها يرثها كل التركة وإن كان لها أولاد فلا يذهب شيء لأخيها. (فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) إذا مات الرجل وترك كلالة أختين فهما يأخذان من ميراثه ثلثيه. (وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين) وفق المعيار الذي سبق بيان حكمته في السورة في نسبة الذكر والأنثى ميراثاً من أن يكون للذكر من الإخوة الوارثين كلالة ضعف ما للأنثى من تركة أخيهم الميت بينما سبق استواؤهم إن ورثوا أخوة لأم (الآية،12).

(يبين الله لكم أن تضلوا) جاء من الله النور المبين بهذه الأحكام المفصلة حتى لا يضل الذين آمنوا وليهتدوا في كل حياتهم بأحكامه ولا يكونوا كالذين كفروا وضلوا عن سبيل الله ضلالاً بعيداً كما سبق ذكرهم. (والله بكل شيء عليم) الله بكل شيء عالم بالغ العلم حتى أدق أحكام الأسرة وميراث أموالها. والأسرة أصل الحياة حيث يولد الإنسان ويتربى ويتزكى ليبتلى من بعد بكل أشياء الحياة. والله بكل شيء عليم في الحياة أولها وخلالها وآخرها يبين للإنسان لئلا يضل في أي مسألة ما تضمنته أسوار هذه السورة وهو عليه رقيب كما جاء في مفتتحها.

***

عموم المعاني

الآيات 163 – 176

وحياً من الله الواحد تتوحد رسالات السماء، فدين الحق – الإسلام لله – واحد كل الزمان عبر الرسالات ومن بعد ختمها يخلد محفوظاً من الله إلى يوم القيامة. فالدين الذي أوحي إلى محمد ﷺ هو

كما أوحي إلى نوح والنبيين من بعده وهو كما أوحي إلى إبراهيم وسلالة من المرسلين تواتروا من بعده، فكان هو رأس ميراث دين الإسلام وأبا الأنبياء – امتدت الرسالة عبر إسماعيل نحو العرب وعبر إسحق ويعقوب والأسباط نحو بني إسرائيل إلى رسالة عيسى وإلى رسالة أيوب ويونس وهارون وخاصة رسالة داوود حيث تمكن سلطان الدين وتجدد شرعه بوحي الزبور. وعلى ذات النهج تنزل الوحي إلى رسل ورد ذكرهم في القرآن وآخرين لم يرد لهم ذكر. لكن مما ذكر في رسالة موسى التي لم تأت وحياً بل تكليماً من الله وجاءت تحمل شرعها ألواح التوارة. ولئن كفر بعض المنتسبين إلى التراث الرسالي بالرسالة الخاتمة وأنكروا القرآن وكانوا قد استحفظوا على كتاب الله القديم فتجاهلوا ولم يشهدوا بصدق القرآن المتواتر، فإن الله مصدر الوحي المتعالي هو الذي يشهد بحق القرآن والذي أنزله بعلمه وكذلك يشهد ملائكته الذين ينزلون بالوحي، وكفي بالله شهيداً إن أنكر بعض البشر. والذين كفروا بسبيل الله المتجدد وصدوا عنه بدلاً من أن يكونوا الدعاة إليه، قد ضلوا ضلالاً بعيداً إذ انقطعوا عن أصول الحق كفراً بفرعه الصادق المتجدد، وبذلك الظلم تجاوزوا حدود الحق حرموا من مغفرة الله أوهدايته إلي طريق غير طريق جهنم وكان ذلك على الله يسيراً.

والدعوة للناس جميعاً أن الرسالة الخاتمة حق صادر من الرب الأعلى، والإيمان بها خير دنيا وآخرة، فلن يضر ذلك الله شيئاً فهو الغني الذي له ملك السماوات والأرض العليم الحكيم بكسب الناس شراً يضرهم أو خيراً ينفعهم. أما أهل التراث الكتابي فعليهم اجتناب التنطع والغلو في الدين تأليهاً للنبي وقولاً على الله غير الحق، كما فعلت النصارى بعيسى بن مريم، وما كان إلا رسولاً من الله وكلمة من قدره ألقيت على مريم وروحاً منه نفخت فيها، فالإيمان الحق بالله واحداً وبرسله. أما القول على الله غير الحق أنه من ثلاثة أبٍ وابنٍ وروحٍ فسبحان الله الواحد أن يكون له ولد، فهو وحده الغني الذي يملك السماوات والأرض ملائكةً وبشراً وأشياءَ. وكفى البشر أن يتوكلوا عليه هادياً راحماً، لا كإيمان النصارى بعيسى الذي لم يكن إلا نبياً لا يستنكف أن يكون عبداً لله وما كان الملائكة المقربون إلا كذلك. والمستنكفون المستكبرون سيحشرهم الله جميعاً يوم القيامة. أما المؤمنون العاملون الصالحات فالله عندئذ يأجرهم ويبارك، وأما المستنكفون المستكبرون فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ملكاً ولا نبياً ولياً أو نصيراً.

إن الناس جميعاً تجيئهم رسالة الدين حجة عليهم وبرهان حق وينزل القرآن عليهم نوراً مبيناً يخرجهم من الظلمات. فالذين يؤمنون بالله حقاً ويعتصمون به وحده غير مفتونين بملك أو بشر من دونه فسيدخلون بحياتهم في رحمة من الله وفضل ويهتدون إليه صراطاً مستقيماً. أولئك يستفتون من يتلو منهم القرآن ويهدى بنوره المبين في كل شؤون الحياة لاسيما شؤون الأسرة التى بيّن القرآن كثيراً من هديها في سورة النساء هذه التي بدأت بالهدى في رعاية الأسرة وعلاقاتها المالية وختمت بحالة التركة كلالة لميت من

غير ولد ولا والد يرثه إخوانه حتى لا تتبدد أموال التركة كلالاً وضلالاً. والله بكل شيءٍ في الحياة عليم يهدي الناس علماً وحكمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

خلاصة هدي سورة المائدة

تنزلت سورة المائدة متأخرة عن سوابقها في تلاوة المصحف البقرة وآل عمران والنساء ، نحو تمام الرسالة وختام القران وفيها آية البشارة بكمال الدين وتمام النعمة ورضي الله سبحانه وتعالي عشية عرفة عام حجة الوداع علي الارجح .

فهي سورة العقود من اول عقد الايمان من المولي سبحانه وتعالي الي جملة عقود المعاملات بين المؤمنين ومع الناس كافة ، وهي التالية لسورة النساء التي امر فيها الله سبحانه بأن تؤدي الامانات الي أهلها في أيما عقد وعهد نحو كل امانة صغيرة او جليلة الي عقد الحكم بالعدل في ايما قضاء او حكومة ،كما شملت سورة النساء عبر هديها لسنة سيرة مجتمع المؤمنين ،عقود الزواج والصداق والحلف والامانة ثم عقود الوصية والوديعة والوكالة ،جاء مفتتح الخطاب في سورة المائدة مصوباً خاصة للمؤمنين —حيث مضي الخطاب في اول النساء الي الناس كافة – ان يفوا بالعقود كافة التي حررتهم من الطاغوت الادني إيماناً بالله الأعلي والتي وثقت عبادتهم كلها شعيرة وشريعة والتي طهرتهم من سنن الجاهلية السيئة الي حسني سنن الاسلام .

فجملة العقود مؤصلة علي عقد الايمان ، فالله المعطي نعمة الحياة والهداية لبني آدم يحكم عليهم بما يريد حلاً وتحريماً ولهم المشيئة إيماناً وتقوي او كفراً وتكذيباً . ومن بعد الايمان فأقرب عقود قيام الحياة ان الله احل الطعام إلا ما حرم نصاً وحصراً او وفاءً بعقد العبادة أثناء الاحرام بالحج ، بسطاً شاملاً للامن حتي للحيوان وتقييداً لبعض الحلال إبان موسمه ، فلا تستباح الشعائر المسنونة ولا العلاقات الآمنة ، فإذا رفعت حرمة الحيوان بنهاية الاحرام فإن حرمة الناس أمناً لا ترفع ولو لسوابق عدوان منهم ، فعقد فريضة الحج في مجتمعه المزدحم الوثيق تعليم للمؤمنين للوفاء باحكام عقود مجتمعهم عامة وفي كل حال تعاوناً علي البر والتقوي لا الاثم والعدوان .

فمن احكام عقد الايمان محرمات عامة من اللحوم هي أولاً الميتة هلكاً مرضاً او طارئ والدم المسفوح غفلة عن الله بلا شعيرة تزكية ، واشد منها فسوقاً المذبوحات إهلالاً وتعبداً لغير الله او إقتساماً لانصبتها بضرب الازلام الموسومة رمزاً لمعبود دون الله . فالمؤمن لا يتجاوز حد الحلال والتقوي مهما دعته شهوة الطعام او ثقلت عليه وطأة تقاليد مجتمع غير مؤمن ، حتي يعز الدين وييأس الذين كفروا من

فتنتهم عن الاسلام ويكمل الله دينه ويتم نعمة الهدي والرضي، وذلك إلا إذا دهمت المؤمن العزيز مخمصة طارئة تضطره لاكل الحرام حفظاً للحياة لا تجنح به وراء قدر الضرورة نحو الاثم .

كل ذلك بيان للمؤمنين المتسآئلين عن مدي الحلال ، فهو طيبات طعام واسعة حتي لما تمسك جوارح الصيد وتقتل ، إيماناً ان ما يعلمونها من فنون الصيد مستمد مما ينعم الله فيهم من علم ، ذكراً لاسم الله حيث وقوع الصيد وتقوي له من اجل نعمة الطعام لا محض امتاع وشهوة تقتيل وذكري أن الله سريع الحساب يوم القيامة لمن يسارع عدواناً في المجتمع ، كالمصطاد مفتوناً بشهوة العدوان .

ومثل سماحة سعة الطيبات من الطعام حتي من الذين أوتوا الكتاب ،السماحة في النكاح بعقد الزواج إحصاناً حتي لنساء اهل الكتاب .لا مسافحة ولا مخادنة حرام مهما كانت ذريةً ومتاع في الدنيا فهي خسارة في الاخرة .

إن الايمان صلاة الي الله لا تنقطع عقد شعيرة خشوع وتجرد يتهيأ لها المؤمن بالوضوء بالماء للرأس والاطراف طهراً وذكراً وشكراً علي تمام النعمة ، فإذا ألهت الشهوة حتي الجنابه فتمام التطهر بغسل الجسد كافة ، إلا إذا تعذر الماء او طرأ المرض فتيمم بالتراب مسحاً للوجه واليدين .

فإذا قام المؤمنون بعقود الطاعة من الصلاة ذكر الله الاكبر هم قواميين كذلك في عقود العلاقات بين الناس شهداء بالقسط ولا يجرمنهم شنئان قوم عن العدل الاقرب للتقوي ، وإن كف الله عنهم أيدي العدوان بالصلح نشطوا في رعاية السلام توكلاً علي الله حال الحذر والخطر فيها .

ففي عبرة سيرة السابقين من بني إسرائيل أن الله أخذ عليهم الميثاق وأقام فيهم نقباء القيادة علي نهج التقوي والولاء للميثاق وان الله معهم في الدنيا هدي ومدداً إن حفظوا الميثاق ورعوا شروطه إقامة للصلاة دون الغفلة وإيتاء الزكاة معرفة لجميل نعمة الله والايمان بالرسل تعزيراً للدعوة والاسوة ، فالعقد مع الله أن سيكفر سيئاتهم و يدخلهم الجنات ،ومن كفر بخلاً وخيانة ضلالاً عن الميثاق اكسبهم لعنة قاسية بها قلوبهم حتي عن عهد حفظ الذكر ، بل يحرفونه خيانة كما مضت سنة الرسالات من قبل ، لكن علي داعية التجديد الصفح والاحسان .

فمن بني اسرائيل نصاري أخذوا ميثاق الله المتجدد ولكنهم نسوا نصيباً منه فأغري الله بينهم العداوة والبغضاء داءً ماضياً الي يوم القيامة ،وخطاب الدين لذوي العصبية للكتاب القديم ان رسالة

الاسلام متجددة لمن إنتسب للإسلام ولو أضلهم طول الامد والنسيان ، وأنها كذلك مبنية لما يخفي أهل القديم نسياناُ او كتماناً ، وأنها عفو ونور من ظلمات الجهل والتقادم الي رضوان سبل السلام .

بل إن التقادم قد يضلهم نحوتقديس الرسول والزعامات دون عبادة الله ، كما كفر النصاري إذ قالوا ان الله هو المسيح إبن مريم ولكنه سبحانه الواحد لا يملك احد شيئاً يشرك به قدرته وقدره نافذ علي كل الملكوت ولو اراد هلاكاً علي المسيح وأمه ومن في الارض جميعاً . وقد يزعم أهل القديم أنهم انبياء الله وأحباؤه ولكن الله يعدل بين الناس حسب كسوبهم فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .
وكذلك عبرة التجديد في سابقة موسي (ع) وقومه الذين هداهم الله من الظلمات الي النور وحررهم وأنعم عليهم ولكنهم نسوا وصية موسي (ع) بالوفاء لله والشكر وأن يدخلوا الارض المقدسة و ألا يرتدوا بعد الهجرة عن الفلاح.

لكن رسالة التجديد تتقدم نحو التمكين بأرض اطهر وكسب أكبر وقد يشتد ويتثاقل امامها القديم ويخشي مقاومة الجبروات كما انقسم قوم موسي (ع) فريقين بين متوكل مقتحم وبين قائل إذهب انت وربك فقاتلا ، وقد يشتكي داعية التجديد مثل موسي (ع) أنه لا يملك إلا نفسه وأخيه ولكن الارض الموعودة محرمة علي جيل القاعدين الجامدين والدعوة قائمة حتي يستيقظ النوام ويتوكل الجبناء .

إن فتنة الشر قديمة في فطرة الانسان لمن لم تزكوا التقوي في نفسه، وقد تصيب اهل القديم من المتجدد الصادق لاصل الدين عبر ابتلاءات الزمان الحادثة حسداً وغيرة لا سيما إذا رأوا أنهم أولي بالتجديد ومن المثل والوصية ان تتلي عبرة إبني آدم إذ قربا قرباناً الي الله فتقبل من أحداهما بثمار كسبه وتقواه ولم يتقبل من الاخر ، فلم يعمد الي نفسه إخلاصاً واجتهاداً بل الي الاخر ليقتله،مهما كان رده إلا سمحاً ان الله يتقبل من المتقين وانك لو بادرت محاولة لقتلي فلن ابسط يدي ، ولكنه إختار الضلالة والقتل فهو أشد خسراناً من الحيوان غراباً يريه كيف يواري جثة اخيه .

فالعظة من تجربة الانسان الاولي جنوحه احياناً حتي للقتل ولكن هدي القرآن حرمة الحياة وأصلها نفساً واحدة من قتلها كأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها كأنما احي الناس جميعاً ، من اجل ذلك جاءت الرسالات منذ بني اسرائيل بالردع اللازم بعد الموعظة لمن يمضي مسرفاً في القتل ، وسنة كتاب الله صد خطر من يحارب الدين ونظام المؤمنين بقيادتهم قتلاً او صلباً او قطعاً للأطراف او نفياً ثم عذاب الاخرة العظيم ، ولكن العقاب في الدنيا والجزاء في الاخرة شرع الله دفعاً نحو التوبة حتي للعصاة ورفعاً للعقاب لمن تاب قبل الايقاع به .

فليس الفساد خلق المؤمن ولكن الانضباط تقوي عن الحرمات والعمل الصالح والقربي لا العدوان وحفظ الطاقة جهاداً في سبيل الله لا للبغي والاهواء ، فمهما جمع المفسدون من كسب الحرام ولو كل مافي الارض ومضاعفاً ولو خرجوا من عقاب الدنيا ما خرجوا من عذاب الاخرة المقيم . والعقاب نكالاً من الله كذلك للسارقين ، من خرجوا علي حدود الله عدواناً علي ملكية الآخريين ومخاطرة . فللّه ما في السموات وما في الارض من كل المال ولكن الناس مستخلفون فيه مبتلون ، ومن كل السلطان يحكم فيه حيث ما يشاء .

الخطاب القرآني الخالد لمن يؤدي رسالة التجديد للإيمان بشريعة الاسلام ألا يحزن للمسارعين في عهود الانتقال للكفر بالشريعة ومن أهل القديم الديني كمواقف بعض اليهود في صدر الاسلام ، فالله يبتلي البعض إلا تتطهر قلوبهم من فتنة التعصب وقد يهوي المعارضون للجديد يكثرون سماع الفتاوي المتقادمة بتأويلات كاذبة ويكثرون أكل السحت بنهج المعاملات المتحايلة علي الحق ، وعلي المجدد الحامل لامانة الشرع في قضائه أن يحكم بينهم بالقسط او يعرض ويتركهم لهدي باطلهم . ذلك أن ظاهرة الانحراف نحو تقاليد الحكم العرفي اصابة اليهود فضيعوا التوراة التي حكم بها النبيون والربانيون والاحبار اسلاماً لشرع الله في القضاء واستقامة علي حكم الله ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون لا المؤمنون مهما زعموا نسبة لتراث الاسلام لله ، حكمه العدل نفساً بنفس قصاصاً حتي في الاعضاء والجوارح ومن تصدق عن اذاه عفواً فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما انزل فأولئك هم الظالمون ميلاً عن ميزان العدالة وتكافؤ الحرمات .

– كذلك – جاء عيسي (ع) علي أثار السنة العادلة بالانجيل هدي ونوراً كالتوراة ، مصدقاً له ومجدداً خاصة للذين لا يحيلون الشريعة الي ظاهرة نصوص يحرفونها ويتأولونها ، بل يلتزمونها صدقاً وتقوي ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون عن حكم الله تحايلاً او احتكاراً ومهنة .
كذلك انزل الله القرآن مصدقاً ومهيمناً علي ما سبقه من كتب وعلي النبي محمد (ص) وكل ذوي الولايات اهل الملة الحنفية أن يحكموا بما انزل لااالله من الحق ، لا جنوحاً حتي الفسوق .تلك اقدار الله في التاريخ أن يتخذ كل قرن شرعته الخاصة هدفاً ومناهجه سبلاً نحوها ولو شاء الله سبحانه لقضي وحدة للملة ولكنه يقلب ابتلاءات الايام ، ويجدد حكمه الاقوم لقوم يقنون .

وقد يغار اهل القديم حسداً من الدين المتجدد وينكرونه غربة ويخشون خطره وقد تقوي صحبة

التراث وشركة المنافع كاليهود والنصاري ، ومن يفتن المؤمنين الناهضين ويذوب في ولاء هؤلاء فهو منهم مذهباً في الضلالة وظلماً عن عدل الحق وعزة الدين وسواء صراطه او يسارع مرضي القلوب بأهواء الدنيا يعتذرون بالخشية ان تدور عليهم دائرة ازمة معاش او مجابهه او مقاطعة ولكن الله سبحانه عسي ان يسعف المؤمنين المستضعفين بفتح قريب ، فيندم اولئك المرضي وتحبط أعمالهم خاسرين.
ومن يرتد من المؤمنين ساعة تذبذب الولاء بين الحق والباطل فالله غني يعوض بالمؤمنين المخلصين زلفي الي الله يحبه ويحبونه ، أذلة علي إخوانهم أعزة علي الكافرين مهما كانوا ذوي شوكة ، يجاهدونهم في سبيل الله صابرين .

لا ولاء لغير الله معبوداً معزاً للمؤمنين ، والولاء من ثم للرسول هادياً متبعاً ومن ثمرة ذلك الولاء لسائر المؤمنين بالله وشريعته والرسول وسنته ، عبر الصلاة في صف مرصوص وإيتاء الزكاة تجرداً عن الشهوة وحباً لله وتكافلاً . وفي كل حال وحركة راكعين لله منه الحول والقوة ، وله توالياً وتناصراً وتحزباً بتوحيد الله وأولئك هم الغالبون ، ولا ولاء لأهل الزعم القديم مما اتخذوا المنهج المتجدد هزواً وسخرية .

ولحامل رسالة الاسلام المتجدد ان يذكر متعصبة القديم ان نقمتهم علي بعث الايمان بالله واليوم الاخر بعد تقادم وموت لان اكثرهم فاسق عن التعاليم الخالدة وان ينذرهم باشر من الفسوق مصيراً عند الله لعنة وغضباً بعد الردة عن الطهارة قرده يقلدون القديم وخنازير تتورط في الرجس عبدة طاغوت اشد واضل من الحيوان ، ثم منافقين جاءوا وقالوا آمنا وهم قد دخلوا بالكفر والله اعلم بما يكتمون .

وقد يطول العهد بالدين فتقسوا القلوب وتنسي – كما في صدرالاسلام– يري الرسول (ص) بني اسرائيل يسارعون في الاثم وأكل السحت حتي الاحبار الربانيون المستحفظون علي الدين ، يحرفون الكلم ويعجزون عن دورهم بل ويقولون في اول مقابلة الاسلام ان يد الله مغلولة لا يرون منها رزقاً سخياً علي المسلمين الجدد، لكن ايديهم هم المغلولة من الاحسان اغنياء لا يتكافلون مع فقراء المسلمين ، بل عطاء الله مبسوط ينفق كيف يشاء ، تأخذهم الحمية حتي في داخل صفوفهم عداوة وبغضاء والله يطفئ نيرانهم كل مرة ، يسعون في الارض فساداً ويزعمون انهم احباب الله لكن الله لا يحب المفسدين . ولو ثبت اهل الدين علي الحق وتجردوا مع هديه لكفر عنهم سيئاتهم وادخلهم نعيم الجنة في الاخرة ولو اقاموا قديم التعاليم ومتجددها لأكلوا طيباً من فوقهم وتحت ارجلهم ، لكن عبرة التاريخ منهم طائفة مقتصدة لم تبلغ اعلي مقام الذكري ولا اسرفت في العصبية وكثيرون جمدوا في سئ الاعمال . وعلي حامل رسالة الاسلام والتجديد البلاغ مهما صده القديم والله يعصمه من الكيد ولكنه لا يهدي الكافر

قدراً كُرهاً ، ولو فاخر اهل القديم يذكرهم بأنهم ليسوا علي شئ حتي يقيموا القديم وينفتحوا للجديد ، ولا اسى علي الكافرين بعد البلاغ فذلك خيارهم .
والدين حق خالد واحد لا يحتكر ولا يحتصر فالذين أمنوا بالاسلام الشامل لكل الرسالات السالفه اليهود من هادوا قبلاً الي تراث ابراهيم (ع) وذريته والذين صبأوا وحنفوا اليه والذين آمنوا برسالة المسيح وأنتسبوا الي أسم مدينة مولده نصاري من آمن بالله واليوم الاخر غير كافر وعمل صالحاً غير فاسق لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .إن العصبية في وجه الاحياء والتجديد موعظة كما حصر اليهود دينهم في سلفهم من المرسلين وقد اخذ الله منهم ميثاق الوفاء لأصول الدين المتجدد وأرسل الرسل تترا فقتلوا من لم يوافي تلك الاعراف ثم تاب الله عليهم ومد لهم الفرصة ليتوبوا فعموا وصموا في وجه التجديد سقطة فتنة .

إن الدين يتقادم حتي ينبت عن اصوله التوحيديه كما قدر النصاري عيسي (ع) وعزروه حتي اتخذوه إلهاً والتهوا به عن الذي ارسله فأووا الي النار بغير شريك نصير ، وقد إتخذوا أمه والروح القدس إلهاً ثالثاً لمعجزة ميلاده فجاءهم النذير بالعذاب وكيف لا يتوبون الي الله توحيداً وإستغفاراً ، فإنما المسيح مثل سالف الرسل وأمه صديقة وهما كسائر البشر يأكلان الطعام والله وحده الغني. وعلي الداعي الي التوحيد محاورتهم مستنكراً ويذكرهم أن لا يغلوا إتباعاً للضالين القدماء وان يتعظوا لسوابق لعنات الانبياء كداؤود وعيسي (عليهما السلام) وألا يتراضوا علي العصيان والعدوان بغير تناه عن المنكر .
ومن اثر تلك السنة بقي متعصبة اليهود أشد الناس عداوة للذين أمنوا بالاسلام وكذلك الذين اشركوا من العرب اولو التقاليد القديمة ، ومن بقيت له بقية صدق قربوا من الدين المتجدد وأهله مثل النصاري في عهد الرسول الخاتم (ص) مودة لان فيهم تدين ورهبانيه عصمتهم من الاستكبار والحسد علي قومة الدين المتجدد و سلطانه ، وإذا سمعوا آيات القرآن لم يصموا ويعموا بل خشوعاً فائضة أعينهم بالدمع بما يتذكرون من الحق الاصيل .

أهل التراث الديني يتقادم عليهم العهد فينسوا ميثاق الغيب ويغالوا فينصرفوا الي تقديس مفتريات ويفرطوا يستبيحون حدود الله وهؤلاء يناهضون قومات التجديد والتذكير ، فيهم من يسقط في اباحيات الدنيا ويعدوا علي حدود الحلال وفيهم ومن يترهب حتي يحرم طيبات ما أحل الله . ومهما يكن من شأنهم فالمؤمن المتقي عليه القوام في كل ذلك ، وإذا أقسم بالله شاهداً بالغيب أو إنزلق بعوارض اللهو الي اللغو فالله لا يؤاخذ إلا فيما جد عزماً فعليه الكفارة تطهراً بدفع شهواته طعاماً او كساءً او تحريراً او صياماً . إذا تلفظ القسم نذراً يحرم الحلال او كذباً نحو الحرام فالله يقبل التوبة يسراً لعلنا نكون من الشاكرين .

وعلي المؤمنين أن يجتنبوا ويلتهوا عما سلف من شرب الخمر أو الميسر أو اكل طعام قرابين الانصاب او التساهم بالازلام ، تجافياً عن الشيطان المثير العداوة والبغضاء اللاهي عن ذكر الله وعن الصلاة ، وحذراً من ضال العادة وسؤ الاعمال الفاشية في المجتمع استقامة طاعة لله والرسول ومن تولي فلا إكراه في الدين وإنما علي الرسول البلاغ والبيان .

وإذا ثبت المؤمن علي الاستقامة فلا جناح عليه فيما احل الله من طيبات الطعام لا تغشاه اوهام الترهب والتحريم وإذا ثقلت ضغوط الاعراف يترقون تقوي بعد تقوي تصاعداً نحو الاحسان زلفي لحب الله .

وقد يبتلي الله بفتن الطعام سواء اهل البادية والبحر وقد يسرح الصيد جوار الحرم حول مكة ولكن العباد لا يجاوبون رغبة الصيد ولا يعتدوا فينتهوا الي العذاب الأليم ولتبقي بيئة الحج آمنة عامرة بالخشوع أمة واحدة علي قبلة واحدة ، فإذا إعتدي مؤمن عمداً بالصيد أدب نفسه بهدي لطعام الحجاج او كفر ذنبه بإطعام مساكين أو طهرها بعدل ذلك صياماً ومن عاد فسينتقم الله منه .

أحل الله صيد البحر لركابه حجاجاً او مسافرين وحرم صيد البر في الحرم محشر المؤمنين ليفوزوا بأمن المحشر وسلامه يوم القيامة ، وقد جعل الله الكعبة حمي معصوماً من العدوان وزماناً شهراً حول الحج وليبلغوا درجة العلم ان الله يعلم مكانهم كله وراء الحج وزمانهم كله بعد الشهر الحرام في كل السموات والارض . وما كان الرسول (ص) إلا ان يبلغ المشاعر ويبين الاخلاق قولاً وعملاً طيباً وخبيثاً ، والله من وراء ذلك أعلم بما يكتمون ظناً او شحاً او كظمَ غيظ او اخاء او نفاق في مزدحم المعاملات .

ومهما إزدحم الناس فالمؤمن لا يستوي عنده الخبيث والطيب ولو غلبت كثرة الخبيث وأعجبت المفتونين ، بل يستقيم معياره من تقوي الله ودرجة العلم بالميزان الاعلي لذوي الالباب يفصل الحكم القيمة في الدنيا ويجتاز الفتنة الي الفلاح ، وإذا تكثف مجتمع الناس كثر السؤال ولكن المؤمن لا يجنح الي التشعيب في كل إختلاف وتباين بل يجتهد ويتصرف بما استقام له من ميزان والعبرة من الحج لكل الحياة ومشاكلها فلا يتنطع ذوي العلم بل يتركوا لسواد الناس الاجتهاد في شعاب المسائل عفواً أجراً للمصيب وبعض اجر للمخطئ ، وقد مضت سنن دينية ممن تنطعوا السؤال والفتوي حتي ضاقت بهم فتطرفوا كفراً صراحاً كما في ذبح البقرة التيٌ أمر بها موسي (ع) وكما خلف إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) سنن الحج فتنطع من بعد أهل الجاهليه فحرموا الطيب الحلال بما إفتروا من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام

علامات علي الانعام التي تكاثر عليهم نتاجها ، وسنة الضالين ألا يؤبوا للذكري بالهدي المتجدد الذي يرفع الاغلال بل يقولوا وجدنا أبائنا عليها .

تجمع سورة المائدة للمؤمنين آخر التكاليف والبلايا في خاصة حياتهم جدالاً وطعاماً وسؤلاً الي آخر وصايا حضور الموت لمن له ورثة ، تنظم شهادتها بالحق تجرداً وخلوصاً ، فالله لا يهدي الفاسق عن الحق في وصية ميت كما لا يهدي الفاسق عن الحق في وصايا أصول الدين ،و ختام السورة ذكر يوم الحشر في الآخرة يوم يجمع الله الرسل يحاسبون ويسألون عن أداء أمانة الرسالة وما شهدوا من إستجابة أمة الخطاب ومن أكبر من يقوم ليشهد عيسي بن مريم (ع) فإليه ينتهي أصل الضالين الذي خلفوا ، فهوا يذكر بما ساق الله له من آيات ونعم –الأم والروح القدس والكلام في المهد وعلم الكتاب القديم والجديد والحكمة وإحياء الموتي وإبراء المرضي وكف الكيد وآية المائدة للحواريين الذين غشيت أيمانهم مادية – وصلب السؤال لعيسي (عليه السلام) بعد المذاكرة هل قال هو للناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، لكن عيسي (عليه السلام) يجاوب ربه مسبحاً له عن الشريك ومنكراً أن ما كان له أن يقول مثل ذلك ويحيل كل العلم لله وكل الغيب والباطن وتكلان حسابهم الي الله .

يومئذ يقول الله أن هذا اليوم ينفع الصادقين صدقهم ، من اخوان عيسي (ع) رسلاً من بين يديه ومن بعده ولله وحده ملك الكون سماوات وارضاً شارع الهدي للإنسان مقدراً لهم خيار المشيئة لا شريك لله في ملك الدنيا ولا في ملك الآخرة باعثاً لبني آدم قاضياً عليهم حساباً ناراً وغضباً أو جنة ورضوان خالداً .

/

سُورَةُ المائدة

ترتيل المعاني

الايات(1-11)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)(1)

الخطاب في السورة يبدأ بالنداء للذين آمنوا لينتبهوا ويلتزموا أمر الله وفاءً بالعقود ، فكل عقد يعقده المؤمن عليه أن يلتزم وفاءً به ، وأول الرشد في الحياة عقد الإيمان والإسلام لله ، يلتزمه المؤمن طاعةً لله في كل الأمر، ويترتب عليه كل عقدٍ يعقده المؤمن في معاملات الحياة مع طرف آخر من الناس أفذاذاً وجماعة، فالنداء في مستهل السورة التي تسمى أيضاً سورة (العقود)[114] يؤكد على المسلمين أولاً أن يستجيبوا للأمر التزاماً بالعقود كلها في الحياة فروعاً من عقد الإيمان بالله، وأظهر ما في عقود الإيمان أيضاً أن يلتزم المؤمن أحكام الله فيما أحلّ وفيما حرَّم عبادةً وطاعةً من العبد وجزاءً ونعيماً من الله ، والآية الفاتحة تجعل الحلال أصلاً مستصحباً في المطعوم مما يتيسر للمؤمن أكله في البهيمة البهماء التي لا تنطق من الأنعام التي سميت هكذا تذكرةً بنعم الله المسخرة ، ويستثني من تلك الإباحة العامة للأنعام الحرام الذي ستتلوه الآيات مبينة في السياق بعد قليل .

والآية بعد الإباحة العامة لبهيمة الأنعام تستثني على المؤمنين أيضاً في عقد الإيمان إحلال الصيد من البهائم وقد أحرموا هم بالحج إلى بيت الله وهي الحالة الوحيدة التي حرم الله فيها على المؤمن بحرمة المكان والحالة ما هو حلال في غير ذلك . وذكر الإحرام في الآية تمهيد لذكر شعائر الحج في الآيات التالية وإشارة لسياق تنزل الآيات التي تَليت وبَينت الحلال والحرام عند تداخل أعراف الناس في الحج . فعلى المؤمن أن يلتزم بما حكم الله في عقد الإيمان من حلال وحرام — لا سيما حول الحرم – فقد جاءت أحكامه وفق إرادته المطلقة وحكمته التامة وعلمه المحيط بما هو مصلحة وما هو مفسدة للناس.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ[115] قَوْمٍ أَن[116] صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(2)

---

[114] وذكر العقود في سياق ذكر الحرم وأحكامه تذكير بحرمة العهود والأعراف التي يتواضع عليها المؤمنون إذ يجتمعون في الحرم لينظموا معاملاتهم ويغلظوا وقعها في ذمتهم لقدس المكان . وقد كان ذلك معهوداً منذ الجاهلية مثل حلف الفضول إذ تعاقدت قريش ألا يجدوا بمكة مظلوما إلا قاموا معه ليردوا مظلمته وهو عرف أحبه الرسولﷺ وتذكره بعد الإسلام .

[115] قرأ ابن عامر وشعبة عن عاصم (شنئان) بسكون النون الأولى

[116] قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إن صدوكم) بكسر الهمزة

يتوالى النداء للذين آمنوا تأكيداً وتنبيهاً للالتزام بعقد الله والانضباط تجاه شعائره ألا يحلوها ويسلكوا معها السلوك السائب. وشعائر الله كما توضح بقية الآية مناسك الحج التي هي شعارات وعلامات للعبادة، والشعيرة هي ما يستشعر الإنسان من مظهرها أنها عبادة كالصلاة ومناسك الحج. والشهر الحرام هو شهر الحج من كل عام فلا يحله الذين آمنوا استباحةً للعدوان في أمنه أو استبدالاً له بالنسيئة ، بل يلتزمون فيه بكل حكم ألزمهم الله وينضبطون تجاه أمنه وشعائره فيؤدونها علي وجهها . والهدي جمع الهدية التي تهدى في الحج من الأنعام والذبائح ، والقلائد ما قلد منها علامةً حتى تميِّز أنها هدية وصدقة تذبح عطية للحجيج . كلها ينبغي ألا يحلها المؤمنون عفواً أو يعتدوا عليها بالنهب أو الغصب .

والآية جاءت في ظروف أولى بعد عهد الحديبية إذ كان المسلمون والمشركون يحجون جميعاً إلى بيت الله الحرام ، فالنهي للمسلمين عن التعرض لمن أمَّ البيت الحرام يقصد بذلك فضلاً من الله ورضواناً من رزق أو تجارة أو عبادة . والآية موصولة بما قبلها فقد جعل الله الصيد محرماً على من أحرم يبتغي الحج إلى بيت الله الحرام لكنه إذا أكمل حجه منضبطاً إزاء تلك الشعائر فإن الله يرفع عنه حرمة الصيد متى تحلل من إحرامه .

وبعد النداء في أول الآية للذين آمنوا في شعائر الحج عامة الإشارة لشنآن قوم هم المشركون وبغضهم الشديد لهم بسبب مواقفهم الشائنة حيث صدوهم ومنعوهم من دخول مكة وأداء الحج طيلة السنوات الأولى بعد هجرتهم مع الرسول ﷺ إلى المدينة ، تذكرهم الآية بألا يكون هذا الموقف من المشركين مدعاة لجرم يكتسبه المسلمون بأن يمنعوهم كما منعوهم وأن يعتدوا عليهم في الشهر الحرام بل عليهم أن يقابلوا ظلمهم بالعدل ولا يمنعوهم أن يؤموا البيت الحرام وذلك هدى يعلم المسلمين العدل والانضباط الشديد حتى تجاه من ظلمهم .

وفي سياق الحج والانضباط تجاه شعائره تدعو الآية المسلمين متى ما اجتمعوا أن يكون حشدهم تعاوناً على البر والخير فيما بينهم والعمل الصالح إذ يحكم سياج التقوى سلوك الفرد والمجتمع ، وألا يكون اجتماع المسلمين تعاوناً على الآثام وخروجاً على أحكام الله وعَقْدِه ولا تعبئةً للعدوان على الآخرين. وتقوى الله في التزام المؤمنين كل ما حرّم من الشعائر والشهر الحرام والهدي والقلائد وألا يظلموا حتى من ظلمهم لأن الله شديد العقاب على من عصى أمره فيما أحل وحرم ومن لم يَفِّ بحرمة عهود المعاملة مع الناس وفاءً مؤصلاً على الإيمان أُمَّ العقود مع الله .

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(3)

الآية في سياق الوفاء بالعقود وشعائر الحج تُثبِّتُ المؤمنين علي عقد الإيمان وفروعه عقوداً في مجتمع الناس وتهديهم سنناً من المحرمات في الطعام تعبر عن الإيمان وتميزهم عن المشركين الذين كانت أعرافهم في الطعام أشد وجوه التعبير عن معتقداتهم .

وقد تليت هذه المحرمات على المؤمنين من قبل في سورة البقرة* تحريراً من محرمات الجاهلية، والآية تعيد تلاوتها في سياق الحج وشعائره لأن فتنة العرف تكون أشد عند مجتمع الناس وتداخلهم ، وتفصل – الآية – طوارئ أسبابٍ للموت ظاهرة تدخل البهيمة في حكم الميتة الحرام لأن أعراف المشركين لم تكن تبالي أو تتحرج عن أكل البهيمة التي تموت لا مرضاً بل بسبب حدث ظاهر فالبهيمة المنخنقة التي ماتت اختناقاً من نفسها أو ضاغط أو مأكول والموقوذة التي ضربها ضارب أثخنها فهلكت والمتردية التي تردت من عَلٍ فماتت ، والنطيحة التي اشتد عليها النطح من أخواتها حتى هلكت وما أكل حيوان وحشي كالأسد فماتت قبل أن يدرك فيها رمق حياة فتذكى بالذبح –كل تلك ميتة حرام . ومن الحرام كذلك ما ذبح على النصب وما استقسم بالأزلام إشارة لعقائد المشركين ومقدساتهم وعباداتهم في المطعومات، فقد كانوا يذبحون الذبائح على نصب آلهتهم من الأصنام تقرباً لها ويقسمون أنصبة الطعام بالأزلام وهى القُرعة التي تتم باسم النصب ويقسم بها الذبيح . والآية تسمي الذي أهل لغير الله مما ذبح على النصب وما استقسم بالأزلام فسقاً لأنه خروج على عقد الله ونعمائه بطقوس وحيل عقائد المشركين .

وفي سياق التداخل في الحرم مع المشركين وأعرافهم تذكر الآية المؤمنين بأن التزامهم بعقد الله جعل المشركين في يأس من التأثير عليهم فقد رسخ تميز دينكم ، ثم يباشرهم الأمر — في الآية – ألا تخشوهم ووحدوا الخشية لله ولا تخافوا من ضغوطهم وتعودوا إلى أعرافهم في الطعام والشراب. ورغم ظروف التداخل بين المؤمنين والكفار في مثل ظرف الحج فالآية توضح للمؤمنين أن المرحلة في تطور الإسلام بلغت يوماً فيه أكمل الله لهم فضله بالدين عقداً ومعياراً يلتزمون به ويتميزون ، وأتمّ عليهم النعمة هداية وثباتاً مع أحكام الله ورضى عنده أن تكون رسالة الإسلام الخاتمة لهم ديناً يسلمون أمرهم كله لله الذي يحكم ما يريد .

والسياق يتصل في الآية إلى ختامها يُبين أحكام الله في الطعام فمن اضطره الجوع اضطراراً فلم يجد ما يأكله إلا ما تلي من المحرمات فيباح له أن يأكل غير متجانف مائل لاكتساب الإثم بأكل هذه المحرمات بل مضطراً بالمخمصة المجاعة وإن الله عندئذ غفور لتجاوز حد الحرمة ورحيم جعل للمضطر

* سورة البقرة الآية (173)

استثناءً ليأكل حتى المحرمات حفظاً للحياة. فاليوم تكامل الدين وتم الهدى والرضوان بالإسلام إلا طوارئ الضرورة دون الحدود .

(يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّـهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّـهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)(4)

في سياق الحلال والحرام من أحكام الله وحدوده في الطعام يتأكد أن الأصل المستصحب هو الحلال ولكن قد يتوهم المسلم إذا اشتد حذره أن الأصل الحرمة فيسأل النبي ﷺ عن مدى التحليل . والآية تجيب على سؤال المؤمنين بأن كل ما طابت له نفوسكم فهو حلال إلا ما سبق أن تلي عليكم . والسياق موصول إلى ذكر الصيد في مستهل السورة فالإباحة لكل ما هو طيب تسع أيضاً أكل الصيد الذي جاءت به الجوارح من الكلاب والصقور المكلبة المعلمة المدربة على الهجم والصيد . والآية تذكر أن كل علم يتعلَّمه الإنسان ويعلِّمه هو مما علمه الله وهيأه له بفطرته ولئن فطر الله أيضا الجوارح بقابلية لتتعلم الصيد ينبغي ألا ينصرف الصائد إلى إعجابه بما درب من جوارح عن ذكر الله وينسى أن هذه المهارة مدد من علم الله. وقد أباح الله للمؤمنين وهو يخاطبهم أكل ما يمسك الصيد على أن يذكروا اسم الله عليه استحضاراً بالقلب لا بمجرد اللفظ لنعمة الله، فالصائد الغافل يعجبه صيده وتسكره نشوته فينسى فضل الله وعلمه الذي علمه له . واسم الله هو الوسم الذي يميز المؤمن وعياً بالله عند طعامه لا المشرك حيث يَطْعَم .

والوصية بتقوى الله في سياق أحكام الصيد لأنها هي الضابط في كل حالٍ يميل فيها الإنسان للانفلات والتجاوز ، ورغم شهوة الصيد الفاتنة ينضبط المؤمن بالتقوى فلا يمضي عجباً بصيده ولا يسرف في قتل الصيد متعة دون حاجة لأكله . والمؤمن يتقي الله بأن يذكر الله عند فوزه بالصيد ويتذكر من سرعة الجوارح المكلبة أن الله كذلك سريع الحساب يوم القيامة، سرعان ما يأخذ الفائزين والظالمين، فالصور في الصيد كلها ينبغي أن تذكر بالله وحسابه .

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ[117] مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الأَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(5)

بعد تلك المرحلة الانتقالية التي كان المؤمنون يستشعرون فيها حرجاً من وطأة الأعراف من حولهم ويكثرون الأسئلة بسبب التداخلات ، يخاطبهم الله أن في هذا اليوم تم الدين وجعل الله لكم الطيبات

---

[117] قرأ الكسائي (المحصنات) بكسر الصاد

كلها مباحة إلا ما تلي عليكم . وفي سياق الحلال والمباح من الطعام وبعد أن استبان أن كل طيب مباح ، الآية تضيف أيضاً بالذكر طعام أهل الكتاب لترفع الحرج عن أكله ، فكل طعام أهل الكتاب مباح للمسلمين مهما تكن طرائق ذبحه وإعداده إلا ما تلي عليهم تحريمه مما هو حرام حتى إذا قدمه المسلم والسبب في حرمته ليس في اختلاف الدين لصاحبه . فالآية تجعل كل طعام المسلمين مباحاً لأهل الكتاب حتى لا يتحرجوا من تقديم الطعام لهم والأكل معهم .

وفي سياق حل الطيبات وامتداد الحل إلى طعام أهل الكتاب، الآية تذكر المباح من الزواج إحصاناً بالمؤمنات وتمتد إلى حل الزواج إحصاناً من أهل الكتاب من قبل ، مهما تكن تقاليد المجتمع التي حملها من قبل فيهم. فمقياساً على الزواج بالمؤمنات إحصاناً تحل من أحصنت من الكتابيات بعقد زواج ومهرٍ تحصيناً ليس سفاحاً يبيح العلاقات الجنسية على سفح لا حصن عليه، وليس مخادنة خلة بالشهوة عفواً ، ومن سافح وخادن دون إحصان بالعقد والمهر الحلال فقد خرق عقد الإيمان بما هو محرم. والذي يخل بعقد الإيمان ويرتكب ما هو محرم به ويتجاوز كل تلك المساحة من المباحات الحلال يكون كمن كفر بالإيمان كله وأفسد عمله حبطاً ولن يجد من كسبه أجراً ينفعه يوم القيامة بل هو من الخاسرين والمؤمن من يوفي بالعقود فرعاً من عقد الشرع والإيمان والذي يظن أنه بكفره بعقد الإيمان ربح وسلك طريقاً سهلاً سيجد ذلك خسارة في الآخرة حيث يؤول كل عمل إلى مصير .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ[118] إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ[119] النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(6)

النداء يتجدد للذين آمنوا في الآية موصولاً إلى ختام الآية قبلها مشيراً إلى حكم جديد في عقد الإيمان . فذكر الصلاة بعد ذكر الإيمان لأن الصلاة عماد الشعائر وعماد عقد الإيمان فهي الصلة بالله التي تجيء في كل سياقات الوقت وسياقات الأعمال في حياة المؤمن المتحرر المتطهر المتعبد لله وحده . والآية تذكر القيام إلى الصلاة موصولاً بالأمر بطهارة الوضوء الذي يتهيأ به المؤمن للصلاة قربى إلى الله تملأ القلب بالتقوى الضابطة لكل عمل وفق عقد الإيمان طعاماً أو نكاحاً ، وهي أكبر ذكر للوفاء بكل عقد بعد عقد الإيمان. والأمر — في الآية – غسل الوجه في أول الوضوء حتى يتطهر الفم والبصر وتنقشع كسفة الوجه ويستقيم إلى قبلة واحدة ظاهراً وباطناً، ثم غسل الأيدي إلى المرفقين فتتطهر يد المؤمن مما امتدت إليه وليس لها ، ثم مسح الرأس أو بعضه كما تفيد (الباء) والرأس محل النيات

---

[118] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة وحمزة (وأرجلكم) بكسر اللام

[119] قرأ حمزة والكسائى (لمستم) بحذف الألف

والخواطر والإرادة فيجليها الإنسان كلها خالصة لله وفاءً لعقد الإيمان به . ومسح الأرجل أو غسلها (وفقاً للقراءتين بكسر اللام أو فتحها) تكفيراً للسعي إلى باطل وتهيئة للمشي وفق عقد الإيمان. ومن كان في جنابة يتطهر ليصلي كما أبانت آية الغسل في سورة النساء .* والمريض والمسافر أومن ذهب (إلى مكانٍ غائضٍ منخفض) فجاء فقضى حاجته أومن عاشر زوجه ولم يجد ماءً أباح الله له أن يقصد إلى ما صعد من الأرض من تراب أو حجر طاب له فقد جعل له فيه بديلاً عن غسل الماء. ومن بعض هذا التراب يمسح وجهه ويديه .

هكذا خوطب المؤمنون وما يريد الله ليجعل من أحكام الوضوء والغسل والتيمم حرجاً يعسر على المؤمن حياته ولكن جعل ذلك طهارة لقلب المؤمن وباطنه وجوارحه وظاهره. وذلك لكل مجتمع المؤمنين حتى يخلص ويتجرد بصلاته وعمله في الوفاء بميثاق الإيمان وكل عقد يعقد في الحياة وقد يسر الله التيمم بديلاً عن الغسل حتى لا يقع حرج في البحث عن الماء إذا تعذر، بل طهارة بالصعيد الطيب يتقبلها الله مادامت ترمز وتمكن بالنية معنى الطهارة . وبذكر تفاصيل عقد الإيمان في الطعام والزواج والطهارة والصلاة في هذه السورة الأخيرة في تاريخ تأسيس سنة مجتمع المسلمين على القرآن، أتم الله على المؤمنين نعمة الإيمان ونعمة الهداية التي ينبغي أن يشكروا الله عليها قياماً بأحكامه والتزاماً بعقده وانضباطاً بتقواه .

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(7)

الآية تختم موضوعات السياق الذي بدأت به السورة بعد ذكر الطهارة والصلاة التي تبسط قاعدة عامة لعقد الإيمان والآية موصولة بختام الآية السابقة والآية قبلها فشكر الله يكون بتذكر نعمته التي أتمها الله والإشارة لميثاق الإيمان الذي وآثق به المؤمنون ربهم وفاءً بعقد الحياة وكل عقد يترتب عليه ، فميثاق الله هو الذي عاقدهم به عقداً وثيقاً . وقول المؤمنين سمعنا وأطعنا هو الميثاق الذي عقدوه والتزموا أن يستمعوا له سمعاً منصتاً واعياً وأن يطيعوه طاعة تامة دقيقة . ولا يقوم المؤمنون بالوفاء بالميثاق إلا إذا التزموا تقوى الله ، والتقوى من ذوات الصدور وليست في المظاهر والأشكال والله بالغ العلم بمن تأسست تقواه في قلبه وراء ما قد يبديه في الظاهر مراءاةً للناس .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ120 قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)(8)

---

* سورة النساء الآية 43

□□□ قرأ ابن عامر وشعبه عن عاصم (شنْئان) بسكون النون

النداء يتجدد للذين آمنوا في خواتيم السياق مذكراً وملخصاً لكل المعاني السابقة أن يكونوا فعّالي القيام لله في الصلاة وفي كل أمر سمعاً وطاعة وشهداء بالقسط يلتزمونه في كل موقف وقول . وبعد الأمر بالقسط الآية تنهى المسلمين تأكيداً ألا يحملهم على الجرم شنآن قوم ، ألا يميلهم بغضهم وكرههم للمشركين ليقفوا منهم المواقف المجافية للقسط والعدل .

والآية تأمر بالعدل صريحاً بعد النهي عن الميل مع العدوان والعواطف لغيره وتجعل العدل أقرب للتقوى لأن التزام العدل التام حتى مع العدو الذي ظلم المسلمين أدخل في التقوى التي تنضبط مع ميثاق الله في كل أمر . ويتكرر ذكر التقوى لأن، المؤمن يرقى في درجاتها تقوى بعد تقوى فيقف موقف العدل الذي هو أقرب لمنال التقوى . والله خبير بمواقف المخاطبين – مهما تكن– قياماً لله شهادةً بالقسط والعدل قريبةً بذلك من التقوى أو تكن بعيدةً منها مجافيةً قَطَعَها عن العدل ميل البغضاء .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)(9)

موصولة إلى ما قبلها تَذْكُر الآية وعد الله طرفاً ثانياً للطاعة في عقد الميثاق . فمن آمنوا وعملوا الصالحات فذكروا نعمة الله وأوفوا بميثاقه قائمين بالعدل قابلهم وعد من الله أن لهم مغفرة من الذنوب يوم القيامة وأجراً عظيماً في الجنة والله لا يخلف الميعاد .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)(10)

أما الذين كفروا غطوا فطرة الإيمان فلم يستجيبوا لميثاق الله الذي فطر أصله في ذرية آدم وكذبوا بالآيات التي جاءتهم في كتاب الكون وكتاب الوحي تذكرهم به ، فأولئك أصحاب الجحيم يوم القيامة فلا عهد لهم مع الله ولا وعد إلا وعيد العذاب .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)(11)

يتجدد النداء للمؤمنين تذكيراً بالمعنى الذي جاء في الآية السابقة*، فبعد ذكر الميثاق وذكر النعمة العامة في الإيمان والهدى يوصي من مضى فيهم عهد الإيمان بأن يذكروا نعمة خاصة حدثت للمسلمين وقت نزول الآيات . وذلك حين كان قوم من المشركين يهمون بأن يبسطوا إليهم الأيدي عدواناً في الحديبية فقدر الله أن يقع الصلح ويكف أيدي الكافرين الباطشة عن المسلمين وينبغي أن يزيدهم تذكر هذه النعمة فضلاً عن سائر نعمه — شكراً لله وقربى ويستجيبوا لمزيد أمره بتقواه فيعدلوا في مواقفهم تجاه المشركين المصالحين بما هو أقرب للتقوى ، وعليهم أن يتوكلوا على الله وفاءً بعقد صلح مع قوم قد يحمل شنؤهم وسوء الظن بصدقهم إلى الميل عن القيام لله والشهادة بالقسط والتزام العدل قرباً إلى تقوى الله وتوكلاً عليه .

---

* الآية السابقة مباشرة

***

عموم المعاني

الآيات (1 – 11)

الخطاب للمؤمنين أن عليهم في الحياة الوفاء بعقودها ومواثيقها المؤصلة على عقد الإيمان بالله. وذلك أن الله يعطي نعمة الحياة والهداية لبنى آدم ، فله –تعالى– أن يحكم عليهم بما يريد حلاً وتحريماً ، وأن للعباد في ذلك ما يشاءون إيماناً وشكوراً للنعمة بالطاعة والتقوى أو كفراً وتكذيباً للآيات، وأن لله جزاء على ذلك وعداً للمؤمنين ووعيداً للكافرين .

ومن أقرب أحكام العقود لقيام الحياة أن الله أحل لطعام المؤمنين لحوم الأنعام إلا ما حرم منها أبداً أو ما حرم للوفاء بعقد العبادة أثناء الإحرام في الحج ، إذ يبسط الأمن حتى للحيوان فيحرم صيده للأكل . ولحالة الإحرام في الحج أيضاً ما يقيد الحلال عامةً فلا تستباح حدود الشعائر المسنونة ولا حدود العلاقات الآمنة في شهر الحج الحرام بين من يدخلون إلى المسجد الحرام أو يؤمونه عبادة ومصلحة . وإذا رفعت حرمة الحيوان بانتهاء حالة الإحرام وأبيح صيده كسابق العهد فإن حرمة الناس أمناً لا ترفع حتى لسابقة وتيرة عدوان منهم . ويفي المؤمنون بعقد فريضة الحج في مجتمعهم الوثيق أمناً وتقوى لا شنآناً وعدواناً فيتعلمون منه الوفاء بأحكام عقد مجتمع المؤمنين عموماً ، فريضةَ تعاون على البر والتقوى لا الإثم والعدوان .

إن من أحكام عقد الإيمان محرمات عامة من اللحوم هي أولاً : لحم الميتة التي لا تقتل بذبح مرسوم بل تهلك مرضاً حدثاً طارئاً لاختناق أو صدمة أو افتراس وحش . ومثل الميتة الدم المسفوح فكل ذلك أدعى للغفلة عن الله ، إذ لا شعيرة تذكية يذكر فيها اسمه تعالى تعبداً وبها تذبح البهيمة الحية حلالاً بحكم الله الذي سخر لحمها طعاماً نعمة للشاكرين . ومن المحرمات الأشد فسقاً عن عقد الإيمان المذبوحات إهلالاً وتعبداً لغير الله أو إهداءً لنصبٍ معبود ، أو اللحوم حتى المقتسمة أنصبة كسب حظ بضرب الأزلام الموسومة رمزاً لمعبود دون الله . في كل ذلك حرام ، غذاءً في النفوس لعقيدة الشرك لا وفاءً لعهد الذكر والشكر لله .

إن شهوات الطعام وتقاليد مجتمع غير مؤمن قد تفتن المسلم فيتجاوز حد الحلال وحد التقوى لكن المؤمنين إذا عزوا بدينهم يبلغون عهداً ييأس فيه الذين كفروا من فتنتهم عن الإسلام . وهكذا ينبغي أن يكون الذين آمنوا لا يخشون وطأة الأعراف الكافرة وإنما يخشون ربهم ويتقونه، وذلك عهد يكمل الله فيه دينهم ويتم عليهم نعمة الهدى ويرضى لهم الإسلام الذي رضوه ديناً . والمؤمن العزيز المتقى للمحرمات قد تصيبه مخمصة طارئة تضطره لأكل الحرام حتى يحفظ حياته ، وذلك يحل له ما لم يجنح وراء قدر الضرورة نحو الإثم فان وجد حرجاً بتقواه من ورود الحرام ولو كرهاً يذكر أن الله غفور رحيم .

ان المؤمنين المتسائلين عن مدى الحلال مدركون أَن الله أحل لهم طيبات الأكل لمدىً واسع حتى أكل ما تمسك وتقتل لهم جوارح الصيد ، مؤمنين أَن ما يعلمونها من فنون الصيد مستمد مما ينعم الله فيهم من علم ، ذاكرين اسم الله على وقوع الصيد لهم، متقين الله غير طالبين في الصيد محض إمتاع وإشباع لشهوة التقتيل ، بل من أجل نعمة الطعام . وحتى يتذكروا أن الله سريع الحساب في القيامة لمن يسارع بحركته عدواناً في المجتمع كالمصطاد مفتوناً بشقاء شهوة العدوان .

إن تمام الدين فيه سعه وسماحة لما يحل للمؤمنين من الطيبات فطعام الذين أوتوا الكتاب كما يهيئونه طيب حل للمسلمين وطعامهم حل لأولئك . والسماحة في النكاح كما في الطعام فكما أن المؤمنات محصنات بعقد الزواج حلال للمؤمنين نكاحاً ، المحصنات بذات العقد من نساء أهل الكتاب حل أيضاً للمؤمنين . ذلك إذا كان النكاح إحصاناً بعقد وصداق لا مسافحة عرضٍ ولا مخادنة خلة ، فذلك خروج إلى الكفر من عقد الشرع أصل عقد الزواج، وهو إحالة لعلاقة الذكر والأنثى إلى عمل يحبطه الحرام وعاقبته مهما كانت متاعاً أو ذريةً في الدنيا خسارةً في الآخرة .

إن الإيمان صلة بالله لا تنقطع إذا أوفى المؤمنون بعقد شعيرة الصلاة فإذا قاموا إليها عبادة خشوع وتجرد لله ، تهيأوا بتدابير الوضوء بالماء للرأس والأطراف طهراً من الذنوب وذكراً بعد الغفلة وشكراً على تمام نعمة الزلفى . فإذا ألهتهم الشهوة وأغرقتهم جنابة عن ذكر الله أتموا التطهر بغسل الجسد كله ، فإذا تعسر الماء أو تعذر لمرض فلا حرج على أن يتخذ التيمم بالتراب طهراً ، بمسح الوجه واليدين بالتراب . والصلاة الدائبة مدد تزكية دائمة بعقد الإيمان بالله والاستجابة لأمره بذكر هدايته وميثاقه الذي واثق به المؤمنين الذين أُشهدوا على سمع الله وطاعته، وائتمروا بتقوى الله العالم بطهر ذات الصدور .

إن عقود الطاعة لله على أن يكون المؤمنون القوامون للصلاة ذكر الله الأكبر هم قوامين لله في عقد العلاقات بين الناس ، شهداء بالقسط لا يجرمنهم أبداً شنآن قوم على ألا يعدلوا بل يأتمرون بالعدل الأقرب بتقوى الله الخبير بالأعمال . وهم يتذكرون وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة للذنوب والأجر العظيم ووعيده للذين كفروا وكذبوا بآياته بأنهم أصحاب الجحيم . وإن مما ينبه إليه المؤمنون في عقد العلاقة بالناس نعمة الله الخاصة ، إذا همَّ قوم أن يبسطوا إليهم الأيدي عدواناً فكفها الله بالصلح ، فعليهم أن يتقوا الله في رعاية السلام خاصة في مثل تلك العلاقات ويتوكلوا على الله حال الحذر والخطر فيها .

إن في الحج والصلاة عقد لذكر الله يحي ذكر نعمته –سبحانه– في الحياة رحيماً وعقد شعيرة لتقوى الله ، تمد المؤمن في أدائها بتقوى الله في الحياة ، بكل أقوالها وأعمالها سراً وعلناً للفذ أو بين الجماعة . فالمؤمنون الحجاج المصلون يوفون بالعهود ويذكرون نعمة الله ويتقونه في الحياة كافة.

ترتيل المعاني

الايات (12–32)

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(12)

الآية في سياق الميثاق مع الله تذكر المسلمين بسوابق عبرته في تاريخ أهل الكتاب الذي تنزلت آياته تحمل عقود الإيمان ومواثيقه . أخذ الله من بني إسرائيل ميثاقهم كما يأخذ من المسلمين وقد بعث الله من وسطهم نقباء قيادة ينقبون في أحوالهم وابتلاءاتهم لرعاية الميثاق على رأس كل قبيلة من قبائل بني إسرائيل الاثنتى عشرة . ووعدهم الله في المواثقة مؤكداً معيته لهم تأييداً وإذا أوفوا هم لعقود الميثاق إقامة للصلاة وإيتاءً للزكاة وإيماناً برسل الله وتعزيزاً مؤازرةً لقيادتهم ، وجعلوا كل ذلك عملاً صالحاً أقرضوه وديعة لله إلى يوم الجزاء – يعدهم مؤكداً سبحانه وتعالى وفاءه بالقرض ذلك اليوم تكفيراً لسيئاتهم وإدخالاً لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك مثل ما في الآيتين السابقتين[121] التي وصلت وعد الجزاء الصادق لوفاء المسلمين وكما أبان الله للمسلمين في مصير من كفر بعقود الإيمان ليحبطن عمله وهو في الآخرة من الخاسرين[122] ، لن يكون للكافر من بني إسرائيل قرض عند الله يرده له يوم القيامة إذ لم يستقمْ ملتزماً بعقد الله وميثاقه بل ضل عن هذا السبيل السوي – سبيل الإيمان والوفاء بميثاقه في الدنيا وسبيل المغفرة والجنات أجراً عظيماً .

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً[123] يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(13)

الفاء في أول الآية تربط ترتيباً مباشراً بالسابقة التي أبانت شروط الميثاق الديني ، فالذين نقضوا الميثاق ولم يفوا بعقوده من أهل الكتاب لعنهم الله حرماناً من فيوض رحمته وجعل قلوبهم قاسية لا تخشع بما قارفت من ذنوب أحاطت بها . فهم يحرفون آيات الله عن مواضعها الحقة يريدون بذلك تفلتاً من عقود ميثاق الإيمان مع الله ، وهم نسوا حظاً كبيراً مما ذُكِّروا إذ ضيعوا من شريعتهم ما فتنتهم عنه فتنة السلطة والأموال كما سيرد فيما بعد في السورة . ونسوا واجب الوفاء بالعقود إذ هم على عقد مواطنة في المدينة مع الرسول ﷺ ، كان ما يزال كل حين يطلع على خائنة منهم حيلة ومكراً مما يخون العهد ، يتورطون في ذلك إلا قليلاً ممن يؤدي أمانة ميثاق المدينة ويرعاه .

---

[121] الآية 8 والآية 9 سورة المائدة

[122] الآية 5 والآية 10 سورة المائدة

[123] قرأ حمزة والكسائي (قسيّة) بحذف الألف وتشديد الياء

ولكن الآية توحي للرسول ﷺ ألا يخون هو العقد والميثاق ولا يقف منهم جميعاً موقف العصبية التي ترفع ملة فوق ملة أو المقابلة بالمثل خرقاً للميثاق ، بل وتُذَكِّرْ الآية الرسول ﷺ أن يعفو عنهم بأن يتجاوز عن تلك الخيانات ويصفح عنهم فلا يبدى لهم بغضاً في صفحة وجهه ولا يضمر في قلبه شنآناً . وإنما يصبر عليهم شاهداً بالقسط قائماً بالعدل والله يحب المحسنين من المؤمنين الذين يتعاملون بأخلاق العفو والصفح مع أهل الكتاب رغم نقضهم الميثاق وقسوة قلوبهم وتحريفهم الكلم عن مواضعه ، ولا يلجأون إلى المعاقبة وبسط اليد إلا رداً لعدوان بقدره دون إفراط.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)(14)

تِلوَ ذِكْر عبرة أهل الكتاب اليهود الآية تَذْكُر عبرة أهل الكتاب الذين ابتدعوا النسبة إلى عيسى ومولده فقالوا إنا نصارى وقد أعلنوا ولاءهم لميثاق الله عندما شهدوا قائلين : إنا نصارى، ولكنهم بعد أن أخذ الله بآيات عيسى عليه السلام كلها ميثاقهم من الملأ الأعلى ، نسوا بعضاً مما ذكروا توحيداً وشريعة وهدىً كما فعل اليهود قبلهم ولعنوا بها إلى يوم القيامة فكان بعدهم عن توحيد الله والاعتصام بحبله جميعاً سبباً في أن يذرهم الله للشيطان يغري بينهم العداوة والبغضاء كما يشهد بذلك اختلاف الكنائس وتشققها واحتراب الطوائف والأقوام واغتنام الطواغيت لانطلاق أهوائهم المتشاكسة بغير موحد أو ضابط .

لكن الله الذي أملى لهم سينبئهم في مآلات الآخرة بما كانوا يفعلون خروجاً على عهد الله واختلافاً وعدواناً بعضاً على بعض أفعالاً صنعت تدابير اعتقادات ومكر سياسات.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ) (15)

الخطاب في الآية يتوجه لأهل الكتاب بعد أن كان الخبر عنهم وعن عبرتهم وتاريخهم والله في الآية ينسب الرسول نفسه إليه تعالى في ملئه الأعلى ، حتى يتوكد لأهل الكتاب أنه لم يختلق هذه الرسالة من نفسه وإنما جاء بها من الله. فهو رسول من الله قد جاءهم فعلا يبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب كتماناً واحتكاراً عن عصبية وتحريفاً عن موضعه ونسياناً عن ضلال. وهو –كذلك – يرفع عنهم ببيانه كثيراً من التكاليف الشديدة التي كانت في كتبهم لظروف من الابتلاء ماضية . فهو رسول قد جاءهم يحمل من الله نوراً يفتح لهم من ظلمات العصبية والضلالة وكتاباً يفرض الشريعة المبنية الواضحة لما تأولوا ونسوا .

فرسالة القرآن هي امتداد لرسالة كتبهم والكتاب واحد يعفو اللاحق عن بعض ما في السابق عفواً وتيسيراً ، وينير لكم ذات الطريق ويبينه فالآية تقدم لهم الرسول ﷺ عبر كتبهم وتراثهم .

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(16)

الخطاب متصل لأهل الكتاب في تبيان نعمة النور والكتاب المبين التي جاء بها إليهم رسول الله ﷺ فمن اتبعها ابتغاء رضوان الله هداه الله إلى سبل السلام وهي غير سبل العداوة والبغضاء التي مضى عليها النصارى الذين نسوا حظاً مما ذكروا به[124] وغير سبيل الضلال التي مضى عليها اليهود ناقضين الميثاق[125] ، وهي سبل السلامة من عذاب الله يوم القيامة لأن الله قد رضي عمن اتبع رضوانه .

والله يخرج بالرسالة الخاتمة أهل الكتاب من الظلمات التي ورطوا فيها إلى النور المبين وذلك بإذن الله لا بكسب – الرسول الذي يحسدون – وحده . والله يهدي أهل الكتاب بتلك الرسالة إلى صراط مستقيم بعد ضلالهم القديم .

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).(17)

بعد ذكر ميثاق الهداية والإيمان المأخوذ على أهل الكتاب، توضح الآية أن قد كفر النصارى الذين كفروا بوحدانية الله وقالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وإنما المسيح ابن مريم وليس ابن الله وهو المالك القوي المطلق ومن يقتدر ويملك منه شيئاً ليحبسه إذا أراد أن يقضي بالهلاك على عيسى الذي ما هو إلا ابن مريم وعلى أمه بل وعلى من في الأرض جميعاً . فما ذلك بعزيز على الله ولا يشاركه في تصريفه أحد، والله قوي يملك السماوات والأرض وما بينهما ويخلق ما يشاء من خلق فهو غني لا يحتاج للولد وهو بقوته وغناه على كل شئ قدير . وذلك البيان لوحدانية الله ذكر شديد الوقع على النصارى حتى يكفوا عن الادعاء على الله .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)(18)

بعد نقض اليهود والنصارى للميثاق ناسين حظاً مما ذكروا به أسسوا دينهم على التمنيات والادعاءات بدلاً عن تأسيسه على الهدى والنور والسلام والرضوان . فقد ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه . والذكر أن يسألهم الرسول ﷺ استنكاراً لم إذاً يعذبكم بذنوبكم نَقْض عهدٍ ونسياناً ، وأن يذكرهم أن ما هم إلا بشر ممن خلق ، يتصرف الله فيهم بالمغفرة والعذاب يوم القيامة ، وليس لهم خصوصية دون سائر البشر من بنوة لله ومحبة، فالله له ملك السماوات والأرض وما بينهما من خلق ، غنيٌ لا يحتاج

---

[124] الآية 14 سورة المائدة

[125] الآية 12 سورة المائدة

لبنوة ولا لمحبة أحد بعينه ، وإليه سبحانه مصير خلقه البشر جميعاً يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء بحكم ميثاقه وعدل حكمه .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).(19)

الخطاب يتوجه ختاماً لأهل الكتاب يذكرهم مرة أخرى بنعمة الرسول الذي جاءهم لا من نفسه بل بوحي منه تعالى ليبين لهم على فترة من الرسل امتدت نحواً من سبعمائة عام، فترة أطول مما ظلت قبلاً تتعاقب فيه الرسل من يعقوب إلى عيسى جاءهم الرسول لئلا يتطاول عليهم الأمد فتقسوا قلوبهم ويغفلوا عن وعد الله الحسن في ميثاقه فيقولوا ما جاءنا من بشير أو ينسوا وعيده ويتمنوا أنهم ناجون ببنوة وحب الله ويقولوا ما جاءنا من نذير . ها قد جاءكم رسولنا بالبشارة النذارة والله على كل شيء قدير يرسل المرسلين بحكمته تتراُ أو على فترة .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ).(20)

(وإذ) في أول الآية تذكيراً بقصة لبني إسرائيل وعبرتها بعد أن عاد الخطاب يَذْكُر سوابقهم في التاريخ، وذلك حين قال موسى – عليه السلام – يخاطبهم: يا قومِ مودةً وتقرباً إليهم يرجوهم ذكر نعمة الله عليهم، وذكر النعمة يتكثف في سياقات السورة خاصة في موضوع الهداية أكبر النعم. فيذكرهم موسى بنعمة الله إذ جعل فيهم أنبياء تترى نبياً بعد نبي من قبل ، وجعلهم ملوكاً يملكون أمرهم كله بعد تحررهم من ملك فرعون ، واتاهم ما لم يؤت أحداً من أهل العوالم في التأريخ ببعث الأنبياء المتوالين هدىً ومعجزاتٍ وشريعةً ، وبالعز حين نجاهم الله من فرعون ورزقهم في الصحراء .

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ)(21)

خطاب موسى لقومه يتصل وبعد التذكير بنعم الله يوصيهم بأن يدخلوا الأرض المقدسة من آثار ذرية إبراهيم في فلسطين ، جهاداً في سبيل الله أن يدخلوا الأرض المقدسة التي أسس فيها المسجد المقدس ، والتي كتب الله لهم فيها أن يحفظوا وديعة الميراث الديني ، والتي بارك الله فيها رزقاً طيباً حول الحرم . وألا ينكصوا على أدبارهم جبناً من مخاطر الجهاد مرتدين عن أمر الله فينقلبون خاسرين لأن نعم الله أن دفعهم فائزين بالنجاة من فرعون أن سيدفعهم قدماً إلى التمكين وبناء الدولة والمجتمع المؤمن في الأرض المقدسة .

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)(22)

جاء رد قوم موسى تعبير انخذال عن الجهاد وخوفاً من قوة عدوهم المتمكن في الأرض المقدسة وضعف توكل على الله لتحرير الأرض المقدسة ، التي كانت أمانة أودعها الله لسلفهم الصالح. وذلك من قولهم إن فيها قوماً جبارين وإنهم هم لن يدخلوها حتى يخرج منها ذلك العدو القوي الجبار ، فإن خرج فإنهم يدخلونها هوناً وسلماً .

(قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ).(23)

وانبرى رجلان من بين هؤلاء القوم الذين يخافون بطش الجبارين لكن أنعم الله عليهما توبة إلى الإيمان والتوكل على الله والتطهر من الخوف إلا منه تعالى انبريا يحرضان قومهما على الجهاد واقتحام الباب لأريحاء الأرض المقدسة توكلاً وثقة إنهم إذا اندفعوا داخلين الباب غالبون كل جبار ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون يقذف الرعب في قلوب الجبارين ويؤيد بالنصر المؤمنين*.

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)(24)

قال قوم موسى رداً عليه محرضاً أولاً : على دخول الأرض المقدسة وهو أحد رجلين متوكلين واثقين من الغلب والنصر – قالوا ليعزلوا بينهم في شأن الجهاد عن مجتمعهم وليعصوا نصيحته واحداً منهم من رجلين نكرة في الشأن ، ولينقضوا ميثاق الطاعة لله وما كتب ورسله وما ذكروا به – قالوا رفضاً قطعاً : إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها وقالوا عزلاً له ولما كتب ربه واستهزاء فاذهب أنت وربك فقاتلا وقالوا إصرارا *وتجمداً* من الدفع للجهاد إنا ها هنا قاعدون .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)(25)

موسى –عليه السلام– معزولاً لم يجد متجهاً إلا إلى ربه يناجيه : رب بعد أن انخذل عنه قومه في الجهاد يشكو إليه أنه لا يملك إلا نفسه يبذلها في سبيله وإلا صاحباً واحداً هو أخوه – شذ بهما الموقف ، نكرةً في قومهما رجلين . والله يدعو أن يفرق بينهما وبين سائر القوم الفاسقين المرتدين عن الجهاد في سبيله ليرحمهما ولا يدرجهما معهم في حسابه .

(قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)(26)

أجاب الله دعاء موسى أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين فأوحى إليه أن هذه الأرض المقدسة التي لم يدخلوها جهاداً وامتثالاً لأمر الله وطاعة لقيادة الأنبياء ، ستحرم عليهم أربعين سنة يضربون فيها على

* سيبرز لاحقاً في الآيات الرجلان ومن هم خلافاً لما ذهب إليه كثير من المفسرين

وجوههم تيهاً في الأرض الصحراء ، وأوصاه لذلك ألا يأسى على مصير القوم الفاسقين ولو كانوا أهله ، دعا بالفرقة بينه وبينهم ولم يدع عليهم بالعذاب والتيه .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الأَخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)(27)

الواو في أول الآية تصلها بقصة بني إسرائيل قبلها فمن انخذل عن قتال العدو الجبار، اتجه بعدوانه إلى أخيه في مجتمعه كما في قصة ابني آدم في هذه الآية. والأمر للرسولﷺ بتلاوة نبأ ابنى آدم يصل الآية بأول السورة التي تلت أمر الوفاء بالعقود إيماناً مع الله أو علاقة بالناس ومن ثم الوفاء بشريعة الله للحلال والحرام في المطعومات وبعرف الأمن والحرمات في العلاقات – وتلك تذكرة بأن عبرة نبأ سيرة الإنسان الهدى من فتنة التباغض الذي ينقض عهود الأخوة وحرمة نفس بني آدم .

والنبأ أخطر من الخبر فهو لقصة عظيمة العبرة من ابنى آدم لعلهما لم يكونا ولدين مباشرين لآدم بل ولدين لبني الإنسان ينبغي أن يذكرهما الانتساب ذرية من آدم لعقد الوحدة للبشر الذين خلقهم الله الواحد من أصل نفس واحدة ، وقد قربا إلى الله قرباناً من ذبائح تهدى في سبيل الله أو عمل صالح يظهر شعيرةً يتقرب به إلى الله تقرباً عظيماً يجعله قرباناً(يتأكد بالألف والنون) . فتقبل الله من الذي أخلص بقربانه لله ظاهراً وباطناً ولم يتقبل من الذي تقرب بظاهر القربان ولم يخلص نية عمله لله. فلما تبين للأخير من خيبة دعائه المترتبة على نفاق تقربه أو نقصه ، وأن الأول قد أتم وأخلص فاستجاب له الله، أخذته الغيرة ونسي عقد أخوة وميثاق حرمة النفوس واندفع حتى قال للآخر لأقتلنك . ولكن أخاه ذكره بأن القبول من الله إنما يقصر على عمل المتقين المنضبطين بالأعمال الصالحة وكف العدوان عن أخوة البشرية قرباناً ظاهراً وقربى بالنية الباطنة .

(لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)(28)

ووصل ابن آدم الذي ضبطته تقواه وخوفه من الله حتى عن حقه في دفع العدوان ، يخاطب الذي يتهدده بالقتل انه لو بسط أخوه يده ليقتله عدواناً ما هو بباسط يده إليه ليقتله ولو دفاعاً. ذلك فيما أعلن أنه يخاف الله رب العالمين ، الذي عقد مع بني آدم وعقد بينهم عقد حرمة النفس ، يرحم من يفي بالعقود ويعذب من يخونها . وذكر كف الأيدي عن البسط تقوى لله موصول بالآيات السابقة[126] ، فكف اليد قسطاً وعدلاً حتى مع العدو المشنوء هو الأقرب للتقوى وذكر نعمة الله وميثاقه . بل توصي الآية السابقة[127] عفواً وصفحاً حتى بعد إصلاح خائنة من الآخر وكسب حق رد العدوان ، فالله هو رب العالمين ويتقبل من المتقين ويتعهد من شاء بالرعاية ويأخذ من نقض ميثاق الحرمات .

---

[126] الآية 8 المائدة ، والآية 11 المائدة

[127] الآية 13 المائدة

(إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ)(29)

يؤكد المتقى أنه يريد أن يبوء أخوه العادي بالإثم كله فترك حقه في دفع العدوان ليموت مظلوماً يؤخذ من سيئاته وآثامه فتطرح على الظالم فضلاً عن إثم العدوان وإن كانت للجاني حسنات أخرى يؤخذ للمظلوم منها . هكذا تثقل الآثام وتتضاعف على الظالم فيكون من أصحاب النار صحبة دائمة وذلك جزاء الظالمين لعقد العلاقات وعدلها بين الناس .

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (30)

لم تُجِد موعظة الأخ وموقفه أن تغلب نفس أخيه الظالم بل طَوَّعت له أهواء نفسه حراً أن يقتل أخاه فأصبح حقاً من الخاسرين بفقدان الأخ وعظم الإثم .

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ). (31)

يرسل الله المرسلين وآيات الله تذكيراً بميثاق العدل والسلام بين الناس ويريهم ما يشهد على ذلك ، آياتِ الله ونظمها في الكون لو تفكروا . والله أرسل إلى ابن آدم القاتل هذا ، طائر الغراب الذي يوصف في علم الحيوان بأنه طائر بحاث كثير البحث والتنقيب في الأرض بمنقاره . وقد بعثه الله ليأخذ منه القاتل الدرس ويفهم الرسالة أنه قاتل عاد وعاجز حتى عن مستوى الحيوان في رعاية أخيه ، وذلك ليتملكه الجزع ويصيح يا ويلتاه أعجزت أن أوازي الشيطان فأوراي سوءة جثمان أخي فأصبح من بعد الخسران حقاً من النادمين شعوراً عميقاً في نفسه .

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ). (32)

من أجل تلك العبرة البالغة من جراء تلك الجناية في ذلكم النبأ الذي اقترف فيه القتل بغير الأسباب الحقة سوى الحسد الذي قد يحيط بالإنسان حتى تجاه أقرب الأقربين ، وبسبب الخسران الحق والندم الشديد الذي يستشعره القاتل كتب الله على بني إسرائيل بأن قتل النفس في غير قصاص من قاتل نفس أو من المفسدين في الأرض الذين لا يراعون حرمة لنفس الإنسان ولا ماله ، كتب الله على بنى إسرائيل أن من قتل النفس كذلك بغير الحق والعدل فكأنما قتل الناس جميعاً لأن القتل إذا ترك بغير ضوابط رادعة انتشرت عدوى سفك الدماء لتحيط بالناس فلن يأمن أحد من القتل . وإذا حفظت حياة الفرد كفاً عن دوافع النفس والشيطان لقتله أو إنقاذاً له من هلاك فكأنما حفظت كل الحيوات في البيئة الاجتماعية التي تعرضت للخطر أن تكون مقتلاً ، يحي كل أفراده بهذه الضوابط ، إذ انضبط بتقواه عن العدوان فكأنما أحيا الناس جميعاً .

وهذه هي البينات التي جاءت بها الرسل لأنها أنبأت بتلك الشرائع الضابطة لحدود المجتمع، ولكن كثيراً من بني إسرائيل يقتل ولا يهتدى بهذه العبرة العظيمة فيذهب في الأرض يسرف في القتل والفساد فيهلك المجتمع ويورث الخسران والندامة .

عموم المعاني

الآيات (12 – 32)

إن في سيرة السابقين عبرةً للمؤمنين – من بعد – شهداء وضمناء ورقباء لأحوالهم ، ماذا يكسبون في حياتهم وفاءً بمواثيق الدِين، إيماناً فطاعة وعدلاً وتقوى . فمن تاريخ بني إسرائيل أن الله أخذ ميثاقهم وبعث منهم نقباء للقيادة في نهج التقوى والولاء للميثاق، ووعدهم الله أنه في الدنيا معهم هدىً ومداً ، إن حفظوا هم أصول الميثاق ورعوا شروطه وتكاليفه. ذلك بإقامة الصلاة ذكراً مستمراً ، لا تقطعهم عن الله الغفلة أو تلهيهم مقاصد الدنيا العاجلة، وإيتاء الزكاة معرفةً لجميل نعمة الله مالاً ورداً لبعضها في سبيل الله، وبالإيمان برسل الله وتعزير حركتهم دعوةً وأسوةً وبأن يقوموا لله في حياتهم قطعاً حتى من صالحات العمل مقارضة ومقابلة لجزاءً آجل حسن. أولئك عاقدهم الله —حقاً– أن سيكفّر سيئاتهم قطعاً ويدخلهم جنات حيّةٍ مروّيةٍ . أما من كفروا وأغشوا فطرة الإيمان فطفقوا بخلاً وخيانةً للرسل وإيثاراً للعاجلة فقد ضَلّوا عن سواء سبل الوفاء بالميثاق . ذلك النقض لميثاق الله أكسبهم أن لعنهم الله طرداً من الخير وتركهم قاسيةً بالله ونعمه قلوبهم ، فلا يستمسكون بعهد ذكر ، بل يُحرِّفُون كلمه عن مواضعه الحكيمة وينسون جانباً منه . وأصبح غالبهم بعد خيانة ميثاق الله إزاء رسالة التذكير وتجديد الدين ، يقعون في فضائح من الخيانات مثل خيانة الرسالات من قبل. ومهما يكن ذلك ، فإن على داعية التجديد أن يعفو ناحياً معهم نحو صفحة جديدة بعد خيانة ميثاق الله ، ذلك إحسانٌ والله يحب المحسنين الصافحين مهما خاب الرجاء في ذوي العصبية للقديم .

وكذلك العبرة في تاريخ بني إسرائيل الذين انتسبوا نصارى إلى مولد الرسول عيسى وأخذوا أولاً ميثاق الله المتجدد ولكنهم مضوا لينسوا نصيباً منه ، ففرطت أخوتهم التي كانت دون عصبية العرف الإسرائيلي لغيرهم، لكنهم انفلتوا من حبل الله وميثاقه وأغريت بهم العداوة والبغضاء داءً ماضياً فيهم إلى يوم القيامة إذ ينبئهم الله بما كانوا يصنعون .

وخطاب الدين دائماً لذوي العصبية للكتاب القديم الذين ضلوا عن أصول ميثاق الدين : إن رسالة الإسلام قد جاءت وستجيء متجددة للمنتسبين إلى الإسلام الذين أضلهم عن حكم أصوله طول الأمد والنسيان. جاء الإسلام ويجيء مبيناً كثيراً مما يخفى أهل القديم نسياناً أو كتماناً بالهوى، ويجيء التجديد عافياً عن كثير، كما يجيء الإسلام نوراً ينشر في الناس القرآن كتاباً مبيناً بعد ظلمات الجهل والتقادم ومخرجاً إلى النور به يهدي الله من ابتغى رضوانه سبل السلام على صراط مستقيم .

إن تقادم الرسالة وجنوح الناس دون السعي إلى الشهادة قد يجعلهم يصوبون التأليه نحو الرسول والتقديس نحو الزعامات ، دون توخي المبادئ المصوبة عبادة إلى الله ، فقد كفر النصارى إذ قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ونسوا أن الله هو واحد فلا يملك أحد شيئاً يشرك به قدرته ، ولو أن قضى هو — سبحانه – الموت والهلاك على المسيح وأمه وعلى من في الأرض جميعاً، فقدره نافذُ على ملكوته وله ملك السماوات والأرض وما بينهما وهو الخالق لكل شيء، فَأَنَّى لبشرٍ كعيسى أن يكون مالكاً شريكاً .

إن من علل التدين كما دفع لليهود والنصارى أن يَدَّعُوا بفتنة الجاه القديم أنهم أبناء الله وأحباؤه، ولكنه —تعالى– لو آثرهم فلم يحاسبهم بكسبهم فيعذبهم بذنوبهم، بل أولئك وكل ورثة الدين بشر ممن خلق الله ، الذي يعدل بينهم حسب الكسوب فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. ولله السماوات والأرض وما بينهما ، يملكها ويتصرف فيها سواءً ، بلا أَثَرةٍ لبعض ما ملك وإليه مصير ذلك جميعاً بلا مصرف لأحدٍ أو شيءٍ .

إن رسالة التجديد تجئ إلى الديانات الكتابية القديمة وتتجدد مع تطور المسلمين، ولو بعد فترة من غيبة التذكير وفتور الأصول ، وذلك لئلا تنقطع الصلة بالرسالة فيعتذر لله عند الحساب الضالون بالقديم أن ما جاءهم من بشير بدفع يحفز الخير فيهم ، ولا نذير يردع الشر . بل بعث الرسالات قديماً وتتوالى بالتجديد والبشارة بخير الاعتصام بالدين والنذارة من هجره دنيا وأخرى . هكذا يَقْدّرُ الله على كل شيء ، من تجديد الرسالات عبر الزمان ، الذي يتوهم الناس أنه قدر وقدم جامد .

إن من سابقات ابتلاءات التجديد ذات العبر أن موسى بعد أن أخرج قومه من ظلمات مصر وظلم فرعونها ذكرهم أَلاَّ ينسوا نعمة الله ، إذ اختارهم فجعل فيهم أنبياء ، وإذ حررهم من جبروته وجعلهم ملوكاً لأمرهم ، وآتاهم في ذلك الزمان نعمة هداية وأمانة مما لم يؤت أحداً من العالمين في الأرض . فأوصاهم موسى شكراً لله ووفاءً بعهده أن يتقدموا فيدخلوا بالدين الأرض المقدسة المطهرة التي كتب الله لهم ، من وراء صحراء النقب . وألاَّ يرتدوا على أدبارهم متدهورين بعد انطلاقة التحرر والإيمان والهجرة لئلا ينقلبوا إلى خسران . وبين أيديهم درجة وساحة من الفلاح .

سيرة رسالات التجديد أن يتقدم أهل الدين درجات نحو تمكين مُثُل الدين بأرض أطهر وكسب أكبر ، ولكن تلك الدعوات والدفعات عرضةً بظواهر تقادم الدين وتثاقل أهله عن الحركة، فقد قال بنو إسرائيل لموسى في دعوة استنفاره أن أَمَامهم قوماً جبارين ، وأنهم لن يدخلوا الأرض الموعودة ما كَلَّفهم ذلك مقاومة جبروت الشر المتمكن فيها . وكان منهم خصومة لاثنين ممن صدقوا يخافون الله وحده ويذكرون نعمه دفعاً لوفاء بميثاقه ولو بالجهاد . أولئك دعوا إلى اقتحام أبواب الشر قدماً مطمئنين أنهم غالبون وأن المؤمنين على الله يتوكلون . ولكن الثقل القديم الجامد قد لا تحركه كلمة البشرى المجددة المندفعة ، بل أهله قد يَكِلون الأمر تمنياً لقدرٍ من الله بغير كسب الإنسان ، كما قال بنو إسرائيل اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . وقد يشتكي داعية التجديد كما اشتكى موسى أنه لا يملك إلا

نفسه وأخيه لدعوة التقدم والجهاد ، وقد يرجوا الدعاة وهم في قلةٍ وذلةٍ أن يُفرقهم الله عن القوم الفاسقين عن العهد القاعدين عن التقدم والجهاد، ولكن عليهم أن يَتَذَكّروا ما أوحى الله إلى موسى ، أن الأرض الموعودة مآلها وطناً محرمةً على جيل القاعدين الجامدين ، وسيظلون تائهين مرهونين في الأرض التي أقعدهم فيها الخوف والحذر . فلا يأس مع المحدودية مع ظاهرة الفسق الخامل ، بل تظل الدعوة قائمةً حتى يستيقظ النُّوام ويتوكل الجُبناء ، كما حدث لبني إسرائيل بعد أربعين سنة .

إن فتنة الشر قديمة في فطرة الإنسان لمن يثيرها في نفسه من كسب عملاً دفع الفجور في نفسه ولم يزكِّ تقواها . هكذا يتخذ أهل الدين القديم مواقف شر من رسالة تصدق أصل الدين وتجدد صوره عبر ابتلاءات الزمان الحادثة . وذلك إن لم يكن خوفاً من مخاطر حركة التجديد ، يمكن أن تعود إلى التعبير غريزة الحسد ، من الذين تأكلهم الغيرة أن تصدر من غيرهم مبادرة الدين التي يبدو في الواقع صدقها وقبولها من الله (لا سيما إن كانوا يرون أنهم بمعيار الميراث القديم أولى من المجدد بالمبادرة ذات الحق الظاهر). فمن المثُل التي يوصي الدين أن تتلى عبرةً موعظة على بني إسرائيل ، أو أيما أهل تدين قديم جامدٌ في الحياة روحه وأثاره : نبأ ابني آدم إذ قربا قرباناً عبادة قربى إلى الله ، فَتُقُبِلَ من أحدهما بظهور ثمار كسب عبادته ودعوته ، ولم يتقبل من الآخر ابتلاءً من الله وجزاءً وفق صدق النية وكذبها، فانقلب الذي لم تقبل قربته لا إلى نفسه ليجتهد ويُخلص ، بل على الآخر ليقتله ، فرد عليه المقبول قربانه رداً سمحاً أن الله العليم بما في الصدور إنما يتقبل من المتقين وأنك لو بادرت وبسطت يدك محاولة لقتلي سألوذ بالسماحة والسلام ، ولن أرد بالمثل باسطاً يديّ لأقتلك دفاعاً ، إني ألوذ للتقوى وخوفاً من الله رب العالمين . إني بذلك أريد أن تبوء بإثمي مَظْلَماً يُعوِّضَهُ الله على حساب الظالم ، ومن يمت ظالماً يكن من أصحاب النار على غرار جزاء الظالمين . ورغم العظة طوَّعت النفس الأمارة بالسوء لذلك الجاني ليقتل أخاه، ولكن بذلك اختار الخسران في المعاملة لا السلامة ، بل كان بذلك أشد ضلالاً وخسراناً من الحيوان ، إذ بعث الله له غراباً يريه كيف يبحث في الأرض ليواري جثة أخيه فأصابه الندم بمثال الحيوان الذي لم يقتل أخاً بل مد الله به رحمة لابن آدم بعد موته . ذلك مثال لعلة الغيرة في أهل الدين القديم الذين يحسدون الآخرين المجددين وغيظاً من أن الله قَبِلَ إخلاصهم وجعل فيهم المبادرة بمسألة التجديد كالذين يهجمون اليوم عدواناً مهما التزم المتجدد دينهم وعفوا وصفحوا[128] . وقد ينحط حافز الحسد بالمعاملات بين بني آدم وهم يدعون أن جنايتهم إن هي إلا بدوافع العبادة . فالله أوحى فطرة الأخوة والتراحم بين فصائل الطير ، لكن البشر قد يتجاوزون وينحطون عن وحي الله الذي هداهم لميثاق الإسلام ومن ثم عهد السلام بينهم حتى عن مسلك الطير ، بلا عقل ولا رشد ولا رهبةٍ أو رغبةٍ إيماناً بالغيب ، فينتهي بذلك بنو آدم إلى الندم والخسران.

---

[128] راجع الآية 13 سورة المائدة

ترتيل المعاني

الايات (33–40)

(إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ). (33)

(إنما) في أول الآية حصراً للجزاء المكتوب على البغاة المحاربين لا يعطل ولا يتجاوز بعقاب كالمثلة من ثورة الغضب عليهم فكأنما قتل البغاة الناس وأفسدوا الأرض جميعاً . والسياق يتصل بعد قصة ابنى آدم وعبرتها التي كتبت لأجلها الشرائع الضابطة للمجتمع عن القتل والفساد ، خروجاً وعدواناً على قيام دينه ونظام شرائعه العام . وبعد قصة ظاهرة الإسراف في الأرض بين بني إسرائيل وبحيثيات نزول لمن نقض منهم عهد المدينة وبغى وقطع السبيل وأفسد في الأرض. والآية تفصل القول في أكبر الجرائم التي تخل بالسلام الاجتماعي وهي البغي والحرابة . فالذي يحارب الله في الأرض والذي يحارب الرسول عدواناً على أصول ولايته العامة أو على الذي يقوم مقامه بأمر نفاذ الأحكام من كل من يتولى السلطان أو الإدارة، والذي يسعى يتحرك للإفساد العام في الأرض مسرفاً في التخريب والتقتيل — أولئك جزاؤهم ان قَتلوا النفوس أن يُقَتّلوا ويُصَلّبوا وفاقاً وعظةً وردعاً ، والذين يسرفون في أخذ الأموال سرقة ونهباً تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والبغاة ومن والاهم ينفون من أرض الجناية سجناً أو تغريباً إلى أرض أخرى .

وللحاكم أن يقضى بعقوبة من بين هذه العقوبات المفصلة وفقاً لحجم الجريمة وأحوال المجرم ذلك الجزاء الحاسم خزي وذل وفضيحة للبغاة في الدنيا أمام المجتمع ولهم في الآخرة عذاب عظيم لأن عذاب الدنيا لا يُكَفّر عن جزاء الآخرة لمن لم يتب .

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (34)

الآية ترفع العقوبات التي فصلتها السابقة عمن تاب وعرفت توبته قبل أن يقدر عليه السلطان ويُلقى عليه القبض . وقد تكون جرائم الحرابة على الله والرسول أو الإفساد في الأرض ذات حيثيات سياسية تحتمل التوبة والصلح بما يساعد في أمن المجتمع واستقراره وسلامه، وقد تصدر قرارات العفو العام التي تحفّز وتُشجّع على التوبة والاستسلام ومهما تأكد عظيم جراير البغي والحرابة يتأكد رجاءً للتوبة عظم صفات الغفران والرحمة عند الله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (35)

بعد ذكر جرائر الحرابة الآثمة وعقوباتها الصارمة وذكر التوبة والمغفرة والرحمة، الآية تخاطب مجتمع الذين آمنوا وتُذَكِّره لاسيما من ارتكب تلك الجرائم ، ان عقوبات الدنيا لا تكفي زجراً بغير التقوى الضابطة عن الآثام الكبيرة والصغيرة وان يكون جهد المجتمع بعد بسط التقوى ابتغاء الوسيلة التي تقرب إلى الله

من الأعمال العامة والصالحات ، لا البغي والجرائم الكبيرة الصارفات عن الله . وان يبذل طاقته جهاداً في سبيل الله ، لا حرابةً وإفساداً في الأرض .

والرجاء في التقوى لله وابتغاء وسائل القربى والجهاد في سبيله الفلاح يوم القيامة وفي الحرابة والإفساد الخزي والعذاب العظيم .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). (36)

الآية بعد ذكر العقوبات في الدنيا للبغي وبعد تذكير المجتمع بالتقوى والقربى إلى الله وصرف الطاقة في الجهاد، تعظ الذين كفروا فتفلتوا عن تقوى الله وأسرفوا فساداً في الأرض طلباً لمتاعها جميعاً — تعظهم – مهما شددت عليهم الآيات السابقة رادع العقوبات في الدنيا – أن لو كان لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه وطلبوا بضعف ما حازت الأرض من ثروات أن يقدموها فدية من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ذلك بل لهم عذاب أليم .

(يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) (37)

هؤلاء الذين خرجوا على حدود الله وشرائعه فقتلوا وأفسدوا لن يخرجوا من النار يوم القيامة مع تمنيهم للخروج فلهم خلود وعذاب مقيم في النار ولن يجدوا للخروج سبيلاً .

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (38)

السياق يتصل في ذكر الآثام والجرائم التي تهدد سلام مجتمع المؤمنين فبعد الحرابة والقتل والإفساد فيما سبق الآية تذكر السارق والسارقة فتأمر بقطع أيديهما ترتيباً على الجريرة ، فهذا القطع إنما يقع جزاء بما كسب سارق أو سارقة ، ونكالاً يعتبر به ويتعظ من تسول له نفسه مثل ذلك الجرم . والله عزيز أنزل هذه العقوبة وكتبها على الناس فهو لا يقبل ظلم عباده وترويعهم وسرقة عملهم وكسبهم ، وحكيم بما نزل هذه العقوبة جزاءً على جريمة السرقة ردعاً لظاهرة العدوان وأمناً للأموال .

(فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (39)

فمن تاب من بعد ظلمه بتلك الجريمة من سرقة وأصلح من بعد بقية سيرته في الحياة فالله قطعاً يتوب عليه (وإذا تأكدت توبته قبل البلاغ للحاكم وترفع عنه العقوبة المحددة) . والله غفور لمن تاب حتى عن ذلك الإثم الكبير ، ورحيم يرحم التائب من بعد المغفرة ، ويرفع الوزر في الدنيا ويوم القيامة ويهب حسن الثواب على المتاب .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (40)

الآية تختم سياق أحكام العقوبات بتذكير المخاطب بالقرآن سؤالاً عما هو معلوم أن لله الملك المحيط الشامل للسماوات والأرض ، فهو عزيز بملكه وحكمه يعذب من يشاء كاتباً عقوبة على العدوان ورحيم لمن يشاء كاتباً المغفرة على التوبة، والله على كل شئ قدير متصرف فيه بالعلم والحكمة وليس لبشر ان يحتج على أحكامه ، إذ النفوس والأموال لله لا يستبيحها أحد إلا بالحق ولا يستعظم العقوبة للعدوان عليها أو يستبعد التوبة من بعد . بل لله الملك والمشيئة والمقدرة كما علم الإنسان.

***

عموم المعاني

الآيات (33 – 40)

العظة من تجربة الإنسان الأولى في الجنوح أحياناً للقتل رغم حرمة الحياة وأصلها من نفس واحدة ، إن روح العدوان مفطورة في النفس البشرية لو تركت بغير ضابط رادع قد تستشري عدواها وتثور بها الثأرات حتى تجتاح الناس ، فكأنما القتل لنفس واحدة بغير الحق هدم لأصل وحدة النفوس إحاطه بالناس جميعاً ، بينما إبقاء حرمة الحياة للنفس الواحدة كأنها حفظ لأصل الحياة والناس جميعاً.

من أجل ذلك جاءت الرسالات لبني إسرائيل تذكر تلك الموعظة وبتدابير الردع اللازمة ومن بعد يمضي الكثيرون في الأرض إسرافاً في القتل . ولذلك سنة كتاب الله أنه لا يشرع لصد خطر الذين يحاربون دين الله ونظام المؤمنين بقيادتهم ، ويسعون بحرابتهم فساداً في الأرض ، إلا أن يردعوا بجزاء التقتيل أو الصلب أو قطع الأطراف من خلاف قصاصاً أو ينفوا من الأرض كفاً لفسادهم ، وذلك لهم خزي في الدنيا يتبعه في الآخرة عذاب عظيم .

وما شرع الله ذلك من عقاب ووعد من عذاب إلا جزاء ثم دفعاً نحو التوبة فمن تاب من العصاة قبل أن يتمكن أحد من إيقاع العقاب به، فعلي المجتمع أن يعلم أن الله غفور رحيم ، وليرفعوا عنه عاجل الجزاء .

الفساد ليس من خلق المؤمنين وليس من خلقهم السعي نحو إعمال قوتهم في سبيل الفساد ، إنما ينبه الدين المؤمنين التائبين إلى الله أنهم يتقون الله انضباطاً من العدوان على الحرمات ويتبعون العمل الصالح وسبل القربى لا العدوان وسيلة للفساد الكبير ، ويبذلون طاقتهم جهاداً في سبيل الله لا في سبيل أهواء المكاسب الباغية .

أولئك المؤمنون وأعمالهم ومصائرهم ، أما الذين كفروا وركبوا الحرام وأسبابه دون تقوى الله ووسائلها وافرغوا جهدهم في سبيل العدوان لا في سبيل الله ، فإنهم مهما جمعوا من كسب حرام ولو كل ما في

الأرض جميعاً ومضاعفاً لما أجداهم ذلك فداءً من عذاب يوم العقاب ، ولما تقبل منهم كما يتقبل الله صالحات الأعمال من المؤمنين. ولو استدركوا خطر عذاب النار يوم القيامة لمن خرج من حدود الله في الدنيا ثم أرادوا الخروج من الجزاء ما خرجوا ، ذلك عذاب مقيم وقد كان المتاب مفتوحاً لهم من عذاب في الدنيا من قبل أن يتمكن منهم المؤمنون ومن عذاب الآخرة عند الله العفو الرحيم .

ومن الخوارج على حدود الله — أيضاً — السارقون، وهؤلاء عقابهم في الدنيا الحكم قضاءً بقطع الأيدي الممتدة لكسب الحرام عدواناً على حرز ملكية ومخاطرة الآخرين، وذلك العقاب نكال من الله العزيز الحكيم الذي ينزل عزته في مواقعها كفاً وردعاً للظلم وحفظاً للحق لمن تاب من بعد ظلمه وأصلح عمله فطلب العفو ورد الحق لمن جُنيَّ عليه ، فذلك يرفع عنه النكال ومن كفرَّ بصالح العمل من بعد فإن الله غفور رحيم .

ومعلوم أن لله ملك السماوات والأرض من كل المال والناس مستخلفون مبتلَوْن فيه ، وكل السلطان — له سبحانه — يحكم فيهم حيثما شاء ، يعذب من يشاء من الظالمين ويغفر لمن يشاء من التائبين وهو قدير —كل شيء لله — عاجلاً وآجلاً .

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(41)

الخطاب يتوجه للرسول ﷺ وفي سياق الأحكام والشرائع والمواثيق التي كتبها الله – سبحانه – في المدينة – مجتمع المؤمنين الذي لم يأمن بعد من ظواهر الحرابة والقتل والسرقة في حال انتقال وتطور . والآية توصي الرسول ﷺ في سياق مكابدته لإبلاغ هذه الأحكام – ألا يحزن في ذلك المجتمع على الذين يسارعون في الاستجابة لمواقف الكفر لأنها تعبر عن بقية في نفوسهم أو توافق أهواءهم ورغباتهم من المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم مشايعة للدين الذي ظهر على المدينة ولكن قلوبهم خالية من الإيمان ، وكذلك من اليهود .

فالمنافقون واليهود في مجتمع المدينة كانوا كما وصفتهم الآية سماعين للكذب الذي يرويه سادتهم وأحبارهم عن كتابهم افتراءً على الله لإشاعة الكفر بالقرآن ، وقد كانوا سمَّاعين مصدقين لفئة أخرى غير الرسول ﷺ – فئة لم تأت الرسول بل أحبار يكرهون أن يأتوه فيرصدونه عبر أخبار جواسيسهم ، وهم يحرفون كلم شريعتهم من بعد مواضعه ويتأولونه ولا يريدون ان يقوم ذلك الرسول بتلاوة آيات الأحكام من القرآن ، بل يروجون تأويلاتهم ، ويقولون لجمهور أتباعهم إن أوتيتم مثله من محمد ﷺ فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا من كلامه . فالوصية للرسولﷺ ألا يحزن على كذبهم وصدودهم وتحريفهم فقد فعلوا

ذلك مع كتبهم من قبل، فهم مازالوا على أخلاق الضلالة يوصي بعضهم بعضاً ألا يأخذوا من أحكام الله إلا تأولاً وفاق أهوائهم .

هؤلاء المنافقون إن أتتهم الأحكام شديدة سواء للشريف والوضيع ، أخذوا حذرهم منها وبحثوا عن تأويلات أخرى ، هؤلاء أراد الله أن يوقعهم في فتنة افتراء الكذب والتحريف لشرع الله ، ويسلي الرسول ﷺ عن الحزن عليهم أَن لن يقتدر على أن يرفع عنهم ولو شيئاً مما قضى به الله عليهم من فتنة ، فأولئك هم الذين لم يرد الله لقلوبهم طهراً من هوى الحيل والافتراء والحسد والصدود. أولئك لهم في الدنيا خزي وفي الآخرة عذاب عظيم كما هو مصير من تَحْملهم حَملتهم تلك إلى الحرابة لله ورسوله والسعي في الأرض فساداً[129].

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ[130] فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (42)

الآية موصولة إلى ما قبلها في شأن الذين يسارعون في الاستجابة للكفر بأحكام الله من المنافقين ومن أهل التوراة السماعين للكذب والافتراء على شرع الله وأحكامه ، وهم أولى أن يكونوا أشد تسمعاً في بينات الأحكام للكذب من الشهود يبتغون من وراء سمعهم وتجاوبهم أن يأكلوا سحتاً من مال الذين يمالئونهم ظلماً – يكسبون سحتاً حراماً ممحوق البركة ويترتب على خلق التسمع للكذب والأكل السحت ، أن إذا جاء هؤلاء في المدينة إلى الرسول ﷺ يجوز له أن يحكم بينهم في خصوماتهم المرفوعة أو أن يعرض عنهم ويدعهم لشرائعهم وإجراءات قضائهم . وإن أعرض عنهم وصرف عنهم شريعة الله وحكم رسوله فلن يضره ذلك شيئاً منهم ما داموا ينصرفون عن أصول الإيمان بحكم الله، وإن حكم الرسول فعليه أن يحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ومن اتبع حكم الله واستحب القسط حباً لله ، أحبه الله ورضي عنه في الدنيا والآخرة .

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)(43)

الخطاب في الآية للرسول ﷺ وقد جاءه أهل الكتاب من اليهود لا يبتغون من وراء طلبهم تحكيمه ، إلا أن يكون الحكم هيناً موافقاً لما انحرف إليه عرفهم من جلد وتحميم – تفحيم الوجه– بدلاً عن الرجم حصانة لشرفائهم الزناة . والسؤال في الآية استنكاراً لموقف الذين يتولون عن التوراة الكتاب الذي عندهم ويحكمون الرسول ﷺ ليفصل في قضاياهم ، ثم يتولون عنه من بعد الأحكام لأنهم ينشدون

---

[129] الآية 33 سورة المائدة

[130] قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (السحُت) بضم الحاء

حكماً من القرآن موافقاً لأعرافهم ، وهم لا يؤمنون بالقرآن أصلاً . أولئك ليسوا بأهل الإيمان ولا من المؤمنين بكتابٍ أو شريعةٍ من الله.

(إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِأَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (44)

الآية تُذكِّر الذين حَكَّمُوا الرسول ﷺ في أقضيتهم بأن الله من قبل قد أنزل لهم التوراة من ملئه الأعلى وفيه هدىً يهديهم إلى سبل السلام والحكم في مسائل الحياة ، ونور يخرجهم من مشكلات الحياة وظلماتها تنزيلاً للهدى وتفصيلاً ، وهو ما جاء به الرسول ﷺ ، كما سبقت الآيات[131] . وهو نهج النبيين فيهم الذين أَسلموا لشريعة الله يحكمون بها للذين هادوا – تابوا إلى الله من بني إسرائيل ، ويحكم بها فيهم الربانيون الذين ابتغوا وسائل القربى إلى الرب وانتسبوا إليه، ويحكم بها كذلك الأحبار العلماء وذلك بما عهد الله جميعاً من أمانة حفظ الكتاب وعلم ما فيه من الهدى والنور ، وبما كانوا لذلك أول من أسلم بالكتاب وكانوا عليه شهداء يبلغونه ويتلونه في الدنيا وهم شهداء على عمل الناس بأحكامه يوم القيامة . وقد خوطب الربانيون والأحبار ألا يخشوا الناس الذين يحملون بأهوائهم وعاجل مصالحهم على ميزان العدل بأحكام الكتاب والدعوة إليها، بل يخشوا الله الذي له ملك السماوات والأرض وألا يقبلوا بيعاً أو شراءً أو مساومة في أحكام الله فيشتروا بآياته العظيمة في الدنيا والآخرة الثمن القليل الذي لا يوازي أجره الكثير ، ولا يفدى من عذابه يوم القيامة . ومن هجر ما أنزل من أحكام الكتاب ولم يبلغها أو لم يحكم بين الناس فأولئك هم الكافرون بها الذين حجبوا هداها ونورها.

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ[132] بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ[133] بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ[134] قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(45)

وقد كتب الله وفرض بكل قضائه الأحكام التي فصلها ونزلها في التوراة هدىً ونوراً وعدلاً ، كتب فيها على بني إسرائيل أن من قَتل نفساً يُقتل نفساً بنفس ، ومن فقأ عيناً تفقأ عينه ومن جدع أنفاً تجدع أنفه ، ومن قطع أذناً تقطع أذنه ، ومن كسر سناً تكسر سنه، والذي جرح يجرح قصاصاً . ولكن من عفى عن قصاصه وتصدق بالعقوبة ابتغاء مرضاة الله فان الله يُكَفِّر له بهذه الصدقة ذنوباً .

---

[131] الآية 15 سورة المائدة والآية 16 سورة المائدة

[132] قرأ الكسائي (والعين، والأنف ، والأذن، والسنُ) بالرفع

[133] قرأ نافع الأذن حيثما وقع بسكون الذال

[134] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي (والجروح) بالرفع

وقد أسست الآية العقوبات على العدل والمساواة بين النفوس تتكافأ حياتها ذكورةً أو أنوثةً وحريةً أو رقاً (إكمالاً لأحكام القصاص في النفس التي تليت في الآية 178 من سورة البقرة) فالمجتمع الذي لا يقيم أحكامه على هذه الشريعة فلا يحكم بها ، أولئك هم الظالمون الذين لا تتكافأ عندهم خشية الناس نفوس الشرفاء والضعفاء بميزان الحق المنزل بل يشترون بحكمه العدل التعاوض بالمال القليل مهما بدا مجزياً كثيراً .

(وَقَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَءَاتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ). (46)

واتحدت السنن الشرعية كما اتحدت أمة الأنبياء ورسالتهم عبر القرون ، وأتْبعَ الله الآثار المتقدمة لبني إسرائيل بعيسى بن مريم عليه السلام ، فجاء مقتفياً آثار اليهود وأنبيائهم وأحبارهم وربانييهم ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة غير ناسخ لشرعها . وآتاه الله تعالى الإنجيل فيه هدي إلى سواء السبيل ونور يخرج من الظلمات ، بعد أن ضل بنو إسرائيل وغشيتهم الظلمات، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، يحيي ما كتمه أو عطله وتأوله الربانيون والأحبار خشية الناس، واشتروا به ثمناً قليلاً . وفي الإنجيل تماماً للدين هدىً وموعظة للمتقين ، تجديداً لهدى الأخلاق وموعظة النفوس للمتقين الله بباطنهم ، بعد أن ضعف فقه الأحكام وغلبت النصوصية التي أهدرت مقاصد النيات وبسطت الحيل الظاهرية ، مما أصاب بني إسرائيل فأضحت شريعتهم إشكالاً بغير تقوى .

وقد تأكد في الآية تصديق عيسى لما بين يديه من التوراة بتصديق الإنجيل لها ، لأن كفر النصارى جاء من استمساكهم بأن عيسى – عليه السلام – نسخ الأحكام والقانون وبذلك فسقوا من أحكام التوراة باسم الروح التي جاءت موعظة تصدق وتحيي .

(وَلْيَحْكُمْ[135] أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (47)

الآية تقيم الحجة وتكتب الأمر أمام النصارى أهل الإنجيل بأن يحتكموا إلى كتابهم بما أنزل الله فيه من تصديق لأحكام التوراة وشريعتها ، ولقد فسق النصارى منها باسم الروح التي جاءت موعظة تحيي التوراة وتصدق غير ناسخة. وقد عزلوا الأخلاق والموعظة والتقوى من قانون الشرع المكتوب وجعلوها لله وجعلوا لقيصر السلطان . ومن فسق وخرج بتلك العقيدة خشية لسلطان الدنيا لا لسلطان الله ، وبيعاً للدين بأكل صدقات الرعايا ثمناً قليلاً — من لم يحكم — بما أنزل الله من أولئك هم الفاسقون .

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (48)

---

[135] قرأ حمزة (وليحكم) بكسر اللام والنصب

السياق يتصل في الآيات بذكر الرسل وشرع الكتاب المنزل من الله يتصل عبر سيرهم في التأريخ . ويتوجه الخطاب في الآية للرسول الخاتم الذي أنزل الله – تعالى شأنه – إليه الكتاب بالحق فهو لا يفترِيه من عند نفسه –كما ادّعى أهل الكتاب – بل هو مصدق لما قبله من كتاب وجده أمامه بين يديه . ويتكرر لفظ الكتاب ليتأكد أن كل الكتب كتاب واحد من عند الله أمام رفض أهل الكتاب – اليهود والنصارى – للتنزيل الجديد تعصباً وطائفية ، وهو كتاب مهيمن على ما قبله من الكتب يقوم شاهداً عليها ومثبتاً لأصولها وناسخاً لبعض فروعها .

والخطاب للرسول ﷺ أن يلتزم حكم الله في القضايا بينهم ولا يتبع أهواءهم التي تكره الأحكام الرادعة ، وتريد انصرافاً عما جاءه من الحق إلى أعرافهم وتأويلاتهم المبدلة لشرع الله ، كفراً وظلماً وفسقاً ، وأمراض نفوسهم حسداً وعصبية وكفراً بالجديد .

وإن قدر الله أن جعل لكل منكم شرعة يبدأ منها وجهة السير ومنهاجاً يسير عليه ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة على ذات الكتاب والهدى والنور والحق الدائم شرعة ، وعلى ذات التصديق سلفاً وخلفاً والسنة المقتفاة منهاجاً ، ولكن تختلف بكم الظروف والابتلاءات ويمتحن الله كلاً مما يليه أمماً ، فاليهود جاءهم الهدى أول مرة وطال عليهم الأمد فقست القلوب وتبدلت التعاليم بالبلاء ، ومنعهم حسدهم وتعصبهم من الإيمان بما جاء بعدهم من حق تجديد عيسى عليه السلام ، والنصارى جاءتهم الشريعة مصدقة ما قبلها تحيي ظاهره بالتقوى باطناً، لكن الطائفية دعت لإنكار الشرع القديم ، ثم جمد اليهود والنصارى على تقاليدهم في وجه الرسالة المصدقة لكل تركة الإسلام — منذ إبراهيم – المجددة للناس كافة .

والله لو شاء وحدهم كرهاً على الحق ولكنه يترك كل أمة تبتلى بما جاءها وما وافاها ، ويتركها على مشيئتها تستبق الخيرات وتنافس ، وإلى الله مرجعكم جميعاً كلاً بخيرته وفق شريعته ومنهجه ينبئكم حين تلقونه بالحق في الذي كنتم تتناظرون وتتجادلون فيه وتختلفون .

(وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) (49)

الآيات تتوالى في السياق تؤكد على الرسول ﷺ قائد مجتمع المؤمنين بالمدينة التي تغشاها الثقافات الملية المختلفة أن يلتزم أحكام الله التي أنزلها في كتابه. وألا يتبع أهواءهم في أحكام يرغبونها أو عن أحكام يرهبونها ، وأن يحذرهم أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه فيركن إليهم قليلاً ، ويراضيهم مساومة بتعطيل بعض الأحكام التي كرهوها بأهواء التقاليد والشهوات ، فإن استفزهم ذلك تولوا عنه عصبية فأعرض عنهم كما سبق لن يضروه شيئاً ، وليعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم يمضون

في ضلال بالهوى لغير هدى فيلقون المصير جزاء وفاقاً . وإن كثيراً من الناس الفاسقون يلتمسون شعاب الوسيلة ليفسقوا من ضابط الشرع والدين .

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ[136] وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (50)

استفهام يستنكر على مجتمعات أَهل الكتب السماوية الفتنة التي تطبق عليها أحياناً حتى ترتد وتبغي حكم الجاهلية شرعاً موضوعاً بالهوى بغير دين الله ، خوفاً وخشية من قوى أَو هزيمة فكرية ونفسية إزاءها ، فالجاهلية حالة اجتماعية يسكت فيها العلماء عن حكم الله ويغفل فيها المجتمع عن شريعة الله ومنهاجه. ومن أحسن من الله حكماً بميزان الحق والعدل الأعلى الذي هو الأحسن الأهدى فوق أهواء البشر ، إذا قام الدين في نفوس قوم واطمأنت قلوبهم واستيقنت إيماناً بالله أعدل الحاكمين شرعاً وأحكمهم يوم الدين قضاءً .

***

إجمال الآيات 41 – 50

الخطاب القرآني الخالد لمن يؤدي رسالة التجديد للإيمان بشريعة الإسلام ألا يحزن للمسارعين – في عهد ذلك الانتقال – إلى الكفر بالشريعة من ذوي المنافقة انتسابا ظاهراً وقولاً إلى التجديد وجموداً باطناً وفعلاً على العرف القديم، ومن ذوي الموروث الديني القديم كمواقف بعض اليهود في صدر الإسلام الذين يرجعون إلى قيادات تقليدية سماعين للكذب في رواية أصول الدين، سماعين لمن لا يتعرضون لنفح الجديد بل يعتزلونه مُصْدِرين الفتاوى التي تنحرف بكلمات الدين عن سياقاتها الأصلية بتأويلات مبتدعة ، موصين أتباعهم إن أوتوا مثل تلك الفتاوى لدى المجددين أن يأخذوا وإلاّ فليحذروا . تلك ظاهرة عهد التجديد– فتنة تعصب قد لا يملك المجددون شيئاً لتجاوزها ، فالله يبتلي بها البعض لا تتطهر قلوبهم منها ليقضي الله أن يتخذوا في الدنيا مواقف خزي ويمضوا في الآخرة إلى عذاب عظيم .

إن المعارضين للجديد يكثرون السماع اتباعاً لفتاوى متقادمة بتأويلات كاذبة لأصول الحق، ويكثرون أكل السحت الذي يتكسبونه من نهج المعاملات التي تؤول إليها الأعراف التقليدية حيلاً باطلة ، إن حامل أمانة الشرع الحق المتجدد إن جاء أولئك في قضائه فله أن يحكم بينهم به أو يعرضون ويخليهم لباطل أهوائهم لا يخشى هو من ذلك ضراً، ومهما كانت مواقفهم فإن حكم بينهم قاضي الحق فليكن ذلك بالقسط إن الله يحب المقسطين لا سيما في حال الابتلاء باضطرابات الانتقال نحو الجديد .

وكيف يتحاكم أهل القديم إلى إمارة الحق المتجدد مرتابين وبين أيديهم من قبل أصول الحكم الحق الخالد، كما كانت تلك الأصول في التوراة عند اليهود حمّلوا أمانتها فضيعوها وكانوا يقبلون على حكومة الشرع المتجدد برسالة محمد ﷺ ثم يتولون من بعد وما هم به بمؤمنين. إن تلك الظاهرة من انحراف تقاليد الحكم العرفي الوضعي عن حكم الشريعة الخالدة المتجددة أبداً أن يتذكروا كيف أن الله من قبل أنزل

---

[136] قرأ ابن عامر (تبغون) بالتاء

التوراة لليهود فيها هدى من ضلال الأهواء ونور من ظلمات الجاهلية وكان يحكم فيهم بها النبيون الذين أَسلموا القضاء لشرع كتاب الله كما خلفهم على تلك السنة الربانيون والأحبار يحكمون بما استحفظوا من أمانة ذلك الكتاب وكانوا الشهداء على علمه وحقه ، وقد أمروا أن يستقيموا على حكم الله فلا يخشوا الذين يسعون لفتنتهم من يدلون بنفوذ المال ورشوته. إن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون لا المؤمنون مهما زعموا نسبة لتراث الإسلام لله .

إن حكم الكتاب المنزل من الله العلي هو حكمه العدل وميزان السواء بين الناس . فالله من قبل أنزل لليهود في التوراة أن النفس بالنفس قصاصاً بعد القتل العمد وكذلك الأعضاء والجروح إلا من أوذِيَ وتَصَدَق عفواً فتلك كفارة لذنبه ، إن من لم يحكم بذلك فأولئك هم الظالمون المائلون بقضائهم عن ميزان العدالة والمساواة وعن تكافؤ حرمات بني آدم الشريفة أو الضعيفة حيثما وقعت بينهم علاقة الجناية .

إن الله قد قفا على آثار تلك السنة العادلة في الحكم بأن بعث عيسى – عليه السلام – مصدقاً ما بين يديه من سنة التوراة الشرعية وآتاه الإنجيل هدىً ونوراً كالتوراة مصدقاً لها وهدايةً وموعظةً ، خاصة للذين لا يحيلون أحكام شريعتها إلى نصوص يحرفونها وظاهريات يتأولونها كاليهود الخالفة ، بل إلى صدق وإخلاص للمتقين. وكان الأمر أن يحكم الإنجيل بما أنزل الله فيه من تصديق الشرع وتقوى الله فيه ، ومن لم يحكم كذلك فأولئك هم الفاسقون الذين يمرقون من حكم الله بفنون التأويل الناسخ ويلجأون إلى ما وضعته أهواء الذين احتكروا التدين اختصاصاً ومهنة . وقد غلب ذلك الفسوق على عالم النصارى في القرون الوسطى واستفز سلطان الدولة فخرج بأهوائه السياسية واستقل عما بقي من الدين وقانونياته الكنسية فصالاً بائناً بين الدولة والدين .

وقد أنزل الله القرآن من بعد مصدقاً لما بين يديه من أحكام الكتب السابقة ومهيمناً على ذلك تثبيتاً لقيم الشريعة التي تنزلت حقاً خالداً ونسخاً لبعض الأحكام التي كانت ظرفية ، فينبغي على النبي محمد ﷺ وكل ذوي الولايات الخالفين على أهل الملة الكتابية الحنفية أن يحكموا بما أنزل الله من الحق ، ولا يتبعوا مِثل سابق الأهواء التي جنحت بأهل الكتاب وسلطانهم حتى إلى الفسوق . ذلك قدر بالتاريخ أن يتخذ كل قرن ابتلي بتراث كتاب منزل شرعته الخاصة أهدافاً للحياة ومنهاجه سبلاً نحوها ، وكان لله لو شاء أن يقضي وحدة الملة عبر التاريخ ولكنه – سبحانه وتعالى – بقدره يقلب ابتلاءات الأيام أحوالاً مختلفة ، وينزل رسالاته خطاباً مُعيناً لتتنافس القرون في الدنيا ويستبقوا نحو مقاصد خيراتِ الحياة كل حسب ابتلائه وكسبه ويكون مرجعهم في الآخرة إلى الله جميعاً إذ ينبئهم بما كانوا فيه يختلفون ويؤتيهم نصيبهم من الحق والمصير .

وإنما على النبي الخاتم ﷺ ثم على كل قائد للمؤمنين من بعد في ضوء ذلك الابتلاء الديني المتجدد أبداً ، أن يحكم بين أهل القديم الكتابي بما أنزل الله ، وألا يتبع أهواءهم العرفية ، وأن يحذر فتنتهم له بضغوط التقاليد ولو عن بعض أصول الشرع المنزل. فإن أبوا تقدماً عن القديم وتولوا عن الجديد فليعلم أَنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم نصيباً من ضلال ، وإن كثيراً من الناس في سنن التأريخ لينتهون بعد الكفر والظلم إلى الفسق في أمانة شريعتهم الدينية ، وكيف يترك أهل التراث الكتابي ما أنزل الله من أحكام ويرتدون إلى الوضعيات الجاهلية ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون بميزان الحق ؟

إن الإسلام قد تجدد عبر الرسالات والكتب وحياً بذات أصول الأحكام المتصادقة ، لكن التقادم والأهواء العرفية قد تصرف عن ذلك الحكم الحق وحيثما تجددت الأحكام وتأكدت بحركة تذكير ، جمد البعض على القديم متأخرين وصمد المؤمنون متقدمين على الأصول المتجددة . وكذلك كانت السنن بعد الرسول ﷺ خلافة راشدة ثم انصراف وجنوح عن الشريعة بغواشٍ من الكفر والظلم والفسوق ، تصيب القادة من فتنة السلطان ، وتصيب ورثة العلم الديني ممن لا يحفظون الأمانة بل يحرفون الفتاوى رهبة لغير الله من المتكبرين ، ورغبة في مصالح دنيا عاجلة ، ثم يقيض الله أهل نهضةٍ تائبةٍ إلى الله ، توحده غايةً للرهبة والرغبة ومرجعاً للشرع الحاكم والحق اللازم .

ترتيل المعاني
الايات (51–58)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (51)

اليهود والنصارى بعد أن تركوا أحكام دينهم وهديه وشرعه ومنهاجه، يطمعون في المدينة في أن يبسطوا نفوذهم ويحولوا ولاء المسلمين من حكم الله إلى متابعة أهوائهم، والخطاب في الآية –كما خوطب النبي[137] للمؤمنين لأن اتباع أهواء أهل الكتاب والوقوع في فتنة التأثر والاقتداء بهم قد تنتهي بالمؤمن إلى موالاتهم فيكون معهم بمشاعره ومواقفه . وأهل الكتاب في وجه المسلمين بعضهم أولياء بعض يعملون معاً من أجل إنفاذ أهوائهم ، ومن يوال اليهود والنصارى يكن منهم بقدر موالاته لهم ومن يتول ثقافتهم ومواقفهم بالكلية يكن منهم بالكلية ويكون حكم التعامل معه مثل أحكام التعامل معهم. والله لا يهدى من يظلم نفسه ويحاد الله ورسوله والمؤمنين فيحول محور ولائه إلى اليهود والنصارى .

[137] الآية 49 سورة المائدة

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (52)

فمن أولئك الظالمين من يراهم الرسول ﷺ والمؤمنون بينهم : جيوب منافقين في المدينة من الذين اظهروا إيماناً ولكن قلوبهم ظلت مريضة بأهواء الدنيا ومخاوفها ومغانمها العاجلة ، فهم يسارعون في موالاة اليهود والنصارى ولا يسارعون لطاعة الله والامتثال لأَحكامه كما هي صفة المؤمنين في القرآن . وقد أوصت الآية السابقة[138] الرسول ﷺ ألا يحزن على هؤلاء المسارعين إلى ولاء الكافرين، فهم يعلنون أن الخوف هو الذي يحملهم على ذلك ، فهم لا يخشون الله ولكن يخشون أن يصيبهم الناس بدائرة حصار من الخارج ، أو تدور عليهم دائرة أزمة معاش أو اضطراب في الداخل ، فيلتمسوا مخرجاً من أوليائهم. ولكن الله يُذكرهم بأن من لدنه — تعالى – المرجو ، أن عسى أن يَمُنَّ على الرسول والمؤمنين بالفتح فتنكسر دائرة الحصار عنهم ، أو يأتي أمر خير من الله دون ذلك يحمل نصراً وفرجاً للمؤمنين، فيصيب المنافقين عندئذ الندم على ما أسروا في أنفسهم المريضة خوفاً وموالاة لأهل الكتاب .

﴿وَيَقُولُ[139] الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (53)

(ويقول) في أول الآية قُرئت بالفتح أو الضم مترتبة عما عسى أن يأتي به الله في الآية قبلها ، إذ يصبح المنافقون نادمين على ما أسروا في أنفسهم ، وينخذلون عن أوليائهم الذين كانوا هم يسارعون فيهم . ويقول المؤمنون لأوليائهم أهؤلاء الذين أَقسموا لكم جهد الأَيمان وأغلظه أنهم معكم موالاةً ونصرةً ، حبطت أعمالهم بأن دارت الدوائر على غير ما يخافون ، فأَصبحوا نادمين على موقفهم ، خاسرين كل ثمرة يرجونها من تلك الموالاة دنيا وأخرى .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ[140] مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. (54)

الخطاب للمؤمنين في سياق الابتلاءات والتحديات التي قد تحيط بالمجتمع المؤمن والتي اكتنفت مدينة الرسول ﷺ بعد أن أَصبح للإسلام قيادة ودولة تكتنفه حركة كثيفة من أعوانه داخل معسكر الإسلام وخارجه ، وجماعات من المنافقين يضطرب موقفها تدخل الإسلام تتذبذب ولاءاتها بين هؤلاء وأولئك إذ لم يرسخ الإيمان عند كثيرين، فالخطاب للمؤمنين أَن من يرتد منهم عن دينهم وصفهم عن نفاق وذبذبة لن يضرهم ، فإن الله سيهيئ لدينه قوماً يأتي بهم الله يخلفون المرتدين عوضاً راسخاً إيمانهم

---

[138] الآية 41 سورة المائدة

[139] قرأ نافع وابن كثير وابن عامر (يقول) بحذف واو العطف ، وقرأ أبو عمرو (ويقول) بالنصب

[140] قرأ نافع وابن عامر (يرتَدِدْ) بدالين

يحبهم الله ويحبونه. يبلغ ولاؤهم للمؤمنين مبلغ الأخوة والذلة في الله واستقلالهم عن ولاء الكافرين مبلغ العزة يرون أنفسهم أعزة فوقهم بالإيمان ، لا يسارعون في الكفر ولا في أهله خشية من أن تدور عليهم دائرة ولكن يجاهدون مخلصين في سبيل الله طلباً لدائرة النصر المبين ، لا يخافون لومة لائم من الكافرين ولا يزنون مواقفهم وفق أهواء الآخرين قوم ثابتون بالحق . وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده والله واسع يدخل في سكينته من يشاء ليطمئن قلبه عبر كل البلاءات والعلاقات، عليم بمن يذل ويعز في الله ويجاهد في سبيل الله ولا يخاف إلا الله ويحب الله فيحبهم .

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) (55)

الآية تشرح الولاء وتؤكده وتوحده كله لله، فالمؤمنون مالهم من ولي إلا الله ورسوله الذي جاء بالهدى من الله والمؤمنون الذين آمنوا بالله صدقاً ، فهم يقيمون الصلاة صفاً واحداً متوالياً موصولاً متوجهاً نحو الله وحده ، ويؤتون الزكاة من أموالهم تجاوزاً للشهوات ورجوعاً بالمال المستخلفين فيه إلى أمر الله مالكه الواحد الأعلى وموالاة به وتوحداً مع مجتمع المؤمنين ، وهم راكعون طاعة لله بالصلاة والزكاة لا خوفاً من السلطان . والآية تربط الصلاة وصَفَّها والزكاة وتكافلها بما سبق ، مقابلةً بين توالى المؤمنين بهما ومسارعة المنافقين في موالاة الآخرين ، وبين الركوع بهما لله خالقاً ورازقاً ، والردة لمن ترك الصلاة والزكاة لا يذل لله ولا المؤمنين ، ولا يقوم معهم مجاهداً بوقته وماله لله ولا يركع ويعطي يخشى الله وحده كما سبقت الآية [141].

(وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (56)

الآية بعد توحيد الولاء لله وللرسول الذي جاء برسالة من الله وبالمؤمنين الذين آمنوا بالله، تجعل هذا الولاء الموحد الموصول بالله الواحد صلاةً لله وزكاةً ، توجهاً له وطاعة له وصفاً وتكافلاً في عبادته – تجعل من المتوالين هذا الولاء حزباً واحداً تضمن على أنهم هم الغالبون في مجادلات الحق والباطل ومجاهدات المؤمنين والكافرين .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ[142] أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (57)

خطاب تنبيه للذين آمنوا يؤكد معنى الولاء المؤسس على التوحيد ، فهو ولاء إيمان ودين لا ولاء خوف ومصالح عاجلة ، فالذين اتخذوا دينكم هزواً به يسخرون أو جعلوه لعباً بذكره يلهون من الذين

---

[141] الآية 54 سورة المائدة

[142] قرأ أبو عمرو والكسائي (والكفارِ) مجرورة

أوتوا مثل هذا الكتاب من قبلكم اليهود والنصارى ، ومن الكفار المشركين والمنافقين . لا تتخذونهم أنتم أولياء توالونهم، بل التزموا تقوى الله إن كنتم حقاً مؤمنين لا يتخذون الولاء لغير المؤمنين ولا الذين يسخرون من دينهم ولا يظنونه إلا عبثاً .

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ (58)

ويذكر المؤمنون تحريراً من ولاء أهل الكتاب والمنافقين والمشركين الذين اتخذوا دين المؤمنين هزواً ولعباً ، أن هؤلاء أيضاً إذا رفعتم صوت الأذان للصلاة عدوه هزوا ولعباً ، أن لم يكن صوت الإنسان معهوداً في النداء للشعيرة عند اليهود والنصارى بل البوق والأجراس . فهم يسخرون من كل خروج على منهجهم وطريقتهم ويعتبرونه شذوذاً يستدعي الهزؤ والضحك عبثاً لا طائل وراءه ، لا يعمدون لجد المجادلة وأدب المداولة والمعاملة مع مثل دينهم .

***

عموم المعاني

الآيات (51 – 58)

الخطاب للمؤمنين الذين تجدد بالإيمان دينهم ، مهما ابتلوا بالقيام في بيئة يسود فيها نفوذ الذين تقادم عهدهم فضلّوا بأهوائهم عن أصول الدين ، وبأعرافهم عن تعاليمه ولم يبق فيهم إلا النسبة إليه بالهوية . وأصبحوا يغارون حسداً من الدين الجديد وينكرون غربته ويخشون خطره ويسطون على أهله وطأة القوة وفتنة المنفعة التي تمكنوا من أسبابها – الخطاب للمؤمنين وهم قلة في نشوء ألا يقعوا في ولاء أولئك التقليديين – كاليهود والنصارى وأهل الدِّينيَّات الموروثة ، الذين قَرَّبت بعضهم إلى بعض صحبة التراث وشركة المنافع منه فتوالوا موقفاً ضد الجديد. إن من يُفْتَن من المؤمنين الناهضين فيقع في ولاء هؤلاء فإنه منهم يذوب في مذاهبهم ويندرج في ضلالهم ويتحد بمواقفهم ، فالله لا يهدي الظالمين الجائرين عن عدل الحق وعزة الدين وسواء الصراط المستقيم. إن تلك الظاهرة المشهودة في عهد بعث الإيمان نهضة التجديد للإسلام هي أن يسارع مرضى القلوب بأهواء الدنيا ومخاوفها ومغازيها العاجلة في الولاء لذلك النفوذ القديم القائم ، يعتذرون عن موقفهم بالخشية من أن تدور عليهم دائرة أزمة معاشهم أو أمنهم إذا قاطعوه فقطعهم أو جابهوه فجبههم ، ولا يرجون أن عسى الله أن يسعف المؤمنين المستضعفين البؤساء بفتح قريب أو فرج من عنده ، فيصبح هؤلاء المرضى نادمين على ما أسروا في أنفسهم من قبل تخوفاً وتوكلاً نحو غير الله، وعسى أن يتاح يومئذ للمؤمنين أن يقولوا لمن مال نحوهم

بالولاء فتنة من قبل: أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهداً إنهم معكم سقط ولاؤهم وحبط عملهم فأصبحوا خاسرين .

الخطاب للمؤمنين في مرحلة التجديد والانتقال قبل رسوخ الإيمان وتمكنه في المجتمع وفي سياق اجتماعي تكتنفه قوى الباطل من أهل الدين والعهد القديم المتهالك ، وتعمر فيه مشاهد تذبذب المذاهب والولاءات بين الحق والباطل – الخطاب أن من يرتد منهم عن دينه الحق في هذه الفتنة ، فالله غني مخلف عنهم عوضاً من المؤمنين الذين لا يزلزلهم بل يقويهم البلاء، والذين يخلصون الزلفى إلى الله فيحبّهم ربهم ويحبونه بغير شائبة إشراك، والذين هم في الله أذلة على إخوانهم المؤمنين أعزة على الكافرين مهما كانوا ذوي شوكة . إذا أجهدهم ذلك البلاء يجاهدون في سبيل الله صابرين ، لا يخافون لوم لائم على ما يبذلونه في ذلك السبيل ، أو دورة دائرة عليهم. وذلك فضل من زيادة الإيمان والتوكل يؤتيه الله من يشاء وهو واسع عليم .

لا ولاء لغير الله، فالله وحده الولي للمؤمنين معبوداً ومعزاً، والولاء من ثم للرسول الذي بعثه الله هادياً ومُتبعاً . والولاء من ثمرة ذلك لسائر الذين يؤمنون بالله وشريعته والرسول وسنته والذين تغذي إيمانهم وتواليهم وتعبر عنه سنة إقامة الصلاة – إذ يقومون متوجهين إلى الله موصولين إليه بطاعة الوجدان واللسان والأبدان في صف جماعة المؤمنين المرصوص، وإيتاء الزكاة حباً لله لا فتنة بالشهوة مما يعطيهم ربهم وتكافلاً مع مجتمع المؤمنين ، وهم في كل حال وحركة من الحياة راكعون لله ، منه الحول والقوة وإليه منهم مآبها. ومن يتول الله ورسوله والمؤمنين كذلك تواصلاً وتناصراً وتقارباً وتحزباً فإنهم حزب الله المتوحدين بتوحيد الله ، أولئك هم الغالبون في المجادلات والمجاهدات في وجه أولياء الشيطان وحزبه المتفرق .

إن الخطاب للمؤمنين ألا يوالوا ولا يتحزبوا لأهل الزعم الديني للقديم الذين أنكروا النهج المتجدد ، فاتخذوه هزؤاً وسخرية ولعباً واستخفافاً وعبثاً به ، من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ومن الكفار أهل الجاهلية ، أو من مثلهم بعصبية التراث القديم. فالخطاب للمؤمنين ألا يوالوا أولئك ليتقوا نفوذهم ، بل أن يتقوا الله وحده إن كانوا حقاً مؤمنين ، ذلك لا سيما أنهم إذا تنادوا إلى صلاتهم عماد العبادة والولاء لله وجماع صف المسلمين وتواليهم اتخذوها أيضاً هزؤاً ولعباً لأنهم لا يعقلون إحاطةً بمغازي تلك الشعيرة الخالصة ولا ضبطاً للتعامل بالحسنى في الدين وحُرماته بل تُفلت منهم معاني العبادة وتجنح بهم تعابير العصبية .

***

ترتيل المعاني

الايات (59–69)

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ) (59)

الآية تحمل للنبي ﷺ وللمؤمنين رداً جاداً على سخريات أهل الكتاب : أن يسألوهم فاضحين من وراء استهزائهم ، أنهم لا يلومون المؤمنين ناقمين منهم إلا الإيمان الجامع بالله وما أنزل من كتاب إليهم ، وما أنزل من كتب على أهل الكتاب السابق ، وأن أكثر هؤلاء فاسقون خارجون عن دينهم يغارون ممن يلتزمه شاملاً متجدداً فيلجأون لشفاء الغيرة سخرية منهم .

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ[143] الطَّاغُوتَ[144] أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ) (60)

قول تال تلقنه الآية للرسول وللمؤمنين رداً على أهل الكتاب في سياق الفضح لمواقفهم وبتحرير قلوب المؤمنين من كل ولاءٍ لهم، فبعد الرد عليهم تذكيراً بحقيقة موقفهم من الإيمان الجامع الذي نزل به الإسلام وتذكيراً بفسقهم، يذكرون في جدال بموعظة سيرتهم، بما هو شرٌّ من نقمتهم غيرةً على المؤمنين وفسقهم، شر عند المثوبة التي تنتظرهم مرجعاً إلى الله يوم القيامة. ذلك أنهم بكسبهم فيما سلف استحقوا لعنة الله والطرد من رحمته فهم المغضوب عليهم، وقد عاقبهم الله في جناياتهم التاريخية التي تولوا فيها عن ميثاق الله كما في أول هذه السورة وكما في سورة البقرة ، فجعل منهم القردة عندما قلدوا في دينهم بغير علم ونيات ومقاصد فمسخوا دينهم وجعلوه طقوساً وصوراً بغير معان وجعل منهم الخنازير التي تشترى بآيات الله ثمناً قليلاً وتأكل السحت كما تأكل الخنازير كل قذر ، وجعل منهم الذين عبدوا الطاغوت من كل من طغى وتجاوز في إسرافه من شيطان أو أحبار أو رهبان، فهؤلاء الملعونون الممسوخون في مكان شر من مكان أكثركم الفاسقون ، وأشد منهم ضلالاً عن السبيل السوي الذي يهدي إليه الله من اتبع رضوانه ، غير سبيل المغضوب عليهم الضالين الملعونين .

(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)(61)

الآية تصف نفاق فئة من أهل الكتاب إذا حضرت مشهد المؤمنين ادعت الإيمان قولاً ظاهراً لا إخلاص فيه ، وهي قد دخلت عليهم بالكفر باطناً وظلت عليه حتى قد خرجت به فلم تستفد من هذا الدخول ، ولم تكسب خيراً من إيمان المزعوم ، والله أعلم بما يكتمون من كفر مستقر دخولاً وخروجاً عليكم ، وهذا تذكير للمؤمنين أن أصحاب هذه الأخلاق ليسوا أهلاً لولاء ولا قربى والله أعلم بكفرهم وإليه المثوبة .

---

[143] قرأ حمزة (عَبُدَ) بضم الباء

[144] قرأ حمزة (الطاغوتِ) بالجر

(وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ[145] لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (62)

والرسول ﷺ والمؤمنون يرون أهل الكتاب من حولهم وقد فشت فيهم أخلاق النشاط المتسارع لارتكاب الآثام ، ويرون منهم عدواناً يتجاوز الإثم الذي يقترفونه في حق أنفسهم ليكون ظلماً في حق الآخرين ، ويرون منهم أكل المال الحرام سحتاً فهم كالخنازير رجساً ، وما أباس هذه الأعمال من أهل الكتاب الذي يدعون إيماناً بالله وبكتابه وفيه الأحكام التي تحرم ذلك .

(لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ[146] لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (63)

أؤلئك الذين يسارعون في الإثم والعدوان وأكل السحت، لماذا لا ينهاهم الربانيون من عبادهم الذين ادعوا أَنهم فرغوا لعبادة الرب ، ولا أحبارهم من العلماء الذين يدعون معرفة الكتاب وأحكامه، لولا ينهونهم عن الإثم في كل قول اكتسبوا به إثماً على أنفسهم، وعن أكل أموال الناس بالباطل عدواناً وسحتاً .

فما أبأس كسب العابد والعالم وهو يضيع مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي يوجبها عليه عبادته وعلمه ، فما كان يصنع هؤلاء عاملين عن بينة دقيقةٍ أسوأ مما كان يعمل أولئك العامة .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)(64)

السياق يتواصل في الآية موضحاً المقولات والجرائر الكبرى التي فسق بها اليهود في سخرياتهم ولعبهم بدين المسلمين فقد ادعوا على الله – سبحانه – البخل ، وقالوا إن يده مغلولة لا يرون منه رزقاً لهم ولا إحساناً للمسلمين . والآية ترد دعاءً عليهم بأن تغل أيديهم فلا تتحرك بصدقة ولا إحسان ولا عمل صالح ينفعهم يوم القيامة ، وتثبت الحق المبين أَن يدي الله أوسع من يد واحدة مبسوطتان ، ينفق بمشيئته ووفق علمه وحكمته وليس وفقاً لأهواء اليهود الذين إذا جاءهم الرزق مبسوطاً رضوا وإذا رأوا الرزق مقدراً عند غيرهم اتهموا الله — سبحانه — بالبخل .

---

[145] قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (السحت) بضم التاء

[146] قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (السحت) بضم التاء

والآية تذكر أن حسدهم وكفرهم ليس في الرزق المادي وحده ولكن حتى فيما أنزل الله على رسوله ﷺ وعلى المسلمين من قرآن وهدى ، فهم يكرهونه ويهزأون منه ويزيد ذلك كثيراً منهم طغياناً يجعلهم من عبد الطاغوت ويزيدهم كفراً يحجب عنهم كرم الله وهداه وحكمته .

وأنهم لما بعدوا عن الله اشتدت بينهم العدوان فهم يعتدون بعضهم على بعض ، وحميت بينهم البغضاء وانطوت نفوسهم على كره بعضهم لبعضٍ . وقد سبق لهم في تاريخهم أن حملهم الجنوح للعدوان إلى استعمال نيران الفتنة والحروب مع الناس ، ولكن كلما فعلوا ذلك أراد الله بالناس الخير فأبطل كيدهم وأطفأ نيرانهم ، وكانوا في تاريخهم يسعون في الأرض فساداً لا إصلاحاً بحمل رسالة الإيمان . والله الذي يدعون أنهم أحباؤه لا يحب المفسدين .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) (65)

ولو أن أهل الكتاب اليهودي وأهل الكتاب النصارى آمنوا بالله حق الإيمان واستمسكوا بالقرآن المصدق لكتابهم ، واتقوا الله من كل حسد ونفاق وطغيان وكفر وعدوان وفساد لَكَفَّرَ الله عنهم ما اقترفوا من سيئات في الماضي رضوا بها وتلبسوا بآثامها ولأدخلهم في ملئه الأعلى جنات النعيم .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) (66)

السياق يتصل حول مواقف أهل الكتاب من كتبهم فلو أنهم أسسوا حياتهم كلها واقاموها على ما جاء في التوراة وما جاء في الإنجيل ، وما أنزل إليهم قرآناً من ربهم يصدق ما بين يديه كتاباً واحداً يبلغه رسول بشرت به الرسل فيهم ، لو فعلوا ذلك لأكلوا من فوقهم من خيرات السماء ، ومن ثمار الأشجار ومن تحت أرجلهم من ثروات الأرض ولانبتت عليهم نعم الله سبحانه رزقاً وبركات زيادة وفضل. لكن أهل الكتاب منهم كثيراً المحسنون السابقون بالخيرات فمنهم أمة اقتصدت فلم تسرف في الضلالة وكثير منهم ساء عمله كما وصفت الآيات السابقة .

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ[147] وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (67)

التنبيه للرسول ﷺ خطاباً شديد الوقع وهو يجابه ظروف عظمت فيها التحديات أمام الرسالة خاصة من أهل الكتاب ، فالله يأمره بالبلاغ مهما عظمت التحديات وإن لم يبلغ الكتاب الذي أنزل إليه من ربه فما أدى أمانة تبليغ الرسالة كاملة ، ومهما اشتد عدوان أهل الكتاب وكيدهم، فلا يقصر في أداء الأمانة والله يعصمه من الناس ويحميه لن يضروه شيئاً ولن يطفئوا نور الله ، فالله متم نوره وهدى الله سيكون لمن آمن بهذه الرسالة أما من كفر فلن تزيده

[147] قرأ نافع وابن عامر وشعبة عن عاصم (رسالاته) جمعاً

هـذه الرسـالة إلا طغيانـاً وكفـراً بهـدى الله ، فالرســول لا يكـتم الرسـالة ولا يـوالي كـافراً أو يخشـى في الله لومة لائم .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (68)

الخطاب في الآية للرسول ﷺ يعلمه كيف يكون البلاغ واضحاً تاماً لمن كره الرسالة وكفر بها من أهل الكتاب اليهود والنصارى ، فليقل لهم يا أهل الكتاب لستم على شئ من الدين بسبب نسبكم وتاريخكم ولن يكونوا على شئ حتى يقيموا التوراة والإنجيل إقامة حقةً ظاهرةً وباطنةً ، وحتى تؤمنوا بما أنزل على الرسول ﷺ من القرآن رسالة إليكم ، وتقيموه إقامة حقةً فالدين واحد من عند الله الواحد . ولكنهم بسبب الغيرة والحسد والكره أن يُنزل الهدى على غير ملتهم وبدلاً من الإيمان به وقد جاء مصدقاً لما معهم سيزيد كثيراً منهم طغياناً وكفراً . والآية توصي الرسول ﷺ ألا يأسى عليهم وقد خيبوا رجاءه في أن يؤمنوا برسالته وينصروا دين الله لأنهم قوم كافرون لا يستحقون حزناً ولا أسىً .

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (69)

الآية تؤكد على الملة الواحدة في خواتيم السياق الذي فَصَّل مواقف أهل الكتب السماوية من بعضهم ، والتي أسست على غير الهدى والدين بل على العصبية والطائفية . فالآية تذكرهم جميعاً أن الذين آمنوا برسالة محمد والذين آمنوا برسالة موسى وهادوا تائبين إلى الله والذين بقوا على أصول دين إبراهيم صابئين حنفاء عن الجاهلية الأولى والذين آمنوا برسالة عيسى وانتسبوا إلى مولده ، كل المؤمنين إيماناً حقاً موصولاً بالله الواحد لا بأعراض الدنيا ، الذين ربطوا إيمانهم بيوم البعث في الآخرة فأَصلحوا عملهم يرجون ثواب الآخرة فلا خوف عليهم من النار ولا هم يحزنون لفوات جنة النعيم ، والآية تذكر المؤمنين خاصة ألا عصبية وطائفية في الدين المحفوظ المتجدد الباقي فهو لله الواحد وليس لطائفة ولا قوم .

***

عموم المعاني

الآيات (59 – 69)

ينبغي لحامل رسالة الإسلام المتجدد أن يذكر المتعصبين للقديم أن نقمتهم على المؤمنين الناهضين من جديد ما هي إلا لأن هؤلاء انبعث فيهم ما قد يموت بالتقادم من الإيمان بالله واليوم الآخر، وتوحد ما قد ينقطع بالزمان من الإيمان بما أنزل الله من جديد ومن قديم ، وأَن أكثرهم هم فاسقون عن تلك

التعاليم الخالدة المتجددة . وينبغي — على حملة الرسالة المتجددة — أن ينذروا بما هو شر من ذلك الفسوق مصيراً عند الله — من استحقوا منهم لعنته ولقوا غضبه ومن ارتدوا بسيرة حياتهم بعد أن كانوا كراماً طاهرين ، فرد الله عليهم بقدره في المصائر أن يصبحوا قردة يقلدون القديم جهلاً وخنازير يتورطون في السيئات رجساً ، وأن يتجاوزوا الاستقامة فيصبحوا عَبَدَةَ الطاغوت من رغبوت الدنيا ورهبوتها– أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل من الحيوان. ثم إن هؤلاء أصبحوا منافقين في وجه التذكير الجديد الذي يردهم إلى الأصول فهم إن جاءوه قالوا آمنا والحقيقة أن قد دخلوا عليه بالكفر وخرجوا والله أعلم بما يكتمون .

إن طول العهد بالدين إذا لم تدركه الذكرى المتجددة تقسو به القلوب وتنسى حتى يبدو كثير من أهل الدين منفلتين وحتى ينخذل عن تقويمهم الذين يزعمون أنهم حفظة الدين ورعاته. وكذلك في صدر الإسلام كان الرسول ﷺ يرى كثيراً من بني إسرائيل ورثة دعوتهم وتقاليدهم ودولتهم القديمة يسارعون لارتكاب الإثم والعدوان وأكل السحت وبئس ما كانوا يعملون . وقد عجزت شريحة الربانيين والأحبار منهم عن دورها المزعوم في تقويم سيئ المعاملات من الأقوال والأفعال ولبئس ما يصنع هؤلاء المستحفظون على الأمانة .

إن الفتنة بمتاع الدنيا قد تأخذ أهل الدين حين يتقادم بهم عهد الإيمان بالله والآخرة فقد يحرفون كلمات أصول الدين ليعبروا شهوات المادية . وتلك عبرة بني إسرائيل إذ كانوا يقولون في أول تقابل الثقافات والمجتمعات بينهم وبين الإسلام المتجدد – إن يد الله مغلولة إذ لا يرون منه رزقاً كافياً يصيب المسلمين الجدد ، بل غُلت أيديهم هم من الإحسان فكانوا أغنياء المدينة لا يتكافلون مع فقراء المسلمين ، وإنما الحق أن عطاء الله مبسوط مضاعف ينفق كيف يشاء على البشر ويوزع الرزق حسب مراحل ابتلائهم ، وهكذا يبدو اليوم حاضر مقابلة الثقافات والثروات بين ورثة التراث اليهودي المسيحي الأغنياء في شمالي الأرض وحال المسلمين الناهضين بدينهم . إن أهواء العصبية للقديم تفتن عن الإيمان بوحدة الدين وأمته فإذا تجدد الدين كما أَنزل الإسلام والتذكير متجدداً على محمد ﷺ قديماً — لا يزيد ذلك المتعصبين إلا طغياناً عن قوام الدين وكفراً بأصوله، بل تأخذهم تلك الحمية إلى أن تلقي في صفوفهم الداخلية ظواهر العداوة والبغضاء أبداً يجنحون لإشعال نيران الحروب ليطفئها —كل مرة — قدر الله الرحيم وللسعي في الأرض فساداً ، لتسقط مزاعمهم أنهم أحباء الله والله لا يحب المفسدين .

إن لأهل الدين لو ثبتوا عبر التاريخ على قيم الحق تذكيراً وتجدداً نعم المصير في الدنيا والآخرة. فلو أن أهل الدين الكتابي قاموا أبداً على الإيمان والتقوى لكَفَّرَ الله عنهم السيئات التي قد تطرأ على حياتهم الدنيا ، ولأدخلهم في الآخرة جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا قديم التعاليم ومتجددها لأكلوا طيب المعاش من فوقهم ومن تحت أرجلهم . لكن عبرة التأريخ ، أن انتقال قديم الكتابيين إلى القرآن جعل

منهم طائفة مقتصدة لم تبلغ أعلى مقام التذكر المتجدد ولا أسرفت وجلاً في العصبية وكثيرون جمدوا في سيئ الأعمال .

والخطاب لمن يحمل رسالة الإسلام والتجديد بأن يمضي في تبليغها مهما صده أهل القديم وإلا فما وفى بأمانة التكليف ، ومهما اشتد خطر المتعصبين للقديم فإن الله بقدره يعصم القائمين بالبلاغ عن كيد الناس وإن كان لا يهدي الكافرين قدراً وكرهاً . إن داعية الإسلام والتجديد اعتبارا برسالة محمدﷺ في وجه أهل الكتاب والدين القديم إنما عليه أن يعلن أولئك المفاخرين بالقديم أنهم ليسوا على شيء مما يزعمون حتى يقيموا القديم وينفتحوا للجديد ، مها بدا في كثير منهم أن التذكير والتجديد لا يزيدهم إلا طغياناً وكفراً وراء الاستقامة والإيمان ، وعلى ذلك الداعية ألا يأسى على أولئك الكافرين ما دام قد أَبلغ النذير فذلك خيارهم .

إن دين الحق الواحد الخالد لا يحتكر لقوم ولا يحتصر لعهد فالذين آمنوا برسالة الإسلام الخالدة الشاملة لكل رسالات الدين السالفة أو اليهود الذين هادوا من قبل إلى تراث إبراهيم وذريته والذين صبأوا وحنفوا إلى ذلك التراث ممن ابتلوا بثقافة الجاهلية الأولى أو الذين تابوا إلى ذلك الهدى برسالة المسيح الذي ولد معجزة فانتسبوا إلى اسم مولده نصارى[148] أولئك أيهم دخل في أمة الخطاب المعني وأسلم لتعاليم الرسالة حسب ظروفها المخصوصة ، وأيهم صدق تدينه بالتزام التدين المتجدد لا تطالعه تاريخية ولا قومية ، بل آمن بالله واليوم الآخر غير كافرٍ وعمل في الدنيا صالحاً غير فاسقٍ فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ترتيل المعاني

الايات (70– 86)

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) (70)

الآية – في سياق رفع الأسى عن الرسول ﷺ على مواقف أهل الكتاب وكفرهم وعدوانهم – تَذْكُر الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل : أن يؤمنوا بكل رسول جاء من الله ، ولكنهم كانت تأتيهم

---

[148] نصارى : إشارة إلى بلدة الناصرة محل ميلاد المسيح – عليه السلام –

الرسل تترى من أهلهم وقرابتهم فلم يوفوا بميثاق الله،بل كلما ابتلوا بمجئ رسول تابعوا هوى أنفسهم فكذبوا فريقاً من الرسل وقتلوا فريقاً منهم، وقد كذبوا الرسول ﷺ وكادوا له وحاولوا قتله فهذه هي أخلاقهم وسوابقهم فلا أسى منه عليهم .

(وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ[149] فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ). (71)

الآيات تتصل عن أهل الكتاب اليهود الذين تتنزل أنبياؤهم امتحاناً لهم لتجديد ذكر الدين فكذبوا فريقاً من أنبيائهم وقتلوا فريقاً ، اتباعاً لهوى أنفسهم، وهم لا يبالون حسبوا ألا تصيبهم فتنة من جراء ما علموا ، ومضوا لا يسمعون لما أنزل الله ولا يرون الهدى فهم عميٌ وصمٌ . ولكن الله – سبحانه – منحهم فرصة بعد الفتنة وتاب عليهم ليتوبوا ويسمعوا ويتبعوا الهدى ولكن كثيراً منهم ارتد بعد التوبة واستغرقتهم الغفلة واللا مبالاة فعموا وصموا .

ولكن الله بصير بدقائق ما عملوا ينزل عليهم الفتنة عقوباتٍ على عماهم والله دقيق البصر بما عملوا وصنعوا خروجاً وفسقاً على أمره وهم عميٌ صمٌ. والسياق مترابط متصل يذكر الرسول ﷺ ألا يأسى على سنة هؤلاء العمي الصم عن كل رسالة .

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) (72)

اليهود من بنى إسرائيل بعد قتل الأنبياء وتكذيبهم وقعوا في فتنة عبادة الأنبياء فكفر منهم الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم والآية تذكرهم بأنه ابن مريم ، وليس ابن الله وليس إلهاً. والحق أن عيسى عليه السلام جاء بما جاء به الرسل والأنبياء من قبله فقد دعاهم خاصة إلى عبادة الله ربه وربهم خالقهم جميعاً. فهو – عليه السلام – لم يَدَّعِ أُلوهية ولا ربوبية بل ذكرهم بالآخرة وما فيها من جنة نعيم لن يجدها من أشرك بالله مخلوقاً بل حرمها الله عليه، وسيكون مصيره ومأواه إلى النار ولن يجد من ينصره يوم القيامة على ظلمه لنفسه بادعاء الألوهية لغير الله ولو ادعاها لنبي أو صالح .

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (73)

بنو إسرائيل الذين دعاهم عيسى عليه السلام للتوحيد ونبذ الشرك منهم من نسوا دعوته وكفروا بالله عندما ادعوا ان الله ثالث ثلاثة، فقد فتنهم الميلاد الخاص لعيسى – عليه السلام – من غير أب فزعموا أَنه إله لأنه ابن الإله، ثم تمادوا في شركه فزعموا أَن الروح القدس الذي حمل الكلمة إلى مريم – عليها السلام – كذلك إله، فجعلوا الله الواحد ثالث ثلاثة وانتسبوا إلى مولد عيسى نصارى (ثم إليه مسيحاً) .

---

[149] قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (تكون) بالرفع

والآية تثبت التوحيد أمام شركهم فما من إله إلا إله واحد، ومن مات على ذلك الشرك ولم ينته عن دعواه فقد كفر بالله وليمسنه العذاب الأليم يوم القيامة فقد حرم الله عليه الجنة كما ذكرهم عيسى عليه السلام في الآية السابقة .

(أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (74)

الآية تسائل الذين وقعوا في هذا الشرك العظيم دعوة إلى التوبة إلى الله توحيداً له واستغفاراً عما أشركوا في ماضيهم ، في هذه الساعة التي يتجدد فيها نزول الوحي برسالة القرآن فإن الله غفور يغفر لمن تاب حتى عن الشرك ورحيم يمنحكم الفرص من بعد الفرص للتوبة وينزل عليكم الرسل والكتب التي تجدد التوحيد .

(مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الأَيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (75)

الآية تنفي عن المسيح – عليه السلام – البشر المنسوب إلى مريم أمه وتذكر أنه ليس إلهاً ولا ابناً لله، بل هو رسول جاءت الرسل من الله من قبله تترى ثم ذهبت وخلت ، وسيذهب كما ذهب الرسل من قبله. وأمه كذلك من بنى آدم صَدَّقت ما جاءها من وحي ، وما وقع عليها من ابتلاء شديد ، لكنها ظلت مستمسكة بتصديقها لما جاءها من عند الله ، فهي صديقة شديدة التصديق ، ولم تكن إلهاً كما لم يكن ابنها إلهاً، فقد كانا يأكلان الطعام كما يأكله البشر الذي يجوع ويحتاج للطعام ، فكيف يكونون آلهة . والخطاب يتوجه إلى الرسول ﷺ لينظر تعجباً من موقفهم إذ الآيات تتنزل عليهم بهذا البيان ، ومن أين — في عصبيتهم – يأخذهم العمد إلى الإفك والكذب فيمضون في الدعوى أن عيسى عليه السلام إله .

(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (76)

السياق يستمر وبعد أن ذَكَّرَ النصارى أن عيسى وأمه كانا يحتاجان للطعام ويأكلانه فهما مثل سائر البشر الناقص المحتاج للرزق ، الآية توصي الرسول بأن يسائلهم كيف يعبدون من دون الله من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً فهو لا يستطيع التصرف بأمرهم . وتذكر الآية بأن الله هو وحده السميع يسمع دعاءهم ، والعليم يعلم سرهم وجهرهم ، وينفعهم بإيمانهم ويضرهم بشركهم .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ) (77)

الخطاب يتواصل في الآية للرسول ﷺ ليدعو أهل الكتاب النصارى ألا يغالوا في دينهم غير الحق فيزعموا أن رسولهم إله مع الله ، فالذي يعبد رسوله من دون الله أفرط في التعلق به وأسرف في التدين بغير الحق. والدعوة لهم كذلك ألا يتبعوا أهواء قوم أسلافهم من قبل ، قد ضلوا من قبلهم عما دعاهم

إليه عيسى من توحيد الله ، وغالوا تصويباً للدين إلى الرسول دون الذي أرسله ، وتبعهم في هذه الضلالة خلق كثير وضلوا بذلك عن السبيل السوي الذي جاءت به الرسالات، فلا تتبعوهم تعصباً وطائفية لملتكم فتكونوا من ذلك الكثير الضال من الناس ، بل توبوا واتبعوا الهدى الذي جاء به الرسول ﷺ بين أيديكم فهو ذات الحق الذى جاء به عيسى عليه السلام .

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ) (78)

من بني إسرائيل الذين كفروا من بعد موسى – عليه السلام –لعنهم داود – عليه السلام – في الزبور ، والذين كفروا من بنى إسرائيل بعد المائدة التي سألوها وتنزلت عليهم فلعنهم عيسى عليه السلام ولم تكن لعنات الأنبياء إلا بسبب عصيانهم لأمر الله واعتدائهم على حرماته. والآية تذكر بنى إسرائيل ممن تنزل عليهم القرآن أن الرسول ﷺ قد يلعنهم كما لعنهم الرسل من قبل إذا استمروا في عصيانهم وعدوانهم ومغالاتهم بغير الحق .

(كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُون) (79)

هذه الجماعة الملعونة من بنى إسرائيل كانت تأتى المنكرات ولا يقوم من بينها من ينهى عن هذه المنكرات ، فهم قد تواضعوا على فعلها وقبولها لا يتناهون عن فعلها ولبئس ما كانوا يفعلون، لا منكراً وحسب بل تراضياً بفعله وتعايشاً عليه .

(تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ) (80)

السياق يمضى في تبيان مواقف أهل الكتاب اليهود من الرسول ﷺ وما جاء به من ربه بعد الوصية له ألا يأسى عليهم، تذكره بأنه يرى كثيراً منهم من حوله يترك ولاء الله والمؤمنين ويهجر جبهة الإيمان بالغيب والرسالات إلى ولاء الكافرين من منافقي المدينة العرب ومشركي مكة، وقد صورت لهم نفوسهم المريضة أن في ذلك فلاحاً لهم ، ولكن ما أبأس الذي قدمته لهم أنفسهم وزينته لهم فهو سخط الله عليهم فلا فلاح في الدنيا ولا في الآخرة، بل خلود دائم في العذاب .

(وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)(81)

أولئك من أهل الكتاب الذين يتولون الكافرين المشركين، كانوا مع إسراعهم في موالاة الكافرين يدّعون إيماناً بالله والنبي ﷺ ويوالونه بما جاء به القرآن ولو كانوا أولى بالحق صدقاً لا منافقين في دينهم يخشون سطوة الدين الجديد ، وما حاز من سلطان ، ويخشون النبي ﷺ والمؤمنين : لو كانوا حقاً مؤمنين ما اتخذوا المشركين الكافرين بالغيب والرسالات أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون خرجوا عن ملة الدين ومقتضاه بموالاة الكافرين مهما ادعوا وتعذروا .

(لَتجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ)(82)

الخطاب للرسول ﷺ فيما يجد من واقع حوله، وقد كان الرسول ﷺ منذ أيام مكة يتوقع نصرة وتأييداً من أهل الكتاب اليهود وكان يراهم أقرب إليه بما جاء من تجديد لدين إبراهيم عليه السلام ولكن الآية تذكره بعد أن سبقت الآيات مفصلة مواقف من حوله وتاريخهم وحقيقة إيمانهم وثقافتهم وظاهر موالاتهم وعداوتهم – تذكره وتذكر المسلمين أن اليهود كرهوا ما جاء به حسداً وغيرة إذ كانوا يتوقعون أن يكون النبي الخاتم من قومهم، فدفعتهم العصبية والطائفية إلى العداوة الشديدة. فأصبحوا أَشد الناس عداوة للذين آمنوا مع العرب المشركين الذين أخرجوا المؤمنين من مكة وقاتلوهم وصاروا لا يرون في هذا الدين الجديد إلا الثارات والدماء .

أما الذين يتسمون نصارى ممن كان الرسول ﷺ يراهم على بعد من المدينة جنوباً ، فهو سيجدهم أقرب مودة للذين آمنوا المسلمين ، ذلك بأن منهم قسيسين علماء درسوا الدين والتزموا به ومنهم رهبان تعلقت قلوبهم بالعبادة حتى انقطعوا لها ، وهم متواضعون يسمعون الكلام إذا جاء من غيرهم وليسوا مستكبرين مثل أولئك اليهود الذين ظنوا أَن الهدى والدين والمال والسلطان حكرٌ لهم ، وليسوا مثل أولئك العرب الغلاظ الذين كرهوا أن يكون النبي من غير سادتهم وعظمائهم .

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)(83)

أولئك من المتسمين نسبة إلى نصارى المتزهدين الرهبانيين غير المستكبرين يخشعون إذا سمعوا القرآن الذي أنزل على الرسول ﷺ ، يُرَونَ أعينهم تفيض من الدمع بُكاءً تأثراً بما لامس قلوبهم من الحق، مما عرفوا من الحق في آيات الله بما يعهدون قبلاً في كتبهم ، فهم شهود أنه ذات الهدى وذات الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام ، يُشهدون ربهم أنهم آمنوا ويسألونه أن يكتبهم مع الذين شهدوا لهذا الرسول أنه جاء بالحق من عند الله ، أن يجعلهم في صف المؤمنين .

(وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)(84)

أولئك الذين قالوا إنا نصارى وشهدوا للحق الذي عرفوا ودعوا الله أن يكتبهم في الشاهدين يوضحون حيثيات شهادتهم، فكيف لا يؤمنون بالله وما جاءهم من الحق المتجدد فعرفوه وقد كانوا من قبل زهداً خشعاً يرجون بعلمهم وعملهم ان يدخلوا الجنة . فالآن يطمعون أن يتقبل ربهم عملهم سابقه ولاحقه ، وقد تبين لهم الحق الموصول وأن يدخلهم في

الصالحين ممن صلح عملهم بعد صلاح قولهم وشهادتهم. فهم يشهدون للمسلمين ويسمونهم بصفاتهم شاهدين صالحين يرجون الكتابة معهم والدخول فيهم عند الله .

(فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)(85)

(الفاء) ترتب على خشوعهم وبكائهم لسماع آيات الله ، ودعائهم أن يكونوا في الشاهدين بالحق الصالحين في العمل . تُرتِب أن ثوابهم قد كتبه الله حقاً ماضياً بما قالوا ، جنات تجرى من تحتها الأنهار فلا ينقطع ماؤها ولا يجف زرعها، وذلك جزاء المحسنين الشاهدين الصالحين الذين بلغوا بكسبهم درجةً عليا إحساناً لا ينقطع حده ولا يجف مده .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)(86)

أما اولئك الذين كفروا وأنكروا آيات الله بعد أن عرفوها حقاً ، من اليهود والذين أشركوا ومن النصارى – في مقابل أصحاب الجنة من الشاهدين عليها الصالحين المحسنين – أولئك أصحاب الجحيم صحبة لا تكف ولا تخف .

***

عموم المعاني

الآيات (70 – 86)

إن لجمود العصبية الدينية في وجه رسالات الإحياء موعظة التجديد في تاريخ الدين، ولذلك سابقة في كيف حصر اليهود دينهم في آثار سلفهم من المرسلين الأوائل وفي تقاليد أعرافهم وأهوائهم المنتسبة إلى ذلك التراث. وكان الله قد أخذ منهم ميثاق الوفاء أَبداً بأمانة أصول الدين المتجدد ، وأرسل فيهم المرسلين تترى كلما جاء من يصدق تلك الأصول ويجددها فوافى من واقع تلك الأعراف والأهواء ما لا تهوى أنفسهم كذبوا الرسول أو اشتطوا عَدْواً فقتلوه؟ إن أولئك حسبوا ألا تكون العصبية سقطة فتنة في حياتهم ، فأصروا وعموا عن رؤية محيا الحق ، وصموا عن سمع التذكير بالأصول . ثم تاب الله عليهم رغم ذلك ومَدَّ لهم فرصة تجاوب بتوبة منهم ولكن كثيراً منهم استغرقتهم الفتن ، الله بعملهم بصير. وقد امتدت سنتهم تلك في وجه الرسالة الخاتمة فكذبها منهم كثير. وقد تمتد تلك العلة الدينية بعلة العصبية والعمى والصمم في وجه التحديد عبر السيرة التاريخية لرسالة الإسلام من بعد .

إن تقادم الدين قد يقطع عن أصوله التوحيدية فيضل أهل القديم عن التوحيد حتى إذا أصابتهم نفحة تجديد – هكذا كفر الذين استجابوا لعيسى لكنهم قدروه وعزروه رمزاً للدين حتى اتخذوه إلهاً ، وألهتهم تلك العقيدة العارضة عن الذي أرسله وعما كان هو يذكر به في رسالته ، من توحيد في وجه الإشراك الذي يحرم صاحبه من الله ، يأوي به إلى النار بغير شريك نصير .

لقد اتخذوه إلهاً واتخذوا أمه أو الروح القدس إلهاً ثالثاً ، لما أحاط بميلاده من معجزة وتعرضوا إلى النذير بذلك العذاب. وكيف لا يتوبون إلى توحيد الله وهو الذي يفسح ولا يؤاخذ عاجلاً ولو بالإشراك ولا يستغفرون وهو الغفور الرحيم . إنما المسيح لو قاسوه إلى السالفين رسول وأمه صدّيقة وكلاهما كسائر البشر يأكلان الطعام والله وحده الغني. وقد ركبت النصارى تلك العقيدة الثالوثية المأفوكة مهما جاءهم من بعد محمد ﷺ رسولاً مجدداً مذكراً يبين لهم آيات التوحيد. على الداعية للتوحيد ابتداء أن يحاورهم مستنكراً عبادة بشر لا يملك ضراً ولا نفعاً وتجاوز توحيد الله السميع العليم ، وأن يذكر أهل الدين المتقادم ألا يغلوا تديناً بغير الحق وألا يتبعوا أهواء الضالين القدماء الذين أضلوا كثيراً وزاغوا عن سواء السبيل، ويذكرهم بأن يتناهوا عن ذلك الضلال ، اتعاظاً لسوابق لعنات الأنبياء كداود وعيسى لبني إسرائيل ، بتماديهم في العصيان والعدوان المغالي والتراضي على ذلك بغير تناه عن المنكر البئيس الذي كانوا يفعلونه .

إن رسالة الإسلام بعد محمد ﷺ عرضة لمثل ذلك الصدود بتلك المجابهات لدعاة تجديد الرسالة ، وذلك التعلق بتلك التقديسات لبعض البشر الصالحين بما يقطع عن أصول التوحيد ، وذلك الاستمساك بتلك العصبيات في وجه أي تذكر وتوبة . إن سيرة الخلف في رسالة الإسلام عرضة أيضاً لمثل الظواهر التي أصابت قبلا اليهود في وجه التجديد للحنيفية الإبراهيمية إذ كانت العصبية توحي إليهم حسداً أن يوالوا الكفر الجاهلي في وجه الدين المتجدد فتقدم لهم أنفسهم بذلك بؤس سخط الله والمصير إلى العذاب الخالد . وكان ذلك فسق غالب بين اليهود عن أصول الدين فإنهم ما كانوا ليوالوا الكفار لو صدقوا الإيمان بالله فوالوا في سبيله رسول التجديد محمدﷺ

من جراء تلك السنة كان قد بقى أَشد الناس عداوة للذين آمنوا بالإسلام اليهود أهل عصبية النسب والذين أشركوا من العرب ذوو العقائد التقليدية الخرافية والدنيوية . ولئن غلب في سنن التاريخ أن يذهب بعض أولو التقاليد القديمة إلي مثل ذلك العداء لإحياء الدين الحق ، فإن ذوي البقية من صدق في الدين منهم قد يقربهم من الدين المتجدد وأهله . وكذلك كان من النصارى في عهد الرسول الخاتم الذي أحيا الإسلام بعد عيسى عليه السلام من هم أقرب مودة للمسلمين ، لأن فيهم من كانوا ذوي تدين ورهابنية . وما كانوا ذوي استكبار يحسدون قومة الدين المتجدد وسلطانه كما كان اليهود والمشركين في البيئة الجاهلية ، بل كان من النصارى من إذا سمعوا آيات القرآن لا يجاوبونها صماً وعمىً بل خشوعاً فائضة أعينهم بالدمع مما يتذكرون بها من الحق الأصيل ، ويتجاوبون إيماناً صادقاً يرجون أن يكتبوا في صف الشاهدين شهادة الإسلام الجديد ، ويتطهرون من كل عصبية تصدهم عن الإيمان بالحق والدخول مع أمة التجديد الصالحة . فأثابهم الله في الآخرة جنات روية خالدة .

وتلك هي العبرة في سير الدين التاريخية للمحسنين في مواقفهم إزاء دورات الإحياء والتذكير والتجديد ومصائرهم في الآخرة ، أما الكافرون والمكذبون المعادون في دنياهم للدين المتجدد حسداً وتقديساً للقديم فإن مصائرهم أن يكونوا أصحاب الجحيم .

***

ترتيل المعاني

الايات (87– 108)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)(87)

بعد سياق هدى المسلمين لمقتضى الحق في علاقتهم بأهل الثقافة الكتابية القديمة ممن يجدونهم في الواقع – حولهم، وبعد تفصيل القول في الأشد عداوة مع المشركين اليهود وسوابق جناياتهم وحقيقة موقفهم مما جاء به الرسول من الحق وسبب نقمتهم واستهزائهم بالمؤمنين ، ثم تفصيل القول في الأقرب مودة من الذين قالوا إنَّا نصارى . الآية تبدأ سياق خطاب المؤمنين هدىً لحق السلوك في بيئة علاقاتهم بالكتابيين والمشركين ، لئلا يتابعوهم في تحريم ما أحل الله من طيبات الطعام بتقاليد الشرك أو بدعيات الترهب والتبتل ، ولئلا يعتدوا على ما جعله الله حدوداً بينة من الحلال والحرام . فالطعام كله حلال طيب إلا ما تلي عليهم في صدر السورة أمناً في الحرم أو سنةً في قتل الحيوان ، والله ينهى عن الترهب تحريماً لطيبات الحلال ولكنه قطعاً لا يحب المعتدين على حدوده المترخصين شهوة مستباحة. والدين توسط لا إفراط ولا تفريط .

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ)(88)

الوصية للمؤمنين الذين لا يحرمون ولا يعتدون إلا بحد ما أحل، أن يقبلوا من تقاليد الترهب الجاهلي الحلال الطيب فيأكلوا منه متمتعين متعففين منه متذكرين أَنه رزق من الله، وأن يصلوا الأكل بتقوى الله ، لا تنسيه الشهوة شكر الله ولا تقوده للسرف ، ولا يحمله العدوان ليقرب حدود الله الذي يؤمن به الآكلون الحلال الطيب .

(لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ[150] الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(89)

---

[150] قرأ شعبة عن عاصم وحمزة والكسائي (عقدتم) من غير تشديد ، وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر (عاقدتم)

الآية تصل ذكر الطعام بذكر الأيمان التي تتوارد في الكلام – قسماً وحلفاً – وكثير منها يرد عفواً ولغواً كفاً تعففاً عن طعام ، أو جشعاً وتسرعاً إليه ، أو يرد تنطعاً وترهباً صرفاً للشهوة عن كل الحلال ، وقد ترد الأيمان في شتى معاملات الناس ومجتمعاتهم .

والله يخاطب الذين آمنوا ليكونوا من الصادقين أنه لا يؤاخذهم باللغو في قسمهم مما يأتي في عفو الكلام لا عمداً وعزماً مقصوداً معقوداً ، وما ذلك بحسن الكلام عابراً في محاجة أو ملاحة، لكن الله لا يؤاخذ باللمم رحمة وغفراناً ولكن الله يؤاخذ المؤمنين على ما عزموا جداً وعمداً قصداً وعقدوا الأيمان ، عقد قسم على أنفسهم مع الله – سبحانه–. فمن أقسم كذلك تصديقاً لخبر يرويه ثم تبين خطؤه أن لم يتثبت ، أو علم هو كذبه ، فعليه مع إصلاح أمره في حق من خاطب أن يكفر ذنبه في حق الله ، لا سيما إذا كانت يميناً غموساً يغمس صاحبه في النار وقد تعمد الكذب. ومن أقسم عزماً وعقداً على مشيئته فيما يستقبل ثم دفعته النصيحة أو انقلاب الرأي أو الفعل إلى أن يحنث ويخالف ما أقسم أن يفعل أو ألا يفعل، فعليه الكفارة. وكفارة ذلك إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم المؤمنون أهليهم ، حسب العرف بين السعة والتقدير، أو كسوة عشرة مساكين بذات المعيار ، وخيار ثالث تحرير نفس من ربقة العبودية فإذا لم يجد المؤمن أياً من ذلك ولم يتيسر له فعليه صيام ثلاثة أيام. والكفارة تغطي ذنب حنث الأيمان لكن الآية تذكر المؤمنين بعد بيان كفارة الحنث بعد الحلف بأن يحفظوا أيمانهم لحفظ الصدق والأمانة في حياتهم وذلك باجتناب لغوها، وتعهد عقدها صدقاً أو كفارة فهي العقود التي ينبغي ان توفى كما في أول آية من هذه السورة[151] .

كذلك يبين الله للمؤمنين هذه الأحكام ليلتزموا بها ويقفوا عند حدودها دون عدوان ، وأن يشكروا الله الذي عفا عمن حلف ولغا ، والذي شرع كفارة لمن جد وعقد ولم يصدق . والله يريد اليسر لا عسر التكاليف مشكوراً .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(90)

تتوالى النداءات للذين آمنوا تنبيهاً لهم حتى ينصتوا لأحكام الله ويلتزموا حدودها في المطعومات والمعاملات. والآية (إنما) تقصد وتؤكد البيان في الخمر والميسر والأنصاب والأزلام أنها رجس واجب اجتنابه وراء ما تلته الآيات السابقة من الحرام ومن الحلال الطيب. فالخمر رجس يجتنب محرمة تحريماً قاطعاً بعد أن تدرجت نحو ذلك مراحل في آيات أخرى سبقت نزولاً (النحل 67 – البقرة 219– النساء 43). وكذلك يحرم الميسر الذي يغامر فيه الناس بأموالهم فيحوزوا أو يخسروا أموالاً بغير الكسب الحق. وكذلك الأنصاب التي ينصبها المشركون ليعبدوها من دون الله ويذبحون عندها الذبائح تقرباً لما أشركوا بالله من الآلهة المنصوبة فحرام الأنصاب التي يتجمعون عليها وحرام هذا الطعام كما سبق في

---

[151] الآية (1) سورة المائدة

الآية[152] . وكذلك الأزلام السهام التي كان المشركون يتخذونها قداحاً للميسر أو للخط يضربون بها وحسبها يتشاءمون أو يتفاءلون . أو للاستهام في أنصبة الأكل والرزق بينهم ذلك حرام وكسبه حرام. وكل هذه المذكورات رجس وقذر ليس من طهارة الإيمان بل من عمل الشيطان ، والأمر اجتنابه انتهاء تاماً عن مقاربته . وفي التزام هذه الأحكام وما تحرمه من باطل تفتن به شهوة اللهو واللغو والحظ والاتباع والمتاع رجاء للفلاح في الدنيا والآخرة .

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ)(91)

ذكر شرب الخمر ولعب الميسر وجمعها إلى الأنصاب والأزلام رجساً من عمل الشيطان ، وجاء اختصاص الخمر والميسر في هذه الآية بالذكر لأن المسلم قد يخرج من شعائر الجاهلية حول الأنصاب والأزلام ولكنه يمكن أن يقع في آثام المجتمع بالخمر والميسر ، فإذا شرب المسلم الخمر يقع في عمل الشيطان ويغتال عقله ويورطه ذلك في انفلات عاطفة الشر وهيج العداوة والخصومة مع سائر من حوله . وإذا قارف الميسر معهم تسالبوا الأموال بالباطل بما يملأ النفوس بالبغضاء التي تسعرها شهوة الكسب السهل والانتصار وغيظ الخسارة العفو والانكسار ، وذهاب العقل بغول الخمر ولهو الميسر واستعار الخصومات والبغضاء كله صد عن ذكر الله عامة، وعن ذكر الله المخصوص في الصلاة التي تقام وصلاً بذكر الله ، وعياً وخشوعاً وقد كتبت موقوتة يصد عنها السكر واللهو حتى تفوت .

وقد بدأ الخطاب في الآية السابقة التي جمعت رجس السنن المحرمة وفصلتها تنبيهاً للذين آمنوا حقاً واختتم في هذه الآية بسؤالهم(فهل أنتم منتهون) تذكيراً شديد الوقع باجتناب الخمر والميسر .

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ)(92)

الآية تذكير موصول للذين آمنوا مهما اشتدت عليهم تقاليد السنن الحرام أَن يستمسكوا بطاعة الله شارعاً للحلال والحرام ، وطاعة الرسول مبلغاً ومبيناً وأميراً للمؤمنين . ويتأكد الأمر بعد الطاعة أَن احذروا حتى يكتمل تحررهم من أسر الثقافات التي تحيط بهم كتابية وجاهلية ، وما يغشاهم من أثر معتقداتها وعاداتها الاجتماعية طعاماً وشراباً ومعاملات . فإن تولى المؤمنون عن طاعة الله والرسول مُنْشَدِّينَ إلى ما وراءهم من أعراف المشركين أو ثقافات أهل الكتاب الأكثر تحضراً فإنما على الرسول البلاغ البين الواضح لهذه الأحكام دعوة وقدوة والإمرة بالمعروف وليس عليه إكراههم في الدين بغير خيارهم .

---

[152] الآية 3 سورة المائدة

(لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)(93)

في سياق طاعة الله وطاعة الرسول أحكاماً ، والحذر مما حول المؤمنين من الثقافات أعرافاً اجتماعية مارقة من الدين : الآية تُذكرِّ المؤمنين بأن الله قد رفع عنهم الجناح والحرج فيما سبق من أكلهم بعاداتهم في الطعام الطيب الشهي إذا ما اتقوا بعد التنزيل ما يتلى عليهم من المحرمات في القرآن ، وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح . ثم اجتازوا بلاءات الحياة الموصولة فاتقوا وآمنوا مزيد درجة تقوى وإيمان ، ثم تقلبت عليه في الحياة درجات الابتلاء وأحواله فاتقوا الله حق تقاته وبلغوا مراقي الإحسان للإيمان ولصالح الأعمال . فالتقوى والإيمان يزيدان بالعمل الصالح ويرتقيان درجة بعد درجة وتقوى بعد تقوى وإيماناً بعد إيمان ، عبر ابتلاءات تتقلب وتشتد حتى تبلغ التقوى زلفى إلى الله تمام الإحسان الذي يحب الله أهله ، فالإحسان أَبلغ التقوى والإيمان والعمل الصالح . ومجتمع المؤمنين ينبغي أن يكون دارجاً يتعالى نحو الإحسان عبر درجات التكاليف المنزلة تدرجاً وعبر الحياة ، لا تفتنه ابتلاءات الرزق والمعاملات المستمرة فتأكل إيمانه ، بل تغذي دينه فيصعد قربى إلى الله وفي حديث الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام. الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[153] .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ).(94)

يتجدد النداء والتنبيه في الآية للذين آمنوا تجديداً لذكر الابتلاء بالصيد وهم حرم ، في صدر السورة ، وفي سياق الذكر في الآية السابقة لتوالي الابتلاءات للمؤمنين المتوالية فيها درجات تقواهم إلى الإحسان . ففي هذه الآية ينبه المؤمنون أن الله لا شك يبتليهم ويمتحن تقواهم بشيء من الصيد السهل ميسور النيل بالأيدي والرماح، اختباراً لكم – لا سيما أن الصيد كان من معتاد معايش العرب – حتى يعلم علماً متحققاً يشهد عليه عملكم أيكم يخافه بالغيب فيقف عند تقوى الله ، مهما بدا الرزق سهلا سانحاً لا تحميه يد الأمير ولا الناس وقد لا ترقبه أعينهم . وحال الصيد السهل في الحرم كما هو حال المال في الميسر ، والذي يعتدي على ما حرم الله كما في الآية التي سبقت [154] وكما في الآية التالية مباشرة فله عذابٌ أليم .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ[155] مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ[156] طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ)(95)

---

[153] الحديث متفق عليه

[154] الآية 87 سورة المائدة

[155] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (فجزاء) من غير تنوين ، وقرأوا (مثل) بالجر

النداء في الآية للذين آمنوا موصولاً إلى سابق ذكر الابتلاء بالصيد المتاح السهل الذي تناله أيديهم، ينهون أن يقتلوه وهم حرم حاجين لبيت الله الذي جعله حراماً أمناً وسلاماً ينبغي أن يسود البيئة كلها في موسم مجتمع الحج . واجتناب ذلك الصيد الحرام تقوى لله بالغيب فهو مباح في غير الموسم ومتاح أحياناً بغير رقيب ولا حسيب إلا الله، والذي يخرق هذا السلام الشامل بقتل الصيد متعمداً لا مخطئاً أو ناسياً عليه جزاءً أن يذبح كفارةً لعمله مثل ما قتل من الصيد، واحدة بواحدةٍ مساوية لها في الحجم فهي مثلها، يحكم بذلك أهل العدل وأن يبلغ بهذا الهدى المماثل لما قتل متعمداً من الصيد ، أن يبلغ به مكان الكعبة حيث مجتمع المسلمين وفيهم البائس الفقير الذي يأكل من هذا الهدى المذبوح . أما الذي لا يجد هدياً يذبحه فيقدر ثمنه وينفقه في إطعام المساكين أو الصيام أياماً تساوى وتعدل عدد المساكين الذين يطعمهم ثمن الهدى . وكل ذلك من الجزاء المضبوط بتلك المعايير العادلة ليذوق هذا المعتدي وبال الأمر الثقيل الذي اقترفه بعدوانه. ولكن الله يعفو عما سلف من عدوان قبل نزول الآية، إلا من عاد بعدها متعمداً فقتل الصيد وهو محرم فسينتقم الله منه إلا أن يسابق ويصدق توبته بأداء الجزاء أو الكفارة .

وفي هذا الوعيد الشديد تربية للمسلم على كف الأذى والتزام الحدود، فالذي يتقي الله بظهر الغيب في الصيد يتقيه في إخوانه المسلمين فلا يستظهر عليهم بقوته ولا يؤذيهم لا سيما في مواسم الجمع والازدحام مثل الحج ومناسكه ، فالمسلم يقابل إخوته بالأمان والسلام لا بالعدوان والله عزيز لا يرضى عدواناً على حدوده وأحكامه ومنتقم شديد الانتقام في الدنيا والآخرة من الذي يستهين بذلك ولا يرعى حرمته .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(96)

بعد تحريم الشيء القليل من صيد البر للمحرم إلى بيت الله الحرام، أباح الله للمحرم صيد البحر ، مهما يكن طعاماً أو غير ذلك مما يجد الناس في مياه الأنهار والبحار فهو مباح متاح يستمتعون به، من أقام منهم ومن صاده وهو سائر في سفره مع سائر السيارة المسافرين غير محرم وإنما حُرِّم عليهم صيد البر ما داموا حرماً .

والآية تذكر بحرمة صيد البر كما جاء في الآيتين قبلها وتعيد ذكر التقوى لتؤكد شدة ارتباطها بالطعام حلاله وحرامه ، حتى لا ينتقم الله ممن اعتدى فيه فهو عزيز ذو انتقام ، وتُذَكِّر الآية المؤمنين بالله الذي إليه يحشرون لأنه موسم حشر المجتمع الحجيج، ينبغي أن يُذَّكِّرَ بصورته الغيب يوم الحشر والحساب

قرأ نافع وابن عامر (كفارة) من غير تنوين وقرءا (طعام) بالجر

الذي يخافه المؤمنين بالغيب والذي يقع فيه على العادي الانتقام . والقرآن يصل مشاهد الدنيا حشراً في الدنيا بالحشر وراء الغيب يوم القيامة، تذكيراً لمن اتقى الله وخافه[157] .

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا[158] لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(97)

بعد ذكر الصيد المباح والصيد الحرام للمحرم : الآية تَذْكُر الكعبة – البُنية المكعبة التي جعلها الله البيت الحرام قياماً لأمن الناس ، تعظم فيه وحوله حرمات السلام عصمةً وحمىً من العدوان ، وقياماً للعبادة من الناس يقصدونها حجاجاً وعماراً صلاة عندها وذكراً وتلبيةً وطوافاً وسعياً وهدياً يُهدَى لله من الأنعام رزقاً للناس ، وقلائد تقلد لها شاراتٍ لذلك المقصد . وهي محل مجتمع أمة عباد الله من مختلف الناس ، حيث تقوم وحدتهم واستقامة علاقاتهم في تلاق كثيف في الشهر الحرام : شوالاً وذا القعدة وذا الحجة – الأشهر القمرية لنهاية العام مجالاً للحج وفسحة للأمن والسلام مع الإنسان والحيوان الوحشي والنبات ويلحق بها شهراً حراماً للأمن ووضع السلاح إن احترمه العرف في رجب الشهر السابع .

هذه الشعائر مكاناً وزماناً حرماً ورزقاً شائعاً ، طوعاً كتبها الله ليعلم الناس المؤمنون أن الله يعلم بلاد الناس وأوقاتهم وأحوالهم وسائر مافي السموات والأرض وأن الله يعلم خلقه الناس تدابراً وصراعاً أو وحدة وأمناً ويعلم كيف تزكيهم شعائر اجتماع وإحرام واستقامة وذكر الله في محور يجسد الوحدانية ، لكل الأمة المتكاثرة المنتشرة في الأرض ، ليعلموا أن الله بالكون وبكل شيء عليم .

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(98)

الآية وصلاً لتذكرة العلم بإحاطة علم الله وتدابيره من حكمته في إحرام البيت والشهر وكثير من زى الناس ورزقهم وتعاملهم حجاجاً وعماراً ، وهي تذكرة للعلم أيضا بأنه تعالى شديد العقاب انتقاماً ممن اعتدى على حرماته ، أو خرق بيئة السلام والاطمئنان عدواناً على الإنسان أو صيداً للحيوان. ووصية أن يعلم المؤمنون أيضاً أنه مع شدة عقابه شديد الغفران صابّ الرحمة، غفور رحيم يقبل حتى الذين خرقوا الحرمات لكنهم تابوا واستقاموا.

﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾(99)

---

[157] راجع الآية 203 سورة البقرة

[158] قرأ ابن عامر (قيماً) بحذف الألف

الرسول ﷺ هو الداعية الأسوة في حياته عموماً وفي شعائر حجه يسائله الناس ويتأسون به لتصويب السنن وتقويمها في مواسم الحج ، وما عليه إلا البلاغ يوضح الشعائر والحدود والأحكام الظاهرة ولا يحيط بعملكم ، فالله هو الذي يعلم ما تبدون من ذكر أو قول طيب أو رفث أو فسوق جدال ، وما تكتمون من غيظ عفواً أو من علم ينبغي نشره عند مجتمع الناس في مثل هذه المواسم والمزدحمات ، فذلك لله العليم بكل شيء العزيز الرحيم وليس ذلك من شأن الرسول ﷺ .

(قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(100)

في سياق الحج، وكثرة سواد الناس في مجتمع الأمم ، وعلم الله المحيط وحده بما يبدون وما يكتمون ، وبلاغ الرسول لدعوة توحيدهم وتقويم حياتهم وفي سياق تباين مسالكهم البادية ظاهراً ، الآية توصي الرسول ﷺ أن يبلغ : أن الخبيث من الناس ومن المواقف ومن الأموال ومن الأطعمة ومن الأفكار والمذاهب مهما تكاثر لا يساوي الطيب ، فالطيب يمتاز خيراً ، وإن أخذ المؤمن الإعجاب بكثرة الخبيث كماً وعدداً .

وإنما على المؤمنين أن يتذكروا أن الذي عنده علم النفوس وبيده ميزان تفاضلها هو الله ، وأن تقوى الله هي التي تزيد تَبَارك طيب القول والعمل وتطهر الإنسان وتجعله في الطيبين ، وعلى من جعل الله لهم ألباباً يفقهون بها موازين الحياة أن يختاروا التقوى في الطيبين وألا يخدعهم الخبيث مهما كثر أهله واشتد رواجه ، وإنما يرجى لأولئك المتقين أن يكونوا من المفلحين في الآخرة يوم الحشر إذ يتمايز الناس ويعلو أهل التقوى على أهل الخبث والفساد ، الذين قد يعجب المرء ما كانوا يبدون في الحياة الدنيا. وذلك أمر يتذكره المؤمن حين يحشر الناس للحج متباينين بظاهر المسالك كما سبق في سياق سورة البقرة[159] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْئَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ[160] الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)(101)

يُذَّكَر المؤمنون مهما تكاثر عليهم الناس وتكثفت العلاقات وتباينت المسالك وتكاثرت الآراء أن يتقوا الله ويعملوا ألبابهم لتمييز الخبيث من الطيب، والآية توجه إليهم الخطاب وترشدهم في أخلاق طلب العلم عما هو خير وطيب لا شر ولا خبيث . وقد يحتاج المؤمن إلى أسئلة خاصةٍ في أوان تداخل الطيب مع الخبيث ولكنه لا يتفرع ولا يتنطع في الأسئلة من تكثف العلاقات في المجتمعات المزدحمة ، فوق ما يحتاج وفوق الضرورة . وقد كان بعض أصحاب الرسول ﷺ يسألون عن شتى وجوه التكاليف

---

[159] سورة البقرة الآية 203 والآية 206

[160] قرأ ابن كثير وأبو عمرو (يُنْزل) خفيفة

مشعبين أحوال الواقعات في ضوء تكاثرها ، فذكرتهم الآية ألا يبحثوا عما سكت عنه وحي الله والرسول ﷺ من تكاليف مثل سؤالهم (أيكون الحج علينا كل عام) ولو قالﷺ نعم لمضت سنته ولساءهم ذلك لأنهم لن يستطيعوا أن يقوموا بهذا التكليف الملزم كل عام فتقع عليهم الإساءة من أنفسهم إذ يخبث الغياب ولو عاماً .

وإذا أكثروا من الأسئلة عن أشياء تخطر لهم في وقت تنزلت فيه آيات القرآن فإن الآيات ستجيب على أسئلتهم تبدي أحكاماً ، وتصبح من ثم مكتوبة عليهم ملزمة لا مناص عنها . والأصل في الأشياء الإباحة، والمكسوت عنه عفو وإذا وقع فيه اجتهاد فذلك حر لا قيد فيه بما قد يسوء معياراً لازماً للخبيث والطيب. وثمة أشياء عفا الله عنها ولم يبين حكماً ، فللمؤمنين أن يفعلوا فيها ما يطيب لهم والله غفور حليم حتى عن من أخطأوا الاجتهاد والمسعى .

(قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ)(102)

الآية ترد أولئك الملحين على التساؤل والاستفتاء من المسلمين وتذكرهم بسنن أهل الكتب والدين من قبلهم ، الذين أكثروا الأسئلة وتنطعوا فيها فجاءتهم الأجوبة تكاليف بعد تكاليف ، فثقلت عليهم فنكصوا عما كتب عليهم فأصبحوا كافرين . وقد وقع مثال ذلك من بني إسرائيل في قصة البقرة في سورة البقرة ، إذ تساءلوا عن جدية الأمر بذبح بقرة ثم عند تعيينها بكل الوجوه فذبحوها وما كادوا يفعلون إذ ضيقوا التكليف بذبح أي بقرة [161] .

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)(103)

في سياق الحج الذي كان عرفاً عند المشركين العرب قبل الإسلام فكتبه الله فرضاً على المسلمين وأحيا به سنة الإسلام الذي جاء به إبراهيم ، وفي سياق علاقات المسلمين مع جيرانهم الكتابيين من حولهم: اليهود الأشد عداوة بكفرهم ونقضهم للميثاق والأقرب مودةً النصارى بكفرهم وقولهم إن الله ثالث ثلاثة، الآية تذكر تفاصيل كفر عقائد المشركين وثقافتهم لفضح تهافتها وتناقضها. ففي سياق أسئلة المسلمين عن عبادات المشركين وعقائدهم التي ارتبط التعبير عنها بالطعام وأعرافه يذكر المسلمون بأن الله ما جعل ولا شرع ما ادعوه من أن البحيرة التي بُحرت أذنها شقاً بعد أن نتجت عداً من البطون من النياق تخلى لا تركب ولا تحتلب ، وأن الشاة التي نذرت لغرض معين إذا وافته تركت سائبة لا تذبح ولا تركب ولا تمنع من كلأ ، وأن الشاة التي والت عدّاً من التوائم الإناث ثم أعقبتها ذكراً أصبح لبنها حراماً إلا للرجال وسميت وصيلة للذكر حصانة من الذبح لآلهتهم ، وان الفحل الذي نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا هو حام قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ .

---

[161] سورة البقرة الآية 67 إلى الآية 71

كانت تلك سنناً جاهلية في الموقف تحبس به الأنعام التي أباح الله ركوبها وجعل فيها مآكل ومشارب ومنافع حلالاً طيباً لا يخبث بعرف ديني جاهلي. كل ذلك لم يجعله الله شرعاً مكتوباً على الناس ولكن الذين كفروا من مشركي العرب يفترون على الله الكذب فلم يجعل الله لهم سلطان علم أو شرع يشرعون به هذه المحرمات من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام ، بل إن ذلك من ضعف عقولهم وسخف معتقداتهم وبدعة أعرافهم .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ)(104)

هؤلاء المشركون الذين شرعوا الشرائع الباطلة كذباً وافتراءً على الله بغير عقل، جاءهم الهدى والرسول بالكتاب الذي أنزل الله مبيناً للشرائع والأحكام ، ولكنهم إذا نودوا تعالوا إليه تعصبوا لميراث ما وجدوا عليه آباءهم ولأعرافهم الباطلة وقالوا هي حسبنا وكفايتنا عما أنزل الله ، وقد ولد آباؤهم في الجاهلية وعاشوا فيها وشرعوا تلك الشرائع افتراءً فهم لا يعلمون شيئاً، فما عندهم من كتاب يعلمهم من جهالة ولا هدى يرشدهم من ضلال ، فما جاءهم من رسول قبل محمد ﷺ فكيف يستمسكون بأعراف أسلافهم ولو كانوا بغير علم ولا هدي، في جاهلية وضلال .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)(105)

في سياق العلاقة مع المشركين الخطاب للذين آمنوا أن عليهم كسب أنفسهم يلزموها ، ولا يتأثروا بمواقف المشركين الذين تعصبوا لميراث آبائهم بغير علم ولا هدى ولا حجة ولا عقل ، ولا يبالوا بذلك إذا حفظوا أنفسهم استقامة على الهدى ونصحاً وأمراً بالمعروف . فإن من اهتدى لا يضره ضلال من ضل ، ومن خبث من آباء سلفوا أو ممن وعظه الهداة فركب الضلال ، وإن كثر الضلال فالخطاب للمؤمنين المهتدين : إنكم جميعا أنتم وهم، سترجعون إلى الله يوم القيامة ليجد من اهتدى نبأه عند الله ثواباً في الجنة ويجد من ضل عذاباً في النار .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الأَثِمِينَ)(106)

بعد أن بانت العقائد والأعراف ممن كانوا حول المؤمنين من أهل الكتاب اليهود وأهل الكتاب النصارى والمشركين ، ومواقفهم الموروثة من أحكام الله وشرائعه وعقوده ، يعود الذكر ليبين للذين آمنوا حكم الله في شأن الوصية إذا حضر الموت ، فهي آخر العقود في الحياة ذكراً يربط خواتيم السورة إلى

أوائلها(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) . فوصية الموت هي خير يورثه المسلم وفق الشرع لا عرف بدع من التحريم للحلال الطيب يفتريه الآباء على الله ويتوارثه الخلف . وقد سبق في القرآن نزولاً وترتيباً هدى الوصية تركة بين يدي الموت وذلك في سورتي البقرة والنساء .

والخطاب في هذه الآية عن الشهادات بينة على الوصية فإذا استشعر المؤمن حضور الموت ودنوه ، يعهد لاثنين من المؤمنين من ذوي العدل – قوامين لله بالأمانة والبينة لما أوصى به الميت، أو اثنين عدلين من غير المؤمنين إن ضرب المؤمن في الأرض مسافرا فأصابته ووافته مصيبة الموت قدراً . فاللذان عهد إليهما بالوصية من الميت ، يوقفان أمام المجتمع محبوسين بعد الصلاة حتى يلهمهما أثرها ذكر الله وخشوعاً وصدقاً في إبلاغ الوصية بالحق، وعليهما إن داخل أهل الميت الريب في صدق الشهادة أن يؤديا القسم حلفاً بالله أنهما لن يزورا وصية الميت ولن يشتريا بالزور ثمناً قليلاً من رشوة أو طمع أو ترضية ولو لذي قربى منهم له في الشهادة بالوصية كسب ، فذلك كله قليل مما بدا في الدنيا له قدر لأن عاقبته الندامة والعذاب في الآخرة ، ويؤكدان أَنهما لا يكتمان أي شيء من الشهادة لأنهما يقومان بها تامة بين يدي رقابة الله وتقوى جزائه ، وأن الإثم عليهما إن كتما وصية الميت وتورطا داخلين في مصير الآثمين

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ[162] عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ[163] فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ) (107)

فإذا ظهرت بيانات وأدلة تجعل أولئك اللذين شهدا بوصية الميت مستحقين للإدانة بإثم الكذب والكتمان، يقوم آخران ذات المقام من بعد الصلاة ويكونان من بين الذين خانتهما وأحقت عليهما الظلم الشهادةُ السابقة ، ومن أولي أهل الميت بأداء الشهادة . فهؤلاء يحلفان بالله كما حلف أولئك أنهما يلتزمان الصدق وأنهما يشهدان شهادة أحق مما سبق وأنهما يقران أن لو اعتديا على الحق كذباً وزوراً لدخلا في زمرة الظالمين وإثمهم .

(ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(108)

(ذلك) النهج في أداء الشهادة قسماً وتأكيداً بعد الصلاة هو أدنى وأقرب أن يأتي بها على وجهها الحق فتجئ لا كذب فيها ولا زور ، ولأن الاحتياط بالرجوع إلى شهادة آخرين من أهل الميت الذين قد يقع عليهم ظلم الكذب يضمن خوف الشاهدين الأوليين أن ترد أيمان بعد أيمانهم، لئلا يضيع حق من

---

[162] قرأ القراء السبعة ما عدا حفصاً (استُحق) بالبناء للمجهول

[163] قرأ شعبة عن عاصم وحمزة (الأوَّلين) بصيغة الجمع

مال أو ملك لوريث أو موصى له . وعلى المؤمنين أن يتقوا الله فالتقوى هي الضابط في أمر الشهادات والعقود وفي كل أمر والسمع الواعي المطيع لحكم الله هو الواجب على المؤمنين، فإن من فسق عن أحكام الله الواضحات بالحيل والتزوير والكذب لن يجدوا الهدى من الله في الدنيا والآخرة، كما أبانت هذه السورة في كل ما قصته من قصص أهل الكتاب من قبل موعظة أن يعتبر ورثة الدين ، وألا تضل سيرتهم بكذب الموروثات من السلف الذي يروجه من استحفظوا عليه وكانوا عليه شهداء فاشتروا به ثمناً قليلاً وتزلفوا به الناس[164].

***

عموم المعاني

الآيات (87 – 108)

الثقافات الدينية يبتلى أهلها عبر تقادم العهود بهجر ميثاق الغيب والدين، فإذا تغالوا في التدين انصرفوا إلى مقدسات مفتراة ومحرمات في عالم الشهادة لا يتجاوزونها وسيلة رآيات بعالم الغيب ، وإذا فرطوا اعتدوا مستبيحين حدود الله موالين سائر عُبَّاد متاع الدنيا. وهؤلاء وأولئك يناهضون دعوات التذكير بالأصول الأولى وتنزيلها على الواقع المتغير، إلا من بقيت فيهم بقية من إخلاص يتجاوبون بها مع التجديد.

إن أهل الثقافات المتقادمة المريضة قلوبهم بالغلو نحو تقديسات أو السقوط في إباحيات دنيوية يعبرون عن ذلك بالأعراف في متاع الدنيا من طعام يفرطون بالترهب حتى يحرموا طيبات ما رزق الله وأحل ، أو بالشهوة فيعدون على حدود الحلال نحو ما قدم الله وحرم وذلك لضعف دوافع الإيمان وضوابط التقوى. إن على المؤمنين القوام في ذلك وعليهم كذلك في معاملات القسم بالله استشهاداً له على الغيب ، أن يتذكروا أن عالم الشهادة قد يشغل المؤمن بلهو عارض عن الله يعرّضه في مقولاته للقسم للانزلاق إلى اللغو، والله لا يؤاخذ على ذلك. إما إذا جد المؤمن في إيمانه عزماً ثم أغراه هواه فما تحرى الحق عمداً وقصداً فإن عليه أن يكفر ذنبه ويتطهر بدفع شهواته إطعاماً أو كساءً أو تحريراً لآخرين أو صياماً . إن تغليظ الأيمان قد يقع نذراً وترهباً يحرم طيبات الحلال أو يقع كذباً غموساً يعدو نحو الحرام في الحياة، ولكن الله يبين لنا آيات التوبة ميسراً لا معسراً لعلنا نشكر .

إن الحياة الخاصة المستقيمة نحو الله إيماناً وتقوى عليها أن تجتنب في الطعام والتعامل أهواء الشهوة وإغراءاتها تستهويه للعدوان على حدود الله لهواً وكسباً عبثاً حراماً. إن على المؤمنين أن يجتنبوا وينتهوا عما سلف من شرب الخمر سكراً ولعب الميسر طمعاً واعتباط الطعام لذة وكسباً من قرابين الأنصاب والتساهم بالأزلام. إن الشيطان بذلك يثير العداوة والبغضاء بين الناس ويجر إلى الإجرام ويلهي عن ذكر

---

[164] الآية 44 سورة المائدة

الله وعن الصلاة ، فيهيج الفساد في الأرض لمجتمع الذاكرين الأتقياء . إن على المؤمنين الحذر والمقاومة للعادات الضالة والأعمال السيئة التي قد تفشو في المجتمع، وأن يستقيموا على طاعة أمر الله وسنة رسوله فإن تولوا فلا إكراه في الدين ، وإنما يبلغه الرسول ويبينه . وما داموا على الإيمان والعمل الصالح فلا جناح عليهم فيما أحل الله من طيبات الطعام مهما غشيتهم أوهام الترهب والتحريم – ذلك ما داموا كلما تقلبت عليهم ابتلاءات الحياة وضغوط الأعراف أو الشهوات استقامت سيرتهم بتقوى الله لا ينقصون ولا يطغون عن شرعه ، بل يثبتون على الإيمان يصدقونه بصالح الأعمال ، ثم مهما توالت عليهم من بعد الابتلاءات يستمرون في تقواهم وإيمانهم ، ثم مهما تثاقلت بهم يتصاعدون نحو مراتب التقوى ومراقي الإحسان في الدين حيث الزلفى إلى حب الله .

إن الامتحان بمتاع الطعام في الحياة الدنيا الذي يُعَرِّض ذوي الدين المعلول للترهب دون الحلال أو التعدي وراء الحرام ، يغشي أهل الحاضرة في صوامع الرهبان ومعارض الحيوان المقدس وفي نوادي الخمر والميسر والمطاعم والمغانم قرابين للأصنام وملاعب بالأزلام .كذلك تغشى على سواء أهل البادية والبحر ، ففي البحر يبتلي الله المؤمنين من الناس ليعلم من تدفعه وحشية حب الاصطياد إلى العدوان حتى في الحمى الذي تحميه حدود الدين ، ليندفع في الآخرة إلى حمى العذاب . من تلك الابتلاءات أَن الصيد قد يسرح في الحرم حول مكة فالعباد يتعرضون له رغبة صيد إن لم يتذكروا الله رهبة بالغيب ألا يعتدوا حتى لا ينتهوا إلى عذاب أليم ، وأن تبقى بيئة الحرم آمنة يحتشد فيها الحجاج ساكنة نفوسهم مطمئنة في سلام بأنهم أمة واحدة خاشعة لله حول ساحات المشاعر وقبلة الصلاة، بل يرون الصيد سارحاً لا تثيرهم نحوه دوافع للأذى ، التي قد تربوا فيصوبونها نحو إخوانهم الحجاج من غضب وانفعال باضطرابات الزحام، فإذا ورط المؤمن في الصيد عمداً أدب نفسه بهدي نعم يعطيها لطعام الحجاج ، وهذبها بكفارة للذنب إطعاماً للمساكين أو بعدل ذلك صياماً ، ليتطهر ويذوق بالجوع وبال العدوان . فمن كَفَّرَ واتقى الله في أمن الصيد كان أشد تقوى ألا يؤذي بل يؤمن إخوانه الحجاج ، أما من عاد وأصر على الجناية على الحرم فالله سيعود عليه للانتقام عذاباً عدل ما فعل .

إن الله أحل صيد البحر ومتاعه لركاب البحر سائرين حجاجاً أو في مقاصد الدنيا ، وإنما حرم صيد البر في الحرم لأنه محشر المؤمنين في الحج وبيئة التقوى والأمن في سبيل الأمن والسلام عند الله يوم المحشر إليه في الآخرة. وقد جعل الله البيت الحرام المكعب الهيئة حمىً آمناً معصوماً من العدوان ، ليقوم فيه الناس مطمئنين خاشعين لله في فسحة مكان حرام وفترة زمان حرام شهراً حول الحج ، وشرع للناس هدايا الطعام لحاجة كل الحجيج، وبذلك يتزكون بتجربة الحياة تلك ويبلغون درجة العلم بأن الله هو الذي يعلم كل حيث وحين في السماوات والأرض حتى من وراء الحرم والأشهر وكل شيء من أعمالهم وراء تلك العبادة ، يعاقب أَشد العقاب من استحق ذلك بالعدوان ويغفر ويرحم عباده الذين يرعون محارم الآخرين . وما كان للرسول ﷺ إلا أن يبلغ سنن المشاعر في الحج والأخلاق في الحرم الآمن ،

ولكن الله هو الذي يعلم ما يبدي الناس في حياتهم هناك مزدحمين ، وفي سائر حياتهم من خبيث قول أو عمل أو طيب ومن عدوان أو سلام ، وما يكتمون من سوء ظن أو شح نفس أو كظم غيظ ، أو إخاء وانفاق سمح في مزدحم المعاملات .

من رسالة الدين أن ما في كثافة أي مجتمع بشري بكثرة العدد وتراكب الاختلاف –كما يبدو في احتشاد الحجاج – ينبغي ألا يفتن المؤمنين فُيقِّوُموا ما هو الخير والشر بحكم الغالب بين الناس. فالدين معايير الله الحاكمة المطبقة لا يستوي في ضوءها الخبيث والطيب ولو غلبت المرء كثرة الخبيث ففتنته فأعجبه. إن استقامة المعيار من تقوى الله الذي يملك العلم وينزل الميزان الحق الأعلى لذوي الألباب الذين يتفقهونه ، فيفصلون به موازين الحكم القيمة في الحياة الدنيا ويتجاوزون الفتنة إلى الفلاح.

إن في كثافة الاجتماع أيضاً واختلاف تفاعلاته ما يدعو إلى كثرة التساؤل عما هو حق وأقوم في تصرفات الناس وبينهم في المعاملات– ومثل ذلك يثور بين زحمة الحجاج وتباين أحوالهم وأصولهم وشئونهم في موسم الحج ، لكن ينبغي ألا يحمل ذلك المؤمنين لتحقيق التمييز ودقته بين الخبيث والطيب أن يكثفوا السؤال والاستفتاء موازاة لتشعيب المعاملات ، واختلاف الرؤى بازدحام الواقع الملتفة آثاره ، ولو كان قدر الله أيام التنزيل أَن يجيب كل أسئلة الحجاج الذين تداعوا يمثلون بكثرتهم كثافة الأمة المسلمة ، لأساءهم ما يبدي لهم الوحي في بعض الأشياء ، وإلا تفصلت التكاليف وتثاقلت عليهم ، ولكن الله عفا عن تحميلهم آصاراً والله غفور رحيم . وكان الرسول ﷺ تتواتر عليه الأسئلة في الحج أيضاً فيجيب الناس عفواً في كثير لهم كيفما اجتهدوا وتصرفوا وقدموا وأخروا. وكذلك من بعد مهما تكثفت الحياة وتركبت المجتمعات والتفت مشاكلها ينبغي لذوي العلم ألا يسبطوا على المسلمين فتاوى متنطعة متفرعة في كل شأن، بل يتركوا سوادهم العام يجتهدون في شعاب المسائل عفواً ، من اجتهد حقاً كان له كل الأجر ومن أخطأ كان له بعضه ، وقد مضت سنن دينية ممن تنطعوا في التساؤل والاستفتاء حتى تكثفت عليهم أثقال فروع الأحكام فضاقت بها أنفسهم وكفروا صراحاً ، ولذلك مثال فيمن أمروا بذبح بقرة من موسى، فأخذوا يسألون عن جد الأمر وهزله وصنف البقرة ولونها وعينها وما كادوا يفعلون ما يؤمرون.

كذلك خلف إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – سنة الحج وحرم الصيد وهدي النعم لبسط الطعام وسائر المسنون ، ولكن متنطعة الجاهلية افتروا على الدين ومضت أعرافهم متى أعجبهم كثير نتاج الأنعام أن يفتوا بتحريم الطيب الحلال مما ينذرون بالعلامات ، منها ألا يشرب لبنها ولا تذبح ولا يؤكل للبعض ، وهذه علة الأعراف الموروثة المنسوبة للدين بغير صدق المتبعة بغير عقل ، هي في كل تاريخ الديانات مثل عهدها في الجاهلية العربية إذا تنزلت على أهلها رسالة تذكير من الله تدعوهم للعود إلى حق الهدى وبعفوهم من الأغلال ، زعموا أن حسبهم ما وجدوا عليه الآباء ولو كانوا سلفاً بغير علم ولا هدى من كتاب .

إن المؤمنين الذين يحفظون أصول الهدى المتجدد برشد العقول يتلون بمثل ذلك التراث المتقادم وعليهم الاستقامة على الهدى غير مبالين لا يضرهم ضلال من رهنته التقاليد، فإلى الله مرجع الجميع – كل يجد نبأ ما كسب عبر تحولات تاريخ الدين في الدنيا وجزاءه في أزل الآخرة

في هذه السورة من كتاب الله آخر البلايا للمؤمنين في الحياة الخاصة الماضية كلاماً وجدالاً أو طعاماً حلالاً أو تجمعاً وسؤالاً أو عرفاً واستقلالاً، وآخر الوصايا لهم في شأنها أن إذا حضر الموت وكانت لهم وصية ورثة يهيئوا شهادة ممن تيسر حضورهم ، ثم على الخلف أن ينظموا أداء الشهادة بالغة خالصة من ريب الإثم وطلب المغنم ، وأن يقوموها بالأيمان والشهادة اللاحقة إن طرأت ريبة. وعلى المؤمنين في كل الشهادات بالغيب أن يقيموها متقين الله من الفتنة وأن يسمعوا الشهادات ما تقدمت بالحق. والله لا يهدي الفاسقين عن الحق ضلالاً عن وصية ميت . وكذلك الفاسقون عن الحق في وصايا أصول الدين الموروثة إلا الذين يؤدون الشهادة صدقاً وإخلاصاً من فتنة الآثام والغنائم والذين يستوثقونها بالشهادة المسموعة من بعد تواتراً وتحقيقاً ولا يرتهنون لانتقال الأعراف وعدوى التقاليد الممتدة زوراً بالأهواء. وبرواية الثقاة الضابطين وسماع التقاة المتثبتين يحفظ المسلمون وصايا الدين الخالد .

***

ترتيل المعاني

الايات (109– 120)

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ[165])(109)

اليوم الذي إلى الله فيه المرجع ينبئ السابقين واللاحقين بما كانوا يعملون وبما كان يغشى الوصايا من الحق والتقوى أو الإثم والظلم والفسق ، ذلك اليوم يوم يجمع الله الرسل شهداء على الناس . والمعنى يصل مجالس العدل والشهادات في الدنيا بوقفات العدل والشهادات في اليوم الآخر فكما يجتمع المسلمون بعد الصلاة للقسم والشهادة على الوصايا يجمع الله الرسل يوم القيامة ويسألهم كيف استجاب قومهم لما أرسلهم به الله من الهدي والبيانات . فالرسل – عليهم السلام– يقولون لا علم لنا، فهم لا يشهدون إلا في حدود ما علموا، فمنهم من قتل ولم ير ماذا حدث بعدهم ، وكلهم مات ولا يشهد إلا على أمة الخطاب ما دام فيهم لكن الله وحده الشهيد على ما خلف بعد أن توفى الرسول ، فالرسل يقولون : لا نحيط بالاستجابة علماً إنك أنت وحدك — سبحانك – علام الغيوب في صدور الناس وفيمن لم يصحبنا أو خلف من بعدنا . وسؤال الرسل — من الله – لأن إثبات الحقوق والعدالة يقتضي الأسئلة والشهادات ، ويقوم على ذلك الحكم في الدنيا والآخرة ، وذلك في شأن الجزاء عن الوفاء بكل

---

[165] قرأ شعبة عن عاصم وحمزة (الغِيوب) حيثما وقع بكسر الغين

المواثيق والعقود ، طاعة وتقوى وحكماً بما أنزل الله حقاً وصدقاً ، في كل سياقات هذه السورة التي تسمى –أيضاً – سورة العقود[166].

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ[167] تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا[168] بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ[169] مُّبِينٌ)(110)

يوم يجمع الرسل لأداء الشهادات أمام الله الحكم العدل المتعالي تذكّر الآية بحيثيات رسالة توحيد الله من عيسى – عليه السلام – وعهده ثم شهادة عن استجابة قومه له ، ذلك لأن رسالة عيسى – عليه السلام – واجهت واقع ابتلاء عسير وظرف اضطراب دقيق ، لكن أثرها العميق ظل متصلاً عبر سيرة البشرية ، وأن التبديل الذي لحق بوصية عيسى منذ وفاته يجعله مثالاً عظيماً للشهداء من الرسل عما أجيبوا ، إذ قال الله يذكر عيسى عليه السلام النذير البشير الشاهد يوم القيامة بمعاني توحيد الله التي ضل خلفه عنه بتأليهه ، فالله يذكر عيسى بنعمته سبحانه تعالى عليه وعلى والدته منذ لحظة حمله وميلاده وما اعتراها من ابتلاء وفرح عظيم ، وذلك إذ أيده الله بروح الطهر والقدس جبريل عليه السلام ، فجعله يكلم الناس في مهاد الرضيع فرفع عن أمه الاتهام والمعرَّة ، ثم في الكهولة فصدم برسالته مادية اليهود التي اشتدت واستغرقتهم حتى سَخَّروا لها الدين والكتاب. ثم ذكره الله بنعمته إذ علمه الكتاب الذي عَلَّمه للرسل كافة من قبله ، داعياً إلى عبادة الله الواحد وعَلَّمه الحكمة التي تهدي للعمل بمقتضى الكتاب وأحكامه المنزلة المفصلة، وعلَّمه بذلك نص التوراة رواية عن موسى — عليه السلام — حقاً معبراً عما حَرَّفه اليهود من أحكامه وتحايلوا عليها ، ثم نص آيات الإنجيل الذي جاء هدىً وموعظة متمماً للتوراة ومقدماً لما وقع فيه منها اليهود. وذكره تعالى بما أنعم من المعجزات الباهرات إذ يصنع من الطين بإذن الله ، وعونه ما يشبه هيئة الطير كما يفعل الصانع الماهر، وإذ ينفخ في صور من ذلك الطين المشكل فتكون تلك المجمدات طيراً حياً بإذن الله ، وذكره الله كذلك بمعجزات أخرى في الصحة والحياة إذ يطب الأعمى فيرده بصيراً ، ويعالج البرص عن الأبرص ، كل ذلك بإذن الله ، وإذ يحيي الموتى فيخرج منهم أحياء بإذن الله– كل تلك المعجزات تجرى على يديه في بادي الأسباب ولكنها بإذن الله تخرق أقداره في نواميس الكون والحياة المعروفة. وقد أنعم الله عليه بعد هذه المعجزات الباهرات بأن حفظه من مؤامرات

---

[166] راجع هامش رقم

[167] قرأ ابن كثير (القدْس) بسكون الدال

[168] قرأ نافع (طائراً) بالإفراد

[169] قرأ حمزة والكسائي (ساحرٌ) بالإفراد

قومه بنى إسرائيل الذين أرادوا قتله فكفهم الله عنه إذ جاءهم بالبينات واضحة ، حقوق المعاني فيها مشهودة معجزات الصور منها ، فقال الذين كفروا منهم ما هذا إلا سحر مبين وتأخذ صوره القلوب وتفتن معانيه .

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّنَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)(111)

السياق يتصل بخطاب الله مذكراً عيسى – عليه السلام – إذ أوحى بأثر دعوة وقدوة ووقع معجزات من نبي رسالة تأمر بالإيمان بالله ورسوله ، فاستجاب له الحواريون أنصاراً خلصاً وقالوا لله آمنا واستشهدوا الله على أنهم مسلمون لأمره ، فوجد عيسى بنعمة الله من يؤمن بالله وبرسالته ويشهد عليها رغم تكذيب بني إسرائيل ومكائدهم .

(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ[170] أَن يُنَزِّلَ[171] عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(112)

توالى في السياق كله ذكر عيسى – عليه السلام – بأنه ابن مريم وتذكر الآية بأن قد خاطبه الحواريون كذلك باسمه ولأمه تذكرةً للنصارى وفتنتهم ، إذ غَالَوْا في الدين فرفعوا عيسى النبي حتى نسبوه بنوة إلى الله سبحانه وتعالى عما يصنعون . والآية توضح أثر المادية الطاغية في ثقافة بني إسرائيل حتى في الحواريين — الأنصار الخلص – ممن أوحى لهم فآمنوا وشهدوا وأسلموا لله ولكنهم يسألون عيسى . هل يستطيع الله أن ينزل عليهم آية مائدة من السماء مُعدةً تعطي الطعام الطيب وربما تأثروا —كذلك- بثقافات شاطئ البحر المتوسط التي يهتم أهله بالطعام ويستغرقهم بصناعته وأكله. ولكن عيسى — عليه السلام — يجيب على طلبهم مذكراً بتقوى الله إن كانوا آمنوا به حقاً ، فالتقوى قوت قلوب عاصم من شهوة قوت البطون ، والإيمان بالله فوق هذه المطالب المحدودة الدنيا لما زين من متاع الحيوان .

(قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ)(113)

أوضح الحواريون لعيسى – عليه السلام- أنهم يريدون من وراء المائدة أن يأكل منها الجميع، وأنهم يبتغون معجزة أخرى تطمئن بها قلوبهم زيادة علم وإيمان أن قد صدقهم عيسى – عليه السلام – ثم هم يريدون أن يروها ويأكلوها ليكونوا عليها من الشاهدين آيةً لحق الرسالة من الله ، تبلغ سائر الناس ممن لم يشهدوها.

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)(114)

---

[170] قرأ الكسائي (تستطيع) بالتاء (ربَّك) نصباً

[171] قرأ ابن كثير وأبو عمرو (يُنْزل) مخففة

بعد أن أضاف الحواريون لسؤالهم المائدة كل تلك الأسباب اتجه عيسى عليه السلام بالدعاء إلى الله، أن يُنزل عليهم مائدة من السماء وأن يكون يوم نزولها عيداً لأول أمته من شاهديها وآخر أمته ممن لم يشهدها ، وفق ما طلب الحواريون بأن يكونوا ماضين بشهادتهم إلى يوم القيامة مجيبين ذكرى نزولها . وأن تتنزل لا حدثاً وعيداً وحسب بل آية من الله أخرى كما أرادها الحواريون شهادة على صدقه، وأن يرزقه الله وإياهم فهو خير الرازقين بهذه المائدة ويرزق الخير في كل وقت .

(قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا[172] عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ)(115)

بعد طلب الحواريين وشفاعة عيسى – عليه السلام – خاطبهم الله بالإجابة وبالخطاب المباشر: أنه منزلها عليهم نزولاً لا يميد بالمتاع والرزق ، بل يرتب عليهم تبعات العبرة والشكر وتكاليف العبادة لله وحده . فمن يكفر من الحواريين المخاطبين بتلك الآيات في كتاب الله وكل تلك المعجزات الباهرات – لا سيما بعد آية المائدة التي كانت إجابة مباشرة لطلبهم وابتغائهم بها طمأنينة تصديق فوق الطعام ، فإنه تعالى معذبهم عذاباً شديداً لم يعذبه أحداً من أهل العوالم كلها، فكلما جاءت آيات الإيمان بينات معجزات كلما كان الكفر بها مدعاة لعذاب أكبر وأشد .

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ[173]) (116)

يتوالى في الآيات ذكر عيسى — عليه السلام – إن كان قد بدل رسالته تعالى ودعا الناس ليتخذوه وأمه إلهين من دون الله . لكن عيسى عليه السلام يُسبح الله ويُنزهه عن كل ادعاء للألوهية من دونه والسؤال لعيسى — عليه السلام — يأتي في إطار شهادته الخاصة على النصارى الذين ألهوه وأمه ، فعيسى — عليه السلام — يجيب مخاطباً ربه مسبحاً له تعالى ، معلناً أنه هو ما يكون له أن يقول كما يدعون مما ليس له بحق ، بشراً وعبداً لله يؤدي أمانة رسالة ، وهو يشهد الله على فريتهم . فإن كان قال مثل ذلك فقد عَلمَه الله قبل أن ينكره هو. وهو يشهد مؤمناً أن الله يعلم ما في نفسه وراء أي مقولة أنكرها وأنه هو لا يعلم ما يحيط به الله من علم وإنه تعالى هو عَلام الغيوب وراء المشهود والمسموع .

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)(117)

عيسى – عليه السلام – يخاطب الله ويشهده يوم جمع الرسل أنه لم يقل لقومه إلا ما أمره الله أن يقوله من رسالة : أن يعبدوا الله واحداً رباً له هو الرسول ، ورباً لهم يقوم بأمره وأمرهم . وأنه هو إنما كان

---

[172] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي (مُنْزلها) مخففة

[173] قرأ شعبة عن عاصم وحمزة (الغِيوب) بكسر الغين

عالماً شهيداً على استجابتهم لدعوته ما دام حياً بينهم . ويُسلِّم عيسى – عليه السلام – نفسه من الشهادة عما جرى من استجابة لما توفاه الله عن الدنيا ، ويرفع الشهادة لربه أنه تعالى كان وحده الرقيب على أولئك القوم وعلى أعمالهم ، وأنه الحي القيوم شهيد على كل شيء من أمر الوجود .

(إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(118)

عيسى – عليه السلام – يوم القيامة إذ ينكر إلا أمانة الدعوة بما أُمر به من رسالة التوحيد ، ويقصر شهادته على حياته ويرفع بعدها الشهادة لله المطلقة ، مخاطباً ربه عاهداً بالحكم والقضاء إليه ، فان الذين اتخذوه هو وأمه إلهين فريةً وإشراكاً فإنهم عباده تعالى له في شأنهم المشيئة المطلقة ، قديراً على كل ما يفعل بهم من شيء – لاسيما أنهم خانوا العبودية وأشركوا بها وإن الله يغفر لمن تابوا بعد الشرك ولم يذنبوا إلا ما دون ذلك ، فهو العزيز على كل أحد لا ينقص من عزته هذه المغفرة ولو لشرك عارض ، والحكيم في قضائه إذا غفر للمسيء ولو ذرة من شرك قبل المتاب . وكثيراً ما ذكر القرآن مع مناسبة المغفرة بصفة الغفور والرحيم لا سيما في خواتيم الآيات ولكن عيسى – عليه السلام – الغالب على نفسه الرحمة والمخافة من مسئولية الشرك المنسوب إليه ، يذكر في خطابه لربه هنا صفات تؤكد توحيد الله وتعاليه ، نفياً للكفء والشريك فالبشر عباد الله له القدرة أن يعذبهم وحتى أن يغفر لهم فهو العزيز الحكيم . وأنىّ لبشرٍ كعيسى أن يُؤَّله كفؤاً لله وهو عاجز القدرة عن تعذيب سائر البشر مثله وأن يغفر ، قد يفعل عن هون وغفلة كما قد يفعل السلاطين البشر.

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ[174] يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(119)

الله – سبحانه وتعالى– يجيب على شهادة عيسى عليه السلام الذي صدق أنه لم يقل ما ليس له بحق ولم يكن رقيباً على قومه بعد أن توفاه الله، وهكذا يجيب – الله – على شهادة المرسلين يوم يبعث من كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم فتصدق شهادة المرسلين يوم الحكم والدين. الله يومئذ يكون قد قال هذا يوم ينفع فيه الصادقين صدقهم فيما بلغوا من رسالة أنبياء مبلغين أو صالحين راوين الرسالة ناقليها عبر ميراث القرون ، في الدنيا صدقاً لا يبدل توحيد الله وحق عبادته وفاء بميثاق الإيمان ، وما يترتب عليه من العقود مع الله. أولئك لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يخلدون فيها خلوداً أبدياً ويجدون فيها فوق نعيم الجنات والأنهار نعيماً أرفع ، هو أن يتم رضي الله – سبحانه وتعالى – عنهم ويتحقق رضا نفوسهم تجاوباً مع رضوان الله ، ذلك النعيم والرضى الفوز العظيم ينسى به الصادق في أداء الرسالة دعوة وقدوة ، كلما وجد من خذلان البشر في الدنيا وخسران متاعها العاجل .

---

[174] قرأ نافع (يومَ) بالنصب

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(120)

الآية الخاتمة في السورة تذكر بملك الله الشامل لكل ما في السماوات والأرض وقدرته التامة في التصرف بكل ذلك حالاً ومآلاً، فهو وحده المالك لا يحتاج لشريك – سبحانه – ولا يفتقر إلى ولد فله كل ما في السماوات والأرض يخلق ما يشاء ويقدر على ما يشاء ويتصرف ولو إهلاكاً ، إن شاء لمن اتخذه بعض الناس كالنصارى إلهاً كعيسى وأمه اللذين لا يملكان دون الله شيئاً كما سبقت الآية [175] ويتصرف ولو تعذيباً أو غفراناً لمن شاء ممن ادّعَوْ أنهم أبناء الله وأحباؤه كاليهود[176] وقد ذكرت السورة في أول آياتها بحكم الله في الوفاء بالعقود وأَن الله يحكم ما يريد ، وكل أحكام الدين عقود مع الله من ميثاق الإيمان به ، وعلى المؤمنين أن يؤسسوا حياتهم وعملهم كله على ما أنزل الله من حكم حرمة طعام أو نفس أو مال أحد ، فلله الملك كله يجازي من يشاء بما يشاء [177] .

ولله ملك السماوات والأرض فالمؤمنون يحكمون بما أنزل الله الملك ولا يكفرون ولا يظلمون ولا يفسقون ، ولله ملك السماوات والأرض لكنه يبتلى عباده طوعاً مهما خرجوا عن شرعه أو لزموه، وخرجوا عن عبادته أو أدَّوْها ، فإنه ملاقيهم يوم القيامة إذ يجمع الرسل والشهادة والحكم والملك كله ولا يخرج عليه بشر . ويوم له ما في السماوات والأرض يتصرف فيهن وفي ما فيهن من جن وإنس وهو على كل شيء قدير يعذب الكافرين ويغفر للمؤمنين نعيماً ورضواناً .

***

عموم المعاني

الآيات (109 – 120)

في آخر ختام هذه السورة ذكر يوم الآخرة إذ يحشر الناس أجمعين إلى ربهم راجعين ، لا يستوي الخبيث والطيب ولا يتمايزون بالكثرة بل بفرقان الحق، يوم الدين ميزان الكتاب والجزاء لمن فسق أثيماً إلى العذاب الأليم ومن إهتدى مستقيماً إلى صراط النعيم، يوم ينتهي إلى الموت والبعث البشر كافة وتُؤَدَّي الشهادات للقضاء بينهم جميعاً ، إذ يجمع الله كل الشهداء المستحفظين على استقامة سيرة الدين ألا تضل ولا تنقطع بالأكاذيب ولو حملتها الأعراف الموروثة، الذين ظلوا يبلغون رسالة الدين عبر تاريخ الحياة الدنيا من سلف إلى خلف، والذين كانوا يرتفعون بسلسلة البلاغ والشهادة إلى المرسلين أئمة دين

---

[175] الآية 17 سورة المائدة

[176] الآية 17 سورة المائدة

[177] الآية 40 سورة المائدة

التوحيد ، الذين كانوا يتواترون يصدقون سابق التنزيل ، يبعثون من أصوله ما فات ويجددون من شرعه ما انتسخ ويحيون من أثره في النفوس ما مات ، ثم يبشرون تلاحق الرسالة حتى ختام المرسلين .

يومئذ يجمع الله الرسل يحاسبون ويسألون عما أدوا من أمانة الرسالة وما شهدوا من إجابة أمة الخطاب، ولكنهم وراء ظاهر ما شهدوا وحاضر من صحبوا لا يعلمون ويكلونه إلى الله عَلام الغيوب. ومن أكبر من يقوم ليشهد من المرسلين عيسى – عليه السلام – لأنه أصل لما انتهى بعده أغلب العالم الخالف إلى ضلال عن حق رسالة السماء. يومئذ يذكر عيسى – عليه السلام – بما ساق الله الآية من نعم وآيات جليلة تجعل الدعوة أيسر وأدعى للاستجابة – آية الأم والروح القدس والكلام في المهد وآية علم الكتاب القديم والجديد والحكمة وآية المعجزات إحياءً للموتى وإبراءً للمرضى، وآية كف كيد بني إسرائيل الذين اختاروا كفراً بدعوته وعدوها سحراً، بل وآية الحواريين أنصاره المسلمين إذ غشيت إيمانهم مادية وغلبت تقواهم متعة الطعام فسألوه عن قدرة الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء لتأكلها بطونهم وتطمئن قلوبهم وتشهد بآياتها ألسنتهم ، فدعا بها عيسى من الله عيداً خالداً وآية ورزقاً، واستجاب له الله أنها نازلة أندر الآيات فمن يكفر بعدها يتعرض لأندر العذاب . ويومئذ يكون صلب المساءلة بعد تلك المذاكرة لعيسى هل قال هو للناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله كما شاع فيهم بعداً ويجاوبه عيسى مخاطباً ربه يسبحه عن الشريك وينكر أن ما كان له أن يقول مثل ذلك ويحيل كل العلم لله بالمقولة وغائبة الباطن. ويشهد عيسى أن رسالته لبني إسرائيل إنما العبادة لله وحده ربه وربهم ، وأن شهادته بما حضر من استجابة بما دام فيهم ، وأن لما توفاه ربهم رجعت الرقابة عليهم لله الشهيد على كل شيء . ثم يكل عيسى حسابهم ذلك اليوم لله وجزاءهم بذلك الشرك والظلم العظيم أن يعذب الله من أشرك منهم افتراءً على رسالة التوحيد ، فهم عباده تعالى وله الخيار والاقتدار عليهم . وأَن يغفر لمن تاب قبل مماته فليس ذلك منه تعالى عارض هون في قبول ذرة من عمل الشرك ولا نقص في الحساب عليها بل هو العزيز الحكيم .

يومئذ يقول الله أن هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، والصادقون هم إخوان عيسى رسلاً من بين يديه ومن بعده في إمامة الرسالة والشهادة بالصدق ، وهم حمل الرسالة علماً صادقاً يبلغونه ويستشهدون على المخاطبين. ونعم الله في يوم الجزاء لهم جنات تمتد تحتها الأنهار ويمتد نعيمها إلى الخلود ولهم أكبر من ذلك رضوان الله عنه راضين وذلك الفوز العظيم.

لله وحده ملك الكون سماوات وأرضاً وما فيهن لا شريك له في ذلك خالقاً قيوماً ولا شريك في ملك الإنسان شارعاً له الهدى في كل الحياة الدنيا مقدراً له فيها خيار المشيئة والبلاء في غير ما يسير فيه كرهاً بالقدر ولا شريك له في ملك الآخرة باعثاً لبني آدم قاضياً عليهم بالحساب والجزاء ناراً وغضباً أو جنة ورضواناً خالداً وهو على كل شيء من ذلك قدير.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

خلاصة هدي السورة

الأنعام سورة نزلت في وسط عهد مكة حيث يحتدم الجدال مع الثقافة الجاهلية الدنيوية المادية الإشراكية التي لا تؤمن بالبعث ، ولا تؤمن بالغيب إلا أن يتجلى ،والتي تصوب التعبد إلى مقدساتهم.

وكانت الأعراف المتعلقة بالأنعام ثروة المخاطبين وطعامهم هي أبرز شعائر دينهم الإشراكي ، والأنعام برزت اسماً للسورة التي كانت تتنزل لترسخ الإيمان الموحد لله بتبصر آياته في الكون وتدبرها في الكتاب —كتاب الكون وكتاب الوحي — وتذكرهم بفطرة الإيمان المنبعثة عند المصائب و عند لقائه يوم البعث والحساب.

أما الأمة المخاطبة فقد كانت تطلب تجلي الغيب بمعجزات طبيعية وتجادل عن معتقداتها الاشراكية ، تستمد منها تحريمات حول الأنعام وافتراءات على الله وتتبنى حياة طبقاتها الاجتماعية . أما الرسول الداعية فقد كان يبلغهم الهدى ويخليهم على مشيئتهم ويوحد الله متوكلاً عليه ،وتنتهي السورة بوصايا عشر لسالك الصراط المستقيم على سنة الهدى الإبراهيمي والتراث الكتابي وإلى الله المرجع والحساب .

فالسورة تذكير وتصويب للإنسان لما يحيط به من بيئته الكونية لينفذ ببصيرته عبرها آيات إلى الغيب وإلى الله خالقاً مصرفاً وإلى البعث والحياة الأخرى. فالسماوات والأرض والنجوم الهوادي والقمر والشمس بالعلم والفقه تهدي إلى الإيمان والتوحيد، ولكن يقف عندها نظر المشرك.والبر والبحر والحب والزرع والحيوان والطير آيات لنعم الله وقدره وعلمه المحيط، وكذلك حفظه الإنسان سلالة وحياة وأجل موت نحو أجل آخِر، كل ذلك من تصريف الله الذي يحرك حياة الإنسان سباتاً وكسباً ويحفظه ويعلم كسبه.

وكذلك تشير السورة إلى آيات الله في الرسالة – سلالة متعاقبة من الأنبياء والمرسلين حُملوا كتباً سالفة وتركوا تراثا ً، وتشير إلى القرآن الذي يعرض على المشركين الذين ضيعوا ما قبله.

وتذكر السورة بمصائر السالفين المنكرين حقائق الغيب وحق الكتاب، وتروي عبرة تمكنهم عمراناً في الأرض ونذر الرسالات إليهم، ثم الهلاك والاستخلاف . وتذكر بالهروع إلى الله فطرة عند بلاء المصائب والضيق . والله المصرِّف القادر عليها وعلى المصائب الاجتماعية.

وتنذر السورة من لا يؤمنون بالغيب وبالمصير عند الآخرة وبمشاهد القيامة، والمسئولية التي تقع على المشركين إذ لا يجديهم شركهم .وتفصل السورة ثقافة المجتمع المادي المشرك الذي لا يؤمن بآيات الكون والكتاب ولا ينفذ إلى الغيب ولا يستجيب للنذير فهو معني بالدنيا ومتاعها العارض ومصوب بعقائدياته إلى اشراكياته ويطلب معجزات للطبيعة المشهودة ظهور الرب أو الملك أو الكتاب قرطاساً متنزلاً ، ولكن لو وقع ذلك لعرّفوه سحراً وأصروا على المادية . وهم مجتمع تستكبر فيه طبقة من أكابر المجرمين على المستضعفين ويسخرون بالكتاب والداعي لا يدبر عن الرسالة منهم ولا يترك المستضعفين بل يترك أولئك وشياطينهم . وثقافة المجتمع كلها افتراءات على الله تحسب كتاب الرسالة أساطير تنأى عنه وتنهى ، ويستغنون عنه بعقائد شركهم منها تحريمات الطعام والأنعام وقرابين للمشركين وأعراف أخرى كلها وراء حرمات الله.

والداعية لا يملك علم غيب ولا خزائن مال وما هو بحفيظ وكيل على المعرضين بل يتركهم على مشيئتهم ويقوم فيهم صابراً موحداً متوكلاً مهما كانت أقدار الضر والخير ، يجادلهم ويعتزل مداولات استهزائهم بالرسالة لا يسايرهم.

وأخيراً تتنزل السورة الوصايا والمحرمات من الله وهي حول وجود الإنسان لا يشرك بخالقه ، ولا يعقّ أبويه بل يحسن ، ولا يقرب الزنا بل الزواج الحلال ولا يقتل نفساً إلا بالحق، وحول علاقات الناس لا يأكل أموال اليتيم ولا يظلم في الموازين ولا يحابي في الشهادة بين الناس ولا يخون عهدا بل يفي ، وحول عموم السير هدىً على الصراط المستقيم لا شيعاً على سبل الهوى . وذلك تجديد لوصايا كتابية

ووحدة، لا عصبية تفرق قرون الدين ومجتمعاته وإن كان لكل جزاؤه. وتلك الشهادة باتخاذ الهدى الرباني صراطاً مستقيماً على الملة الإبراهيمية التوحيدية حيث كل الحياة عبادة، والداعية أسوة لسائر المسلمين وكل مسئول فردا مهما تعاقبت الاجيال ومهما تفاضلت الطبقات بين يدي الله سريع العقاب الغفور الرحيم .

ترتيل المعاني

الآيات (1 – 32)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (1)

الحمد لله في مطلع السورة يصلها بفاتحة الكتاب المكية نزولاً كما هي سورة (الأنعام)، تأسيساً للتوحيد وتبياناً لأصول الإيمان لأول مرحلة الدعوة ، فالحمد لله وحده على نعمة الإيمان والتوحيد أكبر النعم التي تستوجب أكبر الحمد، والحمد أكمل الثناء والتمجيد وأشمل من الشكر على النعم ، فالحمد لله لكمال الله وجماله وجلاله وليس على نعمائه فقط.

والله أهل الحمد إذ خلق السموات طبقات عدداً والأرض كرةً واحدةً منزلةً للإنسان خلقاً من غير شيء، وجعل الظلمات والنور من دورة الشمس والكواكب، فالآية تقيم الفرق الدقيق بين الخَلْقِ والجَعْلِ وتصله كله لله . والظلمات ذكرت جمعاً والنور مفرداً ، فالظلام يتعدد كما هو الشرك والضلال والنور واحد كما هو الحق وسبيله واحد وسبل الضلال تتعدد. والظلمات من طبيعة الكون أولاً ثم خلق الله الشمس فأضاءت ظلام الطبيعة ، كما أرسل الله مصابيح الهدى مع الأنبياء فأخرجت الناس من الظلمات إلى النور .

لكن الذين كفروا لا يحمدون الله على نعمة الخلق ونعمة الهدى ويغطون فطرة الإيمان ونوره بظلمات الكفر والشرك ويجعلون لله بزعمهم الباطل عدلاً مساوياً من أشياء محقرة ، لم تخلق السموات والأرض أو تجعل الظلمات والنور بل هي أشياء مخلوقة في ذاتها ناقصة لا تحمد على شيء. و(ثم) في الآية بيان النقلة والشقة البعيدة بين الله –سبحانه– وبين ما يقولون.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) (2)

بعد ذكر الخلق الأكبر للكون وأول ظواهره ، يرد تالياً خلق الإنسان ويتكرر ذلك في كثير من المواضع في القرآن ، فالإنسان في أصله وفي تطوره مخلوق من مادة الطين تراباً وماءً .

فالله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور بدءاً، خلق الإنسان تالياً من بعض مادة الأرض و أجّل للإنسان أجلاً يموت فيه وأجّل للكون والحياة كافة أجلاً مسمىً محدداً ، عنده تقوم قيامة الموتى الذين قضوا في الأجل الأول . وأجل الآخرة عند الله وحده يعلمه لوقته وإن علم الأحياء من الناس أجل الأموات بعد موتهم ، لكن علم يوم القيامة عنده وحدهَ بيِّنٌ مسمىً .

والخطاب في الآية للمشركين في بيئة التنزيل المكية الذين يمترون يغالطون الحقائق القارعة البينة، وربط الخلق بأجل الموت وأجل البعث يوم القيامة ، لأن الغفلة عن هذه المعاني المترابطة منها أكبر فتنة المشركين التي أزاغتهم عن توحيد الله وحق عبادته، فهم يعدلون الله – سبحانه وتعالى – بمخلوقاته ويمارون في أعظم حقائق خلقه وآجاله موتاً وبعثاً .

(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) (3)

بعد ذكر خلق السماوات والأرض في سياق ذكر الله توحيداً لله مبدءاً وأصلاً لكل خلق ، يتأكد ذكر الله في السموات والأرض محيطاً يعلم السر والجهر من عمل الإنسان وكسبه ، فالله عالم محيط بما يكسب المخاطبون عملاً ينقطع لدى الأجل الأول بالموت ويلقى جزاءه الوفاق لدى الأجل المسمى عند الله يوم القيامة.

(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) (4) .

(الواو) في مستهل الآية لوصل سياق الذي سبق كله فآيات الطبيعة هي ما سبق بيانها تواتراً من خلق الله وحكمه المتجلي في الكون البين للعين والعقل، فهي آيات.

(فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) (5). واضحة لهؤلاء المشركين الممارين فيها والمعرضين عنها خلقاً مشهوداً بالعين وأجلاً حتماً على كل إنسان وبعثاً وحساباً يوم القيامة مؤكداً بعقل الإنسان. وكذلك ما تأتيهم من آية من ربهم منزلة وحياً من ربهم إلا كانوا عنها معرضين

هكذا ترتب منهم حقاً أن كذبوا بالحق لما جاءهم فإذ أعرضوا عن آيات ربهم الموحاة المنزلة ولم يستجيبوا إيماناً وتوحيداً لله وعملاً وكسباً إلى أجل الموت وأجل البعث ، فسوف تأتيهم بعد المهلة والفسحة أنباء المصائر والأقدار التي يسخرون ويستهزئون من النذير بها، وتكون وبالاً عليهم وخيراً ونصراً على النبي ﷺ والمؤمنين ، كما سيبين ذلك سياق الآيات التالية.

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ) (6)

الذكر يتواصل رداً ونذيراً للجماعة المشركة التي كذبت بالحق والآيات الواضحات: ألم يروا تبصراً في عبر التاريخ هلاك الذين من قبلهم من قرون البشرية وأممها المتقارنة في عهد واحد، كم مكنت أقدار الله

لقرن ما لم تمكن لهؤلاء المخاطبين الذين تنزلت عليهم آيات القرآن، وتصرفت في أمورهم وفي ثرواتهم الكثيرة الكبيرة من خيرات الطبيعة فأرسلت السماء عليهم أمطار الغيث مدراراً وأجرت من تحتهم الأنهار العذبة فكانوا يعيشون في بيئة رخية من ثروة الزراعة وثمارها وجناتها، ولكن رتب الله بأقداره التاريخية أن أهلكهم إذ كذبوا الآيات البينات واقترفوا الذنب الأعظم شركاً بالله . وأنشأ الله بعدهم آخرين خلافة تترى من التمكين والتكذيب والهلاك في قرون البشرية فلا يظنن المشركون أن هلاكهم بعيد ولا هو خاتمة الكون أو نهاية الأزل .

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ) (7)

الخطاب يلتفت إلى عزاء الرسول ﷺ وتثبيته في بيئة الشرك المحيطة فهؤلاء الذين كفروا – بصيغة الماضي فلا رجاء في إيمانهم –الذين يطالبونك من بعد آيات الكتاب بالآيات المعجزات ، والآيات أمامهم في خلق الكون والسماوات والأرض والظلمات والنور ، والآيات في عبر التأريخ عن مصائر المتمكنين الهالكين . هؤلاء لا رجاء في إيمانهم ولو أنزلت أقدار الله عليهم آيات الله الموحاة المسموعة كتاباً ملموساً محسوساً في أوراق قراطيس ملفوفة وجعلته قريباً منهم فلمسوه إحساساً باليد لقالوا إنه سحر واضح، رغم أن السحر إنما يخدع الحواس على بعد ومسافة. فهؤلاء لا رجاء في إيمانهم ، فلا يحزن عليهم ولا يغمنه أمرهم ومطالبتهم .

(وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ) (8)

يلح المشركون يطالبون الرسول ﷺ ويحتجون عليه قائلين أنهم يترجون ليؤمنوا ملكاً يرونه ينزل عليهم عياناً يحمل الرسالة . ولكن هؤلاء الذين كفروا بالآيات الواضحة الكبيرة لا يعلمون أن لو أنزل الله ملكاً لكانت الآية الحاسمة التي تقضي الأمر كله وتقيم عليهم قيامة الأجل المسمى فلا يُنظرون حتى يؤمنوا بل يأخذهم الله عند ذلك أخذاً حاسماً .

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) (9) .

الذكر يتصل عن طلب المشركين أن لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً ليراه الإنسان في نطاق عالمه المشهود بحواسه المحدودة فإن الله يجعله في هيئة رجل يلبس اللباس المعهود عندهم للرجال (كما كان الحال مع جبريل ع عندما جاء للرسول ﷺ في هيئة رجل). ولكن لو جاءهم رسول من السماء في صورة رجل لالتبس واشتبه الأمر عليهم وارتبكوا وخلطوا أنْ ما هو إلا بشر ، كما كانوا يخلطون بدعاياتهم على الرسول البشر محمد ﷺ . ذلك لا سيما أنهم اعتقادا كانوا يعدون الملائكة إناثاً وبنات لله لا رجالاً .

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) (10)

الآية تؤكد العزاء والثبات للرسول ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُفِرَ برسالته واستهزئ به ولكن مضت سنة السخرية برسل من قبله فحاق بالذين سخروا منهم عين المصير الخاسر الذي استهزأوا به، كما في الآيات السابقة أن الذين كذبوا بالحق قبلاً لما جاءهم – قد رأى الناس عبرة مصائرهم هلاكاً بعد التمكين والعزة، فلا تذهب نفس الداعي حسرات على كفرهم ولا يحرص في طلب المعجزات والآيات التي يطلبونها كفراً واعتراضاً.

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (11) .

بعد الذكرى والعبرة بمصائر الذين من حولهم في الآية السابقة (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن): القرآن يوصي الرسول الداعية أن يأمر المكذبين بأن يسيروا في الأرض لينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين قبلاً بآيات الخلق والبعث في مناطق جوارهم، بل في أرض العالم كافة. فهو مسير لمن يتأمل ويقرأ سيرة البشرية وتأريخها في الأرض ليأخذ العبرة والموعظة في عواقب المكذبين.

(قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)(12) .

الخطاب يتصل للرسول الداعية مذكراً بالآيات في السموات والأرض منذ أول السورة أن يسأل المخاطبين ليتأملوا لمن ما في السموات والأرض ؟! مؤكداً أنها لله رباً مالكاً بحوله وقوته، خلق الكون وقدره تقديراً وخلق الإنسان وسخر له السموات والأرض والظلمات والنور والماء والنبات، إذ كتب على نفسه الرحمة

فهو رب العالمين الرحمن الرحيم حتى لمن كفر بالآيات البينات فلم يأخذه فوراً بكفره وذنبه، ولكن برحمته تعالى فسح له الأجل ليتوب ويستغفر إلى يوم القيامة، إذ يتأكد أن يجمع الله فيه المخاطبين بآيات الدين مكذبين ومؤمنين ، وهو يوم آتٍ لا ريب ولا شك فيه إذ البعث فيه أهون من الخلق الأول، والعدل في الحياة يستدعي أن يتم فيه القسط عند ملك الدين أحكم الحاكمين .

فالذين خسروا أنفسهم لم يعتبروا بالآيات البينات ولم يشكروا نعمة الله الواسعة في تسخير الكون لهم وفي مدِّ الأجل حتى يوم القيامة – الذين ظلموا أنفسهم فهم لا يؤمنون بأقدار الغيب أصلاً ورحمةً وهدىً وابتلاءً ومصيراً لهم من الله.

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) آية (13) .

كما في أول السورة أن الله الذي خلق الخلق كله يعلم العمل كله (الآية 3) ، له تعالى كل ما سكن وهدأ واستقر في الليل والنهار ، فهو عليم يعلم أتم العلم وسميع يسمع أدق السمع وأهون عليه أن يعلم ويسمع ما تحرك من الأفعال والأصوات. فالأمر كلهُ يَصَرِّفه الله والعمل كله يحيط به، والله يبتلي عباده ويرحمهم عبر الأجل ولكنه يحصى عليهم كسبهم جميعاً سمعاً وعلماً إلى يوم الجمع يوم القيامة .

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (14) .

بعد التبيان والحسم منذ أول السورة في أمر الخلق والآيات يتوجه بالخطاب للرسول ﷺ أن يقوم شاهداً داعياً أغير الله يتخذ ولياً يستنصر به مهما تكثفت عليه الحملات والضغوط؟! كيف والله فاطر السموات والأرض خلقاً أول مرة من غير شئ ، فهو الولي الأكبر الأقوى وهو الذي يطعم كل ما في الأرض، والغني الذي لا يساق إليه الطعام كما كان يفعل المشركون سائقين الطعام إلى متعبداتهم .

بل الرسول ﷺ يعلن لهم أنهُ أُمَر فسيكون طوعاً أول من أسلم أمره كله لله ، ليس استباقاً وحسب بل خروجاً على آلهة المشركين فهو أول من أسلم ولو كان وحده دعوة وقدوة كما كان إبراهيم عليه السلام

أول من أسلم (الآية 163) والآية تؤكد له الوصية ألا يكون من المشركين مهما اشتدت عليه الوطأة بل هو أول من أسلم والله هو عونه ووليه يدفع عنه المشركين .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) آية (15)

الرسول ﷺ يعلنها في وجه المشركين أنه يخرج أولاً عن ملتهم ويسلم خوفاً إن عصى ربه وركن إلى صفهم من عذاب يوم هو حق اليقين عظيم ، يوم الجمع في القيامة. والإعلان يلقي موعظة وتحذيراً للمشركين بأنهم إذا ظلوا على شركهم وعصيانهم لربهم فسيقع عليهم العذاب في ذلك اليوم العظيم ، وقد كانت أكبر غفلتهم أن لا يرجون وراء أيام الدنيا يوم بعث وحساب ورحمة وعذاب .

(مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)(16)

تذكيرٌ بالرحمة بعد التحذير من العذاب ، وبشارة بأن من يصرف عنه العذاب بأقدار يومئذ فقد رحمه الله الرحمة التي كتبها على نفسه وأدخل فيها من رغب فيها ورهب العذاب وذلك الفوز العظيم كما سبق في (الآية 12) .

وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (17)

الخطاب موصول للرسول ﷺ قائماً بدعوة الدين في وجه شدة الكفر وقوته وطغيانه أن يتوكل على ربه موحداً وأن المشركين لن يكشفوا عنه ضراً يسمه الله به فلا كاشف إلا هو تعالى، ولن يمسكوا عنه خيراً مسه رحمة من الله. فهو القادر على كل شئ وهو المتصرف بالخير والضر قدير أبلغ القدرة فوق قدرة المشركين ومن في الأرض جميعاً ، فلا تخشى كيدهم وضرهم ولا ترجو منهم خيراً.

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (18)

الخطاب موصول أن الله القدير هو قاهر فوق عباده جميعاً من آمن ومن كفر يتصرف فيهم يمسهم بالخير ويكشف الضر مهما اشتد وعظم ، فالله حكيم دقيق التنزيل لأقداره بمشيئته القاهرة حيث وأنى يصيب، وخبير بالغ العلم بالخير والشر حاضراً ومآلاً وأولى وآخرة.

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) (19)

الأمر للرسول ﷺ ليعلن متساءلاً أي شيء أكبر شهادة ؟ ومقرراً أن الله أكبر شهادة في الوجود فهو الشهيد الأكبر فيما يقع بينه وبينهم من اختلاف في أكبر حقائق الوجود ومصائره خلقاً وهدىً من الله وحده وإليه المبعث والحساب ولدنه الرحمة والعذاب . والله الشهيد على صدق وحي القرآن مهما كذبوا به فقد تنزل على الرسول لينذرهم به من باطل كفرهم ومصيره وليبسط بالقرآن النذارة والبشارة بطريق العذاب لكل من بلغته كلمة القرآن في أيما مكان وزمان من وراء بيئة المخاطبين. والوصية للرسول ﷺ أن يقوم فيهم ناصحاً في شأنهم بالحق أنهم يشهدون أن مع الله آلهة أخرى تُخْلَقُ ولا تَخْلُقُ وتُطْعَمُ ولاَ تُطْعِمُ، وأن يرد عليهم صادعاً أنه لا يشهد شهادتهم الباطلة فما الله إلا إله واحد لا شريك يكافئه ولا يقربهم من دونه إليه زلفى ، وأنه هو مهما كان منهم قوماً له برئ مما يشركون بالله من آلهة وأصنام تمثلها كذلك في الدنيا. وسيقوم شهيداً عليهم بين يدي — الله – شهيد الحق الأكبر مالك يوم القيامة يوم العذاب العظيم.

(الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) (20)

تتساوق الآيات لذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم أهل السبق في البيئة الدينية الكتابية حول المشركين في مكة وعلى الطرق التي يقطعونها في رحلات التجارة ، جنوباً وشمالاً صيفاً وشتاءً فهؤلاء يعهدون الكتب المنزلة من الله ويعرفون الأنبياء ويؤمنون بالبعث والعقاب والثواب، ويمكن للمشركين أن يلتمسوا عندهم مقولات دون شهادة الحق الكبرى ولكنها تورد بشريات بالرسالة وشهادات بعالم الغيب الذي ينكره الجاهليون، والذين آتاهم الله الكتاب من قبل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فإذا سمعوا آيات القرآن صدقوها وميزوها كما يميزون أبناءهم ولم ينكروها . فتنزيلات الوحي كلها كتاب واحد يصون بعضها بعضاً ولكن بعد البينات الواضحات وشهادة الله الكبرى بالقرآن تصدقها الشهادات الكتابية السائدة حول العرب بعد كل ذلك الذين خسروا أنفسهم من المشركين فهم لا يؤمنون بآيات الله ورحمته والمرجع إليه يوم القيامة كما في الآية(12).

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِأَيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (21)

الذكر يتصل مُقرِّعاً المشركين أنْ مَن أظلم منهم أخسر لنفسه وللآخرين إذ افتروا على الله كذباً بعقائدهم الباطلة بغير علم ولا هدىً ولا كتاب – عبادة أصنام ادعوا أنها تقربهم إلى الله زلفى وجعلوا لله بنات من الملائكة؟! ثم لما جاءتهم الآيات الهادية المبينة غطوا على قلوبهم بالكفر وكذبوا بالآيات ولكن الظالم المتجاوز للحق والعدل لن يفلح يوم القيامة بل سيكون خاسراً خسراناً مقابله الفوز المبين رحمةً للمؤمنين .

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) (22)

ويوم تبدو حقيقة الخسران الواقع بالظالمين الذين أشركوا يوم تحشرهم أقدار الله قبائلَ وعشائرَ وأفراداً، يجمعهم ليوم القيامة لا ريب ويسألهم عما زعموا من افتراءات ومن شركاء لله في خلقه وقدره لم يأتوا معهم ينصرونهم يوم القيامة .

(ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) (23)

ثم اضطربوا إزاء فتنة السؤال وامتحانه يوم الحشر فلم يجدوا جواباً سوى أن يعرفوا الله رباً يومئذ ويجاوبوه زوراً مقسمين به أن ما كانوا في الدنيا به مشركين.

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (24)

الخطاب للرسول الداعي ﷺ لينظر متأملاً كيف عاقبة المشركين يوم القيامة إذ اضطربوا وكذبوا على أنفسهم لا على الله الذي يعلم سرهم وجهرهم عندما ادعوا وأقسموا أنهم كانوا مؤمنين ولم يكونوا مشركين ، ولم يجدوا مفترياتهم لتنصرهم بل ضلت عنهم وهم يواجهون الفتنة.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) (25)

الخطاب موصول للرسول ﷺ أن من المشركين الذين ظلموا ويفتنون يوم القيامة من يستمعون إليه فيما جاء به من الآيات والهدى ولكنهم لا يؤمنون ولا يهتدون إذ غطى الله بقدره قلوبهم بأكنة كفرهم

وأستاره فلا تنفذ الكلمات الهاديات إليها وجعل في آذانهم وقراً ثقلاً، إذ لا يتجردون لسماع الحق سمعاً بالغاً إلى القلوب. وحتى إذا جاءت كل الآيات المعجزة الخارقة لنواميس الطبيعة مشهودة كما ظلوا يطلبون من الرسول ﷺ ويلحون في الطلب – فلن يؤمنوا من العمى والقلوب المغشية ، حتى إذا جاءوه يتلو عليهم آيات الذكر البينات يجادلونه فيها لا يتلقونها فقهاً بل يلقون عليها قول الكفر أنْ ما هذا إلا أساطير ، قصصاً مسطرة وخرافات قديمة من أثر الأولين .

(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (26)

وهؤلاء المشركون الذين لا يبلغ القرآن قلوبهم ولا تقرع نذارته آذانهم ولا يرون في القرآن إلا أساطير قديمة ينهون الناس عن الاستماع للقرآن، وينأون بأنفسهم بعداً عنه حذراً من أن يقع عليهم أثره بالغاً ما بلغ بكثير من المقبلين على الإيمان. وإنهم ما يهلكون بذلك إلا أنفسهم ولن يضروا الرسول ﷺ ولكنهم بما أنختمت قلوبهم لا يستشعرون خسرانهم في الدنيا والآخرة .

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِأَيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (27)

السياق متصل أنه مشهد هول إذا رآه الرسول لموقف المشركين يوم القيامة وشدة تذبذبهم واضطرابهم إذ سبق ما ادعوا ساعة الحشر أنهم لم يكونوا مشركين، ولكن حين جئ بهم إلى النار ووقفوا عندها بلغت منهم الحسرة كل مبلغ وتمنوا أن يردوا عائدين إلى الدنيا ويتركوا التكذيب بآيات من عرفوه عندئذ رباً ويكونوا من المؤمنين ومصيرهم الحسن .

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (28)

ما استدركوا الحق لأول مرة ليصدق تمنيهم أن يردوا إلى الدنيا فيؤمنوا بل بدا وظهر مشهوداً لهم ما كان فيها تشهده فطرتهم حقاً ولكنهم أخفوه عمى وصمماً وبكماً ونهياً عنه ونأياً ، وبعد استيقانهم الحق بادياً يوم القيامة لو استجاب الله لأمنياتهم وأعادهم إلى الدنيا كما طلبوا لعادت لهم حالة الجحود والطغيان ولنسوا ما بدا لهم من الحق عوداً وارتكاساً لما نهوا عنه من الكفر والإشراك فلا جدوى أن يستجاب لهم فما هم بمؤمنين وإنهم كاذبون قطعاً قبلاً فى الدنيا وحالاً وهم يتمنون الرد وَبعداً إذا ردوا .

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (29)

السياق يصل مقولات المشركين في الدنيا بمواقفهم يوم القيامة ، خلقاً واحداً

ممتداً من الدنيا للآخرة ولا تجدي معه عودة أو ردة إلى الدنيا ، فالمشركون كان قولهم في الدنيا أن ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين قياماً وسؤالاً يوم القيامة ، وتلك المقولة مذهب في الكفر بالغيب أكبر علل الشرك الدنيوي .

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) (30)

وتتوالى حكاية مصاير المشركين يوم القيامة مشهد هول آخر لو رآهم المرء وهم موقوفون بين يدي ربهم موقف الحساب على التكذيب والشرك ،وإذ قال لهم ربهم أليس هذا بالحق اليقين، أليس هذا هو البعث يوم القيامة حقاً وها أنتم مبعوثون موقوفون أمام ربكمُ تسألون؟ وهم قالوا جواباً بلى أكدوا اليقين قسماً بربهم، فقال لهم آمراً بما ترتب عن سابق كسبهم أن يذوقوا طعم العذاب جزاء بما كانوا فى الدنيا يكفرون .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (31)

عند البعث والموقف يوم القيامة وقع خسران الذين كذبوا من قبل بلقاء الله ، خسروا مصير أنفسهم كما في (الآية 12 والآية 20) الذين يعيشون غير مؤمنين بغيب المصير والذين يموتون غير مستشعرين مر الدهر بأيامه وساعاته بعد الموت إلى حين مجيء ساعة انقضاء الدهر وقارعة القيامة مباغتة مفاجئة ، ما كانوا يؤمنون بها ولا ينتظرونها بل كذبوا بنذيرها وغرتهم الدنيا حتى إذا وقعت الساعة بعثوا وقاموا قائلين يا حسرتنا: تتنادى فيهم كثرة التحسر على ما فرطوا وفوتوا في صفقة الأجل والمدد طوال حياتهم في الدنيا إلى الساعة ، وهم عندها يحملون أوزارهم وأثقالهم من ذنوب التكذيب بالغيب والإشراك وما ترتب عليه من سيئات العمل وما أسوأ ما يزرون .

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (32)

الآية تصل سياقات الدنيا ووجوهها بسياقات الآخرة ووجوهها وصلاً وثيقاً وما الحياة الدنيا إلا فرطة تنتهي بحسرة لمن اتخذ مُتعتها الموقوتة الزائلة لعباً لا يفضي إلى كسب باق ولهواً يصرف عن تقديم ذخر الصالحات. ولدار الآخرة حقاً خير من الدنيا العارضة وهي للمؤمنين بها المتقين اللعب واللهو عنها، الهادفين العاكفين لجعل دنياهم كلها في سبيلها إيقاناً بغيبها داراً مستقرة خالدة النعيم والرضوان. أولئك الكافرون بغيب الآخرة (مخاطبين أو مذكورين بأي القراءتين[*]) هل يعجزون عن عقل الشهوات العاجلة في الدنيا والخواطر العارضة من عالم الشهادة فيزهدون في الارتهان للدنيا ويعبرون إيماناً بالغيب والآخرة وركوب الأولى طريقاً مأموناً إليها .

عموم المعاني

الآيات (1 – 32)

إن الحمد لله وحده تتجلى آياته في الكون فهو الذي خلق السماوات والأرض بكل معالمها وقواها المنظومة ، والذي جعل فيها الظلمات والنور دورة بحسبان . ولكن بني الإنسان الكافرين بكل تلك الآيات يعدلون بالله شركاء من دونه.

إن تلك الآيات لتتجلى أيضاً في الإنسان فالله هو الذي خلقه من طين بشراً حياً متوالداً مكرماً على سائر الأشياء ، وقضى أجلاً معيناً لموت كل نفس في الدنيا وأجلاً عاماً مسمىً لقيامة الناس أجمعين في الآخرة، ولكن أولئك الكافرين تخاطبهم رسالات الله فيمترون بها ولو كان الله هو أيضاً المحيط بما حولهم في السماوات والأرض العليم بحياتهم سراً وجهراً وبكسبهم فيها عملاً .

إن أولئك ما بدت لهم آية من آيات الله المنزلة وحياً إلا كانوا أيضاً عنها معرضين غفلة وصدوداً، وقد مضى بعض بني الإنسان الذين كذبوا بآيات الحق المنزل عليهم ولكن القدر كان سيقبل عليهم بأنباء مصائرهم في الحياة نذراً كانوا به قبلاً يستهزئون، فكيف لا يتعظون من تاريخ الآيات التي تشهد بها

[*]– (أفلا تعقلون) في قراءة ، (أفلا يعقلون) في قراءة أخرى.

قصص قرون من البشر –كم منهم قد تمكن سلطانهم في الأرض وانبسطت لهم فيها موارد الحياة وثروات الرزق ولكنهم لم يستقيموا على الحق بل تورطوا في باطل الذنوب، فانتهى قدر الله بهم إلى هلاك واستخلف بعدهم ناشئة قرن آخر .

إن آيات الرسالة المنزلة بالأخص المتلوة من الرسول لو أيدها ظواهر القدر أن تتنزل من السماء في قرطاس ملموس لانقلب عليها الذين طبعوا على الكفر من العرب المخاطبين بالرسالة فعدوا المعجزة ليست إلا سحراً مبيناً .

وكانوا يطالبون بأن يتنزل على الرسول ملك من السماء مشهود ، وإنما تتنزل الملائكة سافرة هكذا عند الأجل المسمى يوم ينحسم أمر القضاء على الكافرين، فلا ينظرون لأجل مثلما ما تمتد بهم آجال الدنيا مرحلة الابتلاء وإذا تنزل الملك عليهم رسولاً فإنما يجئ في هيئة رجل فالتبس عليهم أنه بشر يلبسون عليه القصور كما خلطوا بالرسول البشر.

إن بني الإنسان الكافرين بآيات رسالة الدين الذين يعرضون عن آيات الوحي بما لا تحدي فيه حتى الآيات المعجزة، كثيراً ما ظهر في سيرتهم أن يستهزئوا بالرسل متمادين حتى يحيق بأولئك الكافرين ما كانوا به يستهزئون من سوء المصائر التي ينذرون بها . إنما الوصية للداعي إلى الدين أن يذكر المخاطبين بأن يسيروا في الأرض ليعتبروا بآثار عاقبة المكذبين من قبل، وأن يذكرهم بآيات الله المشهودةُ ملكاً وحولاً وقوةً في السموات والأرض، وأنه تعالى قد كتب على نفسه الرحمة يسخر كل تلك المخلوقات للإنسان ويمد له ويفسح أجل الحساب مهما طال أمده في الحياة الدنيا كافراً، فإنه تعالى جامع لكل المخاطبين للأجل المسمى يوم القيامة حين يتبين مصير الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. وإن لله كل ما سكن في الليل والنهار من أحوال الدنيا وابتلاءاتها وهو السميع العليم لما تحرك من أعمال الناس .

إن على الداعي للحق إماماً لهداية المجتمع أن يعلن مذهبه موحداً الله لا يتخذ غيره ولياً لأنه الفاطر لكل الكون ومتوكلاً عليه لأنه القَّيَّوم بالخلق يطعمهم قوت حياتهم ويستغني عنهم ، وليعلن أنه مأمور

برسالته أن يكون أول من يسلم لله ويخرج على المشركين أسوة للمهتدين، وعليه النذارة بأن الدافع لذلك خوفه إن عصى ربه من عذاب يوم عظيم لا يصرف إلا عمن رحمه الله بالهدى وتلك بشارة الفوز العظيم . إن القائم بدعوة الدين يؤمن إنه إذا ابتلي بضرٍ يصيبه من التزام الحق فلا كاشف له إلا الله وأنه إذا مسه خير فالله هو الراحم وهو على كل شيءٍ قدير وأنه تعالى مهما كانت قوى مجتمع الباطل القاهر فوق عباده الحكيم الخبير .

إن الداعي إلي الدين الحق في الحياة ينبغي أن يعلن شاهداً على دفع الباطل في نفوس أمة الخطاب المعرضة بأن الشهادة الكبرى والفرقان الحق بينهم وبينه إنما هي لله عليه تتوكل نفس المؤمن ويتيقن ، وعلى الداعي أن يعرض عليهم القرآن الموحى إليه كلمة حق ونذير لهم ولمن بلغ من وراءهم من الناس كافة عبر الزمان أبداً. ولئن رفع المشركون حججهم شهادة مما يتعبدون من دون الله فعليه أن يقوم نافياً أيما شهادة بآلهة أخرى إلا الله الواحد صادعاً برئياً مما يشركون . إن الشهادة على صدق القرآن تتأكد من أهل الدين الكتابي القديم، فمن تراثهم يعهدون الحق السالف ويعرفونه بيناً في القرآن الخالف كما يعرف الآباء خلفهم الأبناء ولكن الذين خسروا أنفسهم منهم فهم لا يؤمنون .

وإن أظلم أمة الخطاب أولئك الذين يفترون خرافيات جاهلية قديمة تنسب مقولاتها كذباً إلى الله والذين يكذبون بآيات الصدق المتجددة ولن يفلح في المصائر العاجلة أو الآجلة حملة الظلم الجائر إلى الباطل دون الحق . إن الله في يوم البعث الآجل سيحشر أمة الخطاب جميعاً بكل مذاهبهم في الحياة ويسائل المشركين بالله أين الذين زعموهم شركاء لهم يوم الملك لله وحده ويمتحن يومئذ المشركون فلا يحل لهم في ذلك الامتحان والحساب إلا أن ينكروا إشراكهم في الدنيا كاذبين على أنفسهم وهم في ضلال عن شركائهم الذين كانوا يفترون على الله .

إن مذهب المكذبين بكتاب الحق ودينه – سوى ما يفترون من تقاليد الشرك المعهودة عندهم وما ينكرون من تراث الرسالات الكتابية السابقة – أن منهم من يستمع لنص القرآن المتلو وعلى القلوب أكنة من رواسب الهوى المتصلبة تحجبها من تدبير معانيه وفقهها وعلى عيونهم تغشاها الفتنة مما تزيد لهم الأهواء فإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوا إلى ساحة دعوة القرآن يجادلون بشهوة الصراع

وروح المغالبة يقولون إن هذا إلا أساطير يضيفونها إلى تراث الأولين، أو هم ينصرفون عن دعوة القرآن ينهون الجماهير عن الإقبال على الدعوة وينأون عنه أنفسهم قدوة للمدبرين غير شاعرين أنهم ما يهلكون إلا أنفسهم. وأمثال هؤلاء من أهول المشاهد أن يوقفوا على النار يوم القيامة فيقولون يا ليتنا نرد إلى الحياة الدنيا ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين، أماني رجوع ومتاب زائفة فإن ما بدا لهم بالبينات كانوا يخفونه في نياتهم من قبل في الدنيا ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون .

إن العلة السائدة في معتقدات المخاطبين الجاهليين الماديين أنهم لا يؤمنون بالغيب وجوداً ولا مصيراً ودعواهم أن الحياة الدنيا ليس وراءها حياة وما هم بمبعوثين بعد الموت ولكنهم لا ريب مبعوثون يوماً، يرون وهم موقوفون أمام ربهم للحساب يساءلون أليس ما يقوم مشهوداً يومئذ بين أيديهم هو الحق فيعترفون بالأمر الواقع ويستحقون العذاب لكفرهم في الدنيا . هكذا يكون قد خسر الذين كذبوا بذلك اللقاء الآجل حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة أعلنوا الحسرة على ما فرطوا في حقها وهم يحملون أوزار الماضي وساءت حملاً فما الحياة الدنيا لمن عكفوا عليها وفتنوا بها إلا لعب وعبث قاهر عاجل ولهو عارض، وللدار الآخرة مغزىً وأجلاً للخلود خير للذين آمنوا بها فاتقوا الله ، أفلا يعقل المخاطبون بالدين ويكفوا الشهوات العاجلة والعارضات المشهودة في هذه الحياة الدنيا .

ترتيل المعاني

الآيات (33–58)

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِأَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (33)

العزاء يتواصل للرسول ﷺ : الله يعلم حقاً أن تحزنه فعلاً مقولات المشركين إباءً لنذيره بنبأ الساعة ونعوتهم له بالسحر والجنون والكهانة ، ولكن الآية تذكره بأنهم لا يكذبونه تعبيراً خالصاً لباطنهم إذ عهدوه صادقاً أميناً قبل نزول الآيات ولم يكن موصوفاً بالكذب.

ولكن هؤلاء الظالمين تجاوزاً لحدود الحق في أنفسهم إنما يجحدون بآيات الله مظاهرةً عليها بالإنكار وعليه بالذم. والآية تثبيتٌ للرسول ﷺ ألا يأسى أو يزلزله شعور بأن تكذيب المشركين للرسالة كان بسبب من تلقاء شخصه رسولاً ولكن حقيقة موقفهم هو جحود وعمد بالباطل .

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ) (34)

الخطاب للرسول ﷺ يتواصل لإحكام ثباته على الحق فليس هو أول من كُذِّب من الرسل بل كُذبت الرسل تترى من قبله، ولكن أسوة الرسل الحسنة هي الصبر ثباتاً على تكذيب المشركين وإيذائهم سخرية واستهزاء وقد يتعاظم الأذى ، سيرتهم أن صبروا حتى أتاهم نصر الله بأقداره المحتومة ولا مبدل ولا محول لكلمات الله وسننه الماضية وأقداره في التأريخ. والرسول يذكر بما جاءه حقاً من نبإ المرسلين، أذىً وضراً وإخراجاً وكيداً والله غالب على أمره ناصر للمطمئنين الثابتين الصابرين.

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِأَيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (35)

بعد العزاء والتثبيت للرسول ﷺ الآية شديدة الوقع عليه أن إذا طرأ عليك عظم إعراض المشركين ، إن كان كبر عليك توليهم جحوداً ونكراناً آيات الله ولاحت لك الحاجة آيةً معجزةً خارقةً تنزلهم على الإيمان، إذ أصروا على الكفر رغم وجود آيات الله في الكون كما في أول السورة، وفي التنزيل، وظلوا منصبين المطلب للمعجزات – إن كان ذلك لا سيما أن الرسول ﷺ كان يعلم من سير الأنبياء وقصصهم من حوله أنهم جاءوا بالمعجزات لخطاب أقوامهم كما في سيرة موسى عليه السلام في اليهود وسيرة عيسى عليه السلام إن كان الرسول ﷺ لشدة الحرج من إنكار المشركين يتمنى أن تظهر على يديه الآيات التي تُفْحِم وتُسكت، فليحاول إن استطاع أن يبتغي ويطلب نفقاً سارياً في جوف الأرض أو سلماً درجاً يصعد في السماء ليأتي لهؤلاء المشركين الجاحدين بآية ، فليفعل ولكن ما هو بقادر وإنما عليه الصبر على جحودهم وأذى تكذيبهم كما صبر الرسل من قبله . ولو شاء الله لجعل لجمع المشركين المخاطبين كلهم على الهدى قدراً وجبراً، بل جعل الناس كلهم جميعاً أمة واحدة مؤمنة ولكن سنته وحكمته هي الخيار والحرية لمشيئة الإنسان والابتلاء في الدنيا ليؤمن أو يكفر. ولئن قدر الله أن تغلظ الدعوة سالفاً –في سيرة الأنبياء – للإيمان بالمعجزات الخوارق فقد كانت الدعوة منجمة لعهد فقط مصوبة عيناً لقوم يشهدون الآيات الخارقة مباشرة وهم جهال سذج أجدى فيهم الآيات المادية الحسية. أما الرسالة الخاتمة فقد كانت للناس كافة أبداً أكثرهم لا يشهد أفعال الرسول ﷺ عياناً لينفعل خائفاً، فهو أدعى لتأمل آيات الكون وتدبر آيات الكتاب ليؤمن.

وختام الآية أمر للرسول ﷺ ألا يكون من الجاهلين يكبر عليه إعراض المشركين أو يلح في طلب الآيات والهداية لهم فيتحسر فيركن إلى مذهب الجاهلين فقد بلغه العلم البين من الله والوصية بالصبر الجميل .

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)

الآية تحسم رجاء الرسول ﷺ في إيمان هؤلاء المكذبين وإنما - يتأكد حصر الاستجابة المرجوة لداعي الإيمان في الذين يسمعون سمع إصغاء يبلغ تفهماً بقلوبهم فآذانهم مفتوحة للحق وقلوبهم منشرحة ، ولكن هؤلاء ممن يستمعون إليك وفي قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقر (الآية 25) ، هؤلاء الموتى الذين لا يحيون بنفحة الدعوة ورحمة السماء كما يحيا ميت الحب نباتا" بالغيث ولا يستجيبون كما لا يستجيب ميت

الجسد الذي لا يسمع، لا يبعث الله مواتهم جبراً أو بآية معجزة خارقة بل يبعثهم الله بغتة إذا جاءتهم الساعة ثم بعد كل الجحود والإعنات بما يعجز الرسول هم إلى الله تعالى راجعون لمواقف الحساب والعذاب .

وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (37)

بعد البيان الواعظ لرسول ﷺ الذي اشتدت عليه وطأة تكذيب المشركين لما جاء به من الحق ، حتى كاد يراوده طلب الآية المعجزة ، الذكر هنا لمقولتهم الملحة أن تنزل عليه آية معجزة من ربه تشكيكاً في صدق الرسالة وحملةً لزعزعة الرسول ﷺ والمؤمنين ، والرد أن تقال لهم بلسان الرسول شهادة إيمان بأن الله سبحانه قادر وليس بعاجز عن أن ينزل آية ، وهو الحكيم في دفع هذه الرسالة دون ما سلف من قولهم تذكيراً بآيات الكون وآيات الكتاب وحسب، دعوة خالدة للناس كافة . ولكن أكثر أولئك المشركين المخاطبين لا يعلمون قدرة الله الشاملة وحكمته في آيات الدعوة وقليل منهم من ينتهون إلى العلم والإيمان .

وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (38)

السياق يرد هؤلاء المكذبين الجاهلين المطالبين المعجزين المتحدّين في آيات أقداره الله أن ينظروا حولهم إلى عالم الحيوان: ما من دابة على بطونها وعلى أرجلها في الشاملة وآيات الأرض ولا طائر يطير محلقاً موزوناً بجناحيه – ما من ذلك إلا أمم وجماعات منتظمة في شكلها وحركتها وغذائها وتكاثرها تدبر الأقدار كل أمورها أمثالكم أيها البشر جماعاتكم وأممكم وممالككم لكن الأقدار تسير عالم الحيوان طوعاً وكرهاً فما فرط الله سبحانه – في نظام كتاب الكون والطبيعة من شيء ولم يفلت من قدره شيء ، بل كلٌ متسق على نحو يعجز البشر فيه آيات ودلائل نظامها يغني المؤمنين عن آية خارقة استجابة لتحدي أولئك

الذين لا يعلمون . وكل هذه الأمم من دابة وطائر مثل البشر أيضاً يحشرون جميعاً يوم القيامة إلى الله سبحانه وتعالى، فالدنيا موصولة بالآخرة وحياة الحيوان والإنسان تنتهي في الدنيا لتبعث يوم الحشر أمام الله الخالق الأوحد سبحانه وتعالى ، ويبعث الإنسان الذي كان في الدنيا طوعاً يوافق الحيوان السائر فيها كرهاً على نظام الله القدري – يبعث في الآخرة في بيئتها في سلام ونعيم . أما ذلك الذي كان طوعاً يعصي كتاب الله الديني فيشاقق نسق أمم المخلوقات حوله فإنه يبعث يوم القيامة يشقى في مشاقة مع كل البيئة حوله .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (39)

بعد بيان آيات أقدار الله المعجزة في كتاب الكون الذي ما فرط الله في نظامه التام، في غير نقص أو خلل القرآن يرد حملة المكذبين عليهم هجوماً وتقريعاً على تكذيبهم لآيات الله في كتاب الوحي وفي كتاب الكون فهم صم لا يسمعون كلام الله ففي آذانهم وقر وفي قلوبهم أكنة كما سبق في الآية (25)، وهم بكم لا ينطقون نطق العاقل ولا يستجيبون لمنطق الحق الواضح فهم في ظلمات الضلال التي تحجب الأنوار عن العقل والأضواء عن القلب. وليس ذلك بفرط من كتاب أقدار الله فهو قادر أن يتصرف فيهم بمشيئته إضلالاً أو هدىً قدراً جبراً ولكنه سبحانه وتعالى جعله قدراً خياراً فالضلال بمشيئته وحكمته واقع على من كذب وكفر، والهدى على صراط مستقيم لمن آمن واتقى. والآية تذكير للرسول ﷺ والمؤمنين ألا يكبر عليهم من المشركين إعراضهم وضلالهم وألا يلحوا على آية تهديهم – فالأمر كله بيد الله.

(قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (40)

الآية تخاطب المشركين الصم البكم وصية للرسول ﷺ أن يلقيه عليهم خطاباً مباشراً بكاف الخطاب وميم الجمع واستفهام التنبيه هل رأيتم إن أتاكم عذاب الله في الدنيا قبل الآخرة كما تطلبونه أحياناً تحدياً –ولا مبالاة وكما تأتيكم به النذر مما جاء في أنباء المرسلين الذين أخذ الله أقوامهم بأنماط من

العذاب جزاء كفرهم وتكذيبهم أو جاءتكم الساعة بغتة التي تستعجلونها تحدياً هل ستذكرون غير الله في مثل تلك المواقف العصيبية من آلهتكم التي أشركتم بها، فتدعونها إن كنتم صادقين في إيمانكم بهم لتنجيكم من العذاب أو هول الساعة. والسؤال نذير يستنكر عليهم كفرهم بتوحيد الله معبوداً مدعواً، ويذكرهم بأنهم في غرور كاذب طلاوة يسر يمدها الله للمشركين فإذا باغتهم نذيره العَسِر ضل عنهم ما كانوا يشركون.

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) (41)

يخاطب المساءلون استنكاراً وتكذيباً أن لن تدعو غير الله عند فجاءة العذاب والساعة بل ستدعونه وحده تعالى فهو – وأنتم تعلمون – يكشف ويفرج هول ما تدعون إليه إن شاء فهو وحده المغيث القادر ، أما آلهتكم التي أشركتم بها ، فستصبح عندكم حالئذٍ نسياً منسياً عندكم رغم تظاهركم أثناءَ مَدة الغرور بالإيمان بها والاعتصام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) (42)

سبقت حكاية رسل من قبل كذبوا وأوذوا فصبروا على دواعي الحزن أو الركون إلى الجاهلين حتى النصر ولا مبدل لكلمات الله الماضية عبراً في التاريخ (الآية 33 – 35) ، وهنا حكاية المواعظ في سيرة أمم كان الله بجلال هديه قد أرسل إليها العهود من قبل الرسول الخاتم المخاطب بالموعظة، وقد أخذهم في إبتلاءاته بالبأساء والضراء – المصائب ذات المشقة والأذى البالغ لعلهم بعد حلاوة الأمن والمتاع والافتتان بالأهواء والااشراكيات الدنيوية والغفلة عن الله والغيب تقرعهم الضرورات وتذكرهم بالله، فيلجأون إليه متضرعين يدعونه في شدة أن يصرف عنهم أحوال السوء .

فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (43)

ليتهم لذلك إذ جاءهم أمر الله تضرعوا إلى الله ليكشف عنهم السوء ويتوب عليهم ، ولكن قست قلوبهم صلابة لم تلن بوطأة الشدة تذكراً وتضرعاً لله بل ازدادت غلظة وغفلة، بل زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون واغتروا بأن سيرتهم الضالة حسنة وأن بالمضي فيها ينكشف كل بؤسٍ وُضرٍ طارئٍ، غنيً عن اللجوء إلى الله والمتاب .

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (44)

فلما مضوا في غفلتهم ناسين ما ذكرتهم به الرسالات من تخشع وتضرع لله قلب عليهم الله محنة الشدة بمنحة الرخاء، ففتح عليهم أبواب كل شيء من النعم والصحة والأمن، فما كسبوا ذكرى حمد الله من استجابوا له في حالة النعماء ، فما صدق منهم تذكر وإيمان من ابتلاء الخير بعد الشر ، بل فرحوا وأسكرتهم غفلة عن الله الوَّهاب وطمأنينة غرور بدوام الفتوح، فأخذهم الله بأقدار فاجعة تفاجئهم بغتة فإذا هم من بعد النعمة والفرح مبلسون انقطعوا إلى الغم واليأس والحيرة.

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)

هؤلاء الذين ابتلوا بالشر وبالخير فلم يتذكروا ويتوبوا من شرك الدنيا إلى الإيمان بل ظلوا ظالمين بعداً عن صراط الاستقامة، قطع الله دابرهم واستأصلهم عن آخرهم فلم تبق منهم في أعقابهم من خلفهم باقية . والحمد لله رب العالمين الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور آيات ومتعبدات لنواميس الله الواحد ثم من البشر الذين كفروا بربهم يعدلون (الآية 1) والحمد لله الذي يرسل إلى هؤلاء الرسالات ويبتليهم بالبأساء والضراء ثم يفتح أبواب النعماء فإذا ازدادوا إشراكاً من قسوة القلوب وسكرة الفرح أهلكهم الله قضاء بعد بلاء بالحق – الحمد لله رب العالمين.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46)

الأمر للرسول ﷺ أن يخرج الخطاب بلسانه لهؤلاء الذين ينكرون نعم الله غافلين فرحاً بها يطلبون الآيات المعجزة الخارقة للسنن، أن الله جعل لهم نعمته سمعاً (يدركه الصوت واحداً عند البشر) وأبصاراً وقلوباً (تدرك رؤىً تتباين أحكامها)، ليسمعوا آيات الله في كتاب الوحي ويروا آياته في الكون من حولهم وينفذ الفقه والإيمان إلى قلوبهم، ولكنهم لم يسخروا هذه النعم معرفةً وشكراً وعبادةً بها لله. هؤلاء يُسألون أرأيتم لو أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكمَ مْنِ مِمّن تألهون غير الله يأتيكم به ويرده إليكم؟

والخطاب يتأكد للرسول ﷺ أنِ انظر كيفُ يَصِّرف الله لهم وجوه الآيات في الوحي والكون والحياة بالأدلة المختلفة الكثيرة الواضحة ولكنهم يصدفون معرضين عن آيات الله – صدوفاً صرف الله به عن حواسهم الإدراك النافذ فأخذ منها الإصغاء والبصيرة والعقل.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) (47)

الخطاب يتصل للرسول ﷺ الداعية المنذر أن يقول للمكذبين : أرأيتكم (بعد ما سألهم : أرأيتم إن أخذ الله حاسة لا ترد، وبعد ذكر كيفية صدوفهم عن تسخير نعم الإدراك لمعرفة آيات الله) أن يقول سؤالاً مغلظاً: إن أتاكم عذاب الله بعد نعمه بغتة مفاجئاً أو جهرةً أمام أعينهم وأنتم تنظرون هل يصرفه عنكم من تألهون غيره تعالى، هل يهلك إلا القوم الظالمون الخاسرون لأنفسهم ، هل يهلك غيركم؟

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (48)

لقد سبق الرسل إلى أمم من قبل الرسول الخاتم وابتليت تلك الأمم تذكيراً وموعظة وترهيباً بالسراء والضراء ثم ترغيباً بفتح أبواب النعماء (الآية 42) ومشيئة الله أن يكون الإيمان بالرسالة بخيار المشيئة من أولئك المخاطبين . وما يرسل الله بأقدار الاصطفاء والوحي والتكليف بالبلاغ إلا ليقوموا من أممهم مبشرين، من يؤمن منهم بحسن العاقبة في الآخرة، ومنذرين من يكذب بسوء العاقبة، وليس على الرسل أن ينظروا في آثار دعوتهم فيكبر عليهم كفر غالب الناس وإعراضهم فيحزنوا ، أو يبحثوا عن الآيات المعجزة التي تخضع المشركين للإيمان والهدى من الله، فلو شاء لجمع الناس كرهاً على الهدى، ولكن الرجوع والحشر والجزاء لله (الآيات 35 – 39) فالذين آمنوا وصدقوا إيمانهم بعمل صالح فلا خوف عليهم يوم القيامة من النار ولا هم يحزنون بفوات نعيم الجنة. وليس على الرسل ضمان هداية الناس ولا حسابهم يوم القيامة ثواباً أو عقاباً فالأمر كله لله .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (49)

السياق في بيان حدود وظيفة المرسلين يتم بيان الجزاء للذين أرسلوا إليهم – من صدّق الرسالة فقد سبق ذكر حسن مصيره، أما الذين كذبوا بآيات الله فيمسهم

العذاب في العاقبة بما كانوا يفسقون – بقدر ما خرجوا من حدود الصلاح .

قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ)(50)

في سياق ذكر حدود وظيفة المرسلين مبشرين ومنذرين وحسب، ويوصي الرسول ﷺ أن يصدع لأمة الخطاب – رداً للأغنياء والمفتونين بالمال الذين يستنكرون منه دعوى رسالة من الله، أو للذين يطلبون منه أن يوليهم الخيرات العاجلة لتأليفهم . وأنه ليس بقائل لهم أو زاعم أن عنده خزائن الله يملك التصرف فيها ، وأنه ليس بعالم الغيب ليبشرهم بخير أو ينذرهم بشر عاجل فلا يعلم الغيب إلا الله، وأنه ليس بمدعٍ لهم أنه ملك مهما استنكروا رسالة تنزل من الله على بشر وطلبوا نزول الملك بها فإنما هو بشر مثلهم يأتيه الوحي ولا يتلقى الأمر من الله مباشرة كما تتلقى ملائكة الرحمن وتطيع ، بل ليقل لهم ماأ تبع إلا ما يوحى إليّ فقيراً لخزائن الله مؤمناً بغيب الله متوكلاً عليه أستوي مع البشر لكني أول المسلمين لله، وأتبع الأمر ببلاغ الرسالة بشيراً ونذيراً بالآخرة. ثمُ يوصى الرسول ﷺ أن يسألهم مهما استوت البشرية بيني وبينكم هل يستوي الأعمى الذي قد ينظر بالحاسة ولكنه لا يدرك برؤيته وقلبه آيات الكتاب والكون المنظومة الهادية والتعبير الذي ينفذ إلى مغازي تلك الآيات فيهتدي، لا رغبة في عاجل من خزائن الله ولا شراء بآياته ثمناً قليلاً، ولا طلبا" لخرق عالم الشهادة إلى الغيب بما تؤكد الرسالة بنبأ أو فعل خارق للسنن المشهودة، ولا انتظاراً لخبر مباشر من ملك فوق الرسول البشر. ويوصى الرسول ﷺ أن يسألهم مستنكراً أفلا يتفكرون فكراً مدققاً كيف يتميز البصر النافذ عن العمى الحاسر إيماناً بآيات الله واتباعاً لوحيه وبشارته ونذارته.

وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (51)

يوصى الرسول ﷺ أن ينذر بما يوحى إليه الذين يؤمنون ويخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليّ ولا ناصر ولا شفيع محام – الذين هم ذوو بصيرة لا عمى كالمشركين حولهم الذين يكذبون بالحشر ويتوهمون معبوديهم أولياء وشفعاء عند الله. لعل المنذرين الذين يخافون أن يحشروا لله أفراداً يتقون الآخرة إيماناً وإصلاحاً في الدنيا .

(وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) (52)

بعد خطاب الرسول ﷺ للكبراء الأثرياء أنه ليس مثلهم يملك خزائن الله لنفسه أو لصحابته الفقراء – الآيةُ توصيه وُتذِّكره بألا يطرد الذين توجهوا بحياتهم كلها غداة وعشية لله يدعون ربهم دون سائر أرباب المشركين، ألا يقذفهم عزلاً عن صحبته طمعاً في كسب أولئك الكبراء الذين يستنكفون أن يكونوا في مكان واحد مع الفقراء المستضعفين بسبب النسب أو المال أو الجاه، وقد يراوده حرص التصدي للمستغنين فيطرد المقبلين عليه الأدنَيْنَ عابساً في وجوههم متولياً عنهم *، ولكن هؤلاء إنما يريدون وجه الله الذي يتوحد بشأنه مع كل عبد. فيخاطب الرسول ﷺ أن ما عليك من حسابهم من شيء فهم لا يكلفونك عبئاً أو دفعاً في الدنيا أو الآخرة بل خزائن الدنيا لله ولا تزر وازرة وزر أخرى لديه يوم القيامة ولا يقع عبؤك أو حسابك عليهم، ولا يقع وزر توليك عنهم عليهم هم بسبب حالهم المستضعفة بل الرسل مكلفون بأن يقوموا دعاة مبشرين منذرين عدلاً لكل أحد، فتطردهم أنت من صحبة الدعوة فتكون من الظالمين المميزين بعض المدعوين عن بعض، المنقلبين بوزر ذلك حساباً على أنفسهم .

(وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) (53)

وكذلك جعله الله امتحاناً أن فضل في كسب الدنيا بعض أمة الخطاب على بعض، ففتن فئة بفئة ليبدوا السقوط في الابتلاء إذ يقول المشركون وهم يرون أي فئة دونهم خوطبت فآمنت واستجابت: أهؤلاء هم الذينَ مَّن الله عليهم من بيننا، ليتساءلوا مستنكرين كيف يجوز أن يختار الله أولئك وَيَمُّن عليهم بنعمة الهداية من بين أمة مخاطبة هم فيها الفئة الفضلى الكبرى . فهم يزدادون بذلك النظر والتولي فتنة وكفراً وصداً عن سبيل الله .

*) كما في صدر سورة عبس المكية نزولا قبل الانعام.

ولكن الآية تذكرهم بأن الله أعلم منهم بالأفضل – أولئك الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فهم شاكرون لله بالهدى مهما كانوا فقراء في الدنيا ، بينما هم الذين فضلهم الله بنعم الدنيا ليسوا بشاكرين فمستجيبين لربهم، بل هم مُدبرون يطلبون الآيات فوق آيات النعمة والكون ويكذبون برسالة الله ويسخرون بعباده .

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (54)

السياق موصول لأحوال أولئك الفقراء لنعم الله من الدنيا الذين استجابوا لآيات الله المحيط فأسلموا أول عهد الدعوة مهما كان حالهم فتنة للمشركين – أولئك لا يطردون وإذا جاءوا للرسول ﷺ فهو مخاطب أن عليه تحيتهم فيقول سلام عليكم ترحاباً وأن يبشرهم أن الله ألزم نفسه كاتباً عليها الرحمة (الآية 12)، فالذي يقع في السيئة والخطأ بجهالة من قلة ثقافة المستضعفين لا بعمد ولا إصرار كما يعهد لدى المستكبرين، من أخطأ منكم ثم تاب مستغفراً إلى الله ومضى من بعد التوبة والاستغفار إلى العمل الصالح فإن الله يغفر له ويزيد عليه الرحمات فهو غالب الصفة غافراً راحماً.

(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأَيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) (55)

وكذلك تتنزل الآيات وتتفصل من الله تعالى بوحي مبارك يبين أحوال الابتلاء والخطاب ومواقف الاستجابة، ولتستبين أيها الرسول المخاطب بسياق الآيات سبيل المجرمين — طريق صدود الظالمين العادين من المخاطبين لا تختلط ولا تلتبس عليك الموازين وهماً بأن قيم الدين دنيئة لا يستجيب لها إلا الأدنون، بل تصف الآيات بينةً تامة حقيقة موقف المجرمين المستكبرين كيف تمنعهم مصالحهم وأهواؤهم وعصبياتهم من الاستجابة للحق الواضح المبين. (وفي قراءة : ولتستبين سبيلُ (بالضم) المجرمين مستبينةً خطاباً لكل معتبر .

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (56)

الخطاب للرسول ﷺ تصدياً لحملة المشركين على الإسلام قائلاً لهم صادعاً : إني نهيت من الله سبحانه وتعالى الذي أحمل رسالته نهياً حاسماً خاتماً ألا أعبد الذين تدعون آلهة باطلة من دون الله فهي لم تخلق الآيات البينات في الكون (أول السورة) ولم ترسل بالآيات البينات لتستبين سبل الحياة، وأنه مهما حملوا عليه بالفتنة والضغوط ليس بمتتبع أهواءهم تعبداً لغير الله وتشهياً لمتاعهم وتفاخراً على المستضعفين، فإنه لو فعل ذلك لضل إذاً كما يضلون ولم يعد في زمرة أولئك المهتدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجه الله متجردين عن ضلال الأهواء متزهدين في متاع دنياهم صابرين على القليل.

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57)

الخطاب يتصل للرسول ﷺ والسياق يتصل بالآية 55 بأن الرسول الذي فصلت له الآيات واستبان سبيل المجرمين ليقل للمشركين أنه على بينة من ربه آيات واضحة من قرآن، وكذبتم به لا تفقهونه وتحسبونه من أساطير الأولين وتنهون وتنأون عنه (الآيتان 25 – 26)، وكذبتم تطلبون آيات خارقة من عالم الشهادة ونازلة عاجلة تجزئ المؤمنين الفقراء بخزائن مني وتقع على الكافرين بعذاب حاضر قبل غيب الآخرة وما عندي ذلك (الآيات 35 – 50) مما تستعجلون به . فما الحكم إلا لله وحده ينزل الآيات أو يقضي عليكم بالعذاب ، ليس ذلك عند الرسول ما تستعجلون فما هو إلا نذير وبشير (الآيتان 48 – 49) فالله يقضي الحق بآيات كتابه التي تبين قصص الحق وعظات السالفين فيه وعبرهم ، وهو (على قراءة أخرى) وحده الذي يقضي الحق ما الحكم والقضاء إلا له وهو خير الفاصلين في الدنيا حين يستبين بآياته السبيل للذين قضى عليهم الله أنهم مجرمون وهو القاضي الفاصل في الآخرة إذ تستبين سبيل المجرمين إلى العذاب .

قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)

وصلاً لذكر توحيد الله منزلاً لآياته القاضية الفاصلة في العاجلة يوصي الرسول ﷺ أن يخاطب المشركين أن لو أن عندي أنا ما تستعجلون به من عذاب لقضي الأمر في الدنيا بيني وبينكم بلا مجادلات ولا

تحديات، ولكن الحكم لله في الآخرة يقص خبر العاملين ويقضي الأمر حكماً وفعلاً ، وهو سبحانه أعلم من رسوله ومن كل بشر بالظالمين المشركين وبعملهم وأهوائهم وهو أحكم الحاكمين يفصل بين الناس وبيني وبينكم فتنتهون إلى مصير الظالمين .

عموم المعاني

الآيات 33 – 58

إن الداعي للدين الحق في أمة جاهلية ظالمة كافرة بالغيب قد يحزنه إعراضهم ، لكنهم لا يصدون عنه سوء ظن بشخصه بل جحوداً بآيات الغيب ، وإن له لعبرة في سير أصحاب الرسالات الدينية الذين صبروا على التكذيب والأذى حتى جاءتهم أقدار نصر الحق ، وتلك سنة ماضية لا مبدل لها كما يشهد التاريخ . ومهما كبُر على الداعي وقع الإعراض عن آيات الحق المنزلة وحياً فليصبر مهما راوده في سبيل الإقناع بدعوته أن يأتي بآيات إعجاز تخرق سنن الطبيعة الظاهرة في الأرض والسماء فتقهر حجة الباطل في نفوس الجاهلين. إن الله لو شاء أن يجمع بقدره كرهاً كل أولئك ليهديهم أمة واحدة لكنه ترك للبشر خيرة من أمرهم وليس للداعي الذي اختار الحق أن يكون من الجاهلين المعرضين لأنه لا يستجيب للدعوة إلا الذين يسمعونها حقاً تنشرح له فطرة الإيمان في القلوب ، أما موتى الضمير الذين لا يستجيبون فإنه سيتركهم لآجالهم حين موت الأنفس وسيبعثون يوم القيامة ويرجعون إلى الله للحساب.

وهؤلاء في الدنيا قد يطلبون أقداراً خارقة لسنن الطبيعة، آيات شاهدة لحق سمعيات الدين الغيبية وإن الله القادر على ذلك ، لكنه يذر الناس بين يدي آيات الكتاب المتلوة عليهم وآيات الكون الظاهرة حولهم، سوى أن أكثرهم لا يعلمون إلا ظاهراً فلا يفقهون الكتاب والكون بما ينفذ إلى الإيمان بالله . إن من آيات الكون العارضة حولهم أن ما من حيوان يدبّ مستقراً على الأرض ولا طائر موزون بجناحيه في السماء إلا هي أمم وممالك منتظمة أمثال البشر حركة وحياة بقدر الله الذي لا يفرط شيئاً في كتاب الكون ونظامه وميزانه . وكل تلك الأمم المخلوقة تحشر إلى ربها يوم القيامة ليقوم الإنسان في بيئة ذلك

الكون وفق كسبه في الدنيا ،في وفاق ونعيم كما التزم في الدنيا حراً طاعة الله في سياق مطمئن من التزام سائر المخلوقات ، أو في شقاق وجحيم بينها كما شذ في الدنيا بخياره مارقاً منها على طاعة الله .

إن الذين يكذبون بآيات الله منصرفين عنها بمشاعرهم صماً لا يسمعون الحق بكماً لا ينطقونه عمياً في ظلمة لا يرون نوره ما هم بفرط عن كتاب الله القادر . إن الفطرة كامنة في النفس إيماناً بالله الواحد ، ويمكن للداعي الحق أن يذكر أولئك الذين لم يزكوا نفوسهم وأعرضوا بكل مشاعرهم، أنهم متى أتاهم قدر عصيب من كارثة عذاب في الدنيا أو من قارعة قيام الساعة لا يجدون غير الله معاذاً يصدق ما كانوا يتخذونه دون الله من أولياء شركاء، بل يومئذ ينسونهم ويذكرون الله وحده ليكشف ما يدعون إليه في أزمة ذلك الهول.

إن في سيرة بعض الأمم أن جاءتهم من الله رسالات الدين فأعرضوا فأخذهم الله ببلاء الشر بأساء وضراء لعل السوء يدفعهم ليتذكروا الله فيضرعوا إليه ، لكنهم تمادوا مفتونين قلوبهم قست أن تخشع لله وأعمالهم غرهم وزينها الشيطان ، ولما نسوا هكذا ذكر الله أخذهم الله ببلاء الخير وفتح عليهم أبواب كل متاع حتى أسكرهم الفرح بالمكاسب، فأخذتهم أقدار الفاجعة بغتة فإذا هم منقطعون إلى اليأس والحيرة بل انقطع دابرهم هلاكاً وبقى الحمد لله رب العالمين. وخطاب العبرة أن يتأمل الإنسان أن كل قوته ونعمته من الله المحمود وأن لو أخذ الله منه حواس الإدراك من يردها غيره ؟ بعد إن تلك آيات ربوبية يصرفها الله ثم يصرف عنها الظالمون ، وأن لو أتى قدر الله بعد النعمة بالعذاب بغتةً وجهرة. هل يهلك خاسرين إلا أولئك؟

ما على الدعاة حملة رسالة الدين إلا أنهم مبشرون ومنذرون الناس، فمن آمن بها وصدق فأصلح فلا خوف من عاقبته ولا حزن على ماضيه ، أما من كذب بالحق وفق من أمر الإصلاح فيمسه العذاب القادم .

إن على الداعي أن يعلن للمخاطبين أنه بشر مثلهم ومهما فتنوا بالمال أنه لا يملك خزائن الله ليغريهم ، ومهما بشرهم أنذرهم بالمستقبل لا يعلم آجال الغيب، ومهما بلغهم آيات الله لا يدعى أنه ملك قدسي

يتلوها مباشرة من الله بل لا يتبع إلا ما يوحى إليه بواسطة الروح القدس. إن عليه أن يذكرهم أنه مهما استوى البشر لا يستوى الأعمى الذي لا يرى نور الآيات والبصير الذي ينفذ بها إلى الله مؤمنا" . ولئن أعرض الظالمون طلاب عاجل الثروات وظاهر الآيات فإن على الداعي أن يقبل نذيرا" للذين يؤمنون بالحشر إلى الله يوم القيامة ويخافون عاقبة المسئولية التي لا يحملها عنهم أحد، ذلك لعلهم يتقون الله في أعمالهم. ولا يجوز له أن يقبل على أولئك الأثرياء المستنكفين ويطرد ظلماً هؤلاء الفقراء المستضعفين الذاكرين الله الواحد غداة وعشيا فإنهم لا يكلفونه لدى الله المسئولية ولا يحملونها عنه. ولئن تفاضل الناس في الدنيا فإنما ذلك امتحان ليبين عبره الفئة الفضلى جاهاً وشكواهم أن تكون هداية الله لمن هم دونهم، الله أعلم بالأفضل منهم شكراً على الهدى بكلمة الرجاء.

إن المستضعفين إذا أقبلوا مستجيبين إلى دعوة الإسلام فعلى الدعاة أن يجاوبوهم بتحية السلام وأن يطمئنوهم أن الله كتب على نفسه الرحمة فمن كان يعمل سوءاً بجهالة منهم ثم تاب من بعد وأصلح وأصبح مسلماً فإن الله غفور رحيم . هكذا تتنزل على الدعاة آيات الله يبتلي المخاطبين بدعوة الإسلام وتتباين مواقفهم بفتنة أوضاعهم الاجتماعية أحياناً ولا تلتبس على الدعاة الموازين بأن قيم الدين هي الأدنى وانسب لمن يستجيب لها من الأدنَيْنَ في المجتمع بل يبين لهم أنها الأعلى من سبل المجرمين وأهوائهم المنحطة، وأن عليهم أن يصدعوا بفرقان الحق أنهم لا ينحطون عن الله المتعالى إلى متعبدات المستكبرين ولا يتبعون أهواءهم ضلالاً عن سبل الهدى.

وأن يشهدوا أنهم مؤمنون على بينة مما أنزل الله من الحق مهما كذب به المخاطبون، وأنهم مهما عجزوا في عاجل الدنيا من شراء ذممهم بعطاء أو إقناعهم بإعجاز ظاهر، عليهم البشارة والنذارة بعاقبة الآخرة حيث ينفرد الله بالحكم يقضي بين الناس بالحق، وهو خير الفاصلين بينهم في الآجلة حسب أعمالهم في العاجلة. وأن يعلنوا أن لو كان معهم قضاء الله وفصله عاجلاً لقضي الأمر في الدنيا بين دعاة الحق والظالمين المعرضين، فالله أعلم بهم اليوم وغداً ولكنه يؤجل الحساب والحكم ليقع في الآخرة .

ترتيل المعاني

الآيات (59 – 73)

وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)(59)

الآية ترد العلم كله لله في وجه حملة المشركين الذين كانوا يطلبون في عالم الشهادة آية تخرق السنن المشهودة بأسباب ومفاتح لأقدار الغيب، وكانوا يستعجلون من البشير النذير بمصائر الغيب بنازلةٍ عاجلةٍ عطاء لفقرائه أو عذاباً لهم والله أعلم بالظالمين، وعنده مفاتح علم الغيب يعلم ما في البر والبحر من موجودات وما تسقط من ورقة واحدة تكادَ تخفى نازلة من شجرة إلا يعلمها، ويعلم الحبة التي تغوص مندفنة في طبقات ظلمات الأرض قبل أن تشقها وتظهر نبتة في العالم المشهود، ويعلم كل رطب حي من ذلك النبات وكل يابس كما يصير إليه النبات جفافاً وموتاً. كل تلك الحركة في الكون مهما دقت وصغرت وكل تلك الموجودات مهما خفيت في جوف الظلمات وكل حال شيء من الحياة إلى الموت – كل ذلك مشمول في كتاب مبين من علم الله الذي ينفتح له كل وجود الغيب والشهادة هو كله مشمول في كتاب من قدر الله الذي أحاط بكل الوجود وما فرط الله فيه من شيء (الآية 38).

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (60)

السياق موصول في الآيات فالله – سبحانه – بيده مفاتح الغيب والشهادة والعلم والإحاطة بتقلب الإنسان وعمله، وكيف تتمايز سبل الناس نحو مصائر الغيب المتمايزة بين الإنسان المكذب المشرك المستكبر والإنسان المؤمن المهتدي. والآية تخاطب أمة الدعوة أن الله هو الذي يتوفاكم بالليل سباتاً الأرواح كافة في قبضته لا تملك من أمرها في نومها وليلها شيئاً فالله وحدهَ حَّيَ قَّيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . وهو كذلك يعلم كل ما كسبت جوارحكم بالنهار الذي جعله الله للناس معاشاً، ما عمل كل عضو من أعضاء الجسم . والله هو يحييكم ويميتكم ثم يبعثكم في وضوح ومحشر كما هو في النهار – نهار يوم القيامة إذ يُقضَى ويتم أجل مسمىً لعمر حياتكم الدنيا . ثم تتوالى مراحل الحدث العظيمة إذ إليه المالك القدوس مرجعكم ومتابكم ، ثم يقع الحساب إذ ينبئكم الله في الآخرة بما كنتم تعملون في

الدنيا وما جرحتم في حركة المعاش وعنده مفاتح الغيب بكل حركة الكون وأشيائه وبكل أعمال الإنسان فهو أعلم بالظالمين وبالشاكرين .

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ) (61)

السياق موصول في الآيات يوحد الله العالم بعلمه الشهادة والغيب والحركة والسكون والنوم واليقظة إلى أجل يوم القيامة، وهو القاهر فوق عباده مهما كفروا واستكبروا في الأرض وكذبوا الآيات واستهزأوا بالرسول وحقروا المؤمنين فهو فوقهم بقوته القاهرة التي لا حول لهم ولا قوة معها. وهو الذي يرسل إليكم ملائكته حفظة لا تضيعون عنها ولا تنقص حياتكم لحظة ليل ولا نهار إلى حين ينقضي الأجل لأحدكم بالموت تكمل الملائكة أجله المسمى وتوفيه أيامه وساعاته التي قدرها له الله، حتى إذا جاءه الموت توفته الرسل الملائكة و هم لا يفرطون لا يستأخرون الأجل ساعة بل يتوفونه، ولا يستقدمونه ساعة بل يحفظونه.

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) (62)

(ثم) وصل لوقع الأقدار الثقيلة المتوالية على الإنسان في الآيات السابقة مباشرة بالبعث والمرجع إلى الله ونبأ الحساب والقهر ، والوفاة بيد الملائكة، ومن بعدها يُرد أولئك المكذبين إلى الله رداً قسراً فهو مولاهم الحق يتولاهم بعد الوعد الصدق وما لهم من غيره موالي كما اتخذوا في الدنيا بأماني الغرور، ألا لله الحكم فهو القاضي الفاصل كما له العلم بالغيب والشهادة، فقد علم ما جرحتم كسباً بالدنيا كما علم سكون الأشياء وحركتها في الكون، وهو أسرع الحاسبين يوم القيامة فلا تستعجلوا عذابه في الدنيا ولا تستأجلوه فالحياة لأجل مسمى إذا جاء الموت لا يؤخر .

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (63)

بعد مشاهد الوفاة والرد إلى من له الحكم وأسرع الحساب يعود السياق موصياً الرسول ﷺ بأن يذكر المخاطبين سائلهم من الذي ينجيكم ويخلصكم من خطر الموت إذ يحيط بكم ظلمات البر ريحاً والبحر موجاً لا تنفتح معها أضواء السلامة في الآفاق، حين تفتقرون إلى الله العالم المحيط القاهر الحافظ ، فهو الذي يعلم ما في البر والبحر ويعلم ما تخفي ظلمات الأرض (الآية 59)، تتذكرونه إذا ادلهمت عليكم أخطار الخطوب والظلمات وتدعونه تضرعاً علناً ومناجاة خفية – ترجون النجاة من الله في تلكم الساعات العصيبة وتعاهدونه عهداً مؤكداً إن أنجاكم تكونوا من الشاكرين لا الظالمين .

قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (64)

يوصي الرسول ﷺ أن يذكرهم قائلاً إن الله هو المولى الحق هو المنجي من تلك المخاطر المظلمة المدلهمة ومن كل كرب، هو الذي ينجيكم من كروب الغم الذي يشتد بالنفس من كربة الظلمة إذا ضلَّ بكم برُّ الأرض وعواصفه أو نزلت عليكم مصائبه أو داهمتكم عواصف البحر وظلماته ووحوشه، إذ يضل من تدعون إلا إياه وتخلصون إليه التضرع والمناجاة، فإذا نجاكم تعودون إلى سيرة حياتكم الآمنة ثم من بعد ذلك البلاء، ويعود إليكم كبركم وإعراضكم تنكرون رحمة الله وتشركون به ولا تشكرونه.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الأَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(65)

السياق موصول في الآيات أن يذكر الرسول ﷺ المخاطبين أن الله القاهر فوق عباده المولى الحق الحاكم الذي بيده النجاة من كل ظلمات أو كرب، هو القادر على المخاطبين الساكنة المطمئنة أحوالهم أن يبعث عذاباً من فوقهم يتنزل من السماء أمطاراً ورعوداً وصواعق أو رواجم من غير ذلك، أو من تحت أرجلكم خسفاً أو طوفاناً أو غير ذلك من أنماط العذاب التي بعثها الله بقوته وحوله التام على من كذب وكفر من الأمم قبلكم . أو دون العذاب المعيب بالأشياء من حولهم يخاطب الرسول ﷺ الأمة المدعوة– الله هو القادر أن يضربهم بالفتنة فيهم فيلسبهم ويخلطهم شيعاً فيتشيعون قبائل وأحزاباً وطبقات، ويتلبسون بالشهوات والأهواء والفتن ويذيق بعضهم بأس بعض اضطهاداً وتهجيراً وقتلاً .

والخطاب في ختام الآية للرسول ﷺ لينظر ويتأمل كيف يصرف الله لهؤلاء المشركين المكذبين ويشعب الآيات فيبين لهم وجوه قدرته تعالى وعلمه باعثاً قاضياً محاسباً، ويقلب أمامهم صور الحياة وابتلاءاتها وأطوار الحفظ والوفاة وأنماط النجاة والعذاب، لعلهم يفقهون آيات الله في الكون وحياة الإنسان ويتفكرون فكراً عميقاً ويتذكرون ويعتبرون مصدقين متقين .

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ) (66)

الخطاب يتأكد للرسول ﷺ إذ كذب ببلاغه قومه وهم أقرب الناس إليه بعد كل ذلك التصريف والتقليب لوجوه الآيات وفقهها في الطبيعة والمجتمع ولكن ما بلغه يبقى حقاً مهما كذب به الناس ولو كانوا أقرب الأقربين ومهما يكن قربهم، فالرسول ﷺ موصى أن يذكرهم أنه ليس وكيلاً كفيلاً كافياً بأمرهم إلى الله كما أكدت الآيات – ولكنه على بينة من ربه بهذا الوحي الذي أوحى إليه لينذرهم به (الآية 57).

(لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (67)

الآية تذكر الرسول ﷺ وقومه المكذبين أن لكل نبأ من نذارة أو بشارة يوم يستقر فيه اليقين ويتأكد صدقه، ويخاطبون أنهم يومئذ سوف يعلمون ويعرفون حقيقة مصائرهم ونتائج أعمالهم ومواقفهم في الدنيا والآخرة مما ذكرت الآيات السابقة في السياق من وعيد للمشركين .

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (68)

بعد بيان الآيات وتصريفها للمشركين المكذبين الأمر للرسول ﷺ إذا شهد بعض المشركين يخوضون في آيات الله يتداولونها سخرياً ويتخذونها هزؤاً وإنكاراً، فليعرض منصرفاً عن مخاض الهزء حتى يديروا الخوض والمداولة في حديث غيره، فلا بأس عندئذ أن يتخاوض معهم ويحاورهم بالحق أما إذا أنساه الشيطان وأغراه اللهو فانساق في أحاديث للمشركين ذهبوا يخوضون بها في آيات الله سخرياً فبعد أن يتذكر يقوم معرضاً وعليه ألا يقعد معهم متورطاً في مخاضهم اللاعب العابث، لئلا يدخل في سباق قوم ظالمين لأنفسهم صارفينها عن الحق مكذبين لآيات الله سبحانه وتعالى .

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (69)

وما على المؤمنين الذين يتقون الشرك من شيء من حساب المشركين وعقابهم ولو خالطوا المشركين بالمعروف، ولكن الوصية بالإعراض عن مقاعدهم إذا خاضوا سخرية وليناً في حق الآيات إنما هي ذكرى للمؤمنين المتقين، لعلهم يعرضون عندئذ عن الانجذاب في صحبتهم واللهو في مجلسهم فيتقون عدوى الشرك، تقوى على تقواهم مؤمنين.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (70)

بعد النهي عن مقاعدة الخائضين في آيات الله أمر الرسول ﷺ أن يذرهم غير متحسر عليهم معرضاً عن مفاوضتهم، إذ جعلوا أمر دينهم لعباً وهزؤاً بغير طول ولهو وعبثاً بغير جد، لا يهدفون إلى غاية بل غرتهم حياة الدنيا فصوبوا كل هممهم وجهدهم لها، ولا رجاء لهم نحو الآخرة. لكن أُمر الرسول ﷺ أن يمضي مذكراً بمستقر النبأ ويوم الهلاك، منذراً بالمصير أن تبسل نفس وتسلم إلى الهلاك بما كسبت في الدنيا من ضلال خاسر فلا تجد يومئذ ولياً ينصرها ولا شفيعاً عند الله، ومهما عدلت كل عدل عطاءً يوم القيامة ليبلغ كل فدية العذاب لا يؤخذ منها ولا يقبل ذلك – أولئك الذين رهنت أنفسهم للهلاك في الآخرة بما كسبوا من التكذيب والشرك لهم يومئذ شراب لا يروي ويطفئ ظمأهم بارداً، بل من حميم يحرق الأمعاء وعذاب أليم بما كانوا يكفرون في الدنيا .

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (71)

وفي سياق المجادلات مع المشركين الخائضين في آيات الله يوصى الرسول ﷺ أن يذكر أولئك المشركين الضالين ويسألهم مستنكراً أندعو نحن المؤمنين آلهتكم التي لا تنفعنا ولا تضرنا، ونرد على أعقابنا

محمولين بالاستجابة لباطلكم إلى سابقتنا في الجاهلية بعد هذا الإسلام حين هدانا الله: مثلنا كالذي استهوته واستمالته الشياطين في الأرض بعيداً عن الصراط المستقيم وهو بعد مضطرب حيران لا يدري أين الهدى ، وله أصحاب يدعونه أن تعال إلينا فإن الذي معنا هو الهدى . ويوصي الرسول ﷺ مهما اشتدت دعوة الشرك أن يشهد أن هدى الله الذي نزل به الوحي المبين هو الهدى دون سواه وأنه والمؤمنين إنما أمروا أن يسلموا أنفسهم وحياتهم لرب العالمين الذي خلق العوالم كلها ورعاها فهو ربها ولا رب سواه.

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (72)

السياق يصل خبر الأمر للمؤمنين بالإسلام لرب العالمين خروجاً من حيرة الشرك والاضطراب ، بخطاب الأمر لهم بإقامة الصلاة أكبر تعبيرَ قيِّمٍ عن الإسلام لله قلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً وجارحة عابدة وبتقوى الله طاعة راهبة لله ، وهو الذي إليه يحشرون ليلقوا جزاء النعيم والرضوان وليروا ما يماز به المشركون من العذاب والغضب .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (73)

الآية تحمل معاني التوحيد وهداه من الشرك التي توالت في السياق وتصله بأول السورة (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض)، فالله خلقهما بالحق مهما أشرك به المشركون ويوم يقول بقدره وقضائه كن يكون الأمر بنفخ الصور فيصعق الخلق كافه، ثم ينفخ فيه ويبعث البشر يوم القيامة ، قوله عندئذ الحق مهما كذب بالبعث والحشر المشركون، وله الملك ذلك اليوم لا ولي ولا نصير غيره ولا فدية ولا شفاعة من حسابه، هو عالم الغيب والشهادة علمه محيط يعلم مفاتيح الغيب والقيامة والحساب والجزاء ويعلم الشهادة ويعلم ما في البر والبحر وكل رطب ويابس وكل ما جرح البشر من أعمال (الآيات 59 – 60) وهو الحكيم ينزل أحكامه بدقة على الأشياء طبعاً وعلى البشر تكليفاً وينزل قضاءه عليهم يوم الجزاء وهو بالغ كل خبر بأحوال الكون ومصائره وبكسب البشر وابتلاءاتهم .

عموم المعاني

الآيات(59 – 73)

إن البشر قد يبلغون من علم ظاهر الكون المشهود علما قليلاً يردهم عن رد العلم المطلق إلى الله وقد تتسخر لهم قوة تنسيهم أن الحول والقوة كلها لله القاهر . والله أعلم بمصائر الدهر وآجاله مهما استعجلها الظالمون فرائس عالم الشهادة، له وحده العلم بمفاتح الغيب وأسبابه المجهولة وله العلم المبسوط بكل الموجودات في البر والبحر وما تسقط من ورقة واحدة من شجرة إلا يعلمها، وما تندفن في جوف الأرض المظلم من حبة أو يظهر عليها رطب أو يابس من نبت إلا كان في قدره المحيط وكتاب علمه المبين. وكذلك يحيط الله بحياة بني الإنسان الذين تخاطبهم منه رسالة الدين يتوفاهم سباتاً بالليل ويعلم ما تكسب جوارحهم انطلاقاً بالنهار، ثم إذا حل الأجل المسمى سيبعثهم في محشر يتجلى كالنهار ومن ثم يكون مرجعهم الأزلي إليه تعالى الذي ينبئهم عندئذ بما كانوا يعملون في الدنيا، فهو الأعلم بهم ظالمين فيها أو شاكرين. وإن الله هو بأقداره القاهر فوق عباده مهما طغوا في الأرض وظنوا أنهم قهروها ، إنه يرسل عليهم بحوله وقوته ملائكة رسلاً يحفظونهم في سيرة حياتهم حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته الملائكة رسلاً للموت غير مفرطين عن الأجل الموسوم، ومن بعد يرد إليه تعالى العباد وهو الذي يتولى حقاً أمرهم له الحكم في حساب جزائهم يتمه فوراً وهو أسرع الحاسبين.

إن على الداعي لبنى الإنسان الغافلين عن الله والغيب في عالم المادة المشهود أن يسائلهم من الذي يهرعون إليه تلقاءً تضرعاً ومناجاة بدفعة فطرية في النفوس متى هجمتهم مخاطر الظلمات في البر والبحر، ناذرين أن لو أنجاهم الله ليكونن من الشاكرين؟ وأن يذكرهم أن الله هو الذي ينجيهم منها ومن كل كرب في الدنيا ويحذرهم أنهم متى عادت إليهم حياتهم الآمنة بعد ذلك البلاء ينقلبون غير شاكرين رحمته بل مشركين به تعلقاتهم الدنيوية الأخرى . إن الداعية ينبغي أن ينذر أولئك الغافلين إلا حين البلاء ليتذكروا دوماً حتى ولو كانوا في أمن وسلام أن الله هو القادر على أن يبعث عليهم عذاباً يتنزل أو ينفجر تحت أرجلهم، أو يضربهم بفتنة الفرقة الاجتماعية شيعاً متصارعة ليذيق بعضهم بأس بعض، وإن على الداعي أن يرى شاهداً على أولئك الغافلين المشركين كيفُ يصَّرِفُ الله آياته مشاهد من شتى الوجوه لأقداره إنجاء من المخاطر والكروب أو إغشاء للعذابات والفتن، لعلهم ببصيرة يفقهون مغازيها فيؤمنون.

في أزمنة أصبح الناس أكثر استخفافاً بالدين . إن العبرة لكل داع في وصية الله للرسول ﷺ أن يقوم داعياً قومه شاهداً لله القدير المصرف لآيات المصائر وأن يخاطبهم متجرداً مهما كذبوا بحق رسالته وصدق بلاغه أنه ليس عليهم بوكيل كاف مهما كانوا الأقربين إليه بل أمرهم إلى الله ، وإنما هو نذيراً بشيراً ينبغي حيثما تداول بعضهم سخرياً في آيات الله أن يعرض وينصرف عن مخاض الهزؤ حتى يدار الحديث إلى غير ذلك فيجادل عن الحق ، ومتى أنساه الشيطان ذلك وأغراه بالانسياق في مداولة عابثة فليتذكر ولا يقعد بعد مع القوم الظالمين . ومهما خالط المؤمنون المتقون مقاعد المشركين بالمعروف فما عليهم من حساب الساخرين وإنما عليهم التذكر لعلهم يتقون عدوى عبث المشركين. إن الداعي معرض عن الذين اتخذوا دينهم هزؤاً ولعباً وغرتهم مقاصد الحياة العاجلة ، وإنما هو مذكر لهم بالمسئولية الغيبية الواقع جزاؤها في العاقبة، ومنذر عن أن كل نفس إنما تسلم إلى وفاق ما كسبت في الدنيا ليس لها من دون الله من ولي ولا شفيع موكول إليه أمرها، أو فدية مهما عدلت عدلاً مقابل كسبها، بل يرهنون لما يوازي كسبهم في الدنيا. وأولئك الهازئون بدينهم المغرورون بالعاجلة يجزون شراباً حميماً وعذاباً أليماً.

ومهما جادل المشركون بضلالتهم وعقائدهم المادية الدنيوية المتمكنة فيهم فليقم فيهم الداعي شاهداً أنه لا دعوة من دون الله إلى من لا ينفع ولا يضر ولا ردة على الأعقاب بغير هداه، ولا سيرة كالذي استهوته الشياطين وأضلته حيران مذاهباً في الأرض وأصحابه المهتدون يدعونه إلى الصراط المستقيم للهدى. والوصية للداعي مهما شد عليه المشركون أن يعلنها في عزيمة أن هدى الله هو الهدى يأمر الموحدين أن يسلموا لرب العالمين، وأن يقيموا الصلاة قلوباً خاشعة وألسنة ذاكرة وجوارح خاضعة وأن يتقوا الله طاعة راهبة راغبة إليه وهو الذي إليه يحشرون. والله الذي له منذ العاجلة خلق السماوات والأرض قدراً نافذاً والله في الآجلة القارعة بقوله الحق النافذ وله الملك يوم ينفخ في الصور للحشر وهو عالم الغيب والشهادة ينزل أحكامه في الدنيا وقضاءه في الآخرة عن بالغ علم وحكمة.

ترتيل المعاني

الآيات(74 – 94)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (74)

إذ تنبيه ينقل السياق الموصول بأول السورة حيث الذكر بتوحيد الله ورسالاته، وبصدرها حيثُ يوصي الرسول ﷺ بالتذكير بالتوحيد والإسلام ينتقل السياق الموصول الى قصةُ تذكر مشركي العرب المخاطبين في بيئة التنزيل بجدهم إبراهيم ﷺ، وقد تركوا سنته وإمامته في التوحيد والغيب وانقلبوا إلى تقاليد الشرك وعبادة الأصنام، كما تذكر بكل معاني التوحيد والغيب السابقة التي تخاطب القاصرين على ظاهر الكون وعاجل الحياة عبر آيات الله البينات في الكون النافذة إلى الإيمان بالله الواحد القهار وبالآخرة.

وإبراهيم يتحدث لأبيه منادياً بلقبه آزر إذ أجمعت المرويات أن اسم الأب الوالد لإبراهيم ﷺ (تارح) بلسانهم وقد يكون (آزر) اسم كبير من أهله وأحد آبائه أو لقبا"، وهو يسأل أباه مستنكراً أيتخذ أصناماً آلهة ويصارحه برؤيته قطعاً له وقومه في ضلال مبين واضح يستبرئ منهم، وبذلك إشارة صريحة لضلال أمة العرب المخاطبة التي نزلت من ملة أبيها إبراهيم وأصبحت تعبد الأصنام حتى قام فيهم رسول منهم يجدد دعوة إبراهيم ﷺ.

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (75)

وكذلك إذ تجرد إبراهيم عن قومه واستبان ضلالهمُ عَّبادا للأصنام كذلك يريه الله بجلال أقداره ملكوت الكون، إشارة لرعاية الله سبحانه وهدايته لمن اجتهد ساعياً للتطهر فتحرر وخرج على التقاليد الواضحة الضلالة، فوجه الله بصره وبصيرته ليرى آيات الله في ملكوت السموات والأرض الخلق على الذي سبق ذكره (الآية 73)، والملكوت – بهذا التصريف – هو المُلك بالغ المدى إذ يتجلى الملك الكبير لله سبحانه في آيات السموات والأرض . وقد أكد إبراهيم ﷺ أولاً: ضلال قومه ولذلك أراه الله وهداه بآياته تعالى في الملكوت وذلك ليكون من الموقنين، حق الإيمان بأن الله وحده هو الخالق المالك المتصرف من وراء آيات الكون وأنه وحده المعبود رهبةً ورغبةً من وراء الحياة .

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الأَفِلِينَ) (76)

كان إبراهيم (ع) يمضي في رحلة تأمل عميق بحثاً عن الحق المطلق من وراء مشاهد الكون فلما جن عليه وحده بليل يوماً وأظلم رأى كوكباً بارزاً من ومض سائر النجوم ثاقباً نوره في ظلام السماء ، جذب نظره وخلب قلبه وصوب إليه فقال هذا ربي. وقد عرفت ثقافة الفلك و العلوم المصوبة إلى النجوم في منطقة جنوب العراق حيث عاش أهل إبراهيم (ع) وقد اتخذوا بعض معبوداتهم من الأصنام تمثيلاً في الأرض لتلك الكواكب البعيدة مثل الزهرة والمشتري، ولكن إبراهيم (ع) الذي كفر بتلك التماثيل الأرضية ظن في تأمله المستغرق الرامي إلى الأعلى أن ذلك الكوكب السيار هو ربه من بهائه وجماله وعلوه، ورأى أنه لا يشبه الأصنام الوضيعة وسارع ليؤمن به ويتعبد له، فلما غاب وأفل من الأفق مع دورة الفلك أواخر الليل فضلاً عن أفوله كل يوم مع الفجر، استشعر إبراهيم (ع) بفطرته أن الرب الراعي حاضر لا يغيب والإله الباقي لا يزول ، فكره ذلك وقال بعبرة الأفول بعد الظهور ليلةً أو ليالي عوراً لا أحب الآفلين.

(فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) (77)

بعد أفول الكوكب من الأفق ومن القلب رأي إبراهيم (ع) ليلةً القمر طالعاً بدراً وقت بزوغه، وهو أتم خلقةً من الكوكب يظهر منيراً جميلاً فسارع – كذلك – يتعجب ويتعبد ويقر له عيناً بأنه ربه. ولكن القمر توسط السماء ثم انحط وأفل كما أفل الكوكب فتقدم إبراهيم (ع) درجة في بحثه المتأمل المعتبر بأفول القمر ليلة أو كل ليلة بعد أن بدأ مشهوداً. وقال لئن لم يهدني ربي الحق فسأكون من القوم الضالين متخبطاً مثل عبدة الأصنام حولي مضطرباً بين الأرباب الآيلة إلى أفول، بل عرضة لخطر الضلال المتمكن في القوم .

فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) (78)

كان إبراهيم عليه السلام يرى الشمس في كل أيامه كما يراها كل الناس ولكن عبر رحلة التجربة والتأمل المتعالي قد بلغ مداه في ذات يوم إذ رآها بازغة طالعة فسارع إلى الإقرار للشمس بالربوبية فهي أكبر فلكةً وبؤرة ضوء من ذلك الكوكب الآفل أو القمر، ولكن الشمس الكبيرة الوضيئة زال نهارها وأفلت مغيباً كذلك.

وعندها نضج بالتجربة واكتمل إيمان إبراهيم (ع) فأعلن لقومه مؤكداً براءته مما يشركون مع الرب الأعلى من معبودات مهما بدت فهي دون الشمس الناقصة الآفلة، فإنما الله سبحانه تبارك وتعالى فوق ما يشركون من دونه. فمسيرة إبراهيم اجتهاد تأمل وخروج من الضلال وبحث عن هدى الإيمان بآيات الله، ما كانت نظر تأمل وتقلب فكر مجرد ومذهب معلق كما هي طرائق الفلاسفة، ولكنها سنة الأنبياء تدبر الحياة والكون المشهود بالحس والوجدان حتى إذا أدرك ثمرة اليقين والإيمان عبر عنه اللسان صدعاً بالحق وإعلاناً لأمة الخطاب .

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (79)

وصلاً إلى خطاب أبيه وقومه وضلالهم المبين يؤكد إبراهيم أنه براء منهم وما يشركون وأن قد جاءه اليقين من تجربة التبصر في مشاهد الكون الفاتنة وتبينها آيات ساقته إلى هدى توحيد الله، فوجه وجهه مستقيماً لله الذي فطر السموات والأرض وحنف عن تقاليد الضلال حنيفاً مائلاً إلى الحق، معلناً تحرره من الشرك فما هو من قومه المشركين .

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ) (80)

تصدى لإبراهيم (ع) قومه يحاجونه حين اتجه إلى الله الحق دون معبوداتهم الباطلة، وأثاروا في وجهه حجة الترهيب ظانين أنها باعثة فيه الخوف ليرتد إليهم عن هدى الله . ولكن إبراهيم (ع) ساءلهم مستنكراً أن يحاجوه في الله وقد هداه وذكرهم أنه مؤمناً بالله رباً لا يخاف ما يشركون به أن تضره كما يزعمون تلك الأفلاك والأصنام، إلا شيئاً تقدره مشيئة الله الغالبة فهو الذي وسع كل شيء علماً عن

حركة هذه الكواكب وأثرها إن كان على الإنسان. وإبراهيم (ع) يدعوهم إلى الذكرى ويسائلهم أفلا يتذكرون ما يدعو إليه أصل الفطرة بعد أن غشيها فيهم ركام الغفلة والعقائد الباطلة ليعودوا مؤمنين بالله الواحد العلي فوق الكواكب والأوثان.

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) (81)

إبراهيم (ع) يواصل كشفه لحجة المشركين المتهالكة كما هو الأمر عند محمد ﷺ رسولاً أمام مشركي مكة . أن كيف يخاف هو ما يشركون بالله من أصنام باطلة لا حول لها ولا قوة وهم لا يخافون ما هو أولى بالخوف – أنهم عبدوا ألهةً وأشركوها مع الله بغير سلطان أنزل عليهم من علم أو حجة مستقيمة، ويسألهم أي الفريقين بينه وبينهم أحق وأولى بالأمن من الخوف – فريقه الذي انحاز إلى الله العلي فاطر السموات والأرض الذي ينبغي أن يسلم له الإنسان إسلاماً يهبه الأمن والطمأنينة، أم فريق الآلهة العاجزة التي يخوفون بها – أيهما أحق بالسكينة إن كانوا هم حقاً يعلمون قدر النجوم والأوثان التي توهموها معبودة من دون الله.

(الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) (82)

في ختام محاجة إبراهيم (ع) ومساءلته لقومه أي الفريقين بينه وبينهم فريق الشرك وفريق التوحيد أولى بالخوف أو الأمن، تقضى آية القرآن بالحق بينهما: وذلك أن المؤمنين الذين لم يلبسوا إيمانهم خلطاً والتباساً بالشرك بل محوه خالصاً لله دون ظلم الشرك العظيم. أولئك لهم الأمن في الدنيا باطناً بذكر الله تطمئن به القلوب وظاهراً بحفظ الله العليم، وفي الآخرة إذ يلقون ربهم راضين مرضيين لا في غضب ولا خطر، وهم مهتدون خرجوا من الضلال المبين بين الآلهة الآفلة موجهين وجههم إلى الله الذي هداهم ومن يضلل الله فلا هادي له ومن يهده فلا مضل له.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (83)

وكما قضت الآية الماضية بمن هو أحق بالأمن تشير هذه الآية إلى تلك الحجة تلك – البالغة القدر والوقع آتاها الله بجلال علمه وإلهامه لإبراهيم (ع) جزاءً لبحثه المخلص المتجرد عن الحق، وقد أقام بها سلطان علم على قومه إذ كشف بها باطل معبوداتهم. وقد رفع الله درجاته بتلك الحجج إذ ارتفع إلى ما هو أعلى من الأفلاك الآفلة ، الله المحيط العالم وانحط قومه إلى ما هو دونها أوثاناً عاجزة، والله بتعاليه وعلمه المحيط يلهم من يشاء حجة الحق الأعلى درجات فوق الباطل الأدنى، ويرفع درجات من يشاء من المؤمنين على المشركين . إن الله والخطاب في (ربك) يعود مباشرة للرسول ﷺ يذكره بأن الله حكيم بالغ الحكمة أحكم خلق الكواكب السابحة في الأفلاك، وأحكم وقع حجة الموحدين بالحق الدافق على باطل المشركين الزاهق، وعليم بالغ العلم بالسماوات والأرض وبمجاهدات المؤمنين كسباً للإيمان ومدافعاتهم غلباً للشرك.

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (84)

وهب الله أيضاً سبحانه وتعالى لإبراهيم (ع)إسحق ابناً ومن ورائه يعقوب ذريةً صالحةً، وكلاً هدى الله بأقداره الجليلة إذَ خلَّفَ إبراهيم تراثاً طيباً من الهدى بما وفقه الله إليه من بحث عن حق التوحيد واعتصام راشد وصدع هاد . والآية تصل الهدى النازل تحت إبراهيم (ع) بذات الهدى الصاعد في التراث إلى جده نوح (ع) الذي هداه الله كذلك من قبل، وجاء إبراهيم من شيعته واستلهم آثاره في رحلة إيمانه، والآية تصل وتذكر أن فطرة التوحيد وهدايته تمتد خلفاً وسلفاً تراثاً ورسالة في تاريخ الدين . فمن مثل نوح جاء إبراهيم ومن ولد إبراهيم جاء إسحق ويعقوب، ثم من تلك الذرية الطيبة جاء داود ومنه سليمان وأيوب ومنه جاء يوسف وموسى وأخوه هارون، ولئن ارتدت ذرية إبراهيم في العرب عن كل هذا التراث التوحيدي إلى الشرك وعبادة الأوثان فإن الله يجدد الإيمان والتوحيد نبياً بعد نبي ورسالة، وكذلك يجزي المحسنين – أنبياء صالحين يهب الله لهم ببركة النسبة والقربى مهديين محسنين ، فبصلة النبوة إسحق فيعقوب ولداً وحفيداً لإبراهيم، وهما وإبراهيم من نوح سلالة، ثم بصلة الذرية داود ومنه بالنبوة سليمان وبالسلالة أيوب ومنه بالنبوة يوسف وبالقربى خلفاً موسى وبالأخوة له هارون كلهم أبناء مهديين من

نسب المحسنين – إبراهيم مهاجر إماماً من شيعة سلفه نوح ذي العزم والنجاة من الطوفان، ومن تحت ذلك إسحق ويعقوب إمامي مركز الإحسان وتراثه، فأيوب قدوة الصبر على الضر ويوسف الصابر على فتن الأهل والأنثى والسجن والوزارة، ثم موسى وهارون قائدي الهدى عبر امتحان الاستضعاف والبؤس والشرع والخلاف.

(وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ) (85)

وأنبياء من سلالة الإحسان من ذرية إبراهيم (ع) كانوا معالم هدى على سنة التوحيد الموصولة في التاريخ، وإن لم يجدوا شأناً كبيراً من إمامة أو قيادة أو ملكاً كما وجد الأنبياء ذوي الإحسان في الآية السابقة، فقد كان كل من الصالحين ذوي السيرة الصالحة.

(وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) (86)

وهدى الله من أبناء ذلك التراث أنبياء منهم إسماعيل الذي جاء لإبراهيم من أم وفي أرض أخرى، وهدى اليسع ويونس الموصولين نسباً وهدى، ولوطاً ذا قربى ورفيقاً لإبراهيم ، وكلاً فضل الله بأقدار الهدى وذكرى التاريخ على العالمين الذين كانوا حولهم في الأرض والزمان ولكنهم مضوا في متاهات الضلال والنسيان .

(وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (87)

ومن أباء هؤلاء الأنبياء سلفاً وفي ذريتهم خلفاً ولديهم أخوة وصحبة ومن حولهم من اجتبى الله واختار للهدى والإحسان والصلاح والفضل على العالمين، وكان هدى الله بأقدار الفطرة والوحي وأحكام الشرع أن مضوا على صراط وطريق مستقيم بغير تخبط ضلال واضطراب عبر الأجيال مما صار إليه العرب المشركون.

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (88)

ذلك الهدى الذي توالى ذكره هو هدى الله لمن يشاء من عباده لا بشتات أقدار من حظوظ الهدى بل بقدر منظوم من جزاء الله لكسوب الصلاح بالقرآن المتوالي، وبحكمة تتجلى في سنة موصولة من عبادة الله توحيداً يتصدق ويتأكد عبر التاريخ.

وحتى أعلام تلك السيرة المهدية الموصولة لو أشركوا ضلالاً بعد هدى التوحيد لحبط عنهم ما كانوا يعملون ولسقطوا فانقطع السلك الممتد من المهتدين الصالحين الفاضلين – إشارة لذرية وخلف منهم بين العرب المخاطبين بالقرآن أشركوا فانقطعوا عن هدى الصراط المستقيم على سنة التوحيد الإبراهيمي.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) (89)

أولئك عالوا الذكر من الأنبياء الصالحين هم الذين آتاهم الله بأقدار الرسالة وبوحي الملائكة الكتاب آيات من الهدى والحكم، حيث يتنزل الرشد على الواقع حقاً يفصل كل مختلف، والنبوة أهلية البلاغ والإنباء عن الله وهي الأصل المشترك بينهم جميعاً باجتباء الله واختياره . فإن يكفر من بعد ذلك بتلك الأمانات هؤلاء من ذريتهم وأبنائهم العرب فإن الله لا يضيع الكتاب والحكمة وسنن النبوة بل يكل الله أمرها لمن لا يكفر بها، بل يحفظها ويمسك بها على صراط مستقيم .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أسألكم عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (90)

الخطاب للرسول ﷺ : أولئك الأنبياء هم الذين هدى الله والأمر له أن يقتدي بهداهم وأن يقول لأولئك المشركين أنه لا يسألهم هم خاصة مالاً أجراً من وراء دعوته لهم بهدى القرآن ، ما هو إلا ذكرى لهم، وللعالمين جميعاً من الناس. فهو مستمسك بأمانة الكتاب والحكمة وبتقاليد الأنبياء كما توالوا في التاريخ، ومستقل عن تعاليم الشرك الباطلة لا يريد أموال أمة الخطاب مشركي العرب، بل يحمل الرسالة ذكرى من كل غفلة للعالمين من كل أمة .

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلاَ ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) (91)

السياق يتواصل مذكراً بغفله مشركي العرب وجاهليتهم فهم لم يعرفوا الله سبحانه عما يصفون لم يقدروا الله حق قدره إذ ظنوا أنه ترك البشر في عالم الأرض والشهادة يتيهون بغير هدى" فلم ينزل على بشر من علياء الغيب من شيء من الكتاب والهدى ، فمن إنكارهم لما جاء به الرسول محمد ﷺ أنكروا كل أنباء الرسل في مسيرة البشرية الذين جاء ذكرهم في الآيات السابقة. والوصية للرسول ﷺ أن يقول لهم سائلاً في دعوته: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ترونه من حولكم في تراث أهل الكتاب اليهود والنصارى؟ هم (على قراءة يستمر بها سياق الخطاب) يجعلونه قراطيس وأوراق كتبوا عليها يبدونها حاملة في سطورها نصوص التنزيل ويخفون كثيراً منها كما فصلت من بعد السور المدنية.

ومن هذا الذي أنزل علماً علمتم به ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم وذلك بواسطة حملته من أهل الكتاب حولكم الذين يبسطون فيكم ثقافة يغشاكم منها شيء من أمر ومن معلومات على جاهليتكم الموروثة، من مصدر ذلك الكتاب المروي عن موسى المنشورة بعض قراطيس منه المبثوثة فيكم منه معلومات طارفة، الأمر للرسول ﷺ أن يجيب على السؤال قائلاً إنه هو الله وأن يدعهم يتمادون خوضاً بلا عقل وهم يلعبون بأباطيل إنكار التنزيل ، أن يتركهم يخبطون في ضلالهم بعد أن يبلغ أمانة الرسالة ويمدمغهم بالحجة من عبر التاريخ الذي يعلمون .

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ) (92)

ومثل كتاب موسى عليه السلام ليبلغ الرسول ﷺ أن هذا القرآن كتاب أنزلته أقدار وحي الله لا مفترىً من عنده، وهو مبارك تتكاثر فضائله ومعانيه على ما سبقه بين يديه من كتب، وهو مصدق لأنباء الحق وقيمه فيها ، وهو رسالة ابتلاء وحساب وعذاب لتنذر به أهل أم القرى مكة العاصمة التي اشتد فيها

ثقل المشركين وامتد منها وقعهم. فالرسالة نذارة لأم القرى ومن حولها في الجزيرة العربية والذين تعظهم النذارة ليهتدوا مؤمنين للآخرة متعافين من أكبر علة للمشركين العرب الذين كانوا يكفرون بالبعث بعد الموت والقيام يوم الحساب والعذاب ، والمؤمنون بالآخرة وراء الدنيا يؤمنون بالكتاب النذير البشير الهادي وهم على صلاتهم يحافظون – صلة ذكر وخشوع لله دائم لا يقطعها سهو ولا لهو بينما في أمة الخطاب العرب مشركون كفروا بالغيب آخرةً وكتاباً منزلاً من الله وليس لهم من شعائر الصلاة إلا المكاء والتصدية واللهو عن ذكر الله .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) (93)

أولئك هم المؤمنون المستقيمون ومن أشد ظلماً وميلاً عن سواء السبيل من المشركين الذين لم تخشع قلوبهم للكتاب إذ طفقوا يفترون على الله الكذب يروجون أباطيل أقوال ينسبونها إلى الله، أو يدعون أن الله أوحى إليهم ولم يوح إليهم شيء بل هي المضارعة للقرآن والمكايدة للرسول ﷺ كما زعم بعض شعرائهم أنه يستطيع أن يؤلف من نفسه قولاً مسجوعاً وينزل على الناس مثل الذي أنزله الله على الرسول. ولو يرى المرء مصير هؤلاء الظالمين المغترين إلى آجال الموت اليقين، إذ هم في غمار سكرات المنازلة مع الموت والملائكة جنود الله باسطوا أيديهم محيطة بهم في أتم السيطرة وهم في أشد الضعف، يدعون تهكماً ساعتئذٍ أن يخرجوا أنفسهم من قبضة حبائل الوفاة ومصائر في الآخرة وهم بلا حول ولا قوة، فقد جاء يوم العذاب المهين المذل لكل مستكبر بما كانوا يقولون مفترين على الله غير الحق وبما كانت زينت لهم أنفسهم من أنفة واستكبار عن قبول آياته.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) (94)

أولئك المشركون الظالمون لأنفسهم المفترون استكباراً بقوتهم بعد مشهد الضعف الشديد ساعد قبضة الموت وعند مسمع الخطاب المستخف بهم أن يحاولوا الخروج، يمضي خطابهم أن قد وقع حشركم ومجيئكم إلى الملأ الأعلى فرادى بلا ولي ولا نصير ولا قريب من ذوي العصبة التي كنتم تعزون بها بل ضعفاء مجردين كما خلقكم الله العظيم أول مرة في الطفولة. وتركتم كل ما خولكم عطاؤه الجليل – تعالى – من قوة أموالاً وأولاداً في الدنيا وراء ظهوركم، وما يرى في الملأ الأعلى المحيط بكم شفعاؤكم الذين زعمتموهم شركاء فيكم مع الله من أوثان وأصنام، كنتم تحسبونهم لن يتركوكم أفذاذاً بل يقربونكم إلى الله زلفى يتوسطون شفاعة لكم لديه، لقد تقطع الوصال وانبت كل ما بينكم من عبادة لهم ورجاء منهم في الدنيا، وضلت عنكم فلم تجدوا أثراً لمزاعمكم الكبيرة أن مع الله فيكم شركاء يسترضون لكم غضبه مهما افتريتم عليه وادعيتم وحيه كذباً وضارعتم تنزيله.

عموم المعاني

الآيات(74 – 94)

إن دعوة دين الغيب الحق قد تبدأ في البيئة المادية الجاهلية غريبة يحملها فتية تزكت فيهم فطرة الهدى بكراً ما غشيها بعد رمس التقاليد. وكان خير مثال لذلك إبراهيم (ع) الفتى الذي خلص نفسه من الضلال العرفي فخرج على المجتمع صادعاً في وجه كبار قومه، أنهم يراهم في ضلال مبين من اتخاذ الأصنام الموضوعات بينات القصور رموزاً للآلهة المتعالية في الأفلاك، ثم مضى جاهداً ينظر في ملكوت السموات والأرض يبحث عن الهدى واليقين، فسعى في الليل تأملاً لكوكب ظن فيه الربوبية لنوره وعلاه ولكنه ما أفل نهاراً حتى غاب فيه مظهر الكمال وتجاوزه إلى القمر الأظهر نظراً وقدراً، ثم كفر به بعد تأمل أفوله المكتوب طبعاً، ثم إلى الشمس الكبرى كذلك، فانساق عبر التجارب المتواكبة إلى التبرؤ من تأليه المشهودات وإشراكها مع الله الأعلى فتجرد بوجهه لفاطر السموات والأرض حنيفاً موحداً . هكذا قد يكسب قرن دين التوحيد جديداً عن تحرر وتجريب ذاتي من التفكر والاعتبار، ومن وراءه تخلف القرون إما يأفل نور الهدى فينزل الخلف من معالي الغيب إلى المشهودات الدانية تقديساً أو يتوالى الأخلاف حافظين للدين مجددين .

إن حامل الدين المتجدد الخارج من بيئة الضلال التقليدي يتعرض لابتلاء من قومه الضالين يحاصرونه بالجدال ليئدوا نابتة الهدى الغريبة. وقد كان إبراهيم عليه السلام أمة إذ قام في قومه معلناً أنه لا يخاف ما يشركون بالله أفلاكاً وأصناماً إلا أن يحركها في المواسم بما يجلب الضر قدر الله المحيط العليم ، وكيف يخاف أصنامهم التي تمثل أفلاكاً آفلة ولا يخافون إشراك هذه بالله بغير سلطان حجة، إنما الأمن والسكينة أولى بالذين يؤمنون بالله الكبير المتعالى ولم يلبسوا ذلك بظلم إشراك، هكذا رقى إبراهيم على قومه درجة بفضل الله الحكيم العليم ، وهكذا تنحط الأقوام بدفع الأعراف الدينية التقليدية تقتدون عمياً دون اجتهاد وبصر .

إن حركة الدين الناهضة مهما عوقتها التقاليد الوضعية قد تجد مدداً من قديم هدى طواه التاريخ، فإذا تعززت في النفوس بقية من تراث ذلك الهدى نشطت وامتدت معاني العبادة والتوحيد إلى شتى جوانب الحياة وابتلاءاتها. هكذا تعاقبت بعد إبراهيم سلالاته من المرسلين المجددين دفعةً في وجه ابتلاءات المرافعة والأذى والسلطان مثل إسحق وإسرائيل يركزون أصل التدين عموماً في الحياة ، ثم دفعة صلاح كداوود وسليمان تقيم الدين صعداً نحو الحياة العامة في وجه ابتلاءات المدافعة والسلطان، ومثال كيوسف الصابر على فتنة الحسد والأذى بين الأهل والإغواء من نساء القصور والامتحان بالسجن والوزارة، وإمامة كبرى كموسى وهارون في التحرير بعد الاستضعاف والهجرة والبؤس بعد النعماء والخلاف بعد الشرع، وسلالات تجديد وتبشير مثل زكريا ويحيي وعيسى وإلياس، ثم نمط من الفاضلين على العالمين الحافظين لذلك التراث كإسماعيل واليسع ويونس ولوط.

وهكذا يتجلى تجدد قرون من الراشدين الموصولين تراثاً والمجتَبيْ من الله المهديين إلى صراط مستقيم، ولكن القرون الخالفة عرضة لابتلاءات قد تحبط سيرة الحياة بعد معالى التوحيد إلى مهابط الإشراك والفتن. الذين يحفظون تراث الرسالة الربانية ينزلون رشدها حكماً في الواقع ويحملون دعوتها نحو الخلف فإن كفر بعضه وانقطع عنها أوكلها الله إلى آخرين، هم خير قدوة لمن يقوم بالرسالة مقتدياً بمورثها مجدداً، لا يطلب في سبيل ذلك كسباً عاجلاً في الدنيا بل يريد حفظ الذكرى للعالمين. أما الخلف الكافر فقد يهجر الدين كله وإذا بقي لهم شيء من الإيمان بالله لا يقدرونه حق قدره منزلاً رسالات الهدى إلى

عباده، كذلك ضيع العرب بجاهليتهم تراث إبراهيم الحنيف وسادت فيهم ثقافة إشراكية أحاطت رسالة النبي الخاتم محمد ﷺ ، وأنكرت أن يكون الله قد أنزل على البشر شيئاً من رسالة مهما كانت الرسالة المحمدية تجديداً على أثر رسالة موسى (ع) التي عهدت في التاريخ نوراً وهدىً للناس وشاعت مصادرها في ذلك الحاضر في قراطيس مكتوبة يبدي أحبارها البعض ويخفون كثيراً مما لا يناسب أهواءهم. ولكن ذلك التراث الكتابي علم العرب من معاني الدين وأصوله ما لم يعرفوا ولم يرثوا من سلفهم الجاهلي، وإذا سئل عن مصدر ذلك الهدى الكتابي كله فهو حقاً الله الذي ينزل الكتب المتواترة المتصادقة وليؤد الداعية أمانة تبليغ ذلك ولو لقرن مرق من الدين ومن رسالات السماء، وليدعهم بعد التذكير أحراراً في خوضهم اللا ديني .

إن القرآن الكتاب الأخير المنزل من الله الأعلى هو الحق المصدق لما بين يديه من رسالات، المبارك بما فيه من تعاليم أكثف مدىً وحكمة رسالة ونذارة لأم القرى مكة ومن حولها أول العهد الجاهلي الدنيوي المظلم ، لكن أصول ذلك الدين تتجاوب معها كل القرون، فطرة كل الإنسان من الذين ينفذون ببصيرتهم وراء الدنيا إلى الآخرة بعثاً وحساباً، فيؤمنون بكل هدى الكتاب غيباً بالله وحوافز في العاقبة والآخرة، ويحافظون على شعائر الصلة التي لا تنقطع عن الله كدين الجاهلية بصور وطقوس بقية ظواهر من تراث إبراهيم (ع)، لكنه لا يصل الوجدان بالله . وإن من يتخذ من مفهومات الوحي القديم المنتشرة في الثقافة بلا دواعي إيمان بل أدوات لترويج مذاهب الكفر بغير إستقامة عادلة مع بقية المؤمنين، أولئك من أشد ظلماً منهم يفترون الكذب مكايدة للوحي الصادق أو يدعون أحياناً زوراً أنهم أوحي إليهم ولم يوح إليهم شيء ، أو يحاولون مضارعة الكتاب المنزل لينزل على الناس مثله. إن هؤلاء مهما كفروا بآجال الموت والبعث والحساب فانسابوا في الحياة يتمتعون بالكذب الباطل، قد تراهم في غمرات الموت يرون عندئذ قوى الغيب ملائكة يبسطون إليهم الأيدي ليخرجوا أنفسهم ذلك اليوم من الأجساد والواقع الدنيوي ومتاعه ليتخذوا صوراً أخرى عرضة لعذاب الهون جزاء على أنفة الافتراء الكذب على الله الحق والاستكبار عن قبول آياته، وعندئذ يخاطبهم الله في الملأ الأعلى بعد خطاب رسالة الأرض الماضية – أن قد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة كالجنين الطفل الوليد وتركتم ما خولكم الله

واستمتعتم به كافرين نعمته حاسبينه من عندكم تركتموه اليوم وراء ظهوركم لا يغنيكم هنا، وليس فيما نرى معكم شفعاء زعمتم أمس معهم أنهم فيكم وفي مصائركم شركاء لله. لقد تقطع اليوم بينكم المزعوم أمس معهم وضل عنكم كل ما كنتم تزعمون من إنكار البعث والحساب والانتصار في الأزل بشركاء في أقدار الله.

ترتيل المعاني

الآيات(95 – 117)

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (95)

كيف يأفك المشركون ويختلقون لله شركاء في الخلق ومصائره وينصرفون إليهم كفراً بنذير الكتاب المنزل وتعويلاً على شفاعتهم حتى لو ضارعوا الكتاب بالافتراء والكذب. إن آيات الله في الكتاب تصدقها آيات في الكون، فكماَ تبَصَّرَ إبراهيم (ع) أبو العرب الباحث عن الحق آيات الله في الفلك فخرج من ظلمات الشرك، إن من آيات الله في الكون أنه فالق بوجه في دورة وجود الحياة الحب والنوى الميتة يخرج منها النبات الحي، وأنه بوجه آخر يتم الدورة مخرج الميت من الحي فيرده ميتاً بعد أن كان حياً نباتاً أو حيواناً. ذلكم هو الله وحده فمن أي الوجوه في شهادة الكون وأنى يقلب المشركون المخاطبون الحقائق الواضحة إفكاً.

(فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (96)

الله الواحد فالق الهدى من الضلال في قلب ابراهيم (ع) وفي قلب أي مشرك إن شاء – وفالق الحب والنوى وهو أيضاً فالق الإصباح يخرج أضواء الصباح من ظلمة الليل فتخرج الحياة والنشاط من موتة الليل الذي هو تعالى جاعله سكناً لحركة الحياة التي تنشد السكون والراحة بعد الحياة والعمل. وهو جاعل حركة الشمس والقمر دورة حسباناً يُدرِكُ ويَحْسُبُ بها الإنسان ساعته ويومه وشهره، كما عرف بها إصباحه وليله ونظم أوقات حركته وسكونه .

كل ذلك التقدير للحساب والحركة والسكون لله – سبحانه وتعالى – العزيز قوته فوق الشمس الآفلة والقمر الآفل . والعليم بحساب أقداره فيما فلق وطلع أو سكن وأفل .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (97)

والله هو الذي جعل للبشر إذا أظلم الليل عليهم سارين في براري الأرض أو انبهمت بهم الآفاق سابحين في فلك البحر –جعل الله لهم في أضواء النجوم ومواقعها ليهتدوا ويعرفوا بها وجهات المشارق والمغارب فلا يضل الناس عن مقاصدهم الجغرافية .

وكل ذلك الفلق والسكون والإصباح والليل والنجوم والحساب هي آيات الكون التي يفصلها لقومٍ من العلماء، لا بعلم ظاهرها بل بعلمٍ نافذٍ، فيها آيات تهدي إلى الله كما تهدي النجوم في الظلمات وكما اهتدى إبراهيم (ع) من ظلمات الضلال إلى حنيفية التوحيد.

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) (98)

والله فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً هو الذي أنشأ البشر أمة الخطاب الذين يتمتعون ويهتدون بكل هذه الآيات أنشأهم أول خلق وأول كل إنسان منهم مهما تكاثروا من بعد وتنوعوا ذكوراً وإناثاً من نفس واحدة على سنة واحدة، فمُسْتَقَرَ (على قراءة) من المادة التي يودعها الذكر في رحم الأنثى مستودعاً للمادة وزوجها والجنين المنخلق، فلا يولد جديد إلا اذا اتحدت الذكورة والأنوثة نفساً واحدة هي الأصل الأول ومن بعد. وكل سنة الله في النفس ونشأتها آيات فصلها الله تفصيلاً دقيقاً لقوم يفقهون – نفاذاً بعلم الظواهر إلى أعماق دلالتها آياتٍ لله، فأطباء الأجنة وعلماؤها إذا نفذوا بها فقهاء مؤمنون.

(وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (99)

وكما جعل الله الماء المني المستقر أصلاً لمنشأ الإنسان في الرحم المستودع، هو الذي أنزل من السماء ماءً على الأرض هي رحم الحب والنوى ومستقر المادة الزوجية فمنها أخرج الله بجليل أقداره نبات كل شيء، فمن بعد خروج النبتة أخرجت أقدار الله الخضر من تفاعل النبتة مع الضوء، ثم يخرج من الخضر فروعه بين شعابه وأوراقه حباً متراكباً في سنابل. وفي غير زروع الحبوب – لا سيما في بيئة أمة الخطاب – تخرج أقدار الله من أشجار النخل من طلعها — وهو نَوْرها المنشق عن كافور – قنوان وهي العذاق التي تحمل الرطب دانية نحو الأرض ينالها طالب الثمر. وأخرجت أقدار الله الإنباتية جنات من أعناب – بصيغة الجمع – لأنها كثيرة الأنواع غير متشابهة، كما أخرجت نعمة الله الزيتون والرمان لا يتعدد أنواعاً ولذا بصيغة المفرد فترى النبات عموماً وهو مشتبهاً متماثلاً نظراً بعضه وآخر متشابه والدعوة للمخاطبين أن ينظروا إلى ثمر هذا النبات كله إذا أثمر فبدت طلائع حبه وفاكهته، وانظروا ينعه ونضجه إن في ذلك كله لكم لآيات لقوم يبلغ بهم العلم والفقه أن يؤمنوا بالله وحده، وأنه لا ينزل ماءً ولا ينبت أرضاً ولا يخرج من جنى النبت منوعاً إلا أقدار الله .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) (100)

بعد كل هذه الآيات البينات حول الإنسان لم يبلغ المشركون مقام الإيمان بتوحيد الله بل جعلوا لله شركاء من عالم الجن الخفي . ولكن الجن ذاته مخلوق لله كسائر المخلوقات الفلكية والبشرية والنباتية ثم خرقوا فطغوا بأفكارهم خبطاً بغير علم فافتعلوا لله بنين وبنات ملائكة، ولكن الله منزه علواً مطلقاً يتعالى عما يصفونه اختلاقاً.

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(101)

السياق يمضي داحضاً حجج المشركين بالله – سبحانه – بديع السموات والأرض خلقها أول مرة من غير شيء وعلى غير مثال سابق وأنّى له من شريك وأنّى يكون له ولد، والكون من حول المخاطبين أن الولد إنما ينشأ من زواج ذكر وأنثى ولم تكن لله صاحبة. والله بقدرته الجليلة خالق كل شيء مبدع لا شريك له وغني لا حاجة له لولد، وهو بالغ العلم بكل شيء في الوجود لا يفوته قيام شريك في الخلق.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (102)

بعد ذكر الآيات البينات الدالة على الوحدانية ، ذلك لكم أيها المخاطبون بتلك الآيات – الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فعليكم أن تعبدوه فهو الأحق بالعبادة وليست الأصنام أو الأفلاك أو الجن ، وهو وكيل يقوم به ويتوكل ويفتقر اليه كل شيء في الوجود.

(لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (103)

الله لا تدركه الأبصار كما هي تدرك وتحيط بالآيات التي تدل عليه في السموات والأرض فهي قاصرة منحسرة وهو منزه مطلق في الوجود غيباً، ليس كمثله ما يتخذ المشركون من آلهة مشهودة حادثة. والله هو الذي يحيط بالأبصار القاصرة ويعلم ما ترى ويصوبها بأن تنظر إلى آياته في الكون فتنفذ البصيرة إليه تعالى. وهو اللطيف الذي رفق بالبشر ذوي البصر المنحسر فهداهم بآياته المشهودة والمسموعة كتاباً، وسخر لهم ما خلق ومد لهم الدنيا يبتليهم وأخر لهم الجزاء، وهو الخبير يحيط بأدق خبر بما يكسبون من إيمان وعمل صالح أو كفر وسوء.

(قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) (104)

الخطاب يستمر لعباد الله الذين ضلوا عن توحيده أن قد جاءتكم من ربكم في الكتاب المنزل بصائر دلائل وبراهين وآيات ظاهرة مضيئة، فمن انفتح قلبه وأبصر وآمن فلنفسه كسب هدىً وأجراً، ومن أغلق على نفسه منافذ النور وعمي عن البصائر فعلى نفسه يفعل ذلك ضلالاً ووزراً. والذكر يلتفت للرسول ﷺ الداعي لتبصر الآيات التي يبلغها عن الله ، يذكر الرسول أن يخاطبهم: أن ما هو عليهم

بحفيظ من العمى والضلال، بل هو داعٍ تذكره وتعزيه هذه الكلمة من الله أن ما هو ما دعاهم بحفيظ مسئول عن إشراكهم، فالإنسان إنما يكسب لنفسه أو عليها.

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الأَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (105)

هكذا يصرف الله آياته آية بعد آية ويوضح وجوهها بصائر ليتم الخطاب بالهدى ابتلاء للناس، وليكون من هؤلاء المشركين من لا يبصرون ولا تهدي الآيات قلوبهم الكارهة من تستفزهم حجج الحق البينة وتعجزهم عن دحضها ليقولوا للرسول ﷺ الذي يبلغها: دارست قوماً آخرين من أهل الكتاب واكتتبت الآيات فأملوها عليك ودرستها لتعرفها بكرة وأصيلاً (الآية 5 الفرقان).* وكذلك يصرف الله الآيات ليكون من المخاطبين قوم يسمعون فيبصرون ويعلمون الحق فيكون لهم في التصريف تبياناً لهذا الكتاب الحق الذي تبلغه.

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (106)

الخطاب للرسول ﷺ مهما عمي المشركون واشتدت حملتهم عليك بشأن الآيات التي تبلغها أن يتبع ما أوحي إليه من ربه من هذا الكتاب ويعتصم به، متذكراً ألا إله إلا هو واحداً خالقاً هادياً معبوداً. والأمر له بعد اتباع الوحي استقلالاً وقدوة أن يدع المشركين لكفرهم وضلالهم وأن يعرض عن اتهامهم الباطل.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) (107)

ويستمر الخطاب للرسول ﷺ ألا يحزن وأن يعرض عن هؤلاء الذين أشركوا فالله هو الذي أعطى إرادة التخيير للإنسان وجعل التوحيد والشرك والهدى والضلال في أقدار كسبه الحر ولو شاء الله غير ذلك لجعل الناس كلهم مؤمنين ولما أشرك هؤلاء . وينبه الرسول ﷺ أن أقدار الله ما جعلته عليهم حفيظاً مسؤولاً تأكيداً لما جاء في الآية السابقة (104) . ويذكر –كذلك– أن ما هو بنفسه عليهم بوكيل قائم بأمر خيارهم توحيداً لله أو شركاً به فإنما مشيئة التخيير لله ولو شاء ما أشركوا . وتأكيد رسالة النبي ﷺ داعياً ونفي كونه حفيظاً أو وكيلاً تثبيت له وعزاء ألا يتأثر بموقف المشركين .

*)درست في قراءة ودرست في قراءه اخرى.

(وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (108)

الدعوة في سياق الجدال والبلاغ أن مهما استبان باطل المشركين وتهافت أمر معبوداتهم من دون الله، لا يعمد الرسول ﷺ ومن آل إليه مؤمناً إلى سبها شتماً فيستفزوا فيسارعوا بجهالتهم رداً إلى سب الله عدواناً بما لا يملكون عليه علماً، فقد زين الله لكل أمة عملها فهي معجبة به يثيرها أن يسب، وذلك هو ابتلاء الخيار. ثم المرجع إلى الله فهو الذي ينبئها يوم القيامة بما كانوا يعملون ويحاسبهم على شركهم وليس الأمر للرسول ﷺ ولا للدعاة حساباً وسباً .

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الأَيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ) (109)

وبعد كل تلك البصائر والآيات أقسم المشركون بالله وبلغوا غاية الجهد في القسم الشديد للرسول ﷺ لئن جاءتهم آية حوت معجزة خارقة كما جاءت لموسى (ع) وعيسى (ع) ليؤمنن بتلك الآية وليسلمن لرسالته مؤكداً. ولكن أوصى الرسول ﷺ أن يقول لهم أنه لا يأتي بالآيات فما هو بوكيل ولا حفيظ ولكن الآيات عند الله فقط، إن شاء أرسلها وبسطها ليخضع لها الناس، لكنه سبحانه إنما جعل الآيات في الكون وأرسلها في الوحي وَخَيَّرَ بعد فمن شاء آمن ومن شاء كفر.

والتذكرة للرسول ﷺ وصحبه الذين تشتد عليهم وطأة تكذيب المشركين فيرجون من الله الآيات الحادثات الخارقات، أنه ما يشعركم ويدريكم أن إذا جاءت هذه المعجزات لا يؤمن بها هؤلاء المشركون ممن اختاروا طريق العمى على الهدى.

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (110)

وأن إذا جاءت هذه الآيات التي أقسم المشركون ليؤمنن بها – تقلب أقدار الله أفئدتهم فلا تطمئن للإيمان وتقلب بصائرهم فترتد إلى العمى – ذلك كما عمدوا إليه أول مرة ألا يؤمنوا بالوحي، وستذرهم وتدعهم أقدار الله فيما اختاروا من طغيانهم يعمهون متحيرين..

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) (111)

ومن بعد الخوارق المعجزة لو أن أقدار الله كشفت لهؤلاء المشركين حجب الغيب فرأوا الملائكة تتنزل عليهم وبعث الموتى يكلمونهم بلسان مبين، ولو أن الله حشد قبلاً أمامهم كل ما يطلبون من عالم الشهادة وعالم الغيب فأبصروه إن هذه المحشودات لن تكون سبباً لإيمانهم إلا أن يشاء الله ذلك لمن اختار وأخلص الإيمان. ولكن أكثرهم يجهلون دواعي الحق وإن المعجزات ما قدرت لتعطل خيار الإرادة حيث يتميز رغمها من يختار كسب الإيمان ومن يتوحل في خيار الإشراك .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (112)

التذكرة والعزاء أيضاً للرسول ﷺ وأصحابه أنه كذلك – كسنة أولئك المشركين جعلت أقدار الله في سنن السير لكل نبي من يقومون عداءً له ومواجهة للحق مهما كان بيناً، وذلك من شياطين الإنس البشر والجن الخفي الذين شطنوا بعيداً عن الحق، يقفون من الأنبياء ذات موقف العداء ويتبادلون بينهم الإيحاءات والاتصالات ، ويزين الشياطين بعضهم إلى بعض باطلهم موحين إليهم زخرف مقولاتهم مما يزيدهم غروراً واستكباراً، ولو شاء الرب الراعي الرحيم ما فعل هؤلاء من الإنس والجن ما يفعلون ولعصم الإنسان من وحي الشياطين ولكنه – سبحانه – تركهم وشأنهم. والوصية للرسول ﷺ أن ينصرف عنهم ويذرهم حسبما يشاءون من افتراءاتهم التي لا تقوم على علم ولا هدىً ولا يحزن عليهم ولا يرجو في مصائرهم إلا ما قدر الله .

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ)(113)

السياق موصول تذكيراً للرسول أن يذرهم يوحي بعضهم من الشياطين إلى بعض لتصغى الأفئدة القلوب المفئودة بالمشاعر في صدور الذين لا يؤمنون بأن وراء الآيات في الكون والكتاب من خالق يبعث إليه الناس يوم الآخرة ، ذرهم لا تميل أفئدتهم للحق بل إلى زخرف القول الباطل. ثم من بعد ليرضوا به ويسكنوا إليه ثم ليقترفوا ويكتسبوا ما هم مقترفون من ذلك الدرك في منهج الباطل .

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (114)

وتأتى الآية بلسان الرسول ﷺ ليقول لهؤلاء المغرورين الراضين بالباطل المقترفين لإثمه من المشركين ويسألهم مستنكراً، أفغير الله أبتغي أو أرجو بيني وبينكم حكماً فيما آثرتم من زخرف الباطل وطلب المعجزات، وهو الذي كفى عنها إذ أنزل إليكم الكتاب مفصلاً مصرفة آياته تبياناً لكل أمر؟ وتذكره الآية بأن الذين آتيناهم الكتاب المنزل من قبل، أهل الكتاب القديم، يعلمون أن هذا الكتاب منزل من ربك بالحق كما بشرت به الرسالات من قبل وكماَ صَّدَقها. وتنهى الذكرى الرسول ﷺ ألا يكون من أهل زخرف الباطل الممترين الذين يلقون الشك والجدل في حق الكتاب ولا يمضي فى سبلهم.

(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (115)

والخطاب للرسول ﷺ أن كلمة ربك أو كلماته* وهي أقداره التي تتجلى مخلوقات وجود من عا لم الغيب وكون الشهادة وأقضية حكم واقعة حادثة في الزمان والأزل وأقوال هدىً متنزلةً بالوحي والكتاب، كلها أقدار من الله سبحانه وتعالى بجلاله وكماله تمت تجلياً وتنزيلاً صدقاً لا يعرو حقها الباطل لينقص وعدلاً لا يغشى ميزانها الظلم فيميل، لا شريك لربك يبدل كلماته في الخلق والحكم والهدى التي هي آياته تعالى الكاملة غير القاصرة صدقاً وعدلاً، المطلقة بغير مبدل، وهو السميع بالغ السمع لصوت كل موجود ولما يقوله. والمشركون تحدياً لكلمات الله التامات ، وهو العليم بالغ العلم بحركة كل موجود وبما يُكِنُه في

---

*) كلمات في قراءة وكلمة في قراءه.

قلوبهم أو يفعله المشركون . والخطاب في ذكر الكلمات الكاملات المبرمة للرسول ﷺ ليؤمن بها بغير مراء ويصبر حتى يأتيه النصر اليقين (الآية 34).

(وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) (116)

ويتأكد الخطاب للرسول ﷺ الذي يؤمن بكلمات الله ويبلغها ويحيا بها قدوة بغير افتراء ولا مراء، أنه إن يطع أكثر من في الأرض حوله ممن يضلهم الشيطان ويزين لهم باطلهم يضلونه عن سبيل الله، فلا طاعة لعقائد المشركين ولا أعرافهم مهما كثروا عَدداً فهم إن يتبعون إلا الظن فما يهتدون ولايهدون للحق وإن هم إلا يخرصون فيحزرون بغير يقين .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (117)

خطاب التثبيت للرسول ﷺ أنه مهما همه أن يسود الحق في أكثر الناس وقد يريبه أن يسود الباطل في أكثرهم: فإن ربه هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أيضاً أعلم بالمهتدين. والمعنى أن يدعو الرسول ﷺ للحق وأن يعرض عمن تولى وفتن، ولا يبالي بعد من ضل ومن اهتدى ويكل علم ذلك وأمره لله. وهو معنى يتكرر في القرآن ليثبت الرسول ﷺ داعياً مهما كان المستجيبون في قلة (الأنعام 36، النحل 125، النجم 53، القلم7).

عموم المعاني

الآيات(95 – 117)

إن آيات الله في الكتاب تصدقها آياته في الكون يهتدي من يتبصرها كما اهتدى بها إبراهيم (س) حنيفيا موحدا . فالله خالق البذرةفي الطبيعة يخرج الحي من الميت وهو الذي يخرج الميت من الحي وهو بآياته في الطبيعة يحي بالإيمان فطرة الإنسان فأنى يؤفك من تموت فطرته كافرا بآيات الحياة والموت الشاهدة على الله . والله ايضا فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا ومجري الشمس والقمر بتلك الدورة تقديرا محسوبا آيات من عزيز على أشياء الطبيعة عليم بأقدار حركتها . والله هو الذي جعل النجوم لبني الإنسان يهتدون بها في ظلمات البر والبحر آيات مفصلة إخراجا لمن يعلمون من ظلمات الضلال الى التوحيد . والله هو الذي أنشأ البشر الذين تخاطبهم الرسالة من أصل نفس واحدة ثم من سنة مادة زوجية تستقر مودعة في أرحام الإناث ، وهكذا تتفصل الآيات في النشأة لمن ينفذ بفقه دلالتها الى الله . والله هو الذي زاوج السماء والأرض بما أنزل من الماء فأخرج به نباتا متشابها ومختلفا يثمر حبوبا وفواكه وللناظرين في ذلك الثمر وينعه آيات تثمر فيهم دواعي الإيمان . إن الذين بآيات الله في الكتاب والكون لا يهتدون بتوحيده خالقا ومصرفا لكل شئ وهاديا للبشر _ اولئك منهم من جعل لله الجن شركاء في عالم الغيب وخلقوا له قياسا زائفا على وجودهم هم في عالم الشهادة بنين وبنات من الملائكة سبحانه وتعالى عما يصفون . والله أبدع السموات والأرض من نواشئ غيبه عن مادة أصل كيف يكون له ولد يحتاج لأصل من أم شريكة كسنة البشر ، الله الذي أحاط وحده بكل شئ خلقا وعلما غنيا عن شريك في ملكوت الغيب . ذالكم الله رب المخاطبين بدين التوحيد ليس معه من إله شريك خلق كل شئ وعليهم عبادته فهو الذي يوكل إليه مصيرهم ومصير كل شئ . إنه تعالى غيب لا تدركه أبصار البشر ولكنه من هناك يدرك الأبصار لأولئك وهو المحيط بألطف أحوالهم وأدقها الخبير بكل أعمالهم .

إن الله يرسل آياته الى أمة الخطاب بصائر منيرة لكل مسئولية الإجابة من أبصر نورها فلنفسه أو عمى فعليها ، وعلى الداعي إلى رسالة الدين أن يشهد أنه ما هو عليهم بحفيظ يقرر مصائرهم بل هى كما يختارون . وتتنزل آيات الرسالة يصرفها الله على كل أحوال الحياة ولكن الذين يعمون عن مصدرها الغيبي إنما يحسبون الداعي هو الذي يصرفها تدارسا في نفسه أو مع آخرين وإنما هى بيان من الله للذين يعلمون الغيب وآياته الحقة . فعلى الداعي أن يتبع وحي الله الواحد الهادي وأن يعرض عن مدافعات من يتخذون من دونه مرجعا للهدى شريكا . وليتذكر الداعي أن الله قادر على صرفهم عن ذلك الإشراك ولكنه تركهم أحرارا وما نصب عليهم داعى الرسالة حفيظا ولا يوكل إليه تقرير مسيرهم ومصيرهم . إن على المؤمنين بالغيب أن يصبروا على ضلال الآخرين وأن لا يسبوا الذين يدعون شريكا من دون الله من قوى عالم الشهادة لئلا يستفزوا فيسبوا الله جهلا . وقدر التخيير هكذا أن يزين في الدنيا لكل أمة عملهم الذي يتخيرون ثم إلى الله مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون زينا أو شينا وحسابه وجزاؤه .

قد وقع من كثير من الذين ضلوا قسم جهد الإيمان أنهم مؤمنون إذا وردت عليهم شهادة آية من معجزات الأقدار المادية . وما على الداعية أن يعول على ورودها بل أن يرد عليهم بأن تحريك الآيات والأقدار كلها من عند الله فما يشعر المؤمنين أن ربما تتقلب الأقدار إلى معجزة دون أن ينقلب الكفار لأجلها مؤمنين وأن مهما تتقلب الأقدار فإن مدارك المشركين لا تتقلب ولا تتبدل عن أول أمرها من عدم الإيمان ويذرهم الله في ضلالهم عامهين . بل لو نزل الله عليهم الملائكة من الغيب مشهودين وكلمهم الموتى وحشر الله لهم كل غيب أمامهم ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ومشيئة الله هي حرية الخيار وأكثرهم يجهلون دواعي الحق . وكل دعاة الدين في التاريخ سلط الله عليهم عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض أقوالا زخرفا وغرورا ، ولو شاء الله لقطع ذلك الوحي ولكنه قدر إباحة المشيئة إلى الإنسان فليذرهم الداعي أحرارا فيما يفترون ولو صغت الى ذلك أفئدة الذين لا يؤمنون بغيب الآخرة ورضوه واكتسبوا ما يقترفون . ان على الداعي أن يقوم شاهدا بوحدانية الله حكما في أي قضية بينه وبين من يدعو ، لأن الله هو الذي نزل إليهم وحيا الكتاب مفصلة آياته والذين نزل إليهم سوابق الوحي والكتاب من قبل يشهدون بأن ذلك هو الحق المنزل . كذلك يتميز الداعي عن أولئك الممترين بالحق . إن كلمات رب الداعي المنزلة هى كمال الصدق في حقائق الحياة والعدل في علاقات الناس وهى إذا تمت لا مرجع دون الله يبدلها برؤى وضعية فإن الله وحده هو المتعالي السميع العليم بواقع الحياة وهداها . إن الداعي لو أطاع أكثر من في الأرض إنما يضلونه عن سبيل الله لإنهم لا يتبعون إلا ظنا بشريا وما هم به إلا يخرصون بغير يقين وما على الداعي أن يبالي بضلال الكثيرن بل هو المتصرف في هداهم فربه هو الأعلم من يضل عن سبيله أو من يهتدون وهو كانت أقدار مشيئته إباحة المشيئة للإنسان .

ترتيل المعاني

الآيات (118 – 121)

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِأَيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)آية (118)

(الفاء) لوصل السياق فلا طاعة لمن أضله الله وإن كانوا أكثر من في الأرض حول المؤمنين – لا طاعة لأعراف السواد الأعظم لأمة الخطاب من العرب عند نزول هذه الآي، أعرافاً تعبر عن ضلالهم فالطاعة لله وحده إيماناً بحق كلماته التامة صدقاً وعدلاً وبألا مبدل لها. وتعبيراً عن ذلك الإيمان في أكثف ما تعمر به حياة المؤمنين الخاصة وهو الطعام بالاستقلال عن عادات المشركين السائدة، وذلك أن يأكل المؤمنون كما يوصيهم نص الآية مما ذكر اسم الله عليه توحيداً له سبحانه وشكراً وذكراً عند النعمة، خروجاً على ثقافة المشركين الذين ينسون الله ويقدمون الذبائح قرابين للأصنام. وذلك الأكل مما ذكر اسم الله خروج على الأعراف إنما يقدم عليه المخاطبون بوصية الله إن كانوا حقاً بآياته مؤمنين يبتغونهَ حكَماً ويطيعون كلماته بلا مرية ولا خرص.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾(119)

وتخاطب الآية المؤمنين تحريراً لهم من أعراف الجاهلية في تحريم الطعام الذي ذكر عليه اسم الله ورداً على مجادلاتها ، فما لهم ألا يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، ما لهم تكاد تجنح بهم عادات المشركين، إنما الطاعة لله فيما أحل لهم من طعام والاجتناب لما حرم عليهم، وقد فصل لهم ذلك إلا ما اضطروا إلى أكله بطوارئ الحاجة الملجئة وذلك في الآيات القادمة النازلة في هذه السورة (145) وإن كثيراً – والمشركون كانوا أكثر من في تلك الأرض (الآية 116)– ليضلون بأهوائهم بغير علم فيدعون أن بعض المذبوحات المعصومة بأعرافهم حرام أكلها. والخطاب للرسول ﷺ قائد المؤمنين أن ربه هو أعلم بمن ضلوا عن سبيله عقيدة وثقافة وعرفاً، بالمعتدين على حدود الله وكلماته المفصلة تحليلاً وتحريماً .

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (120)

الأمر للمؤمنين إن يذروا ويجتنبوا الإثم تجاوزاً للحلال أو وقوعاً في الحرام – بالفعل تقترفه الجوارح وما كان باطناً بالنية في خلجات النفوس . وفي سياق ذكر الطعام ألا يأثموا ظاهراً فيحرموا قولاً أو باطناً فيجتنبوا فعلاً ذكر اسم الله عليه ما لم يكن مما حرم الله نصاً، أو يجتنبوا بعض المذبوحات طاعة في النية بالباطن

لأعراف المشركين . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون من عدوان على طاعة الله (الآية السابقة) .

(وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) (121)

الأمر للمؤمنين ألا يأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه لا سهواً بل مما هو قطعاً عمد قصد به المشركون فسقاً وخروجاً وعدواناً على توحيد الله، إذ ذبحوه وقدموه هدية وقرباناً لآلهة مزعومة من دون الله . وإن الشياطين من الكبراء والجن ليوحون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم بزخرف القول وغروره. والنذير للمؤمنين أن إن أطعتموهم في ذلك نيةً وفعلاً إنكم عندئذ لمشركون بالله ما فسقتم إليه من آلهة وأصنام تتخذ إليه زلفى .

عموم المعاني

الآيات 118 – 121

إن أكثف ما تعمر به حياة الإنسان الخاصة ومما تغلب في شأنه الأعراف التقليدية السائدة الطعام . وإن مما يميز المؤمنين الموحدين المتحررين من بيئتهم العرفية –ولو كانوا قلة– ألا يظهر في سنة طعامهم إلا الذكر والشكر لنعمة الله تعبيراً عن توحيده حكماً في خلافيات السنن واعتصاماً بكلماته الصادقة فيما يأكلون. فهم لا يطيعون أي أعراف إشراكية تقدم الذبائح قرباناً لما دون الله. وما للمؤمنين لا يأكلون مما ذكر اسم الله عليه ولو كان موصوماً في بيئتهم المشركة بأعراف التحريم فالله وحده هو الذي فصل لهم في شرعه ما هو حرام في غير حالات الضرورة . إن كثيراً من المجتمعات تضل بأهوائها في هذا الأمر، لا بعلم الله الأعلم بحدود الحرام والحلال الرقيب على الالتزام بها والعدوان عليها .

إن على المؤمنين أن يذروا ظاهر الأفعال وباطنه: النيات في تحريم الحلال للأعراف الجاهلية فذلك إثم من اقترفه استحق الجزاء عند الله. كذلك على المؤمنين ألا يأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه لا سهواً بل فسقاً وقرباناً لمعبود دون الله. إن لدين التوحيد عدواً من شياطين الجن يوحون إلى أوليائهم من البشر زخرف أقوال التحريم وأعرافه ليجادلوا المؤمنين وَيطوّعوهم مشركين.

ترتيل المعاني

الآيات (122 – 135)

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (122)

بعد تأكيد استقلال المؤمن الموحد لله بطاعته دون اتباع المشركين مهما كثروا عَدَاً أو غلبت مذاهبهم في المجتمع ولو في عادات الطعام – بعد ذلك يأتي ذكر المؤمن المتحرر مما كان فيه والكافر المتورط في سنن الباطل السائدة وذلك بالسؤال: هل من كان ميتاً لا يتحرك فيه قلب ولا جارحة ولا بصر نحو طريق الحياة فأحياه الله بأقداره وجعل له نوراً يمشي به في الناس هل ذلك المثل لمن كان ميت القلب من الإيمان فبعثه الله وميت البصر فقذف الله فيه النور وتحرك بدافع النية الطيبة والبصيرة المنيرة والجارحة النشطة يمشي قدوة في الناس على صراط مستقيم، هل هو كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كالكافر تحيط به ظلمات الضلال ولا يسعفه قلب حي أو بصر رشيد ليخرج من محيطه . كذلك المثل زين للكافرين ما كانوا يعملون من ضلال نية وظلام طريق لا ينفكون في فتنة بضلالهم واستغراق في ظلامتهم.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) آية (123)

كذلك كالموتى في الظلمات وكما يتكاثر من حول المؤمنين الذين يضلون بأهوائهم مقترفين العدوان جعلت أقدار الله – سبحانه وتعالى – لكل نبي عدواً من شياطين الإنس والجن ، وجعلت في كل قرية أكابر مجرميها يقومون شركاً بالله وعدواناً وظلماً ليمكروا فيها ويدبروا شراً بالناس، مستغلين نفوذهم وثقلهم الثقافي. وذلك كما كان الرسول ﷺ وأصحابه معرضين لنفوذ أكابر مجرمي مكة يومئذ ومؤامراتهم .

ولكن هذا المكر سيرتد على هؤلاء المجرمين الكبار فهم ما يمكرون إلا بأنفسهم، وستجري عليهم سنن الله في نصرة الحق في وجه مكر المجرمين وما يشعر هؤلاء أن الخطر إنما يحدق بهم منقلباً عليهم.

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) (124)

هؤلاء الأكابر من المجرمين الماكرين في مكة كلما جاءتهم الآيات آيةً بعد آية تتنزل أمامهم على الرسول ﷺ غلب عليهم استكبارهم وعدوانهم وقالوا : لن نؤمن حتى نؤتى نحن العظماء مثل ما أوتي رسل الله، يحسبون أنهم الأكابر الأجدر من محمد بهذه الرسالة وهو الأصغر الأضعف في معايير القوة الظاهرة ، فهم يرون أنفسهم في مقام الرسل ولذلك أولى بالرسالة (الزخرف 31 – المدثر 52). والآية رد عليهم أن الله أعلم –حيث يجعل رسالته– من هو الأجدر الأنفع لهذه الرسالة، وهو الذي يقدر الأولى حاملاً للرسالة إلى أمة خطاب مهما بدا ذلك الشخص مستضعفاً ومجتمع الخطاب مستكبراً . وهؤلاء الذين أجرموا من الأكابر سيصيبهم ويقع عليهم صغار ذلاً وهواناً عاجلاً عند الله في الدنيا (كما وقع لهم بالفعل في آجل سيرة الرسالة بعد الهجرة) وسيصيبهم يوم القيامة عذاب شديد يخلدون فيه جزاءً بما كانوا يمكرون بالرسول وبالمؤمنين فما كانوا يمكرون إلا بأنفسهم كما في الآية السابقة مباشرة .

(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)(125)

(الفاء) في أول الآية تصل الآيتين فالله أعلم حيث يجعل رسالة الإسلام فمن يقدر له الهداية يزين له الرشاد والثواب فهو يقبل عليها منشرح الصدر مبسوط النفس يسلم أمره كله لله مهما تزين الباطل وشدد حملته ، ومن يقدر عليه الله الضلالة جزاء إجرامه واستكباره يجعل صدره ضيقاً يضيق بآيات الله وهدى كتابه ، وهو يستشعر مع الضيق حرجاً يلتف حول قلبه يمنعه عن الإيمان فأمره كله نقيض أمر المؤمن ، فكأنه وهو يسمع الآيات يصعّد في السماء صعوداً يزداد معه الحرج والضيق كلما سمع آية، كما

هو الحال في كل صعود إذ يتناقص الأكسجين نفساً للحياة في الصدر مع تناقصه في الهواء كلما صعد الإنسان إلى درجة أعلى نحو السماء .

وكذلك يجعل الله –سبحانه– بمشيئته الحكيمة المشركين المستكبرين الماكرين في هذه الحال من الرجس النتن يترددون إليه عاجلاً وآجلاً كلما بسطت عليهم آيات الله تدعوهم للصعود من ضيق الفتنة إلى رحاب الإيمان الطاهرة .

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (126)

وكذلك هذا –خطاب للرسول الداعية –صراط ربك طريقاً مستقيماً لا عوج فيه لمن شرح الله صدره وهداه ، وقد فصلت أقدار وحي الله تفصيل الآيات والأحكام لتهدي قوماً يتذكرون ويؤمنون وليسوا ممن استكبروا ومكروا وتحرجت صدروهم من الإيمان .

(لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) آية (127)

في مقابل العذاب الشديد والرجس للمستكبرين الماكرين في الآية السابقة جعل الله للمؤمنين المذكرين داراً يوم القيامة هي دار سلام في كل علاقاتها، تحييهم الملائكة سلاماً ويسلمهم الله وبينهم سلام، فلا عذاب ولا احتراب ولا اضطراب. والله عندئذ وهو وليهم يكون معهم كما والوه في الدنيا وعبروا عن ولائهم له في كل ما يعملون ولم يوالوا المستكبرين ولم يستجيبوا لهم مضلين بأهوائهم .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (128)

يوم القيامة للذين آمنوا دار السلام ويوم يحشر الله الآخرين جميعاً أمامه، ويتوجه الخطاب منه تعالى لجماعة الجن المستكنة في عالم الخفاء من الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوا المؤمنين فسقاً (الآية 121)، والخطاب والنداء لمعشر الجن ومجمعهم أن قد استكثروا من الإنس استيحاءً واستمتاعاً. ولكن أولياءهم من الإنس الذين استغنوا بهم عن سبيل موالاة الله مع القوم المذكرين

– أولئك يعترفون بأنهم كذلك استمتعوا من الجن ، فاستفاد بعضهم من بعض متاع دنيا وجعلوهم شركاء لله كما في الآية السابقة (100). ويمضون في اعترافهم النادم أنهم وجدوا أنفسهم جميعاً محشودين أمام الله في الأجل الذي أجله يوم القيامة وكانوا ينكرونه لا يؤمنون به (الآية 113) فكانوا لا يتهيأون له، بل يفترون دونه مكراً واستكباراً .

لكن الله يجعل الولاء متصلاً من الدنيا إلى الآخرة فقد جعل دار السلام لمن جعلوا الله وليهم، أما الشياطين المتوالين جناً وإنساً فإذ شاهدوا الأجل قال لهم الله إن النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله لمن قدر له غير الخلود، فلا مصير إلا بمشيئة الله وأقداره سبحانه وتعالى . والخطاب إلى الرسول ﷺ النذير للمتوالين في غير الله أن ربه حكيم بالغ الحكمة جعل الخلود في النار عذاباً وفق حكمه الأبدي الدقيق، ابتلاءً وإنذاراً محكماً من عليم بالغ العلم بأعمالهم جميعاً يراقبها ويرصدها في كتابٍ للحساب والقضاء في الآخرة .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (129)

الولاء موصول من الدنيا إلى الآخرة بين الظالمين إنساً وجناً – كما سبقت الآيات – فالله يولي بعض الظالمين بعضاً في الآخرة بالرفقة في النار خالدين جزاء بما كانوا يكسبون عملاً وكما كان بعضهم أولياء بعض في الدنيا.

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) (130)

في مشهد الحشر بين المتوالين من الظالمين النداء لمعاشر الجن والإنس معاً والسؤال يستنكر عليهم: ألم يرسل الله إليكم رسلاً منكم بشراً ما هم بغرباء كمن توالون من الجن، يقصون عليكم آياتي في مصير من قد سبقت سيرته وينذرونكم فيها لقاء يومكم هذا العظيم الذي يقع فيه الحساب والجزاء .

إزاء السؤال الحاسم يعترف الظالمون من الإنس والجن ويقولون: نشهد على أنفسنا ويذكرون أن قد غرتهم الدنيا وخدعتهم فتنتها ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بالرسل وبالآيات والنذر .

والآية تؤكد مشهد شهادتهم على أنفسهم فضحاً ولكفرهم في مقابل حال السلام الذي يظلل حياة المؤمنين في الجنة .

(ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) (131)

ذلك – الذي ذكر من مشاهد ومصائر للظالمين من الإنس والجن يعترفون يوم القيامة بأن قد جاءتهم الرسل والآيات والنذر، وتعقيباً على اعترافاتهم على أنفسهم ، ذلك خطاباً للرسول ﷺ شاهداً أن ربك يحكم بعد بلاغ وتذكير ونذير، ولم يكن –سبحانه– حتى في الدنيا سالفاً في التاريخ مهلك القرى ظلماً بغير عدل من بيان سابق ثم حساب لاحق، بعد أن تتم كلماته نذيراً صدقاً ثم حكيماً عدلاً ولا يأتيهم الهلاك وهم غافلون، لم يأتهم رسول مذكر فالهلاك كالعذاب من الله – سبحانه وتعالى – حكماً في العاجلة أو الآجلة لا يكون إلا بعد أن يرسل الله الرسل يذكرون الغافلين قبل أن يقضى الأجل .

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (132)

لكل أولئك الذين سبق ذكرهم في هذا السياق – للمؤمنين الذين والوا الله – سبحانه – في الدنيا ولم يطيعوا أكثر من في الأرض وللذين ظلموا واستكبروا من الجن والإنس فأشركوا وكفروا بالله – لكل– لا ظلماً وهم غافلون بل عدلاً وهم منذرون، درجات مما عملوا في الدنيا ودرجات من الجزاء حسب ذلك في الآخرة والخطاب للرسول ﷺ أن ربك يحصي عليهم درجات أعمالهم صدقاً ويحاكمهم بالدرجات عدلاً بأدق معيار للصدق والعدل، فإن كانوا هم بعد الذكرى غافلين عن هلاكهم وعذابهم فالله – سبحانه وتعالى– ليس بغافل عما يعملون ولا عما يحق لهم من جزاء .

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ) (133)

الخطاب للرسول ﷺ ثم الخطاب موعظةً وتذكرةً للمشركين حوله أن الله – سبحانه – غني لا يحتاج لأحد من أمة الخطاب، ولو شاء أذهبهم جميعاً هلاكاً عاجلاً جزاءً بما كسبوا من غرورهم واستكبارهم فلا راد لمشيئته، ولكنه ذو رحمة رحيم حليم لم يهلكهم بظلم وهم غافلون بغير نذير –كما سبقت

الآيـة – ولم يهلكهـم فـوراً في الـدنيا بعـد النـذير بـل أخـر الحسـاب والجـزاء للآخـرة، ولـو شـاء أذهـبهم واستخلف من بعدهم أجيالاً كما أذهب هلاكاً من قبلهم قوماً آخرين، وما هم إلا من ذراري أنشأها الله من أولئك وجاءت خلفاً لذلك السلف الذاهب. فالرب قدير على أن يذهب الكافرين هلاكاً ويأتي بقرون بعدهم من أبنائهم أو من ذرية آخرين، إن شاء سبحانه ولكنه غني عن الطاعة رحيم بعباده يمهلهم ولا يهملهم.

(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لأَتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِين) 134

مهما مد لكم الله – سبحانه وتعالى – في آجال الدنيا وترك بعضكم يستمتع ببعض موالاةً واستيحاءً فإن ما وعد الله من يوم حساب وجزاء وجنة ونار آت قطعاً لا محالة، وما أنتم بمعجزي الله – سبحانه – أن يبعثكم من بعد الموت ويأتي بكم جميعاً محشورين أمامه ، فلا مهرب لكم ولا نصير بل الله على كل شيء قدير.

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) 135

الوصية للرسول ﷺ أن يخاطب قومه مشركي العرب في خاتمة هذا السياق من الآيات قائلاً لهم : اعملوا على مكانتكم كما شئتم مصرين رغم النذير والتذكير ثباتاً على مواقفكم مهما تكن، وإني عامل صابر على موقفي من هذه البينات والهدى الذي أنزله الله، وليترتبن على تمايز الأعمال أن تروا مستقبلاً سنة الله في عواقب الأمور وتعلمون لمن تكون عاقبة الدار ووراثة الأرض. الأمر قطعاً أن لا يفلح الظالمون شركاً وكفراً وميلاً عن الاستقامة بل يخسرون ويظلمون أنفسهم ببئس المصير في الدنيا هلاكاً واستخلافا وذلك قبل خسار الآخرة.

عموم المعاني

الآيات (122 – 135)

مهما تكاثر الكافرون عداً وغلبوا عرفاً فإنه لا يستوي بين بني الإنسان من كان ميت الفطرة فأحياه الله بالإيمان وأنزل الهدى ليجعل له نوراً يمشي به في ظلمات عالم الشهادة، ومن تركه الله ميتاً ما هو بمنبعث إيماناً وما هو بخارج من الظلمات هدىً

. كذلك زينت للكافرين أعمالهم مختوماً على قلوبهم مغشياً على أبصارهم، وما من قرية لمجتمع بني الإنسان — ومؤمنوها في قلة وذلة — إلا تكاثر وقع أكابر مجرميها ليمكروا فيها، ما يشعرون بعموم عواقب المكر الذي يرتد عليهم هم أيضاً. وقد جرت سنة الدعوات الدينية أن إذا جاءت هؤلاء آية هدى من رسول داعية قالوا غيرة أنهم لن يؤمنوا حتى يؤتوا هم الكبراء آيات مثل ما يؤتى الداعية المستضعف. والله أعلم من هو الأولى حيث يضع أمانة الرسالة دعوة وقدوة ، والعاقبة عندئذ على أولئك الكافرين بالرسالة يصيبهم عند الله صغار جزاء استكبارهم وعذاب شديد بمكرهم . والله هو الذي يصطفي بين المرء —كالرسول وأتباعه– من يريد هدايته فيشرح صدره للإسلام، والمرء — أولئك المستكبرين– من يريد ضلاله فيجعل صدره في ضيق وحرج كأنما يصعد إلى السماء متى دعي للارتقاء معالي الهدى ، وهكذا يجعل الله الرجس على الذين لا يعلمون الحق.

كذلك صراط الحياة مستقيماً من رب الرسالة الذي فصل آياتها لقوم يتذكرون الهدى فيؤمنون لا يستكبرون ولا تضيق به صدورهم. وعاقبة المتذكرين دار السلام عند ربهم في الآخرة هو وليهم فيها ثواباً ورضواناً بما كانوا يعملون. ذلك يوم يحشر فيه أيضاً غير المؤمنين جمعاً – فريق الجن يحاسبون أن قد استكثرتم من الإنس تفتنوهم وتستولون عليهم بإيحاءاتكم كما يؤاخذ فريق الإنس الذين استغنوا بموالاة الجن دون الله، فيعترفون لربهم أن قد استمتع بعضنا ببعض حتى انقضى ذلك وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، فيجاوبهم أن قد وقع عليكم القضاء بالنار خالدين فيها إلا ما شاء، وليعلم الداعي النذير وليشهد أن ربه حكيم بقضائه بين الناس عليم بأعمالهم جميعاً. كذلك يتوالى الظالمون في الآخرة كما والى بعضهم بعضاً في الدنيا، وذلك بما كانوا فيها يكسبون. وهم في مشاهد الآخرة يساءلون: ألم تأتكم رسل دعاة منكم يقصون عليكم آيات الله وينذرونكم لقاءه ذلك اليوم الحاضر، فإذا هم يعترفون على

أنفسهم ويتذكرون أن قد غرتنا الحياة الدنيا ويشهدون هكذا على أنفسهم بما أنهم كانوا كافرين بنذير الرسالة .

ذلك القضاء في الآخرة هو كذلك في عاقبة الدنيا، والبيان في التاريخ أن رب الرسالات لم يكن مهلكاً القرى التي استكبرت عليها ظلماً من الله دون تذكير ونذير فأهلها غافلون . وليعلم الداعية أن مصائر الدنيا مثل الآخرة لكل من المؤمنين والكافرين درجات مما يستحقون عاقبة وما ربه بغافل عما يعملون فيذرهم سدى دون نذير وعلم وجزاء ، وأنه تعالى غني عن العالمين وعبادتهم ذو الرحمة لو شاء لاستعجل عاقبة كل أمة الخطاب واستخلف من بعدهم ما يشاء كما أنشأهم من سلالة قوم سالفين. ولكن مهما مد الله في العاجلة فإن ما وعد المخاطبين آت لا ريب عاجلاً أو آجلاً، وما هم بمعجزين هلاكاً في الدنيا أو مهلا فبعثاً وحشراً وحساباً . إن على الداعي إلى الدين أن يقوم في الناس بشيراً نذيراً يخاطب الظالمين الذين لا يستجيبون من قومه إن من رحمة الله للإنسان حرية المشيئة كيفما اختار في الدنيا فليعملوا على مكانتهم، فإنه هو مختار الإيمان عاملاً على مكانته وأنهم لا ريب سوف يعلمون من تكون له عاقبة الدار عاجلاً وآجلاً إنه عندئذ لا يفلح الظالمون.

ترتيل المعاني

الآيات(136 – 150)

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ 136

بعد الآيات السابقة في أول السياق الماضي (118 – 121) التي جعلت الطعام الذي ذكر اسم الله عليه حلالاً إلا ما حرم الله تفصيلاً في كتابه وحرمت على المؤمنين أكل ما لم يذكر اسم الله عليه فسقاً به لآلهة أخرى، وذلك للتعبير عن التوحيد بما تعمر به الحياة الخاصة للإنسان من شأن حول الطعام ، وبعد الآيات التالية في مذاهب الموحدين والمشركين ومصائرهم المتباينة من بعد، تأتي هذه الآية عائدة لذكر الحرث من الزراعة والأنعام مما يذبح أو يركب التي ذرأها الله في الأرض كما ذرأ الناس وأنشأهم ذرية

بعد ذرية كما ذكر في الآية السابقة (133)، لكن المشركين العادلين بالله شركاء – كما في أول السورة – زعموا أن بعض ما حرثوا زرعوا وحصدوا وبعض ما لهم من الأنعام كذلك من نصيب الله، ثم مضوا في قسمتهم الجائرة فجعلوا نصيباً من ذلك الحرث وتلك الأنعام لآلهتهم وقفاً لها، ولكنهم جاروا مرة أخرى فأخذوا لشركائهم محرماً مسبباً باسمها بعض ما زعموه حقاً لله تعالى، ولكن الذي لشركائهم لا يذكر عليه اسم الله بل اسمها وهو حكر لسدنة المعابد والأصنام ولا يصل شيء منه إلى الله أبداً، وساء ذلك الحكم لسوء دين الشرك غير الحق إذ يعدل بالله شركاء لكل نصيب من الحرث والأنعام ثم يمضي فيزداد ظلماً على الله وللشركاء ضيزاً* في عصمة الأنصبة. والحق أن الحرث والأنعام لله يبيحها للناس كافة إلا ما حرم بآياته المتلوة.

(وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) 137

وكذلك مضت العقائد والأحكام السيئة بكثير من المشركين فزين لهم الشركاء لا سلب حق الله وحسب بل قتل أولادهم – وأداً للبنات مخافة العيلة والسباء ليردوهم إلى مستوى قتل النفس العزيزة وليلبسوا عليهم دينهم إغشاء بالباطل، أن قطع العار من البنات بقتلهن من عزائم الدين الإشراكي .

والآية ذكرى وعزاء للرسول ﷺ وللمؤمنين أن ذلك قدر الله على المشركين، أن يذرهم بمشيئتهم يترددون ولو شاء الله لحجرهم على الرشد لا يفعلون قتل النفس العزيزة لهم المكرمة من الله. أما أنت فداعية لا تكره أحداً على الدين الحق فذرهم ودعهم وما يفترون ويدعون كذباً على الله من شرك يزين لهم الردى، كما تخليهم يعملون ظالمين على مكانتهم وتعمل مستقيماً حتى يتبين لمن تكون عاقبة الفلاح في الدار الآية (135).

(وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) 138

---

* – في الآية من سورة (تلك إذا قسمة ضيزي)

وقالوا افتراءً على الله إن هذا البعض من الأنعام والحرث حجر حرام لا ينال طعامهما إلا من نشاء خداماً للأصنام والشركاء بإذنهم، ثم ادعوا أن بعض الأنعام حرام الركوب على ظهورها لأنها سيبت للآلهة، وبعض الأنعام تذبح للآلهة ويمنع ذكر اسم الله عليها، وذلك كذباً وافتراءً عليه تعالى إذ يدعون أن المحجور والمسيب والقربان هو بأمر الله لأنه تزلف إليه بتقديس شركائه، سيجزيهم الله عقاباً بما كانوا يفترون عليه، إن كان عليك أن تذرهم وما هم فيه .

(وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) 139

الآيات تتوالى في كشف تفاصيل تهافت معتقدات المشركين وأعرافهم الباطلة حول الأنعام مما نسبوا افتراءً إلى الله، فمن مقولاتهم الإدعاء حتى على الأجنة في بطون الأنعام ان بعضها خالص فقط للذكور منهم وحرام أكله على أزواجهم النساء، إلا إذا كان مولوداً ميتاً فهو حلال للجميع يشترك في أكله الرجال والنساء. وكل ذلك الوصف المفصل للخالص والمشترك إنما هو افتراء على الله لم يتنزل عليهم به علم من الله وسيقع عليهم الجزاء عقاباً يوم القيامة على كذبهم المتهافت، إن الله حكيم بالغ العدل في حكمه لا يشرع أحكاماً تفرق بين الأزواج الذكور والإناث في الطعام، وعليم يعلم بالغ العلم بوجوه الافتراء الذي سيجزى عليه .

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) 140

الخسران مآل ماض لأولئك المشركين المفترين على الله بغير علم الذين ينتظرهم عند الله الجزاء – قد خسر الذين قتلوا أولادهم بأسباب من ضعف عقولهم سفهاً بغير علم من الله بل بما زين لهم شركاؤهم ليردوهم ويلبسوا عليهم والذين حرموا بعض ما رزق الله حلالاً كذباً وافتراءً عليه . قد ضل أولئك فهم في تلبس واضطراب حكم وما كانوا مهتدين اعتصاماً بعلم من الله الواحد الحكيم العليم .

والعبرة للرسول والمؤمنون تحريراً وتثبيتاً لهم إزاء شدة حملة المشركين ووطأة أعرافهم في أكل الأنعام فما هم إلا ضالين بمزاعم وفتن وافتراءات وليسوا بمهتدين بعلم من الله الواحد وعلى صراط مستقيم.

(وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) 141

السياق يعود إلى آيات التوحيد بعد بينات تهافت دين المشركين وتناقضه في أعراف أكل لحوم الأنعام وطعوم الحرث، فالله الحق أنشأ من الحرث الذي حجر بعضه المشركون لشركائهم ، أنشأ جنات بعضها معروشات الزروع فيها قائمة تتسلق على عرش وغير معروشات زروعها قائمة على سوقها أو منبسطة على الأرض. والله الذي أنشأ نخلاً وزرعاً تخرج ثماراً وتموراً وحبوباً تختلف في الأكل مذاقاً. وهو الذي أنشأ الزيتون والرمان وجعل من ثماره أنواعاً تتشابه أحجاماً وألواناً وأنواعاً لا تتشابه، والوصية للمؤمنين: أن يأكلوا من ثمر كل هذا النبات إذا أثمر بفضل الله الذي جعله حلالاً طيباً باسمه يؤكل وليس لما ادعاه المشركون من آلهة نصيب فيه. ثم الوصية أن يؤتوا يوم حصاده حقه فضلاً من الله يرد صدقة وزكاة، والآية تهيئ المؤمنين لأداء حق الله في كل شيء حتى قبل أن تضبط أحكام الزكاة وتؤخذ سلطاناً في دولة المدنية . وإذا أكل المؤمنون منها بعد أداء حقها ما فضل من كثير فلا يسرفوا في الأكل فالله لا يحب المترفين المسرفين المفرطين في الأكل .

(وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) 142

وكما أنشأ الله الجنات من النبات أنشأ للمخاطبين من الأنعام الإبل والبقر والغنم وغيرها حمولة تحملهم ومتاعهم نقلاً من مكان إلى آخر، وفرشاً على الأرض يصنعونه من جلدها وأصوافها وأوبارها. والأمر للمؤمنين أن يأكلوا من حلال الأنعام ويتذكروا أنها رزق الله الخالص وليس لآلهة الشرك فيها نصيب، وحيثما حملتهم أو كان لهم فرشاً، اتخذوها نعمة عبروا بها إلى حمد الله، فلا يتبعوا الشيطان إذ يزين لهم

الافتراء على الله ويتورطوا في المضي على سبيله خطوات حتى يرديهم، فهو لكم أيها المؤمنون عدو مبين واضح إذ يدعوكم لتحريم ما أحل الله بغير سلطان وينسيكم ذكر نعم الله.

(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) 143

وتفصيل ما أنشأ الله لكم من الأنعام ثمانية أزواج من فئة الضأن رزقكم اثنين خروفاً ونعجة ومن المعز اثنين تيساً ومعزة هذه الأزواج الأربعة من الأنعام مأكولة مما رزق الله حلالاً طيباً، والخطاب لحامل الرسالة أن يسأل استنكاراً لافتراءات المشركين حوله: هل المحرم أكله هما الذكرين من كل نوع أم الأنثيين من كل نوع ، أم ترى المحرم ما اشتملت عليه من الأجنة أرحام الأنثيين ؟ نبئوني بحكم الحرام بعلم من الله بين إن كنتم صادقين، بل هم مفترون يؤسسون تحريماتهم الكاذبة على قاعدة الذكورة والأنوثة أو على قاعدة الأجنة في أرحام الإناث (الآية 139) أم أن التميز الظالم بين الذكورة والأنوثة والطفولة أصل في أعرافهم بينهم رجالاً ونساء مظلومات وموءودات، فهم يمدونه إلى تمييز لحوم الأنعام يستوحونه من شركائهم ويفترونه بغير علم من الله.

كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) 144

ومن الابل إثنين ومن البقر اثنين قل ءآلذّكرين حرْمَ أم الانثيين أما عليه آشتملت عليه إرحام الانثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين آية (144).

وبقية الأزواج الثمانية التي رزقها الله للعباد أكلاً من الإبل اثنين جملاً وناقة ومن البقر ا ثنين ثوراً وبقرة، والسؤال الاستنكاري كما في الآية السابقة فضحاً لباطل تفاصيل عقائد المشركين : هل الذكرين حرم أم الأنثيين أم ما حملته أرحام الأنثيين ؟ أم تراكم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا العلم، والإجابة تحسم افتراءات المشركين فمن أظلم ممن ادعى على الله كل تلك الأكاذيب افتراءً ليضل الناس بغير علم فتابعوه

إذ حلل وحرم. والله لا يجعل الهداية سبيلاً لمن هم أشد الظالمين من شركهم بالله وافترائهم عليه الكذب فينبغي ألا يخضع لباطلهم المؤمنون وألا يمضوا سبيلهم خطوات فيضلوا.

(قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) 145

الأمر للرسول إعلاناً واضحاً لهؤلاء المشركين المفترين على الله الظالمين بغير العلم الضالين بغير هدىً إن الذي ادّعَوْه من حلال وحرام وفصلوا فيه التفاصيل لا أصل له في الوحي الذي أنزله الله إليه بالحق ، إذ لا يجد فيه محرماً على أي طاعم ذكراً أو أنثى يطعمه سوى الميتة التي ماتت قبل أن تذبح أو الدم الذي لا يحل أكله أو شربه إن كان مسفوحاً سائلاً لا المستثخن في الكبد والطحال ، أو لحم الخنزير فهو رجس قذر لا يتخذ طعاماً ، أو ما ذبح فسقاً من الإيمان إهلالاً به وقرباناً لغير الله. فمن اضطرته حاجة الجوع الشديد لاتقاء الموت يصبح مصرحاً له أكل شيء من هذه المحرمات، ما دام يتناول بقدر الخطر ولدرء الضرورة غير باغ استزادة وتجاوزاً لمدى الضرورة، ولا عاد معتدياً على حد المحرم دون تجاوب لأي ضرورة بادرته.

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) 146

الله – سبحانه وتعالى – يذكر المؤمنين الذي قصر عليهم المحرمات أربعة تحرراً من المشركين ألا تصيبهم ريب أخرى من ثقافة أهل الكتاب اليهود أصحاب الدين الأقرب مكاناً وزماناً إليهم، فقد حرم الله بأقداره وآياته من قبل على هؤلاء أكثر من الأربعة التي حرمها على ملة الإسلام في الآية السابقة مباشرة: حرم عليهم كل ذي ظفر – حافراً من البهيمة أو مخلباً من الطير – وحرم عليهم من البقر والغنم شحومهما واستثنى حلالا من ذلك ما حملت شحوما في الظهور والحوايا –شحوما في المصارين والأمعاء– والضلوع وما لامس العظم.

وقد كانت تلك الزيادة في المحرمات من ذي الظفر ومن الشحم على الكرش بسبب بغيهم كثيراً عدواناً بنفوس حادة كالظفر وبطراً كورم الشحم، وكان ذلك حكماً موقوتاً حتى يأتي الرسول الخاتم فيحل لهم ما كان طيباً قبل ذلك الأمر القديم. وإن الله تعالى لصادق فيما أخبر وحياً بالحق مهما أوحت ثقافة اليهود غير هذا الذي جاءت به الآيات.

(فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) 147

بعد هذا البيان المفصل في الآيات فيما جعل الله حلالاً وحراماً فإن قام اليهود عصبية لسابقة كتابهم فكذبوك فذكرهم أن الله ذو رحمة واسعة (الآية 133) حصر الحرام في الطعام على المؤمنين دون ما تفترى الجاهلية المشركة أو تصر اليهودية، فالله وسع طيبات حلال طعام الأرض حتى التي كانت حرمت ببغي سالف.

ومن أجرم عدواناً وظلماً على آيات الله ونعمه وحدوده وأشرك به أو بغى، فإن بأس الله غضباً وعذاباً واقع عليه لا محالة ولأجله ولا يرد بأسه –سبحانه وتعالى– عن أولئك القوم المجرمين.

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ ءَابَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ) 148

من وراء كل دعاوى المشركين السالفة سيرفعون حجة الجبر الفوري ومشيئة الله مهما اختاروا الإشراك الموروث بدل الإيمان بالله الواحد، أو تركوا الشريعة لأعرافهم الوضعية في الحلال والحرام، ويقولون لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء من الأنعام. وقد جاءتهم الآيات واضحة في السورة أن الله ترك لهم مشيئة الإيمان والكفر لا يحملهم بآية خارقة ولو شاء لجمعهم على الهدى (مثلا الآية 35) وهو الذي يؤجل العذاب ويذركم مشركين (مثلاً الآيتان 57 –58) وأنه تعالى لو شاء ما قتلوا أولادهم بما يزين الشركاء (الآية 137) وأنهم لا يحرمون وحسب بل يفترون على الله (مثلاً الآيتان 143 – 144).

لكن الآية تذكرهم بأن الذين كذبوا قبلهم كذلك ادعوا ذات الحجج القدرية الباطلة. وأن بأس الله الذي لا يرد لحقهم وذاقوا عذابه العاجل. والآية توحي إلىالرسول أن يخاطب قوماً يفترون دائماً بغير الحق أن يقول لهم في وجه هذه الحجة الباطلة: هل عندكم دليل من العلم فتخرجوه لنا ، وأن ينقلب عليهم بالحق قائلاً لهم: أنهم إن يتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون (الآية 116). فما اجتهدوا هم في طلب التوحيد والهدى ولا أعجزهم الله الذي ييسر للمجتهد اليسرى وإنما يحتجون تخرصاً على سبيل الهزؤ واللعب بالأغاليط.

(قُل فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) 149

الوصية للرسول ﷺ أن يذكر هؤلاء المشركين أن لله الحجة الغالبة ، الداحضة لمقولات احتجاجكم – فلو شاء بإرادته المطلقة أن يقهركم على الهدى لجعلكم جميعاً مهتدين إلى الإيمان عقيدة توحيد على النهج القويم شريعة تحليل وتحريم . ولكنه تعالى شاء أن يذر الخيرة لكم لتستحقوا الحساب والعذاب يوم لا تحتجون كذلك بل تشهدون على أنفسكم (الآية 130).

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) 150

الأمر للرسول ﷺ أن يصدع في وجه المشركين أن هلم تعالوا ادعوا شهداءكم الذين يحملون آيات رسالة من الله والذين يشهدون أن الله حرم هذا الذي تحرمون، ذلك حتى تنبئوا بعلم الله وتشهدوا بوصيته لكم (الآيتان 143 – 144)، فإن قام أولئك المفترون بغير كتاب ورسالة بينة من الله يدعون ويشهدون كذباً فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآيات الكون والكتاب الحق المنزل والذين لا يؤمنون بالآخرة ليتقوا جزاء الافتراء وهم بربهم شركاء يعدلون كما ذكرتهم بوجه كفرهم هذا – الآية الأولى من السورة .

عموم المعاني

الآيات (136 – 150)

إن شهادة الإيمان بالله تصدقها أو تكذبها عقيدة التوحيد في كل الحياة ، فالإيمان الحق أن لله وحده الحمد على نعمة الولد ورزق الأنعام والنبات ، وأن منه وحده بينات العلم ووصايا الهدى ، وأن للإنسان بالمشيئة المفطور عليها اختيار العبادة لله وحده وله عاقبة الجزاء . أما الإشراك بالله بأهواء الشيطان فذلك معادلته لله سبحانه بمعبودات دونه من العالم المشهود ، منها تصدر أعراف الحلال والحرام في الحياة لأن المشرك قد يتعبدها زلفى إلى الله ويتلقى من عندها وصايا الضلال بالحياة افتراء على الله . ومن ذلك منهاج المشركين الذين يقسمون نعم الحرث والأنعام أنصبة بين الله وشركائهم، ويسيئون الحكم بعدئذ قسمة ضيزى، إذ يذهبون بنصيب الله الى شركائهم مع حصانة نصيبهم . وكذلك الذين يستوحون من شركائهم ما ينحط بهم ويدنس دينهم، فيزين لهم قتل أولادهم وأداً للبنات خوف العار والسباء فيجلبون على أنفسهم خسران نعمة الذرية ثم عاقبة الجزاء، ولو شاء الله الذي كرم النفس البشرية لهداهم جبراً دون ذلك ، فعلي الداعي إلى الله من ثم أن يترك الناس أحراراً ولو فيما يفترون بروح الشرك . وكذلك أعراف الشرك في شأن الأنعام يكون منها محجور لا يؤكل ومسيب لا يركب ومذبوح قرباناً إلى المشرَكين، كل ذلك افتراءً على الله وتعرضاً لجزائه. وتتهافت عقائد المشركين المفتراة فتتنزل أحكاماً على الأجنة في بطون الأنعام أن يَحْرِمُوا منها إناثهم خالصة لذكورهم، إلا إذا خرجت ميتة فهي حلال مشترك على سواء، وهم بذلك التحريم لرزق الله الحلال افتراءً عرضة لجزاء الله الحكيم العادل الذي لا يظلم الإناث، البصير بظلم المشركين .

والذي أنعم وحده بالأولاد والأنعام هو أيضاً وحده الذي أنعم بالنبات جنات في ظل أو شمس والنخل والزرع مختلف الطعوم والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه، وما على المؤمن الموحد إلا أن يأكل من رزق الله غير محرم شيئاً افتراءً، وأن يعرف تمام نعمة الله عند الحصاد فيعطي حق الزكاة منها ويقبض غير مسرف مستهلكاً. والله وحده هو الذي أنعم بالأنعام يتخذ المؤمنون عليها حمولة ومنها فرشاً ورزقاً مأكولاً، لا يتبعون في ذلك مسالك الشيطان الذي يوحي إليهم بتحريمات مفتراة. وهو تعالى الذي بسط البهائم ضأناً ومعزاً وإبلاً وبقراً ولم ينزل حكماً بتحريم شيء منها ذكراً أو أنثى أو محمولاً في البطون ، وما

يشهد أحد بوصية من الله كذلك إلا بأكذب الافتراء وأبلغ الظلم والإضلال بغير علم ولا هدىً من الله .

إن دعوة الدين الحق إن الله لم يحرم على المؤمنين بكتاب إلا الميتة والدم المسفوح سلامة للصحة والخنزير اجتناباً للرجس والقربان لغير الله اتقاءً للفسق من التوحيد. ولو أن تراث الدين قد عهد قديماً تحريماً فوق ذلك لليهود من كل ذوات الظفر ومن الشحم الكثيف في البقر والغنم فإنما كتبه الله عندئذ عقوبة على مخصوص استباحة اليهود وبغيهم في أخلاقهم، لا تشريعاً خالداً للمؤمنين كافة. ومهما كذب بذلك اليهود محتجين عصبية بتراثهم فعلى الداعية أن يذكرهم بأن الله ذو رحمة واسعة تبيح للمؤمنين الرزق بسعة وترفع التحريم الذي جاء قديماً عقاباً ليفي دون أجل الآخرة لبأس الله الذي لا يرد.

وعلى الداعي أن يجادلهم ويستدعي منهم شهداء منهم على شرعية المحرمات فإن قام بعضهم بذلك فعليه ألا يكون فيهم، وألا يتبع أهواء الذين كذبوا بآيات الشهادة المنزلة من الله كتاباً، والذين لا يؤمنون بالآخرة بل يفترون على الله لا يخشون عذابه الآجل والذين لا يوحدون الله بل يعدلون به شركاء من مخلوقاته في عالم الشهادة.

ترتيل المعاني

الآيات(151 – 165)

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) 151

الأمر للرسول ﷺ وهو الداعي أن ينادي قائلاً (تعالوا) –للمؤمنين ولكل أمة الخطاب من تحرروا من شهادات الزور وأعراف الجاهلية وتحريماتها العرفية وأهواء الإشراك وتقاليده الموروثة – تعالوا أتل مبلغاً ما حرم الله بالحق حدوداً محكمة لا يقربها المؤمنون حتى لو عربد المشركون بالله وراء مداها ، فهو ربكم الخالق الراعي الذي ينبئكم الحرمات وحده فوق خرافات الأهواء وأعرافها . وأول الحرام وأصله للحياة

كافة الشرك بالله أيما شيء. إن عالم الشهادة كله ابتلاء بتعلقات ثقافية وشهوانية ومادية قد تفتن عن الله وتنازع فطرة التوحيد بنسب من الإشراك تأليها وتعبداً لشيء منها، ويجاهد المؤمن ليخلص التوحيد متطهراً من الإشراك نافياً الحرام لا إله إلا الله. ثم يبتلى الإنسان أول خلقه وتربيته وغالب نشأته الأساسية– بالوالدين حباً فطرياً وصلة أقرب في حياته الخاصة وذلك مباشرة بعد الصلة بالله وفطرة حب النفس لخالقها، وجاء ذكر الوالدين إيجاباً بالإحسان لهما وصلاً وبراً وخدمة وطيبة ولم يرد تحريماً لقطعهما أو السوء إليهما والأذى، إذ جعل الله النزول عن مراتب الإحسان للوالدين إلى ما دونه قرباً نحو حدود الحرام، ووضع ذلك في المرتبة التالية لحرمة الشرك العظيم، فمع الإحسان لا طاعة للوالدين في سنة شرك موروثة. ثم أتمت الآية حفظ حرمة الأسرة بيئة الإنسان مولوداً بعد الخلق، فحرمت الآية قتل الأولاد من ضغوط الفقر والإملاق الحاضر ، وذلك لأن الله يرزق الوالد المخاطب ويرزق الولد النفس المحصونة لبشريتها والعزيزة لقربها عن أن تفتن الحاجة حتى تقتل.

ثم حرمت الآية انتهاك حرمة الأسرة بما هو شنيع زناً يهدم أصولها منشأ الإنسان وبيئة تربيته وتزكيته بالحب والبر المخلص ليحتمل الحياة ويتهيأ لأمانتها، فأمرت ألا تقرب الفواحش فضلاً من أن ترتكب أو يعمد إليها –سواء ما كان منها ظاهراً من القرب جهاراً منكراً وما كان باطناً قرباً استتاراً يدفع إلى الظاهر منها، ذلك أن القرب من الزنا يزلق إليه (الإسراء 32). وذلك الدعوة مع الله إلهاً آخر وقتل النفس والزنا كبائر موصولة في ذكر الله (سورة الفرقان 68).

وبعد تلاوة المحرمات – قطعاً للصلة الخالصة بالله ثم بالوالدين ثم بالولد ثم بالزوج – حرم الله قتل النفس البشرية فهو تحريم عام إلا بالحق في الحالات المخصوصة التي تلاها القرآن على المؤمنين، وكل ذلك من محرمات خمس توحي بها الآية تأكيداً في الختام مخاطبة للمؤمنين، عسى أن يعوا هذه الوصايا ويعقلوا بها أهواءهم ضبطاً للنفس، مهما أغرت الدواعي والظروف ارتكاباً للحرام في حق من خلق الإنسان وفي حق صلة الولادة وحياته نفسها.

(وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) 152

بعد ذكر أكبر المحرمات القطعية يمضي الأمر تلاوة لما حرم الله في علاقات الحياة وأموالها –فأولاً لا يؤخذ من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ما كان معروفاً يأخذه من يرعى اليتيم أجراً في رعايته أو فيما يضارب به تجارة من أمواله ، حتى يبلغ أشده ويكبر وتدفع إليه أمواله . وتستمر الوصايا بالواجبات لا ذكراً للمحرمات وإن كانت الشئون معاملات تقع فيها الفتنة، وإنما يتقي الحرام بفعل الخير فيها .

وفي الحياة خارج المعاملات مع اليتامى الضعفاء يرعى المتعاملون في كل ما كالوا ووزنوا لهم أو لغيرهم الوفاء بالقسط العدل الذي لا يظلم ولا يبخس والله – سبحانه – لا يكلف الناس إلا وسعهم جهدهم في توخي القسط وليس تكلفاً للدقة بما يعطل المعاملات أو يحرم حلالها تنطعاً، ثم في كل قول يجب أن يتوخى المؤمنون العدل : وذلك هو القول شهادة في قضاء أو رواية أو تقديراً عما يبني عليه الناس معاملاتهم ومواقفهم .

ذلك العدل الحق حتى ولو كان المشهود أو المقول له أو عليه من ذوى القربى أهلاً تجنح العاطفة للميل إليه . ثم يأمر الله بالوفاء أمراً عاماً لكل عهدٍ بين الناس يتعاهدونه بناءً على خلق الصدق لله رقيباً وحسيباً، ولأمانة العقود والعهود لأنها كلها تقوم على أصل الميثاق مع الله وليست إلا شعاباً من شجرة ذلك الإيمان .

وتلك أربعة أمور خوطب بها المؤمنون أمراً وذكراً وخطاباً مؤكداً أنهم أوصوا بها لعلهم يذكرون، لأنها كلها معاملات فيها التقدير تستدعي الذكرى لرقابة الله الدقيقة وحضور خشية الله في الضمير من ميل للظلم يجر إلى سوء الحساب.

(وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) 153

بعد الوصايا الكبرى في المحرمات ثم الوصايا في المعاملات، الوصية تقرير مؤكد بأن هذا الهدى في القرآن صراط الله المستقيم على خط واحد وقبلة واحدة، فعلى المؤمنين المخاطبين أن يتبعوه معتصمين بحبل الله جميعاً وهو شرعه ومنهجه في جملة حياتهم، وألا يزيغوا فيتبعوا السبل التي تفتنهم إليها شياطين الجن والإنس فتفرق بهم عن ذلك السبيل، ويضرب كل على وجهته متوالين فئات أحزاباً وأقواماً في عصبيات لا موالين لله ولرسوله وللمؤمنين في صف واحد. والخطاب يتأكد للمؤمنين – أن ذلك الأمر الأخير ما وصاكم به الله، ولئن استدعى العقل والذكرى في الوصايا السابقة فقد استدعى هنا رجاء التقوى، لأن وحدة المسلمين على السنة القويمة اتقاءً للفتن والاختلاف والتفرق، لا تتم إلا بالتقوى حذراً من الفتن وخشية لله وخوفاً من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

(ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) 154

إشارة لقدم الوصايا العشر في الآيات الثلاث السابقة قبل الرسول ﷺ إذ جاء بها الأنبياء جميعاً وقد أوتيها موسى (ع)، ثم – من بعدها – آتاه الله بأقدار وحيه الكتاب تماماً وفضلاً على الذي أحسن – إكمالاً لإحسانه إيماناً والتزاماً بتلك الوصايا. وآتاه الله الكتاب تفصيلاً لكل شيء مما جعل حلالاً وحراماً وهدىً إلى صراط مستقيم في وجهة الحياة عامة، ورحمة ينزلها الله طمأنينة وسكينة لمن وفى الوصايا وصدق الكتاب عملاً والتزم الصراط المستقيم فلا يتبع السبل غيره التي تفرق به عنه . لعل من جاءه الكتاب من بني إسرائيل يؤمنون بلقاء ربهم الذي أوصاهم وأتم لهم ذلك بالكتاب تفصيلاً وهدىً ورحمة ولعلهم لا يطول عليهم العهد فينسون لقاء ربهم وحسابهم على ما وصى وكتب وقدم ويتخذون تراثهم الكتابي زاداً للدنيا .

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) 155

وهذا القرآن كتاب آخر أنزله الله بالحق كما أنزل كتاب موسى (ع) وهو مبارك يزيد على ذلك الكتاب الأول تصديقاً للوصايا وتفصيلاً للبيان وهدى ورحمة، والخطاب لأمة الخطاب أن يتبعوا ذلك الكتاب وأن

يتقوا الله ولا يجعلوا من تنزل الكتب التي تتوالى يصدق بعضها بعضها ويتبارك التالي لا تجعلوا منه فتنةَ غيْرةٍ على الذي سلف إنما نزل لغيركم، لعلكم إن اتبعتم هذا الكتاب المبارك ترحمون كما كان الأول رحمةً لأهله، بل تتبارك رحمته تعالى إذ يرفع بالقرآن إصر المحرمات بسبب بغي الأولين (الآيتان 146 – 147).

(أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ) 156

السياق موصول لأمر الخطاب في الآية السابقة لمشركي العرب اتبعوا هذا الكتاب وابتغوا الرحمة واتقوا التعذر– أن تقولوا أن الكتاب السابق الذي يذكر شاهداً على القرآن إنما أنزل على طائفتين اليهود والنصارى من قبلنا . ولم نك إلا غافلين على غير معرفة بدراسة كتبهم ودينهم وتاريخهم وثقافتهم، لنتخذ من تراثهم شهادة على حق على ظاهرة إنزال الله كتباً ومن مادة كتابهم شاهداً على صدق مافي القرآن، أو على أنه أبرك تفصيلاً وهدىً ورحمة.

(أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِأَيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ) 157

الخطاب يتصل للمشركين من العرب أن يتقوا مقولتهم في الآية السابقة أو القولَ غيرْةً بأنهم لو أنزل عليهم ذلك الكتاب السابق كما جاء لليهود والنصارى لاستمسكوا به بأشد منهم هدىً واتباعاً وطاعة ، والخطاب أن دعواكم داحضة فقد جاءكم بهذا الكتاب المبارك بينةً من ربكم وهدىً ورحمةً أكثر مما جاءهم أولئك الأوائل ، ولكنكم ظلمتم أنفسكم أشد الظلم إذ كذبتم كفراً بآيات الله المبينات ، وصدفتم عنها إعراضاً، فمن أظلم منكم مكذبين صادفين. وإن أقدار الله ابتلاءً وحكماً وعدلاً ستجزى الذين يصدفون عن آياته بياناً وتصديقاً وهدىً ويعرضون عن وحيه ورسله، سنجزيهم العذاب السيئ الذي يسؤهم إحضاراً وإذلالاً جزاء سيٍ بسئ للصدف والاستكبار الذي يتكاثر من أهله عن إصرار متصل، فيتكرر ذكره في الآية.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ 158

السؤال للرسول ﷺ وهؤلاء العرب الذين جاءتهم الآيات البينات ماذا ينتظرون وهم يصدفون عنها إعراضاً بعد إعراض – أينتظرون المعجزات الخارقات أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك سبحانه وتعالى فيرونه أمامهم وتدركه أبصارهم، أم يأتي سوى ذلك من ربك بعض الآيات فوق السنن الطبيعية، ولكن من الخير لهم أن يؤمنوا بهذا الوحي وما أخبر من غيب وإيمان وبما دعا للهدى والإيمان لأن بعض آيات ربك إذا جاءت فقد انحسم أمرهم كما في أول السورة **﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾**

الآية 58

ولا ينفع نفساً منهم أو من غيرهم أن تؤمن يومئذ إن لم تكن آمنت من قبل بآيات الله الظاهرة في الكون النازلة في الكتاب، أو كسبت في إيمانها ذاك خيراً عملاً صالحاً، بل ستلقى ضراً هو العذاب السيئ. والوصية للرسول ﷺ والمؤمنين أن يقولوا للمشركين انتظروا – تاركيهم على مشيئتهم ومواقفهم وأن يؤكدوا لهم أنهم هم مؤمنين منتظرون بلقاء ربهم يوقنون يوم يأتي أمره بآياته الحاسمة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ 159

في خواتيم الخطاب الفصل للمشركين الذين تفرقوا بدينهم الجاهلي في الحياة طوائف بالمعبودات والشعائر والأعراف وقبائل بعصبية النسب وطبقات بتفاخر الثروة، وبعد الاعتبار أيضاً بما ذكر من قوم موسى وعيسى ذكر الذين جاءتهم الوصايا والآيات مفصلات، ولكنهم لم يعتصموا جميعاً بهدى الله بل في فرقتهم بالأهواء شيعاً، الآية تذكر إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وأحزاباً وتركوا الصراط المستقيم هجراً لتراث أبيهم إبراهيم الحنيف واتبعوا السبل التي تفرقت بهم عن سبيله، هؤلاء مهما كان الرسول القائد

القدوة منهم نسباً ليس منهم في شيء من ذلك، ومهما كانت رسالته تصدق الكتاب السابق في شيء كثير يستقيم ولا تبع أهواء أهل الكتاب المفرقة في شيء، إنما أمرهم ميزة للخبيث من الطيب والمستقيم من المتفرق وحكماً بينهم في الدنيا – كله لله، ثم يوم القيامة أمرهم مرجعاً إلى الله ثم ينبئهم حقاً بيناً بما كانوا يفعلون من تفريق الدين.

(مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)160

كل هذه الشيع التي اختلفت وتفرقت بدينها الحنيف المستقيم جدالاً وقتالاً أمرها وبيان ما تفعل وحسابها إلى الله يوم القيامة، ومن جاء بالحسنة ولاء لتراث إبراهيم أو تماماً على الإحسان واتباعاً لكتاب موسى (ع)، يجد الجزاء يوم القيامة مباركاً مضاعفاً عند الله تكريماً لكل حسنة بعشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها لا يضاعف عليه جزاء يوم القيامة رحمة من الله الذي لا يظلم عباده، حساباً يبارك الثواب ولا يزيد العقاب.

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) 161

في ختام السورة على الرسول ﷺ أن يصدع بالحق خطاباً بيناً للمشركين العرب من ذرية إبراهيم التي يشاطرهم فيها بنو إسرائيل، أن قد هداه ربه إلى صراط مستقيم لا يعوج يلتزمه اتباعاً ولا يتبع السبل فتفرق به عن سبيله، وهو ليس في شيء من الذين فرقوا دينهم بأهوائهم وكانوا شيعاً ، بل هو على الدين القيم الصائب إلى الله – ملة إبراهيم الذي كان حنيفاً منصرفاً عن ثقافة أهل عباد الأصنام وما كان من المشركين . وذلك الهدى يقوم الرسول ﷺ ونهجه عن ضلال الخلف –خلف إبراهيم– الذين تفرقوا بالسبل مجانبة للصراط المستقيم إلى البدع الكتابية، طوائف يهودية ومسيحية وإلى الإشراك المرتد بالعرب بعقائد للأصنام، إلا قليلاً من المتحنفين.

(قُلْ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) 162

يتواصل الصدع إعلاناً بالحق من الرسول – في وجه شدة حملة الصدف والإعراض من المشركين وأهل الكتاب، أنه على صراط مستقيم يجعل كل صلة له في كل شعبة للحياة بالله: صلاته شعيرة نيات وأقوال وأفعال منظومة تخشعاً وتوجهاً وتذكراً خالصة لله، ونسكه طرائق للحياة وسنناً ونظماً سالكة ومواضع تعبد وموضوعات كلها صفواً لله ، ومحياه حيثما عبر عن حياته أو كيفما صورها في مختلف وجهاتها ومواقعها وهيئاتها ظاهراً وباطناً لله ، ومماته أياً ما كانت أسبابه وأهدافه ومواقعه وآثاره لله رب العالمين، فكل وجوده في قدر الله وفي سبيله رباً خالقاً مصوفاً هادياً لكل العالمين من عوالم الخلق، وكله توحيد للحياة الى الله الواحد ونحوه بلا شريك.

(لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) 163

لا شريك لله الصلاة لله وحده لا شعيرة تعبد وصلة لسواه، والنسك إليه لا يسلك شيء ولا يخلص إلا لله، والحياة والموت كلها في سبيل الله إسلاماً لأمره واستقبالاً للقائه لا كفر ولا غفلة ولا نفاق ولا إشراك. والرسول ﷺ يؤكد أنه أول من يبادر الخروج من الإشراك إلى التوحيد مسلماً أمره كله حياته إلى موته إلى الله، ولو شذ تائباً إلى ملة إبراهيم التي زلَّ عنها أكثر الناس واضطر هو للمصابرة والمجاهدة لهم مجتمعين عليه ليس معه إلا ربه، لأنه سيقوم إماماً ومثالاً يكتال مثل أجور كل الذين يسلمون بدعوته وبقدوته وبسنته. (الآية 14)

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) 164

إن الرسول ﷺ أول المسلمين قائداً صفهم على الصراط المستقيم يعلن للمشركين: هل يبغي غير الله رباً معبوداً وهو الذي خلقه وهداه وهو رب كل شئ في الوجود طوعاً وكرهاً والرسول ﷺ يذكر من تلاوة الآية مخاطباً لقومه أن الإنسان مسئول فرداً عن نفسه ولا أحد يحمل عنه إيمانه أو شركه ، فما كسبت أي نفس –مثل إشراك المخاطبين فهو عليها، فهم الذين ظلموا أنفسهم شركاً واستكباراً وتكذيباً وافتراءً في حق الله رب كل شيء، ولا تزر وتحمل نفس حاملة أثقال كسبها نفس أخرى بل وزرها هي وحدها،

ثم يتحرك الناس بكسوبهم وأوزارهم الخاصة إلى ربهم مرجعهم إليه يوم البعث والدين، فيخبرهم بما كانوا فيه يختلفون توحيداً أو إشراكاً أمةً على الدين القويم أو شيعاً اختلفت وتفرقت بدينها (الآية 159).

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) 165

وهو الذي جعلكم خلائف الأرض قروناً وأجيالاً تتمكن وتذهب وتستخلف غيرها – مثل إبراهيم الذي كان خير خلف لسوء سلف مشرك وكان إماماً لقوم من الحنيفية خلفه، من انحرف يهودياً ونصرانياً عن التوحيد الخالص أو عربياً نحو الشرك البعيد. وهو الذي رفع بعضكم فوق بعض درجات من طبقات العلم أهل كتاب قديم ، وأميين عرباً، أو من طبقات الثروة مالاً وأنعاماً وزروعاً مترفين من اليهود والعرب أو فقراء من غالب العرب، وذلك التعاقب والترافع درجات يجعلها الله ليبلوكم فيما آتاكم من حنيفية بعد إشراك حفظاً للاستقامة أم ارتداد إلى الشرك (الآية 96)، وتبليغاً للعلم أم كتماً واحتكاراً دون الأميين، أم غيرة من الأميين على من سلف لهم كتاب منزل (الآية 157)، وحمداً لرزق الله وإنفاقاً أم كفراً وظلماً وسرفاً (الآيتين 141 – 142) إن ربك – يا رسول الله حيثما كانت درجتك في البلاء، إليه المرجع يوم القيامة ينبئ بما كنتم فيه تختلفون، سريع العقاب لمن أتى ربه مشركاً ظالماً وإنه لغفور رحيم ذلك اليوم لمن كان سارع إلى التوبة من الإشراك ليتوب عليه الله، شديد المغفرة والستر لماضي الذنوب شديد الرحمة لمن تلقى من رسالته في الدنيا الهدى والرحمة .

عموم المعاني

الآيات (151 – 165)

إن نداء داعية التوحيد رسولاً أو مبلغاً للرسالة من بعده إنما يتجاوز بأمة خطابه المحاذر والمحارم التي تكتبها عليهم عقائد الإشراك وأعرافه، ويذكرهم بأن مرجع الحرمات ليس إلا ما يتلو عليهم من كتاب الله. وأول الوصايا في ذلك ألا يشركوا بربهم الذي أنشأهم ورباهم أيما شيء من مخلوقاته وألا يستوحوا من دونه الأوامر والمناهي ، ثم ألا يقصر المرء عن الإحسان براً لوالديه فإنهما الإطار الطبيعي لمنشئه وتربيته، يحرم العقوق بهما على أن لا يطاعا في تقاليد شرك يحملانها لا سيما قتل الأولاد ضيقاً بالفقر ، فذلك حرام عند الله الكافل الرازق للولد ما أحياه ولولده ليحيا. ويحرم على المؤمنين في وصايا الدعوة ألا يقربوا لئلا يباشروا الفواحش علانية وما بطن سراً، فالله على كل شيء رقيب ألا يقتلوا النفس البشرية التي كرم الله وحرم، فإذا أحيا الله نفساً لأجلها لا ينبغي لنفس أخرى أن تجنى على حدود الآجال، إلا أن تقتل النفس قصاصاً أو مقاتلة كما شرع الله . وتلك الأربع الوصايا هي وجود الإنسان باتقاء أكبر المحرمات بكتاب من الله لا من المعبودات الإشراكية، لعل المؤمنين ما رعوها يعقلون ضبطاً أهواء الشيطان إلا يتعدوا لهم حدوداً حول قيام حياة الإنسان .

ثم يمضي النداء بوصايا الحرمات خمس أخرى في حدود علاقات بني الإنسان ، منها ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن بالمعروف فإن فتنة استضعافهم صغاراً تحت سيطرة ولاية قد تزلق إلى البغي نحو أموالهم قبل أن يبلغوا أشدهم . ومنها معاملات الكيل والميزان حيث تفتن الشهوة أحياناً وتشيع في السوق التجاري أعراف التطفيف الحرام وعلى المؤمنين أن يتقوا ذلك وتفي كل نفس بقدر ما وسعت من الضبط والقسط في المعايير، ومنها أن إذا قام المؤمنون شهوداً فيما بينهم وحكاماً فليشهدوا وليقضوا بالعدل دون فتنة المحاباة الحرام ولو كان المشهود له أو عليه ذا قربى، وأن إذا انعقد بينهم عهد ذمة في الله فليوفوا بالتزامه صادقين لا تورطهم فتن الظروف المتقلبة والسانحة في الحرام نكثاً أو خيانة . وتلك وصايا للمخاطبين من الله لعلهم يذكرون رقابة الله لا ينسونها بما تزين شهوة الكسب والعصبية.

ثم الوصية العامة العاشرة للمؤمنين المخاطبين بكتاب الله أن يسيروا في أمرهم ومنهاج حياتهم على الصراط المستقيم إلى الله صفاً واحداً مهما ابتلاهم الاختلاف ولاحت لهم دواعي سبل شتى تجنح بهم

على أن لا يتفرقوا عليها ، ولعل المؤمنين بهذه الوصية الجامعة من الله يعتصمون بالتقوى يجتنبون الشتات الحرام، شيعاً لاختلاف الرأي واضطراب الأهواء وتضارب المصالح بلاءً من الله .

لقد سبقت مثل هذه الوصايا لموسى عليه السلام وآتاه الله الكتاب والتوراة تماماً وفضلاً على الذي أحسن منها وتفصيلاً لكل شيء من فضائل الحياة ومحرماتها ، كان ذلك هدى الى صراط مستقيم ورحمة تطمئن بها النفوس من ذلك السلف لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون لا ينسون حسابه غيباً بعد الدنيا ولا يشترون بهديه ثمناً قليلاً من عاجلها . ولعلهم يكونون بذلك أسوة حسنة لخلفهم الذي أنزل الله إليهم الكتاب والقرآن الأخير مباركاً تتزايد فيه وصايا الهدى . إنما تتعاقب القرون على ذلك الصراط المستقيم لتتبعه وتتقي الضلال عنه فيتلقون رحمة الله الواسعة التي ترفع الإصر القديم من المحرمات على العهود وتدفع محرمات الجاهلية المشركة. ويتقون عصبية القرون التي تعمي الخلف كون كتب الله تتصادق بعضها بعد بعض والتي قد تدعو الخلف أن يهملوا الكتاب السابق ووصاياه إذ تقادم، يدعون أنه إنما أنزل على طائفتين سابقتين يهدواً ونصارى مهما كانوا عن دراسة الأولين غافلين، أو أنه لو أنزل عليهم لكانوا أهدى به من أولئك السلف. فها قد جاءهم بالقرآن كتاب خاتم مصدق مبارك بينة من ربهم وهدى ورحمة، فمن أظلم ممن يكذب بآيات الله المتجددة التي يخاطب هو بها ويشهد عليها الكتاب السابق، ورغم ذلك يصدف عنها . والله بكل أقداره الآجلة سيجزي الذين يصدفون عن آياته بعذاب سيء مثل سوء ما كانوا يصدفون .

وربما يكون غالباً على هؤلاء ما يسود في كثير من أهل الثقافات المادية من الكفر بالغيب الآجل، فهل ينظرون في المصائر إلا أن تعاجلهم ظاهرة مادية أن تتنزل عليهم الملائكة شاخصة أو يأتي الرب نفسه يرونه مجسداً، أو تأتي بعض آياته معجزات طبيعية تخرق نواميس الوجود المشهود، ولكن ليعلموا أن سيأتي يوم آجل بلا ريب تأتي فيه آيات كذلك من الله، ولكن عندئذ لا ينفع نفس استدراك الإيمان ما دامت لم تقدمه من قبل ولا ينفعها التماس فعل خير لم تكن قد كسبته مؤمنة في السابق. على الداعي إلى الإيمان بالغيب وبالرسالة أن يصابر أسرى الدنيا العاجلة ويخليهم ينتظرون البينات التي يشترطونها

ويكفرون دونها، فالمؤمنون إنما ينتظرون على يقين تلك الآيات تتجلى يوم القيامة، لكن يتهيأون لها بالكسب الحسن رصيداً لحسن الثواب .

إن الذين فرقوا دينهم الموحد أصله للحياة عبادة ومن ثم للعابدين صفاً، لكنهم بدلوا عهد التوحيد السالف ونسوا المراجع الأصل فاختلفوا وأحالوا دينهم وصفهم شيعاً، ينبغي للداعي إلى تجديد أصل الدين وتوحيد الصف ألا يكون من المتفرقين في شيء لا تجتاحه منازعات العصبية، وإن يكل أمرهم ومرجعهم إلى الله يوم يميز ويحكم بينهم من على الحق ومن على الباطل، وينبئهم في ذلك بما كانوا يفعلون في الدنيا من تفريق الدين، ومن جاء منهم يومئذ بالحسنة في كسبه المرصود للحساب فله جزاء مضاعف عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها جزاء سوء وهم لا يظلمون بل يتبارك الثواب للمحسنين ويكافئ العذاب المسيئين .

وليقم الداعي في تلك الأمة المبتلاة بالفرقة قدوةً شاهداً أن قد هداه ربه إلى صراط مستقيم عليه مسيرة حياته ديناً قيماً عن أي عوج بتقاليد الجاهلية أو عصبية الطائفية بين المتدينين، وتلك هي ملة إبراهيم (ع) الذي استقام وحنف عن ملة آبائه المشركين وخرج عن صفهم وهاجر. وليعلن الداعي أن صلاته شعيرة تعبد لله ونسكه سنن صفاء وطهارة في حياته ومحياه حيثما كان مقامه وكيفما كان تعبيره في الحياة ومماته مهما كانت أسبابه ومواقعه –كل حركتة وسكونه في الدنيا لله رب العالمين لا في سبيل شريك من عوالم الخلق ، وبذلك أمره الله ليقوم مثلاً وإماماً يكتال من أجور المتبعين لسنته. وليقم في أمة الخطاب مستنكراً كيف غير الله يبغي رباً وهو رب كل شيء ومؤمناً بالمسئولية عن كسب الإنسان في الحياة لا تكسب نفس شركاً أو ظلماً إلا وقع عليها جزاؤه لا مفر، وبالمسئولية الفردية لا تزر وازرة فدى ولا مشاطرة لإثقال وزر مسئولية أخرى، بل المرجع والحساب للناس أفراداً عند ربهم فينبئهم بما كانوا فيه يختلفون كسوباً وأوزاراً.

والله هو الذي جعل البشر خلائف متعاقبين في الأرض قد يختلفون كإبراهيم عليه السلام خلفاً موحداً حنيفاً عن شرك سلفه لكنه بعض ذريته عقبوه مشركين ، والله رفع بعض الناس فوق بعض درجات متفاوتة طبقات علم أو ثروة أو أسمى فضل). وذلك التعاقب والترافع ابتلاء بما تؤتى أقدار الله الناس

موقعاً من السنن المتوارثة أو مكانة من العلم والرزق المكتوب، فمن سقط في الابتلاء بالتمكن عقبه في أرض السلف وتراثهم أو بالفضل درجة على الآخرين، فإن الله سريع العقاب جزاء عاقبة عاجلة أو آجلة لمن سقطوا وحملوا الوزر، وفي ذلك تصبير وطمأنة للداعي وتحذير ونذارة للمخاطبين. وإن الله غفور رحيم لمن استدرك سابق إشراك أو ظلم وتفرق في ذلك الابتلاء، فاجتازوا الابتلاء، وكانوا مع الداعي أمة الاستجابة القدوة الظاهرة في الدنيا الراضية المرضية في الآخرة .

سورة الأعراف

خلاصة هدي السورة

سورة الأعراف أول السور الطوال نزولا، وقد نزلت في أواخر العهد المكي، إذ كانت قد تواترت السور وأصبح القرآن –وحيّا من الله سبحانه وتعالى وبلاغا من النبي (ص)– قضية جدال ثائر في بيئة الخطاب لثقافتها الجاهلية المحجوبة دون الغيب بالعالم المشهود، فضلا عما سبق من إنكار أولئك المخاطبين بالسور المتواترة من توحيد الله معبودا بغير شريك ومن البعث والحساب يوم القيامة، وعما تنزلت في آياتها من وصايا لتزكية الرسول (ص) في فجأة المقدمه من الصدود عن دعوته الغريبة على قومه لأول العهد.

ولتأكيد حق القرآن المبين بدأت تتنزل سور ثالثتها هذه الأعراف في ترتيب النزول تتصدرها بعض الحروف العربية إشارة لبيان خطابه العربي لأمة عربية، هدى منزلا من الله لا من أولياء المشركين الذين يؤلهونهم في الأرض ويستوحون منهم الهدى. وجاء في السورة ذكر الآيات المنزلة مفصلة في ذلك الكتاب بعد بيان الوعد لبني آدم أن سيأتيهم بعد هبوط أبيهم إلى الأرض رسل يقصون عليهم آيات الله، وورد ذلك قبل رواية سير أولئك الرسل وأقوامهم. جاء في ختام السورة أنه مهما طلب المشركون بثقافتهم الدنيوية آية معجزه خارقة لمعهود الطبيعة لتأكيد صدق الرسالة الخاتمة، فإن القرآن بحروف لغة العرب هو الآية المعجزة لهم وآياته هي البصائر من الله ليقرأه المخاطبون ويسمعوا لعلهم يرحمون بما يحمل من هدى.

ولما كان في السورة وعد الله بالمرسلين وقصة بعضهم للاعتبار، جاء اسم السورة (الأعراف)، وهي العوالي التي تطل في الآخرة على المحشر حيث يقوم الناس فريقين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وحيث يقف على تلك العراف المشرفة الرسل شهوداً على أمانة تبليغ رسالات الهدى والبشارة والنذارة في الدنيا، مما حق به الحساب ذلك اليوم الذي يسألونه فيه عن أماناتهم كما يسأل الذين خاطبوهم عن كسبهم. وهنالك حول الأعراف يتمايز هؤلاء وأولئك كما اختلفوا وجهة وكسبا في الدنيا. وسورة الأعراف هي أول السور نزولاً التي فصل الله فيها قصص أولئك الأنبياء الشهود ومذاهب أقوامهم الذين اختلفوا مؤمنين ناجين ومكذبين هالكين، وتهيأوا لمذاهبهم في الآخرة وفاقاً لذلك.

أما قصص سير الأنبياء وأقوامهم في تاريخ الدنيا فقد تقدمت عليها قصة آدم أبى البشر وزوجته في الجنة، وهذه القصة تنزلت هنا لأول مرة في القرآن بعبرها البالغة وإن جاءت من بعد نزولاً في سورة البقرة التي وضعت أول سورة في ترتيب الكتاب لأنها نزلت عند أول تأسيس مجتمع المسلمين المتكامل في المدينة.

ومن أصول الرشد في القصة تكريم الله للإنسان تسجد له الملائكة بينما يتكبر عليه مفاخراً إبليس، الذي ما ضمن من الله البقاء قريناً للإنسان أبداً إلا عزم على إحاطته بفتنة الإغواء لا الهداية التي يوحيها الأنبياء. ومن معاني القصة أن الله ببسط النعماء للإنسان ويوسع له الحلال في الجنة كلها حيث ما شاء إلا شجرة واحدة، وكذلك في الدنيا المباح المتسع متاعها مطلقاً إلا حد الحرام المعين. ولكن الشيطان

العدو الذي يدعي أنه الناصح للإنسان يغريه بأن له الخلد والملك في انتهاك الحرمة. وتلك معصية أبدت لآدم وحواء سوءاتهما فذكرتهما حتى تابا إلى الله توبة مقبولة، ثم أدت بهما من بعد الهبوط للأرض والحياة المحجوبة بُعداً عن غيب الملأ الأعلى. وثمة أنزل الله لهما لباساً يستر العورة وأوصاهما أن لباس التقوى خير. فالمعصية كانت في الجنة وهي في الدنيا انكشاف عورة الجسد والخلق وفاقاً. وأوصاهما الله بأن الشيطان عدو الإنسان أبداً لاسيما بعد هبوطه من الغيب إلى الأرض يفتنه فيها ليهبط به ضلالاً إلى جهنم في الآخرة، وإنما الأولى بالإنسان كما ورد في ختام هدي السورة أن يقارب الملائكة مؤمنا يتواضع لعبادة الله وتسبيحه كما يفعلون. ولئن فطر الإنسان على التقوى لاتقاء الفواحش والإثم والبغي وهو يتمتع برزق الأرض وزينتها والتزام أمر الله هدىً وقسطاً وإخلاصاً، فإنه في الأرض ستأتيه رسل الله تحمل الآيات تذكره بالتقوى والصلاح مهما غفلت عن ذكر الله نفوس في عالم الشهادة.

وجاء تفصيل سير الأنبياء وأقوامهم في (الأعراف) بأكثر مما جاء في أيما سورة سبقت نزولا، ففي صدر السورة وردت آيات تحمل قصة القرى إلى المصير، ثم وردت قصة آدم وعظاتها ووصايا بنيه وعاقبتهم المتمايزة في الآخرة، ثم جاء ذكر نوح رسولاً إلى قومه، وهود كذلك إلى عاد، وصالح أخاً لثمود، وقوم لوط، وشعيب أخاً لمدين. والرسالات كلها كانت دعوة لتوحيد الله وعبادته، والاستجابات من أمم الخطاب كانت من غالبهم تكذيباً بآيات الله واستكباراً واستضعافاً للمؤمنين، واتهاماً للرسل بالضلالة والسفاهة، وتأخذ بعضهم العصبية لمورثاتهم، وتروي خواتم القصص عواقب النجاة للرسل والفئات المؤمنه الصابرة وهلاك المكذبين. وكانت تلك الآيات في الأعراف درساً لاتقاء الرسول الخاتم (ص) مشاعر الحرج في دعوته في مكة – وكل داع للدين بعده – بسيرة سلفه الصالح المرسلين مع أقوامهم، وعزاءً عن مواقف قومه بمواقف أولئك الأقوام من رسلهم، وتعزيزاً لإيمانه بنذير مصائر المكذبين وبشير نجاة المؤمنين في الدنيا والآخرة.

أما قصة موسى فكانت في هذه السورة بتفصيل بالغ لم يبلغ مثله قبلها نزولاً. وكانت للرسول محمد (ص) العبرة وهو في مرحلة الدعوة بين المشركين المستكبرين على المؤمنين المفتونين بالدنيا والأسواق والتجارة حول مكة. لأن موسى (س) كان في خطاب لبيئة فرعون وطاغوته وغروره بدنياه المشهودة والعامرة بالثمرات وفتنته للمستضعفين الصابرين. ولكن قصة موسى شملت آيات من الظواهر المادية المعجزة التي غلبت سحر آل فرعون، والطبيعية التي أصابتهم بأحوال ضر واعظة في معاشهم وزرعهم، وذلك مما لم يعهده الرسول الذي نزل عليه القرآن مهما طلب مثله المخاطبون في ذلك الحاضر، لأن الرسالة كانت خالدة للناس كافة تخاطبهم بآيات مسموعة في الكتاب مشهودة في الكون باقية بوقعها أبدا. والعبرة في قصة موسى وسيرته التي تسير بها السورة بعد الهجرة بالجماعة المؤمنة المستجيبة وما حملوا من بقايا عهدهم بثقافة الاتباع لثقافة الشرك تحت وطأة فرعون، وما ابتلوا به من الفتوح للقرى بعد إخراجهم من ديارهم الأولى، وما تعرضوا له بعد الشريعة الموحاة إليهم من محاذر الفسق عنها ومصائر

الظالمين الناسين لها، وبشأن من يخلفهم من الذين يرثون كتاب الرسالة منهم من يفتنه عرض الدنيا عن ميثاقه، ومنهم من يستمسك به مصلياً صالحاً. وكذلك العبرة في قصة اطمئنان موسى بكلام الله دون رؤيته عياناً، عظة للداعي بعده ألا يفتنه المخاطبون بطلب الآيات المحسوسة والوحي المشهود، وفي رؤية التبشير لقوم موسى بحامل الرسالة التالية الخاتمة ذكرى لتصديق الرسول الذي جاء يحمل القرآن، يصدق ما بين يديه من كتاب الله.

وقصص أقوام الأنبياء وموسى من بعدهم عظة عامة للمخاطبين بالقرآن بمصائر الهلاك بشتى أسباب القدر للقوم المكذبين لرسلهم المستكبرين على المؤمنين. وكما كانت تلك القصص زادا يعزز الرسالة في عهد الدعوة المكي، فإن قصة موسى خاصة بتفاصيلها بعد الهجرة عبرة تتجاوز كذلك عهد الدعوة والفتنة الأولى إلى عهد لاحق، تهيئ الرسول (ص) والمؤمنين معه لما يستقبلونه من عهد المدينة بعد الهجرة، حيث الاستقلال من فتن الجبروت والحذر من محمولات التقاليد الجاهلية وحيث يتفصل نزول شرع الله ويلزم الصدق والصلاح في رعايته، بل حفظ روح التجديد فيه من بعد للوارثين الكتاب والتراث عبر كل الابتلاءات في كل مواقع الأرض، أن يستقبلوا دعوات التجديد تذكر بالميثاق وتنزل أحكامه على وقائع الحياة المتجددة، ألا يرثوه عصبية للتراث لا يدرسون مغازيه ويؤثرون عرض المنافع الأدنى على التقوى وخشية الآخرة غروراً بأن الله سيغفر لهم على فسوقهم، بل إن الله ليبعثه لهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء الذل والعذاب أن عتوا عما نهوا عنه بأثر التقاليد ورغم تذكير الواعظين.

إن سورة الأعراف في مختلف سياقاتها كل ما ناسب الوقع تذكر آيات الله المتناصرة آيات للمذكرين في طبيعة الكون سموآت وأرضاً ورياحاً وماءً، وآيات للشاكرين في النبات الحي وفي أصل خلق ذرية الإنسان التي تحمل فطرة الشهادة بتوحيد الله، في خلق الولد للأبوين وفي استخلاف العباد في الأرض وتمكينهم في نعم وبركات، وآيات للمؤمنين منزلةً وحياً من عند الله للإنسان تذكره بما في نفسه وما حوله من الآيات، وتعلمه الهدى من شرع الله. وكل الآيات تؤكد حقائق الآجال للحياة الدنيا، وتذكر بأجل الموت سنة لكل نفس، وأجل الهلاك للأمم التي تكذب آيات الله، وأجل الآخرة للناس أجمعين لساعتها المجهولة الوقت للبشر، نؤمن بها ويحسب لها المؤمنون مهما فُتن غيرهم بالحياة الدنيا لهواً وغروراً وكفروا بأجلها اليقين. والسورة تؤكد أن الإنسان مبتلى في الدنيا يستخلف في الأرض ويُؤتى كل آيات الله تذكره وتعلمه وتتقلب عليه ابتلاءات السراء والضراء تذكره وتنبهه، فمن الناس الغافلون عن الآيات مكذبون للرسالات المستكبرون على نهج عبادة الله، يرون تصريف الابتلاءات حظاً وطيرة، يفسدون في الأرض، يرثون عهد الكتاب الوحي من الغيب فما يدرسونه بل يفترون عليه ويؤثرونه أعراض الدنيا. ومن الناس المؤمنون العاملون الصالحون الحافظون للعهد. ويوم القيامة يسأل المرسلون والذين أرسل إليهم ويوزن الحساب، فمن الناس الخاسرون من خفت موازينهم بما كسبوا في الدنيا من الضلال والغرور والآثم والبغي. ومنهم المصلحون من ثقلت موازينهم بما آمنوا وصبروا وشكروا نعم الله في الأرض فورثوها وورثوا الجنة. وكما

تقابل هؤلاء وأولئك وتناظروا في الدنيا تعالياً من المستكبرين على الرسل والمؤمنين، يتقابل أهل النار وأهل الجنة، يتخاصم أولئك ويدعو بعضهم على بعض وهم في مهاد وغواش من جهنم وعذابها، ويحمد الله هؤلاء في حمد لله وسلام لا غل بينهم وهم في رزق وماء وخلود.

وشر الملعونين في الآخرة بغير شفيع هم الذين يشركون بالله يتخذون الشياطين أولياء ومن الأصنام آلهةً وآيات الله بينة في عالم الشهادة أن هذه المعبودات لا تخلق شيئا كالله الخالق بل هي المخلوقة، يستعين بها المشركون وهي عاجزة لا تضر أحداً ولا تحمي أوتنتصر لذاتها، يلتمس منها المشركون الهدى وهي لا تهدي أحداً ولا تسمع دعاء، وهي تماثيل تشابه الإنسان بأعضاء لا تحس والذين يعبدونها أناس بحواسهم، لكنهم كالأنعام بل أضل سبيلاً لأنهم يحملون فضل رشد وأمانة تكليف لكنهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يعقلون هدى الله. إن الداعي لحق الإيمان والتوحيد والعبادة لله مثل سائر الأنبياء، غربة في البيئة المشركة بالله الدنيا ومتعبداتها وصورها، يُبتلى بالمشركين يرمونه بالضلال والجبن، ويُلّحون عليه طلب الآيات الطبيعية المشهودة الغريبة، ويسألونه كشف علم الغيب الذي يدعوهم للإيمان به. فعليه ومن معه ممن اتقى وآمن أن يستعيذ بالله من نزغ الشياطين وأن يتوكل على الله مهما كانت مكائد المشركين ورهبة متعبداتهم. وعليه التجديد للدين لا الارتهان بتقاليد الآباء ضلالا ولا الموروثات عصيبة ولو نسبت إلى الدين، وعليه أن يأخذ من المخاطبين ما تكسبه منهم الدعوة عفواً وأن يأمرهم بالمعروف وأن يعرض عن الصادين منهم الجاهلين. وعليه دعوة وقدوة أن يعتصم بآيات الله ويقرأ كتابه جهاراً بصائر وهدىً ورحمة، وأن يذكر الله في نفسه مخلصاً في تضرع وخشوع وكما يستعيذ بربه من عدوه الشيطان، يقتدي بالملائكة العابدين الساجدين لله الذين سجدوا لآدم في الجنة أولاً وسيلقاهم بنوه فيها آخراً سلاماً.

==

سورة الأعراف

ترتيل المعاني
(الآيات 1- 36)

(المص) (1)

(الألف) و(اللام) و(الميم) كما في أول سورتي البقرة وآل عمران، وإشارة للكتاب المذكور تالياً، فهو مركب من ذات هذه، قرآناً واضحاً يبلغه الداعي النذير للعرب أمة الخطاب ويسمعه منهم المؤمنون فيذكرون، بأصوات الحروف العربية المبينة منها (ألف) و(لام) و(ميم) متكاثرة ومنها (ص) بارز في صدر السورة وسائر آياتها حرف صفير يرمز لأصوات التلاوة التي تنفس الحرج وترفعه عن الصدر.

(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (2)

كتاب بَيِّنْ واضح من ذات الحروف العربية الواضحة أنزل هنا إلى الرسول المخاطب وليس عليه كما في آيات من سور أخرى، أُنزل بناءً للمجهول لأن المخاطب – النبي - يعرف ويؤمن يقيناً بالغيب بمُنزّل الكتاب، أنزل إليه فينبغي ألا يكون في صدره حرج ضيق وليمض يتلقاه ويتلوه ليخاطب به ولينذر من تكون استجابته للرسالة تكذيباً في تلك البيئة الإشراكيه التي تنزلت فيها آيات الكتاب ولا حرج على الرسول لا سيما أنه ذكرى للمستجيبين الذين يتلون هم الكتاب ويذكرون، تلك الفئة المؤمنة القليلة يومئذ من حوله - والنذارة تتقدم الذكرى - فالمشركون المكذبون أولى بالنذير وهم الأغلب في بيئة التنزيل والخطاب.

(اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ) (3)

الأمر لأمة الخطاب التي جاءها النذير والتذكير أن اتبعوا مؤمنين ما أنزل إليكم من ربكم رباً تنتسبون إليه وحده، ولا تتبعوا من دونه في عالم الشهادة والمادة دون الغيب أولياء شركاء توالونهم دون المولى سبحانه وتعالى. وأولئك – منكم - كثرة استحقت النذارة لكنها قليلاً ما تتذكر أو تثوب إلى الأيمان بل سرعان ما ترتد إلي كفرها وتستغرق في الشرك. ولكن المؤمنين يلتزمون اتباع ما أنزل الله مهما يكن موقف هذه الفئة الكثيرة القليلة التذكر.

(وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ) (4)

الواو وصلاً لسياق الغفلة عن التذكر والعبرة، وكثيرة القرى التي قليلاً ما تتذكر، والعظات من شهادة التاريخ فكم أنذر الذين أشركوا بالله أولياء ولم يتبعوا ما أنزل الله، عظات قريبة تقرع القلوب التي حجرها الكفر بالغيب وانقطع بصرها لدى عالم الشهادة. فكم من قرية ما وعظها النذير بل كذبت وأهلكتها أقدار الله موتاً ونهاية حاسمة، إذ جاءها ونزل عليها بأس ملكوت الله وعذابه المهلك في حالات هم

بيات نُوّم في هجعة الليل أو قائلون أخلدوا لساعة في قيظة النهار، هكذا في أوقات الغفلة والاسترخاء عما أنذروا به.

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) (5)

إذ جاء البأس المهلك من أقدار الله فهم في أشد الغفلة تذكروا ولم يجدوا دعاءً إلى الله ساعة البأس إلا الاعتراف المتوسل النادم ساعة لا يجدي فيها الندم أنهم كانون ظالمين لأنفسهم إذ اتخذوا من دون الله أولياء وكفروا وأشركوا وغفلوا ولم يتذكروا.

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) (6)

لكن الله — سبحانه — لا يظلم أحداً أهلكه في غفلة في الدنيا أو أدخله النار يوم القيامة، فهو العادل الذي يستوفي تمام العدل يؤمئذ حتى علي الظالمين فليسألن يقيناً في ملئه الأعلى من أرسلت إليه رسالة النذارة ويسمع إجابتهم، بل انه ليسألن حتى المرسلين الأنبياء عما كلفوا به من بلاغ رسالة الله لهؤلاء الظالمين تمام البلاغ ليجازوا عن أداء الأمانة وتقع حجة الجزاء على المنذرين.

(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ) (7)

الفاء وصلاً للسياق فالله سبحانه العادل أتم العدل يوم القيامة يسأل الذين أرسل إليهم ويسأل المرسلين ويسمع لمن أجاب بالصدق والحق ولمن اطضرب وارتبك كما هو حال الظالمين، يومئذ يقص عليهم قَصّاً مفصلاً عن علم كل ما فعلوا حتى يقروا ويعترفوا، فما كان الله — سبحانه — غائباً ساعة البلاغ والظلم في الدنيا بل هو الشاهد العالم السميع البصير المحيط بما فعل هؤلاء وهؤلاء.

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (8)

بعد السؤال والإجابة والشهادة وما يقصه الله بعلمه التام المحيط، توزن كسوب الأعمال يوم القيامة في الميزان الحق العدل الذي لا يظلم ولا يميل، فمن ثقلت موازينه بالإيمان والعمل الصالح فأولئك هم — في المسئولين – المفلحون الفائزون دخولا إلى الجنة.

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ) (9)

ومن خفت موازينه من العمل الصالح في الميزان الحق فأولئك ممن خسروا أنفسهم، هلكوا ودخلوا النار بما كانوا إذ جاءتهم آيات الله بينات واضحات يظلمون متجاوزين حدود الإيمان، مشركين بالله أولياء من دونه.

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) (10)

وتذكيراً بعبرة الأيام خطاباً لبني الإنسان مثال القرى الكثيرة التي ظلمت فهلكت، يقول الله أن قد مكنا بالأقدار لكم في الأرض أمماً وأقواماً وجعلنا لكم سلطان تمكين من النعمة وطرائق من العيش طيبة كثيرة، ولكنكم بذلك المثال قليلاً ما تتذكرون فتشكرون مؤمنين متبعين ما أنزل الله. فالله العادل يرسل النذير ويُمكِّنَ المعاش ويضع الموازين الحق قبل أن يهلككم في غفلتكم.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ) (11)

والتذكير وراء ما سبق هو بأول النعم في أصل الوجود، سنة خلقكم وتصويركم مراحل، فبعد الخلق الأول من تراب صور الله أبويّ الإنسان آدم وحواء طوراً جديداً، كما هي سنة الذرية من بعد كافة، فكل مولود يكون أولاً من مخلوق ثم يَتَصوَّر نطفة فعلقه فمضغة فعظاماً مكسوة فبشراً شاخصاً. وبعد طور الصورة البشرية للإنسان الأول، أمر الله الملائكة السجود لآدم عليه السلام، تكريماً لعلمه الذي ينفذ إلى الله من الغيب ولخدمته على عبادة الله، فاستجاب الملائكة لأمر الله لكن إبليس كان عاصياً فلم يطع أمر الله – سبحانه وتعالي – ولم يسجد مع الملائكة للإنسان. وفي سورة البقرة يتواصل السؤال والجواب بين الله وملائكته، وهنا السياق هو ذكر الظالمين قليلاً ما يشكرون نعمة الله عليهم تمكيناً ومعايش كنعمة الله الأولى خلقاً وتصويراً وتكريماً، لا يتبعون ما أنزل الله بل يتبعون إغواء إبليس وسنته الأولى استكباراً

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) (12)

السؤال من الله – سبحانه تعالى – الخالق المصور لإبليس ليبين من حيث عصى امتناعا عن الأمر (ما منعك) وإصراراً علي المعصية (ألا تسجد). والرد من إبليس يكشف انصراف قلبه عن طاعة أمر الرحمن واحترام العلم والإيمان لدي الإنسان، تعلقاً بأصله من مادة الخلق وعنصره، كما هم المشركون المشغولون بالعرقيات والعنصريات والأحساب والأنساب اتباعاً لسنن الشيطان. فإبليس يدعي أمام الله أنه خير من آدم، لأن عنصره الذي خلق منه النار أكرم وأرفع شأناً من تراب الطين الذي خلق منه الإنسان، لكن الله الخالق مما شاء أجدر بالطاعة وأحق بالاتباع كلما أمر.

(قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) (13)

الأمر من الله — سبحانه – لإبليس بالهبوط من الجنة فليس له أن يتكبر فيها عاصياً لله، والأمر منه – سبحانه – بالخروج صاغراً ذليلاً، فمن استكبر يكتب الله عليه الصغار ذلةً، وما هو مع العباد والملائكة الساجدين الطائعين المكرمين، بل هو من العصاة الصاغرين من بني آدم يصاحبهم يوم القيامة في النار.

(قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (14)

بعد الهبوط خروجاً طرداً من الجنة يطلب إبليس من الله — سبحانه وتعالي – أن ينظره فيؤخره إلى يوم البعث يوم القيامة ولا يهلكه عقاباً على الفور.

(قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ) (15)

الله سبحانه يذكر لإبليس أنه أصلاً في أقدار الله من المنظرين المؤخرين وجوداً إلى يوم القيامة. فهو بحكمة الله عنصر الامتحان الدائم للإنسان، فكل من تابع أمره واتبع سنة معصيته صاحبه في المصير.

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) (16)

إبليس يقول مخاطباً الله سبحانه أنه بما أغواه، مما جعل الغواية والضلالة والزيغ في قلبه جزاءً لمعصيته وكبره – فإنه يقسم أن سيجعل الإغواء وظيفته مع آدم وذريته إلى يوم البعث، فهو يقعد راصداً عليهم صراط الهداية المستقيم الواصل لرحمة الله وجنته يغويهم عنه ضلالاً.

(ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (17)

إبليس يمضي مؤكداً عزيمته وكاشفاً عن إصراره على الإغواء لآدم (س) وذريته: فإنه أيضا ليأتينهم من بين أيديهم أمامهم حيثما تطلعوا لما يستقبلون، ومن خلفهم ماضياً حيث ما نظروا، وأنه سيكون في صحبتهم الدائمة عن أيمانهم وشمائلهم كل اتجاه سلكوا في الحياة أو تشتتوا في الاتجاهات، فهو قاعد على الصراط المستقيم لا يدع من جعل عليه سيرته وإلى وجه الله قبلته، لا يذر من القنط بماضيه ليتوب أو اعتبر بطاعاته ليثبت عليها إلا رده إلى المعاصي، يغوي من حيث يقوم للإنسان قدوة أو ظهيراً ومن حيث يستشعره الإنسان أو يغفل عنه رفقة شر دائمة. وهو يعلم من ضعف الإنسان استجابته له، فيوعد أن لن يجد الله – سبحانه – أكثر الناس شاكرين لنعمه ولو أنشأهم خلقاً وتصويراً ومكّن لهم معايش في الأرض بل قليلاً ما يشكرون.

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ) (18)

الطرد من الله – سبحانه – لإبليس الذي علم أمره فعصاه مصراً مستكبراً أن اخرج من الجنة مذموماً هابطاً عن مقام التكريم الذي تكون عليه الملائكة، ومدحوراً طرداً فاصلاً فلا عودة له توبة إلى الجنة كما هو حال الإنسان بعد المعصية والتوبة، فهو ومن تبعه من ذرية آدم ممن قعد لهم الصراط المستقيم ودعاهم إلي الغواية فأجابوا، هم جميعاً يعدهم الله حقاً أن سيملأ منهم نار جهنم يوم القيامة.

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) (19)

بعد الأمر من الله والمعصية والذم والدحر والوعيد، الله سبحانه يسكن آدم (س) وزوجه الجنة ويجعل لهما المباح مبسوطاً واسعاً من حيث شاءا أكلا، والحرام محصورًا واضحاً والنهي عنه صريح، ألا يقربا شجرة واحدة مُعرَّفة بالإشارة (هذه)، لئلا يكونا من الظالمين، من قاربها انزلق فأكل منها فظلم نفسه إذ أخرجها من سعة الحلال إلى ضيق الحرام ومن طاعة الله إلى معصيته كما فعل الشيطان.

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) (20)

إبليس الذي شطن بُعداً عن الله وبعداً في معصيته يوافي قسمه أن يقعد لآدم وذريته على الصراط المستقيم، وسوس لآدم وزوجه وسوسة تأتيهما خفاءً مجيئاً ملماً متكرراً من أدق المداخل وألطفها. ولقد عمد الشيطان إلى إضلالهما – عليهما السلام – ليبدي كاشفاً ماووري من سوآت مستترة عنهما بقدر الله في حياة السلام في الجنة، من سوآت شهوة الجنس في الأعضاء التي يسئ الإنسان لذلك كشفها

فيسترها ويغطيها، لكن الشيطان يغوي الإنسان بفتنتها ويتخذها سبلاً للكفر والضلال عن الصراط المستقيم، فهو يوسوس لآدم وزوجه خداعاً وإغراءً ادعاءً أن الله – سبحانه – إنما حرم عليهما هذه الشجرة الواحدة من شجر الجنة الكثير حتى لا يكونا ملكين، في حال الملائكة التي ترى الوجود كله شهادة وغيباً وتنعم بجوار الله – سبحانه – أبداً وهي طائعة أبداً لا تفتن بالابتلاء ولا تعاقب بالجزاء، وحتى لا يكونا خالدين يغريهما أن إذا أكلا خلدا فلا موت ولا بعث ولا حساب ولا جزاء. فجاء الشيطان لآدم وزوجه، للإنسان من حيث فتنة الدنيا الزائلة دار الابتلاء بالتكليف التي خلق لأجلها ليورطه في أشد شهوات الدنيا فتنة حب المتاع المطلق والخلود، وينتهي به إلى عرض السوءات.

(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) (21)

الشيطان يستغرق حيله ووسعه في إغواء الإنسان من حيث عرف ضعفه فهو يقسم بآدم وحواء أنه حقاً من الناصحين لهما.

(فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (22)

فدلى الشيطان وأوقع آدم وحواء – عليهما السلام – نحو ما زعمه خيراً لهما، ولكنه أغواهما بمزاعم الغرور التي لا حقيقة ولا طائلة وراءها، حتى خرق حدود المباح الواسع إلى حد الحرام الضيق فظهرت لهما سوءات الشهوات من أعضائها في جسم الإنسان، ولم يكونا يستشعران من قبل إزاءها حرجاً لان الله واراها عنهما، فطفقا استمراراً يخصفان ويشبكان أوراق الشجر بعضه إلى بعض على جسديهما.

ولكن الله – سجانه – نادى فيهما سائلاً مذكراً بعهده الأول نهياً عن تلكم الشجرة، وتحذيره المقيم أن الشيطان عدو مبين واضح للإنسان فينبغي أن لا يُدْلِه بغرور.

(قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (23)

خطابا إلى الله ربهما، آدم وحواء أقرا واعترفا اعتراف التوبة والندم قائلين أنهما ظلما أنفسهما عدلاً عن الحق، إذ نسيا عهد الله وعصيا أمره وهما يسألان الله المغفرة لما غرهما إليه الشيطان، ثم الرحمة يتعهدهما بها في المستقبل، وإلا ليكونا حقاً من الخاسرين.

(قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) (24)

الأمر من الله بالهبوط من حال الجنة والغيب حيث يكلمهم ربهم إلى حال عالم الشهادة والانقطاع عن الغيب إلا وحياً، هبوطاً إلي الأرض لهم جميعا: الشيطان العاصي المصر على المعصية و المذموم المدحور وآدم وحواء العاصيين المستغفرين التائبين الهابطين برجاء رحمة الله في الأرض، بعضهم لبعض عدو، ليس بينهما وبين الشيطان إلا صراع، اغتراراً بشره أو توبة كما كانت التجربة الأولى في الوجود. وفي الأرض مستقر لهم جميعاً محل المتاع المباح سوى ما حرم الله، سيظلون على تلك الحال إلى حين القيامة.

فالهبوط كان بعد تأهيلهما بتجربة متكاملة في جنة الغيب، من الأمر والابتلاء بإغواء الشيطان ثم المعصية ثم التوبة، ليستقرا في الحياة الدنيا أجلاً على الأرض حيث يأمر الإنسان ويبتلى في عالم الشهادة ويَعتْبِر مُقاوماً للشيطان وتائباً إذا أغواه.

(قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) (25)

الخطاب موصول من الله – سبحانه – لآدم وحواء في تبيان أقدار الله الكبرى المكتوبة على مصائر الإنسان في الأرض، هي المهبط الذي على مسرحه يكون عدوان البعض على البعض، وهي محل التمكين والمعايش والمتاع والابتلاء إلى حين. وهي كذلك – قدراً مكتوباً – يحيا فيه الناس كافة وفي ساحاتها يموتون موتة الحياة الدنيا اللازمة لكل إنسان، ومنها يخرج الناس كلهم مبعوثين يوم القيامة.

فالأقدار هي الهبوط والاستقرار والابتلاء والحياة والموت والبعث، ولا سبيل لخداع الغرور من الشيطان بان الإنسان قد يجد مصيرا خالدا يمسك عنه الموت أو قدرة محيطه في غير الأرض.

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (26)

الخطاب يتصل من آدم إلى ذريته البشرية كافة – يا بني آدم – تجربة واحدة وعبرة واحدة متصلة في الابتلاء والمعصية والتوبة. وقد أنزل الله – سبحانه – على الناس لباساً يواري مايسوؤهم أن يراه الآخرون من أجسادهم على سنة الأبوين الأولين، اللذين استشعرا أول مرة معنى السوأه فطفقا يخصفان عليها من ورق الجنة.

ولكن في تطور تجربة البشرية وبعد ستر السوأة ريشاً زينة تضيف جمالاً وفنا لأزياء الإنسان، كل ذلك الستر الخارجي مظهراً من ورق الشجر أو أصواف الأنعام وأوبارها أو من زينة الأرض ريشاً ومعادن وأصدافاً موصول بلباس التقوى الذي يستر سوءات الباطن في الإنسان كفراً وغروراً واستكباراً وحسداً وظلماً. فلباس التقوى هو لباس الخير الكثير للإنسان طاعة لله تكبت تلك الآثام فلا تشتعل في صدر الإنسان – إلا قليلاً ً –، وزينة في لباس التقوى . دقة شديدة في الطاعة خير أكبر للإنسان.

وكل تلك النعم منذ خلق آدم وحواء وتصويرهما بالتوبة عليهما تماماً لتجربة التأهيل في الجنة ثم لباس الستر وزينة الريش ولباس التقوى لأبنائهما في الأرض، ذلك كله من آيات الله . علاماته لعل الإنسان يتأكد فيتقي الله ويشكره ولا يكون من الذين قليلاً ما يتذكرون وقليلا ما يشكرون كما سبقت الآيات.

(يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) (27)

النداء يتجدد للناس كافة تحذيراً من فتنة الشيطان، فمن بعد نعم الله وما أنزل من آيات، الشيطان يتربص بكم على قسمه ويقعد لكم على الصراط المستقيم ويأتيكم من بين أيديكم ومن خلفكم ومن كل اتجاه كما سبقت الآيات، ليفتنكم عن هذه النعم ويصرفكم عن الله الذي أنعم بها ويغويكم على

معصيته كما فعل مع أبويكم آدم وحواء إذ دلاهما بغرور فأخرجهما من الجنة، فهو يجتهد غاية الجهد لينزع عنكم لباس التقوى كما نزعه من أبويكم، لتبدو سوءاتهم كلها، الظاهرة في الجسد والباطنة في نفس الإنسان. فالشيطان قاعد لأبناْء آدم إلى يوم يبعثون يراهم هو وقبيلة من نسله وجماعته وأوليائه من حيث لايراهم أبناء آدم، من وجوه الفتنة التي لا يراها الإنسان . حيث ما بدى ميلاً أو ضعفاً الشيطان وقبيله يرى وينشط بفتنة الإنسان.

ولكن الله – سبحانه – جعل حظ الذين لا يتوبون عن فتنة الشيطان ويتابعونه في كل ما يأمر به أن يكون الشيطان وقبيلة أولياءهم، يقفون معهم ذات الموقف وينشطون معهم ذات النشاط ويناصرونهم ويحالفونهم ولاية من دون الله، فهولاء الذين كتب عليهم الله هذا المصير هم الذين لا يؤمنون بالله من الكافرين والمشركين.

(وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (28)

هؤلاء الذين لا يؤمنون ممن والوا الشيطان فاستسلموا لخداعه وصاروا من قبيله، كلما فعلوا فاحشة قبيحة منكرة من الشركيات خدعهم الشيطان وفتنهم من سبيلين: عصبية لما وجدوا عليه آباءهم من أعراف ورؤى، والأخرى أنها أمرٌ من الله كما تدعي كثير من الخرافات القدرية الباطلة افتراءً علي الله – سبحانه – بغير علم. والرد عليهم كُلِّفَ الرسول (ص) ليقوله: ان الله لايأمر عباده اقتراف الفواحش المنكرة، وأمره لا يكون إلا بعلم من وحيِّه وأنبيائه. ولكن الذين لا يؤمنون يُدْلِهم الشيطان بغرور فيقولون على الله ما لا يعلمون.

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (29)

فالله – سبحانه وتعالى – لا يأمر بالفحشاء الفعلة المتجاوزة حدود الحق، بل أمر بالقسط العدل المعقول في مذهب الحياة. والأمر للرسول (ص) أن يقول دعوة لهؤلاء الذين لا يؤمنون تبياناً لأصول الإيمان والدين: أن الذي يأمر به ربي عبادة هو أولاً: توحيد الحياة كلها لله أكبر القسط، بينما الشرك فحش تضطرب به الموازيّن هو أكبر الظلم، وهو ثانيا: إقامة الوجه على صراط مستقيم مهما قعدت عليه الشياطين عند كل مسجد مُتعبَّد لله في الأرض، وكل زمن ومكان ومناسبة في كل الحياة حيث تستقيم الوجوه سجوداً لله، وهو ثالثا: الدعاء كله يستقيم إلى الله ويستقبله تعبيراً عن الإيمان في كل الحياة واستعانة به، إخلاصاً له وحده بغير شريك في كل ما دان به الأنسان في الدنيا وأدين به في الأخرة.

وختام خطاب الدعوة لتوحيد لله: أنكم يابني الإنسان له وإليه راجعون، كما بدأكم من غير شيٍ خلقاً وتصويراً وستعودون اليه بعد الموت، فسيروا مستقيمين على أصول الدين القسط سُجدّاً لله دعاة مخلصين، فأين ما سار الإنسان فهو عائد إلى الله.

(فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) (30)

منذ هبوط آدم (س) والشيطان الى الأرض، ذهب فريق من أبناء آدم في طاعة الله قسطاً عدلاً واستقامة عند كل مسجد عبر كل الحياة ودعاءً مخلصاً لله وحده، فهؤلاء الفريق الذي هداه الله بما آمن وأطاع.

وفريقا حقت عليه الضلالة، كتبت عليه بما كفر بالله وعصى وأتخذ الشياطين أولياءً من دون الله، يعهد اليه بأمره كله شركاً وكفراً وظلماً. ولكن الشياطين تحجب عنه ضلاله وتغره كما غرت آدم – عليه السلام – في الجنة، فلا يرى الإنسان الضال ضلاله إلا هدىً يقول علي الله ما لا يعلم (الآية 28).

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (31)

الأمر لأبناء آدم (س) من الذُريَّة البشرية أن يتخذوا لباساً زينةً جميلاً عند كل مسجد، حيثما أقاموا وجههم عبادة لله في كل الحياة كما سبقت (الآية 28). فالله – سبحانه – يأمر بالطيب الجميل ظاهراً زيّاً وزينةً وباطناً تقوى وايماناً، ولا يأمر بالفحشاء التي تتعرى عند أكبر مساجد الله الحرام كما كان يفعل العرب المشركون في الطواف، والله الآمر بالقسط والاستقامة في كل شيٍ، أباح لكم اللباس الطيب ولو زينة ريشاً، والأكل الطيب كافة والشراب الطيب كله، لم يأمر برهبانية الجوع عند المساجد بل يوصي بالقسط في اللباس والشراب والطعام بغير إسراف، إفراط يتجاوز بالإنسان إلى سبل الشيطان فيقع في بغضاء الله للمسرفين تجاوزاً واستكباراً.

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(32)

الرسول (ص) يُوصى بأن يعظ قائلاً للمشركين الذين يُحرِّمون اللباس والزينة عند المسجد الحرام، ويُحرِّمون ويُحلِّلون أنواعاً من الطعام والشراب بغير علم من الله الا اتباعاً للشيطان: أن الله الخالق المصور الذي أنزل هذه النعم والرزق، والذي أبدع هذه الزينة لم يُحرِّمْها على عباده المؤمنين بل أمرهم بها عند كل مسجد وأباح لهم الأكل والشرب بغير إسراف.

من حرم ذلك؟ انما يجد المؤمن نصيبه من الزينة والرزق الطيب في الدنيا كما يجد الكافر نصيبه، لكن الزينة والطيبات لا تكون الا خالصة للمؤمنين يوم القيامة جزاء صلاحهم في الدنيا، ولا نصيب ً لمشرك أوكافر منها في الآخرة.

وكل ذلك تفصيل لآيات الله فيما أباح وفيما حرم لقوم مؤمنين تلقوا من الله علماً راسخاً وعملوا بما علموا.

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (33)

علي الرسول (ص) أن يتلو ما حرم الله حصراً وتحديداً علي الذين يُحرمون زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، كما هي تقاليد عقائد المشركين في مكة وكما تفعل الكثير من الأعراف الباطلة بغير

علم جاءهم من الله، فالمحَرَمُ من ربه إنما هو – تحديداً – الفواحش كبائر الأفعال الشنيعة ما ظهر منها تعرياً في مساجد الله أو عربدة سافرة مع الشهوات وما بطن مستتراً دون ذلك من أفعال الفواحش الخفية لا يطلع عليها الناس. وحَرَّمَ الله الإثم من الذنوب ما ظهر منها وما بطن، قصوراً عن الواجبات صغيراً أو كبيراً. وحرم الله البغي عدواناً في المأثم ظلماً بالآخرين، أو تجاوزاً على حدود الحق والمعروف. ثم فوق هذه الفواحش والآثام يذكر الله – سبحانه وتعالى – كبائر البيئة الاشراكية المخاطبة من الرسول في مكة: أن الله حرم الشرك بالله واتخاذ الأوثان والجن آلهة بغير سلطان علم أو حجةً جاءتهم من الله وحيّاً أو رسالةً، وحَرَّمَ الافتراء على الله بغير علم. اولئك المخاطبون المشركون به بغير سلطان ويُحَرِّمون الزينة والطيبات ويتخذون الشعائر والمناسك بغير علم، ويدّعون أن الله أمر بالفواحش وأنهم وجدوا آباءهم عليها ويُحلون ما حرم الله.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (34)

مهما استبد الشرك في أمة فلم تُحرِّم الفواحش بل ادعت على الله، وحرمت ما أحل الله وأحلت ما حرم وكذبت الإيمان الذي جاءها بعلم من الله وكفرت بالرسول، فإن أمم العقائد المشركة والأعراف الباطلة كلها لها أجل نهاية يزولون فيه وتزول معهم مغرياتهم. وهذا أجل مقدر بحكمة مضبوطة لا يتأخر ساعة ولا يتقدم، وقد يأتي البأس والعذاب عليهم في أشد الغفلة بياتاً أو هم نائمون كما في أول السورة (الآية 4). وتلك الذكرى لهم جميعاً في بيئة التنزيل بشارة للرسول (ص) والمؤمنين ونذارة للكافرين الظالمين فكما بدأهم الله إليه يعودون (الآية 29).

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (35)

النداء يتجدد للناس أبناء آدم: أن آجال الأمم مقبلة حتماً لا تستقدم ساعة ولا تستأخر، ولكن الله سيبعث لكم قوم منكم أو لكل كافة رسلاً منكم يَقُصّون عليكم الآيات، قصّاً مفصّلاً بلاغاً وقدوةً، فمن اتقى الله في ما جاء به الرسل خشية النذر اجتناباً لحرمات الله ونواهيه، وأصلحوا إيماناً باطلاً وعملاً ظاهراً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كيفما ما جاء الأجل على سائر الأمم عاجلاً، أو متى عادوا إلى الله يوم القيامة بالموازين الثّقال، ونالوا السعادة الكبرى في الجنة.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (36)

في مقابل المتقين الصالحين: من أبناء آدم من يكذب الرسل وما جاءت به من الحق مفصلاً ويفتري على الله الكذب شركاً بالآلهة باطلة وافتراءً عليه بما لم يُنَزِّل سلطاناً علماً، وحتى إذا استبانت له الآيات يستمسك بكفره استكباراً على الحق، فمن يفعل ذلك فليس له إلا صحبة النار الدائمة هم فيها خالدون.

(الآيات 1–36)

الكتاب العربي المبين الذي أنزل الله هو رسالة نذير للناس وتذكير للمؤمنين منهم، وما على الرسول أو من يحمل الرسالة من بعد من حرج إلا البلاغ، أمراً باتباع آيات الوحي ولاءً لله لا اتباع الوضعيات ولاءً دونه. وعند ذلك الخطاب قد يَقِلُ المتذكرون المؤمنون فالأيام شاهد أن كثيراً من حضر المجتمعات لم تؤمن بالوحي والنذير المنزل، بل كانت تكذب بالآيات فتتنزل عليها عاقبة باغتة من بأس الدنيا وهلاكها، والناس عندئذ يدركون ويقرون ظلمهم ولات حين تذكر، فمن وراء ذلك عاقبة الآخرة حين يسأل المرسلون ليشهدوا على بلاغ الرسالة، ثم الذين أرسل اليهم ليحاسبوا على استجابتهم تذكراً أو إنكاراً، ويومئذ يُحكى عليهم ذلك عن علم من الملأ الأعلى الذي لايغيب عما كسبوا، ويقوم بينهم الميزان الحق

فمن ثقلت موازين شكره لله في الدنيا فهو من المفلحين، ومن خفت عليه موازين كفره فهو من الخاسرين، ولقد سبقت لهم جميعاً في الدنيا نعم التمكين والمعاش وما كان أكثرهم

شاكرين . كان أول الوجود الإنسان في عالم الغيب والجنة أبواه آدم وحواء لأول العهد والتجربة في الحياة: نعمةً فابتلاء فتكليفاً فكسباً. ففي ذلك البدء الذي كان تمهيداً للحياة الدنيا أنعم الله عليهما بأن خلقهما واحسن تصويرهما وأكرمهما بسجود الملائكة، ولكن كتب عليهم الابتلاء بأن انتصب لهما إبليس عدواً، يستكبر عليهما بعنصره منحطاً من زلفى الله شيطاناً صاغراً، وأُرجئ كما أراد باقياً إلى يوم البعث والمعاد الى الحساب، فأعلن أنه وذريته سيلاحق بني آدم يصرفهم عن الصراط المستقيم إلى الله ويحيط بهم من كل وجه في حياتهم، فلا يجد الله أكثرهم شاكرين له.

ولذلك تلقى إبليس مطروداً وعيد الله له ولمن يتبعه من الناس أن جهنم ستمتلي بهم أجمعين

وبعد مهاد النعم في الجنة والبلاء بالشيطان خوطب آدم وحواء بالتكليف عيشاً في الجنة، مباحةً لهما حيثما شاءا إلا حداً محدوداً من الحرام: القرب من شجرة واحدة. ولكن إبليس بدأ معهم الوسواس يَغْرهَّما قسماً أنه النصح، وانما كان مقصده فضح سوءاتهما جسداً وخلقاً لتعدي حد الله، يزين لهما أن في ذلك الخلود ضمن الملائكة والغيب. ولما أكلا من الشجرة وبدت لهما السوءات الجسدية اجتهدا في ستر العورة بورق الجنة، ولِمَا وقع منهما بذلك الظلم اجتهدا في ستر العورة الباطنية بالاستغفار لله والاسترحام. فجاوبهما الله أن يهبطوا جميعاً وإبليس عدواً يتعهدهم بالفتنة في الأرض حيث القرار في الحياة الدنيا الى حين.

أما في الوجود الثاني وراء الغيب في عالم الشهادة الدنيوي، فقد أنزل الله للإنسان بالطبيعة ما يواري العورة من لباس بل فيه زينة، لكن ذكرهم بما هو خير: أولها الحذر من فتنة إبليس والعبرة

من تعريته لهم لاسيما أنه يرى بني آدم من حيث لا يرونه، ولكنهم يوالونه إلا المؤمنين، وأول وساوس ذلك الشيطان أن يفسق بالانسان من إطار المسئولية أمام الله، حتى عن فاحشة العمل، إما تَذَرّعًا بالعرف الوراثي من الآباء أو بالطبع القدري من الله. لكن من الافتراء أن ينسب أليه تعالى الأمر بالفاحشة وإنما أمره الحق بالقسط تقوى وعدلاً في الحياة واقامة الصلاة في كل مسجد استقامة إلى وجه الله بكل مساقات الحياة، والاتصال بالله إخلاصاً في الدعاء بعداً من الشيطان، وتذكر المعاد إلى الله والحساب إذ يتمايز الناس، فريق الهدى وفريق الضلال أولياء الشيطان.إن الأصل في الحياة بوح – أن يأخذ بنو آدم في اللبس الزينة حتى عند كل مسجد أو مُتَعَّبد ولو تحفظت في ذلك الأعراب الجاهلية وأن يرتزقوا أكلاً وشراباً بلا إسراف مهما فشت فيهم تحريمات مفتريات، فما في الزينة والطعام محرم من دون الله. وإنما الحرام والفواحش والقبائح من الأعمال في الحياة ظهرت أو بَطنت، والاثم في كسب الإنسان الخاص، والبغي بغير الحق في علاقات البشر، والإشراك بالله مالم يُنزل به سلطاناً، والافتراء عليه ما لم ينزل قولا. وللناس في حياة المباح والحرام سيرة حتى يأتي لك متوجه فيها أجل الرحيل إلى الآخرة لا يستأخر ولا يستقدم ساعة.

والله لا يقطع عالم الأرض والشهادة في عالم الغيب بل ينزل عليهم برسل منهم آيات الهدى، لتحق على الناس العواقب حسب مكاسبهم بميزان الرسالة – من اتقى سيئات الفحشاء والحرام وأصلح بأخذ المباح وفعل الحسنات فعاقبتهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن كذبوا الآيات واستكبروا مثل إبليس فأولئك أصحاب النار التي أنذر بها الوعيد لإبليس وتُبَّعه فهم فيها خالدون، الخلود الذي مَنَّاهم به غروراً لأول العصيان.

ترتيل المعاني

الآيات (37 – 53)

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ) (37)

لئن كان مصير المفترين على الله كذباً وكذبوا بآياته الحق أن يذهبوا أصحاباً للنار خالدين، فمن أشد ظالماً وأحق بذلك المصير ومنهم ، أولئك ينالهم نصيبهم من كتاب العمر في الحياة الدنيا ويجيئهم الأجل

في الوقت المعلوم لا يستقدم ساعة ولا يستأخر، حتى إذا جاءتهم عندئذ رسل الله من ملائكة الموت في الساعة التي استوفوا فيها العمر كما قدره الله لتتوفاهمإالى عا لم الأزل، قالوا لهم في ساعة الضعف الأشد: أين أولئك الشركاء الذين ظلمتم بهم ودعوتموهم آلهة مع الله؟ فيقول أولئك المكذبون وقد أحاط بهم الندم: ضَلُّوا عنَّا فلم نجدهم في هذه الساعة الآزمة، وقد ضعفت حيلتهم حتى شهدوا على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فلا سبيل سوى الاعتراف النادم في ساعة استيفاء الأجل المكتوب.

(قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ) (38)

لكل أمة كتاب أجل ولكل أمة سؤال ساعة الأجل عما كسبوا في رسالات الله وآياته، فمن أقروا بكفرهم واعترفوا بضلالهم دخلوا بأمر الله وسوق الملائكة إلى أمم من الجن والإنس سبقتهم تواليًا على سيرة الكفر والظلم في الدنيا، فتوالوا في الآخرة صحبة خالدة في النار. والعلاقات في النار كلها تلاعن وبغضاء كلما وردت أمة كافرةإلى النار، إثر أخرى أنزلت عليهم لعانها حتي إذا اداركوا وتلاحقوا جمعياً في النار ولم تفلت من هذا المصير أي منها، ادعى الذين جاءوا آخراً أنهم لهم فضل لولا أولئك الذين سبقوا بالكفر فأضلوهم بسنته وتقاليده السائدة فدعوا عليهم من ثم أن يضاعف الله لهم العذاب في النارإذ ضلوا فأضلوا وحملوا أثقال الخلف.ولكن الملائكة تذكرهم أن الاتّباع ليس بعذر ولا يثمر فضلاً إذا سن سنة الضلال المتبوع، فعلى أبناء آدم أن يستقلوا متى ما استبان لهم الحق ولا يقولوا أنهم وجدوا آباءهم على ذلك (الآية 28)، بل الأولى بهم أن يتأملوا تجربة السلف ليتعظوا، وأن من سنَّ سنة الضلال له وزر من عمل بها وأضل بها، فلكلٍ ضعف من العذاب من بدأ الضلال ومن تبعه على دربه فقد مد سنة السوء ومن ورائه من يتبعه ويتأثر به ويتدارك معه في المصير، ولكن المتعذرين لا يعلمون.

(وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) (39)

في مشهد علاقات المخاصمة والبغضاء بين المتداركين المتلاحقين في طريق الضّلال فالنار قالت الأمة السابقة بالضلالة الأولى رداً على أهل الاتباع والاخَرة : فما كان لكم علينا من فضل بل اتبعتمونا بغير موعظة وبما شئتم، ووصلتم الضلال من سلفكمل إلي خلفكم فكنتم تكتسبون الكسب السئ مثلنا، فذوقوا العذاب معنا وفاقاً.

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) (40)

أصحاب النار الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها في الآية التي مضت في هذا السياق (الآية 39)، لا تفتح لهم أبواب السماء سبيل القرب من الله المتعالي دعاءً ورحمةً وصلاةً وقبولاً، ولا مدخل لهمإلى الجنة مصير المؤمنين حتى يكون للجمل الحيوان الضخم أو الحبل الغليظ يدخل في سم الخياط ثقب

الابرة الصغير، مثلاً بالغاً في تمام المحال. وذلك هو الجزاء الذي يستحقه عن جرم من قطع مع الله سبحانه وتعالى في الدنيا — فقطعه الله عن رحمته يوم القيامة.

(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (41)

بل سيدخلون إلى جهنم وهم أصحابها وهي مهادهم فراشهم الذي عليه يستقرون، ومن فوقهم غواش طبقاتٌ تتراكم فوقهم من النار وذلك جزاء من ظلم وطغى على حد العدل والحق، أن تُظلم عليه من فوقه الأغطية النارية كما ظلم نفسه فحجب عنها أنوار الحق، فبئس الفراش وبئس الغشاء جزاء الظالمين.

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (42)

عزاءً وطمأنينة للمؤمنين الصالحين في الدنيا والآخرة من استكبار الظالمين المجرمين ومن هول مصيرهم في مهاد جهنم وغواشيها، أن الله يغفر لهم إذا طغى عليهم المستكبرون بقوتهم في الدنيا ولم يبلغوا قدر قوتهم في الانتصار والغلبة عليهم، فلا يُكلِّف الله نفساً أو جماعة فوق طاقتها بل وسعها ولكنهم في الآخرة أصحاب المصير الخير في الجنة.

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (43)

مفارقةً ومعارضةً كبيرة لحال أولئك المتلاعنين في النار نزع الله — سبحانه — أخرج على أتم حال . الغل ما بطن في صدور المؤمنين من تحاسد أو تباغض في الدنيا، فدخلوا الجنة أجيالاً متعاقبة يجري بينهم الودُّ المتصافي وتجري من تحتهم الأنهار في جنات دائمة السقية، وأولئك الذين كذبوا واستكبروا في مهاد وغواش من جهنم.

وأهل الجنة يحمدون الله الذي قدر الهداية على صراط مستقيم حتى بلغ بهم نعيم الجنة باطناً وظاهراً، في مقابل أولئك الذين ضلوا عن ذلك الطريق السوي، ولقد اطمانت قلوبهم قائلين: أن ما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم الله إلى نور يخرج من ظلمات عالم الشهادة في الحياة الدنيا ويزلف إلى دار السعادة في الملأ الأعلى. ولقد جاءت رسل ربهم بالحق المتنزل، فمن بعد حمد الله على هداه، يحمدون لرسلهم الذين بلغوهم آيات الله دعوةً وأسوةً.

ثم نادتهم الملائكة تحييهم وتهنئهم أن تلكم الجنة التي أورثتموها عاقبة وفاق بما كنتم تعملون من الصالحات، ولئن تمتع بنعيم الدنيا المستكبرون أو احتكروه فقد آل إليكم بعد الموت نعيم الجنة في الآخرة.

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (44)

نادت الملائكة أهل الجنة نداء السلام والبشرى وأصحاب الجنة نادوا أصحاب النار نداء الشماتة هلا صدقت كلمات الترغيب والترهيب: أن قد وجدنا وعد ربنا بالجنة كفاء الإيمان والعمل الصالح حقاً صدقاً، فهل وجدتم أنتم ما وعد ربكم وعيداً جزاء للتكذيب والاستكبار حقاً، فجاوب أهل النار يقرون (نعم) مقالاً وحالاً. وتمايز المصير فَأَذَّنَ مؤذن في الملائكة بالاعلان الحاسم: أن لعنة الله على الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وكذبوا بآياته وظلموا المؤمنين واستكبروا عليهم، وجبت عليهم لعنة الله طرداً من نعيمه ورحمته في الآخرة.

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ) (45)

استحق الظالمون اللعنة التي تصدهم عن الجنة، بما كانوا في الدنيا الذين يصدون عن سبيل الله استكباراً على الحق اضطهاداً للمؤمنين، ويبغونها عوجاً بالحياة ضلالاً وميلاً عن الصراط المستقيم، ثم كانوا هم للآخرة كافرين لا يرجون بعثاً ولا حساباً ولا جزاءً.

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) (46)

وبين أهل الجنة وأهل النار حجابٌ فاصلٌ وسورٌ مائزٌ رغم الجوار، وعلى الأعراف أعالي السور من ساحة هذه المشاهد رجال يعرفون أهل النار بسيماهم علاماتهم ويعرفون أهل الجنة بسيماهم، وهم الرسل كانوا كلهم ذكوراً أرسلهم الله في الدنيا بالحق للبشر يقفون اليوم في مرتفع ليراقبوا أممهم ويسألوا فيشهدوا ببلاغ الرسالة إليهم، ويروا مصير هؤلاء وأولئك ويتعرفوهم كلاً، كما سبقت الآية (6) فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين). وهم يسلمون على أهل الجنة المتسالمين (سلام عليكم) وينظرون إليهم ولما يدخلوا الجنة بعد، ولكنهم يطمعون إلى دخولها فقد وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً وعرفوا مقاعدهم منها وعرفوا مقاعد أهل النار كما في الحوار السابق.

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (47)

واذا صرفت أبصار الرسل وحولت تحويلاً تلقاء أصحاب النار مهما كانوا يؤثرون مرأى أهل الجنة، لم يخاطبوهم سلاماً، بل رأوا سوء الحال ودعوا الله تذللاً وشكراً ألا يجعلهم مع أولئك القوم الظالمين من أهل النار.

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) (48)

ومن بين أصحابُ النار ينادي أصحاب الأعراف الرسلُ على فئة يعرفونها بسيماها وعلاماتها هي الفئة المستكبرة التي تكبرت بجمعها حشدها على الحق فكفرت، وعلى المؤمنين والرسل. وكان أولئك ذكوراً لأن الرجال هم الغالبون في الاستكبار الذي يستبد بقيادة الحشد والجمع، وقد استحقوا خطاب الرسل القارع الشامت لأنهم بسبب استكبارهم أضلوا كثيراً من الناس ممن اتبع قيادتهم، ومقالة الرسل القارعة

لهم أن ما أغنى عنكم جمعكم حمايةً ومناصرةً ومنعاً من النار، ولا ماكنتم تستكبرون تعالياً عليها بل عزلتم وذللتم مسوقين إليها.

(أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) (49)

حيث تكتمل المشاهد كلها من كان رسولاً فهو قائم على الأعراف ومن كان مؤمناً صالحاً فهو نحو مدخل الجنة ومن كان مستكبراً مساقاً إلى النار وكل منهم شاهد على الآخر، يسأل الرسل الشهود المستكبرين مشيرين إلى المؤمنين خطاباً للكافرين: أهولاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة، استكباراً وافتراءً في الدنيا، حسبتم أن من استكبر بجمعه وعلا في الدنيا سيجد ذات المراتب في الآخرة ومن كان مستضعفاً من المؤمنين في ذلة أقسمتم لاينالهم الله برحمة في الآخرة مادام لم يسبق عليهم جمعاً وكبراً، ولكن الله – سبحانه – يضع الموازين القسط ليوم القيامة، ولا ينحاز للمستكبرين في شيء صدقاً وعدلاً للمؤمنين. وهاهم الرسل يدعون أولئك المستضعفين إلى دخول الجنة بما عملوا من الصالحات، ليسوا كأولئك إذ لا خوف عليهم من دخول النار ولا يحزنون لفوات الدنيا فالجنة خير وأبقى.

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) (50)

بعد أن تكشف لأصحاب النار فساد معاييرهم في الدنيا وسوء مآلهم في الآخرة، ينادون أصحاب الجنة ممن أقسموا عليهم في الدنيا أن الله لا ينالهم برحمة، ينادونهم يسألونهم رحمةً إفاضةً من الماء وهم في أشد الحاجةً إليه، أو من الرزق الوفير الذي بسطه الله عليهم عسى أن ينفعهم في حر جهنم التي لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً بل حميماً وزَقُّوماً، ولكن أهل الجنة يذكرونهم بفوات الأوان الذي بسط الله فيه لهم نعمه في الدنيا شراباً وطعاماً فلم يشكروها بل استكبروا بها كفراً، وبأن الله في الآخرة حَرَّمَ على الكافرين نعمته من الماء أو من الرزق الطيب.

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) (51)

هؤلاء الكافرون الذين استقروا في النار مهاداً وغواشيَ ونادوا أصحاب الجنة يسألونهم الماء والرزق ولا سبيل لهم،إنما صاروا إلى ذلك لأنهم في الدنيا اتخذوا دينهم لهواً بغير هدف ولعباً بغير معنىً، كما كان يفعل كفار مكة مكاءً وتصديةً ورقصاً وتصفيقاً في طقوس دينهم، وكما يفعل الكثير من أهل الكتاب ترانيم وعروضاً وغرتهم الدنيا فاستغلوا لها ظاهر دينهم أو غفلوا عنه واستغرقوا في متعها وسلطانها فنسوا الآخرة نسياناً وأنكروا يوماً تقوم فيه مشاهد الجنة والنار، فيومئذ لا يجاب لهم طلب من شفيع في الجنة بل ينساهم الله وملؤه الأعلى معرضاً عنهم لمصيرهم في النار، كما نسوا لقاء يومهم هذا وجحدوا بآيات الله نكراناً، وهي واضحة بينة في فطرتهم وفي الكون من حولهم.

عموم المعاني

(الآيات 37 – 53)

الوجود الأخير للإنسان بعد الموت في الدنيا هو يوم القيامة إلى الملأ الأعلى ومصير الجزاء. وأحياء الدنيا الذين يكفرون بذلك البعث وبأنهم بعده محاسبون إلى جزاءٍ وفاق، والذين يفترون على الله والغيب الكذب الموضوع بإيحاءات الأرض والدهر، ويكذّبون بآيات الغيب الصادقة وحياً من الله، أولئك – ومن أظلم منهم – ينالهم نصيبهم من العمر في الدنيا للأجل المكتوب. وعندئذ ينحسر ظرف الزمن الدنيوي كله وتكون قد قامت مشاهد الواقع الحق ليوم القيامة في الأزل كقيام الماضي الواقع في أوقات الدنيا. حتى إذا قام ذلك وجاءت أولئك المكذبين الملائكة من الغيب رسلاً يتوفونهم موتاً وفوتاً من الدنيا، حضرت ساعة المساءلة وقد جاءوا فرادى: أين من كانوا بمزاعمهم الغيبية يحسبونهم أولياء من دون الله؟، قالوا: ضلوا عنا واقعاً، وشهوداً على أنفسهم مقرّين أنهم كانوا كافرين بتوحيد الله آخراً وحسيباً.

والله أمرهم يومئذ بالدخول إلى النار في أمم من الجن والإنس توالوا وتزاوجوا على وجهة واحدة من الكفر، وتلاحقوا اليوم تبعاً خلفاً بعد سلف كتعاقبهم في قرون الحياة الدنيا، كلما دخلت واحدة نقضت أختها السابقة حتى إذا تداركوا في النار جميعاً قالت كل واردة أخرى منهم للأولى: هؤلاء أضلونا أمس قدوة، وسألوا الله أن يؤتهم لذلك عذاباً ضعفاً إذ هم الذين خطوا لهم السنة إلى الجحيم. وجاءهم الجواب أن لكل ضعف يستحفه، ماكسب هو وأدى بنفسه وما أورث مثله أثراً على خلفه،وإن كانوا لا يعلمون إذ يلقون اللوم على السلف ويجهلون أثرهم هم على خلفهم المقلوبين المنقلبين عليهم بذات الملام والدعاء، بينما يقول كل سلف دخل النار أولاً لمن لحقه فيها من خلفه: فما كان لكم علينا من فضل بل اتبعتمونا في الدنيا بغير موعظة ولا تَدَبُر ووصلتم الضلال عبركم إلى مَنْ وراءكم فذوقوا العذاب معنا بما كنتم تكسبون. أولئك جميعاً ممن كانوا يكذبون بآيات الله في الدنيا مستكبرين لا تفتح لهم اليوم أبواب العليا قربـاإلى الله فقد تدلوا بكسبهم في الدنيا ساقطين، ولا فرص مدخل لهم إلى الجنة إلا كمدخل الجمل أو الحبل الغليظ الى سم الخياط، فجريمتهم في الحياة متطابقة جيلاً بعد جيل، استحقوا بها جهنم أطباقاً بين مهاد وغواش، وذلك جزاء الظالمين.

أما الذين آمنوا وعملوا من الصالحات قدرما وسعوا في فتن ضغوط المستكبرين في الدنيا، وذلك مدى التكليف للإنسان، فهم أصحاب الجنة والخلود فيها. وإذا تلاعنت مواكب الأمم المكذبة المتلاحقة في جهنم، فهؤلاء ينزع الله ما في صدورهم من غل إخواناً. وإذا كانت النار لأولئك مهاداً، فهولاء تجري من تحتهم الأنهار. وإذا غشيت أولئك غواشي العذاب فهؤلاء عليهم سكينة يعلنون الحمد لله الذي هداهم لهذا وما كانوا ليهتدوا لولاه تعالى، مطمئنة قلوبهم أن ها قد حق ماجاءتهم به الرسل في الدنيا. ونادتهم الملائكة – لا زجراً كأهل النار بل سلاماً – أن تلكم الجنة التي أورثتموها عاقبة بما كنتم تعملون.

وعلى تباين الأحوال بين النار والجنة، يتجاوز ويتناظر أهلها في ظرف قد انحسر فيه المكان أفقاً ورأساً حتى يبين الفرقان بين هؤلاء وأولئك ويزداد السعداء سعداً والأشقياء شقاءً بالمقارنة القريبة المشهودة. ويتخاطبان، نادى أصحاب الجنة فرحين أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً واقعاً فهل وجدتم ما وعد ربكم بعثاً وحساباً حقاً، قالوا في ذلة: نعم، فأذنت بينهم أصوات الملأ الأعلى أن لعنة الله على الظالمين. وقام بينهما حجاب يمايزهم فلا يختلطون أو يتداخلون. وعلى الأعراف العالية فوق الحجاب يقوم رجال هم رسل البلاغ في الدنيا يقومون شهوداً على أداء أمانتهم نحوهم، ويعرفون كلاً في يوم تنشأ فيه ظواهر الأجساد والوجود للبشر متشابهة صورة واحدة لكن تتراءى تتمايز السمات والصفات للأرواح البواطن. خاطب الرجالُ الرسلُ أولاً: من عرفوهم كذلك أصحاب الجنة فنادوهم نداء الإيمان النعيم أن سلام عليكم يبشرونهم طمأنينة ولما يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون، وإذا صرفت أبصارهم تلقاء من عرفوهم بسيماهم مساقين للنار قالوا لهم ما أغنى عنكم اليوم جمعكم أمس في الدنيا وإن كنتم الأكثر والأغلب ولا ما كنتم تستكبرون، إذ عهدتم احتكار الدرجة الكبرى في مجتمع الدنيا، وزادوهم حزناً إذ لفتوا أنظارهم إلى الذاهبين الى الجنة وسألوهم هل هؤلاء الذين أقسمتم أمس لا ينالهم الله برحمة لأنكم بزعمكم أنتم الأجدر كسباً في الآخرة مثل الدنيا بأيما عطاء يمنّ به الله. ذلك بينما بشروا وأشاروا إلى أهل الجنة أن ادخلوها لا خوف عليكم من النار ولا أنتم تحزنون من فوات الدنيا التي لم تنالوا فيها الحظ الأوفر.

ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، سؤالاً جزاءً وفاقاً لما كانوا يخاطبونهم به في الدنيا حيث كانوا أولى أن يفيضوا هم عليهم مدداً وكانوا لهم اليد العليا يسألون. فجاوب أهل الجنة أن الله حرم ذلك على الكافرين. وقد كان بواحاً في الدنيا فما شكرتم به نعمة بل كفرتم فأصبح اليوم عليكم حراماً لا يبّرد لكم بالماء سعير جهنم ولا يمدكم طعام غير غساق. وكان ذلك حكم الله على الذين اتخذوا دينهم لهواً لا ذكراً ولعباً لا جدّاً في الدنيا وغرتهم عاجلاتها، فاليوم يجزون أن نسيهم الله تعالى برضوانه كما كانوا نسوا هم لقاءه هذا وما كانوا بآيات اليقين يجحدون. ولقد جاءهم الملأ الأعلى من ربهم بكتاب منزلٍ مفصلة آياته على حيثيات علم لا جهالة ومناهج هدىً لا ضلالة ودواعي رحمة لا غضب من الله لقوم مؤمنين، فما كانوا منهم بل كانوا يرجئون تصديق الكتاب حتى يقع تأويله وتأتي آجاله ونذيره بالآخرة التي يكذبون، ويوم يأتي تأويله – يقول أولئك الغافلون النساة: الآن صدق أنه قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا اليوم من شفعاء ممن كنا في الدنيا نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى؟ أو هل نردّ إلى الدنيا وقد عرفنا الحق تجربة واقع لا نبأ غيب فنفعل غير الذي كنا نفعل؟ كلا، قد خسروا أنفسهم عن بينة وضل عنهم ما كانوا يفترون من أولياء شفعاء.

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (52)

وصلاً لمشاهد القيامة ومصير أهل النار الى ذكر الى الكتاب الذي أنزل نذارة وذكرى كما في أوائل السورة، إلى أولئك الكافرين اللاهين اللاعبين المغترين بالدنيا، لقد جاءهم الله وعالم الوحي برسالة إنذار، هي كتاب مفصل دقيق على علم لأنه من الله العالم بحقائق الإنسان والوجود، وهو هدىً إلى صراط مستقيم ورحمة وتعطفاً وعوناً وبركة لقوم يؤمنون — لأيما جماعة قوام حياتها الإيمان بالله وكتابه لا يكفرون ولا يفترون على الله بغير علم، ولا يَضِلُون بغير هدى أو يستكبرون بغير رحمة من الله. فمشاهد القيامة موصولة إلى نزول الكتاب لأن المصائر التي حملتها هي مآلات المواقف في الدنيا إيماناً وهدىً ورحمة أو كفراً وضلالاً واستكباراً.

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) (53)

السؤال لأولئك الذين جاءهم كتاب مفصل بعلم من الله فلم يؤمنوا لينالوا الهدى والرحمة هل ينظرون إلا تصديقاً مآلات نذره ومغازى هديه يوم يأتي هذا الكتاب إلى مآلاته الخاتمة يوم القيامة؟ ويومئذ هو يوم المشاهد للمصائر يؤول إليه الكافرون حيث لا هدى ولا رحمة لهم في الجنة بل مهاد وغواش من جهنم.

وقد فصلت آيات الكتاب المآل والمصير في مشاهد أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الأعراف، فالذين نسوا لقاء يومهم ذاك من قبل فلم يؤمنوا به واتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرة بالدنيا من الذين ينساهم الله يومئذ من رحمته، يعترفون بأن رسل ربهم قد جاءتهم بالوعيد الحق ونسوه وجحدوه.

ولكنهم كما بحثوا عن الماء والرزق يوم القيامة وهو عليهم محرم يبحثون عن الشفعاء قرناء أقرب إلى الله يلتمسون منهم أن يتلقوا منه تعالى النجاة لهم من سوء المصير، أو يطلبون بعد أن رأوا عيانًا هذا المصير أن يردوا إلى الدنيا فيؤمنوا ويهتدوا ويحسنوا العمل غير ماكانوا يعملون حتى يدخلوا الجنة، فهم على نقيض أهل الايمان في خوف وحزن قد خسروا أنفسهم اذ ظلموا بالشرك وضل عنهم افتراؤهم بأن المستكبرين يفوزون في الدنيا والآخرة فطفقوا الأن يبحثون عن الشفعاء أو الارتداد إلى الدنيا. وكله ضلال إذ لا سبيل إِليه يوم القيامة.

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (54)

كما وصل الذكر السياق في السورة منذ خلق أصل الإنسان (الآية 11) وآيات الله التي تتنزل له في الكتاب مقصوصة مفصلة (الآيات 35 ، 52) والآجال المقدرة لحياة الإنسان ولتأويل الكتاب يحيا الإنسان في ابتلاء ويموت ويخرج (الآية 24 ومابعدها) ومهلك القرى والأمم لأجل لا يستقدم ولا

يستأخر (الآيات 4 ، 34) واجل القيامة يوم يأتي تأويل الكتاب (الآية السابقة)، كما خاطبه الذكر – لبني الإنسان – سياقاً بذلك يعود في هذه الآية ليذكرهم بأصل الكون وخلقه مراحل وآجال دورة فيه وآيات لله الخالق الآمر المتبارك، مخاطباً في ذلك الناس كافة.

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أطوار متتالية في طورين تهيأت من دخان الكون سبع سماوات وتمايزت نجوم السماء الدنيا، وفي طورين خلقت الأرض انعتاقا من السماء، وفي طورين تجمدت وبوركت فيها أسباب الحياة للإنسان (سورة فصلت الآيات 9 ، 10 ، 11) ثم استوى على العرش — قوة الملكوت — باسطاً سننه وقوانينه سلطانا على الوجود المخلوق. فبأمره وتسخيره وحكمته تعاقب الليل والنهار في يوم دورة حول الأرض، ظلام الفضاء ليل يغشاه ضوء النهار يطلبه حثيثاً – تجلياً مسرعاً متصلاً يلاحق الظلام أمامه ليسري ظلام الليل وراءه.

ومن وراء ظاهرة تعاقب الليل والنهار حركة الشمس والقمر، وفي الليل تظهر النجوم فكل هذه الأفلاك الجليلة تسير بأمر الله وقوانينه تسخيراً من الله الرب الراعي لأداء وظائفها التي يقوم بها أمر الكون والحياة. ألا له الخلق والإبداع لهذه الموجودات والأمر والتصريف لهذه الحركة الجليلة منذ أول الخلق ومراحله إلى حركة الأفلاك والليل والنهار، آيات الله المتباركة المتضاعفة أبداً فهو رب العالمين. رب هذه العوالم كلها خلقها وأمرها يسخرها ويرعاها ويحفظها.

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (55)

تبارك الله وحده فهو الحقيق بالدعاء دون الشركاء فهو خالق السماوات والأرض أطواراً ومراحل، ومسخر الشمس والقمر والنجوم وآجال حركتها، فالأمر بالدعاء له تضرعاً إظهاراً للتذلل والخشوع وخفية مناجاة لله في ضمير النفس، فهو وحده الجدير بالدعاء جهراً وسراً، وهو لا يحب من اعتدى على حق آيات الله الرسالية والكونية وعلى نفسه فخسر المصائرإذ تضرع وناجى داعياً غير الله باعث الإنسان والمرسلين وخالق الكون والعالمين.

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) (56)

كما قد يعتدي الإنسان في دعائه على آيات الله قد يعتدي في عمله إفساداً في الأرض، كما يفعل المستكبرون في الأرض إذ مَكَّنَّهم في الأرض وجعل لهم فيها معايش وزينة فقليلاً ما يشكرون بل أفحشوا وأسرفوا (الآيات 10 ، 28 ، 31). وكما أمر الله بالقسط إقامة الوجوه وإخلاص الدعاء لله (الآية 29) يوصي هنا لبني الإنسان ألا يفسدوا في الأرض بعد أن أصلحها لهم الله متاعاً، وألا يصرفوا الرجاء والخشية عن الله، بل أن يدعوه خوفاً من غضبه وطمعاً في رحمته، إن رحمة الله قدر قريب من المحسنين بعيد عن المفسدين.

فمن اعتزل فساد العمل أو تاب عنه إلى الإحسان مرتقياً درجات التقوى والصلاح فقد اقترب من رحمة الله تتنزل عليه.

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (57)

وصلاً لآيات الله السابقة ذكرها في الخلق والأمر متباركة مقتضية دعوته غير اعتداء والإحسان في الأرض غير إفساد، ووصلا لذكرٍ سابق من آيات الله التي يتلوها ويقصها المرسلون (الآية 35)، الله هو الذي يرسل الرياح بشرى أو نشراً بين يدي رحمته المتنزلة، فهي بأمره تنبئ بنزول الغيث بشريات من السماء، وهو مصدر الماء المنتشر كله أكبر تجليات رحمة الله للإنسان، وهي تقل تحمل السحاب الثقال المثقل بذرات الماء يسوقه الله سوقاً بأمره إلى بلد ميت جاف لا ماء فيه ولا زرع، فينزل الماء رحمة كما نزلت آيات الله هدى ورحمة على قلب ميت (الآية 52)، فتخرج أقدار الله من تلك الأرض الميتة الحياة أنواعاً من كل الثمرات كما يخرج الإيمان من القلب الميت صنوفاً من الإيمان والإحسان. وكذلك البعث المتجدد أمام مرأى المكذبين حياة بعد موت في الطبيعة يرسل الله نفخة في الصور يخرج بها الموتى أحياء يوم القيامة. مثل البعث في الآخرة سار أمامكم في الدنيا أيها المخاطبون لعلكم تذكرون.

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) (58)

في خاتمة السياقات السابقة تتجدد مشاهد الآخرة ومآلات تأويل الكتاب موصولة بمواقف المكذبين والمؤمنين في الدنيا، وتترابط آيات الله في كتاب الوحي بسنن آيات الله في كتاب الطبيعة. والآية الخاتمة للسياق هنا تضرب مثلاً للمؤمنين والمكذبين من ناموس الطبيعة الماثل أمامهم جميعاً كما في الآية السابقة مباشرة. فالبلد الطيب الذي يسوق الله له السحاب الثقال يستجيب لما أنزل من الغيث فيخرج نباته طيباً بإذن ربه الذي خلقه ورعاه وفقاً لسنته في الكون والطبيعة، أما البلد الخبيث فلا يجدي معه الماء الكثير بل يغور قيعاناً لا تخرج إلا نكداً لا هناء فيه ولا ثمار، وكما يأتي المؤمن بعمله يوم القيامة فيخرج الثمار الكثيرة في الجنة يأتي الكافر بعمله فلا يخرج الا النار له فيها مهاد وغواش. كذلك بهذه الأمثلة الواضحة القارعة يصرف الله الآيات: يخرجها من الدنيا إلى الآخرة ومن كتاب الوحي إلى كتاب الكون فيخرج بتصريفه المعاني الجليلة التي تنفع القلوب المؤمنة، لقوم يشكرون لله الذي خلقهم وصورهم ومكنهم في الأرض وأعاشهم.

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (59)

كما يُصرّفُ الله – سبحانه – الآيات المنزلة وحياً تقص على الناس مشاهد الآخرة ومشاهد الكون وعبر تاريخ القرى المنذرة الهالكة (الآية 4)، وقصة آدم أول المرسلين (الآيات 11 –27) وسؤال المرسلين أصحاب الأعراف (الآيات 46 –49) وكما يخلف الله ويصرف آيات الكون (الآية 54) وفي الآية السابقة آيات الرياح المرسلة لتحيي الأرض بما تنزل من البركات للأرض الطيبة –كذلك – وكله تمهيد

إرسال نوح الذي تذكره الآية مرسلاً من ملإ الله الأعلى يدعو قومه بدعوة الرسل كافة عبادة لله الواحد لاشريك له، وينادي قومه بخطاب مشفق وقد غلب وتَمَكَّن فيهم الشرك أن يستجيبوا لداعي الله وينبذوا كل إله غيره وينذرهم بخوفه عليهم من عذاب يوم القيامة اليوم العظيم بأهواله.

(قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (60)

الملأ المستكبر الذين امتلأوا سلطاناً وجاهاً من أشراف قوم نوح (س)، رجالاً ممن يعرفهم على الأعراف الرسل في ساحة الحكم يوم القيامة بسيماهم ويسألونهم هل أغنى عنهم جمعهم واستكبارهم عن الحق — أولئك الملأ لم يروا نوحاً (س) في الدنيا وهو يدعو إلى الهدى وأصول الدين توحيداً لله وإنذاراً من عذاب الآخرة العظيم إلا ضالاً ضلالاً واضحاً عن دينهم وتقاليدهم الباطلة.

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) (61)

جاوب نوح قومه مودة وقربى (يا قوم) أن ليس به ولا ضلالة واحدة فيما يدعوهم إليه من عبادة الله، بل هو رسول حق من رب العالمين ربهم ورب العوالم كلها الذي خلقها وصورها ورعاها.

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (62)

أبلغكم وتصلكم مني رسالات ربي ليست مفتراة من عندي. وهي جملة رسالات من الله وكتبه يحملها الأنبياء والرسل – بعد نوح – تصريفاً للمعاني الكثيرة وتعاقباً عبر الأزمان ولكنها جميعاً رسالة واحدة الأصول.

ويشهدهم أنه ناصح لهم مخلص في بلاغه يريد لهم الهدى والنجاة نقيض الضلال الذي رموه به، وأنه مبعوث بعلم من الله لا يعلمونه استغناءً بمصدر آخر.

(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (63)

نوح عليه السلام يسائل قومه مستنكراً عجبهم وريبهم فيما جاءهم من ذكر من ربهم الذي خلقهم وصورهم وتعهدهم بالرعاية، أن جاءهم ذكر الهدى رسالة أنزلت على رجل منهم ولم يجئ به رسول من خارج نسق الطبيعة البشرية ملك أو غيره كما ينتظر المكذبون وتذهب ظنونهم، رجل يبلغكم ذكر الله ينذركم عاقبة عذاب هلاك عاجل أو يوم عظيم أن تعبدوا غير الله، ولتستجيبوا للنذارة فتتبعوا ذلك توحيداً لله ولعلكم بذلك تنالون رحمة الله في الحياة الأولى والآخرة.

(فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ) (64)

خاتمة قصة نوح وعاقبة سيرة قومه أنه دعاهم فكذبوه واستكبروا على الحق الذي جاء به فأنجته أقدار الله والذين آمنوا معه في الفلك وحق على سائر قومه الذين كذبوا بآيات الله وعيد النذير فغرقوا في الماء الذي

فاض عليهم بأمر الله فغمرهم جميعاً. ذلك أنهم كانوا قوماً عمين، غرقوا في ظلمات البحر كما غرقوا من قبل في عمى الضلالة والاستكبار وحجبوا قلوبهم عن رؤية الحق.

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) (65)

(الواو) لوصل قصة عاد إخوان هود إلى قصة قوم نوح، وهوداً أرسله الله بأقداره عطفاً عقب نوح، فهم أنبياء المنطقة الوسطى في العالم الموصولة إلى بعضها تراثاً وقربى. وقد بُعث هود إلى عاد في جنوب الجزيرة العربية وهي ذات بيئة الوحي القرآني المتنزل بالعبر التاريخية القريبة من حول المكذبين المخاطبين بآيات الوحي وآيات الكون. وصفة (إخاء) هود لعاد لأنهم كانوا جماعة متقاربة بينما كان لنوح (قوم) أكثر عدداً وأعمر حياة قائمة.

ودعوة هود مثل دعوة نوح لقومه العبادة لله وحده لا شريك له وما لهم من إله غيره مما عهد سلفهم وسألهم تَرجِّياً: أفلا تتقون الإشراك فتتقون نذير عواقبه من غضب الله.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (66)

في خطاب عاد ذات مواقف التكذيب والكفر بالأنبياء التي سبقت. فبعد آية بلاغ الرسالة مباشرة آية الملأ من الأشراف والرؤساء بسلطانه وماله من قوم هود الذين كفروا به وجوابهم لدعوته أنهم يتهمونه بالسفاهة إذ يرون في دعوته لله الواحد القهار دون آلهتهم سفة قلة عقل، وأنهم يظنونه من الكاذبين إذ يرون في موعظته بالتقوى وعواقبها من أحاديث المفترين.

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) (67)

هود يجاوب قومه منادياً منتسباً إليهم ينفي عن نفسه أيَّما سفاهة كما نفى نوح عن نفسه الاتهام بضلاله، ويدفع أمامهم إنما هو رسول من الرب الخالق الراعي لكل عوالم الكون الظاهرة والمستترة.

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) (68)

ويشرح هود لقومه تكليفه —كما شرح نوح — أنه تبليغ للرسالات من ربه الذي بعثه بها جميعاً، وأنه هو لهم ناصح مخلص أمين في أداء الرسالة بلا سفه ولا كذب.

(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (69)

قوم عاد على ذات الظن الضال الذي ينتظر الرسالة من الله عبر وسيط من غير عالم البشر، فهم يعجبون من رجل منهم يحمل التكليف. وخطاب هود ذات خطاب نوح: أو عجبتم — إضافة إلى التسفيه والتكذيب — أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم لأول خطاب الدعوة إنذاراً من عذاب الله في الدنيا والآخرة إذا كفرتم وأشركتم بالله، ثم يذكرهم بعبرة السلف وبنعم الله عليهم، فقد جاءوا بعد هلاك قوم نوح خلفاء لهم في ذات المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، وقد وسع الله الرزق

فزادهم بسطة في الخلق عظماً في الجسم. فالخطاب يتواصل من الرسول ليذكروا كل هذه الآلاء النعم في الخلق والرزق ويتوبوا إلى الله فهي عبرٌ هاديةٌ لفلاحهم في الدنيا والأخرى.

(قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (70)

قوم هود يردون على دعوة النبي للتوحيد ويجادلونه استنكاراً: أجئتنا لنعبد الله وحده كما تدعونا ونذر تركاً آلهة آبائنا، وهم بذلك يصرون على العصبية السلفية بغير تجدد نحو الهدى، وعلى الكفر استكباراً، ويتحدَّوْن النذير أن يعجل بوعيد العذاب عليهم إن كان من الصادقين فإنما هو متهم عندهم بالكذب.

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) (71)

هود يخبر قومه أن قد وقع حلَّ عليهم رجسٌ شنيعُ عذابٍ غضباً من ربهم إذ تحدوا نذيره واستعجلوه، وكيف يجادلون النبي جدال استنكار واستكبار وتحدٍ بذكر أسماء من الآلهة سمَّوْها بثقافتهم و بتقاليد أسلافهم واستمسكوا بها عصبية ولم تجيء بعلم رسالة ووحي سلطاناً وحجة منزلة من الله. ولئن ذكرهم الرسول هود بالآلاء والعبر من سلف الأنبياء الموحدين وأقوامهم، فكفروا واستعجلوا النذر واتهموه بالكذب، فإن الرسول لا يستعجل العذاب ولا المصائر وإنما يدعوهم أن ينتظروا الأقدار ولا يضيقوا به، فإنه معه من المنتظرين يصبر منتظراً عواقب أمر الله فيهم وفيه جميعاً.

(فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ) (72)

حقّت البشارة للمؤمنين فأنجى الله –سبحانه– أخرج هوداً ومعه الفئة المؤمنة القليلة برحمته التي تباركت عليهم بإيمانهم، ووقعت النذارة على الذين كذبوا بآيات الله وأقداره، فأرسل عليهم صاعقة ريح عقيم قارعة فانقطع دابرهم أُهلكوا عن أخرهم فما بقيت منهم باقية، وما كانوا مؤمنين بل مكذبين للحق الواضح المبين.

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (73)

السياق في قصة الأنبياء موصول كصلة الرسالات والأماكن والعبر، فقد جاء إلى ثمود في أرضهم المتوسطة بين العراق والشام أخوهم النبي صالح، الذي يقترب باسمه واسم قومه إلى لغة العرب التي نزل بها القرآن فهو أقرب إليهم زماناً ومكاناً، جاء يناديهم ويدعوهم بذات دعوة التوحيد الواحدة منذ نوح: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

وقد بعث الله معه بينة واضحة من ربهم أشهدهم عليها النبي صالح: وهذه ناقة الله آية، جعلها الله آيةً ابتلاءٍ لهم، وهي من نوع أنعامهم لكن ليدعوها تأكل في أرض الله من المراعي التي أخرجها الله، فليس على قوم صالح رزقها وإنما عليهم ألا يمسوها بسوء اعتداء، آية نذير من أن يقع عليهم عاجلاً ويأخذهم حسماً عذاب أليم.

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (74)

النبي صالح يذكر قومه بنعم الله عليهم وليتأملوا أخبار التاريخ التي يعرفونها من حولهم، أن مَكّنهم وجعلهم خلفاء من بعد عاد التي أهلكها الله وقطع دابرها، وأنعم عليهم إذ بوأهم منازل في أرضَ سهول منبسطة أكثر مما عند عاد في جبال، فاتخذوا من ساحاتها مواقع لقصور في مواسم الصيف وأحيطت السهول المنبسطة بجبال نحتوا عليها الغرف بيوتاً دافئة واقية في مواسم برد الشتاء.

فكلها آلاء ونعم من الله جديرة بأن تذكرهم. وينهاهم النبي بعد التذكير ألا يعثوا في الأرض إنبثاثاً وتجوالاً من دارتهم إلى أرض الجزيرة العربية الواسعة من حولهم بفساد العبادة وفساد العلاقات والمعاملات، فالنعم موجبة للسعي بين الناس بدعوة الإيمان والشكر وليس السعي بينهم بالفساد.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) (75)

وكان تجاوب قوم صالح مع تلك الرسالة أن قال الملأ الشرفاء والرؤساء الذين استكبروا علواً في المجتمع وطغياناً يسألون المؤمنين مع صالح من الفئة المستضعفة: هل تعتقدون في علمكم أن صالحاً مرسل من ربه بما يدعونا إليه؟ فأجاب المستضعفون: أن نعم نحن مصدقون مؤمنون برسالته التي جاء بها من ربنا.

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (76)

المستكبرون لا يرون أن الذي يشبه هؤلاء المستضعفين ويؤمنون به يليق بهم وهم الطبقة الأعلى الأشرف ويردون على المؤمنين: إنا كافرون بالذي آمنتم به فلا يجمع شيء بيننا وبين أهل الوضاعة.

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (77)

وصدقوا كفرهم عملاً فأرسلوا أشقاهم ليعقر الناقة نحراً عتواً عن أمر ربهم واستكباراً واستعلاءً بالباطل على الحق الذي أنزله الرب الخالق الرازق الناهي الآمر. ولما عتوا على آية الله دعوا رسولهم صالح يتعمدونه أن يأتيهم بما يعدهم من عاقبتهم مسهم بالسوء الناقة، إن كان حقاً مرسلاً من الله و كانت الناقة آية يحميها نذيره.

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (78)

بعد الكفر والعتو وعقر الناقة الآية واستعجال النذير أخذتهم الرجفة – ضربهم الزلزال الذي ارتجت له أرضهم رجة صرعتهم إذ طغت على قصورهم فأصبحوا أجساداً جاثمة ملقاة في دارهم بعد أن استكبروا على الركوع خضوعاً لله وكفروا بالرسالة، ونجى الله صالحاً والذين آمنوا معه المستضعفين غير سكان القصور الهائرة.

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) (79)

فتولى الرسول صالح ومن آمن معه عن قومه الهالكين، فقد انحسم أمر الدعوة والبلاغ وحلت النذارة والعذاب، وعلم الرسول أن لا معاد لهم أن يؤمنوا فخاطبهم أثراً: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي الواحد وأطلقتُ فيكم الناقة آية بينة، ونصحت لكم بالحق والنذير وذكر آلاءالله واتقاء العثو في الأرض، ولكنكم كنتم مستكبرين لا تحبون الناصحين ما دعوكم لترك أهوائكم، فكفرتم وعتوتم عن أمر الله، وجاءكم وعيد الهلاك.

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ) (80)

ولوط في ذات المنطقة من آل إبراهيم (س)، آمن به وهاجر معه، ثم بعثه الله برسالة خاصة إلى قومه أن آمنوا بالله ودعوا فاحشة اللواط التي استشرت فيهم غير معهودة في الأمم السالفة قبلهم، منكراً حقيقاً أن يستنكر عليه الرسول: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين؟

(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) (81)

الرسول يستمر مستنكراً فاحشة قومه: هل حقاً تأتون الذكور بشهوة دون الإناث، بل أنتم شاذون في ذلك مسرفون تجاوزاً شديداً لجبلة الإنسان الزوجية وسيرة البشرية.

(وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) (82)

ما كان الجواب ولا جاء الرد من قوم لوط إلا مجانبةً وسخريةً على الفئة القليلة التي آمنت مع لوط كما آمنت فئة قليلة مع كل رسول سبق: أن أخرجوا من قريتكم هؤلاء الذين يَدَّعون تطهراً تنزهاً عما تفعلون، تأميناً للعرف القومي وعقاباً على دعوتهم.

(فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) (83)

أنجى الله — سبحانه — لوطاً وأهله من العذاب الذي حل بقومه كما أنجى سابق النبيين من الهلاك، لكن امرأة هي زوجته لم تكن من المؤمنين الناجين، بل غبرها الله – أمضاها سبيل الهلاك مع قومها الغابرين، إذ لم يخشع قلبها لدعوة زوجها إلى التوحيد، بل ورطت مع قومها في العيش مع عرف الفاحشة.

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (84)

أمطر الله على قرى قوم لوط مطر العذاب، زلزالاً تنهمر عليهم الحجارة بعد أن أخرج الله لوطاً وأهله بالإيمان، والخطاب للرسول محمد (ص) ولسامع القرآن من قومه أن ينظر في عواقب المجرمين، كيف كانت كما تدل آثارها القريبة على طريق الشمال في حركة أمة الخطاب الأولى، وأن يتأمل الناظر العبرة في مصير المكذبين الرسول المصرين على الامتياز بتلك الجريمة الخلقية.

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (85)

وكذلك بعث الله نبيه شعيباً إلى قبيلة مدين، التي سكنت ناحية العقبة في البحر الأحمر، فهو أخاهم ينادي قومه ويرجو لهم الإيمان والهدى، يدعوهم إلي عبادة التوحيد لله ما لهم من إله غيره وذلك على نهج أسلافه الأنبياء، ويذكرهم أن قد جاءتهم بينة هدى ورسالة من ربهم. فهو يدعوهم إلي التقوى في مجتمع التجارة والبيع والشراء وبلاءاته وعلله، بأن يوفوا الكيل في المكيالات ليُكْمَل مضبوطاً إلى مقداره، ويوفوا الميزان توخياً حازماً لمعايير العدل في الموزونات، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، نقصاً لحقوقهم أمانة أو عهداً أو غشاً في المعاوضات، وألا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها فتضطرب المصالح القائمة في الأوضاع والمعاملات بين الناس بالمفاسد ينشرونها في أرض مجتمع الناس، ويذكرهم أن في تحري العدل والضبط والمصلحة خير لمجتمعهم، إن آمنوا حقاً بالله العادل القائم بالقسط والصلاح.

(وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (86)

وكما دعا شعيب قومه أن يفوا بمكيال العدل وميزانه وألا يبخسوا الناس أشياءهم ظلماً في تجارتهم وألا يفسدوا مصالح المجتمع، يذكرهم أن يبيحوا للمرء مشيئته في الإيمان والاستقامة، أن لا تقعدوا بكل صراط أو مسلك للحياة تترصدون المؤمنين لتقطعوا عليهم طريق العبادة والاستجابة للدعوة، وترهبوهم بالوعيد صداً عن سبيل الله، يبغون ما استوى واستقام في سيرة الحياة عوجاً ينصرف وينحرف إلى الكفر والظلم والفساد.

والخطاب من شعيب يمضي ويذكرهم بنعمة الله إذ كانوا عدداً قليلاً فما صَدَّ الله –سبحانه – ولا عوَّق مسيرة حياتهم، بل بسط عليهم رزقه وعافيته حتى كثر عددهم ازدياداً في الأعمار والأولاد، ويذكرهم بعبرة التاريخ المحيط بهم من حولهم كيف كان عاقبة المفسدين الذين أفسدوا ما أصلح الله فصاروا إلى مهلك، منذ قوم نوح إلى قوم لوط.

(وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (87)

شعيب يدعوا قومه إلى الاحتكام إلى المعيار العدل تأصيلاً لحق الإنسان في المشيئة الحرة، فإن كان طائفة فئة من قومه آمنوا بالذي جاء به رسالة توحيد من الله، وبقيت طائفة فئة أخري لا يؤمنون، فليصبروا كل على شاكلة ما يؤمن به ويعمل به ويدعو إليه حتى يحكم الله بينهم ويفصل، لكل حظه المستقبل قدراً له أو عليه، ويذكرهم بأن الله هو خير الحاكمين – فهو سبحانه القائم بالحق والعدل والقسط بين مصائر الناس.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ) (88)

الملأ من قوم شعيب الذين استكبروا على أن يستجيبوا للرسالة وبيناتها وعلى عدل المعاملات وعلى حقوق الناس ومصالحهم وعلى حرية مسير الناس ومصيرهم وخيارهم في الإيمان فحكم الله فيهم — قابل أولئك دعوة شعيب للحرية بأشد الصد إنذاراً بالإخراج والتهجير لشعيب والذين آمنوا معه من قريتهم، محل سلطتهم دون حرية لأحد فلا خيار لشعيب والذين آمنوا معه سوى ذلك، أو عليهم العودة إلى ملة الكفر للمستكبرين. لكن شعيباً يستنكر جبرهم على ذلك الارتداد ولو كانوا كارهين مفارقين.

(قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) (89)

شعيب يرد على حملة الإكراه من قومه بتأكيد ثباته ومن معه على الحق، فلئن عادوا إلى ملة الكفر قد افتروا اختلقوا على الله كذباً شركاء من دونه، وما يكون لهم أن يفعلوا ذلك بعد أن نجاهم الله من ملة الإشراك إلى التوحيد، ولن يكون لهم أن يرتدوا إلا أن تقضي فيهم بذلك مشيئة ربهم الله التي لا ترد: ربنا قد وسع علماً كل شيء، من حالنا تحت وطأة المستكبرين يقطعون سبيلنا إرهاباً وينذرونا بالنفي أو الردة إلى ملتهم، ولكن توكلنا على الله مصابرة على الإكراه وثباتاً على الإيمان دون عودة نفاق إلى ملة الكفر.

وفي ظروف الإكراه والطغيان يدعو شعيب ربه — سبحانه – أن يفتح بينه ومن معه من المؤمنين الصابرين وبين قومه بالحق، إيواءً بغير إخراج ونصراً مبيناً. والله خير فاتح فإنه خير الحاكمين (كما في ذيل الآية السابقة) بحكمته المائزة وحكمه الفاصلة في تقرير المصائر والأقدار فتحاً بالحق للمؤمنين.

(وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ) (90)

وقال الملأ الذين أفضى بهم الاستكبار إلى الكفر، وقد بدءوا حملة التعبئة ضد شعيب ورسالته ومن آمن معه، لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون – يتوعدون من يمضي مع شعيب بالخسران إخراجاً من أرضه أو قتلاً بغير حق.

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (91)

حكم الله بعذابه على قوم شعيب فأخذتهم الرجفة زلزالاً ضربهم كما ضرب ثموداً قوم صالح، فأصبحوا في منازلهم التي أرادوا إخراج المؤمنين منها، أجساداً جاثمة ملقاة وقد هارت ديارهم وذهب عنهم استكبارهم وطغيانهم وصاروا هالكين.

(الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ) (92)

الذين كذبوا شعيباً تحولت نعماء دارهم لتكذيب الرسالة كأن لم يغنوا فيها إقامة سراء واستقرار بعد أن كانوا قليلاً فكثرهم الله، الذين كذبوا شعيباً رغم العبر حولهم من مصائر مكذبة المرسلين ورغم تهديدهم لشعيب ومن تبعه أنهم إلى خسران —كانوا هم الخاسرين لا الذين آمنوا فنجوا من العذاب ومن نذير الخسار بل حل بهم هم المكذبين الخاسرين.

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ) (93)

فتولى شعيب عن قومه بتركهم إلى مصيرهم كما تولى صالح من قبل بعد أن حق عليهم العذاب يخاطب آثارهم: انه لم يتوان عن بلاغ رسالات الله كاملة وقد نصح لهم بشارة ونذارة مخلصاً، ولا يرثيهم فكيف يأسى على قوم كافرين بل إنه يدفع عن نفسه أي أسىً عليهم مهما تذكر غناهم وكثرتهم وحسن إقامتهم فإن الذي يكذب رسالات الله ويكفر بها ويصير إلى الخسران لا يتحسر عليه المؤمن آسىً.

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) (94)

وكما سبق إجمالاً لعبرة سيرة الأنبياء عبر القرى التي ذكرتها الآيات الموصولة في السياق عبرة عامة، ما أرسل الله بأقداره في قرية من نبي برسالة وبينة إلا ابتلاها أخذاً لأهلها البأساء المصيبة شديدة الوقع بقوتها أو الضراء بالغة الضر بأذاها تسوء فيها أحوالهم، لعلهم وعسى أن يتذكروا ربهم في ساعة العسرة فيتضرعوا ضراعة استغاثة مثابة للإيمان بالله وبرسله.

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) (95)

عبرةً بسير الأنبياء يقلب الله وجوه الابتلاء على أقوام الرسل حتى يقبلوا على الإيمان من السبل كافة فسحة وفرصة لهم، فكم أخذتهم البأساء والضراء ثم من بعد بدلت أقدار الله الحال السيئة إلى الحسنة الطيبة، حتى عفوا –كثر فيهم الثراء والعدد لكنهم ظنوا أن تقلب الأحوال سنة طبيعية في التاريخ سمعوها أو رأوها حدثت لآبائهم من قبلهم، ولم يدركوا فيها ابتلاء إيمان وكفر ولا موعظة هدىً وضلال، فأخذتهم الأقدار بغتة وأوقع الله عليهم العذاب فجاءة وهم لا يشعرون بالنذر جزاءً وفاقاً للغفلة عن التضرع والتذكر والمتاب إلى الله وإلى رسالته.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) (96)

ولو أن أهل القرى التي جاءت قصصها تباعاً اختاروا الإيمان بالله ورسله وآياته وصدقوا إيمانهم بضوابط التقوى، لفتح الله عليهم بأقداره بركات من السماء والأرض، وساق الله لهم سحاباً ثقالاً بعد بشرى الرياح وغيثاً مضاعفاً من السماء وأخرج لهم من الأرض كل الثمرات أو الركاز ولطابت قراهم، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه (الآية 58)، ولكنهم كذبوا الرسل والإيمان ولم يتقوا فأخذهم الله بأقداره بغتة بما كسبت قلوبهم استكباراً وبما كسبت ألسنتهم افتراءً وبما كسبت أيديهم فساداً.

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ) (97)

السؤال يستنكر على أهل القرى التي قَلَّبَ الله عليها وجوه الابتلاء: أفأمنوا مطمئنين أن يأيتهم بأس الله وعذابه بعد تكذيبهم وغفلتهم المستمرة – بياتاً وهم يستغرقون في النوم اطمئناناً بالليل.

(أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًّى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (98)

السؤال يتواصل استنكاراً على المكذبين من أهل القرى: أوأمنوا أيضاً أن يأتيهم بأس الله ساطعاً وهم يلعبون في لهو لا يجديهم عن أمر الله. وكم من قرية أهلكتها أقدار الله فجاءها البأس بياتاً أو هم قائلون(الآية 4)

(أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (99)

الفاء وصل وترتيب لمعنى الآية إلى السابقتين مباشرة وتحمله إلى عبرة أهل القرى الذين كذبوا فأخذهم الله بما كسبوا، إذ أمِنوا منخدعين بتقلب الابتلاءات وحسبوها قدراً راتباً وطوارئ معهودة منذ السلف ولم تزدهم السراء أو الضراء إلا كفراً واستكباراً. والسؤال في الآية يستنكر عليهم أفأمنوا مكر الله – استدراجه لهم دون العاقبة بالنعمة أو النغمة وبالطمأنينة نائمين ليلاً أو لاعبين ضحى، أغفلوا عنه أنه ابتلاء فما تذكروا الحمد لله أو الاستغاثة والحذر من أقدار بأسه؟ فلا يأمن مكر الله وينخدع غافلاً عن العبر ويسدر مستكبراً – لا يأمن غير مبالٍ إلا القوم الخاسرون، في الدنيا يأتيهم البأس وفي الأخرة ينتظروهم العذاب.

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ) (100)

جملة العبر من القصص لمن كانوا يتوارثون الأرض من تلك القرى السابقة التي كان يذكرهم بعبرها أنبياؤهم، وللمخاطبين مباشرة بالقرآن في بيئة التنزيل العربية الجاهلية التي ورثت الأرض بعد أهلها الأولين، والذين لم يعتبروا بل كذبوا رسالة محمد (ص) الداعي لما دعا له الأنبياء من قبله كافة، ولكل من يتلون القرآن ويرثون الأرض من أهلها من الأمم الهالكة، أو لم يهد ويتبين لهم من تلك العبر أن لو شاء الله بأقداره في تقرير المصائر لأصابهم هم أيضاً.ولأوقع عليهم الهلاك بذنوب تكذيبهم وكفرهم كما مضت سنة الأولين، وإن الله بسننه يملي إن لم يعجل العذاب ويطبع على قلوب الخلف الغافلين المتصاممين لايسمعون أخبار مصارع الغابرين سمعاً يتجاوز طبلة الأذن إلى القلب المتلقي الوقع النابض بالأثر، سمع المعتبرين.

عموم المعاني

الآيات (54 – 102)

يصل الله خلقه وأمره للإنسان بالكون. فكما خلق الله آدم وحواء وصورهما لأول العهد في الجنة، وكما صَرَّف الله في الدنيا آجال الحياة والموت لكل بني آدم وللهلاك بعد النذير لقرىً كثيرة، وسمى أجلاً عنده ليوم القيامة إذ يبعث الله البشر جميعاً تأويلاً لوعد الرسالات المنظور، فربُّ بني الإنسان هو الذي أيضا خلق السموات والأرض لآجال وأيام ثم استوى متمكناً من تصريف ذلك الكون وجعل للشمس نظامها والأرض والقمر دائرين نوراً وظلاماً والنجوم في السماوات الدنيا — كل الأفلاك مُصوَّرة مُكوَّرة متحركة دوراناً وأجلاً، وذلك بأمره تعالى المتبارك، مسخراً حول الإنسان الذي ينبغي لذلك أن يخلص الدعاء له سبحانه تضرعاً ومناجاةً وخوفاً وطمعاً نحوالله وحده مصرف المقادير سخرها له في الحياة، وألا يعتدى بتصوراته أو تصرفاته على نظام الوجود ولا يفسد في الأرض فاحشاً أو آثماً أو باغياً بل يستقيم محسناً وفاقاً مع أمر الله وقربى من رحمته.

ويصل الله آياته الطبيعية بآيات الرسالة. فكما أرسل الله النبي الخاتم بكتاب نذيراً للناس وبشيراً للمؤمنين، وسائر المرسلين من قبله يقصون آيات الله لمن يتقي ويصلح أو يكذب ويستكبر، يرسل الله في الكون حول الإنسان الرياح بشرى بين يدي رحمته تحمل سحاباً ثقالا – كالقول الثقيل الذي – تحمله الرسالات، تسوقه إلى بلد مَيِّت — كأمة الخطاب الميتة، وينزل بها الماء — كرحمة الهدى، فيخرج بها من كل الثمرات — كما يخرج الأمة المستجيبة صالحة الأعمال. وكذلك يخرج الله الموتى بعثاً يوم القيامة، لو تذكر الناس بآيات الله في الدنيا. والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه — كبني آدم الذي تغذيه فطرة حية تنبت تقوى، والذي خبث — بلداً أو أصلاً، لا يخرج إلا نكداً. كذلك يصرف الله الآياتِ لقوم يشكرون.

لقد أرسل الله كذلك نوحاً على رأس سُنةٍ من سيرة الأنبياء، كلهم كانوا يدعون أقوامهم إلى عبادة التوحيد لله وينذرونهم عواقب الآخرة. وكان المستملئون قوةً وجاهاً والمستكبرون من أمم الخطاب يقومون في وجه كل رسالة، فتنةً بمتاع الدنيا غيرةً على حظوظهم رغبة في النظام القائم الظالم أو رهبة من السلطان الغاشم. وكانوا سواء يعجبون أن يأتي بالرسالة واحد من عامتهم، ومهما تجرد من هوى العائد العاجل كانوا يرمونه بالضلال أو السفاهة، وإنما كان مبلغاً ناصحاً بعلم من الله يحمل لهم ذكراً من الهدى والحمد والاعتبار بسلفهم والتجديد، وينذرهم من مصائر الأقدار يرجو لهم التقوى والصلاح في الدنيا والرحمة في الآخرة. وكان الأغلب بين مواقف قومه التذكيب بآيات الله وكانت عاقبتهم الهلاك غرقاً أو عاصفةً أو زلزالاً، بينما يكتب الله النجاة للرسول وللقليل الذين آمنوا معه غير ناعٍ للغابرين وقد أدى الأمانة.

هكذا أرسل الله هوداً الى عاد على ذات السُنَّة والابتلاء والعاقبة. وكان يذكرهم بموعظة الخلافة لقوم نوح وبآلاء الله الذي وسع لهم من بعد الرزق وزادهم بسطة في الجسم، وكانوا قد انحجبوا عن ذلك السلف بآباء دونه على عبادة ضالة لمسميات إشراك بالله يتعصبون لها، وكانوا يتحدَّوْنه باستعمال عاقبة النذير وكان ينظرهم حتى إنقطع منهم الدابر. كذلك على ذات السيرة أرسل الله صالحاً إلى ثمود معززاً آيات الرسالة بناقة ينذرهم أن يتركوها سائبة شاربة سالمة من كل سوء، مذكراً بعاد وكيف بدأهم الله في الأرض ليعمروا سهولها قصوراً وجبالها بيوتاً، وألا يفسدوا في الأرض بعد ذلك العمر الصالح. فطغى متكبرو قومه على المستضعفين وعتوا على الناقة ومضوا يتحدون النذير حتى جثموا سقوطاً من وقع الصاعقة العقاب. وكذلك أرسل الله لوطاً إلى قومه وكانت رسالته تنصبّ على أنكر الخُلُق وأشذه في العالمين وهي فاحشة إتيان الرجال. وانقلب أولئك بإسرافهم على النبي يسخرون من تطهره ومن معه ويتهددونهم بالإخراج كما شذوا عنهم، فأمطرهم الله صخور الزلزلة عاقبة للمجرمين. وعلى ذات الهُديَّا أرسل شعيب إلى مدين، وكانوا في حضارة تجارة فخصّتهم رسالة التوحيد بوصايا ترفع ظلم معاملات المعاش بينهم تطفيفاً للمكاييل والموازين وعثواً في الأرض. وولدت الثروة فيهم طبقات قوىً متظالمة، الطائفة المستكبرة تسد كل طريق قويم للهدى تبغيه عوجاً، وترهب وتصد المؤمنين ليرتدوا إليهم أو ينفوا من ديارهم خاسرين. وما كان شعيب إلا مذكراً بنعمة الله أن كثرهم عداً وداعياً للتسامح والتصابر بينهم حتى يحكم الله، وماكان الذين آمنوا معه إلا ثابتين على الهدى متوكلين على الله الواسع لعباده المضَيَّق عليهم الفاتح بالحق. وانقلبت العاقبة رجفة أصبح الذين حولوا الغنى والصلاح استكباراً وفساداً هم الخاسرين، فتولى عنهم شعيب وما به أسىً على الكافرين.

هكذا توالت وتتوالى عبر التاريخ في كل حواضر المجتمعات التى متى جاءتها رسالة أو دعوة توحيد وتجديد إلا أخذهم الله بالباساء والضراء لعلهم يضرعون ويسلمون لله، فما وعظهم البلاء. ثم يبدل الله السيئة

بالسراء الحسنة والنعماء المتوافرة يذكرهم بها الدعاة لعلهم يذكرون ويشكرون. فتراهم لا يستشعرون من ذلك عبرة بل يعدون كل الأحوال أعراض أقدار راتبة وتقلبات طوارئ معهودة منذ سلفهم، ذلك وهم سادرون لا يبالون حتى تقرعهم بغتة عاقبة الهلاك. ولو أنهم بمغزى بلاء الشر والخير آمنوا بالدعوة وصدقوا فتبارك عملهم تقوى لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض نعيماً، ولكن كذبوا فأخذهم الله بما كانوا يكسبون. وإذ غشيتهم الغفلة في الحياة يبيتون نياماً يصحون لعباً آمنين عجباً أن يباغتهم بأس الله ومكره. وكيف لا تبين العبر والذكرى لمن يرثون الأرض خلافة لحضارات هلكت بذنوب أهلها ثم يمضون معهم يسدرون في الذنوب والغفلة فيعاجلهم الله بجزاء المصائب أو يملي لهم عهداً وقلوبهم منطبعة فيه بغشاوة التقاليد لا يسمعون واعين أصوات رسالة التذكير والاعتبار.

كل تلك المجتمعات ذات الحضارات الهاوية تجيئهم بينات الذكر القرآني يقص عليهم دعاته عبر التاريخ كما سبقت لديهم بينات من ذكر الرسالات الأولى، فما كانوا ليؤمنوا أول العهد برسالة التوحيد والتجديد بما كذبوا به من قبل بتراث سلفهم في وجه الرسالات السابقة المتوالية. كذلك تنطبع القلوب الكافرة المتبلدة بالتقاليد إذ لم تصادف سنن الله في التاريخ لأكثرهم من وفاء أو رعاية لعهد الولاء لدين الله بفطرة الإيمان أو مع رسالاتهم، بل كان ذلك السواد الأعظم من الفاسقين عما دعوا إليه من ميثاق الله مرهونين لأعراف الكفر والخسران.

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) (101)

التفاتاً بالخطاب إلى الرسول (ص)، أن تلك هي القرى التي توالى عليها الأنبياء من قبلك يحملون ذات كلمة التوحيد التي جئت بها من الله والبينات آيات من الابتلاء والآلاء والصبر، ويقص الله ووحيه عليك من أنباء هلاكها عبرة وعزاءً وسلوى. ولقد جاءت أهل تلك القرى رسلهم بالبينات كذلك، فما كانوا — الذين يرثون الجزيرة العربية أرض أولئك السابقين مهما كثفت عليهم القصص والعبر البينة من تراث تاريخهم — ما كان ليؤمنوا بدعوة رسالة التوحيد المتجددة ليؤمنوا بما كذبوا من قبل تراثاً جاهلياً متبلداً متجمداً فيهم، لا يسمعون الدعوة والعبرة سمع المعتبر بل يسدرون استكباراً، طبع الله على قلوبهم، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بما كسبوا غفلة وتمادياً متوارثاً.

(وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) (102)

تلك القرى التي كذبت الرسل رغم الابتلاءات ماوجد الله بسننه ولا ألغى لأكثرهم خلق الوفاء بأي عهد من أول عهد الإيمان في الفطرة إذ كفروا وغطوه استكباراً وتكذيباً، إلى عهودهم مع أنبيائهم أنهم

سيؤمنون إذا كشف الله عنهم غمة البلاء والبأس. ذلك وإن وجد الله وبين أن أكثرهم لفاسقون يمرقون حقاً عن عهودهم منافقة ومكراً وكفراً.

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (103)

(ثمّ) انتقالاً إلى قصة موسى (عليه السلام) من وعلى بعد ذات طريق الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام). ولكن موسى هو النبي الأقرب من حول الرسول محمد (ص) الذي تحيط به ثقافة أهل كتاب موسى — التوراة — وجوار قومه اليهود.

فقد بعث الله – بسنن اصطفائه وقوى وحيه — موسى لميراث الأرض برسالة جديدة إثر هلاك أقوام من الذين كذبواالرسالات، خطاباً بآيات من هدى التوحيد ومن المعجزات الباهرات إلى فرعون من سلالة ملوك الطغيان الحضاري المادي المصري وملئه الفئة المستكبرة حوله الأشد امتلاءً بالاستبداد مما في عهد الأنبياء السابقين. والآية تجمل خلاصة القصة أن المخاطبين قد ظلموا بموقفهم كله من آيات الله، وقبل تلاوة التفاصيل يخاطب الرسول أن انظر متأملاً كيف انتهت عواقب أولئك القوم المفسدين، وذلك ربطاً للسياق مع خلاصة عواقب الأقوام المكذبيب للأنبياء في الآيات السابقة. وكما هو الحال في كثير من مستهل القصص آيات القرآن تجمل الخلاصات والعبرة للبعثة والآيات والظلم بها والعاقبة.

(وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) (104)

وقال موسى مبلغاً رسالته يخاطب الملك بلقب التبجيل. (يا فرعون) خطاباً ليناً كما أرشده الله أنه رسول من رب العالمين. وذلك صدعا بالحق، فلئن التزم خطابه اللطف أعلن كلمة الصدق رسولاً وكلمة التوحيد لله مها صادم الحق اعتقاد فرعون أنه هو رب العالمين.

(حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (105)

يمضي بلاغ موسى: حقيق عليّ — حق أكيد وواجب شديد — أو إني رسول وحقيق حريص على — ألا أقول على الله، أحِلُّ قولاً على الله إلا الحق، قد جئتكم ببينة من ربكم تشهد لذلك الحق وللرسالة من الله إليكم. ويرتب موسى على ذلك الخطاب لفرعون مهما كان مقام رهبته أن يطلق سراح بني إسرائيل من الاضطهاد والرق الذي كانوا فيه تحت الفراعنة، ويرسلهم معه فهو رسولهم المكلف بدعوة الإيمان والخلاص لهم والهجرة نحو دار عزة في الأرض.

(قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (106)

قال فرعون مستخفاً بموسى: - إن كنت جئت بآية – مستبعداً ظهور الآيات على يد مستضعفٍ من بني إسرائيل – فأت بها واعرضها علينا – إن كنت من الصادقين، فهو لا يرى صدقاً في كلام موسى.

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) (107)

فاستجاب موسى (س) – مبرراً أول آية من الله أمام استكبار فرعون واستهزائه – فألقى عصاه قاذفاً بها على الأرض فإذا هي تستحيل ثعباناً مبيناً واضحاً للعيان.

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ) (108)

ونزع موسى (س) يده من جيبه مخرجاً آية أخرى أمام الناظرين من ملإ فرعون، فإذا يده في لون أبيض غير ما كانت عليه من سمرة لون بشرته الداكنة، وغيرما علة برص.

(قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) (109)

مبادرةً من الملإ المستكبر من قوم فرعون حوله الذين رأوا الآيات فلم يروا فيها إلا ما ألفوا من معارف السحر في حضارتهم، قالوا إن هذا لساحر عليهم وظنوا أن موسى يخادع الحواس على ذات فعل السحرة، فما هو عندهم إلا ساحر عليم بالغ المعرفة بالسحر.

(يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) (110)

الملأ من قوم فرعون يبدءون حملة مقاومة الرسول بالتعبئة ضده وتخويف الناس أن هذا الساحر العليم سيملأ عليكم الأرض من ثعابينه حتى تخرجوا من أرضكم فزعاً، يريد أن يخرجكم من أرضكم العزيزة على النيل ماوراءها إلا الصحراء الميتة فماذا ترون في أمر هذا الخطر المهدد وماذا تأمرون أن نفعل إزاءه.

(قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ) (111)

اتفق رأي الملأ من قوم فرعون على تأخير أمر موسى (س) حتى يكتمل الحشد والتعبئة، قالوا أرجئه وأخاه إلى أجل وأرسل في المدن من حولنا باعثاًً دعاة ينادون في الناس للحشر على صعيد واحد.

(يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) (112)

يطمئن الملأُ فرعونَ: أرسل الرسل يأتوك بكل ساحر عليهم مصطفين على سواء موسى محضرين جمعاً ليواجهوه ويبطلوا سحره .

(وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) (113)

لبى السحرة دعوة فرعون وجاءوا شارطين لأنفسهم إن لهم لأجراً كبيراً إن كان هم الغالبين مطمئنين أن الغلبة والنصر ستكون لهم.

(قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) (114)

قال فرعون مستجيباً لشرط الأجر الكبير ضامناً علاوة على ذلك ومؤكداً لهم أنهم عندئذ من المقربين إليه ذوي المنزلة الرفيعة.

(قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) (115)

قال السحرة من موقف المطمئن يخاطبون موسى يخيرونه تحدياً في مبادرة الإلقاء للمغالبة، إما أن يُلقى وتكون له البداية أو أن تكون لهم.

(قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) (116)

قال لهم موسى ألقوا فلما بادروا ألقوا أفزعوا الناس الحاضرين إذ خدعوا حواسهم وأوهموا أعينهم شعوذة وجاءوا بسحر عظيم واسترهبوهم بتخيل العصي والحبال حَيَّات، حتى موسى دخل الخوف إلى قلبه في المناخ المشحون بالرهبة (سورة طه 66 – 67).

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) (117)

جاء الوحي مثبتاً لموسى في موقف الرهبة والخوف، وأوصاه بأن يلقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين تلقف تلتقط ما صنعوا واحداً في إثر واحد، مما أفكوا غَرَراً وخداعاً للحواس مخيلة لا حقيقة.

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (118)

أوقع الله – سبحانه – الحق آية بينة لموسى وأبطل الباطل هزيمة فاضحة لإفك السحرة وما عملوا من خداع لعيون الناس تلقفته آية الحق من رب العالمين.

(فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ) (119)

فغُلب هنالك في مسرح وقوع الحق وبطلان السحر أمام حشر الناس – غُلب الذين اطمأنوا إلى سحرهم ووهمهم أنهم غلاَّب، كانوا مأجورين متزلفين عزةً إلى فرعون، فانقلبوا صاغرين ذليلين.

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ) (120)

بعد أن بطل ما ألقوا من السحر، ألقوا وجوههم سجوداً للحق الذي أظهره الله – سبحانه – على يد رسوله موسى (س) وعرفوا من علمهم بفنون السحر أن آية موسى ليست من جنس سحرهم.

(قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ) (121)

صدع السحرة بأنهم آمنوا برب العالمين الله، بعد خضوعهم للحق، ساجدين للحق وما عاد فرعون عندهم برب العالمين كما يدعي.

(رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) (122)

بعد الشهادة برب العالمين شهد السحرة أنه رب موسى وهارون إيماناً بالرسالة التي جاءا بها منه تعالى، وتلك شهادة بينة أمام الجمع المحشود.

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (123)

فرعون بدافع الغيرة غروراً بالربيوية بغير حق وفي مقام السلطان والطغيان استعباداً وإذلالاً للناس، يخاطب السحرة مستنكراً عليهم الإيمان لموسى بالحق حتى عن رضىً وطمأنينة بتجربتهم السحرية ما داموا قد انتهوا إلى ذلك قبل إذنه، فهو يدعي ربوبية على العالمين ظاهراً وباطناً ثم يمضي في مقولاته ليتهمهم بأن ذلك قطعاً مكر مكروه في المدينة ليخرجوا منها أهلها – مؤامرة على قبط مصر ليحلوا مكانهم بني إسرائيل، ثم ينذرهم على ذلك: فسوف تعلمون، خطاباً أمام الجمع المحشود لتعبئتهم ضد موسى وتخويفهم من الرسالة التي جاء بها وترهيبهم بوعيد يأتي تأويله عليهم فيما يستقبلون.

(لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) (124)

بيان قاطع بوعيد فرعون للسحرة جزاء إيمانهم قبل إذنه أن سيقطع منهم الأيدي والأرجل خلافاً من كل شقٍ طرف، ثم سيصلّبهم أجمعين نكالاً لهم وإرهاباً للناس من حولهم كافة.

(قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) (125)

عند إعلان بيان العقاب الموعود تذكر السحرة المؤمنون أن المنقلب والمرجع والمآل كله إلى الله لهم ولفرعون وجمعه وملئه والناس جميعاً، وقالوا شاهدين: إنا إلى ربنا منقلبون. ذلك أن الله عندهم – سبحانه – هو أعدل العادلين وأسرع الحاسبين وجزاءه لعباده بالخير والشر هو الأوقع والأخلد.

(وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) (126)

وقال السحرة المؤمنون لفرعون إنه لا يجد عليهم نقمة أو منكراً يستحق مثل ذلك الوعيد سوى أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم واضحة حاسمة في معرض المغالبة بالسحر، ومهما يكن وعيده فهم يدعون يرجون ربهم أن يفرغ في قلوبهم الهام الصبر فلا يتزعزعوا عن الإيمان ولو عند القطع والصلب، وحتى إذا بلغوا أجل الموت توفاهم ربهم مسلمين خاضعين لحكمه ظاهراً وباطناً.

(وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (127)

استشعر الملأ البطانة الممتلئة بالاستكبار حول فرعون أن ثبات السحرة على الإيمان أمام العقاب الشديد قد يدفع آخرين من حولهم للميل إلى موسى والإيمان به فتفسد عليهم الأرض بفساد مصالحهم وقالوا لفرعون أتذر موسى وقومه تاركاً لهم ليفسدوا ويذرك وآلهتك – يوحون إلى فرعون ألا يقتل السحرة وحدهم ويخلى موسى وقومه قلة ذات أثر وضرر، وألا يبيح لموسى وأتباعه حق العبادة لله رب العالمين هاجراً لعبادة فرعون ومعبوداته الدنيا.

فجاءت استجابة فرعون لتحريضات الملأ موافقاً أنه سينزل بقوم موسى أشد العقاب كما فعل بالسحرة، تقتيلاً للأبناء الذكور واستحياءً للنساء استبقاءً لهن بأمره للسخرة والمتعة وأنه بسلطانه فوقهم قاهر متصرف، وذلك إذ يراهم قلة مستضعفة.

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (128)

استجاب موسى لذلك النذير الخطير و قال لقومه المضطدين دعوةً إلى الاستعانة بالله والاستمساك بالصبر، وذكرهم عزاءً ورجاءً أن ميراث الأرض بَقَدَرِ مالكها الله لمن يشاء من عباده مهما تعالى فيها المستكبرون، وبسنة الله ليست مصائر الأرض بيد المستكبرين، ومهما اشتد بلاؤه فان من اتقى الله وثبت على تقواه له العاقبة الحسنى في الدنيا عزة بعد الذلة وقوة بعد الاستضعاف والعاقبة الحسنى في الآخرة.

(قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (129)

اشتكى بنو اسرائيل إلى رسولهم وهم ما يزالون في حالة ضعف مستمر بايمانهم إذ أنه قد أوذوا من قبل أن يأتيهم رسولاً ومن بعد ظهور رسالته ورد فعل الطاغوت الفرعوني عليهم. لكن موسى ذكرهم أن الله القاهر فوق كل القاهرين، عسى رجاءً أن يهلك عدوهم من آل فرعون ويجعل العاقبة لمن اتقى واستعان

بالله صبراً فيجعل الخلافة والعزة في الأرض لهم بعد الأذى المستمر، ولكن ابتلاء التكليف قائم حتى بعد الاستخلاف والتمكين يترتب عليه أن ينظر الله – سبحانه – إلى من جعل له الخلافة منكم بعد الضعف والذلة والاضطهاد كيف يعمل، بالتقوى والشريعة والصلاح أم بالفسوق والعصيان والفساد؟ وعلى الكسب يكون الجزاء

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (130)

ولقد أخذ الله بأقداره آل فرعون جميعاً – من آل اليه من جماعته وشعبه — بسنين القحط فنقص فيض النيل فلم تتسع أرضهم المزروعة حوله لتنبت ما يكفي حاجتهم من ثمرة المحصول بل نقصت المؤونة، لعلهم يتذكرون الله في هذه المحنة فيتضرعون دعاءً إلى الله ليكشف عنهم ضراء السنين ويزدادوا بعد الصبر والذكرى.

(فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (131)

في تقلب الابتلاءات على آل فرعون تجئ الأحوال الحسنة الطيبة عليهم فيقولوا لنا هذه ونحن نستحقها وأهلها، وإن تصب السيئة – وما أن تظهر بوادر المحنة والمصيبة يبدأون التطير تشاؤماً بالرسول والجماعة المؤمنة معه يدعون عليهم أنهم سبب البلاء. ولكن الآية تذكرهم أن طائرهم حظهم في تقلب الابتلاءات والأقدار خيراً أو شراً بهم إنما هو كله من عند الله وقضاؤه، ولكنهم لا يعلمون علماً يربط الأسباب كلها بمشيئة الله بل يظنون الحسنة من ميمون طائرهم والسيئة من شئوم التطير بموسى ومن معه.

(وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) (132)

وقال آل فرعون لموسى مهما تأتنا به من آية بينة إنما هي حيلة لتسحرنا بهما فما نحن لك بمؤمنين — إصراراً على الكفر ولو كان السحرة أنفسهم قد آمنوا بالحق أمامهم.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) (133)

توالت واشتدت أقدار الابتلاءات من الله — سبحانه — على آل فرعون آيات، فأرسل عليهم بعد سنين القحط، الطوفان – امتداد النيل الذي أغرق زرعهم ومساكنهم، والجراد بأسرابه العابرة إليهم من الصحراء فقضت على ما نبت من ثمر مزروعاتهم، ثم القُمّل — الحشرات التي تقع في الزرع فتأكل قضيض السنابل فتموت حبوب محصول الزرع المغذية، ثم الضفادع التي تتكاثر أضعافاً في مواسم المياه الفائضة فتملأ البيوت والطرقات بالليل نقيقاً وزعجاً، ثم الدم نزيفاً من قروح في الأجساد أو رعافاً من

علة فاشية فيهم، هكذا ضرب الفساد الشامل بيئة آل فرعون كلها آيات*، مفصلات واضحات من الله وحده، وابتلاءات لعلهم يذكرون.

لكنهم استكبروا إصراراً على كفرهم بما جاء به موسى وكانوا من المجرمين يقطعون ما ينبغي أن يوصل إيمانا من آيات الله ويكفرون ويعدون على موسى وقومه.

---

*انظر: العهد القديم، سفر الخروج، بياناً عن روايات مختلفة عن هذه الآيات

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ) (134)

ولما تمكن منهم ذلك الرجز العذاب المفصل المتتابع من الله ارتدوا إلى موسى ليسأل لهم ربه الله الذي كفروا به من قبل واستكبروا عن عبادته. وسلموا لموسى في حالة الحاجة والاضطراب بعهدٍ من الله خصه به واستودعه ما ييسر له بقوته ودعوته، أن يصرف عنهم أقدار العذاب التي تطيروا به منها قبلاً، واعدين

أن لوكشف وفرج عنهم الرجز فهم قطعاً سيؤمنون له مصدقين برسالته، وسيرسلون معه بني إسرائيل إطلاقا لسراحهم ليخرجوا ويهاجروا معه إلى حيث يريد أن يذهب بهم إجابة لطلبه.

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ) (135)

ودعى لهم موسى ربه فلما استجاب الله وكشف عنهم رجز العذاب الشديد فسحة من الفرج الى أجل ميقات هم بالغوه وصولاًإلى يومه بعلم الله وتقديره – لما كشف الله إذا هم ينكثون ردة عن وعد الإيمان لموسى.

وكان ذلك توالياً في نقض العهد بالتصديق عند كل آية طلبوها فرجاً كلما وقع عليهم الرجز في الحالات التي أنزلها الله عليهم في الآية السابقة (الآية 133) واستمر ذلك حتى بلوغ الأجل الحاسم الأخير.

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ) (136)

استحق آل فرعون انتقام الله الحاسم الأخير بما يكافئ تكذيب الآية المطلوبة (الآية 106) ونكث العهد، كلما تنزلت الآية تكشف عنهم رجز العذاب، فأحاط بهم الله بأقداره وأغرقهم في يَمِّ البحر وقد استوفوا بلوغ الأجل. وذلك جزاءً وفاقاً لتكذيبهم آيات الله ومضيهم عنها غافلين، وهي التي فصلت الهدى والتي صدقته بالحركة المعجزة والتي تجاوزت بهم البلاءات رغم وضوحها وتواليها وشدة وقعها.

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ) (137)

بعد الخروج والنجاة من آل فرعون وهم يحاولون إدراك موسى وقومه عبر اليَمِّ وجعل الله ميراث اللأرض التي كان يمتد اليها ملك الفراعنة من مصر إلى الشام – جعلها بمآلات أقداره ميراثاً للمستضعفين من بنى إسرائيل، فورثوا ملكاً شمال سيناء وجنوب سورية مشارق أرض فلسطين ومغاربها، مملكةً لداوود وسليمان ثم مملكة إسرائيل وجودا. وهي الأرض التي بارك الله فيها خضراء زراعية شمالي الصحراء وغربي الأرض العليا نحو العراق، بل زادت بركة الله زراعة وتجارةً وسكاناً إلى بركته – إرسالاً للرسل وبعثاً لسلالة الأنبياء. وأتم ربك كلمة الحسنى – خطاباً لمحمد (ص) ليعتبر بوعد المصير بالمؤمنين المهاجرين – وكانت الكلمة على بني إسرائيل تحريراً من الرق والاضطهاد والقتل واستحياء النساء، وذلك جزاءً بما صبروا على الابتلاء إيماناً بالله واتباعاً للرسول. ثم دمر الله على فرعون وقومه صناعة حضارتهم وفنونها في الحشود وإنتاجها في السلاح ومعاملاتها في التجارة، ودمر – سبحانه – ما كانوا يعرشون من قصور وبُنى سلطان إذ غرقت قوتهم في البحر – جزاءً على تكذيبهم ونكثهم وعدوانهم.

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (138)

جاوزت أقدار الله ببني اسرائيل البحر فاجتازوا عبورا للشاطئ الشرقي من مرحلة الاضطهاد إلى مرحلة التحرير والاستقلال بعد دمار أعدائهم، فمروا هناك على قوم من الأعراب يعبدون الأصنام عكوفاً مواظبة على عبادتها، فغلب عليهم مرض التقليد الذي بقي فيهم رغم التحرير بسبب طول عهد الاضطهاد في مصر، فسألوا رسولهم أن يبيح لهم تقليد ذلك الإشراك وهو رسول التوحيد بينهم — وأن يجعل لهم إلها كما لأولئك القوم إله فيخاطبهم موسى يرميهم بالجهالة لأن الإيمان فيهم قوماً لم يزل ضعيفاً – لم يرسخ في قلوبهم فمالوا لتقليد جهالة المشركين

(إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (139)

يذكر موسى قومه مؤكداً أن ما فيه هؤلاء من العكوف على الأصنام متبرٌ – إلى زوال وهلاك كما زال آل فرعون وهلكوا، فما ظلوا فيه من عبادة عمل باطل لايثمر في الدنيا والآخرة.

(قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) (140)

قال موسى مذكراً بني إسرائيل وهو رسول التوحيد مستنكراً: أغير الله الواحد الأحد أبغيكم أرجو لكم إلهاً وهو تعالى فضلكم على العالمين إذ خصكم برسالته وأهلك عدوكم أمامكم وأورثكم الأرض. وكان ينبغي بمغزى مقولة رسولهم أن يكونوا قدوة وأسوة في عبادة الله، لا مقلدين لعبادة المشركين المتبرة.

(وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) (141)

والذكرى من الله — سبحانه — لبني اسرائيل بنعمه الجليلة وفضله عليهم، اذ أن نجاهم بالهجرة العابرة من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم تعريضاً للعذاب المستمر، يقتلون أبناءهم ويسترقون نساءهم، فهي نجاة عظيمة حيث كان ذلك من ربهم بلاء عظيم، وحريٌّ بهم أن يذكروا فضل الله وأن لا يرتدوا إلى عبادة الأصنام أو الإشراك كآل فرعون (سورة البقرة الآية 50).

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (142)

ووعد الله في ملئه الأعلى موسى فترة غياب عن قومه ثلاثين ليلةً، ابتلاءً جديداً لبني إسرائيل في مرحلة جديدة بعد البلاء العظيم الذي نجاهم الله منه، هي انتقال من حالة الاسترقاق والاستعباد الى عهد

الابتلاء بالمواثيق خياراً مع الله. فغياب موسى ثلاثين ليلة كان اختباراً جديداً من الله لبني إسرائيل ينظر كيف يعملون أثناء غياب القيادة الرشيدة الشديدة، وزاد عليهم الابتلاء غياباً أتمه بعشر ليال ليبلغ ميقات رب موسى أربعين ليلةً متتاليةً إشارةً في الآية لتطاول الابتلاء (بينما وردت جملة الوعد أربعين ليلةً في سورة البقرة الآية 51).

فقال موسى وصية لأخيه هارون اخلف لي في قومي نيابة واتباعاً لسنتي وأصلح في سياسة أمرهم العام ولا تتبع سبيل المفسدين الذين قد يستغلون غياب المنهاج العازم الحازم، فيدخلون على القيادة الخالفة من أبواب السماحة واللين بسبلٍ وحيلٍ للفساد.

(وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (143)

ولما جاء موسى مستجيباً لدعوة الله في عالم نجواه الأعلى لوعده الموقوت، ولما كلمه ربه تفضيلاً له بالخطاب المباشر على الناس – بعد آدم – والرسل كافة، وتثبيتاً له أمام قومه الصعاب، تطلع موسى لما هو أكثر من الكلام فسأل ربه أن يريه نظراً إليه — سبحانه، وهو يرجو أن يطمئن قلبه بالنفاذ وراء الغيب إلى الرؤية الحسية. فكلمه ربه أنه لن يراه ظاهراً وأحاله إلى شهادة آيات الله في الكون وسنن الخشوع لله، لينظر الى الجبل الراسخ الصلب فإن استقر مكانه فسوف يرى هو الله، فلما تجلى ربه للجبل — تصوبت عليه قوى ربانيه فوق طاقة الطبيعة، جعل الله الجبل دكاً فانهال مستوياً على الأرض، وخرَّ موسى صعقاً لما لم يطق من مشهد آثار تجلي الله للجبل ومن ثم هول ما يكون وقع نظر مباشر لتجليه — سبحانه — على بشر مثله.

فلما أفاق موسى وعاد لطبعه استوعب الدرس البليغ وخاطب ربه مسبحاً منزهاً له عن مثال الصور المحسوسة وقدرها، وتاب إليه من ريب عالم الشهادة ليشهد أنه أول المؤمنين بالله غياباً.

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) (144)

الذكرى من الله لنبيه موسى: إني اصطفيتك اختياراً على الناس كافة بالرسالة حملتك إياها أمانة — فهي أكبر النعم وأكبر طمأنينة فوق ماطلبه من رؤية الله، واصطفيتك بالكلام تفضيلاً حتى على سائر الرسل الذين يوحى إليهم من وراء حجاب، وذلك في وجه التحدي الخاص الذي لقيه من قومه. والأمر لموسى

أن يأخذ قناعةً ما آتاه الله من فضلٍ ورسالةٍ وآيات كوثر فيكون من الشاكرين عرفاناً للإحسان وحمداً مقولاً وتجاوباً مفعولاً.

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ) (145)

واتخذ موسى ألواحاً من الصخر، وكتب الله بملائكة وحيه له فيها من كل شئ موعظة رعاية لتوحيد الله وحفظاً لعهده، وتفصيلاً للأحكام لكل شئ شعائر وأخلاقاً وشريعة معاملات في واقع الحياة.

وكانت الرسالة في الألواح وصية لموسى أن يأخذها بقوة جاداً نشطاً في التزام تعاليمها، وأن يأمر قومه يأخذوا بأحسنها خير تدبر للمواعظ وأتقى أداءً للتاكليف أمراً ونهياً.

وما اعتصم بنو إسرائيل بهدي الله في الالواح وأخذوا شريعته بقوة فإنه سيمكنهم في الأرض، والوعد من الله أن يسيروا فيها تهديهم الملائكة، وسيريهم شمالاً دار الفاسقين من الأموريين والحيثيين والفرزيين والكنعانيين والجويين واليبوسيئن، ويستخلفهم في دارهم جميعاً.

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ) (146)

إن هدى الله بني إسرائيل لآياته فسيصرف زائغين عنها الذين كانوا بغير الحق يتكبرون في الأرض التي كتبت بعدهم لبني اسرائيل الذين هم أيضاً سيصرفهم الله ويزوغون عن آياته إن تكبروا فيها خلفاً. وأولئك المتكبرون إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد بأحسن الشريعة لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي والضلال يتخذوه سبيلاً، ذلك لأنهم كذبوا بالآيات المنزلة مهما رأوها وكانوا عنها غافلين، بما ألهاهم فسقهم عن قصد السبيل الراشد وإتقاء الغواية.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (147)

والعبرة في مصائر بني إسرائيل في الأرض المباركة والذين هلكوا من ورائهم في مصر، والعظة لهم هم بعد هدي الألواح أن الذين كذبوا بآيات الله وأقداره وكذبوا بخبر الغيب عند لقاء الآخرة أو كانوا عنه غافلين، حبطت أعمالهم مهما عظمت في الدنيا لا وزن لها يوم القيامة، بل تبطل عواقبها يوم الحساب والجزاء، الذي لا يذكرونه مقصداً في نيات العمل. وهل يجزون يومئذ إلا ما كانوا يعملون من تكبر وضلال وتكذيب بآيات الله وكفراً بالغيب والآخرة.

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ) (148)

بعد خروج موسى إلى الطور وأثناء غيابه وفاءً لميقات ربه، ورغم خلافة هارون ووصية موسى له بالثبات على الصلاح ومخالفة المفسدين، استغل المفسدون غياب القيادة الحازمة وغلبت على بني إسرائيل روح التقليد التي استمكنت فيهم بعد مرحلة الاضطهاد في مصر، وتقاليد الأصنام في البيئة التي دخلوها (الآية 138) فجمعوا من حلي الذهب الذي خرجوا به من مصر وصنعوا منه جسداً على هيئة عجل واتخذوه إلها كما كان المصريون يتخذون العجول آلهة. وكانت الرياح تضرب العجل الجسد تعبر جوفه الفارغ بين الدبر والفم، فتحدث صوتاً كأنه خوار صوت العجل الحيّ. وعجيب أنهم لم يروا وفات عليهم أنه لا يكلمهم كما كلم الله –سبحانه– نبيه موسى ولا يهديهم سبيلاً كما هدتهم الألواح، بل اتخذوه إلهاً وكانوا ظالمين لأنفسهم، عاجوا بها عن ميزان الرؤية البينة بالحق، وفسقوا عن حق الرسالة والشريعة وقدوة القيادة الرشيدة.

(وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (149)

ولما عرف بنو إسرائيل أنهم ضلوا بمسلكهم عن طريق الحق وسقط في أيديهم استشعاراً للحيرة والندم وضياع الباطل الذي استمسكوا به، أخذوا يقولون دعاء التوبة، يساءلون الله ربهم رحمة بعد أن نزل عليهم غضب الكفر ومغفرة لأثم عبادة العجل، وتَضرَّعوا في الدعاء لأن لم يقبل الله توبتهم رحمة ومغفرة فهم لا محالة سيكونون من الخاسرين خسارة عظيمة في الدنيا والآخرة (سورة البقرة الآيات 51 – 54).

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (150)

ولما عاد موسى من ميقات مناجاة ربه إلى قومه فقد أخبره الله بما بدلوا عبادة الله الواحد بعبادة العجل، رجع شديد الغضب على ما بدلوا وفسقوا وشديد الأسف على ما غيرهم من نكثهم لعهد الإيمان، قام فيهم واصفاً سيرتهم وراءه بأنها بئس الخلافة – أذمها سوءاً من بعده ومابين لهم من دين التوحيد، مستنكراً عليهم العجلة في وعد الرب، أن لم يصبروا حتى يقضي موسى الأيام التي امتدت إلى الأربعين فوقعوا في فتنة الردة عن أصول الوحي ووصية الخلافة.

ولكن موسى بطبعه الشديد أخذه الغضب حتى ألقى الألواح التي جاء يحملها كتبت فيها رسالة الشريعة، واستبد به الأسف حتى أمسك برأس أخيه الخليفة يجره تعنيفاً. ولكن هارون بطبعه الرفيق جاوب موسى: ياابن أم، خطاب عطف يبين أنه لم يكن في صف القوم الذين اتخذوا العجل إلهاً من دون الله ، ولكنهم استضعفوه مستهينين بنصيحته بل تعبئوا عليه وكادوا يقتلونه، ورجى موسى لذلك ألا يثقل عليه غضباً فيجلب ذلك عليه شماتة الأعداء وتسرهم بعد أن استذلوه، وألا يجعله محسوباً مع القوم الظالمين تجاوزاً لحدود التوحيد.

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (151)

استدرك موسى مستجيباً لخطاب أخيه داعياً ربه الذي تعهده بالنعم الكبيرة أن يغفر له عن خطئه في إلقاء الألواح وفي شدته على أخيه، ولأخيه عن التفريط في أمانة خلافته ودعا الله — سبحانه — أن يدخلهما في رحمته، وناجاه أنه هو الأعلى مغفرة ورحمة — أرحم الراحمين مهما أخطأ الناس وأذنبوا.

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) (152)

بعد استغفار موسى واسترحامه يأتي ذكر الوعيد للذين أتخذوا العجل ممن غلبت على قلوبهم المؤلهات المادية، فهم يرتدون إليها عن عبادة الله ورسالته الغيبية وسيقع عليهم قطعاً من ربهم الحق غضب إذ التمسوا القوة في غيره واتخذوا العجل مشركين بالله، وسيجر عليهم غضب الله ذلة في الحياة الدنيا التي فتنتهم تقاليدها تعلقاً بمشهودٍ فيها دون استنصار بعزة الله، وكذلك يجزي الله على الافتراء الكذوب (سورة البقرة الآيات 92 — 93).

(وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) (153)

وينضاف إلى ذكر جزاء المفترين الذين عملوا السيئات، ولو مثل سيئات بني إسرائيل في النكوث عن عهد الله، أن الذين عملوا السيئات من الإشراك ثم تابوا من بعدها وآمنوا إيمان صدق - واقع صدقه العمل، فإن الله — رب النبي المخاطب بالقرآن الذي كان يعهد في زمانه تراثاً من بني اسرائيل، منهم من فتن في السيئات بعد سنة موسى ومنهم من تاب وحفظ عهداً من الإيمان — إن ربه الراعي المنعم من بعد السيئات الكبيرة والفترات الطويلة هو حقاً غفور واسع المغفرة لما سلف من عظائم السيئات، ورحيم بالغ الرحمة للذين تابوا وعملوا الصالحات.

(وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) (154)

ولما سكت سكن وهدأ انفعال الغضب عن موسى التواب بعد كل انفعال وخطإٍ، عاد موسى إلى الرسالة وأخذ الألواح التي جاء بها من ميقات ربه وكان قد ألقاها غضباً، وفي نسختها ما كتب عليها من هدىً ينسخ الله به ضلال من اتخذوا العجل إلهاً، ورحمة ينسخ الله به الغضب والذلة الذي سينال من تعبد خضوعاً لتمثال مادي مشهود من دون الله. بل الهدى والرحمة للذين يرهبون ربهم رهبة موسى من مشهد تجلى الله للجبل ورهبة الجبل وإندكاكه في مسرح تلقى ما في الألواح، ربهم الذي خلقهم ورعاهم وحده لا العجل والآلهة المفتريات الأخرى.

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) (155)

جعل الله لقوم موسى بعد لقائه ميقات ميعاد، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لئلا يغيب عنهم فيصيبهم ما أصابهم واختيار اصطفاء لمن يقوم بأمر الدين معه عدداً كبيراً يؤتمن ويتناصر لحمل الرسالة. فأخذتهم الرجفة لدى الميقات، زلزال الأرض الذي جعل موسى من قبل يهرع لدعاء الله ساعة اندكاك الجبل، فقام بموسى يمجده تعالى في الدعاء ساعة الفتنة والابتلاء له والطائفة المصطفاه من قومه قائلاً لربه: إنه القادر لو شاء أهلكهم وإياه مَوتاً من قبل حين خروج السفهاء منهم على عهد الوحي وعبادة العجل، ويسأل ربه برجاء ألا يحاسبهم بما فعل السفهاء ويدخلهم فيه جميعاً فهم ليسوا منهم في شئ ويزيد موسى تمجيداً وترهباً لله أن الواقعة لم تكن إلا فتنة واختباراً من الله تعالى، وأن الضال يزداد ضلالاً بمشيئة الله ومن اهتدى يزداد بها ثباتاً على الهدى، وأن الولاية كلها لله — سبحانه — هو المتعهد بالرعاية، ولذلك يسأله موسى أن يغفر لهم من كل الذنوب الكبيرة والصغيرة وأن يرحمهم كل ساعة فتنة وابتلاء، وهو خير الغافرين الماحين الخطايا بعد ضلال قومه البعيد في الشرك.

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (156)

بعد رجاء المغفرة يدعو موسى ربه أن يكتب له ولقومه الصالحين حسنةً حالاً طيبة في الدنيا، وفي الآخرة مثلها، فهم لا يرجون الدنيا وحدها كما هو حال المكذبين المفترين السفهاء، ويعلن في دعائه توبة إلى الله أنّهم هادوا إليه تعالى، رجوع توبة ولجوء إلى الله.

فأجاب الله دعاء موسى أن عذابه يصيب به من يشاء بمشيئته العادلة الحكيمة على من فسق على عهد الإيمان كما فعل البعض بالعجل إشراكاً، وأن رحمته وسعت كل شئ فهي شاملة للحسنة، وللحسنة بعد السيئة ولكل الخطايا حتى لو تجاوزها غضبه، وأن تلك الرحمة الواسعة مكتوبة عهداً من الله للذين يتقون صيانة لعقد الإيمان بالصالحات في وجه الفتن واجتناباً لجزاء الافتراء والشرك، وللذين يؤتون الزكاة تحريراً لنفوسهم من اتخاذ الثروة التي من الله كالحلي والذهب أداة للهوى والشرك ومن الشح والبخل مما توحي به عقائد المادية. والذين – هم دون غيرهم يمتازون صلة بآيات الله وملئه الأعلى – صلة إيمان لا يرتد وقد تكاثرت على بني إسرائيل الابتلاءات تبين التقوى والافتتان، وتعاقبت عليهم حال الضلال والفقر في المهجر وحال الغنى في الثروة المحمولة وفي الأرض المباركة الموعودة وحال غيبة داعي الرسالة، وذلك مما يفرز المتقين من الضالين والذين يؤتون الزكاة من المفتونين بالمال والبخلاء. فتواترت الآيات تميز الذين يؤمنون من الكافرين.

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (157)

يتصل الخطاب ملتفتاً بعد ذكر قصة بني اسرائيل وعبرتها مباشرة الى اليهود المعاصرين لنزول وحي القرآن على الرسول محمد (ص)، بعد أن ذكرهم بأصول اسمهم في دعاء نبيهم موسى (س): إنا هدنا إليك. إن من وسعتهم رحمة الله متقين متزكين مؤمنين هم الذين يتبعون هذا الرسول وقد هادوا ورجعوا لما جاء به من وحي يجدد شريعة موسى، وهم يؤمنون بكل ما جاء من الله ولو كان رسالة يحملها هذا النبي الأمي من قوم أميين ليس منهم كما عهد اليهود في تراثهم من الأنبياء، ولكنهم يجدون ذكره مكتوباً في التوراة والإنجيل عندهم مبشراً به بصفاته وعلاماته، فينبغي أن يكونوا هم أول مؤمن به، وقد جاء يأمرهم بالمعروف من الموعظة والهدى مما عرفوا في كتابهم، وينهاهم عن المنكر كما عهدوا من المناهي، ويحل لهم طيبات من الرزق حتى التي حرمها الله من قبل على بني إسرائيل عقاباً على ما بدلوا شريعة الله وتنطعوا فيها، ويستمر على حرمة الخبائث القذرة من الأطعمة، ويضع عنهم تحريراً من ثقل إصر التكاليف التي اشتدت في شريعتهم، ومن طوق الأغلال التي قيدتهم عن طيبات الرزق ومباحات مساعي الحياة مما كان عليهم من محرمات مكتوبة.

فالذين آمنوا بهذا النبي كمن آمنوا بموسى من قبل، وعزروه تأييد مؤازرة في أول عهد الدين الجديد، ونصروه إذ قامت في وجهه المجابهات والمقاومات كلما امتدت آثاره، واتبعوا نور الوحي هدىً ورحمةً

وموعظةً وتفصيلاً لكل شئ تنزيلاً للشريعة في الحياة إذا استقر عهد الدين بعد الجهاد والنصر، أولئك هم أهل الفلاح في الدنيا والآخرة.

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (158)

السياق يتصل لكنه أخذ ينتقل من قصة بني إسرائيل مع موسى وعبرتها عبر خطابهم يهوداً معاصرين لنزول القرآن بأصول الرسالة، تحريراً من الغيرة العصبية وتهيؤاً لقبول التجديد الذي يضع الإصر ويرفع الأغلال، سعياً مع الخير المتجدد – ينتقل السياق الى طلائع خطاب للرسول الجديد يأمره: أن قم في الناس أنك تعلن رسالة تحملها لهم جميعاً لا تنحصر في العرب أو اليهود أو النصارى وحدهم، كما عُهد في تراث الرسالات السالفة التى كانت تتنزل على رسول مخصوص لقومٍ مخصوصين، الرسالة من الله الذي له ملك السماوات والأرض، المحيط بالكون جميعاً واحداً لا إله الا هو يحيي ويميت كل البشر، والأنبياء السالفين. فهو الباعث اليوم رسالة مخاطبة للناس كافة، فالدعوة للمخاطبين عموماً – ولو كانوا يهوداً بتراثٍ مخصوص أن يؤمنوا بالله المالك الواحد المحيي والمميت – يحيى قروناً جديدة بعد ما أمات من القرون السالفة إذ يبعث – في رسالة خالدة تتجدد برسوله النبي الأمي الذي جاء يؤمن بالله وكلماته القدرية والرسالية. والخطاب يلتفت للمخاطبين جميعاً لا سيما حملة الثقافة الكتابية القديمة، أن يؤمنوا بالله سبحانه مصدر الرسالات جميعاً، متجرديين من حرج العصبية ألاّ يكون الرسول الخاتم منهم، فهو الذي يؤمن بالله لايفتري رسالة من نفسه بل يأتي بكلمات المواعظ والشرائع التي جاء بها مؤمناً موسى وسائرُ المرسلين من قبله. وأمة الخطاب مكلفة أن تتبع الله ورسوله لعلهم بالرسالة الجديدة يهتدون إلى الحق، بعد ضلال غشيهم بتطاول العهود، وإلى رحمة الله ترفع أحكاماً كانت تأصرهم وتغلهم سابقاً، وبعد ابتلاءات تجدد تستدعي هدىً متجدداً.

(وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) (159)

لئن كانت الرسالة الخاتمة في الآية السابقة يحملها نبي أمي من عرب أميين لكنه يخاطب بها الناس كافة، لعل أمة منهم يتبعونه فيهتدون، ترجع الآية إلى الرسالة السابقة التي ذكرت قصتها الآيات السابقة كما حملها موسى إلى قومه خاصة – أخرجت منهم أمة يهدون بالحق يدعون به فيما بينهم وبه يعدلون شريعة وميزان حق يحكمون به بينهم ويفصلون في معاملاتهم، فالرسالات تتعاقب حقاً وهدىً وعدلاً يصدق التالي السابق، ولكنها تتوالى تمهيداً من خصوص السابقة إلى عموم الخاتمة للناس أجمعين.

(وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (160)

بعد ذكر العبر الماضية في قصة موسى مع قومه وما انتهت إليه ومهدت له من الرسالة إلى العالمين، وبعد ذكر ما أخرجت من قوم موسى بالرسالة أمة واحدة، تمضي هذه الآية لتبدأ ذكر الابتلاءات التي فَرَّقت تلك الأمة. أولها من قوم موسى إذ قَطَعَّتهم أقدار الله التناسلية اثنتي عشرة أسباطاً أحفاداً لموسى تفرقوا كل قبيلة – أمة تأتم قصدها دون الأخرى، ولما أصاب قوم موسى في صحراء الهجرة العطش واستسقوا موسى أن يدعو ربه ماءً، أوحى الله بأقداره الطبيعة لموسى (س) فعل الضرب بالعصى على الحجر، ليبذل الجهد ولو قليلاً توسلاً لمعجزة من الله تفجرت بها الأرض وانبجست اثنتى عشرة عيناً ينبوعاً، قد علم كل أناس سبط وقبيلة مكان مشربهم لئلا تتنازع القبائل على الماء في الصحراء. وبعد الرواء من العطش أظلَّهم الله –سبحانه – غماماً يحيطهم جميعاً بظله في حرِّ الصحراء، وأنزل عليهم مَنَّاً مادة سكريةً من التترجين يفرزها النبات كالصمغ والندى، والسلوى طائراً من السماني يشبعون من لحمه، فيأكلوا من طيبات رزق الله الحلال بعد الشرب والظل.

ولكنهم إذ كفروا نعم الله ومعجزاته إنما ظلموا أنفسهم بعاقبة الخسران في الدنيا والآخرة ولم يظلموا الله مالك السموات والأرض (سورة البقرة الآية 60).

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) (161)

بعد بلاغ الرسالة في أول سياق قصة موسى وبعد مرحلة النجاة ونزول الشريعة تمضي سيرة الدين نحو الجهاد والفتح، ويلقى بنو إسرائيل في مسارهم على الصحراء قرية أريحا، فيهيئ الله – سبحانه – لهم فتحها وسكناها ويبيح لهم أكل طيباتها حيث شاءوا - رزقاً أوسع من قوت الصحراء، ويأمرهم لمدخل المدينة – لئلا تأخذهم سكرة الفرح والاستكبار - أن يقولوا كلمة الاستغفار والدعاء حطة تحط عنهم ذنوبهم فيدخلوا بعد الفتح فاتحين مستغفرين ساجدين لله (سورة النصر). والله سيغفر لهم ما قدموا من خطيات وسيئات كبيرة ويزيد الله المحسنين من أحسن العمل جهاداً وعزةً وتواضعاً لله.

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ) (162)

بدل الذين ظلموا من بني إسرائيل أمر الله فلم يدخلوا بعد الفتح مستغفرين ساجدين، بل دخلوا منتشين مستكبرين طرباً بالنصر، فأرسل الله عليهم رجز العذاب كما أرسله من قبل على عدوهم، وقلب عليهم نعمة الغمام من السماء بعذاب الرجز من السماء بما ظلموا عصياناً لأمر الله. فلو دخلوا مستغفرين ساجدين لأتم الله لهم الفتح والنصر والنعمة بدل العذاب (سورة البقرة 58 –59) (سورة النساء الآية 154).

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (163)

الأمر يعود للرسول (ص) سؤالاً لليهود المعاصرين له عن خبر سيرة سلفهم في القرية المدينة الكبيرة على حاضرة شاطئ البحر (أيلات)، التي وقع فيها عدوان بني إسرائيل على حرمة يوم السبت إذ كانت تتكاثر الحيتان أسماكاً شرعاً ظاهرةً قريبةً من الشاطئ يوم السبت — إذ عهدت سبتهم وقطعهم للعمل والصيد، وفي غير هذا اليوم لا تأتي بل تفر الحيتان من نشاط الصيد، كذلك ابتلتهم أقدار الله وفضحت فسقهم إذ أخذوا يحتالون على يوم السبت وحرمته ويعتدون.

والسؤال – في الآية – لليهود المعاصرين للرسالة الجديدة عن نبأ التكاليف الثقيلة التي ألقيت عليهم في شريعتهم بما استحقوا من بلاء، فما صدقوا في رعايتها، والسؤال تذكارٌ بأن الشريعة المتجددة ترفع عنهم ذلك الإصر والأغلال مما فتنهم فوقعوا في المخادعة والنفاق.

(وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (164)

مهما اشتد الفسوق في اليهود وغلظ العصيان ظلت منهم أمة معتصمة قائمة بالحق تهدي به وتعمل عدلاً. وإذ آيست أمة أخرى من فرط فسوق المعتدين فقالت للأوائل الذين يهدون بالحق ودعوة الفاسقين: لما تعظون هؤلاء المعتدين أو ترجون لهم تذكرة، فهم لا يرون من الله سوى الهلاك دماراً شاملاً والعذاب الشديد مكتوباً لهم واقعاً بهم لا محالة. لكن المستمسكين بالحق يُذكّرون الذين قنطوا من جدوى التذكير، أن الموعظة اعتذار الى ربكم أن قد أدينا أمانة البلاغ والنصح عسى أن يغفر لنا بها بقاءنا في مجتمع المعتدين ويعفو عنا يوم القيامة، ثم لعل الفاسقين المعرضين للعقاب يتقون، لعل الموعظة تجد مكاناً في قلوبهم فيتقون الله ويتوبون كفاً عن الفسق والعدوان وصلاحاً نحو الإحسان.

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ) (165)

فلما استمر الفاسقون على عصيانهم ونسيانهم لما ذكروا به بموعظة الهدأة من آيات الله والشريعة، فَرَّق الله – سبحانه – في ساعة الحسم، نجاةً للذين قاموا بالحق وعدلوا ونهوا عن السوء موعظة للفاسقين ومعذرةإلى ربهم، وأخذاً للذين ظلموا أنفسهم بعذاب بئيس شديد البأس عليهم جزاء البأس عليهم، جزاءً بما كانو يفسقون ويمرقون من هدى الدين.

(فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ) (166)

فلما نسوا ما ذكّروا به ونُهوا عنه من المنكرات وعتوا تشدداً وتمرداً على الموعظة في الفسوق، قال لهم الله أن امضوا على ما أنتم فيه لا تتبعون التذكرة ولا الأسوة الحسنة والتقوى، بل تتبعون قدوة الفاسقين وكونوا بَعداً ومحاكاةً لأعراف الفسوق الفاشية – حالة القرده تقليداً خاسئاً ذليلاً (سورة البقرة 65).

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) (167)

يعود الخطاب للرسول (ص): أن يذكر ويعتبر إذ تأذن الله ربه – أعلنهم منذراً أولئك العتاة الخاسئين أن ليبعثن عليهم ربه، سيسلط عليهم مؤكداً على التواتر أبداً إلى يوم القيامة شعوباً وأمماً تنزل بهم – تسومهم وتجشمهم سوء العذاب صنوفاً كما كان يفعل بهم فرعون، وكما ذكر القرآن فسادهم في الأرض وعلوهم مرة بعد مرة، وكيف سلط الله عليهم في المرة الأولى والآخرة عباداً أولي بأسٍ يجوسون ديارهم ثم آخرين يتبروها، وأنذرههم أن سيعود عليهم العقاب إن عادوا لفسقهم في الأرض، (سورة بنى اسرائيل 4 – 8). وكما شهد التاريخ حقاً في سيرة بني إسرائيل مع البابليين والرومان وخلفهم في أوروبا. والله رَبُّ الرسول المخاطب حقاً سريع العقاب على من فسق وعتا، فاستحق العقاب الحاسم توكيداً (غفور) حتى لمن ثاب بعد الفسق، ورحيم رحمته وسعت كل شئ وهي مكتوبة خاصة لمن اتقى بعد التوبة.

(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (168)

لئن قَطَّع الله بني اسرائيل أثنتي عشرة أسباطاً أمماً للتوزيع والقسمة العادلة رزقاً أو ماءً لهم جميعاً، فقد قطعهم بعد سوء عذاب على النسيان والظلم والفسق وفَرَّقَهم فتبعثروا شتاتاً في بلاد الأرض أمماً، لكل وجة في الحياة هم مولوها. منهم برحمة الله من ظلوا أمة صالحة تهدي بالحق وتعدل، وأقسام منهم أمم دون ذلك الصلاح حتى أن منهم من يبلغ في الفسق عتواً.

وقد أجرى الله – سبحانه – عليهم سنته في تقلب ابتلاءات الاختبار على الناس سراء حسنات خصباً وعافيةً وخيراً وضراء سيئات جدباً وشدةً واستضعافاً، لعل وعسى أن يعظهم تقلب الأحوال فيرجعون إلى الله تائبين مذكرين متقين.

(فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (169)

بعد عذاب الخسوء والذلة والتقطيع في الأرض خلفت أجيال من بني إسرائيل – مثل يهود المدينة – ورثوا الكتاب عن آبائهم ولم يقوموا به عملاً وكسباً من عند أنفسهم، كلما عرضت عليها الأعراض الزائلة من شهوات الدنيا – الأدنى الحرام اقترفوا منها اكتساباً للسيئات، ثم هم يَدَّعون افتراءً أن سيُغفَر لهم من الله يوم القيامة كل أخذهم لعَرَضٍ حرام لأنهم ورثة الدين، وحتى إذا استشعروا الذنب والندم وادعوا على الله المغفرة فكلما لاحت لهم عوارض شهوات متاع أخرى، أخذوا منها تمادياً في اكتساب الذنب.

والسؤال لهم: ألم يأخذ الله – سبحانه – عليهم تشديداً وتغليظاً ميثاق عهد الكتاب التوراة وما جاء به ألا يدّعو على الله إلا الحق وألا يزعموا غفران ذنوبهم المرجو لا للتذكر والتوبة بل فقط لوراثة الكتاب؟ ان الخلفة من ورثة بني إسرائيل قد درسوا الكتاب دراسة حفظ لكن بغير عمل واتباع للميثاق يفضي إلى خير الآخرة، التي جعل الله – سبحانه – نعيمها لمن اتقى ربه لم يأخذ عرض الأدنى ولم يقل على الله إلا الحق. والسؤال لمن ورث الكتاب ودرس كيف لا يعقل ميثاقه الواضح ويضبط شهواته التزاماً بعهده.

(وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (170)

وصلاً لذكر المفتونين بالعَرَض المغرور بوراثة الكتاب يتميز الذين يفون بميثاق الكتاب ويمسكون به استمساك أخذٍ والتزام شديدٍ بميثاقه، في مجتمع الخلف المستغرقة في عرض الأدنى، والذين صدقوا ذلك بإقامة الصلاة شعيرة صلة بالله وذكر يوثق الاعتصام الشامل بشريعته. والله – سبحانه – لا يبدّد ولا يضيع أجر المصلحين كما تبددت ادعاءات الوارثين، مهما ضاع ذكرهم واستضعفوا في الدنيا فإن أجرهم محفوظ عنده يوم القيامة.

(وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (171)

عبرة سيرة بني إسرئيل مع موسى الذكرى بقوة العهد مع الله – سبحانه وتعالى – لا خلافة الميراث والغرور ألا بأس بأخذ العرف الأدنى، بل الاستمساك بالكتاب صدقاً. ثم الختام لقصتهم مشهد جبل

الطور إذ نتقته أقدار الله وزعزعته فاهتز وتزلزل وبنو إسرائيل تحته يعقدون ميثاق الله وقد أشرف عليهم الجبل كأنه ظل يرتفع سقفاً فوقهم. وفي ساعة الزلزلة العظيمة حين ظن بنو إسرائيل أن الجبل واقع بهم، جزاء فسوقهم وعصيانهم مرة بعد مرة تنزل، فنزل عليهم القول الثقيل ووطأة التكليف أن يأخذوا ما جاء في التوراة بقوة التزام شديد، وأن يظلوا ذاكرين له لا لعصبية التوراث ولا درساً بالنظر البارد دون انفعالٍ صادق، بل ذكر لكل ما فيه عسى ترسخ به التقوى في القلوب، ويحفظ من ثقافة الشهوات بالمتاع الأدني التي تضعف العهد وتبليه، اذا تجدد برسالة خالف تصد عنها عصبية التراث السالف.

عموم المعاني

للآيات (103 – 171)

رسالة الدين تتجدد، فبعد مئات السنين توالت فيها رسالات الأنبياء في شتى قرى الجزيرة العربية،انبعثت رسالة موسى في القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح رسالة لتجديد مبادئ الإيمان والتوحيد تراث إبراهيم، قدر الله أن يتوجه الخطاب بالأصول نحو مصر حيث يقيم بنو إسرائيل وأن يتصوب إلى فرعون وملئه حكر السلطان. وكانت الاستجابة على سنة صوب الخطاب للرسالات الماضية، أن يستكبر المخاطب بفساده لتبدو في شأنه عبر العاقبة.

فقد خاطب موسى فرعون أنه رسول الحق وأنه يريد الخروج ببني إسرائيل من سلطانه الى أرض سلفهم، يريد هو أن يقوموا أمة أسوة تمثل دين الحق بين العالمين. وكانت تلك الرسالة يصدقها ويعزز وقعها موسى بعرض آية لبيئة خطاب لا تسمع حجة الآيات المنزَّلة وحيًّاً ولا تتدبر حكمتها ولا تفقه لو ذكرت بآيات الكون الطبيعي، آية لملإٍ طاغوتي لا يعرف الله رباً واحداً في الغيب يتعالى فوق فرعون، آية تقع على ثقافة يرهنها عالم المشهودات لا تتفاعل مع الغيب إلا بالسحر والتخيلات. وكان رد فرعون أن استدعى موسى أن يأتي بآيته إن كان من الصادقين، وتمثلت الآية في عصاه يلقيها أمام السلطان فإذا هي ثعبان مبين. وهذه إثارة رهبوت غيبي معجز على بلاط الرهبة الفرعونية. وكانت أيضاً في يده إذ نزعها من جيبه فإذا هي بيضاء المنظر كأنها بشرة أحد ملإ فرعون، لكنها يد رجل من الغرباء السمر المستذلين. وما كان لطاغية أن يرضى بداعية يتعالى عليه بآيات الله عرضاً ترهبه أو يتساوى بها مع جنسه. واشتبه في مقاصيد الرسالة أنها تدابير سحر من أجل تحرير قوم من أرضه وسلطانه، وحشر تعبئةً كل سحرة مصر لإبطال الآية، فحضروا صفاً للباطل يجابهون الحق ويرجون أيضاً الأجر من فرعون ويُمنِّيهم إلى سلطانه قرباً. فعرضوا سحرهم العظيم يسترهبون الجماهير المحتشدة، لكن أَمَدَّ الله الداعية موسى قوة تصدٍ بآيات الله لذلك التحدي فإذا عصاه ثعبان تلقف ما يأفكون من توهمها الناس

ثعابين. وظهر الحق غالباً ووقع على قلوب السحرة فاستسلموا صاغرين ساجدين مؤمنين برب العالمين فوق فرعون.

ويستفز الطاغي أن تؤمن فئة من رعيته دون أذنه. والرعية ظاهراً وباطناً يعدها الجبروت بيده لا سيما فيما يظنه منهم خطراً ومكراً على سلطانه. وهكذا هاج فرعون شاهراً على المؤمنين نذير القطع والصلب عقوبةً. لكن المؤمنين ثبتوا موقنين بأن المرجع إلى الله، إذ لا ينقم منهم فرعون إلا الإيمان بآياته تعالى سائلين الله أن يفرغ عليهم الصبر ويتوفاهم مسلمين. ولكن ذلك الموقف الصلب بالحق يقابله موقف الملإ البطانة للطاغوت يثيرون غضبه ويحرضونه، ألا يذر موسى وأولئك المؤمنين وسائر قومه ليسيروا في الأرض أحراراً يفسدون نظامه ويهجرون آلهته في العبادة. ويستجيب الطاغية زعماً أنه القاهر سيقتلهم ويستحيي مستبيحاً نساءهم. وكانت كلمة الداعي إلى الرسالة في ساعات البلاء لقوم مؤمنين أن يزكي الثبات في نفوسهم مستعينين بالله صابرين ويبشرهم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وعسى أن يهلك عدوهم ويستخلفهم لينظر كيف يعملون. وهكذا يقضي الله بهلاك الطغاة الفاسدين في الأرض ليبتلى من يورثها من خَلَفٍ مؤمنين هل يصلحون بالإيمان موصولين بالله أم يرتدون أو يفسدون فيها ويعلون علواً كبيراً؟

إن أمم الخطاب برسالة الدين يبتليهم الله بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون إليه تعالى. لكن قرع المصائب قد لا يجدي فيهم ولو قام فيهم داعية يذكرهم بربهم، وقد يدفعهم تقلب الابتلاءات الى التطير منه — الظاهرة الحسنة التي ترفع البأساء لا يعدونها إلا من حسن فألهم بأنفسهم والظاهرة السيئة إلا شؤماً من الذي ينذر منها ويذكر بالله. أولئك لا يؤمنون أن تقلب الابتلاءات كله قضاء وقدر من الله. هكذا ضل الظن بآل فرعون إذ ابتلوا ببأس السنين ونقص الثمرات الزراعية، فكل ما دالت السنين لهم نسبوه فألاً حسناً منهم أو عليهم تطيروا من شؤم موسى. ومن ركوب جهلهم بالله مُصَرِّفاً للأحوال قالوا لموسى يؤيسونه أنه مهما أتاهم بنذره وآياته يحاول سحرهم فما هم بمؤمنين. وتوالت عليهم الابتلاءات ومنهم الغفلات والجهالات — فاض عليهم ماء النيل دماراً وغشيتهم أسراب الجراد والقمل أكلت الزرع وأقلقت طمأنينة حياتهم ضوضاء الضفادع المتكاثرة وأعتلت عافيتهم بالدم النازف، ولكنهم ما تضرعوا ولا استكانوا بل مضوا مستكبرين مجرمين. وأحياناً يقع الرجز على أمة الخطاب فيهرعون إلى داعية الدين: أن ادع لنا ربك بما عهد عندك من اسرار تصريف المقادير، لئن فرجت عنا بذلك لنستجيبن لك إيماناً. كذلك فعل آل فرعون مع موسى بل وعدوه إن انكشفت أزمة الرجز ليرسلن معه بني اسرائيل أيضاً. فلما انكشف عنهم حال العذاب لأجله المقدر إذا هم ينكثون الوعد ويمضون يتمتعون بالسلامة غافلين. وما انفكوا يوالون بالطائفة المؤمنة المضايق والتهاديد حتى طاردوهم وهم يهاجرون شرقاً وحتى

تلاحقوا عند البحر إذ أنجى الله هنالك المؤمنين الصابرين، بينما ألقى آل فرعون هناك في أقصى الدرك بعض كلمات تصديق وتذكر بما كذبوا قبلاً من الآيات غافلين فأغرقهم الله عند ذلك الفوت أجمعين.

وميراث الأرض بكل أرجائها المباركة هي بسنن الله للمتقين ولو كانوا مستضعفين من تقاتها، إذ تتم بتلك العاقبة كلمة الله الحسنى. وكذلك علت كلمة الله الفصل تدميراً لكل ما صنع آل فرعون من قوة حشد وسلاح وما عرشوا من علوٍ وطغيان، ونجز وعد الله الصدق لموسى وقومه ونفذت سننه على فرعون وسلطانه.

إن سيرة الجماعة المؤمنة نجاة من طاغوت يلاحقها وعبوراً لعقبات تعترضها إنما هي مجاز لابتلاءات الحياة طوراً بعد طور، يداولها الله ليعلم كيف يعملون في حال العزة والاستقلال بعد الذل والاستضعاف، ولكن روح التباعة من عهدهم الماضي قد يدركهم أثرها بعد الجواز في عهد تالٍ. وذلك ما وقع لبني إسرائيل إذ تعرضوا بعد الخروج من فرعون وآله لقوم آخرين لهم أصنام يعكفون عليها عبادة، مثل ما كان التعبد في مصر حول فرعون فطلبوا من رسول التوحيد أن يصنع لهم آلهة مثلها، فأخذ عليهم تلك الجهالة التي فتنتهم بباطل صائر إلى تبار، وعجب كيف يريدون أن يبتغيهم إلهاً غير الله ذي الفضل العظيم عليهم إذ فضلهم على العالمين، وإذ أنجاهم من بلاء عظيم بعد سوء العذاب والقتل والاستباحة.

وبعد النجاة من آل فرعون ثم التطهر من الأصنام والإشراك ابتلى الله بني إسرائيل بغياب متطاول أربعين يوماً لنبيهم موسى، الراعي الحافظ ذي العزم لحياة التوحيد وبالخلافة من بعده لأخيه النبي الأفصح لساناً الأرق عزماً هارون، فقد أوصاه موسى بأن يخلفه مصلحاً ولا يتبع سبيل المفسدين. وكانت المناجاة ابتلاءً أيضاً إذ كانت نقلة وتجربة لتعزيز إيمانه بالغيب. فما وافى موسى ميقات ربه عند جبل الطور وسمع منه كلاماً إلا طمع أن يطمئن بعد السمع بالرؤية العيان، سأل ربه أن يتجلى عليه بوجهه لينظر إليه. ولكنه إنما كان بشراً في عالم المشهودات، ما كان لينفذ برؤيته إلى الوجود الغيبي ولا يقوى لمشاهده العليا وهو من الهابطين بعد آدم للحياة الدنيا. وجاوبه ربه أن لن يراه ولكن لينظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسيرى، فتجلى نور ربه فاندك جبل الصخر فخر موسى صعقاً من هول ما كان سيغشاه لوتعرض لذلك النور، فلما أفاق كانت التجربة قد أفعمت قلبه اطمئناناً فمضى يُسبّح الله المتعالي إلى العالم المشهود ويعلن توبته إليه وأنه أول المؤمنين الموقنين غيباً بالوجود الرباني. وخاطبه بعد ربه أن يكفيه اصطفاؤه له على الناس برسالاته وكلامه فليأخذ ما أوتيه وليكن من الشاكرين. وتهيأ موسى بتلك التجربة الإيمانية لتلقي أثقال التكليف من الغيب كسائر الأنبياء الدعاة، تزكيهم تجارب الاجتهاد ومغالبة الريب حتى يحتملوا رسالات الدين ويقودوا صف القائمين بها. فأعد موسى ألواحاً من الحجر ليكتب له الله عليها بقوى الوحي والإنزال هدياً متكاملاً من كل شئ من مقتضيات عهد الإيمان موعظة، ولكل شئ في

أحكام شريعة أمر الحياة تفصيلاً، وأوصاه أن يأخذ تلك التعاليم بقوة قدوة ودعوة يأمر قومه ليأخذوا بأحسن مبلغٍ من مُثُلِ الحق فيها، فإذا استجابوا مقيمين حياة التقوى والهدى ملء الواقع، سيُريهم الله كيف تمتد الأرض وتفيض بهم الى دار الفاسقين من حولهم. تلك سنة الله في المصائر، الذين يتكبرون في الأرض بغير حق سيصرفهم الله عن آياته المنزلة المفصلة، إن يروا كل آية بياناً وكتاباً لا يؤمنوا بها لأنهم مكذبون لأصول الحق، وإن يروا في حياتهم سبيل الرشد يعوجوا عنه إلى سبيل الغي إذ يسلكونه متخبطين غافلين. كذلك مصائر الأقوام بالأرض الوسطى المباركة التي توجه إليها بنو إسرائيل وكذلك العبرة لهم أنفسهم، فذات المصير ينتظرهم متى فرطوا في حق الوعظ والشرع المكتوب.

وبينما كان موسى النبي يتلقى كلام الله ورسالته وكتابه يسمع الوصايا والبشريات بانتشار الحق في الأرض كان قومه وقد غاب قائد الرسالة في فتنة ردةٍ عن التوحيد، لم يتخذوا من حليِّهِمْ التي حملوها من مصر اداة تعبير عن شكر الله الذي نَجَّاهم من جيش فرعون بقدر، عَبَّروا بها عما حملوا من مصر أيضاً من روح ذلةً وتقليد تَعَّبداً لصور العجول والأوثان المقدسة، فصنعوا بها عجلاًً كما أضلهم السامري القائد الذي لا يعرف الغيب بل يؤله المشهود عجلاً من جوفه الفارغ الريح نفوحها كالخوار، لا ينطق كلام هدىً كالذي كان عندئذ يتلقاه نبيهم الغائب من الله. ولكن باطل الضلال زهق ولم يطمس بقية الحق في نفوسهم فسقط في أيديهم وأعلنوا توبة، لئن لم يرحمهم ربهم أو يغفر لهم ليكونن من الخاسرين. ورجع موسى وقد أخذه الغضب و الأسف يلوم قومه أن بئس ما فعلوا، بل حملته الحمية إلى أن ألقى الألواح التي تحمل هدى الوحي إليهم وذهب يؤذي خليفته أخاه الذي جادل عن نفسه أن قد استضعف وراءه وترجاه ألا يعرضه للشماته أو يحسبه في صف الظالمين. فرجع موسى وتذكر داعياً ربه الأرحم أن يغفر له ولأخيه ويدخلهما في رحمته.

ومضى حكم الله على الذي اتخذوا العجل افتراءً أن سينالهم الجزاء غضباً من الله وذلة ترتد بهم في الحياة كما ارتدوا في العقيدة، ولكن الذين عملوا السيئات شركاً ثم تابوا من بعدها وآمنوا بالله واحداً لا شريك له فإن الله من بعد ذلك لغفور رحيم. هكذا البلاء في قيادة الجماعة المؤمنة أن قد يصيب القائد وتبدو ثغرة من قصور الخلافة ورِدةً، وهكذا حكم الله جزاء السيئة ورحمته بعد التوبة.

ولما سكت عن موسى الغضب رفع ألواحه بما تُبيِّنُ من المواعظ والشرائع للذين يرهبون ربهم كما ارتهب الجبل وموسى في مسرح تلقيهما منه تعالى. ولم يرد أن يغيب عن قومه أو يخليهم وراءه لئلا يضلوا عنه وأرادوا صحبته ليشاركوه تجربة القربى والمناجاة وحمل الرسالة من الله. وخرج معه سبعون فأخذتهم جميعاً هناك الرجفة فتضرع موسى يناجى ربه أن لو شاء لأهلكهم جميعاً على فعلة الشرك بالعجل وأن يعفيهم عن فعل السفهاء بينهم بعد تلك الفتنة التي — بأقداره تعالى تضل السفيه وتهدي المؤمن، وأنهم يوحدونه ولياً يسألون منه المغفرة والرحمة وهو خير الغافرين، ثم يرجونه أن طهرهم أن يكتب لهم في الدنيا حسنة

وفي الآخرة حسنة هُوادةً إليهم كما هادوا إليه. وكان جواب الله أن العذاب منه يتصوب على من يشاء ممن يستحق وأن الرحمة منه وسعت تسع كل شئ من الحسن أو المسئ التائب، فسيكتبها للذين يتقون الله ولا يفتنون ويؤتون الزكاة لا يتخذون ثروتهم أداة للهوى والشرك والذين هم بآياته يؤمنون ولا يرتدون.

أولئك هم الذين ولو بعد فترة من الدعاة — أنبياء بني إسرائيل — ولو بعد وطول في العهد بعد الرسالة لا يرتدون إلى جمود عصبية للتراث بل يتجاوبون مع حركة الداعي المجدد يتبعونه رسولاً داعياً في مسيرة الدين الممتدة، ولو كان نبياً عربياً أميّاً، فإن التبشير به موجود في كتابهم القديم وإن دعوته هي إلى معهود الهدى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل كل الطيبات من الرزق ويحرم كل الخبائث، بل يجدد فيرفع عنهم إصراً وأغلالاً من تكاليف اشتدت عليهم قديماً جزاءً لبغيهم أو ابتلاء في أحوالهم الخاصة. فالذين آمنوا بالداعية لأصول الدين المعهودة والمجدد لهداياته في الواقع الحديث، والذين وازروه وناصروه في وجه أي ابتلاء بعصبية من تلقائهم أو من جاهلية، والذين اتبعوا نور الهدى الذي تنزل معه — أولئك هم المفلحون. وعلى الداعي المجدد أن يعلن رسالته للناس جميعاً لا لقومه خاصة ليجمع الناس خطاباً برسالة من الله الذي يجمع الكون عامة يملك السموات الأرض ويجمع قرون البشر جميعاً يحيي قرنا جديداً ويميت قروناً سالفة. وعلى المخاطبين بدعوة الدين المتجددة أن يؤمنوا بالله ورسوله النبي الخاتم أو الداعية المجدد ولو كان غريباً عنهم وعن بعض قراءاتهم التقليدية، ذلك أنه يؤمن بالله وكلماته الموحاة الخالدة مواعظ وشرائع، فعلى المخاطبين أن يتبعوه لعلهم يهتدون. هذه وصايا لبيئة كتابية قديمة تتصوب عبرتها أبداً في مسيرة الدين والإسلام لله لبيئات متوالية تقليداً وتجديداً.

وقد كانت مسيرة قوم موسى المؤمنين قديماً عبرةً إذ كانت منهم أمة يهدون بالحق موعظة مسالك الحياة ويعدلون به شريعة معاملاتها. وفتح الله عليهم أن قطعهم اثنتي عشرة أسباطاً في السلالة عَدَّ أشهر العام يتعاملون أمماً في نظام وسلام، وأوحى وبارك الله ضربة موسى الحجر بعصاه فانبجست منه الماء عيوناً في البيئة الجافة كان عددها يوازي عدهم أسباطاً ليقسموها دون ازدحام أو صدام. وبارك لهم معاش الحياة فَظلَّلهم من حَرِّ الصحراء بالغمام ووافاهم في بؤسها بالغذاء طيراً ونباتاً ليأكلوا من طيبات رزق الله. وماكانوا يظلمون الله بكفر تلك النعم وإنما ظلموا أنفسهم بعاقبة خسران لذلك الكفران. هكذا كان الله يقلب بهم الابتلاءات في سبل الحياة ويبدل الضراء عند الصبر والعمل الصالح نعماء لينظر هل يذكرون ربهم مصرف أقدار الحياة فيشكرون أم ينسون فيكفرون فينقلب عليهم البلاء. هكذا صَرَّف الله أحوال ذلتهم إلى عزة واستقلال يمتحنهم كيف يصبرون فيشكرون. ذلك أن فتح عليهم بعد الهجرة في سبيل الله قرية ليسكنوها ويأكلوا منها رغداً بعد حال الصحراء، وليلتمسوا من الله بعد الفرج حط الذنوب التي اكتسبوها من فتن حال الضيق وليدخلوا أبواب تلك المدينة لا فرحاً واستكباراً بل سجوداً لله شكراً تنفتح لهم به أبواب الرحمة غفراناً لخطاياهم وبشرى مزيد خير لإحسانهم، لكنهم بَدَّلوا القول وظلموا فصرف

الله عليهم رجزاً من السماء لا غماماً وطعاماً وسلاماً. ويبتلى الله المؤمنين بتكاليف العهد والثغور التى يتولوها، كما التزم اليهود بتعطيل العمل كسباً للرزق يوم السبت تفرغاً لذكر الله، فإذا هم في قرية حاضرة على البحر يعدون في السبت إذ أصبحت الحيتان تأتيهم في ذلك اليوم الساكن شُرّعاً دون سائر الأيام، كذلك ابتلاهم الله فبدأ فسقهم عن التكاليف.

ولئن كانت بين المؤمنين أمة قائمة بالحق تهدي به فإن وقع الابتلاءات ذهب بأمة أخرى من المؤمنين إلى أن يستيئسوا ممن أفرطوا في الظلم والفسوق ويقنطوا من جدوى النصح بل يتعجبوا أن يعظ أولئك من فرطوا كذلك سائرين الى مهلكة من الله وعذاب شديد. لكن أمة الحق إنما تعتذر الى الله بأداء أمانة الوعظ عن صحبة الظالمين في المجتمع وترجو بالنصح أن يتوبوا إلى التقوى. وبذلك تتمايز المواقف والمصائر في طوائف المجتمع مجتمع المؤمنين، أما الذين يمضون فاسقين ناسين ما ذكروا به فينجي الله من هم براء ينهونهم عن السوء ويأخذهم جزاءً بعذاب بئيس. فإذا ظلوا ذاهبين في عتو وشدة عما نهوا عنه رغم الموعظة من إخوانهم ورغم عاجلة العذاب فقد مضى عليهم حكم الله أن يكونوا قِردةً خاسئين يقلدون تلقاء كل عمل في الفسق والظلم مثل سلوك ذلك الحيوان الذليل — دون كرامة الإنسان – لا يجدي فيهم تذكير ولا ردع. أولئك وأمثالهم من فسقة الأمم العتاة أبداً يحق عليهم نذير بأن يظل يبعث الله عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب فالله سريع العقاب لمن فسق وعتا وهو الغفور الرحيم لمن تاب.

هكذا تمضي الأمم التي أخرجتها الرسالات في الأرض والتاريخ، تتقطع أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وتتداول عليهم البلايا الحسنات والسيئات لعلهم يذكرون ويرجعون. وقد يقوم في الخلف منهم كما جرى لبني إسرائيل من يرث كتاب الرسالة لا يتخذونه إلا رمزاً لهويتهم في التاريخ بين الناس – لا يقيمونه دليلاً لهدى وكسبٍ صالح في سبيل الآخرة والملإ الأعلى إذا عرض لهم متاع هذه الحياة الأعجل والأدنى يأخذونه مغترين ألا بأس فالغفران لهم من الله لهويتهم، وحيثما عرض لهم مثله يأخذونه شهوة ومتاعاً ناسين أن قد أخذ عليهم بذلك الكتاب الموروث ميثاق ألا يقولوا على الله إلا الحق، أن الله لا يكفل لهم الغفران فقط لأنهم أبناء ميراث الملة، وقد درسوا ما في الكتاب من مواعظ الغيب أن الدار الآخرة خير للذين يتقون شهوات الحياة الدنيا العارضة، وتلك موعظة لهم أن يعقلوا الميثاق ويضبطوا الشهوات التزاماً بالعهد. إن المتقين العقلاء هم الذين يمسكون بذلك الكتاب معانٍ ويصدقونها أعمالاً بأن يمضوا مقيمين شعائر الصلة بالله أبداً، أولئك مصلحون في الدار الدنيا لا يضيع لهم أجرهم خيراً في الدار الآخرة. وكيف لا يمسك أهل الكتاب به صادقين وقد زلزل الله فوق سلفهم الأول جبل الطور كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم وأخذ ربهم عليهم تحت وطأة تلك الرهبة أن يأخذوا منه الكتاب متذكرين متدبرين هديه أبداً، لا يحملونه عصبية تراث وحسب، لعلهم لو اعتصموا بالحق رهبة وذكراً يبلغون التقوى مثالاً

للناس كافة وأهلاً لتلقى رسالة التجديد. هكذا تبتلي الأمم بوراثة أصول الدين خلفاً قد تنسيهم مواعظ الغيب غواشي المادية الدنيوية وتفتنهم العصبية للموروث عن اتباع هدية والاعتبار ببلاءات السلف ومجاهداته، وقد تخلد فيهم سنن الاعتصام والتقوى منفتحين لتغير الابتلاءات المتبدلة ولانبعاث الدواعي الموصولة المتجددة للهدى الى يوم القيامة.

***

ترتيل المعاني للآيات 172 – 206

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (172)

يلتفت الخطاب إلى النبى المخاطب (ص) عند خواتيم بنإسرائيل وبعد الوصايا لهم ألا يحجبهم غيب التاريخ وغشاوة العصبية الملّية دون عهد الإيمان والدين المتجدد (الآيتان 157 – 158) وألا يغنيهم ميراث الكتاب عن ميثاق الإيمان فيه بالله والدار الآخرة غيباً (الآية169) وهنا، يُذَّكِرُ النبيَّ ربه أن عهدهلى الإنسان طبعي لم يبدأ مع بني إسرائيل قديماً في عالم الشهادة بل ذلك تجديداً وتذكيراً للعهد المطبوع في فطرة الإنسان إذ أخذ الله الرب الراعي – سبحانه – من ظهور بني آدم النسلية وذريتهم طبعاً بشرياً متوارثاً أن كل نفس إنسانية ما تخرج من طبيعة والديها إلا ركب الله في فطرتها وأشهد عليها كل عوالم الخلق أن ما تمتحن في الإيمان في وجود ربها والعهد بينها وبينه إلا استجابت شاهدة بمعرفته وقبول الصلة به: بلى شهدنا ربوبية وتوحيداً بعلاقة العهد معه.

وهي شهادة ممتدة في أصول الفطرة والحياة الدنيا ابتلاءً لكل بني آدم لتذكرها وإحيائها وتصديقها قولاً وفعلاً أو بكفرها كبتاً في حياته، وهم مسئولون عن ذلك أفذاذاً يوم القيامة لئلا يقول المشركون إنَّا كنا في الدنيا غافلين لا نعلم ذلك فهو لم يكن في أنفسنا أساساً نحيا عليه، فإن الإيمان قائم في فطرة كل الإنسان ولكن القدر لم يكره عليه النفس في حياتها الدنيا، بل أطلق مشيئتها خياراً من آمن راضياً رجع إلى ربه مرضياً وفي سلام مع الطبيعة الشاهدة و الغائبة ومن كفر عمداً قام عند ربه شقياً في خصام مع عوالم الملإ الأعلى.

(أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) (173)

الفطرة مركوزة في النفوس ألا يقول بعضها يوم السؤال إنَّا كُنَّا عن الإيمان في غفلة، أو يقولوا إن الآباء كانوا قبلهم على خيار الإشراك وما هم إلا ذرية من ظهورهم ورثة ومن بعدهم تبعاً في شركهم لتراث آبائهم المشركين، فكيف يهلكهم الله بما فعل المبطلون من آباءهم، وإنما سرى إليهم بقدر الوراثة لا

بخيارهم. كلا بل كلما جدد الله – سبحانه – عهد الإيمان وميثاق الدين للناس، ففي فطرة الإنسان ما يستجيب لداعي الإيمان وفي نفسه ما يشهد بربوبية الله وعهده مهما اشتد ثقل التراث الإشراكي المحيط.

(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (174)

وكذلك يفصل الله – سبحانه – آيات الفطرة بآيات الوحي تبديداً لحجج المشركين في الأولى والآخرة، وبما يرفع الغفلة الغاشية على الفطرة ويزيح ركام التقاليد المشركة المحيطة ولعل المشركين يرجعون وعساهم يذكرون بعد ذلك التفصيل فطرة الإيمان والتوحيد الأولى ويتقون الله.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) (175)

الأمر للرسول أن يتلو الآيات المفصلة على قومه وعلى أهل الكتاب وعلى الناس جميعاً من بني آدم يجدد عليهم بأنباء الوحي عهد الفطرة، ويتلو عليهم من الأذكار مثالاً من إنسان تمثل فيه الخيار بين الهداية والغواية إذ آتاه الله آياته وحياً واعظاً يحيي عهده الفطرة وكتاباً يفصل شرائع الحياة، لكنه انسلخ عنها منبتاً عن أصول فطرته منزوعاً عن علم الهدى وخارجاً على التعاليم، فأتبعه الشيطان يدفعه على طريقه وأدركه يمده ولحق به قريناً، فكان من الغاوين الضالين عن أصول الدين الحق.

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (176)

ولو أنه لم ينسلخ عن الآيات فأتبعه الشيطان على طريقه لجعل الله – سبحانه – بمشيئته العادلة الحكيمة الآيات حبلاً يعتصم به لرفعته علو مقام في الدنيا والآخرة، ولكنه أخلد إلى الأرض خلود التصاق بمتاعها على أحط حال، يأخذ عرض الأدنى يتبعه الشيطان بعد أن اتبع هواه استغراقاً في الشهوات بغير منهج إيمان ولا ضبط تقوى.

فمثل ذلك المنسلخ عن آيات الله كمثل الكلب اللاهث على كل حال إن أتته الآيات وحملت عليه أدبر لاهثاً وراء هواه وإن لم يأته الآيات ظل شاداً على هواه لاهثاً. ذلك المثل المستبشع من الحيوان الخسيس لا ينفك عن خسة لهاثه مولياً أو مقبلاً، صورةً لا تليق بالإنسان وفطرته المؤمنة، لكنها مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله سادرين في حالهم أوتوها أولم يؤتوها، جماعات ممن أتتهم رسل الله وكتبه وآياته

فانسلخوا عنها ولم يرتفعوا بها فظلوا على حال زراية ذليلة، كمثل بني إسرائيل ومواقفهم مع آيات الله التي جاء بها نبيه موسى.

فلذا الوصية للرسول (ص) أن يتلو عليهم قصص العبر الكبيرة في أمم الإنسانية مع الآيات العظيمة في الفطرة والكون وآيات الوحي لعلهم يعلمون عقولهم تفكيراً فهي عبرة جليلة جديرة بالتدبر العميق هادية إلى الارتفاع نحو قيم الدين ومقامات الصالحين فوق المخلدين إلى الأرض.

(سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ) (177)

السوء من عالم الحيوان اللاهث أبداً حق مثلاً لمن انسلخ وكذب بآيات الله وأقداره وهي مركوزة في نفسه وفطرته الأولى ومبثوثة فيما حوله من آيات الكون، وفيما يتجدد عليه من الوحي والرسالات. لكن أولئك لم يظلموا سوى أنفسهم تلك ظلماً كبيراً إذ عدلوا عن قوامها وكذبوا بآيات الله ولم يظلموا الله — سبحانه — بل استحقوا عقابه.

(مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (178)

التكذيب بآيات الله ظلم للنفس من الإنسان وليس من الله حيث الهداية التي لا تلتمس عند غيره، فالله وحده مصدرها لكن يكتبها لمن آمن بالآيات واستحق مد هداية الله ويكون هو المهتدى، ومن يضلل الله ويترك تائها عن سبيل الحق لأنه كذب بالآيات فهو من الذين ظلموا أنفسهم الخاسرين يوم القيامة.

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (179)

من تلك الذرية التي أخذ الله منها الميثاق الأزلي في ظهور بني آدم ثم غفلت عنه، وممن ورثوا الكتاب ذرية من يعقوب لكنهم هجروا ميثاقه، ومن أولئك الذين ادعوا أنهم يشركون ذرية من بعد آبائهم المشركين، ذرأ الله — سبحانه — حشد ونشر لجهنم كثيراً من الجن في عالم الخفاء عن حواس الإنسان ولكنهم يضلون أنفسهم ويضلون الإنس ممن سيذرأون معهم حشراً يوم القيامة في عذاب جهنم. فهولاء وأولئك جعل الله — سبحانه — لهم قلوباً تدرك الآيات إيماناً وفقهاً عميقاً مستكناً في القلب المنفعل ولكنهم عطلوها عن فقه الإيمان، وجعل لهم أعيناً تنظر ولكنهم لم يبصروا البصر النافذ عبر آيات الكون إلى الله الشاهد بالإيمان، وجعل لهم آذاناً تبلغ مسامعها أصوات الوحي وكلماته ورسالاته ولكنهم لا يسمعون سمع الآذان الواعية لما في الآيات من البيان وعياً يقع منه في القلوب الإيمان.

فأولئك كالأنعام التي جعل الله لها قلوباً وعيوناً وآذاناً بوظائفها الظاهرة المحسوسة فقط، والله — سبحانه — لم يكتب عليها التكليف والأمانة كما كتب على بني آدم ذوي القدرة الواعية لاحتمال الأمانة، بل هم بذلك أشد ضلالاً من الأنعام إذ لم يجعل الله عليها هدى بالآيات ولكنها طائعة كرهاً على هدي من السنن الطبيعية بغير تكليف ولا مشيئة خيار.

فأولئك هم الغافلون هم حقاً ممن يدعون يوم القيامة أنهم ذرية غفلت بسبب ميراث الآباء، إذ غفلوا عن الآيات بعد الذكرى ولم يجعلوا قلوبهم وعيونهم وآذانهم تفقه وتبصر وتعي كسب الإنسان المكلف أزلاً بالعهد والميثاق.

(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (180)

ولله الأسماء الحسنى، تنسب إليه سبحانه وتعالى تمييزاً عن سائر الموجودات، سمات مدلولاتها واقعة عليه أسمى وأعلى وأحسن من وقوعها على المخلوقات، تُصرّف اسماؤه لغة بأبلغ الدلالة — فعيلاً وفعولاً وفَعّالاً وفعلاناً وبعضها بسائر تصريفات الأسماء والصفات، واذا أطلقت سمة وصفة لما دونه فسبحانه يتعالى على كل مسمىً بأسمائه الحسنى العظمى، وأكبر وأعظم من كل موصوف بمعنى حسن أو سمة فضلى. والخطاب للمؤمنين بعلويّته أن يدعوه لذلك بهذه الأسماء الحسنى، يطلبونه مسئولاً أعلى يذكرونه بالأسم الذي يناسب السؤال، يذكر رحيماً رحماناً ممن يرجو رحمته البالغة ولطيفاً رؤفاً ممن يسأل اللطف الرقيق وغفاراً تواباً لمن يطلب غفران الذنوب وعزيزاً جباراً لمن يلتمس النصر، وحكيماً عليماً لمن ينشد الحكمة والرشد وهكذا بكل أسمائه الحسنى. وعلى المؤمنين أن يدعوه هم ويذروا تركاً أولئك الذين يلحدون ميلاً ظالماً لأنفسهم في اسمائه إذ يجعلون لمن دونه اسماً وصفةً هي لله وحده، أو يبلغون في ذكر الشركاء بما يوازي غيباً حسن اسمه تعالى، فما يُقدِّرون الله حق قدره الأسمى، أو ينسبون لله ما ليس في صفاته الحسنى، أولئك سيجزون يوم القيامة ما كانوا يعملون إلحاداً في أسماء الله وعملا ضالاً لا يبتغي وجهه سبحانه وتعالى، بل يدعون ويقصدون ما دونه في عالم الشهادة. وما أعجل من لقائه في الآخرة.

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) (181)

في خلق الله — سبحانه — من الجنة والإنس أمة وطائفة ذات وجهة لا تنحرف في أسماء الله ضلالاً وغفلة ولا تلحد طريق الحياة ولا تعوج به ولكنها تهدي الشرعة والمنهاج بالحق وصواب الإيمان وتعدل به استقامة وعملاً يجزي الله به خير الجزاء.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) (182)

والأمة الأخرى الذين كذبوا بآيات الله لا يصدقونها إيماناً وإستقامة حياة لا يعجل الله لهم العذاب كله لكن سيتدرجهم تدنيهم أقداره من المصير وتأخذهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون ابتلاء بعد ابتلاء من أطوار أحوال النعمة والبسط وتكاليفه وتلفهم الغفلة درجة بعد درجة يستحقون المصير.

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) (183)

البيان يتوحد من الله الواحد أنه يملى للمكذبين بآياته يمهلهم ويطيل الأمد، لا يأخذهم بغتة بل يؤخرهم عبر استدراجهم بالابتلاء ينحطون دركةً بعد دركةً نحو كيد الله، إن كيده ومكره قوي متين لا يخيب ولا يرخى.

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (184)

بيان مباشر عن أمة الخطاب العرب أتراهم عجباً لم يتفكروا نظر بصيرة وتفقه وسمع وعي في رسالة صاحبهم الرسول محمد (ص) وقد صحبوه دهراً من الزمان فما به مس جنون كما رموه به من صدمة الحق وغربته؟ ليتفكروا فيما جاء به من آيات وعبر بينة لسير سالف المكذبين، بعضهم من حولهم قريب، وما ضرب لهم من الأمثال البليغة وما تلى من نذر بمصائر الآخرة والحساب. فما هو إلا نذير لهم مما حاق بأولئك في الدنيا مثالاً ومما سيحيق بالمكذبين يوم القيامة، هو مبين واضح في خطاب النذارة بذات لسانهم العربي دون لبس ولا ريب.

(أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) (185)

وصلاً لوصف أمة الخطاب تساؤل عجب عن قصر النظر ودعوة لإجالته ثاقباً بصيراً في ملكوت السموات والأرض، حيث بسط الله – سبحانه – ملكه الشامل التام، وفيما خلق الله من شيء يقع عليه بصرهم من أشياء الوجود المتكاثرة المتكاثفة من حولهم في كل مكان بغير حساب وبأحسن نظام.

كلها آيات هادية إليه سبحانه وإلى دورة المآلات والآجال شرقاً ومغرباً ومحياً ومماتاً ووجوداً من عدم ثم زوالاً – كُلاً لوقته – دلالةً أن ربما تدور عليهم الدوائر، عسى أن يكون قد اقترب أجلهم موتاً وشيكاً أو قيامة قائمة فحساب فعقاب. وماذا يريدون ليؤمنوا بعد الآيات البينات في الكون والحديث المبين في الوحي المنزل قرآناً على محمد (ص).

(مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (186)

لئن جال نظرهم في الملكوت وجاءهم حديث القرآن فضلوا، إنما يستدرجهم الله بقدرة الخيار لبني آدم فيضلهم كما يشاء، ولن يجدوا هادياً غير الله — سبحانه — الذي خَيَّر وبسط آيات الهدى في ملكوت السموات والأرض وفي بينات الرسالة الكتاب، ويذر الضالين ويدعهم فيما اختاروا من عمهٍ وحيرةٍ وضلالٍ مشركين بغير الله الخالق المالك، ومكذبين الرسول (ص) زاعمين غربة دعوته جنوناً غافلين عن أجل الموت والساعة القريب.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) (187)

النظر البعيد في الكون يهدي أن عسى أن يكون قد اقترب الآجال، ولكن بعض العرب أمة الخطاب يسألون الرسول (ص) عن موعد ساعة القيامة، أيان مرسى ميقاتها ومستقر ثقلها ووقعها؟ والرسول يُوصى أن يجيب أن علم ذلك حصراً ليس إلا لله سبحانه ربه الراعي لا يجليها يظهرها واضحة لوقت وقوعها إلا هو سبحانه، ليكونوا على حذر دائم من اقتراب الأجل موتاً أو قيامة. فهي ساعة ثقيلة بل هي أثقل ساعة على السموات ينفطرن والأرض تنشق وعلى مابينهما من عوالم الإنس والجن والمخلوقات من كل شئ، لا تأتي المخاطبين السائلين عنها إلا بغتة فجأة، إنهم في شغل عنها بهموم الدنيا ومقاصدها في عمه الكفر وطغيان الشرك. يسألون النبي (ص) سؤال إلحاف كأنه حفي مستقصٍ علم الساعة خبير بأوقاتها وأحوالها، والوصية للرسول (ص) تتأكد أن يقول لهم إنما علمها حصراً عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون، جهلاء لا ينظرون في ملكوت السموات والأرض خلقاً وتصريفاً من الله ودورات الوجود والحركة والزوال المشهودة فيه فيستعدون أن عسى أن يكون اقترب أجلهم نحو الساعة، وجهلاء لأنهم يلحفون بالسؤال على الرسول (ص) البشر منهم كأنه يعلم غيبها.

(قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (188)

الأمر للرسول (ص) ليقول لأمة الخطاب المشركين حوله ومن ورائهم لأمم الناس كافة الى يوم القيامة أنه بشر مثلهم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، لا يعرف كل الأسباب ولا يعلم كل المآلات لينال كل نفع يبتغي وليتقي كل شر يكره وإنما يملكها ويصرفها رب ملكوت السموات والأرض، الخير والشر علمه أسباباً وقضاؤه مآلا كله بمشيئتة سبحانه. ولو أن الرسول (ص) كان يعلم الغيب ليحيط بالمستقبل كله حتى الساعة لحرك الأسباب بما يشتهي ليتكثر من الخير لا يفوته منه شيء ولما أصابه، أومسه سوء إذ

عرف المسالك وثمراتها قبلاً وغيباً يتحرى كل خيرها بقدره وميقاته وينتظر ويجتنب كل شرها فيأمن أن يبغته خطر.

وما أصل رسالته إلا نذارة وبشارة للناس تنفع من القوم المؤمنين يحتاطون للساعة كأن الأجل غداً بالتقوى والصلاح ولا ينتفع الكافرون السادرون فيما يملي لهم الله من أجل الموت والساعة.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (189)

يتصل ذكر الله الخالق أول السورة منذ آدم وتجربته في الجنة و عبرتها لبنيه، واذ أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وفطرهم على الإيمان والتوحيد مع الخيار، وسرى فيهم الشرك والضلال أمام الآيات البينات، ويضطرد ذكر الله باسمائه الحسنى وأقداره وملكوته وعلمه الغيب، وفي هذه الآية الخطاب للمشركين الذين كانوا يكذبون آيات الله في خلق الملكوت ويسائِلون الرسول عن الغيب. والبيان لأولئك المخاطبين المشركين أن الله خلقهم هم — أيضاً —كسائر بني آدم، خلقاً من غير شئ ومن نفس واحدة على السُنة الأولى، حيث الذكر والأنثى من طبيعة واحدة، جعلها زوجين يسكن بعضها لبعض.

في النشأة الأولى كان الذي انفصل أولاً الذكر وبقيت الأنثى، ثم إذا توحدت الذكورةُ والأنوثة باتصال الزوجين أنبتا ولداً جديداً، وهكذا يتجدد الزواج وتتعاقب السلالة في بني آدم، وهكذا في سُنَّةِ المخاطبين المشركين. فلما تغشى الذكر الأنثى مباشرة جماعاً حملت على ذات السنة حملاً خفيفاً — نطفةً فعلقةً فمضغةً، وبالحمل مشياً وحركة لا تستشعر ثقلاً، وما يتطور الحمل إلا تذكر الزوجان بعاطفة الفطرة خلق الله بشراً جديداً ذريةً ورجاء امتداد حبيباً، فلما أثقلت الأم بالحمل عظاماً ولحماً وكبر الرجاء بالجنين، تذكر الزوجان ربهما الذي خلقهما وجعلهما زوجين ثم رِزقهما حملاً ومولوداً موعوداً ودعواه واعدين أن إذا آتاهما ولداً صالحاً تاماً في خلقه وخُلقه ليكونن من الشاكرين له سبحانه على نعماء الذرية.

(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (190)

الاضطراب بَيّنٌ في مواقف بني الإنسان بين عهد الشهادة الفطري منذ الذرية الأولى، ثم الكفر إشراكاً رغم دعوة الرسالة، وبين العهد إيماناً بالرسالات ثم الارتداد إلى الكفر. وهي سنة سيئة كان يتخذها المخاطبون المشركون: يسأل الزوجان من الله الولد الصالح تذكُراً له خالقاً وتَعُهَّداً له سبحانه بالشكر. لكن عندما تمضي السنة: عندما جاء الأجل واستوفيا من الله رجاء الولد لم يفيا بوعد الشكر بل جعلا لله شركاء فيما رزقهما وحده، تعالى الله عما يشركون ويجعلون له شريكاً في الخلق والرزق، فهو رب العالمين له ملكوت السماوات والأرض وما خلق فيهما من شئ، وله التصرف والعلم بالخير والشر للإنسان، ولكن المشركين الذين ينظرون في ملكوت الكون حولهم يشركون بالله حتى فيما يرزقهم رزقاً

مباشراً، سنة كسنة إشراكهم إذ دعا الزوجان منهم الله ولداً صالحاً فرزقا فانقلبا مشركين مُنْكِرين قدر الخلق الذي عرفاه لله بنعمة الولد التى نسباها إليه من قبل وحده.

(أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (191)

أولئك المشركون المخاطبون بالرسالة عجباً أن يشركوا بالله شركاء في خلق الكون والوجود حتى في الولد القريب، أن يشركوا بالله أصناماً تمثل عندهم الملائكة أو بشراً أو طيراً كلهم مؤلهون لا يَخلقون شيئاً بل هم يُخلقون. والأصنام مختلقه بأيدي المشركين العرب الجاهليين أنفسهم المخلوقين من الله، أو هي مستوردة من بشر مخلوقين غيرهم، والإشارة للشركاء بالضمير العاقل (هم) هزواً بمزاعم المشركين الذين اختلقوا لأصنامهم – الصور المعبودة صفات العقل والتصرف، آلهة عندهم تنفع وتضر وتتصرف في ملكوت السماوات والأرض.

(وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) (192)

الحملة متصلة من القرآن على تهافت المشركين على صور معبوداتهم التى اشركوا مع الله، فهي لا تستطيع لهم نصراً سنداً ونفعاً كما يرجون ويزعمون في دعائهم لها كل ساعة عسر وشدة، فهي مخلوقة عاجزة عن كل نصر حتى نصر نفسها إذا قام عليها من يحطم الأصنام أو يضر بها، فهي عن نصر غيرها أعجز.

(وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ) (193)

التفاتاً خطاباً للمشركين بعد التقريع الفاضح لأصنامهم التى لا تخلق ولا تنصر ولا تنتصر: كما لا يستطيعون ذلك إن دعوتموهم حاسبين أنهم آلهة تلتمسون عندها الهدى، فلن يتبعوكم مجاوبة لدعائكم فيهدونكم، بل الامر يرتد سواءً واحداً عليكم أيها المشركون إن دعوتم فلا تسمع الأصنام أم كنتم صامتين فهي لا تتجاوب معكم.

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (194)

الأصنام المخلوقة العاجزة عن الخلق والعاطلة عن الهدى إنما هي عباد مثلكم أيها المشركون، مهما تكن فهي مشمولة في ملكوت السماوات والأرض، ولئن دعوتموهم لن يتبعوا دعاءكم بالاستجابة. وأول الآية استهزاء بالمشركين أن الأصنام عباد مثلهم، وختام الآية تحدٍ لهم أن يختبروا صدقهم فى ادعائها الهة تستجيب لدعاء العابدين.

(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ) (195)

الآيات الماضية تدفع المشركين ليحرروا من معبوداتهم الزائفة إلى عبادة الله الذي له ملكوت السماوات والأرض، وبياناً للآية السابقة مباشرة أن معبوداتهم إنما هي عباد أمثالهم ودونهم، يسأل الله عجباً عن جامدات الأصنام وعجزها: ألهم أرجلٌ تمشى بها مثلكم، أم لهم أيادي كأياديكم يبطشون بها، أم لهم أعينٌ يبصرون بها، أم لهم آذان يسمعون بها، فهم عباد من دونكم أعضاء جسدهم المثال ليست حية.

والتحدي بلسان الرسول (ص) للمشركين أن يدعو شركاءهم من الأصنام وأن يصوبوا كيدهم ومؤامرتهم عليه مستعينين بها، ثم فلتنزل عليه آلهتهم العاجزة كيدها، فلا يؤخر وقع الأذى عليه. إنما يزعمون من قدرة الآلهة وبطشها وعونها لهم ليكيدوا على أعدائهم إنما هو وهم باطل.

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) (196)

ولاية الله للرسل والمؤمنين (الآية 155)، والذين أشركوا وضلوا اتخذوا الشياطين أولياء (الآيتان 27، 30) والإعلان بلسان الرسول (ص): أن الله وليّه ولا يخاف كيد الذين من دونه من أولياء المشركين الذين زعموهم آلهة، لكنها جوامد لا تضر كيداً ولا تستجيب نفعاً لمن يتولاهم. والله نزل الكتاب بالحق هادياً هداه تعالى على آلهة المشركين التي لا تهدي، والله يتولى الصالحين من عباده حفظاً ورعاية فلن يصيبهم مكروه، وسبحانه عن آلهة المشركين التي يخوفونه بها.

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) (197)

الآية تعود بنصها في السياق السابق حقيقةً (الآية 192) لتتجه خطاباً للمشركين من حيث إشراكهم بالله من لا يجدي نصراً، فالذين يدعون أولياء من دون الله، الذي يتولى النبي (ص) لا تستطيع نصرهم فهي مخلوقة لهم ولا تنصر حتى نفسها ممن قد يكسرها، فهي لا تسعى ولا تبطش ولا تبصر ولا تسمع، والله ناصر للصالحين الذين يتولاهم بالهدى للإيمان والعمل الصالح.

(وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ) (198)

والآية تعود أيضاً تؤكد السياق الحق (الآية 193) بخطاب المشركين: إن تدعوا أصنامكم التماس الهدى لأنفسكم منهم لا يجاوبونكم كما سبق، كيف وهم لا يسمعون – لأنهم كما ليس لهماآدوات نصر أو انتصار من أرجلٍ تمشي أو أيدٍ تبطش (الآية 195) – ليس لهم آذان تسمع دعاءكم الهداية، وتراهم – خطاباً للناظر الذي يراها شاخصة كأنها عاقلة تعاينه، تراهم ينظرون إليك لهم أعينُ فهم لا يبصرون الهداية إلى الصراط المستقيم.

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (199)

الوصية للرسول (ص) أن يأخذ قبولاً ورضىً العفو ماتيسر من أمر المشركين هؤلاء الذين يعبدون ما لا يعقلون ولا ينصرون، ولا يسمعون ولا يبصرون، وأن لا تذهب نفسه حسرات على إعراضهم، فهو يأخذ عفواً ما تيسر من أمرهم دون أن يفرط عليهم. والوصية للرسول (ص) الداعية أن يظل آمراً بالعرف المعروف من فطرة الإنسان – منذ أخذ العهد خياراً على ظهور سلالة البشر – أنه خير دعوةٍ له بغير جبر ولا قسر، والوصية للرسول (ص) إن أعرض الجاهلون عن المعروف أن يعرض هو عنهم، يتركهم ولو جهلوا استهزاءً بالحق الذي أنزله الله القدير السميع البصير عليه، ليعرض عنهم راضياً بالعفو آمراً بالعرف.

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (200)

وإذا زاد على النبي (ص) جهل المشركين وإعراضهم وألم به نزغٌ يسير من أثر الشيطان الخفي الذي يدفعه الى أن يركن إليهم قليلاً، أو الذي يتجاوز به العفو ويغريه بحملة الغضب أذىً وغلظة عليهم، أوصي الرسول (ص) أن يستعيذ بالله وليه إذا لاذ به عصمه إذ يتولى الصالحين، إنه سميع بالغ السمع لمن استعاذ وعليمٌ أشد العلم بحالة من يأمر بالعرف، ويعرض عما قد يثيره من الجاهلين، ويلجأ إليه تعالى من وسوسة الشيطان، وعليم بأحوال المشركين وأحوال الشياطين، وليس مثل أولياء المشركين الذين لا يسمعونهم ولا يعلمون حالهم.

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) (201)

إن المؤمنين المتقين حقاً والدعاة من حول الرسول (ص) وهو منهم، قد يمسهم طائف عارض أو لَمَّةً من شيطان الجن يحيط بهم بوسواسه، ولكنهم عندئذ يتذكرون ويستعيذون بالله، فإذا هم مبصرون على باصرة من الهدى تقية من طيوف الشياطين فيكفون عن طيوف وسواسها.

(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ) (202)

إذا كان النبي (ص) يستعيذ بوليه الله سبحانه وتعالى عن نزغ الشيطان، والمتقون يبصرون هداهم كلما غشيتهم طيوف الشياطين، فإن المشركين إخوان أوليائهم من الشياطين (الآية 30)، الذين يمدونهم في الغي ويطيلون لهم في الضلالة، ثم لا يقصرون بل يتصل المد منهم لا ينقطع عن إغوائهم، وهم لا يستعيذون من نزغ ولا يتذكرون بعد طائفة.

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (203)

ومن غيهم انتظار الرسول (ص) أن يأتيهم بآية ذات وقعٍ عليهم وقناعةٍ خارقة لسنن الطبيعة، وإذا لم يأتهم بها أرادوا أن يفتنوه لولا احتباها، ترجياً وتمنياً عليه أن يحدثها، وهم ينفعلون بظواهر الدنيا والآية المطلوبة عندهم هي من المعجزات المشهودة (سورة الأنعام 35، 37) (سورة الرعد 7، 27) (سورة طه 133) (سورة الأنبياء 5). والآيات عند الله هي آيات الكون وهي الآيات المنزلة بالوحي فالوصية للرسول (ص) أن يذكرهم قائلاً: أنه لايجتبي الآيات من نفسه فكلها لله رب العالمين، وليس له إلا اتباع الوحي المنزل كتاباً من ربه يبلغه إليهم، أن هذا الكتاب بصائر من ربكم – حججاً وهدىً للصراط المستقيم ورحمة من الله لقوم متدبرين بآيات الله في الكون والكتاب وبها مؤمنين، لا ينتظرون المعجزات شأن المشركين وإنما يبصرون البصائر.

والآية تعقد أول السورة بخاتمتها، تصل ذكرى القرآن في الآيات الثلاث الأوائل بهذه الآيات الثلاث الأواخر.

(وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (204)

وبدلاً عن انتظار الآيات والإلحاح على الرسول (ص) ليأتي لهم بالآيات القدرية المعجزة، الخطاب للمشركين أن يكونوا قوماً مؤمنين بالقرآن وإذا قرئ القران المنزل كتاباً بآياته البينة المعجزة البيان، فليستمعوا له ولا يعرضوا ويَجِدّوا في السمع إنصاتاً، فلعل ذلك يجلب لهم الرحمة فضلاً عن الهدى من حسن السماع وإنما يستجيب الذين يسمعون (الأنعام 35، 37). وكان بعض ملإ المشركين ينأون وينصرفون وينهون ويصرفون العامة عن سماع القرآن (الأنعام 26، فُصلت26).

(وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) (205)

بعد العفو والإعراض عن المشركين الوصية للرسول (ص) أن يحفظ ذكر ربه، رب العالمين الذي يتولاه ويتولى الصالحين في دخيلة نفسه، فلا يكن في صدره حرجٌ من القرآن ومحجات المشركين فيه، بل ذكرٌ لربه تضرعاً ملحاً في القرب والدعاء المتخشع له سبحانه، وخيفةً خشيةً وذلاً لله الذي له الملكوت والأمر، وذلك خاطر مضمر في النفس ليس بظاهر مجهر قولاً ودعوةً، بل أساس وباطن مضمر يصدق الجهر المسموع كقراءة القرآن، وذلك دعاء موصول بالله كل الأوقات في الحياة بالغدو – باكرات الأيام والآصال العشايا، وينبغي أبداً ألا يكون الرسول (ص) من الغافلين بل قارئاً بلسانه وذاكراً بجنانه في حفظ من نزغ الشيطان وطيفه.

(إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) (206)

الآية ختام السورة تذكر الملائكة – لا كما يتذكرها المشركون العرب بنات لله يتعبدونها دونه زلفى ويمثلونها أصناماً، ولا كما توحي عقائدهم ويغري الشيطان بني آدم أن يقاربوا الملائكة بمعصية الله (الآية 20)، بل تذكر الملائكة – خطاباً للرسول (ص) – فهي في الغيب عند ربه قريبة لا تستكبر عن عبادة الله كما يستكبر المشركون وأولياؤهم من الشياطين، بل وتسبح لله في كل وقت وتسجد له في كل وقت، حتى يقتدي بها الرسول (ص) والمؤمنون فيذكرون الله ويصلون في الغدو والآصال (سورة الأحزاب 41 – 42)، وهي التي سجدت لأبيهم آدم بأمر الله بينما شذ إبليس، وهي سند المؤمنين وعضدهم في وجه الشياطين التي تمد المشركين.

عموم المعاني للآيات 172 – 206

إن شهادة الإنسان بالله رباً في الغيب عهداً منذ الأصل، حيّ به آدم في عالم الغيب والجنة يرى ربه ويتكلم إليه، ثم طبع الإقرار بربوبية الله في فطرة ذرية آدم في الأرض، وتذكره أيضاً رسالات الوحي من الملإ الأعلى ليستجيب وليتنزل عليه العهد مفصلاً. ومشيئة بني آدم مطلقة قد تغشاهم حجب عالم الشهادة غفلة عما في الفطرة من الإيمان وكفراً بالله أو تلهمهم التعلقات فيخالفون ذلك الإيمان إشراكاً.

ولكن رسالات التذكير تبلغهم فتنذرهم بحساب الآخرة لئلا يزعموا يومئذ أنهم كانوا في الدنيا غافلين عن ربهم، أو يزعموا أن تقاليد الإشراك الموروثة من سلفهم المشرك غلب على طبيعتهم كما تغلب الأبوة على عرق الذرية فيحتجون على إهلاكهم بشرك حمله عليهم المبطلون من قبلهم. إن الإيمان بالله وحده رباً من خيار الفتنة المطبوع ومن ذكرى الرسالات وإنما ركب الباطل الذين كفروا أو أشركوا أحراراً عامدين مهما تعللوا يوم القيامة بذرائع الغفلة والوراثة. كذلك يذكر ويفصّل الله عهد آيات الفطرة بآيات الوحي لعل المخاطبين يرجعون في الدنيا عن سدورهم غفلة وشركاً في العالم المشهود.

وعلى الواعي المبلغ لآيات الله تلك أن يتلو على المخاطبين قصة إنسان أوتى الآيات تذكيراً وتعزيزاً لإيمانه بربه وتفصيلاً لعهده الذي ما انفك خياراً في أصل الفطرة، لكنه آثر من بعد أن ينسلخ عن آيات ربه وينبتّ عن أصل نفسه، فلاحقه الشيطان يدفعه في الكفر حتى كان من الغاوين. هكذا تتداول على ابن آدم الملائكة توحي إليه وتؤيده في سبيل الله كما سجدت لآدم أو الشياطين تغريه وتصده كما فعل إبليس مع آدم استكباراً وغروراً. ولو أن ذلك الإنسان الذي أوتي الآيات علماً من الغيب اختار الاستمساك بحقها لرفعه الله بذلك زلفى إليه تعالى، ولكنه –كما هبط آدم باتباع غواية من إبليس لهوىً في شجرة – أخلد إلى الأرض متبعاً هواه يلهث وراء متاع الدنيا سواء عليه إن ذُكّر بهدى الله أو ترك كالكلب إن حمل عليه يلهث أو ترك يلهث. ذلك مثل القوم الذين يكذبون بآيات الله قصة عبرة يقصها الرسول (ص) دعوة لبني إسرائيل الذين غيروا بعد آيات الله لعلهم يتفكرون، وموعظة يرويها سائر الدعاة لسائر الذين ورثوا رسالة الآيات فضيعوها. ساء مثل الذين كذبوا بآيات الله وأنفسهم كانوا يظلمون إذ اتبعوا هواها فضلوا بها، وإنما المهتدي من هداه الله وصدق وعدل لنفسه بالحق، أما الذين كذبوا فأضلهم الله تاركاً لهم خيار المشيئة فأولئك هم الخاسرون لأنفسهم المصير.

فلقد ذرأ الله لذلك المصير جهنم كثيراً من الجن والإنس، أماتوا كذلك أصل الفطرة في أنفسهم فلهم قلوب تنبض لا يفقهون بها المغازي الإيمانية لآيات الله، ولهم أعين تنظر لا يبصرون بها ولهم آذان تتلقى لايسمعون بها. أولئك كالأنعام التي لا تعي ولا ترى ولا تسمع دواعي الإيمان، بل هم أضل لأنها تسير بالطبع على سنة الله بلا تكليف وهم حملوا أمانة الوعي والخيار والرسالة والتكليف فضيعوها، أولئك هم الغافلون لا يعملون مشاعرهم للتفقه أو التبصر والاستماع لآيات الله.

والله تعالى فوق كل المخلوقات، تطلق عليه الأسماء سمات وصفات أحسن وأسمى وأعلى دلالة، منها إذا نسبت إلى مخلوق، وعلى المؤمنين أن يذكروه بتلك الأسماء الحسنى ويدعوه لحاجاتهم لأنه تبارك وتعالى فوق ما يلحد ويميل إليه غير الموحدين. والذين يلحدون إلى ما دونه بتلك الأسماء ومن ثم في الدعوة والعبادة سيجزون يوم القيامة بما كانوا يعملون لا ولي لهم ممن كانوا يدعون دونه في الدنيا. ومما خلق الله جناً وإنساً أمة توحد الله ربهم الأعلى وتؤمن بآياته الحق تهدي بها طريق الحياة وتعدله مستقيماً إليه تعالى. أما الذين كذبوا بآيات الله يصدقونها هدىً وعدل واستقامةً، فالله لا يعجل لهم العذاب في دار

البلاء بل يستدرجهم إمهالاً ويدنيهم من مصيرهم في الآخرة من حيث لا يعلمون، ستمدهم الغفلة المتطاولة الأمد دركاً بعد درك، وكذلك الابتلاء يقاربهم إلى المصير إن كيد الله متين. إن الله أمهلهم ولكنه ما أهملهم بل ذكرهم برسول من صحبهم ولو تفكروا فيه لتبينوا ما به من جن، كما رموه تحملهم حمية الضلال وإنما هو نذير. ولو نظروا تفقهاً في ملكوت السماوات والأرض وسائر ما خلق الله من شئ مشهود وأن كلاً في دورات مسير وبقاء لآجال ومواقيت وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم هم وشيكاً مسيراً إلى الموت ومصيراً إلى البعث والحساب. فبأي حديث يؤمن أهل الدنيا والمهلك بدهرها والشرك بمتعبداتها بعد ما حولهم من آيات الكون وما جاءتهم من آيات حملها اليهم الرسول النذير بالآخرة – بأي حديث يؤمنون بالغيب وتوحيد الله واليوم الآخر. إن ضلالهم قدر خيار لهم من الله الذي لايهديهم غيره، ممن يوالون شركاء له تعالى يسمونهم أسماء حسنى ويدعونهم ويلتمسون الهدى عندهم، بل الله هو الهادى فقد قدر أن يتركهم فيما اختاروا من عمهانٍ في الطغيان والإلحاد عن الحق.

إذا كان النظر في حركة مخلوقات الكون ودورتها وآجالها يهدي الى أن لحياة الانسان دورة وأجلاً في الدنيا ثم الآخرة، فإن الملتهين بالدنيا والدهر العاجل الذين لا يؤمنون بالأزل والوجود الآجل، يسألون الدعاة إلى الإيمان غيباً بالله والآخرة متى ترسو حركة الليل والنهار إلى ساعة القيامة؟ ولكن إنما علمها عند الله لا يحيط بوقتها إلا هو ولا يجليها إلا حين تنزل واقعة على الدنيا بثقلها فتضطرب 0حركة السموات والأرض وأوقاتها، وتتزلزل حياة بني الإنسان بصاعقة الموت تأتيهم بغتة بغير احتساب. ويحسب السائلون الداعي للغيب كأنه مثلهم حفّي معنيٌ بالسؤال عن وقت الساعة ليتمادى في الدنيا دار المتاع حتى ساعة منتهى الأجل المعلوم. بل المؤمنون بالغيب هم العاملون في الدنيا حذراً من الآخرة كأنهم يموتون غداً، وأكثر الناس لا يعلمون فهم ساهون سامدون في الدنيا ناسين أن لهم أجلاً، عسى أن يكون قد اقترب موتاً لبعضهم أو هلاكاً لهم كافة بقيام الساعة لأجلها المجهول.

إن الداعي إلى الله ولو كان نبياً إنما هو بشر مثل ملة الخطاب عليه أن يبلغهم أنه لا يحيط بعلم الغيب المستقبل ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فتلك أقدار تترتب بمشيئة الله، وأنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير وما مسه السوء. وإنما هو داع صابر ينذر الغافلين بالدنيا من ساعة الآخرة ليتقوا العقاب ويبشر بالساعة وأجرها المؤمنين العاملين الصالحات.

إن الله الذي يعلم غيب تصريف أحوال البشر وآجالهم ويقضي مرجعهم اليه كافة عند الساعة، هو الذي بدأ خلقهم لأجل قدره وصرف سنن أطوار خلقهم جميعاً. فليتذكر المخاطبون بدين التوحيد أن الله هو الذي خلقهم من نفس واحدة وجعل فيها زوجها ليسكن إليها. هكذا كانت الوحدة أصلاً في وجود الإنسان، ثم كانت الزوجية قدراً ذكر وأنثى، ولكن جعل الله شهوة السكون بينهما فطرة لبناء الوحدة بين الزوجين أصلاً لخلق جديد – آيات لتوحيد الله وحمده، مضت بها سنته إذ لما تغشّى الذكر الأنثى حملت حملاً خفيفاً فمرت به حتى تطور نموه وأثقل فتذكرا بالبشرى المحسوسة وبداعي الفطرة الله خالقاً

لهما وللجنين القادم، فتحركت فيهما دوافع العهد لئن آتاهما الله ولداً صالحاً ليكونن من الشاكرين. ولكن ثقافة الإشراك الغالبة على أمة الخطاب بالقرآن فتنت الأب والأم، فلما أخرج الله منهما صالحاً ما شكراه بل كفرا توحيد الله وجعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون.

وكيف يشرك أولئك بالله حتى في نعمائه بخلق وليد لهم جديد – أصناماً لا تخلق شيئاً، فكيف ينسبون إليها صفات القدرة المثلى فما هي إلا جمادات مخلوقه وتماثيل مصنوعة لا تستطيع أن تدفع عنهم فتهييء لهم نصراً وهي لا تنصر نفسها، هكذا نسوا أن الله هوالخالق الدافع وحده نصراً لإرادته ولعباده. والمشركون ينبغي أن يعلموا أنهم مهما دعوا بأعرافهم تلك الأصنام لتهديهم إلى الحياة الأقوم فما هي بآلهة هادية تتبع حيث ما دعيت إليه مستجيبة، بل هي تماثيل صماء من حجر يقوم عبادها المشركون في وجهها سواء عليهم إن يدعوها أو هم صامتون، إنما يدعون من دون الله ماهم حقاً بآلهة بل عباد معبدة لأقدار الله مثلهم، فليجربوا دعوتهم ولتستجيب الأصنام لهم إن كانوا صادقين في المزاعم بأنها آلهة تهدي وتقضي، ولئن ماثلتهم مخلوقات معبدة لله فإنها مصنوعة بقدر الله من الجماد غير الحي، ليس لها مثلهم أرجل تمشي ولا أيدٍ تبطش ولا أعين تبصر ولا آذان تسمع. إنهم يلحدون إليها وهي صور ميتة بأسماء الله الحسنى حياً قيوماً، وعلى الداعي إلى الله الحق أن يتحداهم أن يدعوا شركاءهم عليه، ثم ليكيدوه بمدد قوتهم فلا ينظروه مهلاً، وليعلن فيهم أن الله هو وليهم الذي يتعهده بالهدى وينصره حيث ما دعاه، وهو يتولى الذين يتطهرون من الشرك وهم فى سبيله مصلحون، أو لينصحهم الشركاء الذين يتولونهم من دون الله ويدعونهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، في وجه رسالة الدين الحق في سبيل الله الولي الناصر، إنهم إن يدعوا أصنامهم الى الهدى لاتسمع، ويراهم الناظر آلهة شاخصة إليه ولكن بأعين صور لا تبصر أيما وجهة بصراً حياً حقاً.

ما على الداعي إلى الله – ولو أطبق على المخاطبين حوله مذهب الإشراك – إلا أن يأخذ منهم راضياً العفو المتيسر بلا إكراه ولا حسرة عليهم، وأن يأمرهم بالمعروف وأن يعرض عن صدود أولئك الجاهلين. وإما ينزغنه من الشيطان نحوه نزغ من الغضب أو الركون فليستعذ بالله من البغي عليهم أو السكون إليهم، إن الله سميع عليم بحاله إزاءهم. إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف عارض من الشيطان ما ألهاهم وما عماهم من الحق بل تذكروا فاذا هم مبصرون. ولئن كان الدعاة التقاة يستعيذون بالله ويتذكرون فإن المشركين إخوان الشياطين يتخذونهم أولياء من دون الله يمدونهم في الغي والضلال ثم لا يقصرون بالذكرى بل تتصل الغواية.

والداعى إلى الله التالي آياته بلاغاً إذ لم يأت للجاهلين المشركين إخوان الشياطين بآية يرضونها رجوا منه أن يتقولها ويفتريها على الله وعليه أن يقوم فيهم شاهداً أنه لا يصرف الآيات بأهوائهم المفتونة بالظواهر المشهودة المعجزة ولا من نفسه. وإنما يتبع ما يوحى إليه منها في هذا الذي يتنزل آيات بصائر من ربهم وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون، وعليهم إذا قرئ عليهم ذلك القرآن أن يستمعوا له دون إعراض وينصتوا دون

لغو لعلهم يرحمون. أما الداعي فعليه تزكية نفسه بذكر الله تضرعاً ورغبة وخيفة ورهبة — ذكراً خاطراً في نفسه دون الجهر من القول لتكون دعوته الظاهرة للناس عن باطن صدق وإخلاص، وليتصل منه الذكر عبر أيام الحياة أبداً، بأوقاتها بكوراً وعشيات لئلا يكون أبداً من الغافلين. ولئن آيستم الغافلون الغواية من أوليائهم الشياطين فإن الدعاة إلى الحق إنما إيّادهُم واقتداؤهم بالملائكة الذين لا يستكبرون عن عبادة الله بل هم أبداً مسبحون ساجدون.